المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
الجامعة الإسلامية
( ٠٣٢ )
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

كتاب

# مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة

للإمام العلامة
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر
ابن قيِّم الجوزيَّة
٦٩١هـ - ٧٥١هـ

القسم ( الأول ) من بداية الكتاب إلى قوله :
" فصل إذا عُرف هذا فالفكر هو إحضارُ معرفتين في القلب"

دراسة وتحقيقاً

رسالة علمية مقدمة لنيل درجة العالمية العالية الدكتوراه

إعداد الطالب
خالد بن علي بن عبد الله العايد

إشراف الشيخ الدكتور
عبد العزيز بن صالح الطويان

العام الجامعي : ١٤٣٤هـ - ١٤٣٥ هـ

# المقدمة

وفيها :

. التمهيد .

. أسباب اختيار البحث .

. خطة البحث .

# المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبدُهُ ورسوله .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (١) .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (٢) .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٣) .

أمَّا بعد :

فقد هيَّأَ الله سبحانه وتعالى لهذا الدين رجالاً يرفعون شِعاره ، ويُعلون مَناره ، يدعُون من ضلَّ إلى الهدى ، ويُبصِّرون أهلَ العمى ، فكم من قتيلٍ لإبليس قد أحيوه ، وكم من ضالٍّ تائهٍ قد هدوه ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين (٤) ، اختصهم الله بنعمته ، وفضَّلَهم على سائرِ خليقته ؛ بأن جعلهم هداةً لهذا الدين ، ودعاةً إلى توحيد رب العالمين ، فرفعوا رايةَ العقيدةِ الإسلامية ، وقمَعُوا شِعارَ الوثنيةِ الجاهلية ، تارةً باللسان ، وأخرى بالبنان .

فما أحوجَ الأمةُ إلى تراثهم ، وإلى الاسترشاد بمؤلفاتهم ، إذ إنَّ الأمةَ اليوم لن تنهض إلا بما نهض به القومُ وعليه دَرَجُوا ، ولن تجِدَ سُلَّماً ترتقي به إلا من تلك الدَّرَجِ التي منها صعدُوا ، وعن طريقها إلى أعالي المجد وصلُوا .

---

(١) آل عمران : ١٠٢ .

(٢) النساء : ١ .

(٣) الأحزاب : ٧٠ – ٧١ .

(٤) مقتبس من كلام الإمام أحمد رحمه الله في مقدمة الرد على الجهمية (٥٥) .

ومن هذا المنطلق كان من أجلِّ الأعمال إخراجُ تراثِ السلف ، وكتبِ علماءِ الأمة والحرصِ عليها ، والعناية بها ، وتحقيقها تحقيقاً علمياً .

ولـمَّا كان من لوازمِ إكمال مرحلة درجة العالمية العالية ( الدكتوراه ) أن أتقدَّم إلى قسم : العقيدة والمذاهب المعاصرة ببحث علمي مُتمِّم لهذه المرحلة ، وقع اختياري على تحقيقِ كتاب جَليل ، وسِفْرٍ بديع ، يحتاجُ إليه طالب العلم ، كما يحتاجه عامة المسلمين ؛ لتنوعِ مباحثه ، وسهولةِ تناول مؤلفه لموضوعاته ، وهو لعَالِمٍ جَليل ، عُرف بسلامةِ المعتقد ، وجزالةِ الأسلوب ، وفيضِ العلم ، وحُسنِ السياق ، ذلكم هو :

الإمام العلامة : شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية رحمه الله

وأما كتابه فهو :

مفتاحُ دارِ السعادةِ ومَنشُور وَلاية أهلِ العلم والإرادة .

وقد قُسِّم الكتابُ على ثلاثةِ طلاب ، وكان نصيبي منه من بداية الكتاب إلى قوله : " فصل إذا عُرف هذا فالفِكرُ هو إحضارُ معرفتين في القلب " .

## أسباب اختيار الكتاب

تم اختيارُ هذا الكتابِ ، والعمل عليه تحقيقاً ودراسة لأسباب عديدة ، منها :

١. الوصول إلى نسخةٍ خطيَّةٍ مُتقدمة قوبلت على نسخةِ المؤلف ، لم يعتمدها من سبق من الباحثين ، ولم يذكر أحدٌ منهم أنه اطلع عليها تميزت باستيفائها لكامل الكتاب ، وخلوها من الحذفِ والتحريف والتصحيف ، وأجابت عن تساؤلات وإشكالات وُجدت فيما سواها من النسخ ، وهي نسخةُ مكتبة ( حسين حسني باشا ) ، وقد نسخت عام : ٧٩٢هـ .

٢. أحقية هذا الكتاب بإعادة تحقيقه تحقيقاً علمياً ؛ لتلافي أخطاء النسخِ المطبوعة أسوةً بغيره من تراث المؤلف الذي أعيدت خدمته وتحقيقه في بعضِ أقسام العقيدةِ في الجامعات .

٣. مكانة المؤلف العلمية ؛ إذ هو من أبرزِ من خَدم عقيدةَ أهل السنة والجماعة في عصره ، ورفع شعارَها ، ودافع عن لوائِها ، وذبَّ عن حياضِها ، وقارعَ الخصوم بالحجة والبرهان ، وألزمهم الكتابَ والسنةَ ، فكان قامعاً للباطل وأهلهِ ، ناصراً للحقِّ وحزبهِ ، في مؤلفاتٍ جديرة بالاهتمام والعناية من قِبلِ طلابِ العلم تحقيقاً ودراسة .

٤. تضمَّن الكتابُ كثيراً من المسائل العقدية ، التي يحتاج إليها المسلم ، وتعتبر أصولاً لكثير من المستجدات العقدية المعاصرة .

٥. مكانة الكتاب العلمية وحاجةُ المكتبة الإسلامية له ، فهو يعتبر من المراجع العلمية الأصول في بابه .

٦. الرغبة في المساهمة في نشر عقيدة أهل السنة والجماعة ، من خلال تحقيق تراثهم ومصنفاتهم .

٧. إهمال النسخِ التجارية المطبوعة للكتاب المنهجَ العلمي للتحقيق ؛ إذ فيها من الخللِ الشيء الكثير ، المتمثلُ بكثرةِ السَّقط والتصحيف ، والتحريف ، وإهمال الفروق ، واعتمادِ نُسخٍ مُتأخرة مع وجود نسخ متقدمة ، وتكرارِ نفسِ الأخطاء والملحوظات ؛ لاعتمادها على نسخةٍ واحدةٍ للكتاب ، وهي نسخة ( مطبعة دار السعادة في القاهرة ) .

## - خطة البحث :

**قسَّمتُ البحث إلى مقدمة ، وقسمين ، ثم ذيَّلته بفهارس تفصيلية ، على النحو الآتي:**

**أولاً: المقدمة وفيها:**

**١- التمهيد .**

**٢ - أسباب اختيار الكتاب.**

**٣- خطة البحث .**

## القسم الأول : قسم الدراسة وفيه فصلان :

## الفصل الأول : التعريف بالإمام ابن القيم .

**وفيه مباحث :**

**المبحث الأول : نسبه .**

**المبحث الثاني : مولده ونشأته .**

**المبحث الثالث :شيوخه وتلاميذه .**

**المبحث الرابع : عصره .**

**المبحث الخامس : مؤلفاته**

**المبحث السادس : وفاته .**

## الفصل الثاني : دراسة الكتاب :

**وفيه مباحث :**

**المبحث الأول : عنوان الكتاب ونسبته إلى المؤلف .**

**المبحث الثاني: تاريخ تأليفه .**

**المبحث الثالث: موضوعات الكتاب .**

**المبحث الرابع : منهج المؤلف في كتابه .**

**المبحث الخامس : مصادر المؤلف في كتابه .**

## القسم الثاني: قسم التحقيق

وفيه مباحث :

المبحث الأول : المنهج المتبع في التحقيق .

المبحث الثاني : النسخ المطبوعة من الكتاب.

المبحث الثالث : وصف النسخ الخطية ، ومصورات من صفحاتها .

المبحث الرابع : النص المحقق .

وأخيراً :

فإنني وكما بدأت بحمد الله سبحانه ، والثناء عليه ، والاستعانة به جلّ وعلا ، فإنني أختم هنا بحمد الله عز وجل ، والثناء عليه ، وأشكره على منَّ به عليَّ من فيض نعمه وعظيم فضله ومنحه، وما يسره لي من إكمال تحقيق هذا الكتاب ، فله الحمد أولاً وآخراً ، و ظاهراً وباطناً .

كما أتقدم بالشكر ، بعد شكر الله سبحانه وتعالى ، إلى والديَّ إذ كان لهما الفضل بعد الله جلَّ وعلا في حسن الرعاية ، وجميل العناية ، والتوجيه والإرشاد ، فرب ارحمهما كما ربياني صغيراً .

وأقدِّم الشكر بعد ذلك لهذا الصرح المبارك ( الجامعة الإسلامية ) أبقاها الله مناراً منيفاً للعلم وأهله ، وشعاراً بارزاً للحق وحزبه .

وأخصُّ بالشكر قسمَ العقيدة والمذاهب المعاصرة والقائمين عليه من المشايخ الفضلاء حيث أتاحوا لي هذا الطريق المبارك لخدمة عقيدة أهل السنة والجماعة ، فجزاهم الله خير الجزاء وأوفره .

كما أشكر فضيلة شيخي الدكتور : عبد العزيز بن صالح الطويان ، المشرفِ على هذا البحث ، إذ كان له أثره الواضح في تيسير أمور البحث ، فاستفدت كثيراً من ثاقب نظره ، وسديد رأيه ، ومعرفته وعلمه ، فأجزل الله له عظيم الأجر .

كما لا يفوتني أن أشكر كلَّ من أسهم معي في إتمام هذا البحث من المشايخ والزملاء سواء أكان برأي ، أم بإعارة كتاب ، أم بالإعانة في مقابلة المخطوطات ، أم في غير ذلك فجزى الله الجميع خيراً ، وحالي وحالهم كما قيل :

فتمامُ الحمدِ مني ناقصٌ ومديدُ الشكرِ مني مُقتضبْ
وإذا قصَّرَ عنه كلِمي فوراء اللفظِ ما يُغني الأربْ

وأخيراً فهذا جهدُ المقلِّ " فما كان فيه من حقٍّ وصوابٍ فمن الله وحده ، هو المانُّ به فإنَّ التوفيق بيده ، وما كان فيه من زلل فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله منه براء .
فيا أيها القارئُ له والناظر فيه ، هذه بضاعة صاحبها المزجاة مسوقة إليك ، وهذا فهمه وعقله معروضٌ عليك ، لك غُنمه وعلى مؤلفه غُرمه ، ولك ثمرته ، وعليه عائدته ، فإن عدم منك حمداً وشكراً ، فلا يعدم منك مغفرة وعذراً .
والله المسؤول أن يجعله لوجهه خالصاً ، وينفع به مؤلفه وقارئه وكاتبه في الدنيا والآخرة إنه سميع الدعاء ، وأهل الرجاء ، وهو حسبنا ونعم الوكيل " [١] .
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الطالب
خالد بن علي بن عبد الله العايد

---

(١) مقتبس من كلام المؤلف رحمه الله في مقدمة كتابه طريق الهجرتين (٥٩) .

# القسم الأول :

# الدراسة

## وفيها فصول :

***الفصل الأول :***

**التعريف بالإمام ابن القيم .**

***الفصل الثاني :***

**دراسة الكتاب .**

# الفصل الأول

## التعريف بالإمام ابن القيم

وفيه مباحث :

- نسبه .
- مولده ونشأته .
- شيوخه وتلاميذه .
- عصره .
- مؤلفاته .
- وفاته

# الفصل الأول

## التعريف بالإمام ابن القيم[(١)]

### نسبه :

هو : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حَرِيز بن مكي زين الدين الزُّرعي[(٢)] الدمشقي الحنبلي ، شمس الدين أبو عبد الله ، المشهور بابن قيِّم الجوزية .

واشتهر بهذا اللقب ، لأنَّ أباه كان قيماً على مدرسة الجوزية بدمشق .

### مولده ونشأته :

فقد اتفقت المصادر المترجمة للإمام على أنَّ ولادته كانت عام : **٦٩١هـ** .

في شهر صفر منه ، وكان والده الشيخ أبو بكر قيِّمَاً على المدرسة الجوزية في دمشق فقيل له : قيِّم الجوزية ، وقد سُميَّت المدرسة بهذا الاسم نسبة إلى واقفها : محيي

---

(١) مصادر ترجمة ابن القيم :

" الوافي بالوفيات ،خليل بن أيبك الصفدي (٢/٢٧٠) ، والبداية والنهاية للحافظ ابن كثير (١٤/٢٤٦) ، وذيل طبقات الحنابلة للحافظ ابن رجب (٢/٤٤٦) ، والرد الوافر لابن ناصر (١٢٤) ، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة للحافظ ابن حجر (٥/١٣٧) ، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي (١٠/٢٤٩) والمقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد لإبراهيم بن مفلح (٢/٣٨٤) ، والدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي(٢/٧٠) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٢/٩٣) ، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد (٣/١٦٨) ، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني (٢/١٤٣) ، وهدية العارفين للبغدادي (٢/١٥٨) ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (٣/١٦٤) ، وابن قيم الجوزية حياته وآثاره للدكتور بكر أبو زيد ، وابن قيم الجوزية وآراؤه النحوية لأيمن الشوَّا (٣٥) ، وابن القيم من آثاره العلمية ، للدكتور أحمد ماهر البقري (١١) ، وابن قيم الجوزية لعبد الرحمن النحلاوي (١١) ، وابن قيم الجوزية عصره ومنهجه وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف للدكتور عبد العظيم عبد السلام شرف الدين (٦٧) .

(٢) الزُّرعي : نسبة إلى بلدة " زُرع " جنوبي دمشق ، قال عنها ابن بطوطة : " بلدة زرعة وهي صغيرة من بلاد حوران " رحلة ابن بطوطة (١/١٢٨) . وكانت تسمى " زُر " أو " زُرَّه " وتسميها العامة : " زُرع " معجم البلدان للحموي (١/٤٢٠) ، و ٣/١٣٥ .

الدين يوسف بن الإمام الواعظ أبي الفرج عبد الرحمن الجوزي ، المتوفى عام : ٦٥٦ هـ .

ففي هذا البيت العلمي كانت نشأةُ صاحب الترجمة ، في مدينة دمشق التي كانت حاضرة علم ، ومحضناً للعلماء وطلاب العلم ، وقد بدأ طلبَ العلمِ على يد والدِه وعلماءِ دمشق ، فحفظ القرآن صغيراً ، ودَرَسَ الحديثَ والفقه والتفسير ، وعُرف بالذكاء وقوَّةِ الحفظ والنَّجابة منذ صغره ، ثم توسَّع في دراسةِ العلوم ، وتبحَّر فيها واجتمعت فيه صفات المجتهد منذ شبابه ، فلم يلبث أن صار إماماً يعتَرِفُ له الجهابذة بالعلم والفضل والإمامة قبل بلوغ الثلاثين من عمره .

## شيوخه :

أخذ الإمام ابن القيم رحمه الله العلم من أئمة علماء عصره ، وتتلمذ عليهم في فنون عدة وأذكر من شيوخه ما رتب على الوفاة :

والده : قيم الجوزية ، أبو بكر بن أيوب .

- أبو العباس : أحمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة ، الشهاب النابلسي، المتوفى عام : ٦٩٧هـ .
- شمس الدين محمد بن أبي الفتح البعلبكي المتوفى عام : ٧٠٩هـ .
- فاطمة بنت إبراهيم بن جوهر البطائحي ، توفيت عام : ٧١١هـ .
- سليمان بن حمزة بن أحمد المقدسي ، القاضي تقي الدين أبو الفضل المتوفى عام : ٧١٥هـ .
- صفي الدين الهندي محمد بن عبد الرحيم الأرموي ، المتوفى عام : ٧١٥هـ .
- إسماعيل بن يوسف بن مكتوم بن أحمد الدمشقي ، الملقب بصدر الدين المتوفى عام : ٧١٦هـ .
- علاء الدين علي بن مظفر الكندي الوادعي ، المتوفى عام : ٧١٦هـ .

- أبو بكر ابن المسند زين الدين أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي ، المتوفى عام : ٧١٨هـ .
- مجد الدين أبو بكر بن محمد بن قاسم التونسي ، المتوفى عام : ٧١٨هـ .
- عيسى بن عبد الرحمن الصالحي ، السمسار شرف الدين ، المتوفى عام : ٧١٩هـ .
- شمس الدين أبو نصر بن محمد بن عماد الدين الشيرازي، المتوفى عام : ٧٢٣هـ .
- شرف الدين عبد الله بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني ، أخو شيخ الإسلام ابن تيمية ، المتوفى عام : ٧٢٧هـ .
- أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، المتوفى عام : ٧٢٨هـ.
- إسماعيل مجد الدين بن محمد الفراء الحراني ، المتوفى عام : ٧٢٩هـ .
- أيوب بن نعمة النابلسي ، زين الدين الكمال، المتوفى عام : ٧٣٠هـ .
- بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة ، المتوفى عام : ٧٣٣هـ .

## تلاميذه :

منهم :

- شمس الدين ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي ، الحافظ المُحدِّث ، توفي عام : ٧٤٤ هـ .
- محمد بن أحمد بن قايماز الذهبي ، توفي عام : ٧٤٨ هـ .
- ابنه عبد الله ، توفي عام : ٧٥٦ هـ
- علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي ، توفي عام : ٧٥٦ هـ .
- محمد بن محمد التلمساني الشهير بالمقري ، توفي عام : ٧٥٩ هـ .
- خليل بن أيبك الصفدي ، توفي عام : ٧٦٤ هـ .

- ابنه إبراهيم (ت : ٧٦٧هـ) .
- إسماعيل بن عمر بن كثير ، الحافظ ، المؤرخ (ت : ٧٧٤هـ) .
- أبو الفرج ، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي ، الإمام ، الحافظ (ت : ٧٩٥هـ) .
- شمس الدين ، محمد بن عبد القادر النابلسي ، توفي عام : ٧٩٧ هـ .
- محمد بن يعقوب بن محمد محيي الدين الفيروزآبادي صاحب القاموس المحيط توفي عام : ٨١٧ هـ .

## عصره :

لقد عاش المؤلف رحمه الله في عصرٍ كثُرت فيه البدعُ والضَّلالات ، وسادت فيه كثير من المذاهب الباطلة ، واستفحلت الشبهات ، وانتشر فيه الجهل والتعصُّب والتقليد الأعمى ، ومع كلٍّ ذلك فقد أُتي المسلمون من قِبل التتار والصليبيين !

ولقد كان المؤلف رحمه الله متأثرا في بداية حياته بتلك الأفكار والمذاهب المخالفة للكتاب والسنة ، غير أنَّ الله منَّ عليه بأن جعله يرتبط بشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حتى تحرر ممَّا علق فيه من ظلمات عصره ، وضلالات بيئته التي عاش فيها ونشأ ، وقد أشار رحمه الله إلى ذلك في القصيدة النونية [1] ، فقال :

يا قَوْمُ واللهِ العظيمِ نَصِيْحَةٌ ... مِنْ مُشْفِقٍ وأخٍ لكُمْ مِعْوانِ
جَرَّبْتُ هذا كُلَّهُ ووقَعْتُ في ... تلكَ الشِّبَاكِ وكنتُ ذا طَيَرانِ
حتى أتَاحَ ليَ الإلَهُ بفَضْلِهِ ... مَنِ ليسَ تجْزِيهِ يدِي ولِسَانِي
حَبْرٌ أتى مِن أرضِ حَرَّانَ فيَا ... أهْلاً بمَن قد جَاءَ مِن حَرَّانِ
فاللهُ يَجْزيهِ الذي هو أهْلُهُ ... مِنْ جَنَّةِ المَأوى معَ الرِّضْوانِ
أخذَتْ يدَاهُ يدِي وسارَ فلَمْ ... يَرِمْ حتى أرانِي مَطْلَعَ الإيمَانِ

---

(١) كتاب القصيدة النونية (١٠٠) .

ورأيتُ أعلامَ المدينَةِ حَــولَهَا نَـزَلَ الهُدى وعَسَاكِرُ القُـرآنِ
ورأيتُ آثــاراً عظيمَاً شَأنُــها مَحْجُــوبَـةً عن زُمْـرَةِ العُمْيَانِ

والمفتش في كتبِ المؤلف رحمه الله يرى صورةَ عصرِهِ من خلال مؤلفاته وكتاباته حيث إنَّه قد ألَّف في أخطر أمور المسلمين وأجلِّهَا وأكبرها شأناً ، فقد ألَّف : الصواعق المرسلة ، واجتماع الجيوش الإسلامية ، وهداية الحيارى ، وجوابات عبَّاد الصليب وغيرها ؛ لمَّا رأى تكالبَ المبتدعين ، وسائرَ أعداءِ المسلمين على الأمة الإسلامية وانتشارَ البدعِ والشركياتِ والضَّلالات ، والطرقِ الصوفية ، والمذاهبِ والآراءِ الباطنية فكان قلمه سيفاً يدفع فيه ، ويدعو به ، وبه يُعلِّمُ .

***مؤلفاته :***

لم يترك الإمام قسماً من أقسام المكتبة الإسلامية إلا وأتحفه بمجلدات ، ولم يدع مسألة من مسائل الشريعة إلا وفصَّلها بكلمات نيرات .

فسَّر القرآن أدقَّ تفسير ، وحبَّر الحديث أحسن " التحبير " ، وسطَّر بيده العقيدة الإسلامية ، فكانت " فتوحات قدسية " و " تحفة مكية " ، ثم أنزل " الصواعق " على من خالفها لا سيما الجهمية .

فكانت كتبه " قرة عيون المحبين " و " نزهة المشتاقين " حتى أضحت لأهل العلم ك"المورد الصافي والظل الوافي " ، وأصبح الإمام بينهم ك " المنار المنيف " وما ذاك إلا من سعة العلم وكثرة التصنيف ، ولو أخذنا بذكر كتبه لطال بنا المقام ، لكنني أقتصر هنا على بعض كتبه في العقيدة :

( اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ) و (إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ) و (اقتضاء الذكر بحصول الخير ودفع الشر ) و ( التحفة المكية ) و( تحفة النازلين بجوار رب العالمين ) و ( جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام ) و ( حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ) و ( الروح ) و ( شرح الأسماء الحسنى ) و ( شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ) و ( الصواعق المرسلة على

**الجهمية والمعطلة ) و ( الفتح القدسي ) و ( قرة عيون المحبين وروضة قلوب المشتاقين ) و ( الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ) و ( الكبائر) و ( مفتاح دار السعادة ، ومنشور العلم والإرادة ) و ( المورد الصافي في الظل الوافي ) و ( مولد النبي صلى الله عليه وسلم ) و ( المهدي ) و (هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ) .**

***وفاته :***

**اتفقت المصادر على أنها في شهر رجب من عام : ٧٥١هـ .**

# الفصل الثاني

## دراسة الكتاب

## وفيه مباحث :

**المبحث الأول :**

**عنوان الكتاب ونسبته إلى المؤلف .**

**المبحث الثاني :**

**تاريخ تأليفه .**

**المبحث الثالث :**

**موضوعات الكتاب.**

**المبحث الرابع :**

**منهج المؤلف في كتابه.**

**المبحث الخامس :**

**مصادر المؤلف في كتابه.**

## المبحث الأول :

## عنوان الكتاب ونسبته إلى مؤلفه.

قد سمَّى المؤلف رحمه الله كتابه هنا ، حيث قال في ص (١٦٤) : " وسَمَّيتُهُ : مِفتاحَ دارِ السَّعادَةِ ومَنشُورَ وَلَايَةِ أهلِ العِلْمِ والإرادَةِ "

وقد جاء في النسخ المتقدمة إسقاطُ كلمة " أهل " من العنوان ، غير أنَّ النسخةَ الأصل التي اعتمدناها ، وهي نسخة مكتبة حسين حسني باشا ، قد جاءت بإثباتها [١] .

وقد جاءت تسمية المؤلف له في كتابه مدارج السالكين بإثباتها أيضاً ، قال في المدارج (٩١/١) : " وقد ذكرناها في كتابنا الكبير المسمى : مفتاح دار السعادة ومطلب أهل العلم والإرادة " .

وفيه أدرج كلمةَ " مطلب " مكان " منشور " ، والأخذُ بالاسم الوارد هنا في المفتاح أولى ، إذ إنَّ المؤلف في فاتحة كتابه سيكون دقيقاً في انتقاء كلمات اسم الكتاب .

وقد ذكره المؤلف باسم : " تحفة النازلين بجوار رب العالمين "

كما ورد في كتابه : مدارج السالكين (٢٣٠/١) ، حيث قال بعد أن تكلم عن التحسين والتقبيح : "وقد بيَّنا بطلان هذا المذهب من ستين وجهاً في كتابنا المسمى : تحفة النازلين بجوار رب العالمين ، وأشبعنا الكلام في هذه المسألة هناك ، وذكرنا جميع ما احتجَّ به أربابُ هذا المذهبِ وبيَّنا بطلانَه " .

لكن الاسم الذي ارتضاه مؤلفه للكتاب ذكره في مقدمته هنا ، وهو : مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة .

---

(١) ينظر ص (١٦٤) .

# نسبة الكتاب إلى المؤلف

لا ريب أنَّ " مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة " من مصنفات الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله ، ولم يتطرق شكٌّ في نسبته إليه .

فقد ذكره كما تقدم في مدارج السالكين في موضعين :

فإضافة إلى الموضع المذكور في الصفحة السابقة في كتابه مدارج السالكين : (١/٩١) فقد ذكرة مرة أخرى في المدارج (٣/٤٩٠) ، فقال : " وقد ذكرنا هذه المسألة مستوفاةً في كتاب : مفتاح دار السعادة وذكرنا هناك نحواً من ستين وجهاً تبطلُ قولَ من نفى القبحَ العقلي ، وزعم أنَّه ليس في الأفعال ما يقتضي حُسنها ولا قبحها "

وقد ذكره باسم " المفتاح " في كتبه التالية :

- إغاثة اللهفان (٢/١٣٨) .
- الصواعق المرسلة (٤/١٤٥٠) .
- زاد المعاد (٤/١٥٤) .
- شفاء العليل (١/١٢٨) .

وكذا أشار المؤلف رحمه الله في كتابه هنا إلى بعض كتبه الأخرى ، في مواضع :

- أشار إلى كتابه : تهذيب سنن أبي داود ؛ فقال ص (٢/٩٧) [1] : " وقد ذكرنا أدلةَ المسألةِ من الطرفين ، وترجيحَ القول الرَّاجحِ بالنَّص والأثر والمعقول في كتاب تهذيب السنن" .
- ذكر كتابَه : الفتوحات القدسية ؛ فقال في (١/٢٨٥) [2] : " وقد ذكرنا في الفتوحات القُدسية مَشاهدَ الخلقِ في مواقعةِ الذَّنبِ " .

وقد ذكر العلماء الذين كتبوا ترجمةً للمؤلف عنوانَ الكتاب ، ونسبوه إلى الإمام ابن القيم رحمه الله ، غير أنهم اختصروا الاسم ، واكتفوا بقولهم : مفتاح دار السعادة .

(١) مفتاح دار السعادة ، مطبعة دار الفكر .

(٢) المصدر السابق .

**ومن ذكر ذلك :**

- **ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة** [١] .
- **الصفدي في الوافي بالوفيات** [٢] .
- **ابن حجر في الدرر الكامنة** [٣] .
- **السيوطي في بغية الوعاة** [٤] .
- **ابن العماد في شذرات الذهب** [٥] .
- **الشوكاني في البدر الطالع** [٦] **، وغيرهم** [٧] .

---

(١) (٥/١٧٥) .

(٢) (٢/١٩٦) .

(٣) (٥/١٣٩) .

(٤) (١/٦٣) .

(٥) (٨/٢٩٠) .

(٦) (٢/١٤٤) .

(٧) ينظر : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره لبكر أبو زيد (١٩١) .

## المبحث الثاني :

# تاريخ تأليف الكتاب

يظهر والله أعلم أن هذا الكتابَ من كتبِ المؤلف التي تقدَّم تأليفها ، إذ إنَّه قد جاور رحمه الله في مكة بعد وفاةِ شيخه شيخِ الإسلام ابن تيمية ، ثم ألَّف بعض كتبه هناك كالفتوحات القدسية ، والتحفة المكية ، وتهذيب السنن ، ومفتاح دار السعادة ، وطريق الهجرتين ، ومدارج السالكين ، ، وقد أشار إليه في بعض الكتب اللاحقة له ؛ فمثلا :

أحال عليه في طريق الهجرتين (٧٣١) عند كلامه عن التفاضل بين النخيل والعنب فقال : " وقد اختُلفَ في الأنفعِ والأفضلِ منهما ؛ فرجَّحتْ طائفةٌ النَّخيلَ ، ورجَّحتْ طائفةٌ العنبَ ، وذكرت كلُّ طائفة حُجَجاً لقولها ، قد ذكرناها في غير هذا الموضع " .

وذكره في مدارج السالكين (٩١/١) و (٤٩٠/٣) .

وقد اهتديت إلى تاريخ نسخِ كتاب مدارج السالكين ، وذلك عن طريق نسخته الأصل في معهد التراث في حلب ، والنسخةُ الأصلية منها في المكتبة العثمانية في حلب برقم ( ٦٩٦ تصوف ) ، ونُقلت إلى مكتبة الأسد بدمشق ، وتحمل الأرقام : ٧١٠ و ٧١١ ورقم الفلم : ٤٨ و ٤٩ ، وتقع في جزئين .

ودوِّن تاريخُ نسخِها في آخرها ، وهو سنة : ٧٣١هـ .

وعليه يكون تأليفه للكتاب قبل هذا التاريخ . والله أعلم . .

ثمَّ إنَّ تأليفه للكتاب كان بعد وفاةِ شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، حيث إنَّه كان عند ذكره يدعو له بالرحمة والمغفرة كما في ص (٤٧٠) قال :

" ورأيتُ آخِرَ مَن تجرَّدَ للرَّد عليهم شيخَ الإسلامِ ـ قدَّسَ الله رُوحَه ـ فإنَّه أتى في كتابيه الكبيرِ والصَّغيرِ [١] بالعَجبِ العُجابِ ، وكشفَ أسرارَهم ، وهتكَ أستارَهم "

(١) الكتابان : " الرد على المنطقيين " ، و " نقض المنطق " وهما مطبوعان .

ومما يستأنسُ به أن تألفيه كان بعد موت شيخه ، ما ذكره ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة (١٧٣/٥) : " وقد امتحن وأوذي مرات ، وحبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة ، مُنفرداً عنه ، ولم يُفرج عنه إلا بعد موت الشيخ .
وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر، ففُتحَ عليه من ذلك خير كثيرٌ وحصل له جانب عظيم من الأذواقِ والمَواجيدِ الصَّحيحة ، وتسلَّطَ بسبب ذلك على الكلام في علوم أهلِ المعارف ، والدخولِ في غوامضهم ، وتصانيفُهُ مُمتلئة بذلك وحجَّ مرات كثيرة ، وجاور بمكة "
فيكون تأليفه للكتاب . والله أعلم . بين عامي (٧٢٨ هـ) ، وهو تاريخ وفاة شيخه و (٧٣١ هـ) ، وهو تاريخٌ يتَّضحُ مما سبق أن كتاب : مدارِج السالكين قد انتهى من تأليفه فيه ، أو قبله بقليل .

## المبحث الثالث :

# موضوعات الكتاب

### أولاً : موضوعات الكتاب إجمالاً :

حوى هذا الكتاب موضوعات عقدية عديدة ، إذ اشتمل على:

١. توحيد الربوبية : المتمثل بكلام المؤلف عن العلم الإلهي ، والأدلة على إثبات الصانع ، والحكمة من خلقِ الموجودات ، والرَّد على دعوى تأثيرِ الكواكب وغيرها في الحوادث الأرضية ، والرد على المنجمين ، وغير ذلك .

٢. توحيد الألوهية : ومنه بيان ما يتعلَّقُ بالسحر والشعوذة ، والتفاؤل ، والتطير والعدوى .

ووحوى شيئاً من العبادات القلبية كالخوف والرجاء وغيرها.

٣. توحيد الأسماء والصفات : ومنه كلام المؤلف عن بعض أسماء الله وصفاته ، وما يتعلق بالتحسين والتقبيح .

٤. بيان ما يتعلق بالعقل ومجالاته ، ودلالاته ، وذكر موقفِ الطوائف منه .

٥. مناقشة الفرق المخالفة لأهل السنة في كثير من المسائل من أوجه عديدة .

وقد ذكر المؤلف رحمه الله في آخر الكتاب ثمانيةَ مباحثٍ هي أصلُ موضوعاتِ الكتابِ فقال :

" وليكن هذا آخرَ الكتابِ ، وقد جُلِبَتْ إليك فيه نفائسٌ في مثلها يتنافس المتنافسون وجُلِيَتْ عليك فيه عرائسٌ إلى مثلِهنَّ بادرَ الخاطبون .

فإن شئتَ اقتبستَ منه معرفةَ العلمِ وفضله ، وشدَّةَ الحاجة إليه ، وشرفَه وشرفَ أهلِه وعظَمَ موقعِه في الدَّارين .

وإن شئتَ اقتبستَ منه معرفةَ إثباتِ الصانعِ بطُرق واضحاتٍ جليَّاتٍ تلجُ القلوب بغير استئذانٍ ، ومعرفةَ حكمته في خلقه وأمره .

وإن شئتَ اقتبستَ منه معرفةَ قدْرِ الشريعةِ ، وشدَّةَ الحاجةِ إليها ، ومعرفةَ جلالَتِها وحكمَتِها .

وإن شئتَ اقتبستَ منه معرفةَ النُّبوةِ وشدةَ الحاجة إليها ، بل وضرورةَ الوجود إليها ، وأنَّه يستحيلُ مِن أحكمِ الحاكمين أن يُخْلِيَ العالَمَ عنها .

وإن شئتَ اقتبستَ منه معرفةَ ما فطر الله عليه العقولَ من تحسينِ الحسنِ وتقبيحِ القبيح وأنَّ ذلك أمرٌ عقليٌّ فطريٌّ ، بالأدلة والبراهين التي اشتمل عليها هذا الكتاب ولا توجد في غيره .

وإن شئتَ اقتبستَ منه معرفةَ الرَّدِّ على المُنَجِّمين القائلين بالأحكام بأبلغِ طُرق الردِّ من نفس صِناعتِهم وعلمِهم ، وإلزامَهم بالإلزامات المُفحمةِ التي لا جوابَ لهم عنها ، وإبداءَ تناقضِهم في صِناعتهم ، وفضائِحهم وكذبِهم على الخلق والأمر .

وإن شئتَ اقتبستَ منه معرفةَ الطِّيَرةِ والفألِ والزَّجْرِ ، والفرقَ بين صحيحِ ذلك وباطلة ومعرفةَ مراتبِ هذه في الشريعة والقَدَر .

وإن شئت اقتبستَ منه أصولاً نافعةً جامعةً مما تكْمُل به النفس البشريةُ ، وتنالُ بها سعادتَها في معاشها ومعادها . إلى غير ذلك من الفوائد ... " [1]

### ثانياً : موضوعات القسم الأول الذي أقوم بتحقيقه :

ابتدأ المؤلف الكتاب ببيان الحكم في إخراج آدم عليه السلام من الجنة وإهباطه منها وذكر في ذلك (٢٣) حكمةً ، ثم ذكر شيئاً من أسرار تلك الحكم ، ومنها :

- الغايات المطلوبة لا تُنال إلا عبر أسبابها الموصلة إليها .
- النبوة والخُلَّة والتكليم والولاية أشرف مقامات الخلق .
- ظهورُ آثارِ أسماء الله وصفاته على العباد .
- معرفة الخالق سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله .
- خروجِ آدمَ عليه السلام من الجنة ليعود إليها أكمل إعادة .

---

(١) ينظر (٢٧٣/٢) طبعة دار الفكر .

ثم بيَّنَ أقوال الناس في الجنة التي سكنها آدم عليه السلام ، وأُخرج منها ، أهي الجنة المعهودة المعروفة ، أم هي جنة غيرها ؟

فأطال في ذكر الأدلة لكل قول ، وفصَّل في حجج كل قول ، والرد على تلك الحجج ثم عقد فصلا في العهد والميثاق الذي عهده الله سبحانه وتعالى إلى آدم عليه السلام وبنيه ، ثم تحدّث عن غايته من تأليف الكتاب ، ثم شرع في بيان فضل العلم وشرفه وحاجة الناس إليه ؛ فذكر مئةً وثلاثةً وخمسين وجهاً في ذلك .

## المبحث الرابع :

## منهج المؤلف في كتابه

يقوم منهج المؤلف رحمه الله في كتابه على أسس علمية أصيلة أبرزها ما يلي :

١- الاعتماد في الاستدلال على الكتاب والسنة .

٢- الاستدلال بأقوال الصحابة ، وتقديمهم .

٣- العناية باللغة العربية ، وبدلالاتها ، والاستنارة بها في تفسير الآيات .

٤- الاعتضاد بأقوال الشعراء ، والاستدلال بها ، عندما تدعو الحاجة إلى ذلك .

٥- العناية بالحكم على الأحاديث ، والاهتمام بعلم الجرح والتعديل .

٦- جمع الأقوال في المسألة الواحدة ، عند الكلام عليها .

٧- عرض المسائل المختلف فيها بأقوالها ، وأدلة كل قول ـ غالباً ـ مع مناقشة أدلة الأقوال المرجوحة ، وأسباب الترجيح ، والقول بموجب الحجج الصحيحة .

٨- حسن التبويب والترتيب للفصول والمباحث .

٩- إنصاف الخصوم ، وقبول ما معهم من الحق ، ومخالفتها لمجانبتها الحق .

١٠- إحسان الظن بالآخرين ، وحمل كلامهم على المحمل الحسن ، وعدم القطع بمراد الكاتب ، أو المتكلم أنَّه على المحمل السيِّء ، إلا إذا لم يحتمل الكلام غيرَه أو ظهر دليل ، واتضحت قرينة تدل على ذلك ، فعند ذلك يعاملُ بالقسط والعدل ، وينكر عليه مخالفته للحق ، وهذا يتضح جلياً من منهج الإمام ابن القيم في كتابه هذا ، وسائر كتبه .

١١– الاستطراد التناسبي ، حيث إن الإمام – رحمه الله – يتحف القارئ بفروع من المسألة الأصلية التي هو بصددها ، وقد يستطرد كثيراً في متعلقات هذه المسألة وهذا بلا شك يثري الجانب العلمي لدى القارئ .

١٢– الحرص على الفصاحة والبلاغة في عباراته ، فاللسان بديع ، والقلم سيَّال مطيع والمدادُ رقراق .

## المبحث الخامس :

## مصادر المؤلف في كتابه

لقد كانت مكتبة الإمام ابن القيم مزدانةً بكتب الأئمة ، وممتلئةً بمصنفات علماء الأمة حتى ظهرت ثمرةُ ذلك على الإمام ، في علمه ومعرفته ، وفي مصنفاته ومؤلفاته ، إذ المطَّلعُ عليها يجدها متعددةَ المشارب ، قد كثُرَ فيها العزو ، وتنوَّع فيها النقل ، فلا يكاد يبحثُ مسألةً إلا ويَهْدِي القارئَ إلى مَن تكلَّم بها من السلف ، ينقل النصوص بألفاظها ، ويحررها بحروفها ، كأنَّك تقرأَها من المصدر المُحال عليه بعينه ، وهذا بلا شكٍّ دليلُ سعةِ علمه ، وأمارةُ ثاقب فكره ، وهذا في سائر كتبه ، وعامة مصنفاته .

قال عنه ابن كثير رحمه الله : " واقتنى من الكتب ما لا يتهيأ لغيره تحصيل عُشْرِه من كُتب السلف والخلف " (١) .

وسوف أورد في هذا المبحث شيئاً من مصادره في هذا الكتاب ، سواء أكان ذاكراً للمصدر مع مؤلفه ، أم كان ذكره للمصدر فقط ، أم للمؤلف دون الإشارة إلى الكتاب وقد رتبت هذه المصادر على حروف المعجم ، من غير ذكر لكتب الصحاح والسنن ونحوها مما اشتهر :

- إحياء علوم الدين للغزالي ص (٤٣٦) .
- أقسام اللذات للرازي ص (٤٣٧) .
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ص (٤٩٤) .

---

(١) البداية والنهاية (١٤/٢٧٠) .

- تفسير الفخر الرازي " مفاتيح الغيب " ص (٩٥ ، ٩٦) .
- تفسير الراغب الأصبهاني ص (٩٥) .
- تفسير أبي الحسن الرُّماني ص (٩٤) .
- تفسير ابن عطية " المحرر الوجيز " ص (٩٣ ، ٥٠٧) .
- تفسير المَاوَرْدي " النكت والعيون " ص (٩٦) .
- تفسير أبي مسلم الأصبهاني " جامع التأويل " ص (٩٣) .
- تفسير المنذر بن سعيد البَلُّوطي ص (٩٣) .
- تفسير موطأ الإمام مالك لأبي مزين الطليطلي ص (١١٩ و ٤١٧) .
- تفسير الواحدي " الوسيط " ص (٣٨٩) .
- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص (٢١٠ ، ٥٠٦ ، ٥٢٢ ، ٥٢٨ ، ٥٣٠) .
- الجليس والأنيس للمعافى بن زكريا الجريري ص (٤٩٦) .
- حلية الأولياء لأبي نعيم ص (٣٨٢) .
- الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية ص (٤٧٠) .
- الصحاح للجوهري ص (٣٩٠ ، ٤٦٢) .
- العلل لعبد الله بن أحمد بن حنبل ص (٥٠٦) .
- العلل للخلال ص (٤٨٧) .
- العلم للخلال ص (٣٦٩) .
- عيون الأخبار لابن قتيبة ص (٥٠٢) .
- الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ص (٩٣) .
- الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ص (٣٦٢) .
- الفوائد لتمام الرازي ص (٤٤٩) .
- الكشاف للزمخشري ص (٥٠٩) .
- المجالسة للدِّيْنَوري ص (٢٠٩) .

- **مسائل إسحاق بن منصور ص (٥٣٠) .**
- **مسائل حرب ص (٣٧٨ ، ٥٢٣) .**
- **مصنف لأبي سعيد السِّيْرَافِيِّ في الرد على المنطقيين (٤٦٩) .**
- **مصنف للمنذر بن سعيد البَلُّوطي في الجنة التي سكنها آدم ص (٩٣).**
- **المعارف لابن قتيبة ص (٩١) .**
- **معاني القرآن للفراء ص (٣٤٤ ، ٣٨٧ ، ٤٨٧) .**
- **معاني القرآن للزجاج ص (١٢٠ ، ٢٧٩ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٥٠٩) .**
- **معجم شيوخ أبي نعيم الأصفهاني ص (٣٧٣) .**

# القسم الثاني :

# قسم التحقيق

وفيه مباحث :

الأول : المنهج المتبع في التحقيق .

الثاني : النسخ المطبوعة من الكتاب

الثالث : وصف النسخ الخطية ، ومصورات من صفحاتها .

الرابع : النص المحقق .

## المبحث الأول :

# المنهج المتبع في التحقيق

**أولاً : ضبط النص**

- **اعتمدت نسخةَ مكتبةِ حسين حسني باشا ، التي تحمل الرقم ( ٥٨٠ ) وجعلتها الأصل ، وأثبتُ النص منها .**
- **كتبتُ النصَّ على طريقةِ الإملاء الحديثة ، مُراعياً علاماتِ الترقيم .**
- **قارنتُ النصَّ بالنُسختين الأخريين ، وجعلتُ الفروقَ في الحاشية ، فما سقط من النسخ الأخرى أشرتُ إليه في الحاشية .**

**وإن كان هناك زيادة في النسخ الأخرى ، أو اختلاف في اللفظ بيَّنته في الحاشية .**

**ولم أثبت في الفروق بين النسخ الاختلافاتِ اليسيرةَ ؛ كاختلافها في تنزيه الرب بعد لفظ الجلالة ، و الصلاة والسلام على الرسل ، والترضي عن الصحابة ، والترحم على السلف.**

- **رمزت للنسخ الخطية بالتالي :**

**[ الأصل ] نسخة مكتبة حسين حسني باشا .**

**[ د ] نسخة مكتبة داماد إبراهيم باشا.**

**[ ص ] نسخة مكتبة آيا صوفيا .**

**ثانياً : الآيات القرآنية :**

- **كتبتُ الآيات القرآنية بالرسم العثماني الموافق لمصحف المدينة النبوية.**
- **عزوتُ الآيات إلى سورها ، وذكرت رقم الآية .**
- **ذكرتُ اسم السورة ورقم الآية في الحاشية .**

## ثالثاً : الأحاديث والآثار :

- خرَّجتُ الأحاديثَ والآثار ؛ فإن كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيت بذلك ، وإن كان في غيرهما خرَّجتُه من مصادره ، وحكمت عليه من خلال كلامِ الأئمة المتقدمين منهم والمتأخرين .
- رتبتُ المصادر على الترتيب المشهور بالنسبة للكتب السبعة ، وما زاد عليها أو كان في غيرها دونها ، رتَّبتُه حسب تاريخِ الوفاة ، وهذا أيضاً في سائر الإحالات إلا إذا كان النقل من كتاب بعينه فإنَّني أقدِّمُه ، ثم أُرتِّبُ ما بعده على ما سبق .

## رابعاً : توثيق النقول :

- وثَّقتُ النُّقولَ بنسبتها إلى قائليها ، مع ذكر مصادرها حسب الإمكان .
- عزوتُ الأشعار إلى قائليها في مصادرها ، كالدواوين الشعرية ، وأضفت إليها كتب : الأدب ، واللغة ، والمعاجم ، وغيرها .

## خامساً : التراجم :

- عرَّفتُ بالأعلام الذين ذكرهم المؤلف ـ رحمه الله ـ في أوَّلِ موضع ورَدَ ذكر العَلَمِ فيه ، وعرفتُ برجال الأسانيد التي ذكرها المؤلف بما يميزهم .

## سادساً : الغريبُ والمصطلحات والفِرقُ والمللُ والأماكنُ :

- فسَّرتُ الغريبَ من كتب المعاجم .
- عرَّفتُ بالفِرق والملل التي ذكرها المؤلف ، وذلك من كتب الفرق والملل المشهورة .
- ذكرتُ تعريفاً مختصراً للبلدان والأماكن غيرِ المشهورةِ التي ذكرها المؤلف .

**سابعاً : الأمور الفنية:**

- **بيَّنتُ موضعَ بدايةِ كلِّ ورقةٍ من ورقات النسخة ( الأصل ) في النصِّ المحقق ووضعت لها هذه العلامة ( / ) ، وأشرتُ إلى رقمها في جانب الصفحة .**
- **قمتُ بالتعليق على بعض المسائل التي تحتاج إلى ذلك ، وربما أرشدتُ القارئَ إلى بعض المصادر التي فيها مزيد بيان لتلك المسألة .**
- **نقلتُ شيئاً من كلام المؤلف في كتبه الأخرى حول بعض المسائل الواردة هنا في كتابه ، وجعلتها في الحاشية ، وربما أشرتُ إلى مواضعَ فيها مزيد بيان في كتبه الأخرى .**
- **وضعت عناوين جانبية في هوامش الصفحات .**

**ثامناً : المصادر والمراجع :**

- **بيَّنتُ كلَّ مصدرٍ أو مرجعٍ نقلتُ منه ، أو أحلتُ إليه ، وذلك تسهيلاً للقارئ إن أراد الرجوع إلى تلك المراجع .**
- **لم أذكر بيانات النشر للكتاب عند أوَّلِ عزوٍ إليه ؛ مُكتفياً بوجودِ ذلك مُفصَّلاً في ثبتِ المصادرِ والمراجعِ ، وذلك فراراً من إثقال الحواشي .**

- **جعلتُ مُلحقاً خاصاً بالفهارس مُشتملاً على ما يلي :**
  **١. فهرس الآيات .**
  **٢. فهرس الأحاديث .**
  **٣. فهرس الآثار .**
  **٤. فهرس الفرق والأديان .**
  **٥. فهرس الكلمات الغريبة .**
  **٦. فهرس الأشعار.**
  **٧. فهرس الأمثال .**

٨. فهرس البلدان .

٩. فهرس الأعلام .

١٠. ثبت المصادر والمراجع .

١١. فهرس الموضوعات .

## المبحث الثاني :

# النسخ المطبوعة من الكتاب

طُبِعَ الكتابُ أولَ مرةٍ عام : ١٩٠٥ م بمطبعة السَّعادة في القاهرة ، ثم طُبِعَ أخرى في الهند عام : ١٩١١م .

وبعد ذلك توالت طبعات الكتاب ، وهذه الطبعات كلُّها مليئة بالسقطِ والزيادة والتصحيفِ والتحريفِ ، إذ إنَّ النسخَ التي اعتمد عليها مخرجو الكتاب في الطبعات القديمة كانت نُسخاً متأخرة جداً ؛ كنسخة المكتبة القادرية بالموصل التي كتبت عام ١٣٠٣ هـ .

واعتمدوا نُسخاً ناقصةً يربو نقْصَها على نصفِ الكتاب ، بل وربما جاوز في بعض النسخ ثُلُثيه !

وأشهر الطبعات للكتاب طبعتان هما :

الطبعة الأولى : طبعة بتحقيق : علي بن حسن بن عبد الحميد الحلبي :

ولا يخفى على كلِّ من له معرفة في أصول التحقيق أن هذه الطبعةَ مخالفةٌ لقواعد التحقيق وضوابطه من وجوه :

الأول: إهماله النسخَ المتقدمة مع وجودها ، واعتمادُه على النسخ المتأخرة !

الثاني: اعتماده على نسخٍ خطيةٍ ناقصة !

الثالث: كثرةُ التصحيفِ والتحريفِ !

الرابع: التَّصرفُ في النصِّ بالزيادة والنقص!

ولذلك جاءت هذه الطبعة كثيرةَ السقط والزيادة ، مليئةً بالتحريف والتصحيف ، ولم تسلم من الخلل في ضبطِ الكلماتِ بالشَّكل .

**الطبعة الثانية : طبعة بتحقيق : عبد الرحمن بن حسن قائد**

وهي آخرُ طبعات الكتاب صدوراً ، وهي الأخرى لم تسلم من الملحوظات ، والتي منها :

الأولى : أن المحقق مع نقده النسخةَ السابقة إلا أنه وقع في كثير من الأخطاء التي وقع فيها سابقه ، بدليل التشابه بينهما في الأخطاء ؛ مما يقود إلى القول : إنَّه جعل النسخة المطبوعةَ هي الأصل !

الثانية : مخالفةُ المحقق المنهجَ العلمي في التحقيق ، حيث لم يعتمد نسخةً معينة ؛ بل لفَّقَ النصَّ وجعلَهُ خليطاً من النسخ التي اعتمدها ، مع إشارته لوجود نسخة مُقَابلةٍ على نسخةٍ بخطِ المؤلف !

وهي نسخة مكتبة داماد إبراهيم باشا ، وهذا إجحاف بحقِّ الكتاب المُحققِ ؛ إذ كيف يتركُ ما كتبه مؤلفُ الكتاب ويعدلُ عنه ، وهو قد صُحِّحَ ، وقُوبل ؟

الثالثة : وجود التصحيف والتحريف في هذه الطبعة ، فقد قارنت أوَّلَ مئةٍ وعشرين صفحة من هذه النسخة التي عدد صفحاتها أكثر من (١٦٠٠) صفحة بالنسخ الخطية فبلغ السقط والزيادة [٥٠] موضعاً ، وكان عدد التصحيف والتحريف [٦١] موضعاً .

## المبحث الثالث :

## وصف النسخ الخطية ، ومصورات منها

للكتاب عدة نسخ أبرزها ، وأنفسُها ، وأكملُها ، وأعتقُها ما يلي :

النسخة الأولى : نسخة مكتبة حسين حسني باشا في تركيا .

وهي تحمل الرقم : ٥٨٠ ، وقد كان نسخها عام : ٧٩٢ هـ ، وناسخها هو : محمد بن موسى بن إبراهيم بن عبد الرحيم الحرَّاني ، وعدد أوراقها ٢٩٠ ورقة ، في كلِّ صفحة منها ٢٥ سطراً .

وخطها جميل ، وهي مضبوطة بالشَّكل ، وقد لوَّن كاتبُها الفصولَ والعناوين باللون الأحمر ، وقد قُوبلت على نسخةٍ بخطِّ المؤلف رحمه الله تعالى ، وعليها سَمَاعاتٌ وقِراءاتٌ ؛ فهي مقروءةٌ على الشيخِ مِغوش المغربي ، وكذا قُرأت على الشيخ أبي الحسن البكري .

وهي من أفضلِ النسخ وأوفاها ؛ لذا اعتمدتها أصلاً للكتاب .

النسخة الثانية : نسخة مكتبة داماد إبراهيم باشا في المكتبة السليمانية في تركيا .

وتحمل الرقم : ٤١٣ ، نَسخُها كان في عام : ٧٦٦هـ ، وناسخها هو الإمام الحافظ : إسماعيل بن محمد بن بَرْدِس بن نصر بن رسْلَان البعلي[1] ، وعدد أوراقها : ٣٢٨ ، في كل صفحة منها : ٢٣ سطرا .

وقد ضبطها ابن بَرْدِس بالشَّكلِ ، وصحَّحها بالأصلِ المنقولِ منه ، وقد حسَّنَ تبويبها ولوَّنَ العناوين بالمِدادِ الأحمر ، فكانت نسخة بديعةً نفيسةً .

---

(١) الإمام الحافظ المحدث ، تاج الدين أبو عبد الله محمد ابن الحافظ عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن محمد بن بَرْدِس ابن نصر بن برْدِس بن رسلان البعلبكي الحنبلي. نظم النهاية لابن الأثير، في كتاب سماه : الكفاية في اختصار النهاية ، وله نظم : وفيات تذكرة الحفاظ للذهبي ، ونظم : القناعة فيمن روى له الجماعة ، وغيرها توفي عام : ٧٨٤ هـ . الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر (٤٥٠/١) ، والمقصد الأرشد لابن مفلح ٣٧٩/٢ .

**النسخة الثالثة : نسخة مكتبة آيا صوفيا في تركيا**

**وتحمل الرقم : ٢٠٨٥، نسخت عام : ٧٨٦هـ ، ولم يُذكر ناسخها ، وعدد أوراقها :٣٢٧ ورقة ، في كل صفحة منها : ٢٣ سطرا .**

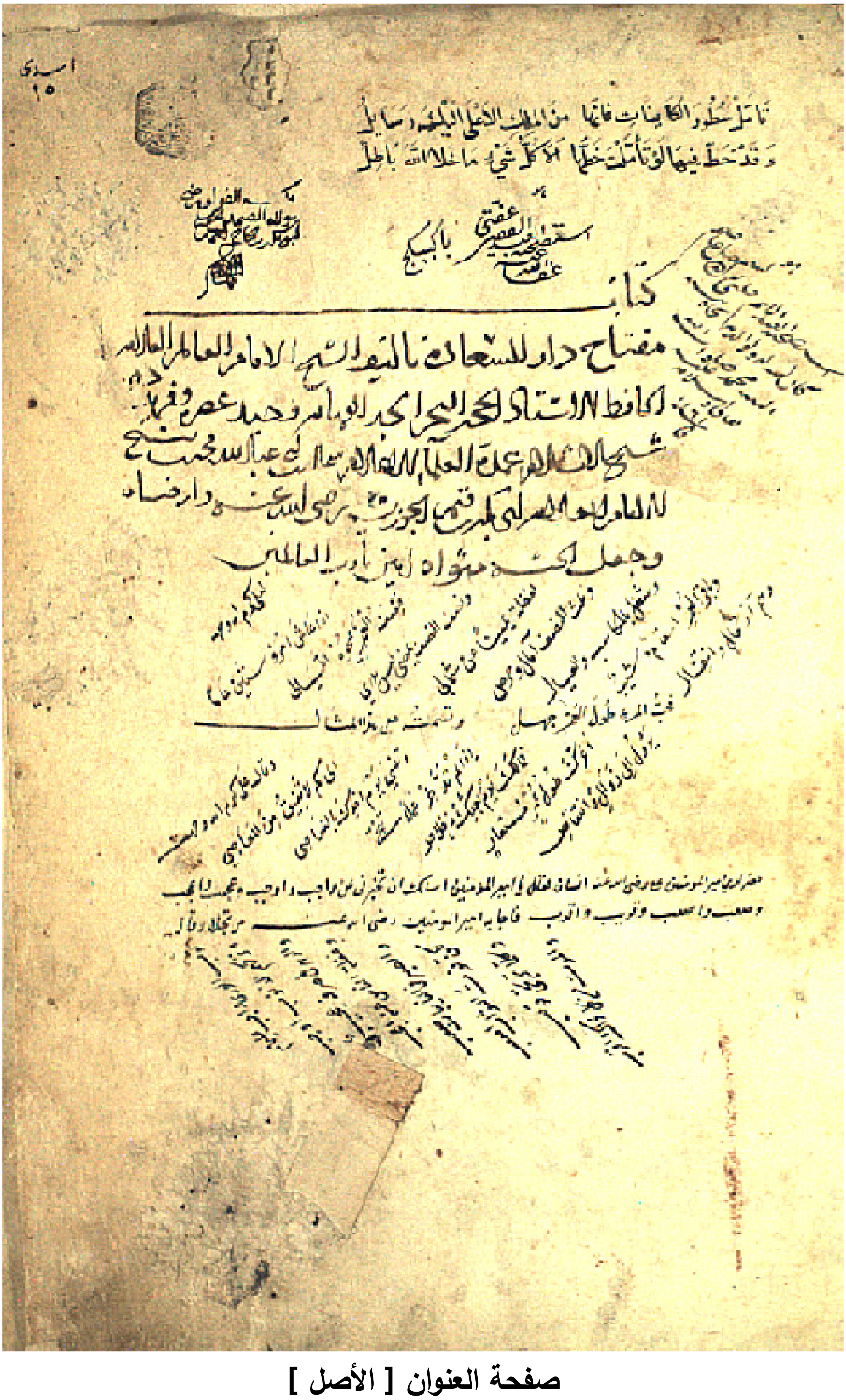
**وما سوى هذه الثلاث إما أن تكون منقولة من سابقاتها ، أو وجدت ناقصة ، وبعضها ساقط لكثرة التحريف ، وبعضها نسخ متأخراً !**

# صور

# من

# النسخ الخطية

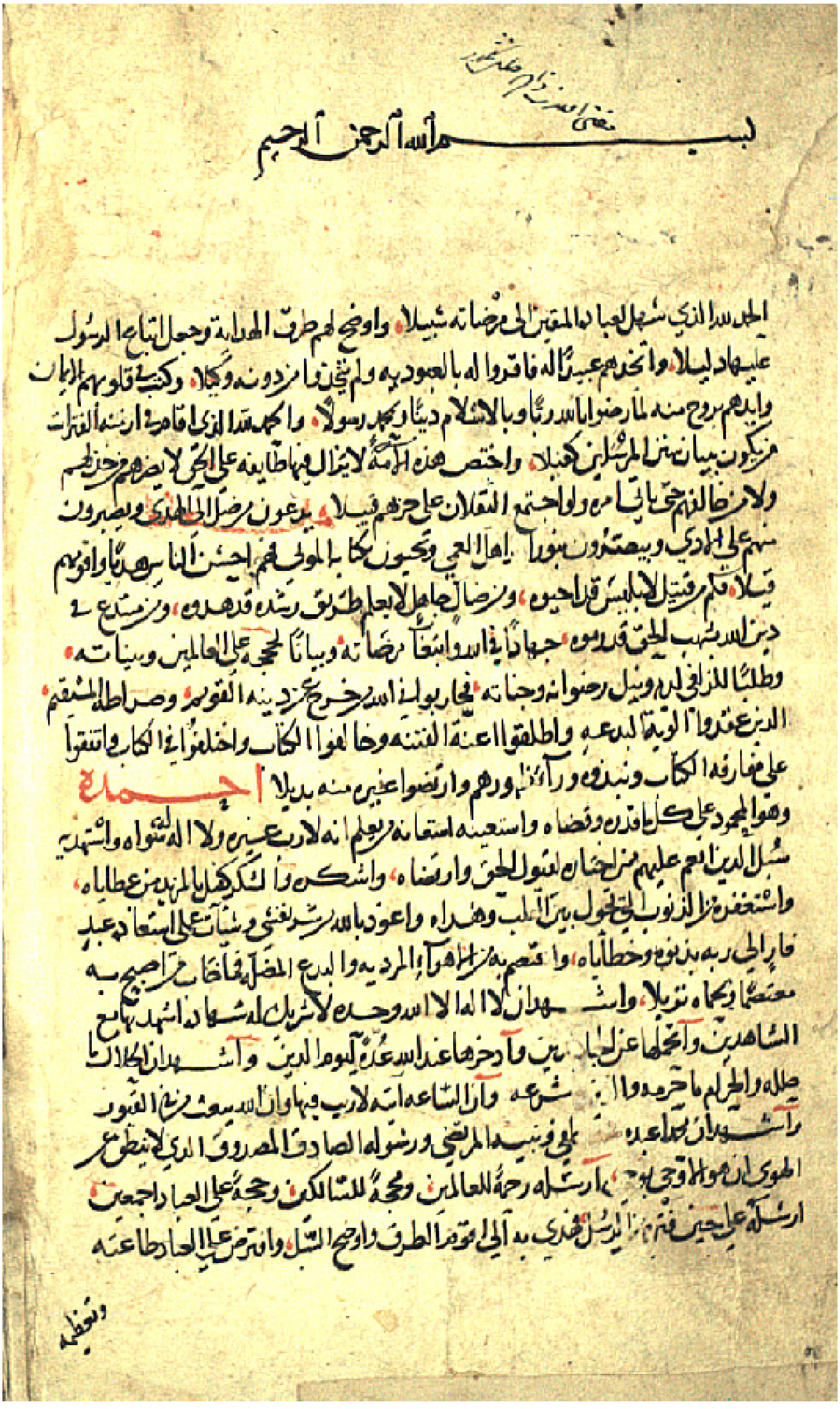
# للكتاب



تأمل سطور الكائنات فإنها من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها ألا كل شيء ما خلا الله باطل

كتاب
مفتاح دار السعادة تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة
الحافظ الأستاذ الحجة البحر الجد الهمام وحيد عصره وفريد دهره
شيخ الإسلام علم الأعلام العالم العامل أبي عبد الله محمد بن الشيخ
الصالح العامل أبي بكر ابن قيم الجوزية رضي الله عنه وأرضاه
وجعل الجنة مثواه آمين يا رب العالمين

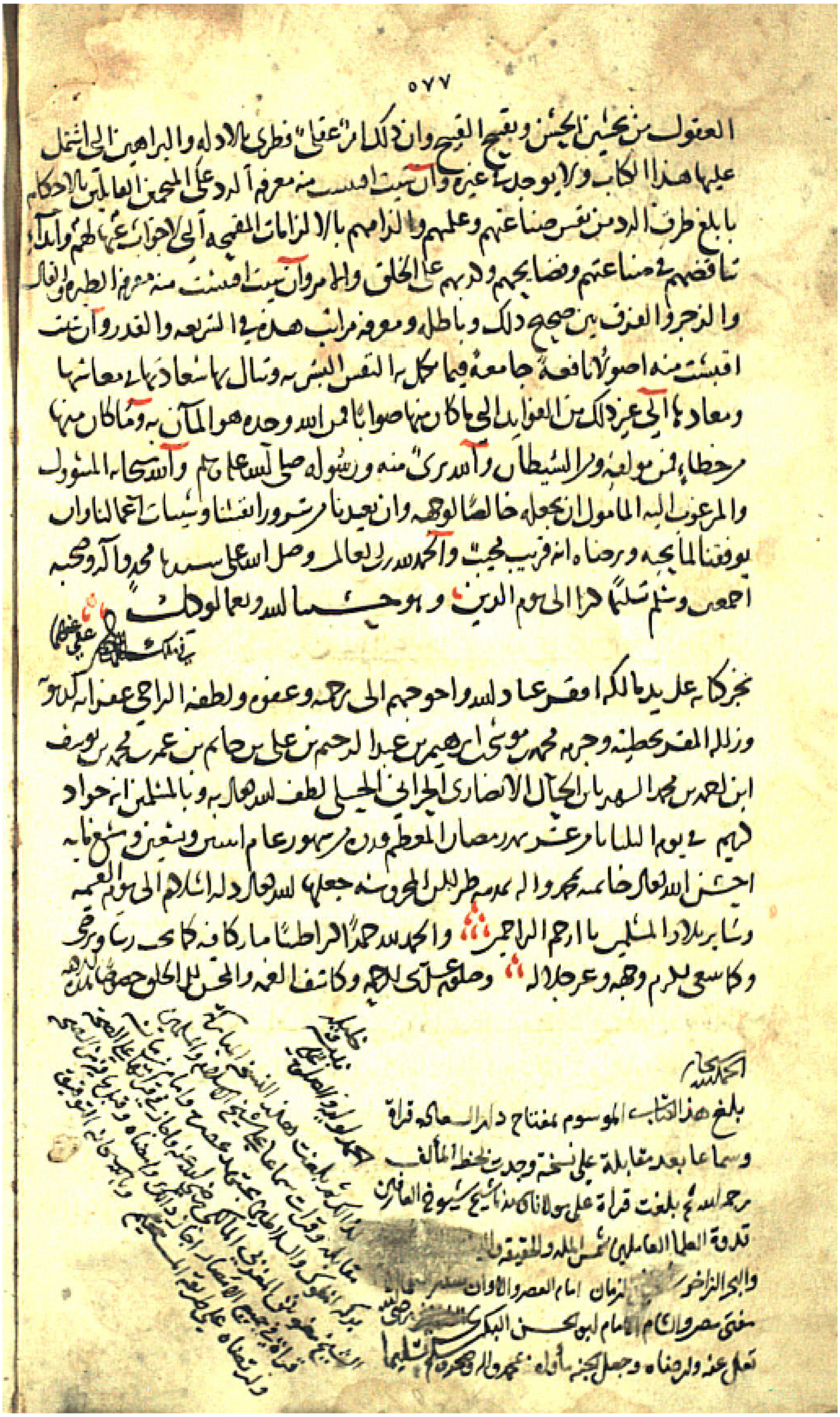
صفحة العنوان [ الأصل ]



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي سهل لعباده المتقين إلى مرضاته سبيلا، وأوضح لهم طرق الهداية وجعل اتباع الرسول عليها دليلا، واتخذهم عبيدا له فأقروا له بالعبودية ولم يتخذوا من دونه وكيلا، وكتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه لما رضوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا. والحمد لله الذي أقام في أزمنة الفترات من يكون ببيان سنن المرسلين كفيلا، واختص هذه الأمة بأنه لا تزال فيها طائفة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمره ولو اجتمع الثقلان على حربهم قبيلا، يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى ويبصرون بنور الله أهل العمى ويحيون بكتابه الموتى فهم أحسن الناس هديا وأقومهم قيلا، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، ومن ضال جاهل لا يعلم طريق رشده قد هدوه، ومن مبتدع في دين الله بشهب الحق قد رموه، جهادا في الله وابتغاء مرضاته وبيانا لحججه على العالمين وبيناته، وطلبا للزلفى لديه ونيل رضوانه وجناته، فحاربوا في الله من خرج عن دينه القويم وصراطه المستقيم، الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا أعنة الفتنة وخالفوا الكتاب واختلفوا في الكتاب واتفقوا على مفارقة الكتاب ونبذوه وراء ظهورهم وارتضوا غيره منه بديلا. أحمده وهو المحمود على كل ما قدره وقضاه، واستعينه استعانة من يعلم أنه لا رب غيره ولا إله سواه، وأستهديه سبل الذين أنعم عليهم من خلقه لقبول الحق وارتضاه، وأشكره والشكر كفيل بالمزيد من عطاياه، وأستغفره من الذنوب التي تحول بين القلب وهداه، وأعوذ بالله من شرور نفسي وسيئات عملي استعاذة عبد فار إلى ربه بذنوبه وخطاياه، وأعتصم به من الأهواء المردية والبدع المضلة فما خاب من أصبح معتصما بحماه نزيلا. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أشهد بها مع الشاهدين وأتحملها عن الجاحدين وأدخرها عند الله عدة ليوم الدين، وأشهد أن الحلال ما حلله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور، وأشهد أن محمدا عبده ونبيه المرتضى ورسوله الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، أرسله رحمة للعالمين ومحجة للسالكين وحجة على العباد أجمعين، أرسله على حين فترة من الرسل فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل وافترض على العباد طاعته

الصفحة الأولى من النسخة [ الأصل ]



٥٧٧

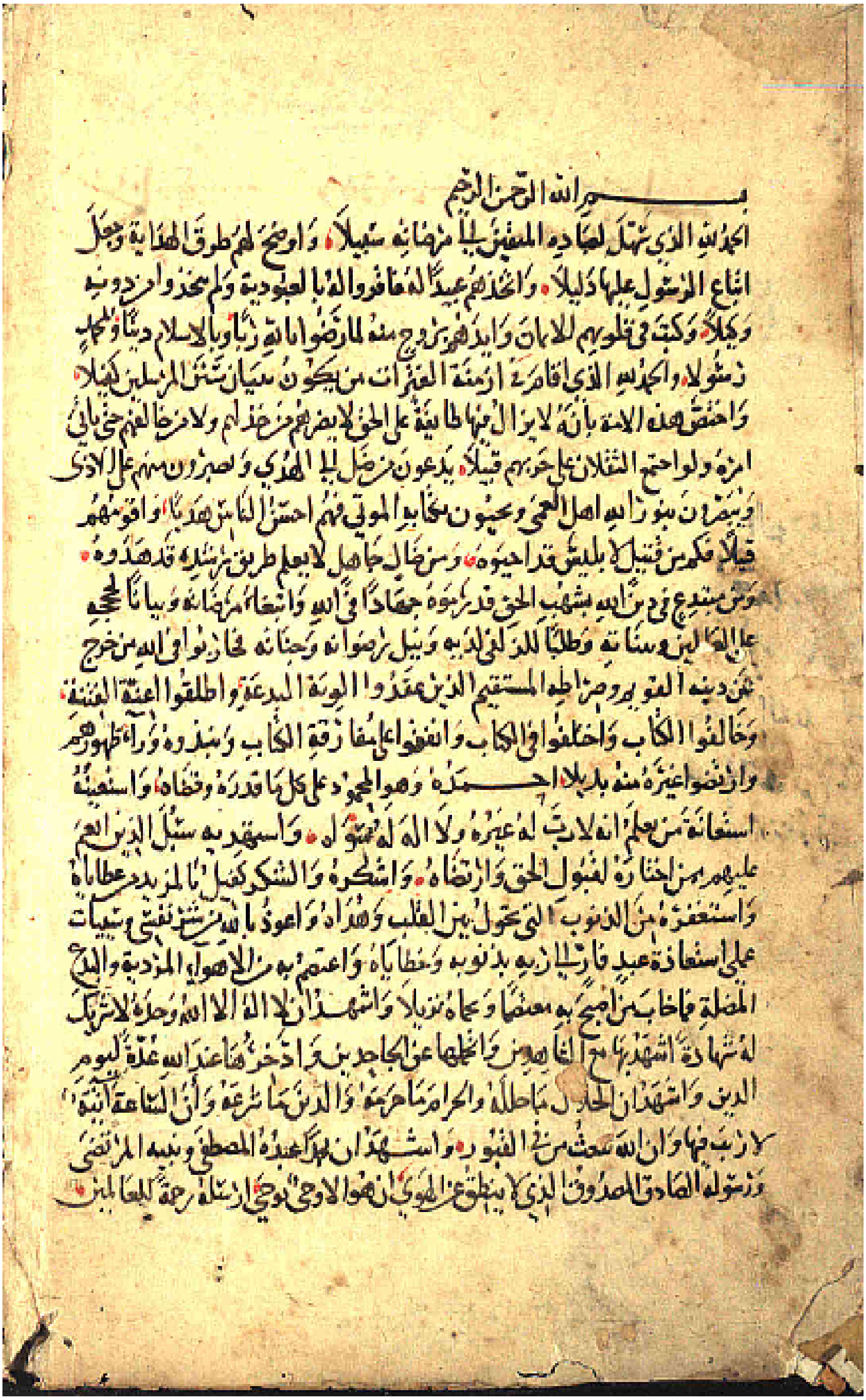
العقول بين تحسين الحسن وتقبيح القبيح وان لكل ما يعقل ... وطرق الادلة والبراهين التي اشتمل
عليها هذا الكتاب ولا يوجد في غيره وان تبيت افضت منه معرفة الرد على المتحيزين الغالين بالاحكام
بابلغ طرق الرد من نقص صناعتهم وعلمهم والزامهم بالالزامات المفحمة التي لا جواب عنها لهم وابداء
تناقضهم في صناعتهم وفضايحهم وكذبهم على الخلق والامر وان تبيت افضت منه معرفة الطيرة والفال
والزجر والفرق بين صحيح ذلك وباطله ومعرفة مراتب هذه في الشريعة والقدر وان تبيت
اقتبست منه اصولا نافعة جامعة فيما تكمل به النفس البشرية وتنال بها سعادتها في معاشها
ومعادها الى غير ذلك من الفوائد التي ما كان منها صوابا فمن الله وحده هو المان به وما كان منها
من خطاء فمني ومن الشيطان والله برئ منه ورسوله صلى الله عليه وسلم والله سبحانه المسؤول
والمرغوب اليه المامول ان يجعله خالصا لوجهه وان يعيذنا من شرور انفسنا وسيئات اعمالنا وان
يوفقنا لما يحبه ويرضاه انه قريب مجيب والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه
اجمعين وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين وهو حسبنا الله ونعم الوكيل

الصفحة الأخيرة من النسخة [ الأصل ]

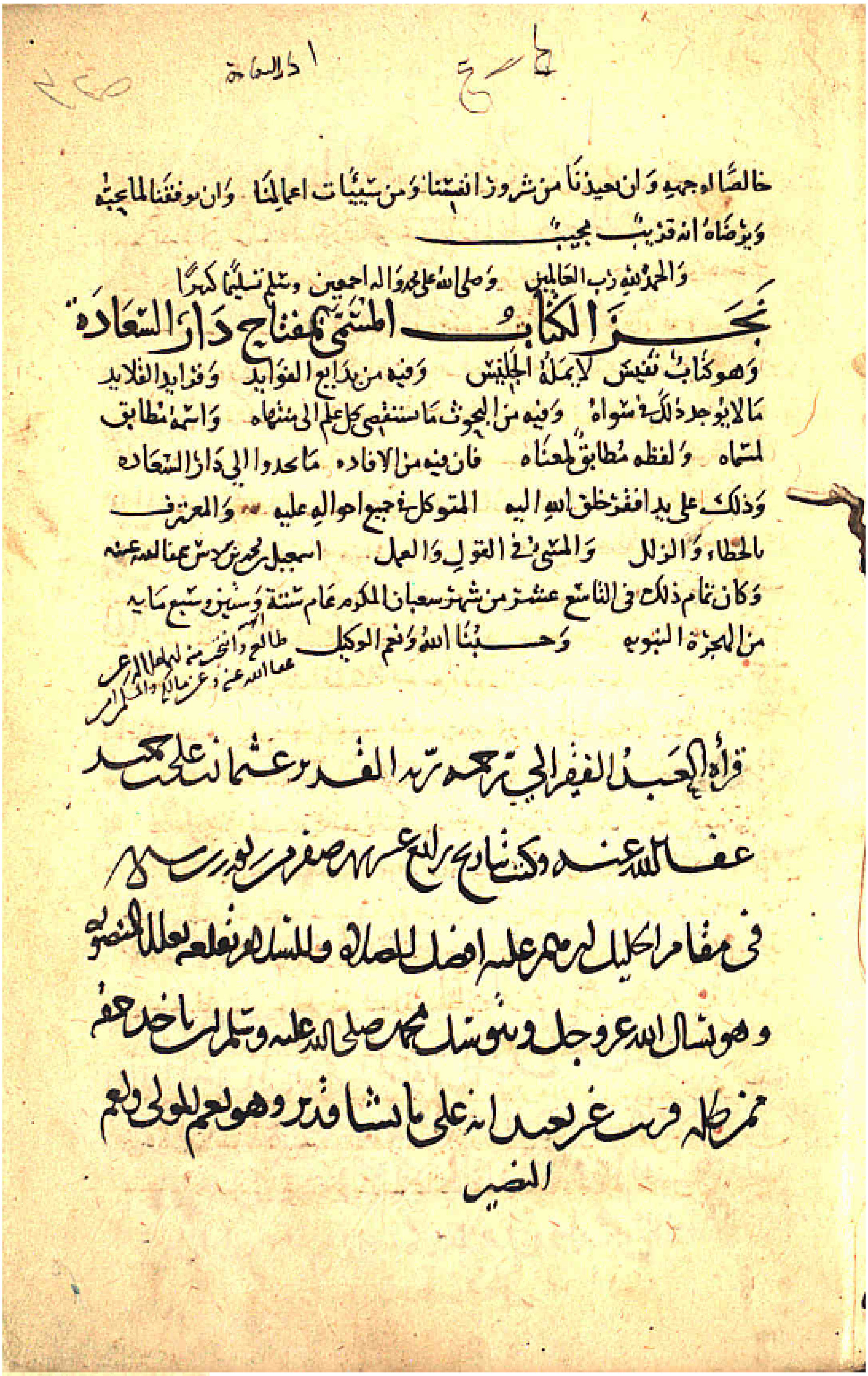


كتاب مفتاح دار السعادة
تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة شيخ الإسلام
بركة الأنام قدوة السلف طراز الخلف أحد أركان التفسير
البحر الغزير أبي عبد الله محمد بن الشيخ الصالح الزاهد أبي بكر بن أيوب
المعروف بابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى ورضي عنه وجعل الجنة مثواه آمين

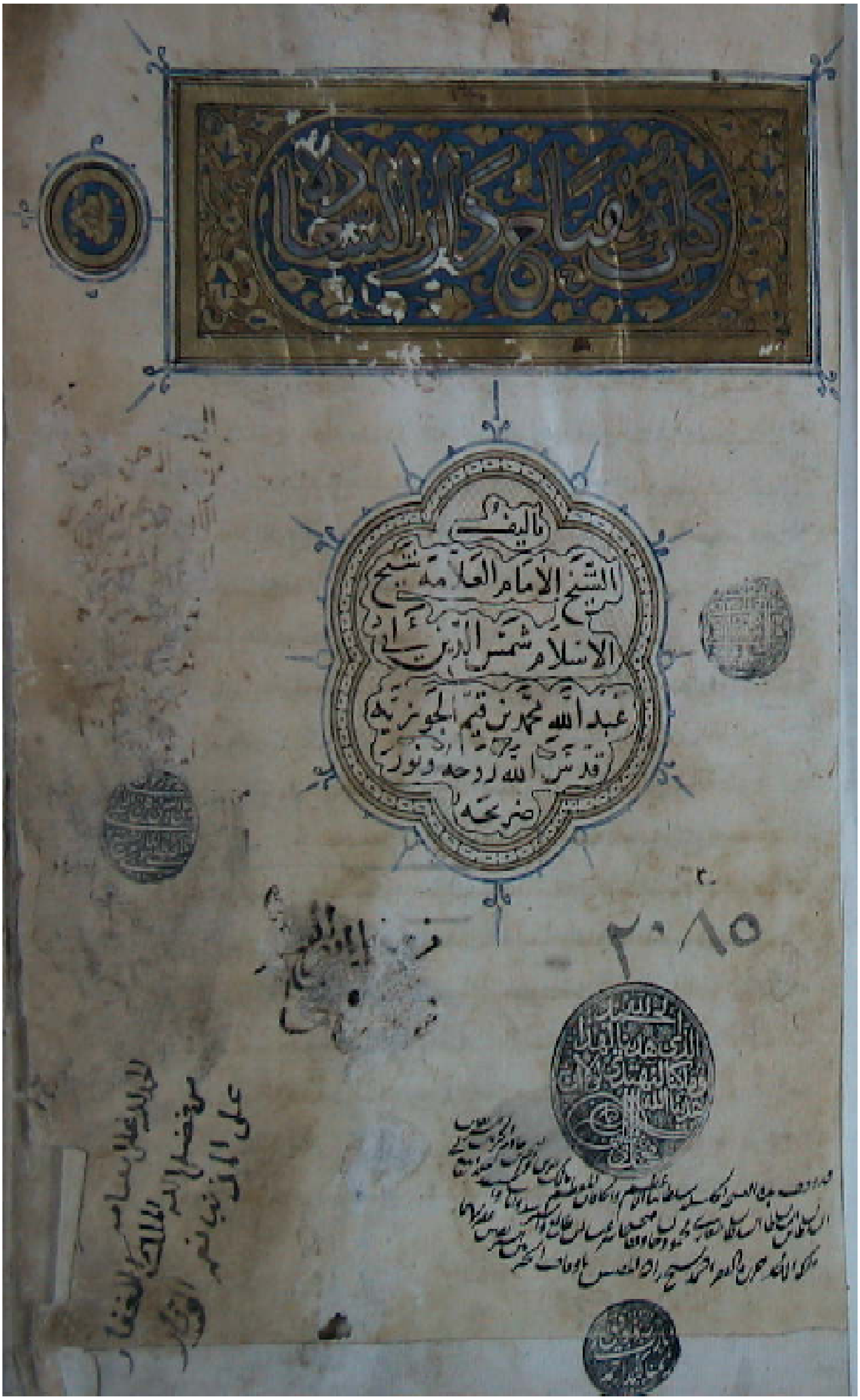
صفحة العنوان من نسخة [ د ]


بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي سهل لعباده المتقين إلى مرضاته سبيلا، وأوضح لهم طرق الهداية وجعل
اتباع الرسول عليها دليلا، واتخذهم عبيدا له فأقروا له بالعبودية ولم يتخذوا من دونه
وكيلا، وكتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه لما رضوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد
رسولا، والحمد لله الذي أقام في أزمنة الفترات من يكون ببيان سنن المرسلين كفيلا
واختص هذه الأمة بأنه لا يزال فيها طائفة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي
أمره ولو اجتمع الثقلان على حربهم قبيلا، يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى
ويبصرون بنور الله أهل العمى ويحيون بكتابه الموتى فهم أحسن الناس هديا وأقومهم
قيلا، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، ومن ضال جاهل لا يعلم طريق رشده قد هدوه
ومن مبتدع في دين الله بشهب الحق قد رموه جهادا في الله وابتغاء مرضاته وبيانا لحججه
على العالمين وبيناته وطلبا للزلفى لديه ونيل رضوانه وجنانه فحاربوا في الله من خرج
عن دينه القويم وصراطه المستقيم الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا أعنة الفتنة
وخالفوا الكتاب واختلفوا في الكتاب واتفقوا على مفارقة الكتاب ونبذوه وراء ظهورهم
وارتضوا غيره منه بدلا، أحمده وهو المحمود على كل ما قدره وقضاه، وأستعينه
استعانة من يعلم أنه لا رب له غيره ولا إله له سواه، وأستهديه سبل الذين أنعم
عليهم بمن اختاره لقبول الحق وارتضاه، وأشكره والشكر كفيل بالمزيد من عطاياه
وأستغفره من الذنوب التي تحول بين القلب وهداه، وأعوذ بالله من شر نفسي وسيئات
عملي استعاذة عبد فار إلى ربه بذنوبه وخطاياه، وأعتصم به من الأهواء المردية والبدع
المضلة فما خاب من أصبح به معتصما وعاذ به نزيلا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له شهادة أشهد بها مع الشاهدين وأتحملها عن الجاحدين وأدخرها عند الله عدة ليوم
الدين، وأشهد أن الحلال ما حلله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه وأن الساعة آتية
لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور، وأشهد أن محمدا عبده المصطفى ونبيه المرتضى
ورسوله الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى أرسله رحمة للعالمين

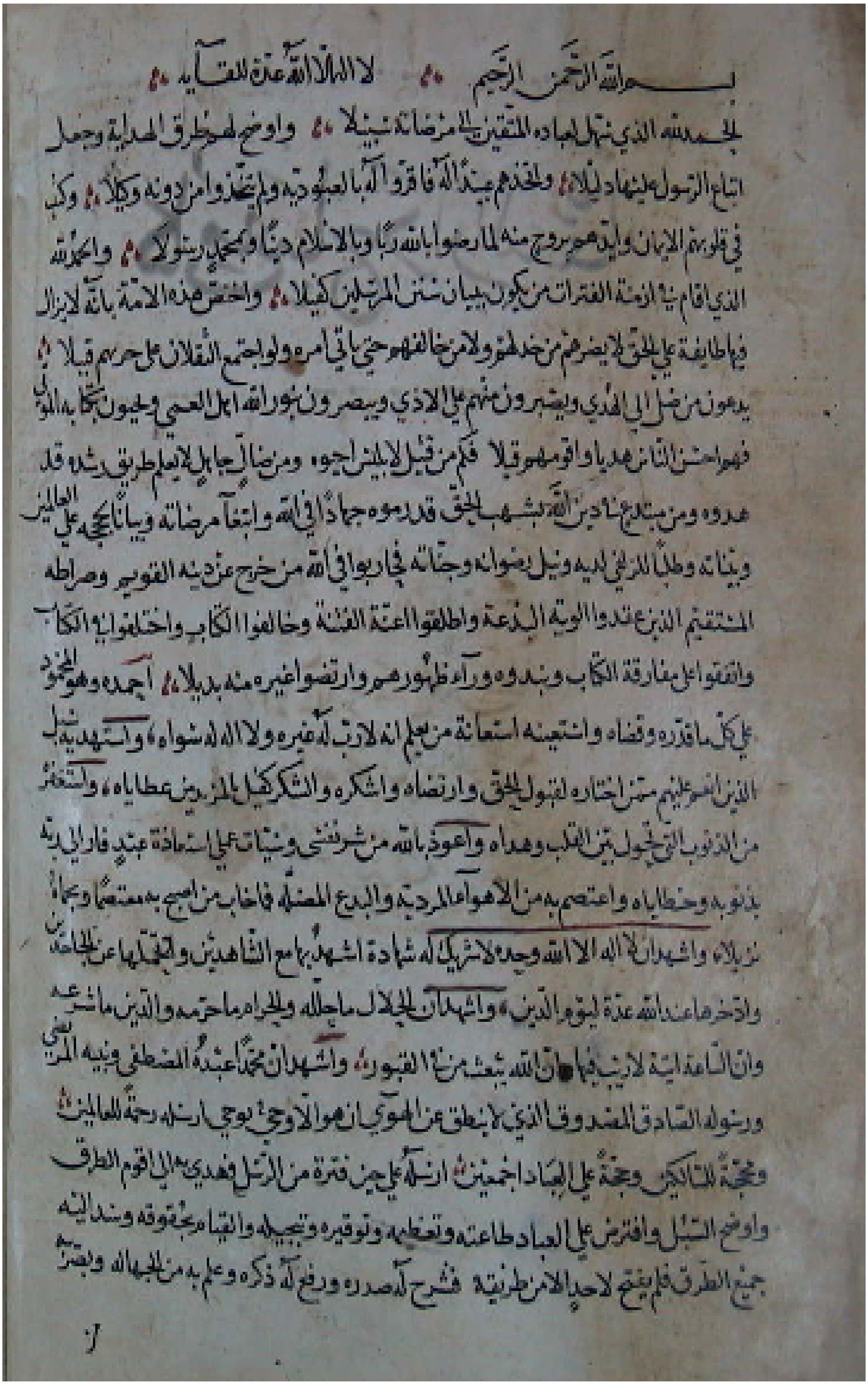
**الصفحة الأولى من نسخة [ د ]**


خالصًا لوجهه وأن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وأن يوفقنا لما يحبه
ويرضاه إنه قريب مجيب
والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا
نجز الكتاب المسمى بمفتاح دار السعادة
وهو كتاب نفيس لا يمله الجليس وفيه من بدايع الفوائد وفرائد القلائد
ما لا يوجد لكثير سواه وفيه من البحوث ما تنتهي كل علم إلى منتهاه واسمه مطابق
لمسماه ولفظه مطابق لمعناه فإن فيه من الإفاده ما يحدوا إلى دار السعاده
وذلك على يد أفقر خلق الله إليه المتوكل في جميع أحواله عليه والمعترف
بالخطاء والزلل والمسيء في القول والعمل اسمعيل بن محمد بن [illegible] عفا الله عنه
وكان تمام ذلك في التاسع عشر من شهر شعبان المكرم عام ستة وستين وسبع مايه
من الهجرة النبويه وحسبنا الله ونعم الوكيل
قرأه العبد الفقير إلى رحمة ربه القدير عثمان بن علي بن محمد
عفا الله عنه وكتب تاريخ رابع عشر شهر صفر [illegible]
في مقام الخليل [illegible] عليه أفضل الصلاة والسلام [illegible]
وهو يسأل الله عز وجل ويتوسل بمحمد صلى الله عليه وسلم [illegible]
[illegible] إنه على ما يشاء قدير وهو نعم المولى ونعم
النصير

الصفحة الأخيرة من نسخة [ د ]



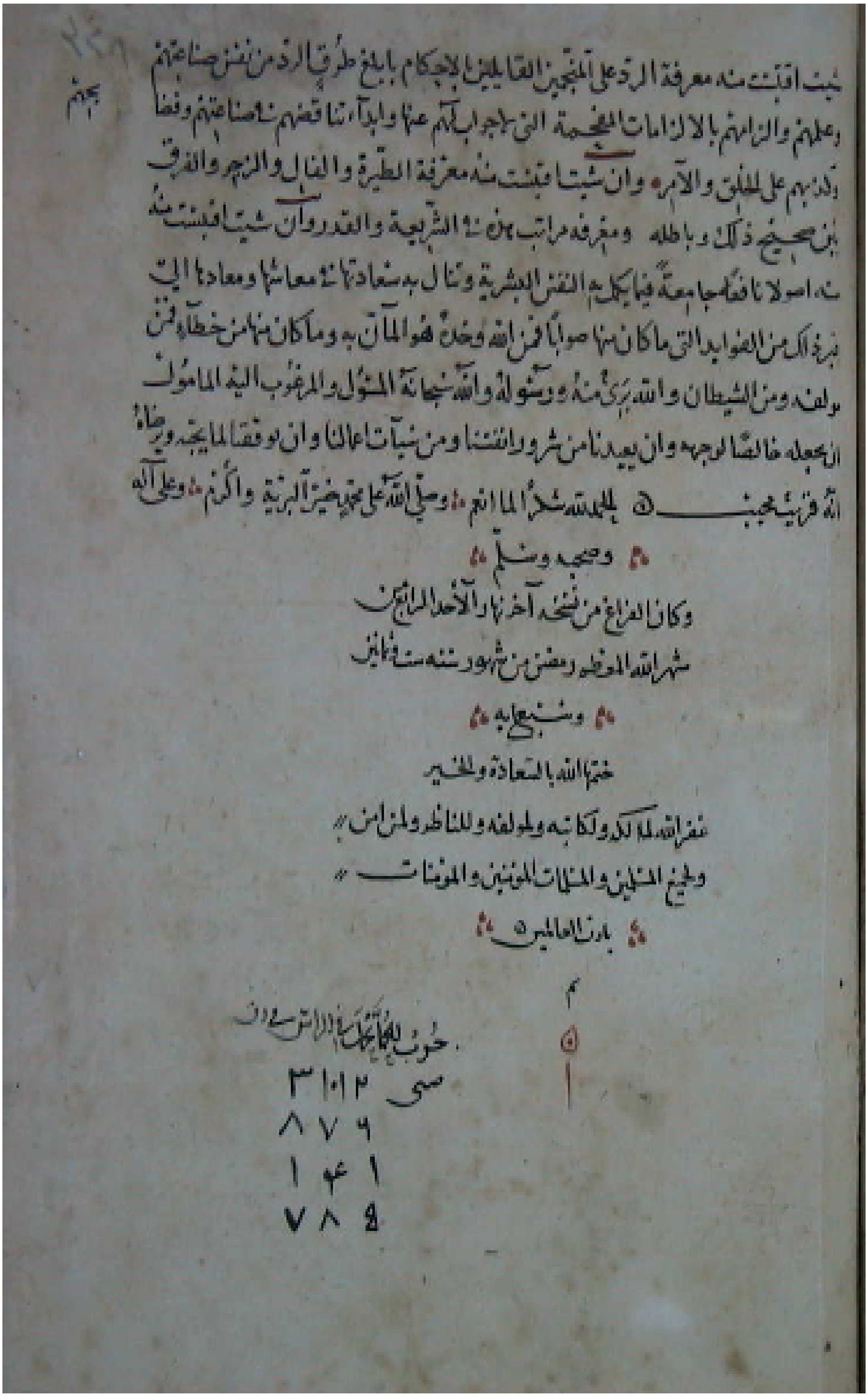
صفحة العنوان من نسخة [ ص ]



بسم الله الرحمن الرحيم ٠ لا إله إلا الله عدة للقائه ٠

الحمد لله الذي سهل لعباده المتقين إلى مرضاته سبيلا ٠ وأوضح لهم طرق الهداية وجعل
اتباع الرسول عليها دليلا ٠ واتخذهم عبيدا له فأقروا له بالعبودية ولم يتخذوا من دونه وكيلا ٠ وكتب
في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه لما رضوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا ٠ والحمد لله
الذي أقام في أزمنة الفترات من يكون ببيان سنن المرسلين كفيلا ٠ واختص هذه الأمة بأنه لا يزال
فيها طائفة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمره ولو اجتمع الثقلان على حربهم قبيلا ٠
يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى ويبصرون بنور الله أهل العمى ويحيون بكتابه الموتى
فهم أحسن الناس هديا وأقومهم قيلا ٠ فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ومن ضال جاهل لا يعلم طريق رشده قد
هدوه ومن مبتدع في دين الله بشهب الحق قد رموه جهادا في الله وابتغاء مرضاته وبيانا لحجته على العالمين
وبيناته وطلبا للزلفى لديه ونيل رضوانه وجناته فحاربوا في الله من خرج عن دينه القويم وصراطه
المستقيم الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا أعنة الفتنة وخالفوا الكتاب واختلفوا في الكتاب
واتفقوا على مفارقة الكتاب ونبذوه وراء ظهورهم وارتضوا غيره منه بديلا ٠ أحمده وهو المحمود
على كل ما قدره وقضاه وأستعينه استعانة من يعلم أنه لا رب له غيره ولا إله له سواه ٠ وأستهديه سبل
الذين أنعم عليهم ممن اختاره لقبول الحق وارتضاه وأشكره والشكر كفيل بالمزيد من عطاياه ٠ وأستغفره
من الذنوب التي تحول بين القلب وهداه وأعوذ بالله من شرور نفسي وسيئات عملي استعاذة عبد فار إلى ربه
بذنوبه وخطاياه واعتصم به من الأهواء المردية والبدع المضلة فما خاب من أصبح به معتصما وبحماه
نزيلا ٠ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أشهد بها مع الشاهدين وأتحملها عن الجاحدين
وأدخرها عند الله عدة ليوم الدين ٠ وأشهد أن الحلال ما حلله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه
وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ٠ وأشهد أن محمدا عبده المصطفى ونبيه المرتضى
ورسوله الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى أرسله رحمة للعالمين ٠
ومحجة للسالكين وحجة على العباد أجمعين ٠ أرسله على حين فترة من الرسل فهدى به إلى أقوم الطرق
وأوضح السبل وافترض على العباد طاعته وتعظيمه وتوقيره وتبجيله والقيام بحقوقه وسد إليه
جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه فشرح له صدره ورفع له ذكره وعلم به من الجهالة وبصر به

الصفحة الأولى من نسخة [ ص ]



شيئاً اقتبست منه معرفة الرد على المنجمين القائلين بالأحكام بأبلغ طرق الرد من نفس صناعتهم
وعلمهم وإلزامهم بالإلزامات المفحمة التي لا جواب لهم عنها وإبداء تناقضهم في صناعتهم وفضائحهم
وكذبهم على الخلق والأمر، وإن شئت اقتبست منه معرفة الطيرة والفأل والزجر والفرق
بين صحيح ذلك وباطله ومعرفة مراتب هذين الشريعة والقدر وإن شئت اقتبست منه
أصولاً نافعة جامعة فيما يكمل النفس البشرية وتنال به سعادتها في معاشها ومعادها إلى
غير ذلك من الفوائد التي ما كان فيها من صواب فمن الله وحده هو المان به وما كان فيها من خطأ فمني
ومن الشيطان والله بريء منه ورسوله والله سبحانه المسؤول والمرغوب إليه المأمول
أن يجعله خالصاً لوجهه وأن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه
إنه قريب مجيب ـــ والحمد لله وحده المنعم، وصلى الله على محمد خير البرية والكرم، وعلى آله
وصحبه وسلم
وكان الفراغ من نسخه آخر نهار الأحد الرابع
شهر الله المحرم ومضى من شهور سنة ...
ونستعين به
ختمها الله بالسعادة والخير
غفر الله لمالكه ولكاتبه ولمؤلفه وللناظر ولمن أمن
ولجميع المسلمين والمسلمات المؤمنين والمؤمنات
يا رب العالمين

الصفحة الأخيرة من نسخة [ ص ]

# النص المحقق

مقدمة المؤلف

الحمدُ لله الذي سهَّل لعبادِهِ المتقينَ إلى مَرضاتِهِ سبيلاً ، وأوضحَ لهم طُرقَ الهداية وجعلَ اتِّباعَ الرَّسولِ عليها دليلاً ، واتَّخذهم عبيدا له فأقرُّوا له بالعبودية ، ولم يتخذوا من دونِه وكيلاً ، وكتَبَ في قلوبهم الإيمان ، وأيَّدَهم بروحٍ منه لـمَّا رَضَوا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً .

والحمدُ لله الذي أقامَ في أزمِنَة الفتَراتِ مَن يكونُ ببيان سُنن المرسلين كفيلاً ، واختصَّ هذه الأمةَ بأنَّه لا يزال فيها طائفةٌ على الحقِ لا يضُرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم حتى يأتي أمرُه ، ولو اجتمعَ الثَّقلانِ على حربِهم قبِيلاً ، يدعُون من ضلَّ إلى الهدى ويَصبِرون منهم على الأذى ، ويُبَصِّرون بنورِ اللهِ أهلَ العمى ، ويُحيُون بكتابهِ الموتى فهم أحسنُ النَّاسِ هَدياً ، وأقومُهم قِيلاً .

فكم من قتيلٍ لإبليسَ قد [1] أحَيوه ، ومن ضالٍّ جاهلٍ لا يعلمُ طريقَ رُشدَه قد هدَوه ومن مُبتدعٍ في دين الله بشُهُبِ الحقِّ قد رَمَوه ، جِهاداً في الله ، وابتغاءَ مرضاتِه ، وبياناً لحُجَجِهِ على العالمين وبيِّنَاته ، وطلباً للزلفى لديهِ ونيلِ رضوانهِ وجناتِه ، فحارَبوا في اللهِ من خَرجَ عن دينهِ القويمِ ، وصراطهِ المستقيمِ ، الذين عَقدوا ألويةَ البدعةِ ، وأطلقوا أعنَّةَ الفتنةِ ، وخالفوا الكتابَ ، واختلفوا في الكتابِ ، واتفقوا على مُفارقة الكتابِ ، ونبذوهُ وراءَ ظُهورهم ، وارتَضَوا غيرَه منه بديلاً .

أحمدُه وهو المَحمودُ على كلِّ ما قدَّره وقضاه ، وأستعينُه استعانةَ من يعلم أنَّه لا ربَّ غيره ، ولا إله له سِواه ، وأستهديه سُبلَ الذين أنعمَ عليهم مِمَّن اختارَه لقَبُولِ الحقِّ وارتضاهُ ، وأشكرُه والشُّكرُ كفيلٌ بالمزيدِ من عطاياه ، وأستغفِره من الذنوبِ التي تحولُ بين القلّبِ وهُدَاهُ ، وأعوذُ باللهِ من شرِّ نفسي وسيئاتِ عمَلي ، استعاذةَ عبدٍ فارٍّ إلى ربِّه بذنوبهِ وخطاياه ، وأعتصمُ به من الأهواءِ المُردِيَةِ ، والبِدَعِ المُضلَّةِ ، فما خابَ من أصبحَ بهِ مُعتصماً ، وبِحمَاه نَزيلاً.

وأشهدُ أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادةً أشهدُ بها مع الشاهدين ، وأتحمَّلُها عن الجاحدين ، وأدَّخِرُها عندَ اللهِ عدَّةً ليوم الدينِ.

---

(١) " قد " سقطت من : ص .

وأشهدُ أنَّ الحلالَ ما حَلَّلَه ، والحرامَ ما حرَّمه ، والدينَ ما شرَّعه ، وأنَّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها ، وأنَّ الله يبعثُ من في القبورِ .

وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه المصطفى ، ونبيُّه المرتَضى ، ورسولُه الصَّادقُ المصدوقُ ، الذي لا ينطِقُ عن الهوى ، إنْ هو إلا وحيٌ يُوحى ، أرسلَهُ رحمةً للعالمين ، ومَحجَّةً للسالكين وحُجَّةً على العبادِ أجمعين ، أرسلَهُ على حين فترةٍ من الرُّسل ، فهدى بهِ إلى أقومِ الطُّرقِ وأوضحِ السُّبلِ ، وافترضَ على العبادِ طاعتَه ، وتعظيمَه ، وتوفيرَه ، وتبجيلَه ، والقيامَ بحقوقِه ، وسدَّ إليه جميع الطُّرق ، فلم يفتحْ لأحدٍ إلا مِن طريقهِ ؛ فشرحَ له صدرَه ورفعَ له ذكرَه ، وعلَّمَ بهِ من الجَهالةِ ، وبصَّرَ بهِ من العمى ، وأرشدَ بهِ من الغَيِّ ، وفتحَ بهِ أعيناً عُمياً ، وآذاناً صُمَّاً ، وقُلوباً غُلفاً .

فلم يزلْ صلى الله عليه وسلم قائماً بأمر الله ، لا يردُّه عنه رادٌّ ، داعياً إلى اللهِ ، لا يَصُدُّه عنه صادٌّ ، إلى أنْ أشرقتِ برسالتِه الأرضُ بعدَ ظُلُمَاتِها ، وتألَّفَتْ القلوبُ بعدَ شتاتِها وسارتْ دعوتُه سيرَ الشَّمسِ في الأقطار ، وبلغَ دينُه ما بلغَ الليلُ والنهارُ ، فلمّا أكملَ اللهُ بهِ الدِّينَ ، وأتمَّ بهِ النِّعمةَ على عبادِه المؤمنين ، استأثرَ بهِ ، ونقلَه إلى الرفيقِ الأعلى من كرامَتِه ، والمحلِّ الأرفعِ الأسنى من أعلى جناتِه ، ففارقَ الأمَّةَ وقد تركَها على المَحجَّةِ (١) البيضاءِ ، التي لا يزيغُ عنها إلا من كان من الهالكين ، فصلى اللهُ عليهِ وعلى آله الطيبين الطَّاهرين ، صلاةً دائمةً بدوامِ السَّمواتِ والأرضين ، مُقيمَةً عليهم أبداً ، لا ترُومُ انتقالاً عنهم ولا تَحويلاً .

أمَّا بعد :

الحِكم من إهباط الله آدم من الجنة

فإنَّ الله سبحانه لمَّا أهبَطَ آدمَ أبا البشرِ من الجنَّةِ ، لِمَا له في ذلك من الحكَمِ التي تعجزُ العقولُ عن معرفتِها ، والألسُنُ عن صفتِها ، فكان إهْبَاطُه منها عينَ كمالهِ ؛ ليعودَ إليها على أحسنِ أحوالِه ، فأرادَ سبحانه أن يُذيقَهُ ووَلَدَه مِن نَصَبِ (٢) الدُّنيا ، وغُمُومِها

الأولى : أنه أراد سبحانه أن يذيقه نصب الدنيا ليعظم عنده قدر الجنة

(١) في : ص : الحجة .

(٢) في : د ، ص : تعب .

وهُمومها وأوصَابِها ، ما يعظمُ به عندهم مِقدارَ دُخولهم إليها في الدَّارِ الآخرةِ ؛ فإنَّ الضِّدَّ يُظهرُ حُسنَه الضِّدُّ [(١)] ، ولو تربَّوا في دارِ النَّعيمِ لم يعرفُوا قدْرَهَا .

الثانية : أراد الله أمرهم ونهيهم والجنة ليست دار تكليف فأهبطهم

وأيضاً ؛ فإنه سبحانه أرادَ أمَرهم ، ونهيَهم ، وابتلاءَهم ، واختبارَهم ، وليست الجنَّةُ دارَ تكليفٍ ؛ فأهبطهم إلى الأرضِ ، وعرَّضَهم بذلك لأفضَلِ الثَّواب الذي لم يكن لِيُنَالَ بدونِ الأمرِ والنَّهي .

الثالثة : أراد الله أن يتخذ منهم أنبياء ورسلا وأولياء وشهداء فخلى بينهم وبين أعدائه

وأيضاً ؛ فإنه سبحانه أرادَ أن يتَّخذَ منهم أنبياءَ ، ورُسلاً ، وأولياءَ ، وشُهداءَ ، يُحبُّهم ويُحبُّونَه ، فخلَّى بينهم وبينَ أعدائِه ، وامتحنَهم بهم ، فلمَّا آثرُوه ، وبذلُوا نُفوسَهم وأموالَهم في مَرضَاتِه ومحابِّهِ ، نالوا من محبتِه ورضوانِه ، والقُرْبِ منه ما لم يكن ليُنَالَ بدون ذلك أصلاً ، فدرجةُ الرِّسالةِ والنبوةِ والشهادةِ ، والحبِّ فيه والبُغضِ فيه ، وموالاة أوليائهِ ، ومُعاداةِ أعدائِه عنده من أفضلِ الدَّرجاتِ ، ولم يكنْ يُنالُ هذا إلا على الوجهِ الذي قدَّرهُ وقضاهُ من إهْبَاطِهِ إلى الأرضِ ، وجَعَلَ معيشتَهُ ومعيشةَ أولادِه فيها .

الرابعة : أراد الله أن يظهر أثر أسمائه الحسنى وصفاته العلى

وأيضاً ؛ فإنَّه سبحانه له الأسماءُ الحُسنى [(٢)] ؛ فمن أسمائه : الغفورُ ، الرحيمُ ، العفو الحليمُ ، الخافضُ ، الرافعُ ، المعزُّ ، المذلُّ ، المحيي ، المُميتُ ، الوارثُ ، الصبورُ ولا بدَّ من ظُهور هذهِ الأسماءِ ، فاقتضتْ حكمتُه سبحانه أن يُنزِلَ آدمَ وذريته داراً يظهرُ عليهم فيها أثرُ أسمائِه الحُسنى ، يَغفرُ فيها لمن يشاءُ ، ويرحمُ من يشاءُ ، ويخفضُ من يشاءُ ، ويرفعُ من يشاءُ ، ويُعزُّ من يشاءُ ، ويُذلُّ من يشاءُ ، وينتقِمُ مِمَّن يشاءُ ، ويعطي ويمنعُ ويبسُطُ ، إلى غير ذلك من ظهورِ أثرِ أسمائِهِ وصفاتِهِ .

---

(١) مَثَلٌ جارٍ على الألسن ، وأصله شطر بيت :

ضِدَّانِ لمَّا استَجْمَعا حَسُنَا ... فالضِّدُّ يُظْهِرُ حُسنَهُ الضِّدُّ

وهو من القصيدة " اليتيمة " ، والتي مطلعها :

هَلْ بالطُلُولِ لسَائِلٍ رَدُّ ... أَو هَلْ لها بتكلُّمٍ عَهْدُ

وقد تنازعَ عليها أكثرُ من أربعين شاعراً ، فنُسِبتْ لعلي بن جَبَلة المُلقَّب بالعَكَّوك ، مجموع شعره (١١٦) ، وقيل : هي لدَوقَلة المَنْبِجِيُّ ، كذا في فهرسة ابن خير الأندلسي (٣٦١) وقيل : هي لأبي الشِّيصِ الخُزَاعيِّ ، ديوانه (١٣٦) ، وقيل لغيرهم .

(٢) "الحسنى" ليست في : د ، ص .

الخامسة : أنزلهم دارا تجري عليهم فيها أحكام الملك

وأيضاً ؛ فإنَّه سبحانه الملكُ الحقُّ المبينُ ، والملكُ هو الذي يأمرُ وينهى ، ويُثيبُ ويُعاقبُ ، ويُهينُ ويُكرمُ ، ويُعزُّ ويُذِلُّ ، فاقتَضى مُلكُه سبحانه أن أنزلَ آدمَ وذرِّيَّته داراً تجري (١) عليهم فيها أحكامُ المَلِكِ ، ثم ينقُلهم إلى دارٍ يُتِمُّ عليهم فيها ذلك .

[٥/أ]

السادسة : أنزلهم دارا يكون إيمانهم فيها بالغيب

وأيضاً ؛ فإنَّه سبحانه / أنزَلهم إلى دارٍ يكون إيمانُهم فيها بالغيبِ ، والإيمانُ بالغيبِ هو الإيمانُ النافعُ ، وأمَّا الإيمانُ بالشَّهادةِ فكلُّ أحدٍ يُؤمن يومَ القيامة ، يومَ لا ينفعُ نفسَاً إلا إيمانُها في الدُّنيا ، فلو خُلقوا في دارِ النَّعيمِ ، لم ينالوا درجةَ الإيمانِ بالغيبِ ، واللذَّةُ والكرامةُ الحاصلةُ بذلك لا تحصل بدونِه ، بل كان الحاصلُ لهم في دارِ النَّعيم لذَّةً وكرامةً غيرَ هذه (٢) .

السابعة : أنزلهم دارا استخرج فيها الطيّب والخبيث من صُلبه

وأيضاً ؛ فإنَّ اللهَ سبحانه خلق آدم من قبضةٍ قَبَضَها من جميع الأرض (٣) ، والأرضُ فيها الطيِّبُ والخبيثُ ، والسَّهلُ والحَزْنُ ، والكريمُ واللئيمُ ، فعلمَ سبحانه أنَّ في ظَهرِهِ مَن لا يَصلُحُ لمساكنتِه في دارِه ، فأنزله إلى دارٍ استَخْرَجَ فيها الطيّبَ والخبيثَ من صُلبِهِ ، ثمَّ مَيَّزَهُم سبحانه بدارين ؛ فجعل الطيِّبين أهلَ جِوَارِهِ ومُسَاكَنَتِهِ في داره ، وجعل الخبيث أهلَ دارِ الشقاء دارِ الخبثاء ، قال الله تعالى : ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ (٤) فلمَّا علِمَ سبحانه أنَّ في ذُرِّيَّته من ليس بأهلٍ لمجاورته ، أنزلهم داراً استَخرجَ منها أولئك ، وألحقَهم بالدارِ التي هم لها أهلٌ ، حكمةٌ بالغةٌ ، ومشيئةٌ نافذةٌ ، ذلك تقدير العزيز العليم .

---

(١) في : ص : يجري .

(٢) في : ص : غير هذا .

(٣) يشير إلى حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( إنَّ الله تباركَ وتعالى خلقَ آدمَ من قَبْضَةٍ قَبَضَهَا من جَميعِ الأرضِ ، فجاء بنو آدمَ على قدْرِ الأرض ، فجاء منهم الأحمرُ والأبيضُ والأسودُ ، وبينَ ذلكَ ، والسَّهلُ والحَزْنُ ، والخبيثُ والطَّيبُ ) . رواه الترمذي (٢٩٥٥) ، وقال : " هذا حديث حسن صحيح " ، ورواه أبو داود (٤٦٩٣) ، وأحمد (٤/٤٠٠ ، ٤٠٦) ، والحاكم (٢/٢٦١) وصححه ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، رقم الحديث (١٦٣٠) .

(٤) الأنفال : ٣٧ .

الثامنة : إظهار علمه سبحانه لعباده وملائكته بما جعله في الأرض من خواص خلقه

وأيضاً ؛ فإنَّه سبحانه لمَّا قال للملائكة : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ، أجابهم بقوله : ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(١) .

ثم أظهرَ سبحانه علمَه لعبادِه ولملائكتِه بما جعلهَ في الأرضِ من خوَاصِّ خلقِهِ ، ورسُلِهِ وأنبيائِه ، وأوليائِه ، ومن يتقرَّبُ إليه ، ويبذُلُ نفسَه في محبَّتِه ومرضاتِه ؛ مع مُجاهدةِ شهوتِه وهواهُ ، فيتركُ محبُوباتِه تقرباً إليَّ ، ويتركُ شهواتِه ابتغاءَ مرضَاتي ، ويبذُلُ دَمَهُ ونفسَهُ في محبَّتي ، وأَخُصُّهُ بعِلمٍ لا تعلمونَهُ (٢) ، يُسَبِّحُ بحَمْدِي آناءَ الليلِ وأطرافَ النَّهارِ ، ويَعبُدُني مع مُعارضاتِ الهَوى ، والشهوةِ ، والنَّفسِ ، والعدوِّ ، إذ تعبُدوني أنتم من غيرِ مُعارضٍ يُعارِضُكم ، ولا شهوةٍ يعتَرِيَكُم (٣) ، ولا عدوٍّ أُسَلِّطُهُ عليكم ، بل عبادَتُكم لي بمنزلةِ النَّفسِ لأحدِهِم .

التاسعة : إظهار الله لآدم ما خفي من شأن عدوِّه ومحاربته له

وأيضاً ؛ فإنِّي أريدُ أن أُظهِرَ ما خَفِيَ عليكم من شأنِ عدوِّي ومُحارَبَتِه لي ، وتكبُّرِهِ عن أمري ، وسَعيِهِ في خِلافِ مرضاتي . وهذا وهذا كانا (٤) كامِنَين مُستَترين في أبي البَشَرِ وأبي الجنِّ ؛ فأنزلهم داراً أَظْهَرَ فيها ما كان الله سبحانه مُنفردا بعلمِهِ لا يَعلَمُه سواهُ فظَهَرَتْ حكمتُه ، وتمَّ أَمْرُهُ ، وبَدَا للملائكة مِن عِلْمِهِ ما لم يكونوا يعلمون .

العاشرة : إسكان آدم وبنيه دارا يأتون فيها بصفات ينالون بها أعلى الكرامات

وأيضاً ؛ فإنَّه سبحانه لمَّا كان يُحِبُّ الصَّابرين ، ويُحِبُّ المحسنين ، ويُحِبُّ الذين يُقاتِلون في سبيله صفاً ، ويُحِبُّ التوَّابين ، ويُحِبُّ المتطهرين ، ويُحِبُّ الشاكرين وكانت محبَتُه أعلى أنواعِ الكراماتِ ؛ اقتضت حكمتُه أن أسكَنَ آدمَ وبنيه داراً يأتون فيها بهذه الصفات التي ينالون بها أعلى الكراماتِ من محبَّتِهِ ؛ وكان (٥) إنزالُهم

---

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) في : د ، ص : لا يعلمونه . وهو يقصد آدم عليه السلام ، وبنيه .

(٣) ي : د ، ص : " تعتريكم " .

(٤) في : ص : وهذا كانا . والمراد بقوله : " هذا وهذا ..." أي ما ذكره من عبادة آدم لربه مع مُعارضاتِ الهَوى ، والشهوةِ ، والنَّفسِ ، والعدوِّ ، وما ذكره عن إبليس ومحاربته لله وتكبره عن أمره ، وسعيه في خلاف مرضات الله .

(٥) في: د ، ص : فكان .

إلى الأرضِ من أعظَمِ النّعم عليهم ، ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ (١) .

الحادية عشرة : أراد سبحانه أن يتخذ من آدم ذرية يواليهم ويودهم ويحبهم ويحبونه

وأيضاً ؛ فإنَّه سبحانه أرادَ أن يتَّخذ من آدم ذُرِّيَّةً يُواليهم ، ويودُّهم ، ويُحِبُّهُم ويُحِبُّونَه فمحبَّتُهم له هي غايةُ كمالِهم ، ونهايةُ شرفِهم ، ولم يمكن تحقيقُ (٢) هذه المرتبةِ السَّنيةِ إلا بموافقة رضَاه ، واتِّبَاعِ أمرِهِ ، وتركِ إراداتِ النَّفس وشهواتِها التي يكرَهُهَا محبُوبُهُم فأنزلهم داراً أمرَهُم فيها ونهاهُم ؛ فقاموا بأَمرِهِ ونهيِهِ ؛ فنَالُوا درجَةَ محبَّتِهم له ، فأَنَالَهُمْ درجَةَ حُبِّهِ إيَّاهم ، وهذا من تمَامِ حكمتِهِ ، وكمالِ رحمتِهِ ، وهو البرُّ الرحيم .

الثانية عشرة : أراد سبحانه أن ينال آدم درجة العبودية الاختيارية

وأيضاً ؛ فإنَّه سبحانه لمَّا خلق خلقَه أطواراً وأصنافاً ، وسبَقَ في حُكمِهِ تفضِيلُه آدمَ وبنِيهِ على كثيرٍ من مخلوقاتِهِ ؛ جَعلَ عُبوديَّتَه أفضلَ درجاتِهم ، أعني العبوديَّةَ الاختياريَّةَ ، التي يأتون بها طوعاً واختياراً ، لا كَرهَاً واضطراراً .

وقد ثبت أنَّ الله سبحانه أرسل جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يُخَيِّرهُ بين أن يكونَ مَلِكَا نبياً ، أو عبداً نبياً ؛ فنظَرَ إلى جبريلَ كالمستشير له ؛ فأشار إليه : أنْ تواضع ، فقال: ( بل أنْ أكون عبداً نبياً ) (٣) .

فذَكَرَهُ سبحانه باسم عبوديَّته في أشرف مقاماته ؛ في مقام الإسراء ، ومقام الدَّعوة ومقام التَّحدي ؛ فقال في مقام الإسراء : ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ (٤) ولم يقل : برَسُولِه ، ولا : نَبِيِّهِ ؛ إشارةً إلى أنَّه نالَ هذا المقامَ الأعظمَ بكمالِ عُبوديَّتِه لربِّه.

وقال في مقام الدَّعوة : ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ (٥) .

وقال في مقام التَّحدي : ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ (١) .

---

(١) البقرة : ١٠٥ .

(٢) في : د : ولم يكن تحقيق . وفي : ص : ولم يكن لتحقيق .

(٣) رواه أحمد (٢٣١/٢) ، والبزار في مسنده (١٨٢/١٧) ، وابن حبان في صحيحه (٢٨٠/١٤) ، وأبو يعلى في مسنده (٤٩١/١٠) ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩/٩) : " رواه أحمد ، والبزار ، وأبو يعلى ، ورجال الأوَّلَين رجال الصحيح " ، وضعَّفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٥٤١٢) .

(٤) الإسراء : ١.

(٥) الجن : ١٩.

وفي "الصحيحين" (٢) في حديث الشَّفاعةِ وتراجُعِ الأنبياء فيها ، وقولِ المسيحِ صلى الله عليه وسلم : ( اذهبوا إلى محمدٍ (٣) عبدٍ غَفَرَ اللهُ لهُ ما تقدَّمَ من ذَنبِهِ وما تأخَّر ) ، فدَلَّ ذلك على أنَّه نالَ ذلك المقامَ الأعظمَ بكمالِ عبوديتِهِ لله ، وكمالِ مغفرةِ الله له .

وإذا كانت العبوديةُ عند الله بهذه المنزلةِ ، اقتضتْ حكمتُه أنْ أسكَنَ آدمَ وذُرِّيَّتَه داراً (٤) ينَالُون فيها هذه الدَّرجةَ بكمالِ طاعتِهم لله ، وتقرُّبِهم إليه بمَحَابِّه ، وترك مألوفاتِهم من أجلِهِ ؛ فكان ذلك من تمَامِ نعمَتِه عليهم ، وإحسانِهِ إليهم .

الثالثة عشرة : أراد سبحانه أن يُعَرِّف عباده الذين أنعم عليهم تمام نعمته عليهم وقدرها

وأيضاً ؛ فإنَّه سبحانه أراد أن يُعرِّفَ عبادَه الذين أنعمَ عليهم تمامَ نعمتِهِ عليهم وقدْرَها (٥) ؛ ليكونوا أعظمَ محبةً (٦) ، وأكثرَ شكراً ، وأعظمَ التِذَاذاً بما أعطاهم من النَّعيم ؛ فأراهُم سبحانه فعلَهُ بأعدائه ، وما أعدَّ لهم من العذابِ وأنواعِ الآلام ، وأشهَدَهُم تخليصَهُم من ذلك ، وتخصيصَهُم بأعلى أنواع النَّعيم ؛ ليزدَادَ سرورُهُم ، ويُكَمِّل (٧) غِبطَتَهم ، ويُعَظِّم فَرَحَهُم ، ويُتِمّ (٨) لذَّتَهم ، وكان ذلك من إتمام الإنعامِ عليهم ومحبتِهم .

ولم يكن بُدٌّ في ذلك من إنزالهم إلى الأرض ، وامتِحانهم ، واختبِارهم ، وتوفيقِ من شاء منهم رحمةً منه وفضلاً ، وخِذلَانِ من شاء منهم حكمةً منه وعدلاً ، وهو العليم الحكيم .

---

(١) البقرة : ٢٣ .

(٢) صحيح البخاري (٤٤٧٦ ، ٦٥٦٥ ، ٧٤١٠ ، ٧٤٤٠ ) ، وصحيح مسلم (١٩٣) ، كلاهما بنحوه ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٣) سقطت " محمد " من : د ، ص .

(٤) سقطت "داراً" من : ص .

(٥) في : د ، ص : قدَّرها ليكونوا .

(٦) في : د ، ص : محبة له .

(٧) في : د ، ص : وتَكمُلَ .

(٨) في : د : وتُتَمَّ .

ولا ريب أن المؤمِنَ إذا رأى عدُوَّه وعدُوَّ محبوبِهِ الذي هو أحبُّ الأشياء إليه في أنواع العذاب والآلام ، وهو يتقلَّبُ في أنواعِ النَّعيم واللذَّةِ ، ازداد بذلك سروراً [١] ، [ وعظُمتْ لذَّتُه ، وكمُلَتْ نعمتُه .

الرابعة عشرة : كمال العبودية المطلوب من الخلق لا يحصل في دار النعيم والبقاء

وأيضاً ؛ فإنَّ الله سبحانه إنَّما خلقَ الخلقَ لعبادَتِه ] [٢] وهي الغايةُ منهم [٣] ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٤] ، ومعلومٌ أنَّ كمالَ العبوديةِ المطلوب [٥] من الخلقِ لا يحصلُ [٦] في دار النَّعيمِ والبقاءِ ، إنما يحصلُ [٧] في دارِ المِحْنَة والابتلاء وأما دارُ البقاء فدَارُ لذَّةٍ ونعيمٍ ، لا دار ابتلاءٍ وامتحانٍ وتكليفٍ.

الخامسة عشرة : أراد سبحانه أن يعرِّفهم ما تجني عواقب إجابة الشهوة والهوى

[ وأيضاً ؛ فإنَّه سبحانه اقتضت حكمتُه خلق آدمَ وذرِّيته من تركيبٍ مُستلزمٍ لداعي الشَّهوةِ والفتنَة ، وداعي العقلِ والعلمِ ؛ فإنَّه سبحانه خلق فيه العقلَ ] [٨] والشَّهوةَ ونصبَهما داعيين بمقتضياتِهما ؛ ليُتمَّ مُرادَه ، ويُظهِرَ لعباده عزَّتَه في حكمتِه وجبروتِه / ورحمتِه ، وبرهِ ، ولُطفَه في سُلطانِه ومُلكِه ؛ فاقتضت حكمتُه ورحمتُه أن أذاق أباهم وَبِيلَ مخالفتِه ، وعرَّفَه ما تجني عواقبُ إجابةِ الشَّهوةِ والهوى ؛ ليكونَ أعظمَ حذراً فيها وأشدَّ هروباً [٩] ؛ وهذا كحالِ رجلٍ سائرٍ على طريق قد كَمِنَت الأعداءُ في جنباتِه وخلفِه وأمامِه ، وهو لا يشعرُ بها ، فإذا أصيبَ منها مرَّةً بمصيبةٍ استَعَدَّ في سَيرِه ، وأخذ أُهبَةَ عدوِّه ، وأعدَّ له ما يدْفَعُهُ به ، ولولا أنَّه ذاقَ ألمَ إغارةِ عدوِّهِ عليه ، وتَبْييتِهِ له لما سمَحَتْ نفسُه بالاستعداد والحذر وأخذِ العُدَّة .

[٦/أ]

---

(١) في : د ، ص : سروره

(٢) ما بين المعقوفين سقط من : ص .

(٣) في : د ، ص : وهي الغاية المطلوبة منهم .

(٤) الذاريات : ٥٦ .

(٥) في : ص: المطلوبة .

(٦) في : ص : لا تحصل .

(٧) في : ص : تحصل .

(٨) بياض في : الأصل ، وفي : د ، وسقط من : ص . والمثبت من المطبوع ، طبعة دار الفكر .

(٩) في : ص : هرباً .

فمن تمامِ نعمةِ اللهِ على آدمَ وذريتِه أن أراهُم ما فعل العدوُّ بهم وبأبِيهم ؛ فاستَعدُّوا له وأخذوا أُهبتَه .

فإن قيل : كان مِن المُمكن أن لا يُسَلِّطَ عليهم العدوَّ ؟

قيل : قد تقدَّم أنَّه سبحانه خلق آدمَ وذريَّتَه على بُنيَةٍ وتركيبٍ مُستلزم لمُخالطَتِهم لِعَدوِّهِم وابتِلائِهِم به (١) ، ولو شاءَ لخلَقَهُم كالملائكةِ الذين هم عقولٌ بلا شهوات ؛ فلم يكنْ لعدوِّهم طريقٌ إليهم ، ولكنْ لو خُلِقُوا هكذا لكانوا خَلقَاً آخرَ غيرَ بني آدم ؛ فإنَّ بني آدم قد رُكِّبُوا على العقل والشَّهوة (٢) .

السادسة عشرة : أنزلهم سبحانه إلى دار محفوفة بالشهوات ليتحقق حبُّهم له وإيثارهم

وأيضاً ؛ فإنَّه لمَّا كانت محبَّةُ اللهِ وحده ، وهي غاية كمالِ العبدِ وسعادَتِه التي لا كمالَ له ولا سعادةَ بدونها أصلاً ، وكانت المحبةُ الصادقة إنَّما تتحقق بإيثارِ المحبُوب على غيره من محبُوبات النَّفوس ، واحتمالِ أعظمِ المشاقِّ في طاعته ومرضاته ؛ فبهذا تتحقَّقُ المحبَّةُ ، ويُعلَمُ ثبوتُها في القلب (٣) ، اقتضت حكمتُه سبحانه إخراجَهُم إلى هذه الدار المحفوفةِ بالشَّهواتِ ، ومحابِّ النُّفوسِ التي بإيثار الحقِّ عليها ، والإعراض عنها يتحقَّقُ حُبُّهُم له ، وإيثارُهم إياه على غيره ، ولذلك يتحمَّل المشاقَّ الشَّديدةَ ، ورُكوبَ الأخطار واحتمالَ الملامَةِ ، والصَّبرَ على دواعي الغيِّ والضَّلال ، ومُجاهَدَتُها يُقوِّي سلطانَ المحبّةِ وتَنبُتُ (٤) شجرتَها في القلب ، وتطعمُ ثمرتَها على الجوارح ؛ فإنَّ المحبَّةَ الثابتةَ اللازمةَ على كثرةِ الموانعِ والعوارضِ والصَّوارفِ هي المحبَّةُ الحقيقيَّةُ النَّافعةُ ، وأما المحبَّة المشروطةُ بالعاقبةِ (٥) والنَّعيمِ واللذَّة وحصول مُرادِ المُحِبِّ من محبُوبه فليست محبةً صادقةَ ، ولا ثباتَ لها عند المُعارَضات والموانع ؛ فإنَّ المُعلَّقَ على الشَّرطِ عَدَمٌ عند

---

(١) سقطت "به" من : ص .

(٢) ينظر الصفحة السابقة .

(٣) قال المؤلف رحمه الله : " فإنَّ إيثارَ المحبوبِ على غيره مُوجبُ المحبةِ ومقتضاها ، فإذا استقرتِ المحبةُ في القلبِ استدعتْ من المحبِّ إيثارَ محبوبه على غيره ، وهذا الإيثارُ علامةُ ثبوتِها وصحتها ، فإذا آثرَ غير المحبوبِ عليه ؛ لم يكنْ مُحِبّاً له ، وإن زعمَ أنَّه مُحبٌّ ؛ فإنَّما هو مُحبٌّ لنفسه ولحظِّهِ مِمَّن يُحبُّه " طريق الهجرتين (٥٨٦) .

(٤) في : د : وتُثبِتُ ، وفي : ص : ويُثبِتُ .

(٥) في : د ، ص : بالعافية .

عدمِه ، ومَن ودَّكَ لأمْرٍ وَلَّى عندَ انقضَائِه [١] ، وفرقٌ بين من يعبد اللهَ على السَّراء والرَّخاء والعافية فقط ، وبين من يعبده على السَّراء والضَّراء والشِّدة والرَّخاء والعافية والبلاء [٢] .

السابعة عشرة : أراد سبحانه أن يُظهر الأسباب التي يُحمد عليها

وأيضاً ؛ فإن الله سبحانه له الحمد المطلقُ الكامل الذي لا نهايةَ بعده ، وكان ظهور الأسباب التي يُحمدُ عليها من مُقتضى كونِه محموداً ، وهي من لوازمِ حمدِه تعالى ، وهي نوعان : فضلٌ ، وعدلٌ ؛ إذ هو سبحانه المحمودُ على هذا وعلى هذا ، فلا بُدَّ من ظهور أسبابِ العدلِ ، واقتضائها لمُسمَّياتها ليترتَّب عليها كمالُ الحمد الذي هو أهله ؛ فكما أنَّه سبحانه محمودٌ على إحسانِه وبرِّه وفضله وثوابه ، فهو محمودٌ على عدلِه وانتقامِه وعقابِه ، إذ مصدرُ ذلك كلُّه عن عزته وحكمته.

ولهذا يُنبِّه سبحانه على هذا كثيرا كما في سورة الشعراء حيثُ يذكُرُ في آخرِ كلِّ قصَّةٍ من قَصصِ الرُّسل عليهم السلام وأممِهم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [٣] فأخبر سبحانه أنَّ ذلك صادرٌ عن عزَّتِه المتضمِّنةِ كمالَ قدرتِه وحكمتِه المتضمِّنَةِ كمالَ عِلمِهِ ووضعه الأشياءَ مواضِعَها اللائقةَ بها ، فما وضعَ نعمتَه ونجاتَه لرُسُلِه ولأتباعِهم ، ونقمتَهُ وإهلاكَهُ لأعدائهم ، إلا في محلِّها اللائق بها ؛ لكمالِ عزَّتِه وحكمتِه ، ولهذا قال سبحانه عَقِيبَ إخباره عن قضائِه بين أهل السعادة والشقاوة ومصيرِ كلٍّ منهم إلى دِيارِهم التي لا يليق بهم غيرُها ، ولا تقتضي حكمتُه سواهَا

---

(١) اشتهر على الألسن أنه حديث ، بلفظ : " من أحبك لشيء ملَّك عند انقضائه " وهو ليس بحديث .
ينظر : المقاصد الحسنة ، للسخاوي (ح : ١٠٥٣) ، وتمييز الطيب من الخبيث للزبيدي (١٥٨) ، والشذرة في الأحاديث المشتهرة للدمشقي (٩٠٢/٢) . وهو مثل من الأمثال ، ينظر : العزلة للخطابي (٥٢) ، والبصائر والذخائر للتوحيدي (٥٣) ، وطوق الحمامة لابن حزم (٥) ، والتذكرة الحمدونية لابن حمدون (٢٧٧/١) .

(٢) قال المؤلف رحمه الله في طريق الهجرتين (٥٨٧) : " المحبةُ الخالصةُ أن يُحبَّ المحبوبَ لكمالِه ، وأنَّه أهلٌ أن يُحبَّ لذاتِه وصفاتِه . وأنَّ الذي يُوجبُ هذه المحبةَ فناءُ العبدِ عن إرادَتِه بمُرادِ مَحبوبِه ، فيكونُ عامِلاً على مُرادِ محبوبِهِ منه لا على مُرادِه هو مِن مَحبوبِه ، فهذه هي المحبةُ الخالِصةُ من دَرنِ العِللِ ، وشوائِب النَّفسِ ، وهي التي تستلزم إيثار المحبوب على غيره ، ولا بُدَّ ، وكلَّما كان سلطانُ هذه المَحبةِ أقوى ، كان الإيثار أتمَّ " .

(٣) الشعراء : ٩ .

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ (١) .

الثامنة عشرة : فاوت سبحانه بين عباده لاستخراج عبادة الحمد والشكر

وأيضاً ؛ فإنَّـه سبحانه اقتضـتْ حكمتُـه وحمـدُه أن فـاوتَ بين عبادِه أعظـمَ تفاوتٍ وأبْيَنَهُ ؛ ليشكرَهُ منهم مَنْ ظهَرتْ عليه نعمَتُهُ وفضلُه ، ويعرفَ أنَّه قد حُبيَ بالإنعامِ وخُصَّ دون غيره بالإكرام ، ولو تساووا جميعُهم في النِّعمةِ والعافيةِ لم يعرفْ صاحبُ النِّعمةِ قدْرَها ، ولم يبذُلْ شكرَها ، إذ لا يرى أحداً إلا في مثلِ حالِه . ومن أقوى أسبابِ الشُّكرِ وأعظمِها استخراجاً له من العبدِ أن يرى غيرهُ في ضدِّ حالِه التي هو عليها من الكمالِ والفلاح .

وفي الأثـرِ المشهـورِ : أنَّ الله سبحانه لمَّا أرى آدمَ ذريَّتَهُ وتفـاوتَ مراتِبِهـم ، قال : ( يا ربِّ هلَّا سويت بين عبادِكَ قال : إني أحبُّ أن أُشكرَ ) (٢) .

فاقتضَتْ محبتُه سبحانه لأنْ يُشكَر خَلْقَ الأسبابِ التي يكون شكرُ الشَّاكرين عندها أعظمَ وأكملَ ، وهذا هو عينُ الحكمة الصادرة عن صفة الحمد .

التاسعة عشرة : لا شيء أحبَّ إلى الله من تذلل العبد له وهذا لا يكون إلا في الأرض

وأيضاً ؛ فإنه سبحانه لا شيءَ أحبَّ إليه من العبدِ من تذلُّلِهِ بين يديهِ وخضوعهِ وافتقارهِ وانكسارهِ وتضرعهِ إليه (٣) .

ومعلومٌ أنَّ هذا المطلوبَ من العبد إنَّما يتمُّ بأسبابِه التي يَتَوقَّف عليها ، وحصولُ هذه الأسباب في دارِ النَّعيم المطلقِ ، والعافيةِ الكاملة ممتَنِعٌ ؛ إذ هو مستلزم (٤) للجمعِ بين الضدَّين .

العشرون : أراد سبحانه إنزالهم دارا يجري عليهم فيها أحكام دينه وأمره ليظهر فيه مقتضى الأمر ولوازمه

وأيضاً ؛ فإنَّـه سبحانه له الخلقُ والأمرُ ، والأمرُ هو شرعُه وأمرُهُ ودينُه الذي بعثَ به رُسُلَهُ وأنزلَ به كُتُبَه ، وليست الجنَّةُ دارَ تكليفٍ تجري عليهم فيها أحكامُ التَّكليف ولوازمُها وإنَّما هي دارُ نعيمٍ ولذةٍ ؛ فاقتضتْ حكمتُه سبحانه استخراجَ آدمَ وذُرِّيَّتَه إلى دارٍ يُجري

---

(١) الزُّمَر : ٧٥ .

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (٣٥٣/٢) ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وحسَّنه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٦/١) .

(٣) قال المؤلف رحمه الله في الروح (٢٦٠) : " وأحبُّ ما إليه انكسارُ قلبِ عبدِه بين يديهِ ، وتذَلُّلُه له ، وإظهارُ ضعفِـهِ وفاقتِه وعجزِه ، وقلَّةِ صبرِه " .

(٤) في : ص : إذ ومستلزم .

عليهم أحكامَ دينِه وأمرِه ؛ ليُظهرَ فيهم مقتضى الأمرِ ولوازمَهُ ؛ فإنَّ الله سبحانه كما أنَّ أفعالَه وخلقَه من لوازمِ كمالِ أسمائه الحسنى وصفاته العلى ، فكذلك أمرُه وشرعُه وما يترتب عليه من الثوابِ والعقابِ .

وقد أرشدَ سبحانه إلى هذا المعنى في غيرِ موضعٍ من كتابه ؛ فقال تعالى : ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ (١) ، أي مُهملا مُعطلا لا يُؤمر ولا يُنهى ، ولا يُثابُ ولا يُعاقبُ (٢) وهذا يدلُّ على أنَّ هذا منافٍ لكمال حكمتِه ، وأنَّ ربوبيتَه وعزتَه وحكمتَه تأبى ذلك ولهذا أخرجَ الكلامَ مخرجَ الإنكارِ على من زعم ذلك ، وهو يدلُّ على أنَّ حُسنَه مستقرٌّ في الفِطر والعقول ، وقُبحَ تَركِهِ سدىً معطلاً أيضاً مستقرٌّ في الفطر ، فكيف يُنسبُ إلى الربِّ ما قبحُه مستقرٌّ في فطَرِكم وعقولِكم ؟

وقال تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ (٣) نزَّه نفسَه سبحانه عن هذا الحُسبان الباطلِ المضادِّ لمُوجب أسمائه وصفاته ، وأنه لا يليقُ بجلاله نسبتُه إليه .

ونظائر هذا / في القرآن كثيرةٌ . [٧/أ]

الحادية والعشرون : أراد سبحانه منهم أن ينزلوا دارا فيها ابتلاء وامتحان ليحصل منهم الشكر والجهاد والصبر والتوبة والتطهر

وأيضاً ؛ فإنَّه سبحانه يُحبُّ من عباده أمورًا يتوقَّفُ حصولُها منهم على حصولِ الأسباب المُقتضيةِ لها ، ولا تحصلُ إلا في دارِ الابتلاءِ والامتحانِ ؛ فإنَّه سبحانه يُحبُّ الصابرين ويُحبُّ الشاكرين ، ويُحبُّ الذين يُقاتِلون في سبيله صفًّا ، ويُحبُّ التوابين ، ويُحبُّ المتطهرين .

---

(١) القيامة : ٣٦ .

(٢) ذكرَ ذلك ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٣/٥٢٦) ، ورواه عن ابن عباس رضي الله عنه ، ومجاهد ، والسُّدي . وقال ابن كثير في تفسيره (٨/٢٨٣) : " والظاهرُ أنَّ الآيةَ تعمُّ الحالين ، أي : ليس يُتركُ في هذه الدنيا مُهملاً لا يُؤمر ولا يُنهى ، ولا يُتركُ في قبرِه سُدىً لا يُبعثُ ؛ بل هو مأمورٌ منهيٌّ في الدنيا ، مَحشورٌ إلى الله في الدارِ الآخرة "

(٣) المؤمنون : ١١٥-١١٦ .

ولا ريبَ أنَّ حصُولَ هذه المحبوبات بدونِ أسبابها مُمتنعٌ ،كامتناعِ حصُولِ الملزومِ بدون لازمِه ، والله سبحانه أفرحُ بتوبة عبدِه حين يتوبُ إليه من الفاقدِ لراحلتِه التي عليها طعامُه وشرابُه في أرضٍ دَوِيَّةٍ [١] مَهْلَكَةٍ إذا وجدَها .

كما ثبت في "الصحيح" [٢] عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ( لله أفرحُ بتوبة عبده من رجل في أرضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكَةٍ معه راحلتُه ، عليها طعامُه وشرابُه ، فنام ، فاستيقظَ وقد ذهبَت ، فطلبَها حتى أدرَكَهُ العطش ، ثم قال : أرجعُ إلى المكان الذي كنتُ فيه فأنامُ حتى أموتَ ، فوضع رأسَه على ساعدِهِ ليموتَ ، فاستيقظَ وعنده راحلتُه ، عليها زادُه : طعامُه وشرابُه [٣] ، فالله أشدُّ فرحًا بتوبة العبدِ المؤمنِ من هذا براحلته ).

وهذا غايةُ ما يكونُ من الفرح وأعظمُه ، ومع هذا فالله سبحانه أشدُّ فرحًا بتوبةِ العبدِ المؤمنِ من فرحِ هذا براحلتِه .

وسيأتي إن شاء الله الكلامُ على هذا الحديثِ ، وذكرُ سرِّ الفرحِ بتوبة العبد [٤] .

والمقصودُ أنَّ هذا الفرحَ المذكورَ إنَّما يكونُ بعد التوبةِ من الذنب ، فالتوبةُ والذنبُ لازِمَان لهذا الفرح ، ولا يوجدُ الملزومُ بدون لازمِه ، وإذا كان هذا الفرحُ المذكورُ إنَّما يحصُلُ بالتوبة المُستلزِمةِ للذنب ، فحصوله في دارِ النعيم التي لا ذنبَ فيها ولا مُخالفة ممتنعٌ .

ولـمَّا كان هذا الفرحُ أحبَّ إلى الربِّ سبحانه من عدمِه ، اقتضَتْ محبَّتُهُ له خَلْقَ الأسباب المُفضيةِ إليه ؛ ليَترتَّبَ عليها المُسَبَّبُ الذي هو محبوب له .

الثانية والعشرون : عمارة درجات الجنة المتفاوتة بحسب طاعة العباد

وأيضاً ؛ فإنَّ الله سبحانه جعلَ الجنةَ دارَ جزاءٍ وثوابٍ ، وقسَّم منازلَها بين أهلِها على قَدْرِ أعمالهم ، وعلى هذا خلقَها سبحانه ؛ لِمَا له في ذلك من الحكمةِ التي اقتَضَتْها أسماؤه وصفاتُه ؛ فإنَّ الجنَّةَ درجاتٌ بعضُها فوقَ بعض ، وبين الدرجتين كما بين السماء والأرض

---

(١) الدَّويَّة : هي المفازة الملساء الواسعة . العين للخليل بن أحمد (٩٢/٨) ، ولسان العرب لابن منظور (٢٧٦/١٤) .

(٢) صحيح البخاري (٦٣٠٨) ، وعند مسلم (٢٧٤٤) بنحوه ، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٣) في : ص : عليها زادُه وطعامُه وشرابُه .

(٤) سيذكر ذلك المؤلف رحمه الله في (٢٨٦/١) ، طبعة دار الفكر .

كما في"الصحيح" (١) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ( إنَّ الجنَّةَ مئةُ درجة بين كلِّ درجتَينِ كما بين السَّماء والأرض ) .

وحكمةُ الربِّ سبحانه مُقتضيةٌ لعِمارةِ هذه الدَّرجاتِ كلِّها ، وإنَّما تُعمَرُ ويقعُ التفاوتُ فيها بحسب الأعمال ، كما قال غيرُ واحدٍ من السلفِ : " يَنجونَ من النارِ بعفو الله ومغفرته ويدخلون الجنَّةَ بفضلِه ونعمتِه ، ويتقاسمونَ المنازلَ بأعمالهم " (٢).

دخول الجنة بالعمل أم برحمة الله ؟ وتوجيه قوله صلى الله عليه وسلم : لن يدخل الجنة أحد بعمله

وعلى هذا حمَلَ غيرُ واحدٍ ما جاء من إثباتِ دخولِ الجنةِ بالأعمال ، كقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

قالوا : وأما نفيُ دخلِوها بالأعمالِ كما في قوله صلى الله عليه وسلم : ( لن يَدخُل الجنةَ أحدٌ بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ) (٥) فالمرادُ به نفيُ أصلِ الدخول .

وأحســـنُ مــن هــذا أن يُقـــال : الباءُ المقتضيةُ للدخولِ غيرُ الباءِ التي نُفِيَ معها الدُّخولُ ؛ فالمقتضيةُ هي باءُ السببيَّة الدالة على أن الأعمالَ سببٌ للدخول ، مقتضيةٌ له كاقتضاءَ سائر الأسباب لمُسَبَّباتها ، والباءُ التي نُفِيَ بها الدخول هي باءُ المُعاوَضةِ والمُقابلةِ التي في نحو قولهم : اشتريتُ هذا بهذا (٦).

فأخبرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنَّ دخولَ الجنة ليس في مُقابلةِ عملِ أحدٍ ، وأنَّه لولا تغمُّدِ الله سبحانه لعبده برحمته لمَا أدخله الجنة ، فليسَ عملُ العبدِ وإن تناهى مُوجِباً

---

(١) صحيح البخاري ( ٢٧٩٠ ، ٧٤٢٣ ) بنحوه ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه هنـاد في الزهـد (١/١٩٨) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفًا ، وأبو نعيم في حلية الأولياء ( ٤/٢٤٦ ) عن عون بن عبد الله .

(٣) الزُّخرُف : ٧٢ .

(٤) النحل : ٣٢ .

(٥) رواه البخاري ( ٥٦٧٣ ) ، ومسلم (٢٨١٦ ) كلاهما بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٦) تكلَّم المؤلف رحمه الله حول هذا في : مدارج السالكين (١/٩٤) ، وحادي الأرواح (٨٧) ، وينظر كلام شيخ الإسلام في جامع الرسائل (١/١٤٣) ، ومجموع الفتاوى ( ٨/٧٠ ) .

بمُجرَّدِه لدخول الجنة ، ولا عوضاً لها ، فإنَّ أعماله وإنْ وقَعتْ منه على الوجه الذي يحبُّـهُ اللهُ ويرضاه ، فهي لا تقاوم نِعَمَهُ التي أنعم بها عليه في دار الدنيا ، ولا تُعادِلُها بل لو حاسَبه لوقعت أعمالُه كلُّها في مقابلة اليسير من نِعَمِه ، وتَبَقّى بقيةُ النِّعم مُقتضيةً لشُكرها ، فلو عذَّبه في هذه الحالِ لعذَّبه وهو غيرُ ظالم له ، ولو رحِمَه لكانت رحمتُه خيراً له من عمله ؛ كما في السُّننِ [١] من حديثِ زيدِ بن ثابتٍ [٢] ، وحُذيفةَ [٣] رضي الله عنهما ، وغيرهما ، مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : ( إنَّ اللهَ لو عذَّب أهلَ سمواتِه وأهلَ أرضِه لعذَّبَهُم وهو غيرُ ظالم لهم ، ولو رحِمَهم لكانت رحمتُه لهم خيراً [٤] من أعمالهم ).

والمقصودُ أنَّ حكمتَه سبحانه اقتضَتْ خلقَ الجنَّة درجاتٍ بعضها فوق بعض وعِمارتَها بآدمَ وذريَّته ، وإنزالَهم فيها بحسبِ أعمالِهم ، ولازمُ هذا إنزالهم إلى دارِ العملِ والمُجاهدة .

الثالثة والعشرون : أذاق الله آدم نعيم الجنة ثم أخرجه منها ليكون هو وبنوه إليها أشوق وعليها أحرص

وأيضاً ؛ فإنَّه سبحانه خلَقَ آدمَ وذُرِّيتَه ليستخلِفَهم في الأرضِ ، كما أخبر سبحانه في كتابِهِ بقولِهِ : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [٥] ، وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ

---

(١) رواه أبو داوود ( ٤٦٩٩ ) ، وابن ماجه ( ٧٧) ، وأحمد ( ٥/ ١٨٩ ) ، وصححه ابن حبان ( ٧٢٧ ) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٤٤) .

(٢) زيد بن ثابت بن الضّحاك بن زيد بن لوذان بن النّجار الأنصاريّ ، الخزرجيّ، أبو سعيد ، استصغره الرسول صلى الله عليه وسلم يوم بدر ؛ فردَّه ، وشهد أحداً ، ويقال : أوَّلُ مشاهدِه : الخندق ، كان من علماء الصحابة . توفي عام : ٤٥ هـ .
الاستيعاب لابن عبد البر (٥٣٧/٢) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٥١٥/١) ، والإصابة لابن حجر (٤٩٠/٢) .

(٣) حذيفة بن حِسل بن جابر بن عمرو بن ربيعة ، أبو عبد الله العَبْسِي ، واليمانُ لقب حِسل بن جابر ، وحذيفة صاحب سرِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين ، ولَّاه عمر رضي الله عنه المدائن بفارس ، فكان من الولاة الفاتحين ، توفي عام : ٣٦ هـ .
أسد الغابة لابن الأثير (٤٦٨/١) ، والإصابة لابن حجر (٣٩/٢) .

(٤) في : د ، ص : خيراً لهم .

(٥) البقرة : ٣٠ .

خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾[١] ، وقال : ﴿ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾[٢] .

فأرادَ سبحانه أن ينقلَهُ وذُريَّته من هذا الاستخلافِ إلى توريثِهِ جنَّةَ الخُلد ، وعلِمَ سبحانه بسابِقِ علمِه أنَّه لضعفِه وقصورِ نظرِه ، قد يختارُ العاجلَ الخسيسَ على الآجلِ النَّفيسِ فإنَّ النفسَ مُولَعةٌ بحبِّ العاجلةِ ، وإيثارِها على الآخرةِ ، وهذا من لوازمِ كونهِ : ﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٍ ﴾[٣] ، وقوله : ﴿ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ﴾[٤] .

فعَلِمَ سبحانه ما في طبيعتِه من الضَّعفِ والخَور ، فاقتضَت حكمتُه أن أدخلَه الجنَّة ليعرفَ النَّعيمَ الذي أُعدَّ له عياناً ؛ فيكونَ إليه أشوقَ ، وعليه أحرَصَ ، وله أشدَّ طلباً فإنَّ محبَّةَ الشيءِ وطلَبَهُ ، والشوقَ إليه من لوازمِ تصوُّرِه ، فمن باشر طِيبَ شيء ولذَّتَه وتذوَّق به لم يكنْ يصبرُ عنه ، وهذا لأنَّ النفْسَ ذواقةٌ تواقةٌ ، فإذا ذاقَتْ تاقَتْ ، ولهذا إذا ذاقَ العبدُ طعمَ الإيمانِ ، وخالطَ بشاشةَ قلبِهِ ، رسخَ فيه حبُّهُ ، ولم يُؤْثِر عليه شيئاً أبداً .

وفي " الصَّحيح " [٥] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه [٦] المرفوع : ( إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يسألُ الملائكةَ ، فيقول : ما يسألُ عبادي ؟ فيقولون : يسألونَكَ الجنَّة ، فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا يا ربِّ ، فيقول : كيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها لكانوا أشدَّ لها طلباً ).

---

(١) الأنعام : ١٦٥ .

(٢) الأعراف : ١٢٩.

(٣) الأنبياء : ٣٧ . في : د و ص : وهذا من لوازم كونه خلق من عجل .

(٤) الإسراء : ١١. في النسخ : وقوله : وخلق الإنسان عجولا .

(٥) رواه البخاري ( ٦٤٠٨ ) ، ومسلم ( ٢٦٨٩ ) ، كلاهما بنحوه وتكملة الحديث : (... قال فمم يتعوذون ؟ قال يقولون من النار قال يقول وهل رأوها ؟ قال : يقولون لا والله يا رب ما رأوها ، قال : يقول فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون لو رأوها كانوا أشدَّ منها فراراً ، وأشدَّ لها مخافةً ، قال : فيقول فأُشهدكم أني قد غفرت لهم . قال : يقول ملك من الملائكة فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة ! قال : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم ) .

(٦) عبد الرحمن بن صخر الدوسي ، وقد اختلف في اسمه ، كُني بأبي هريرة ؛ لأجل هرَّةٍ كان يلعب بها حينما كان يرعى غنما لأهله ، وقد أسلم عام خيبر ، وتوفي عام : ٥٧ هـ .

الاستيعاب لابن عبد البر (١٧٦٨/٤) ، وأسد الغابة لابن الأثير ( ٣١٣/٦) ، والإصابة لابن حجر (٧/ ٣٤٨) .

فاقتضتْ حكمتُه أنْ أراها أباهُم (١) وأسكنَه إيَّاها ، ثم قصَّ على بنِيه قِصَّتهُ ، فصاروا كأنَّهم مُشَاهِدِينَ لها حاضرين مع أبيهم ، فاستجابَ مَن خُلقَ لها وخُلِقَت له ، وسارع إليها ، ولم يَثْنِهِ عنها العاجلةُ ، بل يَعُدُّ نفسَه كأنَّه فيها ، ثم سَبَاهُ العدوُّ ، فرأها وطنَه الأول ، فهو دائمُ الحنين إلى وطنه ، ولا يَقَرُّ (٢) قَرارُهُ حتى يرى نفسَهُ فيه ، كما قيل (٣) :

نقِّل فُؤادُكَ حيثُ شِئْتَ مِن الهَوى ... ما الحُبُّ إلا للحبيبِ الأوَّلِ
كم مَنزِلٍ في الأرضِ يَألَفُهُ الفَتى ... وحَنينُه أبداً لأوَّلِ مَنزِلِ

/ ولي من أبياتٍ تُلِمُّ بهذا المعنى : [٨/أ]

وحيَّ على جنَّاتِ عدنٍ فإنَّها ... منازِلُكَ الأُولى وفيها المُخَيَّمُ
ولكنَّنا سبيُ العدوِّ فهَل تُرى ... نَعودُ إلى أوطانِنا ونُسَلَّمُ (٤)

أسرار هذه الحِكم السابقة
أولاً : أن الغايات المطلوبة لا تُنال إلا بأسبابها المفضية إليها

فسرُّ هذه الوجوه أنَّه سبحانه وتعالى سبَقَ في حُكمه وحكمتِه أنَّ الغاياتِ المطلوبةَ لا تُنال إلا بأسبابها التي جعلها الله أسباباً مفضيةً إليها ، [ ومن تلك الغاياتِ أعلى أنواعِ النَّعيمِ ، وأفضلِها وأجلِّها ، فلا تُنالُ إلا بأسبابٍ نصَبَها مُفضيةً إليها ] (٥) ، وإذا كانت الغاياتُ [ التي ] (٦) هي دونَ ذلك لا تُنال إلَّا بأسبابها ، مع ضعفِها (٧) وانقطاعِها كتحصيلِ المأكولِ والمشروبِ ، والملبوسِ ، والولدِ ، والمالِ ، والجاهِ في الدنيا فكيف يُتوهَّم حُصولُ أعلى الغاياتِ ، وأشرفِ المقاماتِ بلا سببٍ يُفضي إليه ؟.

ولم يكن تحصيلُ تلك الأسبابِ إلَّا في دارِ المجاهدةِ والحرب ؛ فكان إسكانُ آدمَ وذُرِّيَّتِه هذه الدَّارَ التي ينالون فيها الأسبابَ المُوصِلَةَ إلى أعلى المقاماتِ ، من تَمَام إنعامِهِ عليهم .

---

(١) في : د ، ص : إيَّاهم .
(٢) في : د ، ص : لا يَقَرُّ .
(٣) لأبي تمام في ديوانه (٧٤٥ ) .
(٤) هذان البيتان من قصيدة المؤلف الموسومة بالميمية ، وهي مئتان وتسعة وعشرون بيتاً ، وقد طبعت مع قصيدته النونية ، الناشر : مكتبة ابن تيمية في القاهرة .
(٥) ليست في النسخ ، والمثبت من المطبوع ، طبعة دار الفكر .
(٦) سقط من : ص .
(٧) في : ص : مع صفتها .

ثانياً : أن الرسالة والنبوة والخلة والتكليم والولاية والعبودية من أشرف المقامات ؛ فأنزلهم داراً اصطفى منهم هؤلاء

وسِرُّها أيضاً أنَّــه سبحانه جعلَ الرِّسالةَ والنبوةَ ، والخُلَّةَ والتكليمَ ، والولايَةَ والعبوديَّة من أشرفِ مقاماتِ خلْقِه ، ونهاياتِ كمالهم ؛ فأنزلهم داراً أخرجَ منهم الأنبياء ، وبعثَ فيها الرُّسلَ ، واتَّخذَ منهم مَن اتخذ خليلاً ، وكلَّم موسى تكليماً ، واتخذ منهم أولياءَ وشهداء ، وعبيداً ، وخاصَّةً ، يُحبُّهم ويُحِبُّونه ، وكان إنزالُهم إلى الأرض من تمامِ الإنعامِ والإحسان .

ثالثاً : أنه أظهر لخلقه من آثار أسمائه وصفاته وجريان أحكامها عليهم

وسِرُّها أيضاً أنَّــه أظهرَ لخلقه من آثارِ أسمائه ، وجَرَيَان أحكامها عليهم ما اقتضَتْهُ حكمتُه ، ورحمتُه ، وعِلْمُه.

رابعاً : أنه سبحانه تعرَّف إلى خلقه بأفعاله وأسمائه وصفاته

وسِرُّها أيضاً أنَّه تَعرَّف إلى خلقِه بأفعاله ، وأسمائه ، وصفاته ، وما أحدثَه في أوليائه وأعدائه ، من كرامتِه وإنعامِه على الأولياء ، وإهانتِه وانتقامِه للأعداء ، ومِنْ إجابته دعواتهم ، وقضائه حوائجَهم ، وتفريج كُرُبَاتهم ، وكشفِ بلائِهم ، وتصريفهم تحت أقدارِه كيف يشاء ، وتقليبهم في أنواع الخير والشرِّ ؛ فكان في ذلك أعظمَ دليلٍ لهم على أنَّه ربُّهم ومليكُهُم ، وأنَّه الله الذي لا إلهَ إلا هو ، وأنَّه العليم الحكيم السَّميع البصير ، وأنَّه الإلهُ الحقُّ ، وكلُّ ما سواه باطل .

فتظاهرَتْ أدلةُ ربوبيته وتوحيده في الأرض ، وتنوعت ، وقامت من كلِّ جانبٍ ؛ فعَرَفَه المُوَفَّقون من عباده ، وأقروا بتوحيده إيماناً وإذعاناً ، وجَحَدَه المَخذُولون مِن خليقته وأشركوا به ظلماً وكُفراناً ، فهَلَك من هلَكَ عن بيِّنةٍ وحيَّ مَن حيَّ بينة ، والله سميع عليم .

ومن تأمَّل آياتِه المشهودَة ، والمسموعةَ في الأرض ، ورأى آثارَهَا ، عَلِمَ تمامَ حكمتِه في إسكانِ آدمَ وذريَّتِه في هذه الدَّار إلى أجلٍ معلومٍ ؛ فالله سبحانه إنَّما خلقَ الجنَّة لآدمَ وذريَّته ، وجعلَ الملائكةَ فيها خَدَمَاً لهم ، ولكنِ اقتضتْ حكمتُه أنْ خلقَ لهم داراً يتزوَّدُون منها إلى الدَّار التي خُلقَتْ لهم ، وأنَّهم لا ينالونها إلَّا بالزَّاد ، قال تعالى في هذه الدَّار : ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١) ، فهذا شأنُ الانتقالِ في الدُّنيا من بلدٍ إلى بلد

(١) النحل : ٧ .

فكيف الانتقال من الدُّنيا إلى دار القـرار ؟ ، وقال تعالى : ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ (١) .

فباعَ المَغْبُونُون منازلَهُم منها بأبخَسِ الحظِّ ، وأنقصِ الثَّمنِ ، وباعَ المُوفَّقون نفوسَهُم وأموالَـــهم من الله ، وجعلوهــا ثمَنَاً للجنة ؛ فــربِحَت تجارتُــهم ، ونالوا الفوزَ العظيــمَ قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ (٢) .

ما أخرج الله آدم من الجنة إلا وهو يريد أن يعيده إليها أكمل إعادة

فهو سبحانه ما أخرجَ آدمَ منها إلا وهو يُريد أن يُعيده إليها أكملَ إعادةٍ ، كما قيل على لسانِ القدرِ : يا آدمُ ، لا تجزعْ مِن قولي لك : اخرُجْ منها ، فلك خلقتها ، فإنِّي أنا الغنيُّ عنها وعن كلِّ شيءٍ ، وأنا الجــوادُ الكريمُ ، وأنا لا أتمتَّعُ فيها فإنِّي أُطْعِــمُ ولا أُطْعَــمُ ، وأنا الغنيُّ الحميد ، ولكن انْزِلْ إلى دارِ البَذْرِ ، فإذا بذَرتَ فاستوى الزَّرعُ على سُوقِه وصارَ حصيداً ، فحينئذٍ فتعــال فاسْتَوفِــهِ أحــوجَ ما أنت إليه ، الحبَّةُ بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، فإنِّي أعلمُ بمصلحتك منك ، وأنا العليم الحكيم .

الخلاف في الجنة التي أسكنها آدم ثم أنزل منها

فإن قيلَ : ما ذكرتموه من هذه الوجوهِ وأمثالِها إنَّما يَتمُّ إذا قيل : إنَّ الجنَّة التي أُسْكِنَهَا آدمُ وأُهْبِطَ منها جنَّةُ الخلد التي أُعِدَّتْ للمتقين والمؤمنين يوم القيامة ، وحينئذٍ يظهرُ سِرُّ إهباطِهِ وإخراجِه منها .

القول بأنها جنة في الأرض في موضع عالٍ منها وأدلتهم على ذلك

ولكنْ قد قالت طائفةٌ منهم أبو مسلم (٣) ، ومُنذرُ بن سعيد البَلُّوطي (٤) وغيرهما ، إنها

---

(١) البقرة : ١٩٧ .

(٢) التوبة : ١١١ .

(٣) محمد بن بحر الأصبهاني ، كان على مذهب المعتزلة ، له في التفسير كتاب " جامع التأويل " في أربعة عشر مجلداً ، وهو مفقود لم يصل إلينا ، وله كتب في النحو ، توفي عام : ٣٢٢هـ . الوافي بالوفيات لخليل بن أيبك الصفدي (١٧٥/٢) ، ولسان الميزان لابن حجر (٦/٧) .

(٤) أبو الحكم ، منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن النفزي البلُّوطي ، نسبته إلى "فحص البلوط" قرية قريبة من قرطبة ، قاضي الأندلس في عصره ، كان فقيها ، خطيباً ، شاعراً ، فصيحا ، له مؤلفات في : التفسير ، والسنة والورع ، والرد على أهل الأهواء والبدع ، وكتابه في التفسير مفقود ، توفي عام : ٣٥٥ هـ . =

**إنما كانتْ جنةً في الأرض في موضعٍ عالٍ منها ، لا أنَّها جنةُ المأوى التي أعدَّهَا الله لعباده المؤمنين يوم القيامة (١) .**

**وذكر مُنذرُ بن سعيد هذا القول في " تفسيره " عن جماعة ، فقال : " أما قوله لآدم : ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ (٢) ، فقالت طائفة : أسكَنَ اللهُ تعالى آدمَ جنَّةَ الخُلدِ التي يدخُلُها المؤمنون يوم القيامة. وقال آخرون : هي جنَّةٌ غيرهَا جعلها الله له ، وأسكنَهُ إيَّاها ليست جنَّةَ الخلد " .**

احتجاجهم بأن الجنة التي تُدخل بعد القيامة هي من حيِّز الآخرة

**قال : " وهذا قولٌ تكثُر الدَّلائل الشاهدةُ له ، والمُوجبةُ للقول به ؛ لأنَّ الجنَّةَ التي تُدْخَلُ بعد القيامة هي من حَيِّـزِ الآخرةِ ، وفي اليوم الآخر تُدْخَلُ ؛ ولم يأتِ بعدُ ، وقد وصَفَها الله تعالى لنا في كتابِه بصفاتها ، ومُحالٌ أن يصف الله شيئاً بصفةٍ ثمَّ يكون ذلك الشيءُ بغير تلك الصِّفَة التي وصفها به ، والقولُ بهذا دافعٌ لما أخبَرَ اللهُ به " .**

احتجاجهم بأن الله وصف جنة الخلد بصفات لم تكن في الجنة التي دخلها آدم كالمقامة والخلد وغيرهما

**قالوا : وجدنا اللهَ تبارك وتعالى وصفَ الجنَّة التي أُعدَّت للمُتَّقين بعد قيام القيامة بدارِ المُقامةِ ، ولم يُقِمْ آدمَ فيها .**

**وَوَصَفها بجنَّةِ الخُلدِ ولم يُخَلَّد آدمَ فيها .**

**وَوَصَفَها بأنَّها دارُ جــزاءٍ ، ولم يقُـلْ : إنَّها دارُ ابتــلاءٍ ، وقد ابتلي آدمُ فيها بالمعصية والفتنة .**

**وَوَصَفها بأنَّها ليس فيها حَزَنٌ ، وأنَّ الداخلين إليها يقولون : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾ (٣) ، وقد حَزِنَ فيها آدمُ .**

**ووجدناه سمَّاها : دار السلام ولم يَسْلَمَ فيها آدمُ من الآفاتِ التي تكونُ في الدنيا .**

---

= تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي (١٤٢/٢) ، وجذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي (٣٤٨) ، وإنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي (٣٢٥/٣) ، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للتلمساني (٣٧٢/١) .

(١) وقد بسط المؤلف هذه المسألة في كتابه : حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (٢٢) . وينظر حولها : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٤٧/٤) ، والنبوات له (٨٤٩/٢) ، وتفسير ابن كثير (٢٣٣/١) ، والبداية والنهاية لابن كثير (١/ ٧٤) .

(٢) البقرة : ٣٥ .

(٣) فاطر : ٣٤ .

وسمَّاها دارَ القرار ولم يستقر فيها آدم .

وقال فيمن يدخُلُها : ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾(١) ، وقد أُخرِجَ منها آدمُ بمعصيته .

وقال : ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٌ﴾(٢) ، وقد نَـدَّ آدمُ فيها هارباً فـارَّاً عند اصابتِه المعصيةَ ، وطَفِقَ يخصِفُ ورقَ الجنَّـةِ على نفسِـهِ ، وهذا النَّصَبُ بعينه الذي نفاه الله عنها .

وخَبَّرَ (٣) أنَّه لا يُسْمَعُ فيها لغوٌ ولا تأثيمٌ ، وقد أَثِمَ فيها آدمُ ، وأُسمعَ ما (٤) هو أكبرُ من اللغو ، وهو أنَّه أُمِـرَ فيها بمعصيةِ ربِّه .

وأخبَرَ أنَّه لا يُسْمَعُ فيها لغوٌ ولا كِذَّابٌ ، وقد أسمَعَه فيها إبليسُ الكذبَ وغـرَّه ، وقاسَمَه عليه أيضاً بعد أن أسمَعَه إيَّاه .

وقد شـربَ آدمُ من شرابها الذي سمَّاه في كتابه ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾(٥) أي : مُطهَّراً من جميع الآفات المذمومة ، وآدم لم يُطهَّر من تلك الآفات .

وسمَّاها الله تعالى : ﴿مَقۡعَدِ صِدۡقٍ﴾(٦) ، وقد كَذَبَ / إبليسُ فيها آدمَ ، ومَقْعَدُ الصِّدقِ لا كذِبَ فيه. [٩/أ]

وعِلِّيُّون لم يكن فيه استحالةٌ قطُّ ولا تبديلٌ ، ولا يكون بإجماع المصلِّين ، والجنة في أعلى علِّيِّين .

احتجاجهم بأن الله أعلم الملائكة أن بني آدم سيفسدون في الأرض

والله تعالى فإنَّما قال : ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾(٧) ، ولم يقل : إنِّي جاعله في جنة المأوى ، فقالت الملائكة : ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾(١)

---

(١) الحِجر : ٤٨ .

(٢) الحِجر : ٤٨ .

(٣) في : ص : وأخبر .

(٤) في : د ، ص : وأُسمع فيها .

(٥) الإنسان :٢١.

(٦) القمر : ٥٥ .

(٧) البقرة : ٣٠ .

والملائكـةُ أتقَى لله مِنْ أن تقولَ ما لا تعلم ، وهم القائلون : ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [٢] ، وفي هذا دلالةٌ أنَّ الله قد كان أعلمهم أنَّ بني آدم سيُفسِدُون في الأرض ، وإلّا فكيف كانوا يقولون مالا يعلمون ، والله تعالى يقول . وقوله الحق . : ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [٣] ، والملائكةُ لا تقولُ ولا تعملُ إلا بما تُؤمَرُ به لا غيرَ ، قال الله تعالى : ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٤] .

احتجاجهم بأن آدم لم يردَّ نصيحة إبليس له ويُكذِّبه في قوله

والله تعالى أخبرنا أنَّ إبليسَ قال لآدم : ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[٥] فإن كان أسكَنَ الله آدمَ جنةَ الخُلدِ ، والملكَ الذي لا يبلى ، فكيف لم يردَّ عليه نصيحتَه ويُكذِّبْهُ في قوله ؛ فيقول : وكيفَ تَدلُّني على شيءٍ أنا فيه قد أُعطِيتُه واحتَزتُه ؟

بل كيف لم يَحْثُ التُّرابَ في وجهِه ويَسُبَّه ؟ ؛ لأنَّ إبليسَ ليس كان يكونُ بهذا الكلام مُغْوِياً له ، إنَّما كان زَارِيَـاً عليه [٦] ، لأنَّه إنَّما وعَدَهُ على معصية ربِّه بما كان فيه لا زارِياً عليه ، ومثلُ هذا لا يُخَاطَبُ به إلَّا المجانين الذين لا يعقلون ؛ لأنَّ العِوَضَ الذي وعدَه به بمعصيةِ ربِّه قد كان أحرَزَهُ ، وهو الخُلد والمُلْكُ الذي لا يبلى .

ولم يُخبر اللهُ آدمَ إذ أسكنَهُ الجنَّة أنَّه فيها من الخالدين ، ولو كان فيها [٧] من الخالدين لمَا ركَنَ إلى قول إبليسَ ، ولا قبِلَ نصيحتَه ، ولكنَّه لمَّا كان في غيرِ دارِ خُلودٍ غرَّهُ بما أطمعهُ فيه من الخُلد ، فقَبِلَ منه ، ولو أخبرَ اللهُ آدمَ أنَّه في دار الخُلد ثمَّ شَكَّ في خبرِ ربِّه لسمَّاه كافراً ، ولمَا سمَّاه عاصياً ؛ لأنَّ من شكَّ في خبر الله فهو كافر ، ومن فعَل

---

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) البقرة : ٣٢ .

(٣) الأنبياء : ٢٧ .

(٤) النحل : ٥٠ .

(٥) طه : ١٢٠ .

(٦) الـزَّرْيُ : أَن يَـزْرِيَ فـلانٌ على صاحبه أمـراً ، أي : يعيبه ويُعَنِّفَه ليرجع ؛ فهو زارٍ عليه . العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (٣٨١/٧) ، ولسان العرب لابن منظور (٣٥٦/١٤) .

(٧) في : ص : فيه .

غير ما أمره الله به وهو مُعتقدٌ للتصديق لخبر ربه فهو عاصٍ ، وإنَّما سمَّى اللهُ آدمَ عاصياً ولم يُسَمِّه كافراً .

احتجاجهم بوصول إبليس إلى آدمَ ودخوله عليه الجنة وهو الرِّجس النَّجس

قالوا : فإن كان آدمُ أُسكِنَ جنَّةَ الخُلدِ [١] ، وهي دارُ القُدُسِ التي لا يدخلها إلَّا طاهرٌ مُقدَّسٌ ؛ فكيف تَوَصَّلَ إليها إبليسُ الرِّجسُ النَّجسُ الملعونُ المذمومُ المدحورُ حتَّى [٢] فتَنَ فيها آدمَ ؟

وإبليسُ فاسقٌ قد فسقَ عن أمرِ ربِّه ، وليست جنَّةُ الخُلدِ دارَ الفاسقين ، ولا يدخُلُها فاسقٌ بتَّةً ، إنَّما هي دارُ المتقين ، وإبليسُ غيرُ تقيٍّ ، فبعد أن قيل له : اهبطْ منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، أيُفسَحُ له أنْ يرقى إلى جنَّة المأوى فوق السماء السابعة بعد السَّخطِ والإبعادِ له بالعُتُوِّ والاستكبار ؟

هذا مُضادٌّ لقوله تعالى : ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ﴾ [٣] ، فإن كانت مخاطبةُ آدمَ بما خاطبه به وقاسَمَهُ عليه ليس تكبُّراً ، فليس تعْقِلُ العربُ التي نزل القرآنُ بلسانها ما التَّكبُّر !

ردّهم على من زعم أن إبليس لم يدخل الجنة ولكن وسوسته هي التي وصلت آدم

ولعلَّ من ضعُفَتْ رويَّتُه وقَصُرَ بَحثُه [٤] أن يقول : إنَّ إبليسَ لم يصِلْ إليها ، ولكنَّ وسوستَه وصلت ، فهذا قولٌ يُشْبِهُ قائِلَه ، ويُشَاكِلُ مُعتَقِدَه ، وقولُ الله تعالى حكَمٌ بيننا وبينَهُ ، وقوله تعالى : ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ [٥] ، يرُدُّ ما قال ؛ لأنَّ المُقاسمةَ ليست وسوسةً ولكنَّها مخاطبـةٌ ومُشافهـةٌ ، ولا تكونُ إلَّا من اثنيـن ، وشاهدين غير غائبين ، ولا أحدِهما [٦] .

(١) في : د ، ص : أُسكن الجنَّة جنَّة الخُلد .
(٢) في : ص : حين .
(٣) الأعراف : ١٣ .
(٤) في : د ، ص : وقصر به بحثُه .
(٥) الأعراف : ٢١ .
(٦) ينظر : تفسير الرازي (٤٦٢/٣) ، وتفسير أبي حيان (٢٦/٥) .

**ومما يدُلُّ على أنَّ وسوستَه كانت مخاطبةً قولُ الله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ ﴾(١) الآية ، فأخبر أنَّه قال له ، ودلَّ ذلك على أنَّه إنَّما وسوس إليه مخاطبة ، لا أنَّه أوقعَ ذلك في نفسِه بلا مُقاوَلة ، فمن ادَّعى على الظَّاهر تأويلاً ولم يُقِمْ عليه دليلاً لم يَجِبْ قَبُولُ قوله .**

**وعلى أنَّ الوسوسةَ قد تكون كلاماً مسموعاً أو صوتاً ، قال رؤبة (٢) :**

**وَسْوَسَ يدعو مُخْلِصَاً ربَّ الفلقِ (٣)**

**وقال الأعشى (٤) :**

**تسمعُ للحَلْيِ وَسْوَاساً إذا انصَرَفَتْ كما استعانَ بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ (٥)**

**قالوا : وفي قول إبليسَ لهما : ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ﴾ (٦) دليل على مُشاهدتِه لهما وللشجرة .**

---

(١) طه : ١٢٠ .

(٢) رؤبةُ بن عبد الله العَجَّاج بن رؤبة التميمي السعدي ، من الفصحاء المشهورين، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية كان رأساً في اللغة ، أخذ عنه أعيانُ أهلِ اللغة ، وكانوا يحتجون بشعرِهِ ، ويقولون بإمامته في اللغة ، توفي عام : ١٤٥ هـ سير أعلام النبلاء للذهبي (١٦٢/٦) ، والوافي بالوفيات لخليل بن أيبك الصفدي (٩٩/١٤)

(٣) العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (٦٢/١) ، وإصلاح المنطق لابن السكيت (٢٩١) .

(٤) ميمون بن قيس بن جندل ، يعرف بأعشى قيس ، ينتهي نسبه إلى ربيعة بن نزار ، ويكنى بأبي بصير ، شاعر جاهلي أدرك الإسلام ، وقدم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ورَدَّتهُ قريش عنه ، توفي عام : ٧ هـ .
طبقات فحول الشعراء ، لمحمد بن سلام الجمحي (١/ ٥٢) ، والشعر والشعراء لابن قتيبة (١٥٩) .

(٥) ديوانه (٤٨) .
وسواس : صوت الحلي ، لسان العرب لابن منظور (٢٥٤/٦) .
والعِشرقُ : نبات ينفرشُ على الأرض ، عريض الورق . المصدر السابق (٢٥٢/١٠) .
وزَجِل ، أي : صوت ، يُقال : نبت زجِلٌ : صوّتت فيه الريح . المرصدر السابق (١١/ ٣٠٢) .

(٦) الأعراف : ٢٠ .

ولمَّا كان آدم خارجاً من الجنَّة وغيرَ ساكنٍ فيها ، قال الله : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ﴾ (١) ، ولم يقل : عن هذه الشجرة ، كما قال له إبليس لأنَّ آدمَ لم يكن حينئذٍ في الجنَّة ولا مُشاهداً للشجرة.

مع قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ (٢) ؛ فقد أخبر سبحانه خبراً مُحكَمًا غيرَ مُشتَبِهٍ أنَّه لا يصعدُ إليه إلَّا كلِمٌ طيِّبٌ وعملٌ صالحٌ وهذا مما قدَّمنا ذِكرَهُ (٣) : أنَّه لا يلجُ المُقدَّسَ المطَهَّرَ إلَّا مُقَدَّسٌ مُطهَّرٌ طيِّبٌ ، ومَعَاذ الله أن تكون وَسوَسَةُ إبليسَ مُقدَّسةً أو طاهرةً أو خيراً ، بل هي شرٌّ كلُّها ، وظلمةٌ ، وخَبَثٌ ورجسٌ ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وكما أنَّ أعمالَ الكافرين لا تلِجُ القُدُسَ الطاهرَ ولا تصِلُ إليهِ ؛ لأنَّها خبيثةٌ غيرُ طيِّبةٍ كذلك لا تصِلُ ، ولم تصِلْ وسوسةُ إبليس ، ولا وَلَجَت القُدُسَ ، قال تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ (٤) .

احتجاجهم بما روي أنَّ آدم نام في جنته ، وجنة الخلد لا نوم فيها

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : ( أنَّ آدم نام في جنتِهِ ) (٥) وجنَّةُ الخُلد لا نومَ فيها بإجماع من المسلمين (٦) ؛ لأنَّ النَّومَ وفاةٌ ، وقد نطَقَ به

(١) الأعراف : ٢٢ .
(٢) فاطر : ١٠ .
(٣) تقدَّم ذلك ص : ٧١ .
(٤) المطفِّفين : ٧ .
(٥) روي موقوفا على بعض الصحابة كابن مسعود رضي الله عنه وغيره ، في سياق قصةِ إخراجِ إبليسَ وطردِه من الجنة ، رواه ابن جرير في تفسيره (٥٤٨/١) ، وفي التاريخ(٦٩/١) ، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢٥٩/٢) ، من طريق إسماعيل بن عبد الرحمن السدي ، وهو متكلم فيه ، قال عنه الإمام أحمد رحمه الله كما في تهذيب التهذيب (٣١٤/١) : " إلا أنَّ هذا التَّفسيرَ الذي يجيء به قد جعلَ له إسناداً ، واستكلفه " ، وقد قال عنه ابن جرير رحمه الله : "إذ كنتُ بإسناده مُرتابًا " ، وضعَّفَهُ الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة ، رقم الحديث (٦٤٩٩) .
وأشار المؤلف في حادي الأرواح (ص ٣٤) إلى أنَّه موقوفٌ من رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد .
(٦) في : ص : المصلين .

**القــرآنُ (١) ، والوفاةُ تقلُّبُ حالٍ ، ودارُ السَّلام مُسلَّمةٌ من تقلُّبِ الأحوالِ ، والنائمُ ميِّتٌ أو كالميِّت .**

احتجاجهم بقول النبي صلى الله عليه وسلم لأم حارثة : أو جنة واحدة هي؟

**قالوا : وقد رُويَ عنه صلى الله عليه وسلم أنَّه قال لأمِّ حارثة (٢) لمَّا قالت له : يا رسول الله إنَّ حارثةَ (٣) قُتِلَ معك ، فإنْ كان صارَ إلى الجنَّة صبرتُ واحتسبتُ ، وإنْ كان صار إلى ما سوى ذلك رأيتَ ما أفعلُ ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( أو جنَّةٌ واحدةٌ هي ! إنَّما هي جِنَانٌ كثيرةٌ ) (٤).**

**فأخبر صلى الله عليه وسلم أنَّ لله جنات كثيرة ؛ فلعلَّ آدمَ أسكنه اللهُ جنَّةً من جِنَانِه ليست جنَّةَ الخلد.**

احتجاجهم بما رُوي أنَّ جنة آدم كانت بأرض الهند

**قالـوا : وقد جاء في بعض الأخبار أنَّ جنَّةَ آدم كانت بأرض الهند (٥).**

**قالـوا : وهذا وإنْ كان لا يُصَحِّحـه رواة الأخبـار ونَقَلَـةُ الآثـار ، فالذي تقْبَلُه الألباب ويشهد له ظاهرُ الكتابِ أنَّ جنَّة آدمَ ليست جنَّةَ الخُلد ، ولا دارَ البقاءِ ، وكيف**

---

(١) يريد قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢ ]

(٢) الرُّبَيِّعُ بنت النَّضر بن ضَمْضَم بن زيد بن حرام الأنصارية النجَّارية ، أم حارثة ، وأخت أنس بن النضر ، وعمَّة أنس بن مالك . أسد الغابة لابن الأثير (١٠٩/٧) ، والإصابة لابن حجر (١٣٣/٨) .

(٣) حارثة بن سراقة بن الحارث بن عدي الأنصاري الخزرجي النَّجاري ، شهد بدراً ، وأصيب فيها واستشهد . الاستيعاب لابن عبد البر (١٠٨/١) ، والإصابة لابن حجر (٧٠٤/١) .

(٤) رواه البخاري ( ٢٨٠٩ و ٣٩٨٢ و ٦٥٦٧ ) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٥) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٣٧/٧) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا ، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفـة ، رقم الحديث (٤٠٣) ، وقد جاء موقوفا عن بعض الصحابة ، كما روى الحاكم في مستدركه (٥٤٢/٢) وعبد الرزاق في مصنفه (٩٣/٥ ، ١١٦) ، والطبري في تاريخه (٧٩/١-٨٠) .
والهند : هي بلاد تقع جنوب قارّة أسيا ، وتشمل : باكستان ، ودولة الهند ، ودولة بنجلاديش ، وهي ذات حضارة قديمة وتشتهر بكثرة الديانات وتعددها ، وأشهر الديانات فيها قبل الإسلام هي : الهندوسية والبوذية والسيخية .
آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني (١٢٧) ، ودائرة معارف القرن العشرين (٥٤٠/١٠) ، و " ويكيبيديا " الموسوعة الحرة على الشبكة العكبوتية .

يجـوزُ أنْ يكونَ اللهُ أسكـنَ آدم جنَّةَ الخُلد ليكونَ فيها من الخالدين ، وهو قائل للملائكة : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[١] ؟

وكيف خبَّرَ الملائكةَ أنَّه يريد أنْ يجعل في الأرض خليفةً ثمَّ يُسْكِنُه دارَ الخُلود ، ودارُ الخلودِ لا يدخُلُها إلّا من يخلُد فيها ، كما سُمِّيت بدارِ الخلود فقد سمَّاها الله بالأسماء التي تقدم ذكرنا لها [٢] تسمية مُطلقةً لا خصوصَ فيها ، فإذا قيل للجنة : دارُ الخلد ، لم يجُز أن يُنْقَصَ مسمَّى هذا الاسم بحالٍ.

فهذا بعضُ ما احتجَّ به القائلون بهذا المذهب .

وعلى هذا ، فإسكانُ آدمَ وذُريَّته في هذه الجنة لا يُنافي / كونَهم في دارِ الابتلاءِ [١٠/أ] والامتحانِ ، وحينئذٍ فكانت [٣] تلك الوجوهُ والفوائدُ التي ذكرتُموها مُمكِنَةَ الحُصول في الجنة .

فالجوابُ أن يقالَ :

هذا فيه قولانِ للناس ، ونحن نذكرُ القولين ، واحتجاجَ الفريقين ، ونُبيِّنُ ثبوتَ الوجوهِ التي ذكرناها وأمثالها على كلا القولين .

قول من قال : إنَّ الجنة التي أسكنها آدم هي جنة الخلد وحججهم

ونذكـرُ أولاً قــولَ من قــال : إنها جنَّـــةُ الخُـلد التي وُعِدَها المتقون ، وما احتجُّوا به وما نقضُوا به حُجَجَ مَن قال : إنَّها غيرُها ، ثمَّ نُتبعه مقالةَ الآخرين ، وما احتجوا به ، وما أجابوا به عن حُجَجِ مُنازعيهم ، من غير انتصابٍ لنُصرَةِ أحدِ القولين ، وإبطال الآخر ؛ إذ ليس غَرضُنا ذلك ، وإنَّما الغرضُ ذكرُ بعضِ الحِكَم والمصالحِ المُقتضية لإخراجِ آدمَ من الجنَّة ، وإسكانِه في الأرض في دارِ الابتلاء والامتحان .

---

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) حيث تقدَّم ذكر المؤلف لأسماء الجنة ص : ٦٨ ، وقد ذكر في كتابه : ( حادي الأرواح : ٩٤ ) فصلا في أسماء الجنة ومعانيها واشتقاقاتها ، وعدَّ منها: دار السلام ، ودار الخلد ، ، ودار المقامة ، وجنة المأوى ، وجنات عدن ، ودار الحيوان ، والفردوس ، وجنات النعيم ، والمقام الأمين ، ودار القرار ، ومقعد الصدق .

(٣) في : ص : فكلُّ .

وكان الغرضُ بذلك الرَّدَّ على مَن زعَمَ أنَّ حكمةَ الله سبحانه تأبى إدخالَ آدمَ الجنَّةَ ، وتعريضَه للذَّنْب الذي أُخرجَ منها به ، وأنَّه أيُّ فائدةٍ في ذلك ، والردَّ على أنَّ مَن أبطَل أن يكونَ له في ذلك حكمةٌ ، وإنَّما هو صادرٌ عن محضِ المشيئةِ التي لا حِكمَةَ وراءها .

ولـمَّا كان المقصودُ حاصلاً على كلِّ تقديرٍ . سواءٌ كانت جنةَ الخُلد أو غيرها . بيَّنَّا الكلامَ على التقديرين ، ورأينا أنَّ الردَّ على هؤلاء بدَبُّوس الشَّلاق [1] لا يُحَصِّلُ غَرضاً ، ولا يُزيل مرضاً ؛ فسلكنا هذا السبيلَ ليكونَ قولُهم مردوداً على كُلِّ قولٍ من أقـوال الأمة [2] وبالله المستعان وعليه التُّكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله .

احتجاجهم بأنه لا يخطر في قلوب الناس عند ذكر الجنة إلا جنة الخلد

فنقول : أمَّا ما ذكرتموه من كون الجنَّة التي أُهبط منها آدم ليست جنَّةَ الخلد ، وإنَّما هي جنَّةٌ غيرُها ، فهذا ممَّا قد اختلف فيه الناس ، والأشهرُ عند الخاصَّة والعامَّة الذي لا يخطرُ بقلوبهم سواه أنها جنَّة الخلد التي أُعدت للمتقين ، وقد نصَّ غيرُ واحد من السلف على ذلك .

---

(١) والدَّبُّوسُ يُراد به نوعٌ من المَقَامِعِ سواء كانت من الحَدِيدِ أو من غيره . ينظر : تاج العروس للزبيدي (٤٩/١٦) وقد ذكرها بعض السابقين بما يفيد ذلك ، فقد حكى البكري في المسالك والممالك (٤٠٥/١) أن رجلاً أراد كسْرَ الحَجَر الأسود ، فدخل الحرم وبيده دبُّوسٌ من حديد ، فضربه ضَربات أبانَ بها من وسطِه ثلاثَ شظايا " .
ووصفه ابن ظافر الأزدي في بدائع البدائه (١٧٢) بأنَّه أداةٌ غليظةٌ من حديد للضرب ، وقال المؤلف عند كلامه عن كفِّ الإنسان : " فإن بسطَ أصابِعَهُ كانت طَبَقاً يضعُ عليه ما يريد ، وإن ضمَّها وقبضها كانت دبُّوسَاً وآلةً للضَّربِ " المفتاح (١٩٢/١) طبعة دار الفكر . وورد هذا اللفظ في إعلام الموقعين على أنَّه أداة غليظة للضرب (٢٣٠/١) و (٣٢٥/٢) و (١٧٦/٣) .
وأمَّا الشَّلاقُ : فالشَّلْقُ : هو الضربُ بقوة وشدَّةٍ ، وهي كلمة مُعرَّبة ، والشَّلَقَةُ هي : الرَّاضَّةُ .
العين للخليل بن أحمد (٤١/٥ ، وتهذيب اللغة للأزهري (٢٥٥/٨) ، ولسان العرب لابن منظور (١٨٦/١٠) .
فيكون المراد : أنَّها أداة غليظة من حديد ترُضُّ المضروبَ بها ، وقد أورد المؤلف اللفظ ذاته في هذا الكتاب (٧٠/٢) طبعة دار الفكر ، وأراد المؤلف هنا : أن الرد على المخالف إذا كان بأشدِّ درجات الغلظةِ وأقساها ، لن يُتوصل به إلى المقصود ، ولن يزيل الشبهات من رأس المخالف .
(٢) في : ص : على كلِّ قياس من أقوال الأمة .

احتجاجهم بقول آدم يوم القيامة: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم

**واحتجَّ من نصرَ هذا بما رواه مسلم [١] في " صحيحه " [٢] من حديث أبي مالكٍ الأشْجَعيِّ [٣] عن أبي حازمٍ [٤] عن أبي هريرة رضي الله عنه [٥] ، وأبو مالكٍ عن رِبْعِيّ بن حِـرَاش [٦] عن حُـذيفـة رضـي الله عنه [٧] قـالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( يجمعُ الله عزَّ وجلَّ الناسَ حتى تُزْلَفَ لهم الجنَّةُ ، فيأتون آدمَ عليه السَّلام فيقولون : يا أبانا استَفتِح لنا الجنَّة ، فيقول : وهل أخرجَكم من الجنَّةِ إلا خطيئةُ أبيكم آدمَ ... ) وذكرَ الحديث .**

**قالوا : فهذا يدُلُّ على أنَّ الجنَّة التي أُخرِجَ منها آدمُ هي بعينها التي يُطْلَب منه أن يستفتحها لهم .**

احتجاجهم بأن الهبوط الوارد في الآية من الجنة إلى الأرض

**قالوا : ويدل عليه أنَّ الله سبحانه قال : ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [٨] إلى قوله : ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [٩] ، فهذا يدُلُّ على أنَّ هبوطَه كان من الجنَّة إلى الأرض ، من وجهين :**

**أحدهما : من لفظِ قولِه : ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ ، فإنَّ الهُبُوطَ نُزولٌ من عُلوٍّ إلى سفول .**

---

(١) مسلم بن الحجاج بن مسلم القُشيريُّ ، أبو الحسين النيسابوري ، صاحبُ الصحيح ، وغيره من التصانيف ، أحدُ الأئمةِ الأعلامِ ، والحُفاظِ الكبارِ ، توفي عام : ٢٦١ هـ . تهذيب الكمال للمزي (٤٩٩/٢٧) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (١٢٥/٢) .

(٢) رقم الحديث (١٩٥) .

(٣) سعد بن طارق بن أشيم الأشجعي الكوفي ، وثَّقه أحمد وابن معين ، توفي عام : ١٤٠هـ . تهذيب الكمال للمزي (٢٦٩/١٠) ، والكاشف للذهبي (٤٢٨/١) ، وميزان الاعتدال للذهبي (١٢٢/٢) .

(٤) سلمان الأشجعي الكوفي ، مولى عزَّة الأشجعية ، لازم أبا هريرة خمسة أعوام ، وثَّقه غيرُ واحد . توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز . الكاشف للذهبي (٤٥٢/١) ، وتهذيب التهذيب لابن حجر (٤٤٠/٤) .

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٦٤ .

(٦) ربعي بن حِراش بن جحش بن عمرو العبسي ، تابعي مشهور ، من أهل الكوفة ، توفي عام : ١٠٠ هـ . وفيات الأعيان لابن خلكان (٣٣٥/١) ، وسير أعلام النبلاء (٣٥٩/٤) .

(٧) تقدَّمت ترجمته ص : ٦٣ .

(٨) البقرة : ٣٥ .

(٩) البقرة : ٣٦ .

والثاني : قوله : ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (١) عَقِيبَ قوله : ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ فدلَّ على أنهم لم يكونوا أوَّلاً في الأرضِ .

احتجاجهم بأن الله وصف الجنة التي أُسكنها آدم بصفات لا تكون في الجنة الدنيوية

وأيضا ؛ فإنَّه سبحانه وصف الجنَّةَ التي أُسكِنَها آدمُ بصفاتٍ لا تكونُ في الجنَّة الدُّنيويةِ فقال تعالى : ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ (٢) وهذا لا يكونُ في الدنيا أصلاً ، ولو كان الرَّجلُ في أطيبِ منازِلها فلا بدَّ أن يعْرِضَ له الجوعُ والظمأُ ، والعُرْيُّ والضُّحِيُّ للشمس .

احتجاجهم بأنه لو كانت الجنة في الدنيا لعلم آدمُ كذبَ إبليس في دعوى الخلود

[ وأيضا ؛ فإنَّها لو كانت الجنَّةُ في الدُّنيا لعَلِمَ آدمُ كَذِبَ إبليس في قوله : ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ (٣) ؛ فإنَّ آدمَ كان يعلمُ أنَّ الدُّنيا مُنقَضِيةٌ فانيةٌ وأنَّ مُلْكَها يبْلَى ] (٤) .

احتجاجهم بقصة آدم في سورة البقرة وأن الجنة التي أسكنها هي جنة الخلد

وأيضاً ؛ فإنَّ قصَّةَ آدمَ في " البقرة " ظاهرةٌ جداً في أنَّ الجنَّةَ التي أُخرِجَ منها فوق السماء ؛ فإنَّه سبحانه قال : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (٥) ، فهذا إهباطُ آدمَ وحوّاءَ وإبليسَ من الجنَّة ولهذا أتى فيه بضميرِ (٦) الجَمْع .

الأقوال في الإهباط الأول في قوله تعالى (اهبطوا بعضكم لبعض عدو)

(١) البقرة : ٣٦ .
(٢) طه : ١١٨ – ١١٩.
(٣) طه:١٢٠.
(٤) سقط من : ص .
(٥) البقرة :٣٤ – ٣٧ .
(٦) في : د : بصيغة .

وقيل : إنَّه خطابٌ لهم وللحيَّة ، وهذا يحتاج إلى نقلٍ ثابتٍ ، إذ لا ذكر للحية في شيء من قصَّة آدمَ وإبليسَ .

وقيل : خطابٌ لآدمَ وحواء ، وأتى فيه بلفظ الجمْعِ ، كقوله تعالى : ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾(١) .

وقيل : لآدمَ وحواء وذُرِيَّتهما (٢) .

وهذه الأقوالُ ضعيفةٌ غيرَ الأولِ ؛ لأنَّها بين قولٍ لا دليل عليه ، وبينَ ما يدُلُّ ظاهرُ الخطابِ على خلافه ؛ فثبتَ أنَّ إبليسَ داخلٌ في هذا الخطاب ، وأنَّه من المُهبَطين من الجنَّة .

احتجاجهم بأن الإهباط الثاني من السماء إلى الأرض ولا بد أن يكون غير الأول الذي هو من جنة الخلد

ثمَّ قال تعالى : ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٣) ، وهذا الإهباطُ الثاني لا بدَّ أن يكون غيرَ الأولِ ، وهو إهباطٌ من السماءِ إلى الأرض ، وحينئذٍ فتكون الجنَّةُ التي اهبطوا منها أولاً فوقَ السماءِ وهي جنَّة الخُلد .

قول من قال : إن المراد بقوله (اهبطوا منها جمعياً) آدم وحواء خاصة والرد عليهم

وقد ذهبت طائفة منهم الزمخشريُّ (٤) إلى أنَّ قوله : ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ خطاب لآدمَ وحواءَ خاصَّةً وعبَّرَ عنهما بالجمع لاستتباعِهما ذريَّاتهما .

---

(١) الأنبياء : ٧٨ .

(٢) تُنظر هذه الأقوال في : تفسير الطبري (٥٧١/١) ، وتفسير المَاوَرْدِيِّ (١٠٧/١) ، وتفسير ابن عطية (١٢٩/١) وزاد المسير لابن الجوزي (٥٦/١) ، والدر المنثور للسيوطي (٢٩٣/١) ، وحادي الأرواح للمؤلف (٢٨) وغيرها .

(٣) البقرة : ٣٨ .

(٤) أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري ، كان عالماً بالتفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان ، قال عنه ابن حجر : " صالح لكنه داعية إلى الاعتزال ، أجارنا الله ، فكن حذراً من كشافه " له كتب منها "الكشاف " في التفسير ، و " المحاجاة بالمسائل النحوية " و " الفائق " في تفسير الحديث ، و " أساس البلاغة " في اللغة ، وغيرها ، توفي عام : ٥٣٨ هـ .

وفيات الأعيان (٨٦/٣) ، وميزان الاعتدال (٧٨/٤) ، ولسان الميزان (٦/٤-٥) .

قال : " والدليلُ عليه قولُه تعالى : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ (١) وقال ويدل على ذلك قوله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (٢) ، وما هو إلا حكمٌ يَعُمُّ النَّاسَ كلَّهم .

ومعنى ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ :

ما عليه النَّاسُ من التَّعادي والتَّباغضِ وتَضليلِ بعضِهم لبعض " (٣) .

وهذا الذي اختاره أضعفُ الأقوالِ في الآية ؛ فإنَّ العداوةَ التي ذكرها الله إنَّما هي بين (٤) آدمَ وإبليسَ وذُرِّياتِهما ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ (٥) وأمَّا آدمُ وزوجُهُ فإنَّ الله سبحانه أخبرَ في كتابه أنَّه خلقَها منه ليَسكُنَ إليها ، وقال سبحانه : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (٦) ، فهو سبحانه جعلَ المودَّةَ بين الرَّجل وزوجِه ، وجعَلَ العداوةَ بين آدمَ وإبليسَ وذُرِّيَّاتهما .

ويدُلُّ عليه . أيضاً . عَوْدُ الضَّمير إليهم بلفظ الجمْعِ ، وقد تقدَّم ذكرُ آدمَ وزوجِه وإبليسَ في قوله : ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ (٧) ، فهؤلاء ثلاثةٌ : آدم وزوجُـهُ ، وإبليسُ ؛ فلماذا يعودُ الضَّميرُ على بعضِ المذكورِ مع مُنافَرتِه لطريق الكلام ولا يعودُ على / جميعِ المذكور مع انَّه وجْهُ الكلامِ ؟! [١١/ أ]

(١) طه : ١٢٣ .
(٢) البقرة : ٣٨ — ٣٩ .
(٣) تفسير الكشاف ( ١/ ١٢٨) .
(٤) "بين" سقطت من : ص .
(٥) فاطر : ٦ .
(٦) الروم : ٢١ .
(٧) البقرة : ٣٦ .

فإن قيل : فما تصنعون بقوله في سورة طه : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ ﴾(١) ، وهذا خطابٌ لآدمَ وحوَّاءَ ، وقد أخبر بعداوةِ بعضِهم بعضاً ؟.

قيل : إمَّا أن يكون الضَّميرُ في قوله : ﴿ٱهْبِطَا﴾ راجعاً إلى آدمَ وزوجِه ، أو يكون راجعاً إلى آدمَ وإبليسَ ، ولم يذكر الزَّوجةَ لأنَّها تبعٌ له .

وعلى الثاني ؛ فالعداوةُ المذكورةُ للمخَاطَبين بالإهباطِ ، وهما آدمُ وإبليسُ .

وعلى الأول تكونُ الآيةُ قد اشتملت على أمرين :

أحدهما : أمرُهُ لآدمَ وزوجِه بالهبوط .

والثاني : جعلُهُ العداوةَ بين آدمَ وزوجِه وإبليسَ ، ولا بُدَّ أن يكون إبليسُ داخلاً في حُكمِ هذهِ العداوةِ قطعاً ، كما قال تعالى له : ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾(٢) ، وقال لذريته : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ (٣) .

وتأمَّل كيف اتَّفقَت المواضعُ التي فيها العداوةُ على ضميرِ الجمع دونَ التَّثنية .

وأما ذكرُ الإهباطِ ؛ فتارةً يأتي بلفظ ضمير الجمعِ ، وتارةً بلفظِ التَّثنيةِ ، وتارةً يأتي بلفظ الإفرادِ لإبليسَ وحده ، كقوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ (٤)

فهذا الإهباطُ لإبليسَ وحده ، والضَّميرُ في قوله : ﴿مِنْهَا﴾ ، قيل : إنَّه عائدٌ إلى الجنَّة وقيل : عائدٌ إلى السماء .

وحيث أتى بصيغة الجمع كان لآدم وزوجِه وإبليسَ ؛ إذ مدارُ القصَّة عليهم .

وحيثُ أتى بلفظ التَّثنيةِ ؛ فإمَّا أن يكونَ لآدمَ وزوجِه ، إذ هما اللذان باشرا الأكلَ من الشجرة ، وأقدما على المعصيةِ ، وإمَّا أن يكونَ لآدمَ وإبليسَ إذ هما أبَوا الثقلين ، فذَكَرَ

---

(١) طه : ١٢٣ .

(٢) طه : ١١٧ .

(٣) فاطر : ٦ .

(٤) الأعراف : ١٢ – ١٣ .

حالَهُما وما آلَ إليه أمرُهمَا ؛ ليكونَ عِظةً وعبرةً لأولادِهما ، والقولان مَحكيان في ذلك وحيث أتى بلفظ الإفراد فهو لإبليس وحده (١).

وأيضاً فالذي يُوضِّحُ أنَّ الضميرَ في قوله : ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ ، لآدمَ وإبليسَ أنَّ الله سبحانه لـمَّا ذكر المعصيةَ أفردَ بها آدمَ دون زوجِه ، فقال : ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ (٢) ، وهذا يدُلُّ على أنَّ المُخاطبَ بالإهباط هو آدمُ ، ومن زيَّنَ له المعصيةَ ، ودخلت الزَّوجةُ تبعاً ؛ وهذا لأنَّ المقصودَ إخبارُ الله تعالى لعباده المُكلَّفين من الجنِّ والإنسِ بما جرى على أبويهِما من شُؤمِ المعصيةِ ، ومخالفةِ الأمرِ ؛ لئلَّا يقتدوا بهما في ذلك .

فذكرُ أبوي الثَّقلين أبلغُ في حصولِ هذا المعنى مِن ذكرِ أبوي الإنسِ فقط .

وقد أخبَرَ سبحانه عن الزوجةِ أنَّها أكلَتْ مع آدمَ ، وأخبر أنَّه أهبَطَه ، وأخرجَه من الجنَّة بتلك الأكْلَةِ ؛ فعُلِمَ أنَّ هذا اقتضاءُ حُكمِ الزَّوجةِ ، وأنَّها صارت إلى ما صار إليه آدم فكان تجريدُ العناية إلى ذكرِ حالِ الأبوين اللذين هما أصلُ الذُّرية أولى من تجريدِها إلى ذكرِ أبي الإنس وأمِّهم ، والله أعلم .

وبالجملة ؛ فقولُه : ﴿ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (٣) ، ظاهرٌ في الجمع ، فلا يَسُوغُ حملُه على الاثنين في قوله : ﴿ٱهْبِطَا﴾ .

جوابهم من أربعة أوجه عن وسوسة إبليس لآدم وحواء بعد إهباط إبليس من الجنة وأنه محال أن يصعد إليهما بعد إهباطه

قالوا : وأمَّا قولكم : إنَّه كيف وسوسَ لهما بعد إهباطِهِ من الجنَّة ؟ ومُحال أن يصعدَ إليها بعد قولِهِ تعالى : ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ (٤) !

فجوابُه من وجوهٍ (٥) :

---

(١) قد فصّل المؤلف رحمه الله في المقصود في الإهباط في كتابه : حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (٢٩) .

(٢) طه : ١٢١ – ١٢٣.

(٣) البقرة : ٣٤ – ٣٧ .

(٤) الأعراف : ١٣ .

(٥) هذه الوجوه الأربعة رد من القائلين إنها جنة الخلد على حجة مخالفيهم المذكورة في ص : ٧١ .

وهذه الأوجه ذكرها الزمخشري في تفسيره (١/١٢٨) ، وينظر تفسير الماوردي : النكت والعيون (٢/٢١٠) .

أحدها : أنَّه أُخرِجَ منها ، ومُنِعَ من دُخولها على وجهِ السُّكنى والكرامةِ واتِّخاذِها داراً فمن أين لكم أنَّه مُنِعَ مِن دُخولها على وجه الابتلاء والامتحان لآدمَ وزوجِه ؟ ويكونُ هذا دُخولاً عارضاً كما تَدْخُلُ الشُّرَطُ دارَ من أُمروا بابتلائِه ومحنتِه ، وإنْ لم يكونوا أهلاً لسُكنى تلك الدَّار .

الثاني : أنَّه كان يدنو من السَّماءِ فيُكَلِّمُهُما ، ولا يدخُلُ عليهما دارَهما .

الثالث : أنَّه لعلَّه قامَ على البابِ فنادَاهُما وقاسَمَهُمَا ، ولم يَلِجْ الجنَّةَ .

الرابع : أنَّه قد رُوي انَّه أرادَ الدُّخولَ عليهما ، فمنَعَته الخَزَنَةُ ، فدخل في فَمِ الحيَّةِ حتى دخَلَت به عليهما ، ولا يشعر الخَزَنَة بذلك [١] .

احتجاجهم بأنَّ لفظ الجنة جاء مُعرفاً بلام التعريف في جميع المواضع ولا جنة يعهدها المخاطبون إلا جنة الخلد

قالوا : ومما يدُلُّ على أنَّها جنَّةُ الخُلدِ بعينها أنها جاءت مُعَرَّفَةً بلامِ التَّعريف في جميع المواضع ، كقوله : ﴿ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ﴾ [٢] ، ولا جنَّةَ يعهَدهَا المُخاطَبون ويَعرِفُونها إلا جنَّةَ الخُلد التي وعَدَ الرحمنُ عبادَه بالغيب ، فقد صار هذا الاسمُ عَلَمَاً عليها بالغَلَبَةِ وإن كان في أصلِ الوضعِ عبَارةً عن البُستَانِ ذي الثِّمار والفواكه ، وهذا كالمدينةِ " لِطَيْبَةَ " والنَّجمِ " للثُّرَيَّا " [٣] ونظائِرِها .

فحيثُ ورد اللفظُ مُعرَّفاَ بالألفِ واللامِ انصرفَ إلى الجنَّةِ المعهودةِ في قلوبِ المؤمنين وأمَّا إن أُريدَ به جنَّةٌ غيرُها فإنَّها تجيء مُنَكَّرةً ، كقوله : ﴿ جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ ﴾ [٤]

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٥٦٣/١) ، وفي تاريخه (٧١/١) ، بنحوه عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما موقوفاً .

(٢) البقرة : ٣٥ .

(٣) الثُّرَيَّا أو الشَّقِيقاتُ السَّبْعُ : هي نجومٌ مُجتمعةٌ تُشبه العُنقودَ ، والنجمُ : اسمٌ يقع على الثريا عَلَمٌ لها ، مثلُ زيدٍ وعمرو ، فإذا قالوا : طلع النَّجْمُ ، يريدون الثرَيا ، وكلُّ مَنزِلٍ من منازل القمر سُمِّيَ : نجماً . العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (١٥٤/٦) ، لسان العرب لابن منظور (٥٦٨/١٢) .

(٤) الكهف : ٣٢ .

أو مُقيَّدةً بالإضافة ، كقوله : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ ﴾ [(١)] ، أو مُقيَّدةً من السِّياق بما يدلُّ على أنها جنَّةٌ في الأرض ، كقوله : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ [(٢)] الآيات ؛ فهذا السِّياقُ والتَّقييدُ يدلُّ على أنَّها بُستانٌ في الأرض .

احتجاجهم بالتواتر على أن الجنة والنار مخلوقتان

قالوا : وأيضاً ؛ فإنَّه قد اتفقَ أهلُ السُّنةِ والجماعةِ على أنَّ الجنَّةَ والنَّارَ مخلوقتان وقد تواترت الأحاديثُ عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك كما في "الصحيحين" [(٣)] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه [(٤)] عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : ( إنَّ أحدَكُم إذا مات عُرِضَ عليه مقعَدُه بالغدَاة والعَشيِّ ، إن كان من أهلِ الجنَّةِ فمن أهل الجنَّة ، وإن كان من أهل النَّار فمن أهل النَّار ، يُقال : هذا مقعدُك حتى يبعَثَك اللهُ يومَ القيامة ) .

وفي "الصحيحين" [(٥)] من حديث أبي سعيد الخُدْريِّ رضي الله عنه [(٦)] عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ( اختصمتِ الجنَّةُ والنَّارُ ، فقالت الجنَّة : ما لي لا يدخلُني إلا ضعفاءُ النَّاسِ وسَقَطُهم ؟ وقالت النَّار : ما لي لا يدخلُني إلا الجبَّارون والمتكبِّرون ؟ فقال للجنَّةِ : أنتِ رحمتي ، أرحمُ بك من أشاءُ ، وقال للنَّار : أنتِ عذابي أُعذِّبُ بك من أشاء ) الحديث .

---

(١) الكهف : ٣٩ .

(٢) القلم : ١٧ .

(٣) رواه البخاري (١٣٧٩ ، ٣٢٤٠ ، ٦٥١٥) ، ومسلم (٢٨٦٦) بلفظه .

(٤) أبو عبد الرحمن : عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي ، الصحابي الجليل ، من أئمة الدين ، ومن أعلمهم بالمناسك ، توفي عام : ٧٣ هـ . الاستيعاب لابن عبد البر (٩٥٠/٣) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٣٣٦/٣) والإصابة لابن حجر (١٥٥/٤) .

(٥) رواه البخاري (٤٨٥٠) ، ومسلم (٢٨٤٧) ، كلاهما بنحوه .

(٦) سعد بن مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة الخزرجي ، أبو سعيد الخدري ، مشهور بكنيته ، أول مشاهده الخندق ، غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثنتي عشرة غزوة ، كان من نُجباء الأنصار وعلمائهم وفضلائهم.
توفي عام : ٧٤ هـ . الاستيعاب لابن عبد البر (٦٠٢/٢) ، وأسد الغابة لابن الأثير (١٣٨/٦) ، والإصابة لابن حجر (٦٥/٣) .

**وفي "السُّنن" (١) عن أبي هريرة رضي الله عنه (٢) أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : ( لمَّا خلقَ اللهُ الجنَّةَ والنَّار أرسلَ جبريلَ إلى الجنَّة ؛ فقال : اذهَبْ فانظُر إليها وإلى ما أعدَدتُ لأهلِهَا ، قال : فذهبَ فنظَرَ إليها وإلى ما أعدَّ اللهُ لأهلِهَا..) الحديث .**

**وفي "الصحيحين" (٣) في حديثِ الإسراءِ : ( ثمَّ رُفِعَت لي سِدرَةُ المُنتَهى ، فإذا وَرَقُها مثلُ آذان الفيولِ ، وإذا نَبِقُها (٤) مثل قِلَال هَجَر (٥) ، وإذا أربعةُ أنهارٍ : نهرانِ ظاهرانِ**

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٤٤) ، والترمذي (٢٥٦٠) ، والنسائي ( ٣٧٩٤) ، وأحمد (٣٣٢/٢) ، كلهم بنحوه وقال الترمذي : " هذا حديث حسن صحيح " ، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٨٩٨/٣) : " حسن صحيح " .

(٢) تقدمت ترجمته ، ص : ٦٤ .

(٣) رواه البخاري (٣٢٠٧ ، ٣٨٨٧) ، ومسلم (١٦٤) ، قطعةٌ من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه المشهور في الإسراء والمعراج .

(٤) النَّبِق : بكسر الباء، هو ثمر شجر السِدرِ . العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (١٨١/٥) ، والصحاح للجوهري (١٥٥٧/٤) ، ولسان العرب (٣٥٠/١٠) ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (٣٨٥/٣)

(٥) القِلَال : جمع قُلَة ، وهي : الجرة الكبيرة العظيمة ، وغالبا ما تكون مصنوعة من الفخار ، وسميت بذلك لأنها تُقَلُّ أي : تُرفع إذا مُلئت . تهذيب اللغة للأزهري ( ٢٣٢/٨) ، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس (١/٥) ، ولسان العرب (٥٦٣/١١) ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (٦٠٢/٣) .

وتُقدَّر القُلَّة الواحدة بمائتين وخمسين رطلا ، ومقدار الرطل بالجرام : ٤٠٨ جرامات ، وعليه فإن مقدار القُلَّة الواحدة يساوي : ١٠٢ كيلو جراماً . الموسوعة الفقهية ( ٣٠٠/٣٨) ، ومجلة البحوث الإسلامية (١٨٤/٠٥٩) .

"وهجرُ" قيل : هي محافظة الأحساء في شرق المملكة العربية السعودية ، وهي من أكبر المحافظات ، وهجر من أكبر مدن المحافظة ، وقيل : هي قرية قريبةٌ من المدينة النبوية ، قال المَاوَرْدِيُّ في الحاوي الكبير (٣٣٤/١) عن القُلَّة : " فليست مجلوبةً من هجر البحرين ، وإنما هي معمولة بالمدينة ، واختلفوا في سبب نسبتها إلى هجر ، فقال بعضهم : لأنها تُعمل بقرية من قُرى المدينة ، تُسمى : هجر ، وقال آخرون : بل سميت بذلك : لأنها عُمِلَت على مِثالِ قِلَال هجر ، كما يقال : ثوب مروي ، وإن عُمل بالعراق : لأنه على مثال ما يعمل بمرو"

وقال الفيومي في المصباح المنير (١٥٤/٢) : " وقد قيل : هجر من أعمال المدينة أيضاً ، هي التي تنسب القِلَال إليها " . وقال الشيخ عبد الله بن سليمان بن منيع :" والقُلَّة المشهورة لدى أهل العلم هي : قُلَّة هَجَر ، وهجر هي : قرية قريبة من المدينة ، وليست هَجرَ البحرين . " مجلة البحوث الإسلامية " ( ٥٩ / ١٨٤ ) . ويُنظر : معجم البلدان لياقوت الحموي (٣٩٣/٥) ، وتاج العروس للزبيدي (٢٧٥/٣٠) .

**ونهران باطنان ، فقلتُ : ما هذا يا جبريلُ ؟ قال : أمَّا النَّهرانِ الظَّاهِرانِ فالنِّيلُ [١] والفُرَاتُ [٢] ، وأمَّا الباطِنان فنهرانِ في الجنة ) .**

**وفيه أيضاً : (.. ثمَّ أُدخِلْتُ الجنَّةَ ، فإذا جَنَابِذُ اللؤلؤ [٣] ، وإذا تُرابها المسكُ ) [٤] .**

**وفي "صحيح البخاري" [٥] عن أنسٍ رضي الله عنه [٦] ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ( بينما أنا أسيرُ في الجنَّة إذا بنَهَرٍ حافتَاه قِبَابُ الدُّرِّ المُجَوَّفِ ، قال : قلتُ : ما**

---

(١) نهر النيل هو : أطول أنهار الكرة الأرضية ، إذ يبلغ طوله : ٦٦٥٠ كم ، يقع في قارة أفريقيا وينساب إلى جهة الشمال ، له رافدان رئيسان : النيل الأبيض والنيل الأزرق ، وينبع النيل الأبيض في منطقة البحيرات العظمى في وسط أفريقيا ، وأما النيل الأزرق فيبدأ من بحيرة تانا في دولة أثيوبيا أبعد مصدر يوجد في جنوب رواندا .
معجم البلدان لياقوت الحموي (٣٣٤/٥) ، آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني (٢٦٣) ، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي (٣٤٠/٢) ، و" ويكيبيديا " الموسوعة الحرة على الشبكة العكبوتية .

(٢) نهر الفُرَات : الفرات هو أحد الأنهار الكبيرة في غرب قارة آسيا ، يتألف من نهرين في آسيا الصغرى ، الشرقي منهما منبعه من دولة أرمينيا ، والغربي منبعه شمال شرقي الأناضول ، والنهران يجريان في اتجاه الغرب ، ثم يجتمعان في مسار واحد ، فيجري ماؤه جنوبا مخترقا سلسلة جبال طوروس الجنوبية ، ثم يجري النهر إلى الجنوب الشرقي ، وتنضم إليه فروع عديدة قبل مروره في الأراضي السورية ، ثم يجري في الأراضي العراقية ويلتقي دجلةَ ؛ ليُكَوِّنَ شطَّ العرب الذي يصُبُّ في الخليج العربي ، ومن خصائصه أنه هو ونهر النيل أغزر نهرين في الوطن العربي .
ينظر : معجم البلدان لياقوت الحموي ( ٢٤١/٤) ، وخريدة العجائب وفريدة الغرائب لابن الوردي (٢٥٢) و" ويكيبيديا " الموسوعة الحرة على الشبكة العكبوتية .

(٣) الجَنَابِذ : جمعُ جُنْبُذَة ، وهي القُبَّة . المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٥٩٥/٧) ، وغريب الحديث لابن الجوزي (١٧٦/١) ، والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٣٠٥/١) ، ولسان العرب لابن منظور (٤٨٢/٣) والقاموس المحيط للفيروزآبادي (٤٨٨/١) .

(٤) رواه البخاري (٣٣٤٢) ، ومسلم (١٦٣) ، وهو جزء من حديث أبي ذرّ رضي الله عنه في قصة الإسراء والمعراج .

(٥) رقم الحديث (٦٥٨١) بنحوه .
والبخاري هو : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن المغيرة الجعفي . مولاهم . البخاري ، الحافظ الإمام في علم الحديث صاحب "الجامع الصحيح" و "التاريخ" ، رحل في طلب العلم إلى سائر محدثي الأمصار . ت / ٢٥٦هـ
تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٢/٢) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٣٢٣/٢) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (١٠٤/٢)

(٦) أنس بن مالك بن النَّضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الأنصاري الخزرجي ، أبو حمزة ، خادم النبي صلى الله عليه وسلم ، خدَمَه عشر سنين ، وكان من المُكثرين من الرواية عنه ، دعا له النبي صلى الله عليه وسلّم ؛ فعُمِّر طويلاً ، توفي عام : ٩١ هـ .
الاستيعاب لابن عبد البر (١٠٩/١) ، أُسد الغابة لابن الأثير (٢٩٤/١) ، الإصابة لابن حجر (٢٧٦/١) .

هذا يا جبريلُ ؟ قال : هذا الكَوثَرُ الذي أعطاك ربُّكَ ،/ فضربَ المَلَكُ بيده فإذا طِيْنُه مِسْكٌ أَذْفَر) (١) . [١٢/أ]

وفي " صحيح مسلم " (٢) في حديث صلاةِ الكُسُوفِ أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم جعل يتقدَّمُ ويتأخَّرُ في الصلاةِ ثمَّ أقبَل على أصحابِه ، فقال : ( إنَّه عُرِضَت الجنَّةُ والنَّارُ فقُرِّبَتْ منِّي الجنَّةُ حتى لو تناولتُ منها قِطْفَاً لأكَلتُم منه ما بَقِيَتْ الدنيا ) .

وفي "صحيح مسلم" (٣) عن ابن مسعود رضي الله عنه (٤) في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (٥) : إنَّ أرواحَهم في جوفِ طير خُضْرٍ ، لها قناديلُ مُعلَّقةٌ بالعرش ، تسرحُ من الجنَّةِ حيث شاءت ، ثمَّ تأوي إلى تلك القناديلِ ، فاطَّلع عليهم ربُّك اطِّلاعةً ، فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ فقالوا : أيَّ شيءٍ نشتهي ؟ ونحن نسرحُ من الجنَّةِ حيث شئنا ؟ ... ) الحديث .

وفي "الصحيح" (٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنه (٧) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( لمَّا أُصيبَ إخوانُكم بأُحُدٍ ، جعل الله أرواحَهم في أجواف طيرٍ خُضْرٍ تَرِدُ

---

(١) الأذْفَر : كل ريح ذكيَّةٍ شديدة من طيب أو نتن . غريب الحديث لابن سلام (٢٣٧/٣) ، وغريب الحديث للخطابي (١٠٩/٢) .

(٢) رقم الحديث (٩٠١) من حديث عائشة رضي الله عنها ، و (٩٠٤) من حديث جابر رضي الله عنه ، و (٩٠٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) رقم الحديث (١٨٨٧) . وتقدَّمت ترجمة الإمام مسلم ص : ٧٧ .

(٤) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ، أسلم قديما ، وهاجر الهجرتين جميعا ، وشهد بدرا والمشاهد كلَّها وهو أوّل من جهر بالقرآن في مكة ، وهو من علماء الصحابة ، ومن أقربهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي في المدينة عام : ٣٢ هـ .

الاستيعاب لابن عبد البر (٩٨٧/٣) ، أسد الغابة لابن الأثير (٣٨١/٣) ، الإصابة لابن حجر (١٩٨/٤) .

(٥) آل عمران : ١٦٩.

(٦) لعلّ المؤلف رحمه الله يُريد صحةَ الحديث ، لا أنّه في الصحيحين أو في أحدهما ؛ إذ لم يروه أحدٌ منهما .

والحديث : رواه أبو داود (٢٥٢٠) ، وأحمد (٢٦٦/٢) ، وحسّنه الألباني في : صحيح سنن أبي داود (٤٧٩/٢) .

(٧) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي ، ابن عمِّ النبي صلى الله عليه وسلم ، ولد قبل الهجرة بثلاثة أعوام في الشِّعْبِ حين الحصار ، هو ترجمان القرآن ، وحَبْرُ الأمَّة ، وكان يُسمَّى البحر لسعة علمه ، دعا له النبي صلى الله عليه وسلم بالفقه في الدين ، توفي عام : ٦٨ هـ .

أنهـارَ الجنَّة ، وتأكلُ مِن ثمارِها ، وتأوي إلى قناديلَ مِن ذَهَبٍ مُعلَّقةٍ في ظلِّ العرشِ فلمَّا وجَدوا طِيبَ مأكَلِهم ومَشربِهم ومَقِيلِهم ، قالوا : مَن يُبَلِّغُ عنَّا إخوانَنا أنَّنا في الجنَّةِ نُرزَقُ ؛ لئلّا يزهدوا في الجهاد ، ولا يَنْكُلُوا عند الحرب ؟ فقال الله : أنا أُبَلِّغُهم عنكم فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[1] الآية .

وفِي " الـمُوَطَّأ " [2] من حَدِيث كَعْبِ بن مَالك رضي الله عنه [3] أنَّ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم قال : ( إنَّما نسمَة المُؤمن طَائِرٌ يعلَقُ في الْجنَّة حتَّى يرجعه الله إلى جسده يَوْم يَبْعَثهُ ) .

وفي "البُخاري" [4] أنَّ إبرَاهِيم ابنَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم لما توفِّي ، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : (إنَّ لَهُ مُرْضعًا فِي الْجنَّة) .

وفي صَحِيح "البخاري" [5] عن عمرَانَ بن حُصَيْنٍ رضي الله عنه [6] قَالَ : قَالَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم : ( اطَّلَعتُ فِي الْجنَّة فَرَأَيْت أكثرَ أهلِها الْفُقَرَاء ، واطَّلَعتُ على النَّار فَرَأَيْت أكثرَ أهلِها النِّسَاء) .

---

الاستيعاب لابن عبد البر (٩٣٣/٣ ) ، أسد الغابة لابن الأثير (٢٩١/٣) ، الإصابة لابن حجر (١٢١/٤) .

(١) آل عمران : ١٦٩ .

(٢) موطأ الإمام مالك (٢٤٠/١) ، ورواه الترمذي (١٦٤١) ، والنسائي (٢٠٧٥) ، وابن ماجه (١٤٤٩ ، ٤٢٧١) وأحمد ٤٥٥/٠٤ ، ٤٦٠، ٤٥٦ و ٣٨٦/٦) . وقال الترمذي : " هذا حديث حسن صحيح " . وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٢٧/٢) .

(٣) أبو عبد الله : كعب بن مالك بن أبي كعب الأنصاري السلمي ، شهد أحدا وما بعدها عدا تبوك ، وشهد العقبة وبايع ، وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم ، توفي عام : ٥٠ هـ .

الاستيعاب لابن عبد البر (١٣٢٣/٣) ، أُسد الغابة لابن الأثير (٤٦١/٤) ، والإصابة لابن حجر (٤٥٦/٥) .

(٤) رقم الحديث (١٣٨٢، ٣٢٥٥، ٦١٩٥) بلفظه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه .

وقد تقدَّمت ترجمة البخاري ص : ٨٦ .

(٥) رقم الحديث ( ٣٢٤١ ، ٥١٩٨ ، ٦٤٤٩ ، ٦٥٤٦ ) .

(٦) أبو نُجَيد : عمران بن حصين بن عبيد بن خلف الخزاعي ، من علماء الصحابة ، أسلم عام خيبر عام : ٧ هـ وكانت معه راية خزاعة يوم فتح مكة ، توفي عام : ٥٢ هـ .

الاستيعاب لابن عبد البر (١٢٠٨/٣) ، أُسد الغابة لابن الأثير (٢٦٩/٤) ، والإصابة لابن حجر (٥٨٤/٤) .

والآثار في هذا البَاب أكثرُ من أنْ تُذكَرُ [١] .

وأمّا القَوْل بأنَّ الجنَّة والنَّار لم تُخلقا بعد فهو قَول أهل الْبدع من ضُلَّالِ الْمُعْتَزلَة [٢] وَمن قَالَ بقَوْلهمْ [٣] وهم الَّذين يَقُولُونَ : إنَّ الجنَّة الَّتِي أُهبط مِنْهَا آدم إِنَّمَا كَانَت جنَّةً تسير في الأرض .

وهذه الأحاديثُ وأمثالُها تردُّ قَوْلَهم .

جواب القائلين بأنها جنة الخلد : أن صفات الجنة لا تتم إلا إذا دخلها المسلمون في القيامة

قَالُوا : وأمَّا احتجاجُكم بِسَائِر الْوُجُوه الَّتِي ذكرتموها فِي الْجنَّة ، وأنَّهَا مُنتفِيةٌ فِي الجنَّة الَّتِي أُسكِنَها آدمُ من اللَّغْوِ وَالْكذبِ وَالنَّصَبِ والعُرْي وغيرَ ذَلِك ، فَهَذَا كُلُّه حق ، لا نُنكِره نَحنُ ولا أحدٌ من أهلِ الإسلام ، ولكِنْ هذا إِنَّما هُو إِذا دَخلَهَا الْمُؤمِنُونَ يومَ القيامةِ كما يدلُّ عليه سياقُ الكلامِ ، وهذا لا ينفي أن يكون فيها بين آدمَ وإبليسَ ما حكاه اللهُ عزَّ وجلَّ من الامتحان والابتلاء ، ثم يصيرُ الأمرُ عند دُخولِ المؤمنين إلى ما أخبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ به ؛ فلا تَنافيَ بين الأمرين .

جواب القائلين بأنها جنة الخلد على من قال : الجنة دار جزاء لا دار تكليف

قالوا : وأمَّا قولُكم إنّ الجنةَ دارُ جزاءٍ وثوابٍ ، وليست دارَ تكليفٍ ، وقد كلَّف الله سبحانه آدمَ فيها بالنَّهي عن الشجرة !

فجوابُه من وجهين :

---

(١) بسطَ المؤلفُ رحمه الله الأدلةَ في ذلك في كتابه : حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (١٧) وما بعدها .

(٢) هي إحدى الفرق التي خالفت أهل السنة والجماعة ، وكان ظهورها في أوائل القرن الثاني الهجري ، وأشهر ما قيل في سبب تسميتهم بهذا الاسم : أن واصل بن عطاء كان في مجلس الحسن البصري حينما سُئل عن مُرتكب الكبيرة فتفكر الحسن في ذلك ، وقبل أن يجيب ، قال واصل : أنا لا أقول : إنَّ صاحبَ الكبيرة مؤمنٌ مطلقاً ، ولا كافر مطلقاً ، بل في منزلة بين المنزلتين ، ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد ، يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن . فقال الحسن : اعتزل عنا واصل ، فسمي هو وأصحابه معتزلة .

والمعتزلة فرق كثيرة ، لكنْ يجمعهم القولُ بنفي الصفات ، والقولُ بخلق القرآن ، وأنَّ العبدَ قادرٌ خالق لأفعاله وأنَّ الفاسق من أمة الإسلام بالمنزلة بين المنزلتين ، ولهم أصول خمسة - ذكرها المؤلف هنا - هي عندهم بمنزلة أركان الإيمان عند أهل السنة والجماعة . ينظر : مقالات الإسلاميين للأشعري (١٣٠/١) ، والفرق بين الفرق للبغدادي (١١٤) ، والملل والنحل للشهرستاني (٤٣/١) وكتاب المواقف للأيجي (٦٥٢/٣) .

(٣) ذكر ذلك عنهم ، ثمّ ردَّ عليهم كلٌّ من : ابن حزم في : الفصل (٦٨/٤) ، والبغدادي في أصول الدين (٢٣٨) والعمراني في : الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (٦٥٨/٢) ، والمؤلف في : حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (١١) ، والسفاريني في : لوامع الأنوار البهية (٢١٠/٢) وما بعدها .

أحدُهما : أنَّه إنَّما يمتنعُ أن تكونَ دارَ تكليفٍ إذا دَخَلَها المؤمنون يوم القيامة ، فحينئذٍ ينقطعُ التكليفُ ، وأمَّا امتناعُ وقوعِ التَّكليفِ فيها في دار الدُّنيا فلا دليل عليه .

الثاني : أنَّ التكليفَ فيها لم يكن بالأعمالِ التي يُكلَّفُ بها النَّاسُ في الدُّنيا من الصِّيام والصَّلاةِ ، والجهادِ ، ونحوها ، وإنَّما كان حَجْراً عليه في شجرةٍ من جُملةِ أشجارها وهـذا لا يمتنعُ وقوعُه في جنَّةِ الخُلدِ ، كما أنَّ كلَّ أحدٍ مَحْجورٌ عليه أن يَقْرَبَ أهلَ غيرِه فيها .

فإن أردتم بأنَّ الجنةَ ليست دارَ تكليفٍ امتناعَ وقوعِ مثلِ هذا فيها في وقتٍ من الأوقات فلا دليلَ لكم عليه ، وإن أردتم أنَّ غالبَ التَّكاليفِ التي تكون في الدنيا مُنتفيةٌ فيها فهو حقٌّ ؛ ولكن لا يدُلُّ على مطلوبِكم .

قالــوا : وهذا كما أنَّه مُوجَبُ الأدلَّةِ وقولُ سلفِ الأمَّة ، فلا يُعرف بقولكم قائلٌ من أئمَّة العلم ، ولا يُعرَّجُ عليه ، ولا يُلتَفَتُ إليه .

جواب القائلين بأنها ليست جنة الخلد عن أدلة مخالفيهم من وجهين : مجمل ومفصل

قــال الأوَّلُـون : الجوابُ عمَّا ذكرتم من وجهين ؛ مجمَلٌ ومُفصَّلٌ :

أمَّا المجملُ : فإنَّكم لم تأتُوا على قولِكُم بدليلٍ يتعيَّنُ المصيرُ إليه ، لا من قرآنٍ ، ولا من سُنَّةٍ ، ولا من أثرٍ ثابتٍ عن أحدٍ من أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا التابعين ، لا مُسنَداً ولا مقطوعاً .

احتجاجهم بقول جمع من الصحابة والتابعين والأئمة على أن الجنة ليست جنة الخلد

ونحن نُوجِدُكم مَن قال بقولنا :

هذا سفيانُ بن عُيينــةَ [١] قـال في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [٢] قال : "يعني في الأرض " [٣] .

(١) سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي ، الإمام الكبير ، حافظ العصر، شيخ الإسلام ، طلب الحديث، وهو غلام ، ولقي الكبار، وحمل عنهم علما جما ، وأتقن ، وجود وجمع وصنف ، توفي عام : ١٩٨ هـ .
وفيات الأعيان لابن خلكان (٣٧٦/١) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤٥٤/٨) .

(٢) طه : ١١٨.

(٣) ذكره المؤلف في : حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (٢٣) .

**وهذا عبد الله بن مُسلم بن قُتيبة [(١)] ، قال في " معارفه " [(٢)] بعد أن ذكَرَ خلقَ الله لآدمَ وزوجِه : " إنَّ الله سبحانُه أخرجَهُ من مشرقِ جنَّةِ عَدَنٍ إلى الأرضِ التي منها أُخِذَ " [(٣)] .**

**وهــذا أُبَــيُّ رضي الله عنــه [(٤)] قــد حكــى الحســنُ [(٥)] عنه : " أنَّ آدمَ لمَّا احتضـرَ اشتهــى قِطْفَاً مِن قِطــفِ الجنَّــة ، فانطلق بنُوه ليطلبُوهُ له ، فلقيَتهُم الملائكةُ ، فقالوا : أيــن تريـــدون يـا بنــي آدم ؟ قالـوا : إنَّ أبـانا اشتهـى قِطْفَاً مِن قِطف الجنَّةِ ، فقالوا لهم : ارجعــوا ؛ فقد كُفِيتُمـوه ، فانتهـوا إليه ، فقبضـوا روحَـهُ ، وغسَّلُـوه ، وحنَّطُوه وكفَّنُــوه ، وصلَّى عليه جبريــلُ وبنــوه خلفَ الملائكة ، ودفنوه ، وقالوا : هذه سُنَّتُكم في موتاكم " [(٦)] .**

---

(١) أبو محمد ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّيْنَوري ، صاحبُ التصانيف الكثيرة ، منها : غريب الحديث ، وغريب القرآن ، وأدب الكاتب ، وغيرها ، سكن بغداد ، وحدَّث بها . توفي عام : ٢٧٦ هـ .
تـاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤١١/١١) ، وسير أعـلام النبلاء للذهبي (٢٩٦/١٣) .

(٢) ذكـره في المعارف نقلاً عن التوراة ، حيث نقل من الإصحاح الثاني الآيات : ٨- ٢٢ ، وقد صرَّح بهذا قبل نقلهِ إذ قال : " وعاد الخبر إلى التوراة " ، ثم بعد نهاية القصَّةِ ، قال : "فهذا ما في التوراة" ينظر (١٠-١٤) .

(٣) ويريد بذلك أنها جنة في الأرض ؛ كما سينقل المؤلف عن وهب بن منبه نحواً من ذلك في الصفحة التالية .

(٤) أُبيُّ بن كعب بن قيس الأنصاري النَجَّاريُّ ، أبو المنذر ، من أصحاب العقبة الثانية ، شهد بدرا والمشاهد كلَّها وهو معدود في الستَّةِ من أصحابِ الفُتيا ، وهو أوّل من كتَبَ للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو سيِّدُ القُراء ، توفي عام : ٢٢ هـ . الاستيعاب لابن عبد البر (٦٥/١) ، أُسد الغابة لابن الأثير (١٦٨/١) ، والإصابة لابن حجر (١٨٠/١)

(٥) الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ، أبوه مولى زيد بن ثابت ، أبو سعيد ، من كبار التابعين ، وإمام أهل البصرة جمع من كلِّ فنٍّ من : علم ، وزهد ، وورع ، وعبادة ، وفصاحة ، وشجاعة ، توفي عام : ١١٠ هـ .
الطبقات الكبرى لابن سعد (١٥٦/٧) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٢٢٦/١) ، والجواهر المضية في طبقات الحنفية لعبد القادر القرشي (٢٦/١) .

(٦) رواه الطيالسي في مسنده (٥٥١) ، وعبد الله بن أحمد في زوائده (١٣٦/٥) ، والحاكم في مستدركه (٣٤٤/١) وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه . وقال الألباني في السلسلة الضعيفة ، رقم الحديث (٢٨٧٢) : "وجملة القول : أنَّ الحديثَ عن أبيٍّ رضي الله عنه صحيح مرفوعاً وموقوفاً ، ولكن ليس في شيء من الروايات الثابتةِ ذكرُ التكبير عليه أربعاً " .

**وهذا أبو صالح (١) قد نقل عن ابن عباس رضي الله عنه (٢) في قوله : ﴿ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا﴾ قال : " هو كما يُقال : هَبَطَ فُلانٌ أرضَ كذا وكذا " (٣).**

**وهذا وَهبُ بن مُنبِّهٍ (٤) يَذكرُ أنَّ آدمَ خُلِقَ في الأرضِ ، وفيها سكَنَ ، وفيها نُصِبَ له الفردوسُ وأنَّه كان بِعَدَن (٥) ، وأنَّ سَيْحُونَ (٦) وجَيْحُون (٧) والفرات (٨) ، انقسمت من النهَر الذي كان في وسطِ الجنَّةِ ، وهو الذي كان يسقيها (٩) .**

---

(١) أبو صالح ، واسمه : باذام ، وقيل : باذان ، مولى أم هانئ الهاشمي الكوفي ، روى عن ابن عباس رضي الله ولم يسمع منه ، وهو ضعيف مدلس . التاريخ الكبير للبخاري (١٤٤/٢) ، والضعفاء الكبير للعقيلي (١٦٥/١) ، وتقريب التهذيب لابن حجر (١٢٠/١) .

(٢) سبقت ترجمته ص : ٨٧ .

(٣) ذكره ابن قتيبة في : غريب القرآن (٤٦) .

(٤) وهب بن مُنبِّه بن كامل بن سيح الأنباري ، اليماني ، روى عن ابن عباس وجابر وأبي سعيد رضي الله عنهم وغيرهم عُرف بسعة علمه في الاسرائيليات ، تابعي مشهور ، توفي عام : ١١٤ هـ.
وفيات الأعيان لابن خلكان (٢٢٦/٣) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٥٤٤/٤) .

(٥) هي محافظة مشهورة في الجمهورية اليمنية ، يتبَعُها عدِّة مُدُنٍ ، تقع على بحر العرب جنوب الجزيرة العربية ، وهي تقع في فُوَّهَةِ بُركان خمد منذ آلاف السنين .
معجم البلدان لياقوت الحموي (٨٩/٤) ، وتاريخ ابن خلدون (٢٧٨/٤) ، والموسوعة العربية الميسرة بإشراف : محمد شفيق غربال (١١٩١/٢) .

(٦) هو : نهر فى آسيا الوسطى ، يصل طوله إلى : ٢,٠٩٠ كم تقريبا ، ويخترق ثلاث دول آسيوية هي : أوزبكستان وطاجيكستان ، و كازاخستان ، ثمَّ يصب فى بحر أرال ، واسمه اليوم " سرداريا " . معجم البلدان لياقوت الحموي (٢٩٤/٣) ، والموسوعة العربية الميسرة (٩٧٧/١) ، و " ويكيبيديا " الموسوعة الحرة على الشبكة العكبوتية .

(٧) هو : نهر فى آسيا الوسطى ، يبلغ طوله : ٢,٥٢٣ كم تقريبا ، يُعرف عند العرب باسم : جيحون ، ويعرف اليوم باسم : " آمو داريا " ، ينبع من جبال " بامير " في آسيا الوسطى ، وهو الحدُّ الفاصل بين دولة : أفغانستان ودولتي : طاجيكستان وأوزبكستان . معجم البلدان لياقوت الحموي (٢٩٦/٢) ، والموسوعة العربية الميسرة (٢٢٨/١) ، و " ويكيبيديا " الموسوعة الحرة على الشبكة العكبوتية .

(٨) ينظر ص : ٨٦ .

(٩) لم أجده ، وقد ذكره المؤلف في حادي الأرواح (٢٤) حيث قال : " قال منذر بن سعيد : هذا وهب بن منبه .." فلعله نقله من تفسير منذر بن سعيد البلوطي ، كما سيذكر المؤلف هنا ، وتفسير منذر بن سعيد مفقودٌ .

**وهذا مُنْذِرُ بن سعيد البَلُّوطي [١] اختاره في "تفسيره" [٢] ، ونصَـرَه بما حكَيناهُ عنه [٣] وحكاهُ في غير التفسير [٤] عن أبي حنيفة رضي الله عنه [٥] ومن قال بقوله ، والذين ردُّوا عليه مقالتَه لم يُنكِروا نسبَتَهُ إلى أبي حنيفة ، وإنَّما ناقضوه بكونِه خالف أبا حنيفةَ فيما خالَفَه فيه ، فلِمَ قال بقولِه في هذه المسألةِ ؟ .**

**وهذا أبو مُسلم الأصبهانيُّ [٦] صاحب التفسير وغيره ، أحد الفضلاء المشهورين قال بهذا وانتصر له واحتج عليه بما هو معروف في كتابه .**

ذكر من أورد القولين من العلماء

**وهذا أبو محمد عبد الحق بن عطية [٧] ذكر القولين في تفسيره في قصة آدم في "البقرة" [٨] .**

**وهـذا أبـو محمد بن حـزم [٩] ذكـرَ القولين في كتـابِ " المـلل والنحـل " [١] له فقال :**

---

(١) تقدمت ترجمته ص : ٦٧.

(٢) تفسير منذر بن سعيد مفقودٌ ، وقد تمَّت الإشارة إلى ذلك ص : ٦٧ .

(٣) تقدَّم في ص ٦٧–٦٨ نقل المؤلف عنه أنها جنةٌ في موضعٍ عالٍ من الأرض .

(٤) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية (٨٣/١) : أنَّ القاضي منذر بن سعيد البلُّوطي أفرد مُصنَّفاً في ذلك ، فقال :" وقال آخـرون بل الجنة التي أُسكنها آدم لم تكن جنة الخلد .... " ، ثم قـال : "وهذا القـول محكي عن أبيِّ بن كعب وعبد الله بن عباس ، ووهب بن منبه ، وسفيان بن عيينة ، واختاره ابن قتيبة في المعارف ، والقاضي منذر بن سعيد البلوطي في تفسيره ، وأفرد له مُصنَّفا على حدة " .

(٥) النعمان بن ثابت بن زوطى التميمي الكوفي ، إمام أصحاب الرأي ، وفقيه أهل العراق ، وأحد الأئمة الأربعة توفي عام : ١٥٠ هـ . تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ( ٤٤٤/١٥) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٢٠١/٣)

(٦) محمد بن بحر ، تقدمت ترجمته ص : ٦٧ .

(٧) هو : أبو محمد ، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي الغرناطي ، شيخ المفسرين ، من أهل غرناطة كان واسع المعرفة ، عارفاً بالأحكام والحديث والتفسير ، أديباً بارعاً ، شاعراً ، لغوياً ، توفي عام : ٥٤٢ هـ .
تاريخ قضاة الأندلس لأبي الحسن النباهي (١٠٩) ، وطبقات المفسرين للسيوطي (٦٠) .

(٨) المحرر الوجيز (١٢٦/١) .

(٩) أبو محمد العلّامة الحافظ ، محمد بن علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأموي القرطبي ، صاحبُ فنون ، وورعٍ ، وزهدٍ له تصانيف منها : المحلى ، والفصل في الملل والأهواء والنحل ، وغيرها ، توفي عام : ٤٥٧ هـ .
جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي (٣٠٨) ، وبغية الملتمس في رجال أهل الأندلس للضبي (٤١٥) وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٨٤/١٨) .

**" وكـان المنذر بن سعيد القاضي يذهبُ إلى أنَّ الجَّنة والنَّار مخلوقتان ، إلا أنَّه كان يقول : إنَّها ليست هي التي كان فيها آدمُ وامرأتُه ".**

**ومن حكى القولين / أيضاً أبو عيسى الرُّمَّانيُّ (٢) في " تفسيره " (٣) ، واختارَ أنَّها جنَّةُ الخلدِ ، ثم قال : " والمذهبُ الذي اخترناه : قولُ الحسنِ (٤) ، وعمرو ، وواصلٍ (٥) وأكثرِ أصحابِنا .** [١٣/أ]

**وهو قولُ أبي علي (٦) ، وشيخِنا أبي بكرٍ (٧) ، وعليه أهلُ التفسير " (٨) .**

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (١٤٢/٤) .

(٢) كذا كنيته في النسخ الخطية كلِّها ، وفي حادي الأرواح (٢٣) .

وهو : أبو الحسن ، علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرُّمَّانيُّ ، النحوي ، المعتزلي ، أحد المشاهير ، عالم بالعربية ، ومن كبار النحاة ، صاحب المصنَّفات الكثيرة ، قال عنه الذهبي :" له نحو مئة مصنف" ، ومنها تفسير للقرآن الكريم على مذهب المعتزلة ، سماه : الجامع الكبير ، توفي عام : ٣٨٤ هـ .

وفيات الأعيان لابن خلكان (١٤٢/٢) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٥٣٣/١٦) .

(٣) واسمه : الجامع الكبير ، صنَّفه على مذهبِ المعتزلة ، وقد عُثر على جزء منه ، ولم يطبع .

(٤) أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ، تقدمت ترجمته : ٩١ .

(٥) في النسخ الخطية : عمرو بن واصل ، والمثبت هو الصواب ، وقد أثبته المؤلف : عمرو ، وواصل ، كما في كتابه : حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (٢٣) .

وعمرو هو : عمرو بن عبيد بن باب البصري ، المعتزلي القدري ، مولى بني تميم ، شيخ المعتزلة في زمانه وتنتسب إليه الطائفة العمورية ، ألَّف في التفسير ، وله كتاب : العدل والتوحيد ، توفي عام : ١٤٤ هـ . تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٦٣/١٤) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٢١٩/٢) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٠٤/٦)

وواصل هو : أبو حذيفة ، ويقال : أبو الجعد ، واصلُ بن عطاء الغزَّال ، وهو رأس المعتزلة ، وداعيتهم ، تنتسب إليه الطائفة الواصلية ، وكان تلميذا للحسن البصري ؛ فاعتزله ، توفي عام : ١٣١ هـ . الفرق بين الفرق للبغدادي (١١٧) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٢١٢/٣) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤٦٤/٥) .

(٦) أبو علي الجُبَّائي ، محمد بن عبد الوهاب البصري شيخ المعتزلة ، وإليه تنتسب الطائفة الجُبَّائية من المعتزلة ، تأثر به أبو الحسن الأشعري في بداياته ، له مؤلفات عديدة ، توفي عام : ٣٠٣ هـ . الفرق بين الفرق للبغدادي (١٨٣) ووفيات الأعيان لابن خلكان (٣٥٨/٢) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٨٣/١٤) .

(٧) شيخ المعتزلة ، أبو بكر ، أحمد بن علي بن بَيْغَجُور الإخشيد ، أبوه من بلاد الترك ، وله مصنفات منها : نقل القرآن ، وكتاب الإجماع ، وكتاب المعونة في الأصول ، وله اختصار تفسير ابن جرير الطبري ، وغيرها ، توفي عام : ٣٢٦ هـ . سير أعلام النبلاء للذهبي (٢١٧/١٥) ، والوافي بالوفيات للصفدي (١٤٢/٧) ،

(٨) ينظر : تفسير الطوسي : التبيان في تفسير القرآن (١٥٦/١) ، فقد نقل كلامَ أبي عيسى الرُّمَّاني ، وذكره المؤلف في حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (٢٣) .

**ومن ذكر القولين أبو القاسم الراغب (١) في " تفسيره " (٢) ، فقال : " واختلف في الجنة التي أُسكِنَها آدمُ فقال بعض المتكلمين (٣) كان : بستاناً جعله الله له امتحاناً ، ولم يكن جنَّةَ المأوى ".**

**ثـمَّ قال : " ومن قال:لم تَكُنْ جنَّة المأوى لأنَّه لا تكليفَ في الجنَّة ، وآدمُ كان مُكلَّفاً ".**

**قال : " وقد قيل : في جوابِه إنَّما لا تكونُ دارَ التَّكليف في الآخرةِ ، ولا يمتنعُ أن تكونَ في وقتٍ دارَ تكليفٍ دون وقتٍ ، كما أنَّ الإنسانَ يكونُ في وقتٍ مُكلَّفاً دون وقت ".**

**ومن ذكر الخلافَ في المسألةِ أبو عبد الله بن الخطيب (٤) في "تفسيره" (٥) فذكر هذين القولينِ ، وقولاً ثالثاً ، وهو التوقف .** ذكر من أورد التوقف في المسألة من العلماء

**قال : " لإمْكَانِ الجمع وعدمِ الوصولِ إلى القطعِ " كما سيأتي حكايةُ كلامِه (٦) .**

(١) أبو القاسم الأصفهاني ، أو الأصبهاني ، الحسين بن محمد بن المفضّل ، المعروف بالراغب ، إمام في اللغة ، وينسب إلى الأشعرية ، له تصانيف كثيرة ، منها: مفردات ألفاظ القرآن ، والذريعة إلى مكارم الشريعة ، ومُحاضرات الأدباء وجامع التفاسير ، وهو تفسير كبير ، طُبع جزء منه . توفي عام : ٥٠٢ هـ .
سير أعلام النبلاء للذهبي (١٢٠/١٨) ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (٥٩/٤) .

(٢) تفسير الراغب (١٥٤/١) .

(٣) المتكلمون : هم من ساروا في تقرير العقيدة الإسلامية بغير شرع الله تعالى وما أنزل ، وسلكوا مسلك قواعد المنطق اليوناني ، وأعرضوا عن الكتاب والسنة ، وهم الجهمية ، والمعتزلة ، والأشاعرة ، والماتريدية ، والمرجئة والكرامية ، وغيرهم ، لذا كثر اضطرابُهم وشكُّهم ، وأقرُّوا على أنفسهم بذلك .
ينظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٦٦/١٠) ، ودرء تعارض العقل والنقل له (١٥٨/١) ، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (٢٣٦/١) وما بعدها .

(٤) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين ، أخذ العلم عن كبار علماء عصره ، ومنهم والده ،كان عالما في التفسير ، وعلمِ الكلام ، والفلكِ ، والفلسفةِ ، وعلمِ الأصول ، وفي غيرها. ترك مؤلفات كثيرة أبرزها تفسيره الكبير المعروف بمفاتيح الغيب ، وهو تفسير جامعٌ لمسائل كثيرة في التفسير وغيره من العلوم التي تبدو دخيلة على القرآن الكريم ، وقد غلبَ على تفسيرِهِ مذهبُ المعتزلةِ ، وحوى تفسيرُه كل غريب وغريبة كما قال ابن خلكان ، توفي عام : ٦٠٦ هـ .
وفيات الأعيان لابن خلكان (٣٤٩/٢) ، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٨٠/٨) .

(٥) مفاتيح الغيب (٥/٣) .

(٦) ينظر ص : ٩٧ .

**ومن المُفَسِّرين مَن لم يذكر غيرَ هذا القول ، وهو أنَّها لم تكن جنَّةَ الخُلدِ ، إنَّما كانت حيثُ شاء اللهُ من الأرض ، وقالوا : كانت تطلُعُ فيها الشمسُ والقمرُ ، وكان إبليسُ فيها ثم أُخرج ، قال (١) : " ولو كانت جنةُ الخلدِ لَمَا أُخرِجَ منها " .**

**وممن ذكرَ القولين أيضاً : أبو الحسن المَاوَرْدِيُّ (٢) فقال في " تفسيره " :**

**" واختُلفَ في الجنةِ التي أُسكناها على قولين :**

**أحدهما : أنَّها جنَّة الخلدِ .**

**الثاني : أنَّها جنَّةٌ أعدَّها اللهُ لهما ، وجعلها دارَ ابتلاء ، وليست جنَّةَ الخلد التي جعلها الله دارَ جزاءٍ .**

**ومَن قال بهذا اختَلفوا فيه على قولين :**

**أحدُهما : أنَّها في السماء ؛ لأنَّه أهْبَطهُما منها ، وهذا قول الحسن (٣) .**

**الثاني : أنَّها في الأرض لأنَّه امتَحَنَهُما فيها بالنَّهي عن الشجرةِ التي نُهيَا عنها دون غيرها من الثِّمار ، وهذا قول ابن بحر (٤) ، وكان ذلك بعد أنْ أمرَ إبليسَ بالسجودِ لآدمَ ، والله أعلمُ بصوابِ ذلك ." هذا كلامه (٥) .**

**وقال ابن الخطيب (٦) في " تفسيره " (٧) :**

---

(١) كذا في النسخ الخطية ، وينظر تفسير الخازن (٣٨/١) .

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ، الشهير بالماوَرْدِيُّ ، من فقهاء الشافعية ، وإمام في الفقه والأصول ، والتفسير، وبصير بالعربية ، أشعري المعتقد ، واتهم بالاعتزال ، صاحب تصانيف عديدة ، منها : تفسيره : النكت والعيون ، وأعلام النبوة ، الإقناع ، والحاوي الكبير ، وغيرها ، توفي عام : ٤٥٠ هـ .
سير أعلام النبلاء للذهبي (٦٤/١٨) ، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢٧٦/٥) ، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٢٣٠/١) . وطبقات المفسرين للأدنه وي (١١٩) .

(٣) تقدمت ترجمته ص : ٩١ .

(٤) في النسخ كلِّها : " ابن يحيى " وهو تصحيف ، وقد ذكره المؤلف كما أثبت في حادي الأرواح (٢٢) ، وكذا الماوردي في تفسيره حيث يذكره بـ ابن بحر ، في أكثر من (٢٠٠) مرة في كتابه : النكت والعيون .
وهو : محمد بن بحر ، أبو مسلم الأصبهاني ، تقدمت ترجمته ص : ٦٧ .

(٥) تفسير الماوردي : النكت والعيون (١٠٤/١ ، و ٢٠٨/٢) وسقطَ الخلافُ الثاني من تفسير الماوردي المطبوع .

(٦) أبو عبد الله الرازي الملقب بفخر الدين ، تقدمت ترجمته ص : ٩٥ .

(٧) مفاتيح الغيب (٥/٣) .

" اختلفوا في أنَّ الجنَّةَ المذكورة في هذه الآيةِ هل كانت في الأرضِ أو في السَّماءِ ؟ وبتقديرِ أنَّها كانت في السَّماءِ ، فهل هي الجنَّةُ التي هي دارُ الثَّواب ، وجنَّةُ الخلد ، أو جنَّةٌ أخرى ؟

فقال أبو القاسم البَلْخِيُّ (١) ، وأبو مسلم الأصبهاني (٢) : هذه الجنةُ في الأرضِ ، وحمَلا الإهباطَ على الانتقالِ من بُقعةٍ إلى بُقعةٍ ، كما في قولِه تعالى : ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْـرًا﴾ (٣)

القول الثاني : وهو قولُ الجُبَّائِيِّ (٤) : أنَّ تلك في السماءِ السَّابِعةِ ، قال : والدَّليلُ عليه قولُه : ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ ، ثمَّ إنَّ الإهبَاطَ الأوَّلَ كان مِن السَّماءِ السَّابِعةِ إلى السماء الأولى والإهباطُ الثَّاني كان من السَّماءِ إلى الأرض ".

قال : " والقولُ الثَّالثُ ، وهو قولُ جُمهورِ أصحَابِنَا : أنَّ هذه هي دارُ الثَّوابِ ، والدَّليلُ عليه : أنَّ الألفَ واللَّامَ في لفظ " الجنَّةِ " لا يُفيدُ العُمومَ ؛ لأنَّ سُكنى آدمَ (٥) جميعَ الجِنَان مُحالٌ ، فلا بدَّ مِن صَرفها إلى المعهودِ السابقِ ، والجنَّةُ هي (٦) المعهودةُ المعلومةُ بين المسلمين ، هي دارُ الثَّوابِ ؛ فوجب صرف اللفظ إليها ".

قال : " والقولُ الرابعُ : أنَّ الكُلَّ مُمكنٌ ، والأدلةُ النَّقليَّة ضعيفةٌ ومُتَعارِضَةٌ ؛ فوجبَ التَّوقُّفُ وتركُ القَطعِ ".

موقف القائلين بأنها ليست جنة الخلد من النقول السابقة

قالوا (٧) : ونحنُ لا نُقلِّدُ هؤلاء ، ولا نعتمدُ على ما حُكيَ عنهم ، والحُجَّة الصَّحيحةُ حَكَمٌ بين المُتنازِعين .

---

(١) عبد الله بن أحمد بن محمود البلخي ، المعروف بالكعبي ، من متكلمي المعتزلة البغداديين ، وإليه تنتسب طائفة الكعبية من المعتزلة ، له مصنفات منها : كتاب التفسير الكبير ، والغرر والنوادر ، والجدل ، وغيرها ، توفي عام : ٣١٩ هـ . تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٣٩٢/٩) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٢٢/٢) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣١٣/١٤) .

(٢) محمد بن بحر ، أبو مسلم الأصبهاني ، تقدمت ترجمته ص : ٦٧ .

(٣) البقرة : ٦١.

(٤) أبو علي الجُبَّائيّ ، سبقت ترجمته ص : ٩٤ .

(٥) " آدم " سقطت من : د ، ص .

(٦) " المعهود السابق ، والجنَّةُ هي "سقط من : ص . وفي : د " والجنةُ المعهودةُ المعلومةُ " .

(٧) هم أصحاب القول بأن الجنة التي أُسكنها آدم ليست جنة الخلد ، والقول التالي لهم أيضاً .

قالوا : وقد ذكرنا على هذا القَولِ ما فيه كِفايةٌ .
وأمَّا الجوابُ المُفَصَّلُ : فنحن نتكلَّمُ على ما ذكَرتُم مِن الحُجَج لينكشِفَ وجهُ الصَّوابِ فنقولُ وبالله التوفيق :

الرد على الاستدلال بحديث : استفتح لنا الجنة

أمَّا استدلالُكم بحديثِ أبي هريرة وحذيفة حين يقولُ النَّاس لآدمَ : " استفتح لنا الجنَّة فيقول : وهل أخرجَكُم منها إلا خطيئةُ أبيكم ؟ " (١) .
فهذا الحديثُ لا يدل على أنَّ الجنَّةَ التي طَلَبُوا منهُ أن يستَفتحَها لهم هي التي أُخرجَ منها بِعَينها ؛ فإنَّ الجنَّةَ اسمُ جنسٍ فكلُّ بُستَانٍ يُسمَّى جنَّة ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾(٤) .
وقال تعالى : ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ إلى قوله : ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾(٥) .
فالجنَّةُ اسمُ جنسٍ ، فهم لمَّا طلبوا من آدمَ أنْ يَستَفتحَ لهم جنَّةَ الخُلدِ أخبرَهم بأنَّه لا يَحْسُنُ منهُ أن يُقْدِمَ على ذلك وقد أخرجَ نفسَه وذُرِّيتَهُ من الجنَّةِ التي أسكَنَهُ الله إيَّاها بذنبِهِ وخطيئَتِهِ ، هذا الذي دلَّ عليه الحديث .
وأمَّا كونُ الجنَّة التي أُخرجَ منها هي بعينها التي طلَبُوا منه أن يَستفتحَها لهم ؛ فلا يدُلُّ

---

(١) رواه مسلم (١٩٥) ، وقد تقدَّم استدلالهم ص : ٧٧ .
(٢) القلم : ١٧ .
(٣) الإسراء : ٩٠ — ٩١ .
(٤) البقرة : ٢٦٥ .
(٥) الكهف : ٣٢ - ٣٩ .

الحديث عليه بشيءٍ من وجوه الدَّلالاتِ الثَّلاثِ [١] ، ولو دلَّ عليه لوجبَ المصيرُ إلى مدلُولِ الحديثِ ، وامتنع القولُ بمُخالَفَتِه ، وهل مدارُنَا إلَّا على فهْمِ مُقتَضى كلامِ الصَّادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه .

الرد على الاستدلال بلفظ الهبوط على أنه من علو إلى سُفل

قالوا : وأمَّا استدلالُكم بالهبوطِ ، وأنَّه نُزولٌ من عُلُوٍّ إلى سُفْلٍ [٢] ، فجوابه من وجهين : أحدُهما : أنَّ الهبوطَ قد استُعمِلَ في النُّقْلَةِ من أرضٍ إلى أرضٍ ، كما يُقال : هبَطَ فلانٌ بلدَ كذا وكذا ، وقال تعالى : ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [٣] ، وهذا كثيرٌ في نَظْمِ العربِ ونثرها ، قال [٤] :

إنْ تَهبِطِينَ بلاد قَوْ ... مٍ يَرْتَعُونَ من الطِّلاحِ

وقد روى أبو صالحٍ [٥] عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما [٦] ، قال : " هو كما يُقال هبَطَ فلانٌ أرضَ كذا وكذا " [٧] .

الثاني : أنَّا لا نُنازِعكم في أنَّ الهُبوط حقيقةً ما ذكرتُمُوه ، ولكن من أين يلزمُ أن تكون الجنَّةُ التي منها الهُبوط فوق السموات ؟ ، فإذا كانت في أعلى الأرضِ أمَا يصحُّ أن يُقال : هبَطَ منها كما هَبَط [٨] الحجرُ من أعلى الجبل إلى أسفَلِه ونحوه ؟!

---

(١) وهي : ١/ دلالةُ المطابقة: وهي دلالة اللفظ على كامل معناه ؛كدلالة لفظ البيت على معنى البيت .
٢/ دلالةُ التضمُّن : وهي دلالة اللفظ على جزء من معناه ؛ كدلالة لفظ البيت على السقف .
٣/ دلالةُ الالتزامِ : وهي دلالة اللفظ على شيء خارج عن معناه ؛ لكنه لازم له لا يفارقه ؛ كدلالة لفظ السقف على الحائط إذ ليس جزءا من السقف ؛ لكنه لا ينفك عنه . روضة الناظر لابن قدامة المقدسي (٧٠/١) .

(٢) كما تقدَّم ص ٧٧ .

(٣) البقرة : ٦١.

(٤) القاسم بن معن ، قاضي الكوفة المُتوفى عام : ١٧٥ هـ ، ذكره الفرَّاء في معاني القرآن (١٣٦/١) ، والبغدادي في خزانة الأدب (٤٢١/٨) ، وذكره من غير نسبة ابن جني في سرِّ صناعة الإعراب (٤٤٨/٢) ، وابن سيده في المحكم والمحيط الأعظم (٢٤١/٣ ، ٣٢٨/٨ ، ٤٧٨/١٠) ، وغيرهم .

(٥) هو : باذام أو باذان ، سبقت ترجمته ص: ٩٢ .

(٦) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

(٧) سبق ذكره ص : ٩٢ .

(٨) في : د ، ص : يَهبِط .

وأمَّا قولُه تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (١) ، فهذا يدُلُّ على أنَّ الأرض التي أُهبِطُوا إليها [ لهم فيها مُستقرٌّ إلى حين ، ولا يدُلُّ على أنَّهم لم يكونوا في جنَّة عاليةٍ أعلى من الأرض التي أُهبِطوا إليها ] (٢) تُخالفُ الأرضَ في صفاتِها وأشجارِها ونعيمِها وطيبِها ، فإنَّ الله سبحانه فاوتَ بين بقاعِ الأرض أعظمَ تفاوتٍ وأبيَنَه ، وهذا مشهود بالحِسِّ .

فمن أين لكم أنَّ تلك لم تكن جنَّةً تميَّزَت عن سائر بِقَاعِ الأرض / بما لا يكونُ إلّا فيها [١٤/أ] ثمَّ أُهبِطُوا منها إلى الأرضِ التي هي محلُّ التَّعب والنَّصَب والابتلاءِ والامتحان ؟!

الرد على الاستدلال بقوله تعالى : ( إن لك أن لا تجوع فيها ..)

وهذا بعينه هو الجوابُ عن استدلالِكم بقوله تعالى : ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾(٣) إلى آخر ما ذكرتموه (٤) .

مع أنَّ هذا حكمٌ مُعلَّق بشرطٍ ، والشَّرطُ لم يحصُل ، فإنَّه سبحانه إنَّما قال ذلك عقِبَ قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ ، فقولُه : ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ ، هو صيغةُ وعدٍ مُرتبط بما قبلَها ، والمعنى : إنِ اجْتَنَبتَ الشجرةَ التي نَهيتُك عنها ، ولم تقرَبْها كان لك هذا الوعدُ ، والحُكم المُعلَّقُ بالشَّرط عدمٌ عند عدَمِ الشَّرطِ ؛ فلمَّا أكلَ من الشجرةِ زالَ استحقاقُه لهذا الوعدِ .

الرد على الاستدلال بأنه لو كانت الجنة في الدنيا لعلم آدمُ كذبَ إبليس في دعوى الخلود

قالوا : وأمَّا قولكم : إنَّه لو كانت الجنَّةُ في الدُّنيا لعَلِمَ آدمُ كَذِبَ إبليسَ في قوله : ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ (٥) إلى آخره (٦) ؛ فدعوى لا دليلَ عليها لأنَّه لا دليل لكم على أنَّ الله سبحانه كان قد أَعلَمَ آدمَ حين خلَقَهُ أنَّ الدُّنيا مُنقَضِيةٌ فانيةٌ ، وأنَّ مُلْكَها يبلَى ويزولُ .

---

(١) البقرة : ٣٦ ، والأعراف : ٢٤ .

(٢) سقط من : ص .

(٣) طه : ١١٨.

(٤) تقدم استدلالهم بهذا ص : ٧٨ .

(٥) طه : ١٢٠.

(٦) كما تقدَّم ص ٧٨ .

وعلى تقدير أنْ يكون آدمُ حينئذٍ قد أُعلِمَ ذلك ، فقول إبليسَ : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ ، لا يدُلُّ على أنَّه أراد بالخُلد ما لا يتناهَى ، فإنَّ الخُلدَ في لغة العربِ هو اللُّبْثُ الطَّويلُ ، [ كقولهم : قيدٌ مُخلَّدٌ ، وحبسٌ مُخلَّدٌ ، وقد قال تعالى لعاد (١) : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ (٢) وكذلك قوله :﴿ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ يراد به الملك الطويل ] (٣) الثابت .

وأيضاً ؛ فلا وجهَ للاعتذارِ عن قولِ إبليسَ مع تحقُّقِ كذِبه ، ومُقاسَمَتِه آدمَ وحواءَ على الكذبِ ، والله سبحانه قد أخبرَ أنَّه قاسَمَهما ودَلَّاهما بغُرورٍ ، وهذا يدُلُّ على أنَّهما اغترَّا بقوله ، فغرَّهما بأنْ أطْمَعَهُمَا في خُلدِ الأبدِ والمُلك الذي لا يبلى .

وبالجملةِ ؛ فالاستدلالُ بهذا على كون الجنَّةِ التي أُسكِنَهَا آدمُ هي جنَّةُ الخلد التي وُعِدَها المتَّقون غيرُ بيِّنٍ .

ثمَّ نقولُ : لو كانت الجنَّةُ هي جنَّة الخُلدِ التي لا يزولُ مُلكُها لكانت جميعُ أشجارِها شجَرَ الخُلد ؛ فلم يَبِنْ لتلك الشجرةِ اختصاصٌ من بين سائِر الشجر بكونها شجرةَ الخُلد ، وكان آدمُ يسْخَر من إبليسَ ؛ إذ علِمَ أنَّ الجنَّةَ دارُ الخُلدِ .

فإن قُلتم : لعلَّ آدمَ لمْ يعلم حينئذٍ ذلك ، فغرَّهُ الخبيثُ وخَدَعَهُ بأنَّ هذه الشجرةَ وحدَها هي شجرةُ الخُلد .

قلنا : فاقْنَعوا منَّا بهذا الجواب بعينِهِ عن قولكم : لو كانت الجنَّةُ في الدُّنيا لعَلِمَ آدمُ كذِبَ إبليسَ في ذلك ؛ فإنَّ قولَه كان خداعاً وغروراً محضاً على كلِّ تقديرٍ ، فانقلبَ دليلُكم حُجَّةً عليكم ، وبالله التوفيق .

الرد على الاستدلال بقصة آدم في سورة البقرة

قالوا : وأمَّا قولُكم : " إنَّ قصةَ آدمَ في البقرةِ ظاهرةٌ جداً في أنَّ جنَّةَ آدمَ كانت فوقَ السَّماء " (٤) ، فنحنُ نُطالِبكم بهذا الظُّهورِ ، ولا سبيلَ لكم إلى إثباتِه .

---

(١) في الأصل ، و : د : لثمود ، وهو خطأ .

(٢) الشعراء : ١٢٨ - ١٢٩.

(٣) سقط من : ص .

(٤) تقدَّم ذلك ص : ٧٨ .

الرد على الاستدلال بتكرار لفظ الهبوط وأن ذلك يقتضي المغايرة

قولُكم : " إنَّه كرَّرَ فيه ذِكرَ الهُبوط مرَّتين ، ولا بُدَّ أن يُفيد الثَّاني غيرَ ما أفادَ الأوَّلُ فيكونُ الهُبوطُ الأوَّل من الجنَّةِ ، والثَّاني من السَّماءِ " [١] .

فهذا فيه خلافٌ بين أهل التَّفسير :

فقالت طائفةٌ هذا القول الذي ذكرتُموه .

وقالت طائفةٌ ، منهم النَّقاشُ [٢] وغيرُه : إنَّ الهُبوط الثَّاني إنَّما هو من الجنَّة إلى السَّماءِ والهُبوطُ الأوَّل إلى الأرض ، وهو آخِرُ الهُبُوطَيْن في الوقُوعِ ، وإن كان أوَّلَهما في الذكر .

وقالت طائفةٌ : أتى به على جهةِ التَّغليظِ والتَّأكيد ، كما تقول للرَّجل : اخرُجْ ، اخرُجْ .

وهذه الأقوالُ ضعيفةٌ .

فأمَّا القولُ الأوَّل : فيظهرُ ضعفُه من وجوه :

أحدها : أنَّه مُجرَّد دعوى لا دليلَ عليها من اللَّفظِ ، ولا من خبرٍ يجِبُ المصيرُ إليه وما كان هذا سبيلُه لا يُحْمَل القرآنُ عليه .

الثاني : أنَّ الله سبحانه قد أهبَطَ إبليسَ لمَّا امتنع من السُّجود لآدمَ إهبَاطاً كونيَّاً قدرياً لا سبيل إلى التَّخلف عنه ، فقال تعالى : ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [٣] ، وقال في موضع آخرَ : ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ

---

(١) وقد تقدَّم استدلالهم ص : ٧٩ . وينظر في ذلك : غرائب التفسير للكرماني (١/١٣٦) ، وتفسير البغوي (١/٨٦) وتفسير القرطبي (١/٣٢٧) ، ومفاتيح الغيب للرازي (٣/٥) ، وغيرها .

(٢) محمد بن الحسن بن محمد بن زياد بن هارون بن جعفر الموصلي البغدادي ، أبو بكر النقاش ، المفسر ، المقرئ أصله من الموصل، كان عالما بالتفسير وبالقراءات ، وينسب إلى المعتزلة ، صنَّف في التفسير : شفاء الصدور ، وهو تفسير كبير ، وقد سُجِّل في رسائل ماجستير في جامعة الشارقة ، توفي عام : ٣٥١ هـ. سير أعلام النلاء للذهبي (١٥/٥٧٣) ، والعبر في خبر من غبر للذهبي (٢/٨٨) ، والبداية والنهاية لابن كثير (١١/٢٧٦) .

وينظر قول النَّقاش في : المحرر الوجيز لابن عطية (١/١٣١) .

(٣) الأعراف : ١٣.

عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (١) ، وفي موضعٍ آخرَ : ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢) .

وسواءٌ كان الضميرُ في قوله :﴿مِنْهَا﴾ راجعاً إلى السماءِ أو إلى الجنَّةِ ، فهذا صريحٌ في إهبَاطِه وطردِه ولعنَتِه وإدْحَارِه ، والمَدْحُورُ : المَبْعُودُ .

وعلى هذا فلو كانت الجنَّة فوق السمواتِ لكان قد صعدَ إليها بعد إهباطِ الله له ، وهذا وإن كان مُمكناً فهو في غايةِ البُعد عن حكمةِ الله ، ولا يقتضيه خبَرُه فلا ينبَغي أن يُصار إليه .

نقض الوجوه الأربعة التي ردَّ بها القائلون بأن جنة آدم هي جنة الخلد في مسألة صعود إبليس للوسوسة

وأمَّا الوجوه الأربعةُ التي ذكرتُمُوها من صُعُودِه للوَسوَسَةِ (٣) ؛ فهي مع أمرِ الله تعالى له بالهُبوطِ مُطلقاً ، وطردِه ولعنتِه ودُحُورِه ، لا دليل عليها لا من اللَّفظ ، ولا من الخبَرِ الذي يجب المصير إليه ، وما هي إلّا احتمالات مُجرَّدةٌ ، وتقديراتٌ لا دليل عليها .

الثالــثُ : أنَّ سياقَ قصَّةِ إهبَاطِ الله تعالى لإبليسَ ظاهرةٌ في أنَّه إهبَاطٌ إلى الأرض من وجوهٍ :

أحــدُهَا : أنَّه سبحانه نبَّه على حِكمَةِ إهبَاطِه بما قام به من التَّكبُّر المقتضي غايةَ ذُلِّهِ وطردِه ومُعامَلتِه بنقيضِ قَصدِهِ ، وهو إهباطُه من فوق السموات إلى قرار الأرض ، ولا تقتضـي الحكمةُ أن يكون فوق السَّماء مع كِبْرِهِ ومُنافاةِ حاله لحالِ الملائكةِ الأكرمين .

الثاني : أنَّه قال : ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (٤) وكونُه رجيماً ملعوناً ينفى أن يكون في السَّماء بين المُقرَّبين المُطَهَّرين .

الثالث : أنَّه قال : ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ (٥) .

وملَكُوتُ السَّموات لا يعلوه المذؤُومُ المدحورُ أبداً .

---

(١) الحِجر : ٣٤ – ٣٥.

(٢) الأعراف : ١٨.

(٣) وقد تقدَّمت ص : ٨٢ ، وهي ردٌّ على حجة القائلين بأن جنة آدم ليست جنة الخلد ، المذكورة ص : ٧١ .

(٤) الحِجر : ٣٤ – ٣٥.

(٥) الأعراف : ١٨.

القول الثاني في المراد بتكرار الهبوط " إن الهُبوط الثَّاني من الجنَّة إلى السَّماءِ والأوَّل إلى الأرض " وقد سبق ص ١٠٢

وأمَّا القــولُ الثَّاني ؛ فهو القول الأوَّل بعينِه مع زيادةٍ ما لا يدُلَّ عليه السِّياقُ بحالٍ ، من تقديـم ما هو مُؤخَّـرٌ في الواقعِ ، وتأخيرِ ما هو مُقـدَّمٌ فيه ، فيُرَدُّ بما رُدَّ به القولُ الذي قبلَهُ .

القول الثالث في المراد بتكرار الهبوط " إنه جاء للتغليظ والتأكيد " وقد سبق ص ١٠٢

وأمَّا القــولُ الثَّالثُ ، وهو أنَّه للتَّأكيد ؛ فإنْ أُريدَ التَّأكيدُ اللفظيُّ المُجرَّدُ ، فهذا لا يقعُ في القرآن ، وإنْ أُريدَ به أنَّه مُستلزمٌ للتَّغليظِ والتَّأكيدِ مع ما يشتملُ عليه من الفائدةِ فصحيح .

فالصَّـــوابُ أن يُقــال : أُعيدَ الإهبَاطُ مرَّةً ثانيةً لأنَّه علَّق عليه حُكماً غيرَ المُعلَّقِ على الإهْبَاطِ الأوَّل ؛ فإنَّــه علَّـقَ على الأوَّلِ عــداوَةَ بعضِهــم بعضــاً ، فقال : ﴿ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ ﴾(١) ، وهذه جملةٌ حاليَّةٌ ، وهي اسميَّةٌ بالضَّمير وحدَهُ عند الأكثرين والمعنى : اهبِطُوا مُتعادين ، وعلَّق على الهُبُوطِ الثَّاني حُكمَين آخرَين :

أحدُهما : هبُوطُهما جميعاً .

والثَّانـي : قولُه : ﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ (٢) ، فكأنَّه قيل : اهبِطُوا بهذا الشَّرطِ مأخوذاً عليكم هذا العَهْدُ ، وهو أنَّه مهما جاءكم مني هُدَىً فمن اتَّبَعَهُ منكم فلا خَوفٌ عليه ولا حَزنٌ يلحَقُه .

ففي الإهبَاط الأوَّلِ إيذانٌ بالعقوبةِ ومُقابَلتِهم على الجريمة .

وفي الإهبَاط الثَّاني رُوحُ التَّسليةِ والاستِبشَار بحُسنِ عاقبةِ هذا الهُبُوطِ لمَن تبعَ هُـداي ومَصِيرُهُ إلى / الأمنِ والسُّرور المُضـادِّ للخوفِ والحُزْنِ ، فكسَرَهُم بالإهبَاط الأوَّل [١٥/أ] وجبَرَ مَن اتَّبَع هُدَاه بالإهبَاط الثَّاني على عادتِه سبحانه ولُطْفِهِ بعبادِه وأهلِ طاعتِه ، كما كسَرَ آدمَ بالإخرَاجِ من الجنَّةِ ، وجَبَرَهُ بالكلمَاتِ التي تلقَّاها منه ، فتابَ عليه وهَدَاه .

ومن تدبَّرَ حكمَتَه سبحانه ولُطفَه وبرَّه بعبادِه وأحبابِه ، في كسرِه لهم ثم جَبْرِه بعد الانكسار ، كما يكسِرُ العبدَ بالذَّنب ويُذِلَّه به ثمَّ يَجْبُرُه بتوبته عليه ومغفرتِه له ، وكما

(١) الأعراف : ٢٤.

(٢) البقرة : ٣٨.

**يَكسِره بأنواع المصائب والمِحَن ، ثمَّ يَجْبُرُه بالعافية والنعمة ، انفتَحَ له بابٌ عظيمٌ من أبوابِ معرفتِه ومحبتِه ، وعَلِمَ أنَّه أرحمُ بعبادِه من الوالدةِ بولدها (١) ، وأنَّ ذلك الكسر هو نفسُ رحمتِه به وبرِّه ولُطفِه (٢) ، وهو أعلمُ بمصلحةِ عبدِه منه ، ولكنَّ العبدَ لضعفِ بصيرتِه ومعرفتِه بأسماءِ ربِّه وصفاتِه لا يكادُ يشعرُ بذلك ، ولا يُنَالُ رضا المحبُوبِ وقربُه والابتهاجُ والفرحُ بالدنو منه والزلفى لديه إلا على جسر من الذِّلَّة والمسكنة ، وعلى هذا قام أمرُ المحبَّة ، فلا سبيل إلى الوصول إلى المحبُوبِ إلَّا بذلك ، كما قيل (٣) :**

**تَذَلَّلْ لمن تَهوى لِتَحْظى بِقُـرْبِـه فكَـمْ عِزَّةٍ قَـد نالَـها العبـدُ بالذُّلِّ**
**إذا كانَ مَن تَهوى عَزيزاً ولَم تَكُن ذلِيلاً لهُ فاقْرَ السَّلامَ على الوَصْلِ**

**وقال آخرُ (٤) :**

**اخْضَعْ وذِلَّ لِمَن تُحِبُّ فليسَ في شَـرْعِ الهَوى أَنِفٌ يُشَـالُ ويُعْقَدُ**

**وقال آخرُ (٥) :**

**وما فَرِحَتْ بالوصْلِ نَفْسٌ عَـزيـزَةٌ ومـا العِـزُّ إلَّا ذُلُّـهَا وانْكِسارُها**

---

(١) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قدم على النبي صلى الله عليه و سلم سَبيٌ ، فإذا إمرأةٌ من السَّبي قد تَحْلُبُ ثَديَها تَسْقِي إذ وجدتْ صبياً في السَّبي أخذَتهُ فألصقَته ببطنِها ، وأرضَعَته ، فقال لنا النبي صلى الله عليه و سلم : ( أترونَ هذه طارحةً ولدَها في النار ) ؟ قلنا : لا ، وهي تقدر على أن لا تطرحه ، فقال : ( للهُ أرحمُ بعبادِه من هذه بولدِها ) رواه البخاري (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٤).

(٢) وينظر كلام المؤلف رحمه الله حول هذا في : مدارج السالكين (٢٠٤/١ ، ٣٠٦) ، وإغاثة اللهفان (١٨٩/٢) والوابل الصيب (٧) ، وزاد المعاد : (٢٢١/٣ و ٤٧٧) ، والفوائد (١١٢) .

(٣) القائل هو : أبو علي ، الحسن بن محمد بن الصباح ، البغدادي الزعفراني ، شيخُ البخاري ، كما في معجم أصحاب الصدفي (٨٤) وفيه :

أَذَلُّ لمـن أهـوى لأكسِبَ عِـزَّةً وكـم عِـزَّةً نـالها المـرءُ بالـذُّلِّ
إذا كان من أهوى عزيزاً ولم تكن ذليلاً لَهُ فَأَقِرَّ السَّلامَ عَلَى الْوَصْلِ

ونسب أبو بكر الصولي البيتَ الأول إلى : عليَّة بنت المهدي . أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم (٧٥) .
وينظر ديوانها (٦١) .

(٤) هو : أبو تراب هبة الله بن السُّريجي ، كما في : بدائع البدائه ، للأزدي (٩) ، وفيه "حُكْمِ" مكان "شَرعِ " .

(٥) لم أقف عليه ، وقد يكون للمؤلف رحمه الله .

قالــوا : وإذا عُلِمَ أنَّ إبليسَ أُهْبِطَ من دار العِزِّ عَقِبَ امتناعِه وإبائِه من السُّجود لآدم ثبتَ أنَّ وسوَسَتَه له ولزوجِه كانت في غيرِ المحلِّ الذي أُهبِطَ منه ، والله أعلم .

قالــوا : وأمَّا قولكــم : " إنَّ الجنَّةَ إنَّما جاءَت مُعرَّفةً باللَّام ، وهي تنصَرفُ إلى الجنَّةِ التي لا يَعْهَدُ بنو آدمَ سِواها " ، فلا ريبَ أنَّها جاءت كذلك ، ولكنَّ العهدَ وقعَ في خطاب الله تعالى آدمَ لسُكناها بقوله : ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [1] ، فهي كانت معهودةً عند آدمَ ، ثم أخبرَنَا سبحانه عنها مُعرِّفاً لها بلامِ التَّعريف ، فانصَرَفَ المُعـرَّفُ بها إلى تلك الجنَّةِ المَعهودَةِ في الذِّهن ، وهي التي سكَنَها آدمُ ثمَّ أُخرج فمِن أين في هذا ما يَدُلُّ على مَحَلِّها وموضِعِها بنفي أو إثباتٍ ؟!

الرد على استدلالهم بأن الجنة جاءت معرفة وهي تنصرف إلى الجنة المعهودة ص ٨٣

وأمَّا مجيءُ جنَّةِ الخلد مُعرَّفةً باللام ؛ فلأنَّها الجنَّةُ التي أخبَرت بها الرُّسل لأُمَمِهم ووَعَدَها الرحمنُ عبادَه بالغيبِ ، فحيث ذُكِرتْ إنصُرِفَ إليها دون غيرها ؛ لأنَّها قد صارت معلومةً في القلوب مُستَقِرَّةً فيها ، فلا ينصرفُ الذِّهنُ إلى غيرها ، ولا يتوجَّهُ الخِطَاب إلى سِوَاها .

وقد جـاءت الجنَّةُ في القُـرآن مُعـرَّفةً باللَّام ، والمـرادُ بها بُستانٌ في بُقعـةٍ من الأرض كقوله تعالى : ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [2] ، فهذا لا ينصرفُ الذِّهنُ فيها إلى جنَّةِ الخلد ولا إلى جنَّةِ آدمَ بحالٍ .

قالــوا : وأمَّا قولكــم : إنَّـه قــد اتفــقَ أهلُ السُّنَّةِ والجماعة على أنَّ الجنَّة والنَّار مخلوقتان ، وإنَّه لم يُنَازِعْ في ذلك إلا بعضُ أهلِ البِدَع والضَّلالِ ، واستدلالُكم على وجـودِ الجنَّة الآن فحـقٌ ، لانُنَازِعُكم فيه ، وعندنا من الأدلـةِ على وُجُـودِهَا أضعافُ ما ذكرتُم ، ولكــنْ أيُّ تــلازُمٍ بين أن تكون الجنَّة الخُلد [3] مخلوقةً ، وبين أن تكون هي جنَّةَ آدمَ بعينها ؟

الرد على استدلالهم بأن الجنة مخلوقة وعليه فإن جنة آدم هي جنة الخلد ص ٨٤

فكأنَّكم تزعمون أنَّ كلَّ من قال : إنَّ جنَّةَ آدمَ هي جنَّةٌ في الأرض ، فلا بُدَّ له أن يقول :

---

(١) البقرة : ٣٥.

(٢) القلم : ١٧.

(٣) في : ص : جنَّة الخلد .

إنَّ الجنَّة والنَّار لم يُخلقا بعد !

وهذا غلطٌ منكم منشَؤُهُ مِن توهُّمِكم أنَّ كلَّ من قال : بأنَّ الجنَّة لم تُخلق بعد ؛ فإنَّه يقول : إنَّ جنَّة آدمَ هي في الأرض ، كذلك بالعكس ؛ أنَّ كلَّ من قال : إنَّ جنَّة آدم في الأرضِ ، فيقول : إنَّ الجنَّةَ لم تُخلق .

فأما الأوَّل : فلا ريبَ فيه ، وأما الثَّاني : فوهمٌ لا تلازُمَ بينهما ، لا في المذهب ولا في الدَّليل بحالٍ ؛ فأنتم نصَبْتُم دليلَكم مع طائفةٍ نحن وأنتم مُتَّفِقون على إنكارِ قولِهم وردِّهِ وإبطالِه ، ولكنْ لا يلزمُ من هذا بُطلانُ هذا القولِ الثَّالثِ ، وهذا واضح .

الرد على استدلالهم بأن صفات الجنة لا تتم إلا إذا دخلها المسلمون في القيامة ص ٨٩

قالوا : وأمَّا قولُكم : إنَّ جميع ما نفاه الله سبحانه عن الجنَّةِ من اللَّغوِ ، والكذِبِ [١] وسائر الآفاتِ التي وُجِدَ بعضُها من إبليسَ عدُوِّ الله ، فهذا إنَّما يكون بعد القيامةِ إذا دخَلَهَا المؤمنون ، كما يدُلُّ عليه السِّياقُ .

فجوابهُ من وجهين :

أحدُهما : أنَّ ظاهرَ الخبرِ يقتضي نفيَهُ مُطلقاً ، لقوله تعالى : ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ [٢] ، ولقوله تعالى : ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ [٣] ، فهذا نفيٌ عامٌّ لا يجوز تخصيصُه إلا بمُخَصِّصٍ بيِّنٍ ، والله سبحانه قد حكَمَ بأنَّها دارُ الخلد حُكماً مُطلقاً ، فلا يدخُلُها إلا خالدٌ فيها ، فتخصيصُكم هذه التَّسميةَ بما بعد القيامةِ خلافُ الظَّاهر .

الثَّاني : أنَّ ما ذكرتُم إنَّما يُصارُ إليه إذا قامَ الدَّليلُ السَّالمُ عن المُعارضِ المُقاومِ أنَّها جنَّةُ الخلد بعينِها ، وحينئذٍ يتعيَّن المصيرُ إلى ما ذكرتم .

فأمَّا إذا لم يقُم دليلٌ سالمٌ على ذلك ، ولم تُجْمِع الأُمَّةُ عليه فلا يَسوغُ مُخالفةُ ما دلَّتْ عليه النُّصوص البيِّنَةُ بغير مُوجِبٍ ، والله أعلم .

احتجاج من قال : جنة آدم ليست جنة الخلد بأن الله لم يخلقه للبقاء

قالوا : وممَّا يدُلُّ على أنَّها ليست جنةَ الخلدِ التي وُعِدَها المتَّقون أنَّ الله سبحانه لمَّا خلق آدمَ أَعلَمَه أنَّ لعُمُرِهِ أجلاً ينتهي إليه ، وأنَّه لم يَخلُقْهُ للبَقاءِ ، ويدُلُّ على هذا

(١) في : ص : والكِذَّاب .

(٢) الطور : ٢٣ .

(٣) الغاشية : ١١.

ما رواه التِّرمذيُّ في " جامعه " (١) ، قال : حدَّثنا محمَّد بن بشَّار (٢) ، قال : حدَّثنا صفوانُ بن عيسى (٣) : حدَّثنا الحارثُ بن عبد الرحمن بن أبي ذُبَاب (٤) ، عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُري (٥) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه (٦) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( لمَّا خلَقَ الله آدمَ ونفَخَ فيه الرُّوح عَطَسَ ، فقال : الحمدُ لله يا ربُّ ، فقال له ربُّهُ : يرحمُك الله يا آدمُ اذهب إلى أولئك الملائكة ، إلى مَلإٍ منهم جلوسٌ ، فقل : السَّلامُ عليكم ، قالوا : وعليك السَّلامُ ، ثمَّ رجَعَ إلى ربِّهِ فقال : إنَّ هذه تحيَّتُك وتحيَّةُ بنِيكَ بينهم ، فقال الله له . ويداه مقبوضتان . : اختر أيَّتَهما شئتَ ! فقال : اخترتُ يمين ربِّي . كلتا يدي ربِّي يمين مباركة . ، ثمَّ بسَطَها فإذا فيها آدمُ وذُرِّيَّتُه ، قال : أيْ ربِّ ما هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذُرِّيَّتُك ، فإذا كلُّ إنسان عُمُرُه بين عينَيهِ ، فإذا رجل أضوَؤُهُم . أو مِن أضوئِهِم . قال يا ربِّ مَن هذا ؟ قال : هذا ابنُك داودُ ، وقد كتبتُ له عُمُر أربعين سنة ، قال : يا ربِّ زِدْ في عُمُرِهِ ، قال : ذاك الذي كتبتُ له ، قال : أي ربِّ فإنِّي قد جعلتُ له من عُمُري ستِّين سنةً ، قال : أنتَ وذاك .

قال : ثمَّ أُسكِنَ الجنَّةَ ما شاءَ اللهُ ، ثمَّ أُهبِطَ منها ، وكان آدمُ يَعُدُّ لنفسه ، فأتاه ملَكُ الموت ، فقال له آدمُ : قد عجَّلتَ ، أليس قد كُتِبَتْ لي ألفُ سنَةٍ ؟ قال : بلى ، ولكنَّك

---

(١) برقم (٣٣٦٨) ، ورواه من طريق زيد بن أسلم ، عن أبي هريرة (٣٠٧٦) مع اختلاف يسير ، ورواه أيضا برقم (٣٠٧٦) ، ورواه الحاكم في المستدرك (٦٤/١) وقال : "هذَا حدِيثٌ صَحِيحٌ على شرْطِ مسلم" ، وصححه الألباني في : مشكاة المصابيح (٤٢/١) .

(٢) بُنْدَار ، الحافظ الكبير ، الإمام ، أبو بكر محمد بن بشار بن عثمان العبدي البصري ، كان عالما بحديث البصرة متقنا مجودا ، توفي عام : ٢٥٢ هـ . تذكرة الحفاظ للذهبي (٧٣/٢) ، ولسان الميزان (٤٠٢/٩) .

(٣) أبو محمد ، صفوان بن عيسى الزهري القرشي البصري القسَّام ، توفي عام : ٢٠٠ هـ . الثقات لابن حبان (٣٢١/٨) وتهذيب التهذيب لابن حجر (٤٢٩/٤) .

(٤) ابن أبي ذُباب : الحارث بن عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد بن أبي ذباب الدوسي ، صدوقٌ من أهل المدينة ، توفي عام : ١٤٦ هـ .الثقات لابن حبان (١٦/٥) ، وتهذيب التهذيب لابن حجر (١٤٨/٢)

(٥) أبو سعد المدني المَقْبُري : سعيد بن أبي سعيد ، واسم أبيه : كيسان ، والمقبري نسبة إلى مقبرة بالمدينة كان مجاوراً لها من كبار التابعين ، روى عن جمع من الصحابة ، توفي عام : ١٢٥ هـ ، وقيل غير ذلك .
الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٥٧/٤) وتهذيب التهذيب لابن حجر (٣٨/٤)

(٦) سبقت ترجمته ص : ٦٤ .

جَعَلتَ لابنِكَ داودَ ستّين سنةً ، فجَحَدَ فجحدَت ذُرِّيَّته ، ونسِيَ فنسيَتْ ذُرِّيَّته ، قال : فمِن يومئذٍ أُمِرَ بالكتابِ والشُّهود ).

هذا حديثٌ حسَنٌ غريبٌ من هذا الوجه ، ورُوِيَ من غير وجهٍ عن أبي / هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم [١] . [١٦/أ]

قالوا : فهذا صريحٌ في أنَّ آدمَ لم يكن مخلوقاً في دار الخلد التي لا يموتُ من دَخَلَهَا وإنَّما خُلقَ في دارِ الفناءِ التي جعَلَ الله لها ولأهلها أجلاً معلوماً ، وفيها أُسْكِن .

فإن قيل : فإذا كان قد عَلِمَ أنَّ له عُمُراً ينتهي إليه ، وأنَّه ليس من الخالدين ، فكيف لم يُكذِّبْ إبليسَ ويعلَم بُطلانَ قولِه حيثُ قال له : ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [٢] ، بل جوَّزَ ذلك وأكلَ من الشجرةِ طمَعَاً في الخلد ؟!

فالجواب ما تقدَّم من الوجهين [٣] :

إمَّا أن يكون المُرادُ بالخُلد المُكثَ الطَّويلَ إلى أبدِ الآبدِ ، أو يكونَ عدوَّه إبليسَ لمَّا قاسَمَهُ وزوجَهُ وغرَّهما وأطمَعَهُمَا بدوامِهما في الجنَّة نسَي ما قُدِّرَ له من عُمُرِه .

احتجاج من قال : جنة آدم ليست جنة الخلد بقوله تعالى ( إني جاعل في الأرض خليفة )

قالوا : والمُعوَّلُ عليه [٤] في ذلك قولُه تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [٥] وهذا الخليفةُ هو آدمُ باتِّفاقِ النَّاس ، ولمَّا عجِبَت الملائكةُ من ذلك وقالوا : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ ، عرَّفهم سبحانه أنَّ هذا الخليفةَ الذي هو جاعِلُه في الأرض ليسَ حالُه كما توهَّمتُم من الفسادِ ، بل أُعلِّمُهُ من علْمِي مالا تعلمُونَه ، فأظهَرَ مِن فضلِه وشرَفِه بأنْ علَّمَه الأسماءَ كلَّها ، ثم عَرَضَهُم على الملائكة فلم يعرِفُوها ، وقالوا : ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ

(١) رواه الترمذي (٣٠٧٦) عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه وقال الترمذي : " هذا حديث حسن صحيح " .

(٢) طه : ١٢٠ .

(٣) تقدَّم ذلك في ص : ١٠١ .

(٤) في : ص : والمفعولُ عليه .

(٥) البقرة : ٣٠ .

ﱡﭐ ٱلۡحَكِيمُ ﱠ(١) . وهذا يدُلُّ على أنَّ هذا الخليفةَ الذي سبَقَ به إخبَارُ الرَّبِّ تعالى لملائكتِهِ وأظهَرَ تعالى فضلَهُ وشرَفَهُ وعِلْمَه بما لم تعلَمْه الملائكةُ ، وهو خليفةٌ مَجعُولٌ في الأرض لا فوق السَّماوات .

فإن قيل : قولُه تعالى : ﱡﭐ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ ﱠ(٢) ، إنَّما هو بمعنى : سأجعلُه في الأرض ، فهي مآلُهُ ومصيرُهُ ، وهذا لا يُنافي أنْ يكون في جنَّةِ الخُلدِ فوق السَّماوات أوَّلاً ، ثمَّ يصير إلى الأرضِ للخِلافَةِ التي جعلَهَا اللهُ له ، واسمُ الفاعلِ هنا بمعنى الاستقبالِ ، ولهذا انتصَبَ عنه المفعولُ .

فالجــــوابُ : أنَّ الله سبحانه أعلم ملائكتَه بأنَّه يخلقُهُ لخلافةِ الأرض ، لا لسُكنى جنَّةِ الخُلودِ ، وخَبَرُهُ الصِّدقُ ، وقولُه الحقُّ ، وقد علِمَتِ الملائكةُ أنَّه هو آدمُ ، فلو كان قد أسكنَهُ دارَ الخُلودِ فوقَ السَّماءِ لم يظهَر للملائكة وقوعُ المُخْبَرِ ، ولم يحتاجوا إلى أن يُبَيِّنَ لهم فَضلَهُ وشرَفَهُ ، وعِلْمَهُ المُتَضمِّنَ ردَّ قولِهم : ﱡﭐ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﱠ(٣) ، فإنَّهم إنَّما سألوا هذا السُّؤالَ في حقِّ الخليفةِ المَجعولِ في الأرضِ ؛ فأمَّا مَن هو في دارِ الخُلدِ فوقَ السَّماء فلم تَتوهَّم الملائكةُ منه سفكَ الدِّماء والفسَادَ في الأرض ، ولا كان إظهارُ فضلِه وشرفِه وعلمِه وهو فوق السَّماء برادٍّ لقولِهم وجواباً لسُؤالِهم ، بل الذي يَحصُلُ به جوابُهُم وضدُّ ما توهَّموه إظهارُ تلك الفضائلِ والعلومِ منه ، وهو في محلِّ خلافتِه التي خُلِقَ لها ، وتوهَّمت الملائكةُ أنَّه لا يحصلُ منه هناك إلا ضدُّها مِن الفسادِ وسفْكِ الدِّماء ، وهذا واضحٌ لمن تأمَّلَهُ .

وأمَّا اسمُ الفاعلِ وهو ﱡﭐ جَاعِلٞ ﱠ ، وإن كان بمعنى الاستقبالِ ، فلأنَّ هذا إخبارٌ عمَّا سيفعلُه الربُّ تعالى في المُستقبل مِن جَعلهِ الخليفةَ في الأرضِ ، وقد صدَقَ وعدَه ووَقعَ ما أخبرَ به ، وهذا ظاهرٌ في أنَّه مِن أوَّل الأمر جعلَه خليفةً في الأرض .

---

(١) البقرة : ٣٢ .

(٢) البقرة : ٣٠ .

(٣) البقرة : ٣٠ .

وأمَّا جعلُه في السَّماء أوَّلاً ثمَّ جعلُهُ خليفةً في الأرض ثانياً ، وإن كان مِمَّا لا يُنافي الاستخلافَ المذكور ، فهو مِمَّا لا يقتَضيه اللفظُ بوجهٍ ، بل يقتضى ظاهرُهُ خلافَهُ ، فلا يُصارُ إليه إلا بدليلٍ يُوجِبُ المصيرَ إليه ، وحوله قالوا .

احتجاج من قال : جنة آدم ليست جنة الخلد بأن الله خلق آدم من تراب وهو تراب الأرض

وأيضاً ؛ فمِن المعلومِ الذي لا يُخالِفُ فيه مسلمٌ أنَّ الله سبحانه خلقَ آدمَ من تُرابٍ ، وهو ترابُ هذه الأرضِ بلا ريبٍ ، كما روى التِّرمذيُّ في " جامعه " [١] من حديث عَوفٍ [٢] ، عن قَسامَةَ بن زُهَيرٍ [٣] ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه [٤] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( إنَّ الله تباركَ وتعالى خلقَ آدمَ من قَبْضَةٍ قَبَضَهَا من جَميعِ الأرضِ ، فجاء بنو آدمَ على قدْرِ الأرض ، فجاء منهم الأحمرُ والأبيضُ والأسودُ ، وبينَ ذلكَ ، والسَّهلُ والحَزْنُ ، والخبيثُ والطَّيبُ ) .

قال الترمذي : " هذا حديث حسن صحيح " .

وقد رواه الإمامُ أحمد [٥] في " مسنده " من طرق عِدَّةٍ .

وقد أخبرَ سبحانه أنَّه خلَقَهُ من تُرابٍ ، وأخبرَ أنَّه خَلَقَهُ من سُلالَةٍ مِن طينٍ ، وأخبرَ أنَّه خلَقَهُ من صَلْصَالٍ من حَمَأٍ مَسْنُونٍ .

---

(١) برقم (٢٩٥٥) ، وراه أبو داود (٤٦٩٣) ، وأحمد (٤٠٠/٤ ، ٤٠٦) ، والحاكم (٢٦١/٢) وصححه ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، رقم الحديث (١٦٣٠) .

(٢) أبو سهل : عوف بن أبي جَمِيلة العبدي البصري ، المعروف بالأعرابي ، ولم يكن أعرابيا بل اشتهر به ، كان من علماء البصرة ، ثقة ، وقد رمي بالقدر والتشيّع ، توفي عام : ١٤٧ هـ .
سير أعلاء النبلاء للذهبي (٣٨٣/٦) ، والكاشف للذهبي (١٠١/٢) ، وتهذيب التهذيب (١٦٦/٨)

(٣) قَسامة بن زهير المازني التميمي ، بصري تابعي ثقة ، توفي بعد الثمانين .
الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١٤٧/٧) ، وتهذيب التهذيب لابن حجر (٣٧٨/٨)

(٤) عبدالله بن قيس بن سليم التميمي الأشعري ، أسلم بمكة ، وهاجر إلى الحبشة ، وولي الكوفة والبصرة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وفُتحت تستر على يديه ، توفي عام : ٤٢ هـ . الاستيعاب لابن عبد البر (١٧٦٢/٤) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٣٦٤/٣) ، والإصابة لابن حجر (١٨١/٤) .

(٥) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ، الإمام ، الحافظ ، العابد ، ناصر السنة ، وقامع البدعة ، أحدُ الأئمة الأربعة الأعلام ، امتُحن وأوذي في مسألة خلق القرآن ، توفي عام : ٢٤١ هـ .
الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٤٥/٧) ، وطبقات الحنابلة للقاضي ابن أبي يعلى (٣/١) .

والصَّلصَالُ ، قيل فيه : هو الطِّينُ اليابِسُ الذي له صَلْصَلةٌ ما لم يُطْبَخ ، فإذا طُبِخَ فهو فَخَّار (١) .

وقيل فيه : هو المُتَغيِّرُ الرَّائِحَة ، من قولِهم : صَلَّ ، إذا أَنْتَنَ (٢) .

والحمأة (٣) : الطين الأسود المُتَغيِّر (٤) .

والمَسنُونُ ، قيل : المَصبُوبُ ، من سَنَنْتُ الماء إذا صببته (٥) .

وقيل المُسَنُّ من قولهم : سَنَنتُ الحَجَرَ على الحجرِ إذا حككته ، فإذا سالَ بينهما شيءٌ ، فهو سَنِينٌ ، ولا يكون إلا مُنْتِناً (٦) .

وهذه كلُّها أطوارٌ للتُّرابِ الذي هو مَبدؤُهُ الأوَّلُ .

كما أخبَرَ عن خَلقِ الذُّريَّةِ من نُطفَةٍ ، ومن عَلَقَةٍ ، ومن مُضْغَةٍ .

وهذه أحوالُ النُّطفة التي هي مبدأُ الذُّريَّةِ ، ولم يُخبِرْ سبحانَهُ أنَّه رفعَهُ من الأرض إلى فوق السَّموات ، لا قبلَ التَّخلِيقِ ولا بَعدَهُ ، وإنَّما أخبَرَ عن إسجَادِ الملائكةِ لهُ ، وعن إدخالِهِ الجنَّةَ ، وما جَرى له مع إبليسَ بعد خلقِهِ ، فأخبرَ سبحانه بالأمورِ الثَّلاثةِ في نسَقٍ واحدٍ ، مُرتَبِطاً بعضُها ببعضٍ .

احتجاج من قال : جنة آدم ليست جنة الخلد بأنه لا دليل على إصعاد مادة آدم التي خلق منها ولا إصعاده ، والسماوات ليست محلاً للتراب

قالوا : فأينَ الدَّليلُ الدَّالُ على إصعَادِ مادَّته ، وإصعَادِه بعدَ خلقِهِ إلى فوق السَّموات ؟ هذا ممَّا لا دليلَ لكُم عليه أصلاً ، وهو لازمٌ مِن لوازِمِ ما أخبر الله به .

---

(١) العين للخليل بن أحمد (٨٤/٧) ، وغريب القرآن لابن قتيبة (٢٣٧) ، ولسان العرب لابن منظور (٣٨٢/١١) والقاموس المحيط للفيروز آبادي (٥٥٦/٣) .

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة (٤٣٧) ، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (٤٨٩) ، والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٤٨/٣) ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (٥٥٦/٣) .

(٣) في النسخ الأخرى : الحمَأُ .

(٤) ينظر : المخصص لابن سيده (٤٠/٣) ، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (٢٥٩) ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (١٣/١) ، والتوقيف على مهمات التعريف للمناوي (١٤٧) .

(٥) ينظر : مقاييس اللغة لابن فارس (٦٠/٣) ، والمحيط في اللغة للصاحب بن عباد (٢٤٨/٨)

(٦) ينظر : معاني القرآن للفراء (٨٨/٢) ، ولسان العرب لابن منظور (٢٢٠/١٣) .

قالوا : ومن المعلوم أنَّ ما فوقَ السَّمواتِ ليسَ بمكانٍ للطِّينِ الأرضي المُتغيِّرِ الرَّائِحة الذي قد أنتَنَ من تغيُّره ، وإنَّما مَحَلُّ هذا الأرض التي هي مَحَلُّ المُتغيِّراتِ والفاسِدات وأمَّا ما كان فوق الأفلاكِ فلا يلحقُهُ تغيُّرٌ ولا نتَنٌ ولا فسادٌ ولا استحالةٌ .

قالوا : وهذا أمرٌ لا يرتَابُ فيه العُقَلاءُ .

احتجاج من قال : جنة آدم ليست جنة الخلد بقوله تعالى ( عطاءً غير مجذوذ ) على دوام العطاء في الجنة

قالوا : وقد قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾(١) ، فأخبر سبحانه أنَّ هذا العطاءَ في جنَّة الخلد غيرُ مقطوعٍ ، وما أُعطِيَهُ آدمُ فقد انقطعَ ، فلم تكن تلك جنَّةَ الخُلد .

احتجاج من قال : جنة آدم ليست جنة الخلد بأن الله لو رفع آدم إلى السماء لذكر ذلك ؛ لأنه من أعظم النعم

قالوا : وأيضاً ؛ فلا نِزاعَ في أنَّ اللهَ تعالى خلَقَ آدمَ في الأرضِ كما تقدَّمَ ، ولم يذْكُرْ في قصَّتِه أنَّه نقله إلى السَّماء ، ولو كان تعالى قد نقَلَه إلى السَّماءِ لكان هذا أولى بالذِّكرِ لأنَّه من أعظمِ أنواعِ النِّعَم عليه ، وأكبرِ أسبَابِ تفضِيلِهِ وتشريفِهِ ، وأبلغُ في بيانِ آياتِ قُدرتِهِ وربُوبيَّته وحكمتِهِ ، وأبلغُ في بيان المقصودِ من عاقبةِ المعصيةِ ، وهو الإهبَاطُ من السَّماء التي نُقِلَ إليها ، كما ذكرَ ذلك في حقِّ إبليسَ .

فحيثُ لم يجيء في القرآنِ ولا في السُّنةِ حرفٌ واحدٌ أنَّه نقله إلى السَّماء ورَفَعَهُ اليها بعدَ خلْقِهِ في الأرضِ ، عُلِمَ أنَّ الجنَّة التي أُدخِلَهَا لم تكنْ هي جنَّةَ الخُلد التي فوق السَّموات .

[١٧/أ]

احتجاج من قال : جنة آدم ليست جنة الخلد بأنه لو كانت جنة آدم هي جنة الخلد لكانوا خلقوا في دار لا يؤمرون فيها

قالوا : وأيضاً ؛ فإنَّه سبحانه قد أخبَرَ في كتابه أنَّه لم / يخلُق عبادَه عبَثاً ولا سُدىً ، وأنكر على من زعمَ ذلك ؛ فدلَّ على أنَّ هذا مُنافٍ للحكمةِ ولو كانت جنَّة آدمَ هي جنَّة الخُلد لكانوا قد خُلِقُوا في دارٍ لا يُؤمرون فيها ، ولا يُنهَون وهذا باطلٌ بقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾(٢) ، قال الشَّافعيُّ (٣) وغيرُهُ :

---

(١) هود : ١٠٨.

(٢) القيامة : ٣٦ .

(٣) أبو عبد الله : محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع القرشي، أحد الأئمة الأربعة ، والإمام الشافعي أول من ألّف في علم أصول الفقه ، ويتضح ذلك في كتابه المسمى الرسالة ، توفي عام : ٢٠٤ هـ . وفيات الأعيان=

مُعطَّلاً لا يُؤمَرُ ولا يُنهى [١] وقال : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾[٢] ، فهو تعالى لم يخلقهم عبثاً ، ولا تركَهم سُدىً ، وجنَّةُ الخلدِ لا تكليفَ فيها .

احتجاج من قال : جنة آدم ليست جنة الخلد بأن حكمة الله تقتضي أن الجنة لا تنال إلا بعد الابتلاء والصبر

قالـوا : وأيضاً ؛ فإنَّه خلقَها جزاءً للعاملين ، بقوله تعالى : ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [٣] وجزاءً للمتقين ، بقوله : ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾[٤] ، ودارَ الثَّوابِ ، بقوله : ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾[٥] ، فلم يكُن لِيُسْكِنَها إلَّا مَن خَلَقَها لهم من العاملين ، ومن المُتَّقين ، ومن تبِعَهم من ذُرِّياتهم ، وغيرِهم من الحُور والوِلْدَان .

وبالجُملَةِ ؛ فحكمَتُهُ تعالى اقتضَتْ أنَّها لا تُنَالُ إلَّا بعدَ الابتلاءِ ، والامتحانِ ، والصَّبرِ والجهادِ ، وأنواعِ الطَّاعات ، وإذا كان هذا مُقتضَى حكمَتِهِ فإنَّه سبحانه لا يفعلُ إلَّا ما هو مُطابِقٌ لها .

احتجاج من قال : جنة آدم ليست جنة الخلد بأنه إذا جمعت الأدلة بعضها إلى بعض تبيّن أنها ليست جنة الخلد

قالـوا : فإذا جُمِـعَ ما أخبرَ الله عزَّ وجلَّ به من أنَّه خلقَهُ من الأرض [٦] ، وجعَلَهُ خليفةً في الأرض ، وأنَّ إبليسَ وسوَسَ له في مكانه الذي أسكنَهُ فيه بعد أن أَهْبَطَ إبليسَ من السَّماء ، وأنَّه أخبرَ ملائكتَه أنَّه جاعلٌ في الأرض خليفةً ، وأنَّ دارَ الخُلدِ لا لغوٌ فيها ولا تأثيمٌ ، وأنَّ من دخلها لا يخرجُ منها ، وأنَّ من دخلها يُنَعَّمُ ، ولا يبأسُ ، وأنَّه لا يخافُ ولا يحزَنُ ، وأنَّ الله سبحانه حرَّمَها على الكافرين ، وعدوُّ الله إبليسُ أكفرُ الكافرين فمُحَالٌ أن يَدخُلَهَا أصلاً ، لا دُخولَ عُبُورٍ ، ولا دُخُولَ قرارٍ ، وأنَّها دارُ نعيمٍ لا دارُ ابتلاءٍ وامتحانٍ ، إلى غير ذلك ممَّا ذكرنَاهُ من مُنافاةِ أوصافِ جنَّة الخُلد للجنَّة التي أُسكِنَها آدمُ .

---

لابن خلكان (٣١٢/٢) ، وسير أعلام النبلاء (٥/١٠) ، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٧١/٢) .

(١) الأم للشافعي (٣١٣/٧) ، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه ، ومجاهد ، والسدي ، وغيرهم . تفسير ابن جرير الطبري (٥٢٦/٢٣) ، والسنن الكبرى للبيهقي (١١٣/١٠) ، وتفسير ابن كثير (٢٨٣/٨) .

(٢) المؤمنون : ١١٥ .

(٣) العنكبوت : ٥٨ .

(٤) النحل : ٣٠ .

(٥) آل عمران : ١٩٥ .

(٦) في : ص : من أرضٍ .

**إذا جُمِعَ ذلك بعضُه إلى بعضٍ ، ونُظِرَ فيه بعينِ الإنصافِ والتَّجرُّدِ عن نُصرةِ المقالاتِ تبيَّن الصَّوابُ من ذلك ، والله المستعان .**

كلام شيخ الإسلام بأن الجنة التي أسكنها آدم هي جنة الخلد عند سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والجماعة ومن قال غير ذلك فهو من المتفلسفة والملحدين والمعتزلة

**قال الآخرون (١) : " بل الجنَّةُ التي أُسكِنَها آدمُ عند سَلفِ الأُمَّة وأئمَّتِهَا وأهلِ السُّنَّةِ والجماعة هي جنَّةُ الخُلدِ ، ومن قال : إنَّها كانت جنَّةً في الأرضِ بأرضِ الهندِ (٢) أو بأرض جُدَّةَ (٣) ، أو غيرِ ذلك ، فهو من المُتفلسِفَةِ (٤) والمُلحدِين (٥) ، والمُعتزِلة (٦) ، أو من إخوانِهم المُتكلِّمين (٧) المُبتَدِعين ؛ فإنَّ هذا**

---

(١) وهم القائلون بأن جنة آدم هي جنة الخلد .

وهذا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة بطوله ، كما في مجموع الفتاوى ( ٣٤٧/٤ – ٣٤٩ ) .

وقال في النبوات (٨٤٦/٢) : " ولهذا كان أصح القولين : أنَّ جنة التكليف لم تكن في السماء ..." .

فالناظر في قوله في الفتاوى يدرك أنه رحمه الله كان يرى أن قول أهلِ السنةِ واحدٌ ، وهو : أن الجنة التي أُهبط منها آدم هي جنة الخلد ؛ لكنه في النبوات يُرجح الرأي الآخر : أنها في الأرض ! وهذا يدل على قوة القولين ، وتوافر أدلتهما مع قوتهما ، لذا كان موقف المؤلف ابن القيم رحمه الله : الوقوف وعدم الترجيح بين القولين كما سيأتي ذكره قريبا .

(٢) سبق التعريف بالهند في ص : ٧٤ .

(٣) جُدَّة : مدينة في الحجاز ، قريبة من مكة المكرمة ، تقع على البحر الأحمر ، وهي ميناءٌ كبير للمملكة العربية السعودية ، يدخلُ من طريقها مُعظمُ الوارداتِ ، والحجاجُ الذين يأتون عبرَ البحرِ .

أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه للفاكهي (٥٢/٣) ، والمسالك والممالك للإصطخري (١٩) ، والموسوعة العربية الميسرة بإشراف : محمد شفيق غربال (٦١٥/١)

(٤) " الفلسفة " مُشتقَّة من اليُونانيةُ ، ومعناها : محبةُ الحكمةِ ، وأصلها مُركّب من كلمتين : " فيلا " وهي: المُحب ومن "سوفا " وهي : الحكمة ، وعليه فالفيلسوف هو : مُحب الحكمة .

والفلاسفةُ يقولون بقدمِ العالم ، وينكرون حشرَ الأجسادِ ، وينكرون النُّبوةَ ، وغالبهم ينكرُ علمَ الربِّ سبحانه وتعالى الفصل لابن حزم (٧٩/١) ، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي (٩١) ، والملل والنحل للشهرستاني (١١٦/٢) .

(٥) الملاحدة : جمع ملحد ، والإلحاد في اللغة : الميل عن القصد ، ومنه سمي اللحد بذلك ، والمراد به في الشرع : الميل بنصوص الكتاب والسنة عن ما هي عليه ، والملاحدة : من أنكر وجود الخالق سبحانه وتعالى .

ينظر : تحرير ألفاظ التنبيه ، للنووي (٩٨) ، ولسان العرب لابن منظور ( ٣٨٨/٣) ، والصواعق المرسلة للمؤلف (٢١٧/١).

(٦) سبق التعريف بهم في ص : ٨٩ .

(٧) سبق التعريف بهم في ص : ٩٥ .

يقولُه من يقولُه من المُتفلسِفَةِ ، والمُعتزلة ، والكتَابُ يَرُدُّ هذا القولَ ، وسلفُ الأُمَّةِ وأئمَّتُها مُتَّفِقُونَ على بُطلانِ هذا القولِ .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (١) ؛ فقد أخبرَ سبحانه أنَّه أمَرهُم بالهُبُوطِ وأنَّ بعضَهُم لبعضٍ عدوٌ .

ثمَّ قال : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٢) ، فهذا (٣) يُبَيِّنُ أنَّهم لم يكونوا في الأرضِ ، وإنَّما أُهبِطُوا إلى الأرضِ ، فإنَّهم لو كانوا في الأرضِ وانتقلوا منها إلى أرضٍ أخرى ، كما انتقل قومُ موسى من أرضٍ إلى أرضٍ ، كان مُستَقرُّهم ومتاعُهم إلى حينٍ في الأرض قبلَ الهُبوط ، كما هو بعدَهُ ، وهذا باطل " .

قالوا (٤) : " وقد قال تعالى في سورة الأعراف لمَّا قال إبليسُ : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ (٥) : ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴾ (٦) ، يُبيِّنُ اختصاصَ الجنَّةِ التي في السَّماء بهذا الحُكم ، بخلاف جنَّةِ الأرضِ ، فإن إبليسَ غيرُ ممنوعٍ من التَّكبُّرِ فيها .

---

(١) البقرة : ٣٤ – ٣٦.

(٢) البقرة : ٣٦.

(٣) في : ص : هذا .

(٤) ما زال الكلام لشيخ الإسلام رحمه الله في الفتاوى .

(٥) الأعراف : ١٢.

(٦) الأعراف : ١٣.

والضمير في قوله : ﴿مِنۡهَا﴾ عائدٌ إلى معلومٍ ، وإن كان غيرَ مذكورٍ في اللفظِ ؛ لأنَّ العلمَ به أغنى عن ذِكرِهِ ".

قالوا [١] : "وهذا بخلاف قولِهِ : ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾ [٢] ؛ فإنَّه لم يذكر هنا ما أُهبِطُوا منه ، وإنَّما ذكَرَ ما أُهبِطُوا إليه ، بخلاف إهبَاطِ إبليسَ ، فإنَّه ذكرَ مبدأَ هُبوطِهِ وهو الجنَّة ، والهُبوطُ يكون من عُلُوٍّ إلى سُفل ، وبنو إسرائيل كانوا بجبال الشَّراةِ [٣] المُشرِفَةِ على المِصْرِ الذي يهبِطُون إليه ، ومَن هبَطَ مِن جبلٍ إلى وادٍ قيل له : اهبط " .

قالوا : " وأيضاً ؛ فبنو إسرائيلَ كانوا يسيرُونَ ويرحَلون ، والذي يسيرُ ويرحلُ إذا جاءَ بلدةً يُقال : نَزَلَ فيها ؛ لأنَّ مِنْ عادَتِهِ أن يركبَ في مسيرِهِ ، فإذا وصلَ نزَلَ عن دوابِّهِ فيقال : نزلَ العسكرُ [٤] بأرضِ كذا ، ونزلَ القَفَلُ [٥] ونحوه .

ولفظُ النُّزول كلفظ الهُبوطِ ، ولا يُستعملُ "نزل" و "هبط" إلَّا إذا كان من عُلوٍّ إلى سُفلٍ .

وقال تعالى عقِبَ قولِهِ : ﴿ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ

---

(١) ما زال الكلام لشيخ الإسلام في الفتاوى .

(٢) البقرة : ٦١ .

(٣) هي سلسلة جبلية تقع في الجزء الغربي من جزيرة العرب ، وتمتد من اليمن جنوباً ، إلى خليج العقبة شمالاً محاذية البحر الأحمر ، ويتراوح ارتفاعها ما بين (٨٠٠ م إلى ٣٠٠٠ م ) فوق مستوى سطح البحر ، ويطلق على الجزء الشمالي منها في الأردن اسم " الشَّراة" وتشكل جبال الشوبك والبتراء ، ويطلق على الجزء الجنوبي منها "السَّراة" .
ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة للحازمي (٥٣٥) ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي (٣/٢٠٤) والموسوعة العربية الميسرة بإشراف : محمد شفيق غربال (١/٩٧٦) .

(٤) في النسخ كلها " العلو" ، وكُتب في هامش الأصل : لعله "العسكر" ، وهي كذلك كما في مجموع الفتاوى (٤/٣٤٨) .

(٥) القُفُول : رجوع الجند بعد الغزو . وقيل : القُفُول الرُّجوع من السفر ، والقَفَلُ : اسم الجمع . واشْتُقَّ اسْمُ القافلةِ منه ؛ لأنَّهم يَقْفُلُونَ فَيَرْجِعُونَ .
العين للخليل بن أحمد (٥/١٦٥) ، والمحيط في اللغة للصاحب بن عباد (٥/٤٢٧) ، ولسان العرب (١١/٦٥) .

إِلَىٰ حِينٍ ﴾[(١)] : ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾[(٢)] ، فهذا دليلٌ على أنَّهم لم يكونوا قبلَ ذلك في مكانٍ فيه يَحيَون ، وفيه يمُوتون ، ومنه يُخرجون ، والقرآنُ صريحٌ في أنَّهم إنَّما صاروا إليه بعدَ الإهبَاطِ ".

قالوا : "ولو لم يكن في هذه إلّا قصَّةُ آدمَ وموسى لكانت كافيةً ؛ فإنَّ موسى إنَّما لام آدمَ عليهما السلام لِمَا حصلَ لهُ ولذرِّيَّته بالخروج [(٣)] من الجنَّةِ من النَّكدِ ، والمَشقَّةِ فلو كانت بُستاناً في الأرضِ لكان غيرُه من بساتين الأرضِ يُعَوِّضُ عنهُ ، وموسى أعظمُ قدراً من أن يلومَهُ على أن أخرجَ نفسَهُ وذُرِّيتَهُ من بُستانٍ في الأرضِ " [(٤)] .

قالوا : "وكذلك قولُ آدمَ يوم القيامةِ لمَّا يرغبُ إليه النَّاسُ أنْ يستَفتِحَ لهم بابَ الجنَّةِ فيقول: ( وهل أخرجَكم منها إلا خطيئةُ أبيكم ) [(٥)] فإنَّ ظهورَ هذا في كونِها جنَّةَ الخُلد وأنَّه اعتذَرَ لهم بأنَّه لا يَحْسُنُ منه أن يَستَفتِحَها وقد أُخرجَ منها بخطِيئتِهِ ، من أظهرِ الأدلَّةِ "[(٦)] .

رد القائلين بأن جنة آدم ليست جنة الخلد على من زعم أن هذا قول المتفلسفة والملحدين والمعتزلة

قال الأوَّلُون : أمَّا قولكم : " إنَّ من قال : إنَّها جنَّةٌ في الأرضِ ، فهو من المُتَفَلسِفَةِ والمُلحدين والمُعتزلةِ ، أو مِن إخوانِهم " ، فقد أوجَدْنَاكم من قال بهذا وليس من أحدٍ مِن هؤلاء .

ومُشاركةُ أهلِ الباطلِ للحَقِّ في المسألة لا يدُلُّ على بطلانِها ، ولا تكون إضافتُها إليهم مُوجِباً لبُطلانِها ما لم يَخْتَصَّ بها .

---

(١) الأعراف : ٢٤ .

(٢) الأعراف : ٢٥ .

(٣) في : ص : من الخروج .

(٤) يشير رحمه الله إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ( احتجَّ آدمُ وموسى فقال له موسى : أنت آدمُ الذي أخرجَتْكَ خطيئتُك من الجنةِ ! فقال له آدمُ : أنت موسى الذي اصطفاكَ الله برسالاتِه وبكلامِه ثم تلُومُني على أمرٍ قُدِّرَ عليَّ قبلَ أن أُخلق ! ) . فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم ( فحَجَّ آدمُ موسى ) مرَّتين . رواه البخاري (٣٢٢٨) ، ومسلم (٢٦٥٢) ، وغيرهما .

(٥) رواه مسلم (١٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد تقدَّم ص : ٧٧ .

(٦) إلى هنا انتهى كلام شيخ الإسلام .

**فإن أردتُم أنَّه لم يقُلْ بذلك إلَّا هؤلاء ، فليس كذلك ، وإن أردتُم أنَّ هؤلاء من جُملةِ القائلين بهذا ، لم يُفِدكُم شيئاً .**

رد القائلين بأن جنة آدم ليست جنة الخلد على من زعم أن سلف الأمة متفقون على بطلان هذا القول

**قالوا : وأمَّا قولكم (١) : "وسلفُ الأُمَّةِ وأئمتها مُتَّفقُون على بُطلانِ هذا القولِ ، فنحن نُطالِبكم بنقلٍ صحيح عن واحدٍ من الصَّحابة ومَن بعدهم من أئمَّةِ السَّلف فضلاً عن اتِّفَاقهم .**

**قالوا: ولا يُوجدُ عن صاحبٍ ، ولا تابعٍ ، ولا تابعِ التابعِ ، خبرٌ يصحُّ مَوصولاً ، ولا شاذَّاً ، ولا مشهوراً أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : إنَّ الله تعالى أسكنَ آدمَ جنَّةَ الخُلدِ التي هي دارُ المتقين يومَ المعاد .**

**قالوا: وهذا القاضي مُنذرُ بن سعيدٍ (٢) قد حكَى عن غير واحد من السَّلف : أنَّها ليست جنةَ الخُلدِ ؛ فقال : " ونحن نُوجِدُكم أنَّ فقيه العراقِ (٣) ، ومن قال بقوله ، قد قالوا : إنَّ جنَّةَ آدمَ التي خلقها الله ليست جنةَ الخُلدِ ، وليسوا عند أحدٍ من العلماء من الشَّاذِّين ، بل من رُؤساءِ / المُخالفين ، وهذه الدَّواوين مشحونةٌ من عُلُومِهم ، وقد ذكرنا قولَ ابنِ عُيَينة (٤) .** [١٨/أ]

**وقد ذكر ابن مُزَيْنٍ (٥) في "تفسيره" (٦) قال : " سألتُ ابن نافعٍ (٧) عن الجنَّة أمخلوقةٌ ؟ فقال : السُّكوتُ عن هذا أفضلُ ".**

---

(١) في : ص : وإنَّما قولكم .

(٢) أبو الحكم ، منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن النفزي البلوطي ، تقدمت ترجمته ص : ٦٧ .

(٣) هو الإمام أبي حنيفة ، تقدمت ترجمته ص : ٩٣ .

(٤) سفيان بن عيينة ، سبقت ترجمته ص : ٩٠ .

(٥) أبو زكريا : يحيى بن إبراهيم بن مزين الطليطلي القرطبي الأندلسي ، رحل إلى المشرق فلقي مُطرّف بن عبد الله وروى عنه الموطأ ، ورواه أيضاً عن حبيب كاتب مالك ، وله تصانيف منها : تفسير الموطأ ، وتسمية رجال الموطأ ، وعلل حديث الموطأ ، والمستقصية ، وغيرها ، توفي عام : ٢٥٩ هـ .

تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي (١٧٨/٢) ، وجذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي (٣٧١) والديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون (٣٦١/٢) .

(٦) هو : تفسير موطأ الإمام مالك ، وليس تفسيراً للقرآن ، وينظر في هذا : المصادر السابقة في ترجمة ابن مُزين .

(٧) أبو بكر : عبد الله بن نافع الزبيري ، حفيد ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام ، صاحب الإمام مالك ،توفي عام : ٢١٦هـ ، وقيل : ٢٢٠هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (٤٣٩/٥) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣٧٤/١٠) .

قالوا : فلو كان عند ابنِ نافعٍ أنَّ الجنَّةَ التي أُسكنَها آدمُ هي جنَّةُ الخُلد ، لم يشُكَّ أنَّها مخلوقةٌ ، ولم يتوقَّفْ في ذلك .

وقال ابنُ قُتيبةَ [١] في كتابه " غريب القرآن " [٢] ، في قوله تعالى : ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [٣] ، قال ابن عباس رضي الله عنهما [٤] في روايةِ أبي صالح [٥] : هو كما يقال هَبَطَ فلانٌ أرضَ كذا وكذا " [٦] ولم يذكر في كتابه غيرَهُ .

فأينَ إجماعُ سلفِ الأُمَّةِ وأئمَّتِها ؟! .

رد القائلين بأن جنة آدم ليست جنة الخلد على الاستدلال بقوله تعالى ( ولكم في الأرض مستقر ) عقِبَ قوله ( اهبطوا )

قالوا : وأمَّا احتجاجُكم بقوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [٧] عقِبَ قوله : ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ ؛ فهذا لا يدُلُّ على أنَّهم كانوا في جنَّةِ الخُلد ، فإنَّ أحدَ الأقوالِ في المسألةِ أنَّها كانت جنَّةً في السَّماءِ غيرَ جنَّةِ الخُلدِ ، كما حكاهُ الماوَردِيُّ [٨] في "تفسيره" وقد تقدَّمَ [٩] .

وأيضاً ؛ فإنَّ قوله : ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ [١٠] ، يدُلُّ على أنَّ لهم مُستَقرّاً إلى حينٍ في الأرضِ المُنْقَطِعَةِ عن الجنَّةِ ولا بُدَّ ؛ فإنَّ الجنَّةَ أيضاً لها أرضٌ قال تعالى عن أهلِ الجنَّةِ : ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [١١] ، فدَلَّ على أنَّ قوله :

---

(١) ابن قتيبة تقدمت ترجمته في ص : ٩١ .

(٢) ص (٤٦) .

(٣) البقرة : ٣٨ .

(٤) سبقت ترجمته ص : ٨٧ .

(٥) أبو صالح ، باذان مولى أم هانئ الهاشمي الكوفي ، سبقت ترجمته ص : ٩٢ .

(٦) تقدم الأثر في ص : ٩٢ .

(٧) البقرة : ٣٦ .

(٨) أبو الحسن الماوَرْدِيُّ ، تقدمت ترجمته ص : ٩٦ .

(٩) تقدَّم ذكر الأقوال في ص : ٩٦ .

(١٠) البقرة : ٣٦ .

(١١) الزُّمَر : ٧٤ .

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾[١] أنَّ المُرادَ به : الأرضُ الخاليةُ من تلك الجنَّةِ ، لا كُلُّ ما يُسمَّى أرضاً ، وكان مُستقَرُّهم الأوَّلَ في أرضِ الجنَّةِ ، ثمَّ صار في أرضِ الابتلاءِ والامتحان ، ثمَّ يصيرُ مُستقَرُّ المؤمنين يومَ الجزاءِ أرضَ الجنَّةِ أيضاً ؛ فلا تدُلُّ الآية على أنَّ جنَّةَ آدمَ هي جنَّةُ الخُلدِ .

قالوا : وهذا هو الجوابُ بعينِه عن استدلالِكُم بقولِه تعالى : ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[٢] ؛ فإنَّ المُرادَ به الأرضُ التي أُهبِطُوا إليها ، وجُعلَتْ مسكَناً لهم بَدَلَ الجنَّةِ ، وهذا تفسيرُ المُستَقرِّ المَذكورِ في "البقرة" مع تضمُّنِهِ ذِكرَ الإخراجِ منها .

رد القائلين بأن جنة آدم ليست جنة الخلد على الاستدلال بقوله تعالى ( فاهبط منها ) على أنها التي في السماء

قالوا : وأمَّا قولُهُ تعالى لإبليسَ : ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾[٣] ، وقولكم : إنَّ هذا إنَّما هو في الجنَّةِ التي في السَّماءِ ، وإلّا فجنَّةُ الأرضِ لم يُمنَع إبليسُ من التَّكبُّرِ فيها . فهو دليلٌ لنا في المسألةِ فإنَّ جنَّةَ الخُلدِ لا سبيلَ لإبليسَ إلى دُخُولِها والتَّكبُّرِ فيها أصلاً ، وقد أخبرَ تعالى أنَّه وسوَسَ لآدمَ وزوجِهِ ، وكَذَبَهُما ، وغرَّهما وخانَهُما ، وتكبَّر عليهما ، وحسدَهُمَا ، وهما حينئذٍ في الجنَّةِ ، فدَلَّ على أنَّها لم تكُن جنَّةَ الخُلدِ ، ومُحالٌ أن يصعدَ إليها بعدَ إهْبَاطِهِ وإخراجِهِ منها .

قالوا : والضمير في قوله :﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا﴾[٤] إمَّا أن يكون عائداً إلى السَّماءِ ، كما هو أحد القولين ، وعلى هذا فيكونُ سبحانه قد أهبَطَهُ من السَّماءِ عقِبَ امتناعِهِ من السُّجودِ وأخبرَ أنَّه ليس له أنْ يتكبَّرَ فيها ، ثمَّ تكبَّرَ ، وكَذَبَ ، وخانَ في الجنَّةِ ، فدَلَّ على أنَّها ليست في السَّماءِ .

---

(١) البقرة : ٣٦ .

(٢) الأعراف : ٢٥ .

(٣) الأعراف : ١٣ .

(٤) البقرة : ٣٨ .

أو يكونُ عائداً إلى الجنَّةِ على القولِ الآخرِ ، ولا يلزمُ من هذا القولِ أن تكونَ الجنَّةُ التي كادَ فيها آدمَ وغرَّهُ وقاسَمَهُ كاذِبَاً هي تلك التي أُهبِطَ منها ، بل القرآنُ يدُلُّ على أنَّها غيرها ، كما ذكرناه [(١)].

فعلى التَّقديرين ، لا تدُلُّ الآيةُ على أنَّ الجنَّةَ التي جرى لآدمَ مع إبليسَ ما جرى فيها هي جنَّةُ الخُلد .

قالوا : وأمَّا قولُكم : إنَّ بني إسرائيلَ كانوا بجبالِ الشَّراةِ [(٢)] المُشرِفَةِ على الأرضِ التي يَهْبِطُون إليها ، وهم كانوا يسيرونَ ويرحلونَ ، فلذلك قيل لهم:﴿ٱهۡبِطُواْ﴾ .

فهذا حق لا نُنَازِعُكم فيه ، وهو بعينِهِ جوابٌ لنا ؛ فإنَّ الهُبُوطَ يدُلُّ على أنَّ تلك الجنَّةَ كانت أعلى من الأرضِ التي أُهبِطُوا إليها ، وأمَّا كونُها جنَّةَ الخُلد ، فلا .

الفرق بين قوله تعالى ( اهبطوا مصراً ) وقوله ( اهبطوا منها )

قالوا : والفرقُ بين قولِهِ : ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرًا﴾[(٣)] ، وقوله : ﴿ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا﴾ [(٤)] ، فإن الأوَّل [(٥)] لنهايةِ الهُبوطِ ، وغايَتِهِ ، و ﴿ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا﴾ مُتضمِّنٌ لمَبدَئِهِ وأوَّلِهِ ، لا تأثيرَ له فيما نحنُ فيهِ ؛ " فإنَّ هَبَطَ من كذا إلى كذا " يتضمَّنُ معنى الانتقالِ من مكانٍ عالٍ إلى مكانٍ سافلٍ ، فأيُّ تأثيرٍ لابتداءِ الغايةِ ونهايتِهَا في تعيينِ محلِّ الهُبُوطِ بأنَّهُ جنَّةُ الخُلد .

رد القائلين بأن جنة آدم ليست جنة الخلد على الاستدلال بمحاجة آدم وموسى

قالوا : وأمَّا قصَّةُ موسى ، ولومِهِ لآدمَ على إخراجهِ من الجنَّةِ ، فلا يدُلُّ على أنَّها جنَّةَ الخُلد . وقولكم : " لا يُظنُّ بموسى أنَّه يلومُ آدمَ على إخراجَهِ من بُستانٍ في الأرضِ " . تشنيعٌ لا يُفيد شيئاً ؛ أفترَى كان ذلك بُستاناً مثلَ آحادِ هذه البساتين المقطوعَةِ المَمنُوعَةِ ، التي هي عُرضَةُ الآفاتِ ، والتَّعبِ ، والنَّصبِ ، والظَّمأ ، والضُّحِيِّ ، والحرثِ والسَّقي ، والتَّلقيحِ ، وسائرِ وجوهِ النَّصبِ الذي يَلحقُ هذه البساتين ؟!

---

(١) تقدم الكلام على عود الضمير في ص : ٨١ .

(٢) تقدم الكلام عنها في ص : ١١٧ .

(٣) البقرة : ٦١ .

(٤) البقرة : ٣٨ .

(٥) في : د : فإن الأول متضمِّن ، وفي : ص : فإن الأول مضمَّن .

ولا ريب أنَّ موسى عليه الصَّلاة والسَّلامِ أعلمُ وأجلُّ من أنْ يلومَ آدمَ على خُروجِهِ وإخراجِ بنِيهِ من بُستانٍ هذا شأنُه ، ولكنْ من قالَ بهذا ؟.

وإنَّما كانت جنَّةً لا تلحقُهَا آفةٌ ، ولا تنقَطِعُ ثِمارُها ، ولا تغورُ أنهارُها ، لا يجوعُ ساكنُها ولا يظمَأُ ، ولا يضحَى للشمس ، ولا يعرَى ، ولا يَمسُّه فيها التَّعبُ والنَّصبُ والشَّقاء ومِثلُ هذه الجنَّةِ يَحسُنُ لومُ الإنسانِ على التَّسبُّبِ في خُروجهِ منها .

رد القائلين بأن جنة آدم ليست جنة الخلد على الاستدلال باعتذار آدم عن استفتاح الجنة

قالوا : وأمَّا اعتذارُ آدمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يومَ القيامةِ لأهلِ الموقف ، بأنَّ خطيئتَه هي التي أخرجتهُم من الجنَّةِ ، فلا يَحسُن أن يستَفتحَها لهم ؛ فهذا لا يستلزمُ أن تكونَ هي بعينِها التي أُخرجَ منها ، بل إذا كانت غيرَها كان أبلغَ في الاعتذار ؛ فإنَّه إذا كان الخُروجُ من غيرِ جنَّةِ الخُلدِ حصَلَ بسببِ الخطِيئةِ ، فكيف يليقُ استفتاحُ جنَّةِ الخُلد ، والشَّفاعةُ فيها بمن خرجَ [1] من غيرها بخطيئةٍ ؟!

فهذا موقفُ نَظرِ الفريقين ، ونهايةُ إقدَامِ الطَّائِفَتين ، فمن كان له فضلُ علمٍ في هذه المسألةِ فَلْيَجُدْ بهِ ، فهذا وقتُ الحاجةِ إليهِ ، ومن علِمَ مُنتَهى خُطوتِهِ ، ومقدارَ بضاعتِهِ فلْيَكِلِ الأمرَ إلى عالِمِهِ ، ولا يَرضى لنفسِهِ بالتَّنقُّصِ والإزراءِ عليه ، وليكن من أهلِ التُّلولِ [2] الذين هم نظَّارَةُ الحربِ ، إذا لم يكن من أهلِ الكَرِّ والفَرِّ ، والطَّعنِ والضَّربِ فقد تلاقَتِ الفُحولُ ، وتطاعَنَتِ الأقرانُ ، وضاقَ بهم المَجالُ في حلَبَةِ هذا [3] المَيدانِ :

إذا تَلاقى الفُحولُ في لَجَبٍ  فكيفَ حالُ البَعُوضِ في الوَسَطِ [4]

---

(١) في النسخ كلها : ثم خرج ، والمثبت قد صُححَ في هامش الأصل .

(٢) التُّلُول : الرجل الذي لا ينقاد إلا بطيئاً . القاموس المحيط للفيروزآبادي (٤٦٥/٣) ، وتاج العروس للزبيدي (١٤٢/٢٨) .

(٣) "هذا" سقطت من : ص .

(٤) ذكره الجاحظ لبعض المُولّدين ،كما في : الحيوان (٥٦/٧) ، وهو في : عيون الأخبار لابن قتيبة (١٤٤/٢) وفي : التمثيل والمحاضرة لأبي منصور الثعالبي (٣٣٣) من غير نسبةٍ ، وفيها : إذا تلاقى الفيولُ وازدحمت .
واللَجَب : الصوت والصياح والجَلَبَةُ ، وارتفاع الأصوات واختلاطها ، ويطلق على الجيش العَظيم العدد والعُدّة ؛ لأنَّه ذو جَلَبَةٍ وكثرةٍ . الصحاح للجوهري (٢١٨/١) ، والمحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٤٤٢/٧) ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (١٧٠/١) .

فهذه مَعاقِدُ حُجَجِ الطائفتَين مُجتازةٌ ببابك ، وإليك تُساقُ ، وهذه بضائعُ تُجَّارِ العلماء يُنادَى عليها في سوقِ الكسادِ ، لا في سُوق النَّفاقِ ، فمن لم يكن لديه شيءٌ من أسباب البيَانِ والتَّبْصِرَةِ ، فلا يَعدمْ مَنْ قد استَفرَغَ وُسعَهُ ، وبذَلَ جُهدَهُ ، من التَّصويب ، أو المعذرة ، ولا يرضى لنفسِهِ بشرِّ الخُطَّتين ، وأبخَسِ الحَظَّين ؛ جهْلِ الحقِّ وأسبَابِهِ ومُعادَاةِ أهلِهِ وطُلَّابِهِ .

وإذا عظُمَ المَطلوبُ ، وأعوَزَكَ الرَّفيقُ النَّاصحُ العليمُ ، فارْحَلْ بِهمَّتِكَ من بين الأمواتِ وعليكَ بمُعلِّم إبراهيمَ ؛ فقد ذكرنا في هذه المسألةِ من النُّقُولِ والأدلَّةِ ، والنُّكتِ البديعةِ ما لعلَّهُ لا يُوجَدُ في شيءٍ مِن كُتُبِ [1] المُصَنِّفين ، ولا يَعرفُ قدرَهُ إلّا من كان من الفُضَلاء المُنْصِفين .

ومن الله سبحانه الاستمدادُ ، / وعليه التَّوكلُ ، وإليه الاستِنَادُ ، فإنَّه لا يَخِيبُ مَن توكَّل [١٩/أ]
عليه ، ولا يَضيعُ مَن لاذَ بهِ ، وفوَّضَ أمرَهُ إليهِ ، وهو حسبُنا ونِعمَ الوَكيلُ .

(١) في : ص : الكتب .

# فصل

فصل : في عهد الله لآدم وبنيه عند إهباطه إلى الأرض

ولـمَّا أهْبَطَهُ سبحانه من الجنَّةِ ، وعرَّضَهُ وذُرِّيَّتَهُ لأنواعِ الـمِحَنِ والبَلاءِ ، أعطاهُم أفضلَ ممَّا مَنعَهَم ، وهو عهْدُهُ الذي عَهِدَ إليه وإلى بنِيهِ ، وأخبرَ أنَّه مَن تمَسَّك به منهم صارَ إلى رضوانِه ودارِ كرامَتِهِ .

قال تعالى عَقِبَ إخراجِهِ منها : ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١] ، وفي الآيةِ الأخرى قال : ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[٢] ، فلمَّا كسرَهُ سبحانه بإهبَاطِهِ من الجنَّةِ جَبَرَهُ وذُرِّيَّتَه بهذا العَهْدِ الذي عَهده إليهم ، فقال تعالى : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ ، وهذه هي " إنْ " الشرطيَّة [٣] المُؤكَّدة بـ " ما " الدَّالَّةِ على استغراقِ الزَّمانِ ، والمعنى : أيَّ وقتٍ وأيَّ حينٍ أتاكُم منِّي هُدى .

معنى قوله تعالى ( فإما يأتينكم مني هدى ) والتحقيق في " إنْ " الشرطية وجوابها

وجعلَ جوابَ هذا الشَّرطِ جُملَةً أخرى شرطيَّةً ، وهي قولُه : ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ ، كما تقولُ : إنْ زُرتَني ؛ فمنْ بشَّرني بقدومكَ فهو حُرٌّ .

وجوابُ الشَّرطِ يكونُ جُملَةً تامَّةً :

---

(١) البقرة : ٣٨ .

(٢) طه : ١٢٦.

(٣) ينظر في " إنْ " : المقتضب للمبرد (٤٩/١) ، والأضداد لابن الأنباري (١٨٩) ، ورصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي (١٠٤) ، والجنى الداني في شرح حروف المعاني للمرادي (٢٠٧) ، والبحر المحيط لأبي حيان (٢٧١/١) ، والدر المصون للسمين الحلبي (٢٩٨/١) .

ـ إمَّا خبراً مَحضَاً ، كقولِكَ : إنْ زُرتَني أكرمتُكَ ، أو خبراً مقروناً بالشَّرطِ كهذا ، أو مُؤكداً بالقَسَمِ ، أو بـ " إنْ " واللام ، كقوله تعالى : ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ (١) .

ـ وإمَّا طَلَبَاً ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم : ( إذا سألتَ فاسأل الله ، وإذا استَعنتَ فاستَعِنْ باللهِ ) (٢) ، وقوله : ( وإذا لقيتموهم فاصبروا ) (٣) ، وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْ﴾ (٤) ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ (٥) .

وأكثرُ ما يأتي هذا النوعُ مع " إذا " (٦) التي تُفيدُ تحقيقَ وقوعِ الشَّرطِ ، وهو إفادتُه تحقيقَ الطَّلبِ عند تحقيقِ (٧) الشَّرطِ ، فمتى تحقق الشَّرطُ فالطلبُ مُتحقِّقٌ ، فأتى بـ " إذا " الدَّالَّةِ على تحقيقِ (٨) الشَّرط، فعُلم تحقيقُ (٩) الطَّلبِ عندها ، وقد يأتي مع " إنْ " قليلاً ، كقوله تعالى : ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡ﴾ (١٠) .

---

(١) الأنعام : ١٢١.

(٢) جزء من حديث ابن عباس المشهور ( يا غلام إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ....)
رواه الترمذي (٢٥١٦) ، وأحمد (٢٩٣/١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ) ، وابن مندة في التوحيد (١٠٧/٢) وصححه ، وقال الترمذي : " هذا حديث حسن صحيح " ، وصححه الألباني في : صحيح سنن الترمذي (٣٠٨/٢ - ٣٠٩) .

(٣) جزءٌ من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه ، وفي أوَّله : ( لا تتمنوا لقاء العدو ....)
رواه البخاري (٢٨٣٣ ، ٢٩٦٦ ، ٣٠٢٤) ، ومسلم (١٧٤٢) .

(٤) المائدة : ٢ .

(٥) التوبة : ٥ .

(٦) ينظر في " إذا " : المقتضب للمبرد (٥٥/٢) ، والأضداد لابن الأنباري (١١٨) ، ورصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي (٦١) ، والجنى الداني في حروف المعاني للمرادي (٣٧٣) ، والبرهان في علوم القرآن للزركشي (١٩٠/٤) ، و الإتقان للسيوطي (١٨٠/٢) .

(٧) في : د : تحقق .

(٨) في : د : تحقق .

(٩) في : د : تحقق .

(١٠) يونس : ٤١ .

ـ وإمَّا جُملةً إنشائيةً ، كقولِه لعبدِهِ الكافر : إنْ أسلمتَ فأنتَ حُرٌّ ، أو لامرأتِهِ : إنْ فعلتِ كذا فأنتِ طالقٌ ، فهذا إنشاءٌ للعِتْقِ والطَّلاقِ عند وُجودِ الشَّرطِ ، على رأيٍ ، أو إنشاءٌ له حالَ التَّعليقِ ، ويتأخر نفوذُه إلى حين وجودِ الشَّرطِ ، على رأيٍ آخرَ .

وعلى التَّقديرين ، فجوابُ الشَّرطِ جملةٌ إنشائيةٌ .

والمقصودُ أنَّ جوابَ الشَّرطِ في الآيةِ المَذكورةِ جُملةٌ شرطيَّةٌ ، وهي قوله تعالى : ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١) ، وهذا الشَّرطُ يقتضي ارتباطَ الجُملةِ الأولى بالثَّانيةِ ارتِبَاطَ العلَّةِ بالمَعلولِ ، والسَّبب بالمُسبَّبِ ، فيكونُ الشَّرطُ الذي هو مَلزومٌ عِلَّةً ومُقتضياً للجزاءِ الذي هو لازمٌ .

فإن كان بينهُما تلازُمٌ من الطَّرفين كان وجودُ كُلٍّ منهما بدون الآخرِ مُمتَنِعاً ، كدُخول الجنَّةِ بالإسلامِ ، وارتفاع الخوفِ والحُزنِ والضَّلالِ والشَّقاءِ مع مُتابعةِ الهُدى .

وهذه هي عامَّةُ شُروطِ القرآنِ والسُّنةِ ، فإنَّها أسبابٌ وعِلَلٌ ، والحُكمُ ينتفي بانتفَاءِ عِلَّتِهِ .

وإن كان التَّلازمُ بينهما من أحدِ الطَّرفين ، كان الشَّرطُ ملزوماً خاصاً ، والجزاءُ لازماً عامَّاً فمتى تحقَّقَ الشَّرطُ المَلزومُ الخاصُّ تحقَّقَ الجَزاء اللازمُ العامُّ ، ولا يلزمُ العكسُ ، كما يُقال : إنْ كان هذا إنساناً فهو حيوانٌ ، وإنْ كان البيعُ صحيحاً فالمُلكُ ثابتٌ .

وهذا غالبُ ما يأتي في قِياسِ الدَّلالةِ (٢) ، حيث يكون الشَّرطُ دليلاً على الجزاءِ ، فيلزمُ من وجُودِهِ وجودُ الجزاءِ ؛ لأن الجزاءَ لازِمُهُ ، ووجودُ المَلزومِ يستلزمُ وجودَ اللَّازمِ

---

(١) البقرة : ٣٨.

(٢) القياس ينقسم باعتبار الوصف الجامع بين الأصل والفرع ثلاثةَ أقسام ، هي : ١/ قياسُ علَّةٍ . ٢/ قياسُ دلالةٍ . ٣/ قياسٌ في معنى الأصل .

أما قياس الدلالة فقد عرَّفه المؤلف ، ومثَّلَ له في كتابه : إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/١٣٨) فقال: " قياس الدلالة فهو الجمع بين الأصل والفرع بدليل العلة وملزومها ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ

=

ولا يلزمُ من عدَمِهِ عَدمُ الجزاءِ .

تعليل الحكم الواحد بعلتين والخلاف فيه

وإنْ وقعَ هذا الشَّرطُ بين علَّةٍ ومعلولٍ ؛ فإنْ كانَ الحُكمُ مُعلَّلاً بعلَلٍ صحَّ ذلك ، وجازَ أنْ يكون الجزاءُ أعمَّ مِن الشَّرطِ ، كقولك : إنْ كان هذا مُرتداً فهو حلالُ الدَّمِ ، فإنَّ حِلَّ الدَّمِ أعمُّ من حِلِّهِ بالردَّةِ ، إلا أن يُقال :

" إنَّ حُكْمَ العِلَّةِ المُعيَّنَةِ ينتَفِي بانتِفَائِها ، وإنْ ثبتَ الحُكمُ بعلَّةٍ أخرى فهو حُكمٌ آخرُ . وأمَّا حُكمُ العلَّةِ المُعيَّنةِ فمُحالٌ أنْ يبقى مع زوالها " .

وحينئذٍ فيعودُ التَّلازم من الطَّرفين ، ويلزمُ من وجودِ كُلِّ واحدٍ من الشَّرطِ والجزاءِ وجودُ الآخرِ ، ومن عدَمِهِ عدَمُهُ .

وتمَامُ تحقيقِ هذا في مسألةِ تعليلِ الحُكمِ الواحدِ بعلَّتَين ؛ وللنَّاس فيهِ نِزَاعٌ مَشهورٌ (١) وفصلُ الخِطَابِ فيها :

أنَّ الحُكمَ الواحدَ إنْ كان واحداً بالنَّوعِ ، كحِلِّ الدَّمِ ، وثُبوتِ المُلْكِ ، ونقْضِ الطَّهارةِ جازَ تعلِيلُهُ بالعِلَلِ المُختَلِفَةِ ، وإنْ كان واحداً بالعَينِ ، كحِلِّ الدَّمِ بالرِّدَّةِ ، وثُبوتِ المُلْكِ

---

خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فُصِّلَت:٣٩] ، فدلَّ سبحانه عبادَهُ بما أراهم من الإحياء الذي تحقَّقُوه وشاهَدُوه ، على الإحياءِ الذي استبعدوه ، وذلك قياسُ إحياءٍ على إحياء واعتبار الشيء بنظيرِهِ ، والعلةِ المُوجبة هي : عموم قدرته سبحانه ، وكمال حكمته ، وإحياء الأرض دليلُ العلَّةِ. وينظر : اللمع في أصول الفقه للشيرازي (١٠٠) ، والإحكام للآمدي (٤/٤) ، وشرح مختصر الروضة للطوفي (٤٣٦/٣) .

(١) الأقوال في المسألة : الأول: أنه يجوز تعليل الحكم الواحد بأكثر من علَّةٍ مطلقاً ، وهو قول الجمهور . الثاني: أنه لا يجوز مطلقاً ، سواء كانت منصوصة أو مستنبطة ، وهو اختيار الآمدي . الثالث: يجوز في المنصوصة دون المستنبطة اختاره الباقلاني ، والرازي . الرابع: يجوز في المستنبطة دون المنصوصة ذكره ابن الحاجب .
ومن أمثلته : تعليل إيجاب الوضوء بالبول والغائط والريح والنوم .
أصول السرخسي (٢٣٤/١) ، المحصول للرازي (٢٧١/٥) ، وروضة الناظر لابن قدامة المقدسي (٢٩١/٢) والإحكام للآمدي (٢٣٦/٣) ، ومختصر ابن الحاجب (١٠٥٤/٢) ، والفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٦٧/٢٠) ،وشرح تنقيح الفصول للقرافي (٤٠٤) ، وشرح مختصر الروضة للطوفي (٣٣٧/٣) ، وإرشاد الفحول للشوكاني (١١٥/٢) .

بالبيع ، أو المِيراثِ ، ونحو [١] ذلك ؛ لم يَجُزْ تعلِيلُهُ بعلَّتَين مُختلفتَين ، وبهذا التَّفصيل يزولُ الاشتباهُ في هذه المسألةِ ، والله أعلم .

ومن تأملَ [٢] أدلةَ الطَّائفتين وجَدَ كُلَّ ما احتَجَّ به مَن رأى تعليلَ الحُكمِ بعلَلٍ مُختلفةٍ إنَّما يدُلُّ على تعليلِ الواحِدِ بالنَّوعِ بها ، وكُلُّ مَن نَفى تعليلَ الحُكمِ بعلَّتين ، إنَّما يتمُّ دليلُهُ على نفي تعليلِ الواحدِ بالعَين بهما ؛ فالقولانِ عند التَّحقيقِ يَرجِعانِ إلى شيءٍ واحد [٣] .

والمقصودُ أنَّ الله سبحانه جعلَ اتِّباعَ هُداهُ وعَهْدَهُ الذي عَهِدَهُ إلى آدمَ سبباً ومُقتَضياً لعدمِ الخوفِ والحُزنِ والضَّلالِ والشَّقاءِ ، وهذا الجزاءُ ثابتٌ بثبوتِ الشَّرطِ ، مُنتَفٍ بانتفائِهِ ، كما تقدَّمَ بيانُه [٤] .

ونفيُ الخوفِ والحُزنِ عن مُتَّبعِ الهُدى نفيٌ لجميعِ أنواعِ الشُّرورِ ؛ فإنَّ المكروه الذي ينزلُ بالعبدِ متى عَلمَ بحُصولِه فهو خائفٌ منه أن يقع به ، وإذا وقَعَ به فهو حَزينٌ على ما أصابَه منه ، فهو دائماً في خوفٍ وحُزنٍ ، وكلُّ خائفٍ حَزينٌ ، وكلُّ حزينٍ خائفٌ ، وكلٌّ مِن الخوفِ والحُزنِ يكونُ على فعلِ المَحبوبِ ، وحُصولِ المكروهِ . (نفي الخوف والحزن عن متبع الهدى نفي لجميع أنواع الشرور)

فالأقسامُ أربعةٌ :

خوفٌ من فَوتِ المَحبوبِ وحصولِ المَكروهِ [٥] ، وهذا جماعُ الشَّرِّ كُلِّهِ ، فنفى اللهُ سبحانهُ ذلك عن مُتَّبِعِ هُدَاهُ الذي أنزلَهُ على ألسِنَةِ رُسُلِهِ ، وأتى في نفي الخوفِ بالاسم الدَّالِّ على نفي الثُّبوتِ واللزومِ ، فإنَّ أهلَ الجنَّةِ لا بُدَّ لهم من الخوفِ في الدُّنيا ، وفي

(١) في : د : وغير .
(٢) في : ص : تعلَّم .
(٣) قال شيخ الإسلام في : جامع الرسائل (٦/٩٠) : " النِّزاعُ وإنْ كان مشهوراً في ذلك ، فأكثرُ الفُقهاء من أصحابِنا وغيرِهِم يُجوِّز تعليلَ الحُكم بعلَّتين ، وكثير من الفُقهاء والمُتكلِّمين يمنعُ ذلك ، فالنِّزاعُ في ذلك يعودُ إلى نِزاع تنَوُّعِيٍّ ، ونزاعٍ في العبارةِ ، وليس بنزاعِ تناقُضٍ " .
(٤) ص : ١٢٥ .
(٥) كذا في النسخ كلها ، والسياق يقتضي الأقسام الأربعة : خوف من فوت المحبوب ، وحصول المكروه ، وحُزن على فوت المحبوب ، وحصول المكروه .

البَرزَخِ ويوم القيامةِ ، حيثُ يقولُ آدمُ وغيرُهُ مِن الأنبياءِ : ( نفسي ، نفسي ) [١] ؛ فأخبرَ سبحانه أنَّهم وإنْ خافوا فلا خوفَ عليهم ، أي : لا يلحقُهُم الخوفُ الذي خافوا منه .

وأتى في نفي الـحُزنِ بالفعلِ الـمُضارعِ الـدَّالِّ على نَفي التَّجدُّدِ والـحُدوثِ ، أي : لا يلحقُهُم حُزنٌ ولا يـحدثُ لهم إذا تذكَّروا ما سَلفَ منهم ، بل هم في سُرورٍ دائمٍ لا يَعْرِضُ لهم حُزنٌ على ما فاتَ .

وأما الخوفُ ؛ فلمَّا كان تعلُّقُه بالـمُستَقبلِ دونَ الـمَاضي نفى لـُحُوقَهُ لهم جُملةً ، / أي : الذي خافُوا منه لا ينالُهم ولا يَلُمُّ بهم ، والله أعلم . [٢٠/أ]

فالحزينُ إنَّما يَحَزنُ في الـمُستَقبلِ على ما مضى ، والـخائِفُ إنَّما يَخافُ في الـحالِ مـمَّا يَستَقبِلُ ، فقال : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ [٢] ، أي : لا يلحقُهُم ما خافُوا منه ، ولا يعرِضُ لهم حُزنٌ على ما فات .

وقال في الأخرى : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [٣] ، فنفى عن مُتَّبع هُداهُ أمرَينِ : الضَّلالَ ، والشَّقاءِ ، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما [٤] : " تكفَّلَ اللهُ لمِنْ قرأ القرآنَ ، وعمِلَ بمَا فيهِ أنْ لا يَضلَّ في الدُّنيا ، ولا يشقى في الآخرةِ ، ثم قرأ : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [٥] .

والآيـةُ نفت مُسمَّى الضَّلالِ والشَّقـاءِ عن مُتَّبعِ الهُـدى مُطلقاً ، فاقتضت الآيـةُ أنَّـه لا يَضلُّ في الـدُّنيا ، ولا يـشقى فيها ، ولا يَـضلُّ في الآخرةِ ، ولا يـشقى فيها ؛ فـإنَّ المراتِبَ أربعةٌ : هُدىً وسعادةٌ في الدُّنيا ، وهدى وضلال وشقاوة في الآخرة .

---

(١) جزء من حديث الشفاعة المشهور، وقد تقدَّم ، ص : ٥٥ .

(٢) البقرة : ٣٨ .

(٣) طه : ١٢٣ .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

(٥) طه : ١٢٣.

وأثـرُ ابن عبـاس رضي الله عنهما رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ، حديث رقم : ٢٩٩٥٥ ، (١٢٠/٦) وعبد الرزاق في مصنفه (٣٨٢/٣) ، وفي تفسيره (٣٧٩/٢) ، وابن جرير الطبري في تفسيره (١٩١/١٦) ، والحاكم في مستدركه (٣٨١/٢) ، وقال : صحيح الإسناد .

لكنْ ذكَرَ ابنُ عباس رضي الله عنهما في كلِّ دارٍ أظهَرَ مرتَبتيها ؛ فذكَرَ الضَّلالَ في الدُّنيا إذ هو أظهرُ لنا وأقربُ من ذِكرِ الضَّلالِ في الآخرةِ .

وأيضاً ؛ فضَلال الدُّنيا أصلُ ضَلالِ الآخرةِ ، وشقاءُ الآخرةِ مُستلزمٌ للضَّلالِ فيها .

فنبَّهَ بكُلِّ مَرتبةٍ على الأخرى ؛ فنبَّه بنفي ضَلالِ الدُّنيا على نفي ضلال الآخرةِ ؛ فإنَّ العبدَ يمُوتُ على ما عاشَ عليهِ ، ويُبعثُ على ما مَاتَ عليه (١) .

قال الله تعالى في الآيةِ الأخرى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ (٢) ، وقال في الآيةِ الأخرى : ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٣) ، فأخبر أنَّ مَن كان في هذهِ الدَّارِ ضَالَّاً فهو في الآخرةِ أضَلُّ .

وأمَّا نفيُ شقاءِ الدُّنيا ، فقد يُقال : إنَّه لـمَّا انتفَى عنه الضَّلالُ فيها ، وحصلَ له الهُدى والـهُدى فيه مِن بَردِ اليقينِ وطُمأنينةِ القلبِ ، وذَوقِ طعم الإيمان ، ووجودِ حلاوتِهِ وفرحَةِ القلبِ به ، وسرورِهِ ، والتَّنعُّم بهِ ، ومصيرِ القلبِ حيَّاً بالإيمانِ ، مُستنيراً به ، قوياً بهِ ، قد نَالَ بهِ غذاءَهُ ، ودواءَهُ ، وشفاءَهُ ، وحياتَهُ ، ونُورَهُ ، وقوَّتَهُ ، ولذَّتَهُ ، ونعيمَهُ ، مِنْ أجَلِّ (٤) أنواعِ النَّعيمِ ، وأطيبِ الطَّيِّباتِ ، وأعظَمِ اللَّذَّاتِ ، قال الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (٥) ، فهذا خبرُ أصدَقِ الصَّادقين ، ومَخبَرُهُ عند أهلِهِ

---

(١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه و سلم : ( يبعثُ كلُّ عبدٍ على ما مات عليه ) رواه مسلم ( ٢٨٧٨ ) ، وغيره .

(٢) طه : ١٢٤ – ١٢٦ .

(٣) الإسراء : ٧٢ .

(٤) من قوله : " أجَلِّ" إلى قوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ سقط من : ص .

(٥) النحل : ٩٧ .

عينُ اليقين ، بل هو حقُّ (١) اليقين ؛ ولا بُدَّ لكُلِّ من عمِلَ صالحاً أن يُحيِيَهُ اللهُ حياةً طيبةً بحسب إيمانهِ وعمَلِه .

المراد بالحياة الطيبة وغلط بعض الناس في معناها

ولكنْ يغلطُ الجُفَاةُ الأجلافُ في مُسمَّى الحياةِ الطيِّبة ، حيثُ يظنُّونهَا التَّنعُّمَ في أنواعِ المآكلِ والمَشاربِ والملابسِ والمَناكحِ ، أو لذَّةَ الرِّياسةِ والمالِ ، وقهْرِ الأعداءِ والتَّفَنُّنِ بأنواعِ الشَّهواتِ ، ولا ريبَ أنَّ هذه لذَّةٌ مُشتركةٌ بين البهائمِ ، بل قد يكونُ حظُّ كثيرٍ من البهائمِ منها أكثرَ من حظِّ الإنسانِ ؛ فمن لم تكنْ عنده لذَّةٌ إلا اللذَّةَ التي تُشاركهُ فيها السِّباعُ والدَّوابُ والأنعامُ ؛ فذلك ممَّن يُنادى مِن مكانٍ بعيدٍ (٢) .

ولكنْ أينَ هذهِ اللذَّةُ من اللذَّةِ بأمرٍ إذا خالطَ بشاشةَ القلوبِ سَلا عن الأبناءِ والنِّساءِ ، والأوطانِ والأموالِ ، والإخوانِ والمَساكنِ ، ورضيَ بتركِهَا كُلِّهَا ، والخروجِ منها رأساً ، وعرَّضَ نفسَه لأنواعِ المَكارهِ والمَشاقِّ ، وهو مُتَحَلٍّ بهذا ، مُنشَرحُ الصَّدرِ به ، يَطِيبُ له قتلُ ابنِهِ وأبيهِ ، وصاحِبَتِه وأخيهِ ، لا تأخذُهُ في ذلك لومةُ لائمٍ .

حتى إنَّ أحدَهُم (٣) ليَتلقَّى الرُّمحَ بصدرِهِ ، وهو يقولُ : " فزتُ وربِّ الكعبةِ ".

ويستطيلُ الآخرُ (٤) حياتَه حتى يُلقِي قُوتَهُ من يده ، ويقول : " إنَّها لحياةٌ طويلةٌ إنْ صبَرتُ حتى آكُلَهَا "، ثمَّ يتقدَّم إلى الموتِ فَرِحَاً مسروراً .

ويقولُ الآخرُ (٥) ، مع فقره : " لو علم المُلُوكُ وأبناءُ المُلوكِ ما نحنُ عليه لجَالَدُونا عليه بالسِّيوفِ " .

ويقولُ الآخرُ (٦) : " إنَّه ليَمُرُّ بالقلبِ أوقاتٌ يرقُصُ فيها طَرباً " .

---

(١) في : د : بل حق .

(٢) يُقال للرجل الَّذي لا يفهم الكلامَ : أنت تُنادى من مكانٍ بعيدٍ ، ويُقال للفَهِم المُدرِكِ : إنك تأخذُ الشَّيءَ من قريبٍ . ينظر: معاني القرآن (٢٠/٣) ، وغريب القرآن لابن قتيبة (٣٩٠) ، وتفسير ابن جرير الطبري (٤٥٠/٢٠) ومعاني القرآن للنحاس (٢٨١/٦) .

(٣) هو : حرام بن ملحان رضي الله عنه ، رواه البخاري (٤٠٩٢) ، ومسلم (٦٧٧) .

(٤) هو : عُمير بن الحِمَام رضي الله عنه ، رواه مسلم (١٩٠١) .

(٥) هو : إبراهيم بن أدهم ، وقد أخرجه أبونعيم الأصبهاني في الحلية (٣٧٠/٧) ، والبيهقي في : الزهد (٨١) والخطيب البغدادي في : الزهد (١٣٣) ، وابن عساكر في : تاريخ دمشق (٣٠٣/٦) .

(٦) هو : أبو سليمان الداراني . البداية والنهاية لابن كثير (٢٨٠/١٠) .

وقال بعضُ العَارفين : " إنَّه لتَمُرُّ بي أوقاتٌ ، أقولُ فيها : إنْ كان أهلُ الجنَّةِ في مثلِ هذا إنَّهم لفي عيش طيب " (١) .

المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : إني أظلُّ عند ربي يطعمني

ومن تأمَّلَ قولَ النبي صلى الله عليه وسلم لـمَّا نهاهُم عن الوصالِ ، فقالوا : إنَّك تواصل فقال : ( إنِّي لستُ كهيئتِكُم ، إنِّي أظلُّ عند ربي يُطعمني ويَسقِيني ) (٢) .

عَلِمَ أنَّ هذا طعامُ الأرواحِ وشرابُها ، وما يَفِيضُ عليها من أنواعِ البَهجةِ ، واللذَّةِ والسُّرورِ والنَّعيمِ ، الذي رسولُ الله صلى الله عليبه وسلم في الذُّروةِ العُليا منهُ ، وغيرُه إذا تعلَّقَ بغُبارِهِ رأى مُلْكَ الدُّنيا ونعيمَها بالنِّسبةِ إليه هباءً منثوراً ، بل باطلاً وغُروراً .

غلط من فسر الحديث بالأكل والشرب حقيقةً من وجوهٍ

وغَلِطَ مَن قال : إنَّه كان يأكلُ ويشربُ طعاماً وشراباً يغتذى به بدنُهُ ؛ لوجوهٍ (٣) :

أحدها : أنَّه قال : ( أظلُّ عند ربي يُطعمني ويَسقيني ) ، ولو كان أكلاً وشُرباً لم يكُنْ وصالاً ولا صوماً (٤).

الثَّاني : أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم أخبَرَهُم أنَّهم ليسوا كهيئتِهِ في الوِصَالِ ، فإنَّهم إذا واصلوا تضَرَّروا بذلك ، وأمَّا هو صلى الله عليه وسلم فإنَّه إذا واصَل لا يَتَضرَّرُ بالوصَالِ . فلو كان يأكُلُ ويشربُ لكانَ الجوابُ : وأنا أيضاً لا أواصِلُ ؛ بل آكلُ وأشربُ كما تأكلونَ وتشربونَ ، فلمَّا قرَّرهُم على قولِهم " إنَّك تواصل " ، ولم يُنْكِرهُ عليهم ، دلَّ على أنَّه كان مُواصلاً ، وأنَّه لم يكن يأكلُ أكلاً وشُرباً يُفطِّرُ الصَّائِمَ .

---

(١) في : د ، ص : إنَّهم لفي عيش . ولم أجده ، وقد ذكره المؤلف من غير نسبة في : مدارج السالكين (٦٧/٢ ، ٢٥٩/٣) ، والوابل الصيب (٤٨) .

(٢) رواه البخاري (٧٢٤١) ، ومسلم (١١٠٤) ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٣) ينظر : شرح صحيح مسلم للنووي (٢١٤/٧) ، وجامع المسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٢٢/١) ، وجامع العلوم والحكم لابن رجب (٤٩٩/٢) ، وتفسير ابن كثير (٥١٨/١) ، وفتح الباري لابن حجر (٢٠٤/٤) ، وعمدة القاري للعيني (٧٢/١١) ، وتنوير الحوالك شرح موطأ مالك للسيوطي (٢٢٣/١) .

(٤) قال القرطبي في المفهم (١٢٠/٩) : "ولأن في بعضِ ألفاظِ هذا الخبر : ( إني أظلُّ عند ربي يُطعمني ويسقيني ) و( ظلَّ ) ؛ إنَّما تُقال فيمن فعل الشيءَ نهارًا . و( بات ) فيمن فعله ليلاً ، وحينئذ كان يلزم عليه فساد صومه وذلك باطل بالإجماع " .

الثالث : أنَّه لو كان أكلاً وشُرباً يُفطِّرُ الصَّائِمَ لم يصِحَّ الجوابُ بالفَارِقِ بينهم وبينَه ، فإنَّه حينئذٍ يكون صلى الله عليه وسلم هو وهم مشتركون (١) في عَدمِ الوِصَالِ ، فكيف يصحُّ الجوابُ بقولِهِ : " لستُ كهيئتِكُم " ؟!

وهذا أمرٌ يعلَمُه غالبُ النَّاس أنَّ القلبَ متى حصلَ له ما يُفرِحُهُ ويَسُرُّه من نَيلِ مَطلوبه ووِصَالِ حبيبِهِ ، أو ما يَغمُّه ويسوؤهُ ويُحزِنُه ، شُغِلَ عن الطَّعامِ والشَّرابِ ، حتى إنَّ كثيراً من العُشَّاقِ تَمُرُ به الأيامُ لا يأكلُ شيئاً ، ولا تطلُبُ نفسُه أكلاً .

وقد أفصحَ القائلُ في هذا المعنى (٢) :

لها أحادِيثُ مِن ذِكراك تَشغَلها ... عن الشَّراب وتُلهِيهَا عن الزَّادِ
لها بوجهِك نُورٌ تَستَضيءُ بِهِ ... ومِن حَديثِك في أعقابِها حادِي
إذا اشتَكتْ مِنْ كَلالِ السَّيرِ أوعَدَها ... رَوْحَ القُدومِ فتَحيا عند مِيعادِ (٣)

والمقصودُ أنَّ الهُدى مُستلزمٌ لسعادةِ الدُّنيا ، وطِيبِ الحياةِ ، والنَّعيمِ العاجلِ ، وهو أمرٌ يشهدُ بِهِ الحِسُّ والوَجدُ ، وأمَّا سعادةُ الآخرةِ فغيبٌ يُعلمُ بالإيمانِ ، فذكَرَها ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما (٤) لكونِها أهمَّ ، وهي الغايةُ المَطلوبةُ ، وضلالُ الدُّنيا أظهرُ ، وبالنَّجاةِ منه ينجو مِن كُلِّ شرٍّ ، وهو أصْلُ ضَلالِ الآخرةِ وشقائِهَا / ، فلذلك ذَكَرَهُ وحدَه . [٢١/أ]
والله أعلم .

---

(١) كذا في النسخ الخطية كلها بالرفع ، وهذا له وجه إذ إنَّ كلمة " مشتركون " خبر مرفوعٌ للمبتدأ قبله " هو وهم " .

(٢) البيتان الأولان لإدريس بن أبي حفصة من مخضرمي الدولتين ، ويذكُرُ فيهما إبِلاً ، عزاهما له : أبو الحسن الشمشاطي في : الأنوار ومحاسن الأشعار (١/٤٠٠) ، وأبو هلال العسكري في : ديوان المعاني (١/٦٣) ، والقيرواني في : زهر الآداب وثمر الألباب (٢/٥٥١) ، وعلي بن أبي الفرج البصري في الحماسة البصرية (١/١٥٧) .

والبيت الثالث عزاه البونيني في : ذيل مرآة الزمان (٣/٤٣) لإسماعيل بن إبراهيم التنوخي الدمشقي ، وفيه " ونَّتْ " مكان " اشتكت " ، و " عهد " مكان " رَوْح " .

(٣) وقد تكلَّم المؤلف رحمه حول هذه المسألة في : زاد المعاد (٢/٣٢ ، ٤/٩٣-٩٤) ، ومدارج السالكين (٣/٨٧) والداء والدواء (١٩٧) ، والتبيان في أقسام القرآن (٣٨٢) .

(٤) سبقت ترجمته ص : ٨٧ . والمُراد : أثر ابن عباس رضي الله عنه المتقدم في ص : ١٣٠ : " تكفَّلَ اللهُ لِمنْ قرأَ القرآنَ ، وعمِلَ بمَا فيهِ أنْ لا يَضلَّ في الدُّنيا ، ولا يشقى في الآخرةِ ، ثم قرأ : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ .

# فصل

فصل : الضلال والشقاء في القرآن

وهذان الضلالان ، أعني : الضَّلالَ والشَّقاءَ . يذكرُهما سبحانهُ كثيراً في كلامِهِ ، ويُخبرُ أنَّهما حظُّ أعدائِهِ ، ويذكُرُ ضِدَّهُما . وهما : الهُدى والفلاحُ . كثيراً ، ويُخبرُ أنَّهما حظُّ أوليائِهِ .

أمَّا الأوَّلُ : فكقولِهِ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾(١) ، فالضَّلالُ : الضَّلال والسُّعُرُ هو : الشَّقاءُ والعذابُ ، وقال تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾(٢) .

وأمَّا الثَّاني : فكقولِهِ تعالى في أوَّلِ " البقرة " وقد ذكَرَ المؤمنين وصفاتِهم : ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣) ، وكذلك في أوَّلِ " لُقمان " وقال في " الأنعام " : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾(٤)

أعظم سورة في القرآن واشتمالها على ذكر الهدى والضلال والشقاء

ولمَّا كانت سورةُ أمِّ القرآنِ أعظمَ سورةٍ في القُرآنِ (٥) ، وأفرضَها قراءَةً على الأُمَّةِ (٦) وأجمَعها لكلِّ ما يَحتاجُ إليهِ العبد ، وأعمَّها نفعاً ، ذكرَ فيها الأمرين ؛ فأمرنا أن نقول :

(١) القمر : ٤٧ .

(٢) يونس : ٤٥ .

(٣) البقرة : ٥ .

(٤) الأنعام : ٨٢ .

(٥) كما في حديث أبي سعيد بن المُعَلَّى عند البخاري (٤٤٧٤) وغيرِه ، قال : كنت أصلي في المسجد ، فدعاني رسولُ الله صلى الله عليه و سلم ، فلم أُجبهُ ، فقلت يا رسول الله : إنِّي كنتُ أُصلي ، فقال : ( ألم يقل الله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ، ثم قال لي : لأُعلِّمَنَّكَ سورةً هي أعظم السُّور في القرآن ، قبل أن تخرج من المسجد ثم أخذ بيدي فلمَّا أراد أن يخرجَ قلت له : ألم تقلْ : لأُعلِّمَنَّك سورة هي أعظم سورةٍ في القرآن ؟ قال : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ، هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيم الذي أوتيتُهُ ) .

(٦) كما روى البخاري (٧٥٦) ، ومسلم (٣٩٤) ، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم : ( لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ ) .

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (١)

**فذكرَ الهدايةَ والنِّعمةَ ، وهما الهُدى والفلاحُ ، ثم قال : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (٢) ، فذكرَ المغضوبَ عليهم ، وهم أهلُ الشَّقاءِ ، والضَّالين وهم أهلُ الضَّلالِ وكلٌّ من الطائفتين له الضَّلالُ والشَّقاءُ ، لكنْ ذَكَرَ الوصفَينِ معاً لتكونَ الدَّلالةُ على كلٍّ منهما بصريحِ لفظِهِ .**

**وأيضاً ؛ فإنَّه ذَكَرَ ما هو أظهرُ الوصفَين في كُلِّ طائفةٍ ، فإنَّ الغضبَ على اليهودِ أظهرُ لعنادِهِم الحقَّ بعدَ معرفَتِه ، والضَّلالَ في النَّصارى أظهرُ لغَلبَةِ الجهلِ فيهم ، وقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : ( اليهودُ مغضُوبٌ عليهم ، والنَّصارى ضالُّون ) (٣) .**

---

(١) الفاتحة : ٦ — ٧ .

(٢) الفاتحة : ٧ .

(٣) رواه الترمذي (٢٩٥٣ ، ٢٩٥٤) ، وأحمد (٣٧٨/٤) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه ، وحسّنه الترمذي ، وصححه الألباني في : صحيح سنن الترمذي (٢٠/٣) .

# فصل

فصل : خطاب الله لأبوي الثقلين وهو دليل على أن الجن مأمورون

وقولُه تعالى : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ (١) هو خطاب لمن أهبَطَهُ من الجنَّةِ بقوله :﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (٢) ثم قال : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ .

وكِلا الخطابَين لأبوي الثَّقلين ، وهو دليلٌ على أنَّ الجِنَّ مأمورونَ مَنهيُّونَ ، داخِلون تحتَ شرائعِ الأنبياءِ ، وهذا ممَّا لا خلافَ فيه بين الأمَّةِ ، وأنَّ نَبِيَّنا صلى الله عليه وسلم بُعثَ إليهم كما بُعِثَ إلى الإنس ، كما لا خلافَ بينها أنَّ مُسيئَهم مُستحِقٌّ للعقاب (٣) .

مسألة دخول مسلمي الجن الجنة وأدلة كل فريق

وإنَّما اختلفَتْ علماءُ الإسلام في المسلم منهم ، هل يدخل الجنَّة (٤) ؟

---

(١) طه : ١٢٣ .

(٢) طه : ١٢٣ .

(٣) قال المؤلف رحمه في طريق الهجرتين : " وقد اتفق المسلمون على أن كفَّار الجنِّ في النَّار ، وقد دلَّ على ذلك القرآن في غير موضع" وساق الأدلة ، ثم قال : " وبالجملة فهذا أمرٌ معلومٌ بالاضطرار من دين الإسلام ، وهو يستلزم تكليف الجنِّ بشرائعِ الأنبياءِ ، ووجوب اتباعِهم له " .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في: النبوات (١٠٠٩/٢) : "وقد اتفق العلماءُ على أنَّ كفَّارهم يدخلون النار ، كما أخبر الله بذلك في قوله: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [ الأعراف : ٣٨ ] ، وقال الله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ ص:٨٥ ] ، وقال : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] ، وقال في مجموع الفتاوى (٢٣٣/٤) : " وكذلك لم يتنازعوا أن أهل الكفر والفسوق والعصيان منهم يستحقون لعذاب النار، كما يدخلها من الآدميين " وقال فيه (٣٨/١٩) : "وكافرهم معذب في الآخرة باتفاق العلماء " .

وينظر : النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٠٠٩/٢) ، ومجموع الفتاوى (٢٣٣/٤) ، والفصل لابن حزم (١٤٧/٣) ، والفروع لابن مفلح (٣٦٠/٢) ، وآكام المرجان في أحكام الجانِّ لبدر الدين الشبلي (٦٨) ، وفتح الباري لابن حجر (٣٤٦/٦) .

(٤) ينظر الخلافُ في : العظمة لأبي الشيخ (١٦٩٦/٥) ، وتفسير القرطبي (٢١٨/١٦) ، ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٣٣/٤) ، والنبوات (١٠١٠/٢) ، وطريق الهجرتين للمؤلف (٨٢٩) ، والفروع لابن مفلح (٤٦٠/٢) ، وآكام المرجان للشبلي (٦٨) ، وفتح الباري لابن حجر (٣٤٦/٦) ، وعمدة القاري لابن المنيِّر (١٨٤/١٥) ، وغيرها .

فالجمهورُ على أنَّ مُحسِنَهم في الجنَّة كما أنَّ مُسيئَهُم في النَّار (١).

وقيل : بل ثَوابُهم سلامتُهم من الجحيم ، وأمَّا الجنَّةَ فلا يَدخلُها أحدٌ من أولادِ إبليس (٢) ، وإنَّما هي لبني آدمَ وصالحي ذُرِّيَّتهِ خاصَّةً .

وحُكيَ هذا القولُ عن أبي حنيفةَ رحمه الله تعالى (٣) .

واحتج الأوَّلونَ بوجوه :

أحدُها : هذه الآيةُ ؛ فإنَّه سبحانه أخبرَ أنَّ مَن اتَّبعَ هُداهُ فلا يَخافُ ولا يَحزنُ ، ولا يَضلُّ ولا يشقى ، وهذا مُستلزمٌ لكمالِ النَّعيمِ .

ولا يُقال : الآيةَ إنَّما تَدلُّ على نفي العذابِ فقط ، ولا خلافَ أنَّ مُؤمنيهم لا يُعاقَبُون لأنَّا نقولُ : لو لم تَدُلَّ الآيةُ إلَّا على أمرٍ عَدَمِيٍّ فقط ، لم يكن مَدحاً لمُؤمني الإنس ولمَا كان فيها إلَّا مُجرَّد أمرٍ عَدَمِيٍّ ، وهو عدمُ الخوفِ والحُزن .

ومعلومٌ أنَّ سياق الآيةِ ومقصودها إنَّما أُريدَ به أنَّ مَن اتَّبعَ هُدى اللهِ الذي أنزلَه حصلَ له غايَةُ النَّعيمِ ، واندفَعَ عنهُ غايَةُ الشَّقاءِ ، وعبَّرَ عن هذا المعنى المَطلوبِ بنفي الأُمورِ المَذكُورةِ لاقتِضَاءِ الحالِ لذلك ، فإنَّه لمَّا أُهبِطَ آدمُ من الجنَّةِ حصلَ له من الخوفِ والحُزنِ والشَّقاءِ ما حصلَ ، فأخبرَهُ سبحانه أنَّهُ مُعطيه وذُرِّيتِه عَهداً ، مَن تَبِعَهُ منهم انتفى عنه الخُوفُ والحُزنُ والضَّلالُ والشَّقاءُ .

ومعلومٌ أنَّه لا ينتفِي ذلك كُلُّهُ إلَّا بدخول دارِ النَّعيمِ ، ولكنَّ المَقامَ بذكرِ التَّصريحِ بنفي غايَةِ المَكروهاتِ أولى .

---

(١) وهو مروي عن الضَّحاك ، وإليه ذهب الأئمة : مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم ، والأوزاعي وأبو يوسف وابن أبي ليلى وغيرهم . ينظر : المصادر السابقة .

(٢) رواه ابن جرير عن ابن زيد (١/٥٤٠) ، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن شهاب الزهري (١٣٩٠٠) .

(٣) تقدمت ترجمته ص : ٩٣ .

ويُنظر : الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النعمان لابن نُجيم (٢٨١) . وقد روي عن ليث بن أبي سليم أنَّه قال : " ثوابُ الجنِّ أنْ يُجاروا من النَّارِ ، ثمَّ يُقال لهم : كونوا تُراباً " رواه ابن أبي الدنيا في : الأشراف لابن أبي الدنيا (٢٨٦) ، و هناد بن السري في : الزهد (٤٢٦) ، وروي عن مجاهد ، وأبي الزِّناد ، وبه قال الحسن . ينظر : أعلام النبوة للماوَردي (٢٢١) ، والفصل لابن حزم (١٤٧/٣) وتفسير البغوي (٢٧٠/٧) ، وتفسير القرطبي (١٩/١٦،٥/٢١٧) ،ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام (٤٣٤/٤)،ولقط المرجان في أحكام الجان للسيوطي (١١٨)

الثاني : قولُهُ تعالى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (١) ، فأخبَرَ سبحانهُ عن نذيرِهم إخبَارَ مُقرٍّ له : أنَّ من أجاب داعِيهِ غَفَرَ لهُ وأجارَهُ من العذابِ .

ولو كانت المَغفِرَةُ لهم إنَّما ينالونَ بها مُجرَّدَ النَّجاةِ من العذابِ كان ذلك حاصِلاً بقولِهِ :

﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ، بل تمَامُ المغفِرَةِ دخولُ الجنَّةِ والنَّجاة من النَّار ، فكُلُّ مَن غَفَرَ اللهُ له فلا بُدَّ من دخولِ الجنَّة .

الثَّالثُ : قولُهُ تعالى في الحُورِ العِينِ : ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾(٢) ؛ فهذا يدُلُّ على أنَّ مُؤمني الجنِّ والإنسِ يدخلونَ الجنَّةَ ، وأنَّه لم يسبِقْ مِن أحدٍ منهم طَمْثٌ لأحدٍ من الحُورِ ، فدلَّ على أنَّ مُؤمنِيهِم يتأتَّى منهم طَمْثُ الحُورِ العِينِ بعدَ الدُّخولِ كمَا يتأتَّى من الإنسِ ، ولو كانوا مِمَّن لا يدخلُ الجنَّةَ لمَا حَسُنَ الإخبارُ عنهم بذلك (٣).

الرابع : قولُه تعالى : ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن

(١) الأحقاف : ٢٩ – ٣١ .

(٢) الرحمن : ٥٦ و ٧٤ .

(٣) طريق الهجرتين للمؤلف (٨٤٦) ، وحادي الأرواح (٢٢١) ، وتفسير ابن جرير الطبري (٢٧٢/٢٢) ، وتفسير البغوي (٤٥٤/٧) .

تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (١) .

والجنُّ فمنهم مُؤمنٌ ومنهم كافرٌ ؛ كما قال صالِحُوهم : ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ ﴾ (٢) ، فكما دخَلَ كافِرُهم في الآية الأولى وجَبَ أنْ يدخُلَ مُؤمنُهم في الثانية. الخامس : قوله عن صالحيهم (٣) : ﴿فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ﴾ (٤) والرَّشَدُ هو : الهُدى والفلاح ، وهو الذي يهدي إليهِ القرآنُ ، ومَن لم يَدخُلِ الجنَّةَ لم يَنلْ غايةَ الرُّشدِ ، بل لم يحصل له من الرُّشدِ إلَّا مُجرَّدُ العَدَمِ .

السَّادس : قولُه تعالى : ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾(٥) ، ومُؤمنُهم ممَّن آمـــن بالله ورُســلِــهِ ؛ فيدخُـــلُ في المُبشَّرين ، ويستَحِقُّ البِشَارَة .

السَّابع : قولُه تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾(٦) عَمَّ سبحانه بالدَّعوةِ ، وخصَّ بالهِدَايةِ المُفضِيَةِ إليها ، فمَنْ هَداهُ إليها فهو مِمَّن دعاهُ إليها ؛ فمَنْ اهتَدى مِن الجِنِّ فهو مِن المَدْعُوِّينَ إليها .

الثَّامن : قولُه تعالى : ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ

(١) البقرة : ٢٤ — ٢٥ .
(٢) الجن : ١٤ .
(٣) سقط من : ص ، قولُه " فكما دخل كافرهم" إلى قوله: " قوله عن صالحيهم" .
(٤) الجن : ١٤ .
(٥) الحديد : ٢١ .
(٦) يونس : ٢٥ .

مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ۝ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ۝ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[1] ، وهذا عامٌ في الجنِّ والإنسِ ، فأخبرَ تعالى أنَّ لكُلِّهم درجاتٍ مِن عمَلِهِ ، فاقتضى أنْ يكونَ لمُحْسِنهم درجاتٌ من عمَلِهِ ، كمَا لمُحْسِنِ الإنسِ .

التَّاسع : قولُهُ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2] ، ووجْهُ التَّمسُّك بالآيةِ من وجُوهٍ ثلاثةٍ :

أحدُها : عُمومُ الاسمِ المَوصُولِ فيها [3] .

الثَّاني : ترتيبُهُ الجَزاءَ المَذكُورَ على الصِّلَةِ ؛ ليَدُلَّ على أنَّهُ مُسْتَحَقٌ بها ، وهو قولُ : ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ مع الاستقَامَةِ ، والحُكمُ يَعُمُّ بعُمومِ عِلَّتِهِ ؛ فإذا كان دخولُ الجنَّةِ مُرتَّباً على الإقرارِ باللهِ وربُوبيَّتِه مع الاستقامةِ على أمْرِهِ ، فمن أتى ذلك استَحقَّ الجَزاءَ .

---

(١) الأنعام : ١٢٨ – ١٣٢ .

(٢) الأحقاف : ١٣ – ١٤ . في : ص : " التَّاسع : قولُهُ تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فُصِّلَت: ٣٠] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف :١٤] ووجه التَّمسُّك بالآية ..." .

(٣) الاسمُ الموصولُ : اسم مبهم يَدلُّ على مُعَينٍ بواسطة جملة تُذكر بعده ؛ لتتمِّم معناه وتزيل إبهامه ، وتُسمّى هذه الجملةُ : "صِلةَ الموصول" ، ويُشترَطُ فيها أن تكون جملةً خَبريَّةً مُشتملةً على ضميرٍ بارزٍ ، أو مُستترٍ يعودُ إلى الموصول .

أمالي ابن الشجري (٥٢/٣) ، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام (١٤٣/١) ، وشرح قطر الندى وبلّ الصدى لابن هشام (١٠٠) .

الثَّالثُ : أنَّه قال : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (١) ، فدَلَّ على أنَّ كُلَّ مَن لا خوفٌ عليه ولا حُزْنٌ فهو مِن أهلِ الجنَّةِ .

وقد تقــدَّمَ في أوَّلِ الآيــــاتِ (٢) قولُه تعالى : ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٣) ، وأنَّه مُتناولٌ للفريقينِ ، ودلَّت هذه الآية على أنَّ مَن لا خوفٌ عليه ولا حُزْنٌ فهو من أهلِ الجنَّةِ .

العاشر : أنَّه إذا دخلَ مُسيئهُم النَّارَ بعدلِ اللهِ فدُخولُ مُحسِنهم الجنَّةَ بفضلِهِ ورحمتِهِ أولى ؛ فإنَّ رحمتَه سبقت غضَبَه (٤) ، والفضلُ أغلبُ من العدل .

ولهذا لا يُدْخِلُ النَّارَ إلَّا مَن عملَ أعمالَ اهلِ النَّارِ .

وأمَّا الجنَّةُ فيُدْخِلُها مَن لم يعملْ خيراً قطُّ ، بل يُنشيءُ لها أقواماً يُسكِنُهم إيَّاها من غيرِ عملٍ عمِلُوه (٥) ، ويرفعُ فيها درجاتِ العبدِ من غيرِ سَعيٍ منهُ ، بل بمَا يصلُ إليهِ مِن دُعاءِ المُؤمنين وصلاتِهم وصَدَقَتِهم ، وأعمَالُ البِّرِ التي يُهدونها إليهِ (٦)، بخلافِ أهلِ النَّارِ فإنَّه لا يُعَذَّبُ فيها بغيرِ عَملٍ أصلاً .

---

(١) الأحقاف : ١٤ .

(٢) ص : ١٣٧ .

(٣) البقرة : ٣٨ .

(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( لمَّا قضَى الله الخلقَ ، كتَبَ في كتابِهِ على نفسِهِ ، فهو موضوعٌ عنده : إنَّ رحمتي غلبَتْ غضبي ) رواه البخاري (٣١٩٤) ، ومسلم (٢٧٥١) .

(٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ( تحاجَّت الجنَّة والنَّار ....) إلى أن قال : ( وأمَّا الجنَّةُ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُنشِئُ لها خَلقاً ) رواه البخاري (٤٨٥٠) ومسلم (٢٨٤٦) .

(٦) قرَّرَ المؤلف رحمه الله : وصولَ ثواب الأعمال إلى الميت ، ثم ساق الأدلة من القرآن والسنة والإجماع . الروح (١١٧) وقال العز بن عبد السلام في (الفتاوى) (١٥٣) : " ومن فعل طاعةً لله تعالى ، ثـم أهدى ثوابَها إلى حيٍّ أو ميِّتٍ لم ينتقل ثوابُها إليه، إذ ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ) [النجم:٣٩] ، فإن شرَعَ في الطَّاعةِ ناوياً أن يقع عن الميت لم يقع عنه، إلا فيما استثناه الشرعُ كالصَّدقةِ والحجِّ والصَّومِ ".

وقال ابن كثير في التفسير (٤٦٥/٧) عند قوله عز وجلَّ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم:٣٩] : "أي كما لا يحمل عليه وزر غيره ، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه .

**وقد ثبتَ بنصِّ القرآنِ وإجماعِ الأُمَّةِ أنَّ مُسيءَ الجنِّ في النَّارِ بعدلِ اللهِ ، وبما يكسبون فمُحسنُهم في الجنَّةِ بفضلِ اللهِ بما كانوا يعملون .**

**لكنْ قيل : إنَّهم يكونون في رَبَضِ [١] الجنَّةِ يراهُم أهلُ الجنَّةِ ولا يَرونَهُم ، كما كانوا في الدُّنيا يَرونَ بني آدمَ من حيثُ لا يَرَونَهُم [٢] .**

**ومثلُ هذا لا يُعلَمُ إلَّا بتوقيفٍ تنقطعُ الحُجَّةُ عنده ، فإنْ ثَبَتَتْ حُجَّةٌ يَجبُ اتِّباعُها ، وإلَّا فهو ممَّا يُحكى ليُعْلَم ، وصحَّتُه مَوقُوفةٌ على الدَّليلِ ، والله أعلم .**

---

ومن هذه الآيةِ الكريمةِ استنبَط الشافعي رحمه الله ومَن اتَّبعه ، أنَّ القراءة لا يصلُ إهداءُ ثوابِها إلى الموتى ، لأنَّه ليس من عملهم ولا كسبهم ، ولهذا لم يَندب إليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أمتَه ، ولا حثَّهم عليه ، ولا أرشدَهم إليه بنصٍّ ولا إيماءٍ ، ولم يُنقل ذلك عن أحدٍ من الصَّحابةِ رضي الله عنهم ، ولو كان خيراً لسبقُونا إليهِ ، وبابُ القُربَاتِ يُقتَصَرُ فيهِ على النُّصوصِ ، ولا يُتصرفُ فيهِ بأنواعِ الأقيسَةِ والآراءِ ، فأمَّا الدُّعاءُ والصَّدقةُ ، فذاك مُجمعٌ على وصولِهما، ومنصوصٌ من الشارعِ عليهما ".

(١) الرَّبَضُ : ما حول الشيء ، ونواحيه خارجاً عنه . العين للخليل بن أحمد (٣٦/٧) ، ومقاييس اللغة لابن فارس (٤٧٧/٢) ، ولسان العرب لابن منظور (١٥٢/٧) .

(٢) وهو مروي عن : عمر بن عبد العزيز ، والزُّهري ، والكَلبي ، ومجاهد ، وغيرهم . ينظر : طريق الهجرتين للمؤلف (٨٢٩) ، وتفسير البغوي (١٧٥/٤) ، وتفسير القرطبي (١٨٩/١٩) وفتح الباري لابن حجر (٣٤٦/٦) ، وعمدة القاري لابن المنيِّر (١٨٤/١٥) ، وغيرها .

# فصل

فصل : متابعة هدى الله تصديقُ خبره وامتثالُ أمره

ومُتابَعةُ هُدى الله التي رتَّبَ عليها هذه الأمورَ هي :

ـ تصديقُ خَبرِهِ من غيرِ اعتراضِ شُبهَةٍ تقدَحُ في تصديقِهِ .

ـ وامتثالُ أمرِهِ من غيرِ اعتراضِ شَهوةٍ تمنعُ امتثالَهُ .

وعلى هذين الأصلين مَدارُ الإيمانِ ، وهما : تصديقُ الخبرِ ، وطاعةُ الأمرِ (١).

ويتبَعُهمَا أمرانِ آخرانِ ، وهما :

ـ نفيُ شُبُهاتِ الباطلِ الواردةِ عليه ، المانِعةِ من كمال التصديق ، وأن لا يَخمِشَ بها وجهَ تصديقِهِ .

ـ ودفعُ شهواتِ الغيِّ الواردةِ عليه ، المانِعةِ من كمالِ الامتثال (٢).

فهنا أربعةُ أمورٍ :

أحدُها : تصديقُ الخبرِ .

والثَّاني : بذلُ الاجتهادِ في رَدِّ الشُّبهاتِ التي تُوحيها شياطينُ الجنِّ والأنسِ في مُعارَضتهِ .

والثَّالثُ : طاعةُ الأمرِ .

والرَّابعُ : مُجاهدةُ النَّفسِ في دفعِ الشَّهواتِ التي تَحولُ بين العبدِ وبين كمالِ الطَّاعةِ .

وهذان الأمرانِ ـ أعني الشُّبهاتِ ، والشَّهواتِ ـ أصلُ فسادِ العبدِ وشقائِهِ ، في معاشِهِ ومَعادِهِ .

كمَا أنَّ الأصلين الأوَّلين ، وهما تصديقُ الخبر ، وطاعةُ الأمر أصلُ سعادَتِهِ وفلاحِه في معاشِهِ ومَعادِهِ .

---

(١) ينظر : الصواعق المرسلة للمؤلف (١١٨٥/٣) ، والصلاة وأحكام تاركها للمؤلف (٤٨) ، وقاعدة في المحبة لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٥٥) ، ومجموع الفتاوى (١٤٢/٧) .

(٢) عقد المؤلف رحمه الله فصلاً في هذه المسألة في كتابه : إغاثة اللهفان (١٦٥/٢) فقال : " فصل ، والفتنةُ نوعان : فتنةُ الشُّبهاتِ ، وهي أعظمُ الفتنتَين ، وفتنةُ الشَّهواتِ ، وقد يجتمعان للعبد وقد ينفرد بإحداهما ..."

وذلك أنَّ العبدَ له قوَّتان : قوَّةُ الإدراكِ والنَّظرِ وما يتبَعُها من العلمِ والمَعرفَةِ والكلامِ وقوَّةُ الإرادةِ والحُبِّ وما يتبَعُها من النِّيةِ والعزمِ والعملِ ، فالشُّبهةُ تؤثرُ فساداً في القُوَّةِ العلميَّةِ النَّظريَّةِ ما لم يُداوِهَا بدفعِها ، والشَّهوةُ تُؤثِّرُ فساداً في القُوَّةِ الإرادِيةِ العمَليَّةِ ما لم يُداوِهَا بإخراجِهَا .

قال الله تعالى في حقِّ نبيِّهِ ، يذكُرُ ما مَنَّ بهِ عليه مِن نزاهتِه وطهارته ممَّا يلحَقُ غيرَهُ من ذلك : ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾[(١)] ، فـ ﴿مَا ضَلَّ﴾ دليل على كمَالِ عِلْمِه ومعرفَتِه ، وأنَّهُ على الحقِّ المُبين ، ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ دليلٌ على كمَالِ رُشْدِهِ ، وأنَّهُ أبَرُّ العالَمين ، فهو الكامِلُ في عِلْمِهِ ، الكامِلُ في عَمَلِهِ .

وقد وصفَ صلى الله عليه وسلم بذلك خلفاءَه مِن بعدِهِ ، وأمرَ باتِّبَاعِهم على سُنَّتِهم فقال : ( عليكُم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلفاءِ الرَّاشدِين المَهدِيِّين مِن بَعدي ) رواه الترمذيُّ وغيره [(٢)].

المراد بقوله تعالى (فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم ..)

فالرَّاشِدُ ضدُّ الغاوي ، والمَهديُّ ضدُّ الضَّالِّ ، وقد قال تعالى : ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[(٣)]

(١) النجم : ١- ٢ .

(٢) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه ، وقد رواه الترمذي (٢٦٧٦) وصححه ، وأبو داود (٤٦٠٧) ، وابن ماجه (٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ) ، وأحمد (١٢٦/٤) ، وصححه ابن حبان (٥) ، والحاكم (٩٥/١) ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣٤١/٢ - ٣٤٢) .

(٣) التوبة : ٦٩ .

فذكرَ تعالى الأصلين ، وهما دار الأوَّلين والآخرين :
أحدهُما : الاستمتاعُ بالخَلاقِ ، وهو النَّصيبُ من الدُّنيا ، والاستمتَاعُ بهِ مُتضَمِّنٌ لنَيلِ الشَّهوات المَانِعةِ من مُتابَعةِ الأمرِ ، بخلافِ المُؤمنِ فإنَّهُ وإن نَالَ من الدُّنيا وشَهَواتِها فإنَّه لا يستَمْتِعُ بنصيبهِ كُلِّهِ ، ولا يُذْهِبُ طيِّبَاتِهِ في حياتهِ الدُّنيا ، بل ينالُ منها ما ينالُ ليتَقَوَّى بهِ على التَّزوُّدِ لمَعادِهِ .

والثاني : الخوضُ بالشُّبهاتِ البَاطلةِ ، وهو قوله : ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ [١] وهذا شأنُ النُّفوسِ الباطلةِ التي لم تُخلق للآخرةِ ، لا تَزالُ ساعِيَةً في نيلِ شهواتِهَا ، فإذا نالتها فإنَّما هي في خوضٍ بالبَاطِلِ الذي لا يُجْدِي عليها إلا الضَّررَ العاجلَ والآجلَ [٢].
ومن تمَامِ حِكمَةِ الله تعالى أنَّه يبتَلى هذهِ النُّفوسَ بالشَّقاءِ والتَّعبِ في تحصيلِ مُرادَاتِها وشَهواتِها ، فلا تتفرَّغُ للخوضِ بالباطلِ إلا قليلاً ، ولو تفرَّغَت هذه النُّفوسُ الباطوليَّةُ [٣] لكانت أئمَّةً تدعوا إلى النَّارِ ، وهذا حالُ من تفرَّغَ منها كما هو مُشاهَدٌ بالعيانِ .

---

(١) التوبة : ٦٩ .

(٢) ذكر المؤلف رحمه الله في الصواعق المرسلة (٥١٠/٢) : أنَّ الشُّبهاتِ والشَّهواتِ أصلُ كلِّ فسادٍ ، بعد أن ذكر الأسباب الجالبةَ للتأويل ، ومنها سوءُ فهمِ السامع ، وسوءُ قصدِه،حيث قال :" وإذا تأملت أصولَ المذاهبِ الفاسدةِ رأيت أربابَها قد اشتقوها من بين هذين الأصلين ، وحملهم عليها منافسةٌ في رياسةٍ ، أو مالٍ ، أو توصُّلٌ إلى عرَضٍ من أعراض الدنيا ، تخطبه الآمال ، وتتبَعُه الهِممُ ، وتشرئِبُّ إليه النفوس ؛ فيتفق للعبد شبهةٌ ، وشهوةٌ ، وهما أصلُ كلِّ فسادٍ ، ومنشأُ كلِّ تأويلٍ باطلٍ ، وقد ذمَّ الله سبحانه من اتَّبع الظنَّ وما تهوى الأنفس ، فالظنُّ الشُّبهات ، وما تهوى الأنفس الشَّهوات ، وهما اللذانِ ذكرهما في سورةِ براءة في قوله تعالى : ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [التوبة:٦٩] " .
وينظر : إغاثة اللهفان (٤٤/١ و ١٦٥/٢) ، والصواعق المرسلة ( ١٢١٠/٤) .

(٣) نسبةً إلى الباطل ؛ فهي نفوس تتَّبع الشَّهواتِ والشُّبهاتِ ، أو نسبةً إلى البَطالَةِ وهي : الفراغ من الشيء والعَطَلِ منه إذ فرغت هذه النفوس من الحقِّ ، أو نسبة إلى الضعف في أخذ الدين ، فقد أوهنتها شهواتُها وشُبهاتُها عن أخذ الدين بقوة .
المحكم والمحيط في اللغة لابن سيده (١٧٨/٩) ، ولسان العرب لابن منظور (٥٦/١١) ، وتاج العروس للزبيدي (٨٩/٢٨) .

وسواءٌ كان المعنى : وخُضْتُم كالحزب الذي خاضُوا ، أو كالفريقِ الذي خاضُوا ، فإنَّ " الذي " يكونُ للواحدِ والجمعِ (١) ، ونظيرُهُ قولُه تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) لكنْ لا يَجري على جمعٍ تصحيحٍ ، فلا يجيءُ : " المسلمون الذي جاؤوا " ، وإنَّما يَجيءُ غالباً في اسم الجمعِ ، كالحزبِ ، والفريقِ ، أو حيثُ لا يُذكَرُ المَوصُوفُ ، وإنْ كان جمعاً ، كقولِ الشَّاعرِ (٣) :

إنَّ الذي حانَتْ بفَلْجٍ دمَاؤهم  هُمُ القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالد (٤)

أو حيثُ يرادُ الجنسُ دونَ الواحدِ والعَددِ ، كقولِه تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾(٥) ، ثم قال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ ، ونظيرُه الآيةُ التي نحنُ فيها وهي قولُه : ﴿ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ﴾(٦) .

أو كان المعنى على أنَّ القولَ الآخرَ : " وخُضتم خَوضاً كالخَوْضِ الذي خاضُوا " فيكون صفةً لمَصدرٍ محذوفٍ ، كقولِك : اضربْ كالذي ضَرَبَ / و :أحسِنْ كالذي أحسَنَ ، [٢٣/أ]
ونظائرِه (٧) .

(١) ينظر : أمالي ابن الشجري (٥٦/٣ – ٥٧ ) .
(٢) الزُّمَر : ٣٣ – ٣٤ .
(٣) هو : أشهبُ بن رُمَيلة . ينظر : الجمل في النحو للخليل بن أحمد الفراهيدي (٢٣٥) ، والكتاب لسيبويه (١٨٧/١) ومجاز القرآن لأبي عبيدة (١٩٠/٢) ، والمقتضب للمبرد (١٤٦/٤) ، وسر صناعة الإعراب لابن جنيّ (١٩٠/٢) وأمالي ابن الشجري (٥٧/٣) .
وجاء في البيان والتبيين للجاحظ (٢٨٠/٣) بلفظ : " الأُلـى" مكان " الذي" .
(٤) فَلْجٌ : موضع بين البصرة وضرية ، وهو ما يسمى اليوم : حفر الباطن ، إحدى المحافظات الشمالية في المملكة العربية السعودية . معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع لأبي عبيد البكري (١٠٢٧/٣) ، والجبال والأمكنة والمياه للزمخشري (٢٥٨) ، و " ويكيبيديا " الموسوعة الحرة على الشبكة العكبوتية .
(٥) الزُّمَر : ٣٣ .
(٦) التوبة : ٦٩ .
(٧) ينظر : إعلام الموقعين عن رب العالمين للمؤلف (١٣٦/١) ، وإعراب القرآن المنسوب للزجاج (٣٧٢/٢) .

وعلى هذا فيكونُ العائدُ منصوباً محذوفاً ، وحذفُهُ في مثلِ ذلك قِياسٌ مُطَّرِدٌ [١] .

وعلى القَولَين فقد ذَمَّهُم سبحانه على الخَوضِ بالبَاطلِ واتِّبَاعِ الشَّهواتِ ، وأخبرَ أنَّ مَن كانت هذهِ حالتُهُ فقد حَبِطَ عمَلُه في الدُّنيا والآخرةِ ، وهو من الخاسرين .

ونظيرُ هذا قولُ أهلِ النَّار لأهلِ الجنَّةِ وقد سألُوهم : كيف دَخَلُوها ؟ ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [٢] ، فذكروا الأصلين : الخوضَ بالباطلِ ، وما يتبَعهُ مِن التَّكذيبِ بيومِ الدِّينِ ، وإيثارَ الشَّهواتِ ، وما يستَلزمُهُ مِن تركِ الصَّلواتِ ، وإطعامِ ذوي الحاجاتِ .

فهذان الأصلانِ هما ما هما ، والله ولي التَّوفيق .

---

(١) ينظر : تفسير البغوي (٧١/٤) ، وتفسير القرطبي (٢٠١/٨) ، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (٨٣/٦) ، وفتح القدير للشوكاني (٤٣٣/٢) .

(٢) المدَّثر : ٤٣ – ٤٦ .

# فصل

فصل
المراد بالقلب السليم

والقلبُ السَّليمُ الذي لا ينجو من عذابِ اللهِ إلا من أتى اللهَ به ، هو القلبُ الذي قد سَلِمَ من هذا وهذا (١) ؛ فهو القلبُ الذي قد سَلَّمَ لِرَبِّهِ ، وسَلَّمَ لأمرِهِ ، ولم تبقَ فيه مُنازَعةٌ لأمرِهِ ، ولا مُعارَضةٌ لِخَبرِهِ ، فهو سلِيمٌ ممَّا سِوى اللهِ وأمرِهِ ، لا يُرِيدُ إلا اللهَ ، ولا يفعلُ إلَّا ما أمَرَهُ الله ، فاللهُ وحدهُ غايتُهُ ، وأمرُهُ وشَرعُهُ وسيلتُهُ وطريقَتُهُ ، لا تعترِضهُ شُبهةٌ تَحول بينَه وبين تصديقِ خبَرِهِ ، لكنْ لا تَمرُّ عليهِ إلا وهي مُجْتَازَةٌ تعلمُ أنَّه لا قرارَ لها فيهِ ، ولا شهوَةً تَحولُ بينَهُ وبين متابَعةِ رِضَاهُ .

ومتى كان القلبُ كذلك فهو سليمٌ من الشِّرك ، وسليمٌ من البِدَعِ ، وسليمٌ من الغَيِّ وسليمٌ من الباطل ، وكُلّ الأقوالِ التي قِيلَتْ في تفسيرِه فذلك ينتظمها (٢).

وحقيقته أنَّه القلبُ الذي قد سَلَّمَ لعبُوديَّةِ ربِّه حُبَّاً وخوفاً ورجَاءً ؛ ففَنِيَ بِحُبِّهِ عن حُبِّ ما سِواهُ ، وبِخَوفِهِ عن خَوفِ ما سِواهُ ، وبرجائِهِ عن رَجَاءِ ما سواهُ ، وسَلَّمَ لأمرِهِ ، ولرسُولِه تصديقاً وطاعةً ، كما تقدَّمَ ، واستَسلَمَ لقَضائِه وقَدَرِه فلم يتَّهِمْهُ ، ولم يُنازِعْهُ ، ولم يتَسَخَّطْ لأقْدارِه .

فأسلَمَ لربِّه انقياداً وخُضوعَاً ، وذُلَّاً وعُبُوديَّةً ، وسَلَّمَ جميعَ أحكامِهِ وأقوالِه وأعمَالِه وأذْوَاقِهِ ومَواجِيدِهِ ، ظاهِراً وباطِناً من مِشكَاةِ رسولِه ، وعَرَضَ ما جاءَ مِن سِواهَا عليها فمَا وافقَها قبِلَهُ ، وما خالفَها ردَّهُ ، وما لم يتبيَّن له فيه مُوافقةٌ ولا مُخالفةٌ ؛ وقَفَ أمرَهُ وأرجَأَهُ إلى أنْ يتبيَّن له ، وسالَمَ أولياءَهُ وحِزبَهُ المُفلحين الذَّابِّين عن دِينِه وسُنَّةِ نبيِّهِ القائمينَ بها ، وعادَى أعداءَهُ المُخالفين لكتابهِ وسُنَّةِ نبيِّهِ (٣) ، الخارجين عنهما الدَّاعين إلى خِلافِهِمَا .

---

(١) يشير إلى ما ذكره في نهاية الفصلِ السابق ص : ١٤٨ ، وهو قوله : " فذكروا الأصلين : الخوضَ بالباطلِ ، وما يتبَعهُ مِن التَّكذيبِ بيومِ الدِّينِ وإيثارَ الشَّهواتِ ، وما يستَلزمُهُ مِن تركِ الصَّلواتِ ، وإطعامِ ذوي الحاجاتِ " .

(٢) ينظر : تفسير ابن أبي حاتم (٢٧٨٣/٨ – ٢٧٨٤) ، وتفسير ابن جرير الطبري (٥٩٦/١٧) ، وتفسير ابن كثير (١٤٩/٦) .

(٣) سقط من : ص قولُه : " القائمينَ بها ، وعادَى أعداءَهُ المُخالفين لكتابهِ وسُنَّةِ نبيِّهِ " .

# فصل

فصل
المتابعة : هي التلاوة

**وهذه المُتابَعةُ هي التِّلاوَةُ التي أثنَى اللهُ على أهلِها في قولِهِ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ [(١)] ، وفي قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾[(٢)] ، والمعنى : يتَّبعُون كتابَ اللهِ حقَّ اتِّباعهِ [(٣)] .**

**وقال تعالى : ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾[(٤)] ، وقال : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾[(٥)] .**

**فحقيقةُ التِّلاوةِ في هذه المَواضعِ هي التِّلاوَةُ المُطلَقَةُ التَّامَّةُ ، وهي تِلاوَةُ اللَّفظِ والمعنى فتِلاوَةُ اللَّفظِ جُزءٌ مُسمَّى التِّلاوةِ المُطلَقَةِ ، وحقيقةُ اللَّفظَةِ إنَّما هي الاتِّبَاعُ [(٦)]**

---

(١) فاطر : ٢٩ .

(٢) البقرة : ١٢١ .

(٣) روي عن ابن عباس ، وابن مسعود رضي الله عنهما ، وعن مجاهد وعكرمة وعطاء رحمهم الله ، وغيرهم .
ينظر: تفسير ابن جرير الطبري (٢/٤٨٧ – ٤٩٠) ، وتفسير البغوي (١/١٤٤) .

(٤) العنكبوت : ٤٥ .

(٥) النمل : ٩١-٩٢ .

(٦) قال الراغب الأصفهاني في المفردات (١٦٧) : " والتلاوة تختص باتباع كتب اللّه المنزلة ، تارةً بالقراءةِ ، وتارةً بالارتسام لما فيها من أمرٍ ونهي ، وترغيبٍ وترهيبٍ ، أو ما يتوهم فيه ذلك ، وهو أخصُّ من القِراءةِ ؛ فكُلُّ تِلاوَةٍ قِراءة ، وليس كل قراءةٍ تلاوةً " . وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/١٦٧) : "وكذلك لفظ " التلاوة " فإنها إذا أطلقت في مثل قوله :﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ ، تناولت العمل به كما فسره بذلك الصحابة والتابعون مثل ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم قالوا : يتلونه حق تلاوته يتبعونه حق اتباعه فيحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ويعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، وقيل : هو من التلاوة بمعنى الاتباع كقوله: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾، وهذا يدخل فيه من لم يقرأه ، وقيل : بل من تمامِ قراءتِه أن يفهم معناه ويعمل به ...."

يُقـــال :

اتْـــلُ أثرَ فُلانٍ ، وتَلـــوتُ أثَـــرَهُ وقَفوتُهُ وقَصَصتُـــهُ ، يعنـــي تَبعتُهُ خلفَهُ [١] ، ومنه قولُه تعالى :

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [٢] ، أي : تبعَها في الطُّلوعِ بعدَ غَيْبَتها [٣] ، ويقال : جاءَ القومُ يتلو بعضُهم بعضاً ، أي : يَتْبَعُ.

وسُمِّيَ تالي الكلامِ تالياً ؛ لأنَّه يُتْبِعُ بعضَ الحُروفِ بعضاً ، لا يُخْرِجُهَا جُملةً واحدةً ، بل يُتْبِعُ بعضها بعضاً مُرتَّبةً ، كلَّما انقضَى حرفٌ أو كلمةٌ أتبَعَهُ بِحرفٍ آخرَ وكلمةٍ أُخرى وهذهِ التِّلاوَةُ وسيلةٌ وطريقٌ .

والمقصودُ التِّلاوةُ الحقيَّقيةُ ، وهي تلاوَةُ المعنى واتِّبَاعُهُ ؛ تصديقاً بخَبرهِ ، وائتماراً بأمرِهِ وانتِهَاءً عن نَهيِهِ ، وائتِمَاماً بهِ ، حيثُ ما قادَكَ انقَدْتَ معهُ .

فتلاوةُ القُرآنِ تتنَاولُ تلاوَةَ لفظِهِ ومعناهُ ، وتلاوةُ المَعنَى أشرفُ مِن مُجرَّدِ تِلاوَةِ اللَّفظِ وأهلُها هم أهلُ القرآنِ ، الذين لهم الثَّناءُ في الدُّنيا والآخرةِ ، فإنَّهم أهلُ تلاوَةٍ ومُتابَعةٍ حقَّاً .

---

(١) ينظر : غريب القرآن وتفسيره لليزيدي(٨١) ، وأدب الكاتب لابن قتيبة (٣٣٥) ، وتفسير الطبري (٢/٢٣٠) والخصائص لابن جني (٢/١٣٠) ، وتفسير القرطبي (٢٠/٧٣) ، ولسان العرب لابن منظور (١٤/١٠) .

(٢) الشمس : ١– ٢ .

(٣) وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وهو قول مجاهدٍ وقتادةٍ وعامَّةِ المفسرين .
ينظر : تفسير ابن جرير الطبري (٢٤/٤٣٥) ، وتفسير السمعاني (٦/٢٣٢) ، وتفسير البغوي (٨/٤٣٥) ، وتفسير الرازي (٣١/١٧٤) ، وتفسير القرطبي (٢٠/٧٣) ، وتفسير ابن كثير (٨/٤١٠) .

# فصل

فصل
عقاب الإعراض عن ذكر الله والمراد بالذكر في قوله تعالى ( ومن أعرض عن ذكري ...)

ثمَّ قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾(١) .

لمَّا أخبرَ سبحانه عن حالِ من اتَّبعَ هُداهُ في مَعاشِه ومَعادِه ، أخبرَ عن حالِ من أعرَضَ عنه ولم يَتَّبِعْهُ ، فقال : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ ، أي عن الذِّكرِ الذي أنزلته (٢).

فالذِّكرُ هنا مصدرٌ مُضافٌ إلى الفاعلِ ، ك " قيامي " و " قراءَتي " ، لا إلى المفعولِ وليس المعنى : " ومن أعرضَ عن أنْ يذكُرَني " بل هذا لازمُ المعنى ومُقتَضاهُ من وجهٍ آخرَ سنذكُرهُ (٣).

وأحسنُ من هذا الوجهِ أنْ يُقالَ : الذِّكرُ هنا مُضافٌ إضافةَ الأسماءِ ، لا إضافةَ المَصادرِ إلى مَعمُولاتِها ، والمعنى : " ومن أعرضَ عن كتابِي ولم يَتَّبِعْهُ " ؛ فإنَّ القرآن يُسمَّى ذكراً ، قال تعالى : ﴿ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (٦)

---

(١) طه : ١٢٤ .

(٢) قال المؤلف رحمه الله في : مدارج السالكين (٢/٤٨٠) : " والصحيح : أنه ذكرُه الذي أنزله على رسولِه ، وهو كتابُه ولهذا يقول المعرض عنه : ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه:١٢٥-١٢٦] " . وينظر : جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام للمؤلف (٤٥١) ، والوابل الصيِّب من الكلم الطيب للمؤلف (٤٧) ، وتفسير ابن جرير الطبري (١٦/١٩٢) .

(٣) ينظر في هذه الأوجه : الوابل الصيب من الكلم الطيب للمؤلف (٤٧) ، والصواعق المرسلة (٣/٨٤٥ و ١٥٢٦)

(٤) الأنبياء : ٥٠ .

(٥) آل عمران : ٥٨ .

(٦) القلم : ٥٢ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (٢) .

وعلى هذا ، فإضافتُه كإضافةِ الأسماءِ الجَوامِدِ التي لا يُقصدُ بها إضافةُ العاملِ إلى مَعمُولِهِ ، ونظيرُه في إضافةِ اسم الفاعلِ : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾ (٣) فإنَّ هذهِ الإضافاتِ لم يُقصَدْ بها قَصْدُ الفعلِ المُـتَـجَدِّدِ ، وإنَّما قُصِدَ بها قَصْدُ الوصفِ الثَّابتِ اللازمِ ، وكذلك جَرتْ أوصافاً على أعرفِ المَعارفِ ، وهو اسم الله تعالى في قولِهِ تعالى : ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِي ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (٤) .

---

(١) فصلت : ٤١ .

(٢) يس : ١١ . وفي نسخة : ص : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾ .

(٣) غافر : ٣ .

(٤) غافر : ٢- ٣ .

# فصل

فصل في معنى قوله تعالى ( معيشة ضنكا )

وقولـه تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (١) ، فسَّرها غيرُ واحدٍ من السَّلفِ بعذابِ القبرِ (٢) ، وجعلوا هذه الآيةَ أحدَ الأدلَّةِ الدَّالَّةِ على عذابِ القبرِ .

ولهذا قال : ﴿ وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴾(٣) ، أي : تُترَكُ في العذابِ ، كما تَركتَ العملَ بآياتنا ، فذكرَ عذابَ البرزخِ ، وعذابَ دارِ البَوارِ .

ونظيرُه قولُه تعالى في حقِّ آلِ فرعونَ : ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا ﴾ (٤) فهذا في البرزخ ، ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ ، فهذا في القيامة الكبرى .

ونظيرُه قولُه تعالى : ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾(٥) / ، فقولُ الملائكةِ : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ﴾ المُرادُ به [٢٤/أ] عذابُ البرزخِ ، الذي أوَّلُه يومُ القَبضِ والموتِ .

ونظيرُه قولُه تعالى : ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾(٦)، فهذه الإذاقةُ هي في البَرزخِ ، وأوَّلُها حينَ الوَفاةِ

(١) طه : ١٢٤ .

(٢) تفسير مجاهد (٤٧٦) ، وتفسير عبد الرزاق (٢/٣٨٠) ، وتفسير ابن جرير الطبري (١٦/١٩٦) ، وتفسير ابن أبي حاتم الرازي (٧/٢٤٣٩)

(٣) طه : ١٢٤- ١٢٦.

(٤) غافر : ٤٦ .

(٥) الأنعام : ٩٣ . بداية الورقة (٢٤) في النسخة الأصل من قوله تعالى : ﴿بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ .

(٦) الأنفال : ٥٠ .

فإنَّه مَعطوفٌ على قولِهِ : ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ ، وهو من القولِ المَحذُوفِ مَقُولُه [١] لدلالةِ الكلامِ عليهِ كنظائِرِهِ ، وكلاهُما واقعٌ وقتَ الوفاةِ .

وفي " الصحيح " [٢] عن البَراءِ بن عازبٍ رضي الله عنه [٣] في قوله تعالى : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[٤] ، قال : " نزلت في عذابِ القبرِ " .

والأحاديثُ في عذابِ القبر تكادُ تبلغُ حدَّ التَّواترِ [٥] .

والمقصودُ أنَّ اللهَ سبحانه أخبرَ أنَّ مَن أعرضَ عن ذكرِهِ ، وهو الهُدى الذي من اتَّبَعَهُ لا يَضِلُّ ولا يشقَى ، فإنَّ له مَعيشةً ضنكاً ، وتكفَّل لِمَن حفِظَ عهْدَه أن يُحيِيَهُ حياةً طيبةً ويجزيَهُ أجرَهُ في الآخرة ، فقال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٦] .

---

(١) هكذا في النسخ الخطية كُلِّها ، ولعل الصواب : " هو من المَقولِ المحذوفِ قَوله " ، إذ المراد : أن الملائكة تقول : وذوقوا عذاب الحريق ، فبقي المَقولُ : " وذوقوا " ، وحُذف القول .

(٢) رواه البخاري (١٣٦٩) ، ومسلم (٢٨٧١) .

(٣) أبو عمارة : البراء بن عازِب بن الحارث بن عدي الأنصاري ، الأوسي ، ردَّه النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر وشهد أحدا ، توفي عام : ٧٢ . الاستيعاب لابن عبد البر (١٥٥/١) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٣٦٢/١) والإصابة لابن حجر (٤١١/١) .

(٤) إبراهيم : ٢٧ .

(٥) عقد المؤلف رحمه الله فصلاً في " عـذاب القبر " في كتابه : الروح (٥٢) ، وقـال : " فـأمَّا أحاديثُ عذابِ القبرِ ومسألةُ مُنكَرٍ ونَكِيرٍ فكثيرةٌ ، مُتواتِرةٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم ..." ثم ساق الأدلة .

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (١٤٧/٧) : " وأحاديثُ عذاب القبر كثيرة جداً " .

وقال ابن أبي العز في : شرح العقيدة الطحاوية (٣٩٥) : " وقد تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثبوتِ عذابِ القبرِ ونعيمِه ، لمن كان لذلك أهلا ، وسؤال الملكين " .

وقد ذكر العيني في عمدة القاري في شرح صحيح البخاري (٢٢٤/٦) أن أحاديث عذاب القبر قد رواها أكثر من عشرين صحابياً وصحابيةً ، وقد عدَّهم وذكَرَ من خرّج أحاديثم من الأئمة .

(٦) النحل : ٩٧ .

فأخبر سبحانه عن فلاحِ من تَمسَّك بعهدهِ عِلمَاً ، وعملاً في العاجلةِ بالحياةِ الطَّيِّبةِ وفي الآخرةِ بأحسنِ الجزاءِ ، وهذا بعكسِ مَن له المَعيشةُ الضَّنْكُ في الدُّنيا والبرزخِ ونسيانُه في العذابِ بالآخرةِ .

وقال سبحانه : ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [(١)] ، فأخبر سبحانه أنَّ ابتلاءَه بقرينهِ مِن الشياطين وضلالَه بهِ ، إنَّما كان بسببِ إعراضِهِ وعَشْوهِ عن ذكرهِ الذي أنزلَهُ على رسولهِ فكان عقوبةَ هذا الإعراضِ أنْ قَيَّضَ له شيطاناً يقارِنُه ، فيصُدُّهُ عن سبيلِ ربِّهِ ، وطريقِ فلاحِهِ ، وهو يَحسَبُ أنَّهُ مُهتدٍ ، حتى إذا وافى ربَّهُ يومَ القيامةِ مع قرينِه ، وعاينَ هَلاكَهُ وإفلاسَهُ ، قال : ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [(٢)] .

وكــلٌّ من أعرضَ عن الاهتداءِ بالوحيِّ الذي هو ذِكرُ اللهِ ، فلا بُدَّ أن يقول هذا يومَ القيامة .

فإنْ قيلَ : فهل لهذا عُذرٌ في ضلالِه إذا كان يَحسبُ أنَّه على هُدىً ، كما قال تعالى : ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ؟ .

قيلَ : لا عُذرَ لهذا وأمثالِهِ من الضُّلال الذي منشأُ ضَلالِهم الإعراضُ عن الوحي الذي جاءَ به الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم ، ولو ظنَّ أنَّهُ مُهتدٍ ؛ فإنَّهُ مُفرِّطٌ بإعراضِهِ عن اتِّباعِ داعيَ الهُدى ، فإذا ضلَّ فإنَّما أُتِيَ مِن تفريطِهِ وإعراضِهِ ، وهذا بخلافِ مَن كان ضَلالُهُ لعدمِ بلوغِ الرِّسالةِ ، وعجزِهِ عن الوصولِ إليها ، فذاك له حُكمٌ آخرُ [(٣)] ، والوعيدُ في القرآنِ إنَّما يتناولُ الأوَّلَ ، وأمَّا الثَّاني فإنَّ اللهَ لا يُعذِّبُ أحداً إلَّا بعد إقامةِ الحُجَّةِ عليهِ

---

(١) الزُّخرُف : ٣٦- ٣٧ .

(٢) الزُّخرُف : ٣٨ .

(٣) بيَّن المؤلف رحمه الله في : طريق الهجرتين (٨١٦) أنَّ العذاب يُستحق بسببين: " أحدُهما : الإعراضُ عن الحُجَّةِ وعدمُ إرادةِ العلمِ بها وبموجِبِها . الثاني : العنادُ لها بعد قيامِها ، وتركُ إرادة مُوجبِها .

فالأول : كفرُ إعراضٍ . والثاني : كُفرُ عِنادٍ . وأما كفرُ الجهلِ مع عدمِ قيام الحُجَّةِ ، وعدمِ التَّمكنِ من معرفَتِها فهذا الذي نفى الله التَّعذيبَ عليهِ حتى تقومَ حُجَّتُهُ بالرسلِ ".

**كما قال تعالى :** ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [(١)] ، **وقال تعالى :** ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [(٢)] ، **وقال تعالى في أهلِ النَّارِ :** ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [(٣)] ، **وقال تعالى :** ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [(٤)]
**وهذا كثيرٌ في القرآنِ** [(٥)] .

---

(١) الإسراء : ١٥ .

(٢) النساء : ١٦٥ .

(٣) الزُّخرُف : ٧٦ .

(٤) الزُّمَر : ٥٦ -٥٩ .

(٥) ينظر في مسألةِ من لم تبلغه الدعوة ، والعذرِ بالجهلِ : طريق الهجرتين للمؤلف (٨١٣) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في : شرح العمدة (١/ ٥١) : " أحكام الكفر و التأديب لا تثبتُ إلا بعدَ بلوغِ الرسالةِ ، لا سيما فيما لا يُعلم بمجرَّدِ العقلِ ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ " ثم ساق الأدلة .

# فصل

فصل في معنى قوله تعالى ( ونحشره يوم القيامة أعمى )

وقولُـهُ تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ (١) ، اختُلِفَ فيهِ : هل هو مِن عمى البَصيـرَةِ ، أو من عمى البَصرِ ، والذين قالوا : هو مِن عمَى البَصيرَةِ ، إنَّما حمَلهُم على ذلك قولُه : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) ، وقولُهُ : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (٣) ، وقولُهُ : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ (٤) ، وقولُهُ : ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ (٥) .

ونظائرُ هذا ممَّا يُثبِتُ لهم الرُّؤيَةَ في الآخرةِ ، كقولِه تعالى : ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ (٦) ، وقولِهِ : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (٧) ، وقولِهِ : ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ (٨) ، والذين رجَّحُوا أنَّه مِنْ عمى البَصرِ ، قالوا : السِّياقُ يدُلُّ عليهِ ، لقولِهِ : ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ

(١) طه : ١٢٤ – ١٢٥ .

(٢) مريم : ٣٨ .

(٣) ق : ٢٢ .

(٤) الفرقان : ٢٢ .

(٥) التكاثر : ٦ – ٧ .

(٦) الشورى : ٤٥ .

(٧) الطور : ١٣ – ١٤ .

(٨) الكهف : ٥٣ .

أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴾ (١) ، وهــو لــم يكنْ بَصيراً في كُفرِهِ قَطُّ ، بل قد تبيَّن له حينئذٍ أنَّه كان في الدُّنيا في عمىً عن الحقِّ ، فكيف يقولُ : وقد كنتُ بَصيراً ؟ وكيفَ يُجابُ بقولِهِ : ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ﴾ (٢) .

بل هذا الجوابُ فيه تنبيهٌ على أنَّه من عمى البَصرِ ، وأنَّه جُوزِيَ مِن جنسِ عمَلِهِ ؛ فإنَّه لمَّا أعرضَ عن الذِّكرِ الذي بعثَ الله بهِ رَسُولَهُ ، وعَمِيَتْ عنه بَصيرتَهُ ، أعمَى الله بَصَرَهُ يومَ القيامةِ ، وتركَه في العذابِ كما ترَكَ الذِّكرَ في الدُّنيا ، فجازَاهُ على عمى بَصيرتِهِ عمىً في الآخرةِ ، وعلى تركِهِ ذكرَهُ تَركَهُ في العذابِ .

وقال تعالى : ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا ﴾ (٣) ، وقـد قيلَ في هذه الآيةِ أيضاً : إنَّهم عُميٌ وبُكمٌ وصُمٌ عن الهُدى ، كما قيلَ في قوله : ﴿ وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾(٤) ، قالوا : لأنَّهم يتكلَّمون يومئذٍ ، ويسمَعونَ ويُبصِرون .

ومن نَصَرَ أنَّه العَمى والبَكَمَ والصَّمَمَ المُضادَّ للبَصرِ والسمعِ والنُّطقِ ، قال بعضُهم : هو عمىً وصَمَمٌ وبَكَمٌ مُقيدٌ لا مُطلقٌ ، فهم عُميٌ عن رُؤيةِ ما يسُرُّهُم وسَمَاعِهِ ، وهذا قد رويَ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما (٥) ، قال : " لا يَرونَ شيئاً يَسُرُّهُم " (٦) .

---

(١) طه : ١٢٥ .

(٢) طه : ١٢٥ .

(٣) الإسراء : ٩٧ .

(٤) طه : ١٢٤ .

(٥) تقدمت ترجمته ، ص : ٨٧ .

(٦) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٩٣/١٥) ، وتُنظر الأقوال في : معاني القرآن للنحاس (١٩٧/٤) ، وتفسير الماوَردي (٢٧٥/٣) ، وتفسير البغوي (١٣٢/٥) ، وتفسير ابن عطية (٤٨٦/٣) ، وزاد المسير لابن الجوزي (٥٥/٣) ، وتفسير الرازي (٥١/٢١) ، وتفسير القرطبي (٣٣٣/١٠) ، وغيرها .

وقال آخرون : هذا الحَشرُ حين تتوفاهُم الملائِكةُ يَخرجُون من الدُّنيا كذلك ، فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقفِ قاموا كذلك ، ثمَّ إنَّهم يسمعونُ ويُبصِرونُ فيما بعدُ ، وهذا مروى عن الحسن [١].

وقال آخرون : هذا إنَّما يكونُ إذا دخلوا النَّار ، واستَقرُّوا فيها ، سُلِبُو الأسماعَ والأبصارَ والنُّطقَ حين يقول لهم الربُّ تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[٢] ، فحينئذٍ ينقطعُ الرجاءُ ، وتُبْلَمُ عقولُهم [٣] ، فيصيرونَ بأجمَعِهم عُمياً بُكماً صُماً ؛ لا يُبصرون ولا يسمعون ، ولا ينطِقُون ، ولا يُسمعُ منها إلَّا الزَّفيرُ والشَّهيقُ ، وهذا منقولٌ عن مُقاتل [٤] .

والذين قالوا : المُرادُ به العمى عن الحُجَّةِ ، إنَّما مُرادهم أنَّهم لا حُجَّةُ لهم ، ولم يُريدوا أنَّ لهم حُجَّةً ، بل هم عُميٌ عن الهُدى [٥] ، كما كانوا في الدُّنيا فإنَّ العبدَ يَموتُ على ما عاشَ عليهِ ، ويُبعثُ على ما ماتَ عليهِ .

وبهذا يظهَرُ أَّن الصَّوابَ هو القولُ الآخرُ ، وأنَّه عمى البَصرِ ؛ فإنَّ الكافرَ يعلمُ الحقَّ يوم القيامة عِياناً ، ويُقِرُّ بما كان يَجحدُه في الدُّنيا ، فليسَ هو أعمى عن الحقِّ يومئذٍ .

وفصلُ الخِطابِ أنَّ الحشرَ هو الضَّمُّ والجمعُ [٦] .

---

(١) الحسن البصري ، تقدمت ترجمته ص: ٩١ . وينظر : تفسير البغوي (١٣٢/٥) .

(٢) المؤمنون : ١٠٨ .

(٣) في : د ، ص :" تَبْكَمُ عقولهم " والتَّبليمُ : التقبيح ، أي تُقَبِّحُ تلك العقول التي جاءها الحقُّ فلم تَتْبعه ، ومن ذا تلك الآيات التي فيها لومهم بسبب كفرهم ، كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ ، وغيرها . ينظر: الصحاح للجوهري (١٨٧٤/٥) ، ومقاييس اللغة لابن فارس (٢٧١/١) ،ولسان العرب لابن منظور (٥٣/١٢) .

(٤) تفسير مقاتل (٢٧٣/٢) ، وتفسير البغوي (١٣٢/٥) . وهو :

مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخرساني ، أبو الحسن البلخي ، من أعلام المفسرين ، قال الذهبي : (أجمعوا على تركه ) ، وقال ابن حجر : ( كذَّبوه وهجَروه ، ورُمي بالتَّجسيم ) ، له كتب منها : " التفسير الكبير " و " نوادر التفسير " و " والوجوه والنظائر " وغيرها . توفي عام : ١٥٠هـ .

تاريخ بغداد ، للخطيب : ٢٠٧/١٥ ، ووفيات الأعيان ، لابن خلكان : ١٢٩/٣ ، وسير أعلام النبلاء ، للذهبي : ٢٠١/٧ ، وتقريب التهذيب ، لابن حجر : ٥٤٥ .

(٥) في : د ، ص : " ولم يُريدوا أنَّ لهم حُجَّةً هم عُميٌ عنها ، بل هم عُميٌ عن الهُدى "

(٦) قال الفيروز آبادي : " وهو إخراج الجماعة عن مقرِّهم ، وإزعاجهم عنه إلى الحرب وغيرها ... " وقال : =

**ويراد به تارة الحشر إلى موقفِ القيامةِ ،كقولِ النَّبي صلى الله عليه وسلم : ( إنَّكم محشـورونَ إلى اللهِ حُفاةً عُراةً ) [١] ، وكقولِه تعالى : ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [٢] وكقولِهِ تعالى : ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [٣] ويرادُ به الضَّمُّ والجمعُ إلى دارِ المُستقرِّ ، فحشرُ المُتَّقين : جمعُهُم وضمُّهُم إلى الجنَّةِ وحشرُ الكافرين : جمعُهُم وضمُّهم إلى النَّار .**

**قال تعالى : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [٤] .**

**وقال تعالى : ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [٥] ، فهذا الحشرُ هو بعدَ حشرِهم إلى الموقفِ ، وهو حشرُهم وضمُّهم إلى النَّارِ لأنَّه قد أخبرَ عنهم أنّهم قالوا : ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [٦] ، ثم قال تعالى : ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ الآية ، وهذا الحشر الثَّاني .**

---

" وقد ورد الحشرُ في القرآن على وجهين : **الأول** : الجمع ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي: جُمِعت ، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي : جمعناهم . **والثاني** : بمعنى السَّوقِ والطَّردِ ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ . بصائر ذوي التمييز (٢/٤٦٨ — ٤٦٩) .

وينظر في معاني الحشر : العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (٣/٩٢) ، والصحاح للجوهري (٢/٦٣٠) ، ومقاييس اللغة لابن فارس (٢/٦٦) ، ولسان العرب (٤/١٩٠) والقاموس المحيط للفيروزآبادي (٢/٥٩) .

(١) رواه البخاري (٣٣٤٩) ، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) التكوير : ٥ .

(٣) الكهف : ٤٧ .

(٤) مريم : ٨٥ .

(٥) الصافات : ٢٢ — ٢٣ .

(٦) الصافات : ٢٠ — ٢١ .

**وعلى هذا فهم ما بينَ الحشرِ الأولِ من القُبورِ إلى المَوقفِ ، والحشر الثَّاني : يسمَعونُ ويُبصرونَ ويُجادِلون ويتكلَّمون ، وعند الحشرِ الثَّاني : يُحشرون على وجوههم عُمياً وبُكماً وصُمَّاً .**

**فلكلِّ موقفٍ حالٌ يليقُ بهِ ، ويقتَضيهِ عدلُ الرَّبِّ تعالى وحكمَتُهُ ، فالقرآنُ يُصدِّقُ بعضُهُ بعضاً ، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ (١) .**

---

(١) النساء : ٨٢ .

# فصل

الإرادة باب الوصول إلى العهد والعلم مفتاحه

والمقصودُ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لمَّا اقتَضَتْ حِكمَتُه ورحمتُهُ إخراجَ آدمَ وذُرِّيَّتِه من الجنَّةِ أعاضَهُم أفضلَ منها ، وهو ما أعطاهُم مِن عَهْدِهِ الذي جَعَلَهُ سبباً مُوصِلاً لهم إليه وطريقاً واضحاً بيِّنَ الدَّلالةِ عليه ، من تَمسَّكَ به فازَ واهتدى ، ومن أعرضَ عنه شَقِيَ وغَوى .

ولمَّا كان هذا العَهدُ الكريمُ ، والصِّراطُ المُستقيمُ ، والنَّبأُ العظيمُ لا يُوصَلُ إليهِ أبداً إلَّا من بابِ العلمِ والإرادةِ ؛ فالإرادةُ بابُ الوصولِ إليهِ ، والعِلمُ مِفتاحُ ذلك البابِ المُتوقِّف فتحُهُ عليهِ .

وكمالُ كلِّ إنسانٍ إنَّما يَتِمُّ بهذين النَّوعين : هِمَّة تُرقِّيه ، وعِلْم يُبصِّرُهُ ويَهديهِ ؛ فإنَّ مَراتبَ السَّعادةِ والفلاح إنَّما تَفُوتُ العبدَ مِن هاتين الجهَتَينِ ، أو مِن إحدَاهُما ، إمَّا أن لا يكونَ له عِلمٌ بِها ، فلا يتحرَّكُ في طَلَبِهَا ، أو يكون عالِماً بها ، ولا تنهَضُ هِمَّتُه إليها فلا يزالُ في حضيضِ [1] طبعِهِ محبُوساً ، وقلبُهُ عن كمالِهِ الذي خُلقَ له مَصدُوداً مَنْكوساً قد أسامَ نفسَه مع الأنعامِ راعِياً مع الهَملِ ، واستطابَ لُقَيمَاتِ الرَّاحةِ والبَطالةِ ، واستَلانَ فِراشَ العَجزِ والكَسلِ ، لا كمَن رُفِعَ له عَلَمٌ فشَمَّرَ إليهِ ، وبُورِكَ له في تَفرُّدِهِ في طريقِ طلبِهِ ؛ فلزِمَهُ واستَقَامَ عليه ، قد أبَتْ غَلَباتُ شَوقِهِ إلا الهِجرَةَ إلى اللهِ ورسولهِ ، ومَقَتَتْ نفسُه الرُّفَقاءِ إلا ابنَ سبيلٍ يُرافِقُه في سبيلِهِ .

سعادة العبد بتعلُّق إرادته بإراة خالقه

ولمَّا كانَ كمالُ الإرادةِ بحَسبِ كمالِ مُرادِها ، وشرفُ العلمِ تابعٌ لشرفِ مَعلُومِهِ ، كانت نهايةُ سعادَةِ العبدِ الذي لا سعادَةَ له بدونِهَا ، ولا حياةَ له إلَّا بِها ، أن تكونَ إرادتُهُ مُتعلِّقةً بالمُرادِ الذي لا يبْلَى ولا يَفُوتُ ، وعَزَماتُ هِمَّتِه مُسافرةً إلى حَضرَةِ الحيِّ الذي لا يَموتُ ، ولا سبيلَ له إلى هذا المَطلَبِ الأسنى ، والحظِّ الإوفى إلَّا بالعلمِ المَورُوثِ عن عبدِهِ ورسُولِهِ وخَليلِهِ وحبِيبِهِ الذي بعثَهُ لذلك داعياً ، وأقامَه على هذه الطَّريقِ هَادِياً

---

(١) الحضيض : هو ما سفُلَ من الأرض وانخفض ، ويُطلقُ على : قرار الأرضِ عند سفح الجبل .
ينظر : الصحاح للجوهري(١/١٣٥) ، ومقاييس اللغة لابن فارس (٢/٩) ، ولسان العرب لابن منظر (٧/١٣٦) والقاموس المحيط للفيروزآبادي (٢/٥٠١) .

وجعلَه واسِطَةً بينَهُ وبين الأنامِ ، وداعياً لهم بإذنِهِ إلى دارِ السَّلامِ ، وأبى سبحانه أن يَفتَح لأحدٍ منهم إلا على يديهِ ، أو يقْبلَ من أحدٍ منهم سَعياً إلا أن يكونَ مُبتدئاً منهُ ، ومُنْتَهياً إليهِ ، فالطُّرقُ كُلُّها إلَّا طريقَهُ صلى الله عليه وسلم مَسدودةٌ ، والقلوبُ بأسرِهَا إلا قلوبَ أتبَاعِهِ المُنقَادَةَ إليهِ عن اللهِ مَحبُوسَةٌ مَصدُودةٌ .

فحقٌّ على مَن كانَ في سَعادةِ نفسِهِ سَاعِياً ، وكان قلبُه حيَّاً ، عن اللهِ واعياً ، أن يجعلَ على هذين الأصلينِ مَدارَ أقوالِهِ وأعمالِهِ ،وأن يُصيِّرهُما آخِيَّتَهُ التي إليها مَفزَعُهُ في حياتِهِ .

مقصود المؤلف من وضعه الكتاب : التعريف بشرف العلم والإرادة

فلا جَرَمَ كانَ وَضْعُ هذا الكتابِ مُؤَسَّساً على هاتينِ القاعِدَتين ، ومَقصودُهُ التَّعريفَ بشرفِ هذين الأصلينِ ، وسَمَّيتُهُ : " مِفتاحَ دارِ السَّعادَةِ ومَنشُورَ وَلَايَةِ أهلِ العِلْمِ والإرادَةِ " (١) .

إذْ كانَ هذا مِن بعضِ النُّزُلِ (٢) ، والتُّحفِ التي فتحَ اللهُ بها علَيَّ حين انْقِطَاعِي إليهِ عندَ بيتِهِ ، وإلقائِي نفسي ببَابِهِ مِسكيناً ذَليلاً ، وتعرُّضي لنفحاتِه في بيتِهِ وحولِهِ بُكرةً وأصيلاً فما خابَ مَن أنزلَ بهِ حوائِجَهُ ، وعلَّقَ بهِ آمالَه ، وأصبحَ ببابِهِ مُقيمَا ، وبحِماهُ نَزيلاً .

ولمَّا كان العِلمُ إمامَ الإرادةِ ، ومُقَدَّماً عليها ، ومُفصِّلاً لها ، ومُرشِداً إليها ، قدَّمنا الكلامَ عليه على الكلامِ على المَحبَّةِ .

ثم نُتْبِعُهُ إن شاءَ اللهُ بعدَ الفراغِ منه كتاباً في الكلامِ على المَحبَّةِ (٣) ، وأقسامِها وأحكامِها ، وفوائِدِها ، وثمراتِها ، وأسبَابِها ، وموانِعِها ، وما يُقوِّيها ، وما يُضعِفُها

---

(١) في : د ، ص : ومنشور ولاية العلم والإرادة .

(٢) هو : ما يُعدُّ للضيف من المكانِ الذي ينزل فيه ، والطعامِ والشَّرابِ الذي يحتاج إليهما .
الصحاح للجوهري (١٨٢٨/٥) ، والمحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٤٦/٩) ، ولسان العرب (٦٥٦/١١) .

(٣) وهو كتابه الكبير في المحبة ، وقد ذكره في طريق الهجرتين (١٤٧) ، فقال : "وقد ذكرنا مجموع هذه الطرق في كتابنا الكبير في المحبة الذي ( سميناه المورد الصافي والظل الضافي ) في المحبة وأقسامها وأنواعها وأحكامها وبيان تعلقها بالإله الحق دون ما سواه وذكرنا من ذلك ما يزيد على مائة وجه" ، وذكره في مدارج السالكين في موضعين : أحدهما (٥٤/٢) : "وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة وتوابعها في كتابنا الكبير في المحبة " ، والثاني (٢٠/٣) قال فيه : " وجميعُ طرقِ الأدلةِ عقلاً ، ونقلاً ، وفطرةً ، وقياساً ، واعتباراً ، وذوقاً ، ووَجداً ، تدلُّ على إثباتِ محبةِ العبدِ لربِّهِ والرَّبِّ لعبدِهِ ، وقد ذكرنا لذلك قريباً من مئةِ طريقٍ ، في كتابِنا الكبيرِ في المحبةِ ، وذكرنا فيه فوائدَ المحبةِ " . =

**والاستدلالِ بسائرِ طُرقِ الأدلَّةِ من العقلِ والنَّقلِ والفطرَةِ والقِياسِ والاعتِبَارِ والذَّوقِ والوَجْدِ على تعلُّقِها بالإلهِ الحقِّ الذي لا إله غيرهُ ، بل لا ينبغي أن تكون إلَّا له ، ومن أجلهِ ، والرَّدِّ على من أنكرَ ذلك ، وتبيينِ فسادِ قولِهِ عقلاً ونقلاً ، وفطرةً وقياسَاً ، وذَوْقَاً ووَجْدَاً (١) .**

خاتمة مقدمة المؤلف

**فهذا مضمونُ هذهِ التُّحفَةِ ، وهذه عرائسُ معانيها الآن تُجْلَى عليكَ (٢) ، وخَوْدُ (٣) أبكَارِهَا البديعةِ الجَمالِ تَرفُلُ في حُلَلِهَا ، وهي تُزَفُّ إليك ، فإمَّا شمسٌ منازِلُها بسعدِ الأسعَدِ (٤) ، وإمَّا " خَوْدٌ تُزَفُّ**

---

وهو غير كتابِه المشهورِ باسمِ ( روضةُ المحبين ونُزهة المشتاقين ) ، إذ هذا الكتاب لم يذكر فيه المؤلف مئةَ وجهٍ لإثباتِ المحبةِ . وينظر : ابن القيم حياته وآثاره للشيخ بكر أبو زيد (١٩٤ - ١٩٥) .

(١) الذوق عند الصوفية : نورٌ يقذفه الحقُّ بتجليه في قلوب أوليائه ، يفرقون به بين الحق والباطل ، من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو سُنَّة أو غيرهما ! ينظر : الرسالة القشيرية (٧٢) ، والتعريفات للجرجاني (١٤٤) ، والمعجم الصوفي للحنفي (١٠٠) ، ومعجم المصطلاحات الصوفية لأنور أبي خزام (٨٧) ، والمصادر العامة للتلقي عند الصوفية لصادق سليم صادق (٥٣٨) وما بعدها .

والوجد عند الصوفية : هو ما يصادفُ القلبَ ، ويرِدُ عليه بلا تكلفٍ وتصنعٍ ، وقيل : هو عبارة عن حالةٍ يُثمرها السماعُ ، وهو واردُ حقٍ جديدٍ عقيب السماع ، يجدهُ المستمع من نفسه ، وتلك الحالة لا تخلو عن أمرين : فإنها إما أن ترجع إلى مُكاشفات ، ومُشاهداتٍ ، من قبيل العلومِ والتَّنبيهات ، وإما أن ترجع إلى تغيرات ، وأحوال ليست من العلوم ، بل هي كالشوق والخوف والحزُن والقلق والسرور والأسف والندم .

ينظر : إحياء علوم الدين ، للغزالي (٢/٢٩٣)، والمعجم الصوفي للحفني (٢٥٧) ، والمصادر العامة للتلقي عند الصوفية لصادق سليم صادق (٦١٩) ، وما بعدها .

(٢) أي : تُعرض عليك مكشوفةً ، واضحةً ، جَلِيَّةً ، وتنظر إليها ، وأصلُ "الجلو" : انكشاف الشيء وظُهوره وبروزُهُ . العين للخليل بن أحمد (٦/١٨٠) ، والصحاح للجوهري (٦/٢٣٠٤) ، ومقاييس اللغة لابن فارس (١/٤٦٨) .

(٣) الخَوْدُ هي : الفتاة الشَّابَّة الناعِمةُ البيضاءُ . العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (٤/٢٩٤) ، والصحاح للجوهري (٢/٤٧٠) ، ولسان العرب لابن منظور (٣/١٦٥) .

(٤) سعد الأسعد : أحد مواقع النجوم الثمانية والعشرون المحاذية لمنازل القمر ، واسمه : سعد السُّعود ، ومطلعه إلى الجنوب ، فهو من المنازل اليمانية ، وسُمِّي بذلك لأن وقتَ طلوعِهِ انحسار الحرِّ ، واعتدال الجوِّ ، وابتداء الأمطار واخضرار الأرض ، وكثرة النَّبتِ ، والمؤلف رحمه الله كنَّى به عن التفاؤلِ بالسَّعد الذي سيجنيه الناظر في كتابه . ينظر: العين للخليل بن أحمد (١/٣٢١) ، والأزمنة والأمكنة للمرزوقي (١٤٤) ، وتاج العروس للزبيدي (٨/١٩٥).

إلى ضَريرٍ مُقْعَدِ " (١) ، فاختَرْ لنفسِكَ إحدى الخُطَّتين (٢) ، وأنْزِلها فيما شِئتَ مِن المَنزِلَتين ، ولا بُدَّ لكُلِّ نعمَةٍ من حاسدٍ ، ولكُلِّ حقٍّ مِن جاحِدٍ ومُعاندٍ .

هذا وإنَّه مع أنَّه ما أودع (٣) من المعاني والنَّفائسِ رَهْنٌ عند مُتأمِّلِهِ ومُطالِعِهِ ، له غُنْمُه وعلى مُؤَلِّفِهِ غُرْمُه ، وله ثَمرتُه ومنفعتُه ، ولصَاحِبِهِ كَدُّهُ ومَشقَّتُه ، مع تعرُّضِهِ لمَطاعنِ الطَّاعنين ، ولاعتراضِ المُناقِشين .

وعَرضِهِ بضاعتَه (٤) المُزجاةَ ، وعقلَه المَكدُودَ على عقولِ العالَمين ، وإلقائِهِ نفسَهُ وعِرضَهُ بين مَخالبِ (٥) الحاسدين ، وأنيابِ البُغاةِ المُعتدين .

فلك أيُّها القارئُ صَفْوُهُ ، ولِمُؤلِّفه كَدرُهُ ، وهو الذي تجشَّمَ غِراسَهُ وتعَبَهُ ، ولك ثَمَرُهُ وها هو قد استُهدِفَ لسِهامِ الرَّاشِقين ، واستعذرَ إلى الله من الزَّلَلِ والخطأِ ، إلى عبادِهِ المُؤمنين . اللهمَّ ، فعِياذاً بك مِمَّن قَصُرَ في العِلمِ والدِّين بَاعُهُ ، وطالتْ في الجهلِ وأذى عبادِكَ ذِرَاعُهُ ، فهو لجهلهِ يرى الإحسانَ إساءَةً ، والسُّنَّةَ بدعَةً ، والعُرفَ نُكرَاً ولظُلْمِهِ يَجزي بالحَسَنةِ سيِّئةً كامِلةً ، وبالسَّيئةِ الواحدةِ عَشراً .

قد اتَّخذَ بَطْرَ الحقِّ ، وغَمْضِ النَّاسِ سُلَّمَاً إلى ما يُحبُّهُ ويرضَاهُ ، ولا يعرفُ من المعروفِ ولا يُنكِرُ مِن المُنكرِ إلا ما وافقَ إرادَتَهُ ، أو خالفَ هواهُ .

يستطيلُ على أولياءِ الرَّسول وحِزبِهِ بأصغَريْهِ (٦) ، ويُجالسُ أهلَ الغَيِّ والجَهالةِ ويزاحِمُهم برُكبَتَيهِ ، قد ارتوى مِن مَاءٍ آجِنٍ ، وتضَلَّعَ ، واستشرَفَ إلى مَراتِبِ وَرثَةِ الأنبياءِ

(١) شطر بيت للحسين بن أحمد بن الحجاج البغدادي ، قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٦٠/١٧) : "شاعرُ العصرِ ، وسفيهُ الأدباء ، وأمير الفُحش " ثم قال : " كان شيعياً رقيعاً ، ماجِناً ، مزَّاحاً ، هجَّاءاً ، أمةً وحدَهُ في نظمِ القبائحِ ، وخِفَّةِ الرُّوحِ " . وينظر البيت في : التمثيل والمحاضرة لأبي منصور الثعالبي (١١٨) ، المنتحل له (١٥٨) ، ويتيمة الدهر له (٦٠/٣) .

(٢) الخُطَّةُ هي : الحال ، والأمر . ينظر : الصحاح للجوهري (١١٢٣/٣) ، ولسان العرب لابن منظور (٢٩٠/٧) .

(٣) في : د ، ص : " هذا وإنَّه مع ما أودع " .

(٤) في : ص : وعرضه هي بضاعته .

(٥) في : ص : مخاليب .

(٦) الأصغران هما : القلب واللسان . ينظر : الزاهر في معاني كلمات الناس لابن الأنباري (٢٣٨/٢) ، والمخصص لابن سيده (١٥٠/٤) ، ولسان العرب لابن منظور (٤٥٨/٤)

وتطلَّعَ يركُضُ في ميدانِ جهلِهِ مع الجاهلين ، ويبرُزُ عليهم في الجهَالةِ / فيظنُّ أنَّه من السَّابقين ، وهو عندَ اللهِ ورسولِهِ والمؤمنين عن تلكَ الوراثَةِ النَّبويَّةِ بمَعزِلٍ ، وإذا نزلَ الورَثَةُ مَنازلَهُم منها ؛ فمَنزِلتُهُ منها أقصى وأبعدَ منزِلٍ . [٢٦/أ]

نَزَلُوا بِمكَّةَ في قبائِلِ هَاشِمٍ ونَزَلْتَ بالبَيداءِ أبعدَ مَنزِلِ (١)

وعياذاً بك ممَّن جعلَ المَلامَةَ بضاعتَهُ ، والعَذْلَ نصيحتَهُ ، فهو دائماً يُبدي في المَلامَةِ ويُعيد ، ويُكرِّرُ على العَذْلِ فلا يُفيد ولا يَستَفيد .

بل عِياذاً بك من عدوٍّ في صورةِ ناصحٍ ، ووَلِيٍّ في مِسلاخِ بعيدٍ كاشِحٍ ، يجعلُ عداوتَهُ وأذاهُ حَذَراً وإشفاقاً ، وتنفيرَهُ وتَخذيلَهُ إسعافاً وإرفَاقاً ، وإذا كانت العينُ لا تكادُ على هؤلاء تَفتَحُ ، والميزانُ بهم يَخفُّ ولا يَرجَحُ ، فما أحرى اللبيبَ بأن لا يُعيرَهُم مِن قلبِهِ جزءاً من الالتِفَاتِ ، ويُسافر في طريقِ مَقصِدِه بينهم سَفرةُ إلى الأحياءِ بين الأمواتِ .

وما أحسنَ ما قال القائِلُ (٢):

وفي الجَهلِ قبل الموت موت لأهلِهِ وأجسامُهُم قبلَ القُبُورِ قُبورُ
وأرواحُهم في وَحشَةٍ مِنْ جُسُومِهِم وليسَ لهُم حتَّى النُّشورِ نُشورُ

اللهمَّ فلك الحمد ، وإليك المُشتكى ، وأنتَ المُستعانُ ، وبك المُستغاثُ ، وعليكَ التُّكلانُ ، ولا حولَ ولا قُوَّة إلَّا بكِ ، وأنتَ حسبُنا ونِعمَ الوَكيل .

فلنَشرعِ الآن في المَقصودِ بحولِ اللهِ وقُوَّتِهِ ، فنقولُ :

---

(١) في أمالي القالي (٢٠٢/١) : قال أنشدني : عبيد الله بن إسحاق بن سلام :

نزلتُ بمكّة في قبائلِ نوفلٍ ونزلتَ خلفَ البئرِ أبعدَ منزلِ

ومن غير نسبة في : طبقات الفقهاء للشيرازي (١٢٤) ، والأنساب للسمعاني (٢٠٥/١٣) ، والعاقبة في ذكر الموت لعبد الحق الإشبيلي (١٧٧) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٤٥/١) ، والبداية والنهاية لابن كثير (٤/١٢) وفيها : " نوفل " مكان : "هاشم " .

(٢) أحدُ شعراءِ البصرة ، من أهلِ عصرِ المَاوَرْديِّ كما ذكر في : أدب الدنيا والدين (٣٧) ، وفي التفسير (١٦٣/٢) ونسبهما ياقوت الحموي في : معجم الأباء (١٩٥٦/٥) للماوردي . ومن غير نسبة في تفسير السمعاني (١٤١/٢) وتفسير الرازي (١٧٧/٢) ، وفيها كلّها اختلاف في شطر البيت الثاني ، حيث جاء فيها:

" وإن امرءاً لم يَحيَ بالعلمِ ميتٌ ".

# الأصلُ الأولُ

## في العلمِ وفضلِه وشرفِه

## وبيانِ عُمومِ الحاجةِ إليه

## وتوقُّف كمال العبدِ ونجاته في معاشهِ ومعادِه عليه

فضل العلم وشرفه وشدَّة الحاجة إليه

قال الله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1] .

بيان فضل أهل العلم في هذه الآية من عشرة أوجه

استشهدَ سبحانه بأولي العلمِ على أجَلِّ مَشهودٍ عليه ، وهو توحيدُهُ ، فقال : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ .

وهذا يدُلُّ على فضلِ العِلمِ وأهلِه مِن وُجوهٍ :

أحدُها : استشهادُهم دون غيرهم مِن البَشرِ .

والثَّاني : اقترانُ شهادَتِهم بشهادِته .

والثَّالثُ : اقترانُها بشهادةِ ملائكتِهِ .

والرابعُ : أنَّ في ضِمنِ هذا[2] تزكيتَهم وتعديلَهم ؛ فإنَّ الله لا يَستَشهِدُ من خَلقِه إلا العُدولَ ، ومنه الأثَرُ المَعروفُ عن النبي صلى الله عليه وسلم :( يحملُ هذا العلمَ مِن كلِّ خَلَفٍ عُدولُهُ يَنْفُون عنهُ تَحرِيفَ الغَالينَ ، وانتِحَالَ المُبْطِلينَ )[3] .

---

(١) آل عمران : ١٨ .

(٢) " هذا " سقطت من : ص .

(٣) في : د ، زيادة :" وتأويلَ الجاهِلينَ " .

رواه الطبراني في مسند الشاميين (٣٤٤/١) ، والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٢٨/١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وابن عدي في الكامل (٣١/٣) من حديث ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما . والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٩/١٠) ، وابن عبد البر في التمهيد (٥٩/١) كلاهما عن : إبراهيم بن عبد الرحمن العذري ، وقال الهيثمي في المجمع (١٤٠/١) : " رواه البزار وفيه : خالد بن عمرو القرشي كَذَّبه يحيى بن معين ، وأحمد بن حنبل ، ونسبه إلى الوضع " ، وضعفه ابن عدي في الكامل (٣٢/٣) ، وذكره العُقيلي في الضعفاء (١٠/٢) ، وقال الألبانيُّ في مِشكاة المصابيح (٨٢/١-٨٣) : " مرسل ؛ لأن إبراهيم بن =

**وقال محمد بن أحمد بن يَعقوبَ بن شيبة [١] : رأيتُ رجلاً قدَّمَ رجلاً إلى إسماعيلَ بن إسحاقَ القاضي [٢] ، فادَّعى عليه دَعوى ، فسألَ المُدَّعى عليهِ ، فأنكرَ فقال للمُدَّعي : ألكَ بيِّنَةٌ ؟ قال : نعم ، فلانٌ وفلانٌ ، قال [٣] : أمَّا فلانٌ فمِن شُهُودي وأمَّا فلانٌ فليس من شُهودي ، قال [٤] : فيَعرِفُهُ القاضيُّ ؟ قال : نعم . قال : بماذا ؟ قال : اعرفُهُ بكَتْبِ الحديثِ ، قال : فكيفَ تعرفُهُ في كَتْبِهِ ؟ قال : ما علمتُ إلَّا خيراً ، قال : فإنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " يحملُ هذا العِلمَ مِن كُلِّ خَلفٍ عُدُولَهُ " ، فمَنْ عدَّلَهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أولى مِمَّن عدَّلْتَهُ أنتَ ، فقال : فقُمْ فهاتِهِ ، فقَد قَبِلْتُ شهادَتَهُ [٥] . وسيأتي إن شاءَ اللهُ الكلامُ على هذا الحديثِ في موضعهِ [٦] .**

**الخامسُ : أنَّه وصَفهُم بكونِهم أُولي العلمِ ، وهذا يدُلُّ على اختصاصِهم بهِ ، وأنَّهم أهلُه وأصحابُه ، ليسَ بمُستَعارٍ لهم .**

**السَّادسُ : أنَّه سبحانه استشهدَ بنفسِه ، وهو أجلُّ شاهدٍ ، ثمَّ بخيارِ خلقِه ، وهم ملائكتُه ، والعلماءُ من عبادِهِ ، ويكفي بهذا فضلاً وشَرَفاً .**

---

عبد الرحمن العذري هذا ، تابعي مقل ، كما قال الذهبي ، وراويه عنه معان بن رفاعة ، وليس بعمدة ، لكنَّ الحديث قد رُوي مَوصولاً من طريق جماعة من الصَّحابة ، وصحَّحَ بعضَ طُرقه الحافظ العلائي في بُغية الملتمس " .

وقد جمع المؤلف رحمه الله طرق هذا الحديث ، كما سيأتي في ص : ٤٨٤ .

(١) محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة بن الصلت بن عصفور السدوسي ، سمع من جده الحافظ يعقوب ، وعلي بن حرب ، وغيرهما ، عُمِّر طويلا ، وتوفي عام : ٣٣١ هـ .

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٢٤٨/٢) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣١٢/١٥) ، وشذرات الذهب لابن العماد (١٧٥/٤) .

(٢) إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الجهضمي الأزدي ، القاضي ، ولي قضاء بغداد والمدائن والنهروانات ، من أئمة المالكية في العراق ، كثير التصانيف ، ومنها : أحكام القرآن ، شواهد الموطأ ، المبسوط في الفقه ، توفي عام : ٢٨٢ هـ . تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٢٧٢/٧) ، وترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض (٢٧٨/٤) ، والديباج المذهب لابن فرحون (٢٨٢/١) .

(٣) القاضي : إسماعيل بن إسحاق .

(٤) يعني : المدعي .

(٥) أخرجها الخطيب البغدادي في : شرف أصحاب الحديث (٢٩) .

(٦) سيأتي في ص : ٤٨٤ .

السَّابعُ : أنَّه استشهدَ بهم على أجلِّ مَشهودٍ بهِ ، وأعظمَهُ ، وأكبَرِه ، وهو شهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا هو ، والعظيمُ القدرِ إنَّما يَستَشهِدُ على الأمرِ العظيمِ أكابِرَ الخلقِ وسادَاتِهم .

الثَّامنُ : أنَّه سبحانه جعَلَ شهادَتَهُم حُجَّةً على المُنكِرينَ ، فهم بمَنزِلَةِ أدلَّتهِ وآياتهِ وبراهينِه الدَّالَّةِ على توحيده .

التَّاسعُ : أنَّه سبحانه أفردَ الفعلَ المُتَضمِّنَ لهذهِ الشَّهادةِ الصَّادرةَ مِن ملائكتِهِ (١) ومنهم ولمْ يعطِفْ شهادتَهُم بفعلٍ آخرَ غيرَ شهادَتهِ ، وهذا يدُلُّ على شدَّةِ ارتباطِ شهادَتِهم بشهادَتِه ، فكأنَّه سبحانه شَهدَ لنفسِه بالتَّوحيدِ على ألسنتِهم ، وأنطَقَهُم بهذه الشَّهادةِ فكان هو الشَّاهدَ بها لنَفسِهِ إقامةً وإنطاقاً وتعليماً ، وهم الشاهدونَ بها لهُ إقراراً واعترافاً وتصدِيقاً وإيماناً .

العاشر : أنَّه سبحانه جعلَهُم مُؤدِّين لحقِّهِ عندَ عبادِه بهذهِ الشَّهادةِ ، فإذا أدَّوها فقد أدَّوا الحقَّ المَشهُودَ بهِ ، فثبت الحقُّ المَشهودُ به ، فوجبَ على الخلقِ الإقرارُ بهِ ، وكان في ذلك غاية سعادَتِهم في مَعاشِهم ومَعادِهم ، وكُلُّ مَن نَالَه (٢) هُدىً بشهادَتِهم ، وأقَرَّ بهذا الحقِّ بسبَبِ شهادَتِهم ، فلهم مِثلُ أجرهِ ، وهذا فضلٌ عظيمٌ لا يُدرِكُ قَدْرَهُ إلَّا اللهُ وكذلكَ كُلُّ مَن شَهِدَ بها عن شهادَتِهم فلهُم مِن الأجرِ مثلُ أجرِهِ أيضاً .

فهذهِ عَشرةُ أوجهٍ في هذهِ الآيةِ .

نفي التسوية بين أهل العلم وغيرهم

الحادي عشر (٣) في تفضيلِ العلمِ وأهلِهِ : أنَّه تعالى نفَى التَّسويَةَ بين أهلِهِ وغيرهم كما نفَى التَّسويةَ بينَ أصحابِ الجنَّةِ وأصحابِ النَّارِ ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى

---

(١) في : د ، ص : الصادرة منه ومن ملائكته .

(٢) في : ص : ما ناله .

(٣) في : ص : الوجه الحادي عشر . وقد ذكر المؤلف عشرة أوجه في فضل العلم من الآية : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ . ثم بدأ بالوجه الحادي عشر في فضل العلم وأهله .

﴿ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (١) ، كما قال تعالى : ﴿ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ ﴾(٢) ، وهذا يدُلُّ على غايةِ فضلِهم وشَرَفِهم .

أهل الجهل بمنزلة العُميان

الوجهُ الثَّاني عشَرَ : أنَّه سبحانهُ جعلَ أهلَ الجهلِ بمَنزلةِ العُميانِ الذين لا يُبصرون فقال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ ﴾ (٣) ، فما ثَمَّ إلا عالمٌ أو أعمى ، وقد وصفَ سبحانه أهل الجهلِ بأنَّهم صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ في غير موضعٍ مِن كتابهِ .

أهل العلم يرون ما أُنزل إليهم من ربهم حقاً

الوجهُ الثَّالثَ عشَرَ : أنَّه سبحانه أخبرَ عن أولي العلمِ بأنَّهم يَرونَ ما أُنزِلَ إليهِ مِن ربِّهِ حقَّاً وجعَلَ هذا ثناءً عليهم ، واستشهاداً بهم ، فقال تعالى : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ ﴾ (٤) .

أمر الله بسؤال أهل العلم

الوجهُ الرَّابعَ عشَرَ : أنَّه سبحانه أمَرَ بسؤالِهم ، والرُّجوعَ إلى أقوالِهم ، وجعلَ ذلك كالشَّهادةِ منهم ، فقال : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾(٥) ، وأهلُ الذِّكرِ هم أهلُ العلمِ بما أُنزِلَ على الأنبياء .

استشهاد الله بهم على صحة ما أنزل على رسوله

الوجهُ الخامسَ عشَرَ : أنَّه سبحانه شَهِدَ لأهلِ العلمِ شهادةً في ضِمْنِها الاستشهادُ بهم على صحَّةِ ما أنزَلَ الله على رسولِهِ ، فقال تعالى : ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾ (٦) .

---

(١) الزُّمَر : ٩ .

(٢) الحشر : ٢٠ .

(٣) الرعد : ١٩ .

(٤) سبأ : ٦ .

(٥) النحل : ٤٣ .

(٦) الأنعام : ١١٤.

تسلية الله نبيَّه بإيمان أهل العلم به

**الوجهُ السَّادسَ عشَـرَ** : أنَّه سبحانه سلَّى نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم بإيمانِ أهلِ العلمِ بهِ وأمَرَهُ أن لا يعبأَ بالجاهلينَ شيئاً ، فقال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ (١) ، وهذا شرفٌ عظيمٌ لأهلِ العلمِ ، وتحتَــهُ أنَّ أهلَهُ العــالِمونَ قــد / عَرفــوهُ ، وآمنـــوا بهِ ، وصدَّقُـــوا ، فسواءٌ آمنَ بهِ غيرُهم أو لا . [٢٧/أ]

كتاب الله آيات بينات في صدور أهل العلم

**الوجــهُ السابعَ عشَرَ** : أنَّه سبحانه مدحَ أهلِ العلمِ ، وأثنى عليهم ، وشرَّفَهم بأن جعلَ كتابَهُ آياتٍ بيِّناتٍ في صُدورِهم ، وهذه خاصَّةٌ ومَنْقَبَةٌ لهم دونَ غيرهم ، فقال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (٢) .

وسواءٌ كان المعنى : أنَّ القرآنَ مُستقرٌ في صُدورِ الذين أُوتوا العلمَ ، ثابتٌ محفوظٌ فيها وهو في نفسِهِ آياتٌ بيِّنَاتٌ ، فيكونُ أخبرَ عنه بخَبرينِ :

أحدهما : أنَّه آياتٌ بيِّناتٌ .

الثَّاني : أنَّه مَحفوظٌ ، مستقرٌ ، ثابتٌ في صُدورِ الذين أُوتوا العلمَ .

أو كان المعنى : أنَّهُ آياتٌ بيِّنَاتٌ في صُدورِهم ، أي : كونُه آياتٍ بيِّناتٍ معلومٌ لهم ثابتٌ في صُدورِهم (٣) .

والقولانِ مُتلازمانِ ، ليسا بمُختَلفين .

وعلى التَّقديرين : فهو مدحٌ لهم ، وثناءٌ عليهم في ضِمنهِ الاستشهادُ بهم ، فتأمَّلهُ .

---

(١) الإسراء : ١٠٦ – ١٠٨ .

(٢) العنكبوت: : ٤٧ – ٤٩ .

(٣) ينظر : تفسير ابن جرير الطبري (٤٢٦/١٨) ، وتفسير البغوي (٢٥٠/٦) ، وتفسير ابن الجوزي (٤١٠/٣) .

أمر الله نبيَّه أن يسأله مزيداً من العلم

**الوجــهُ الثَّامِــنَ عَشَــرَ** : أنَّه سبحانه أمَــرَ نبيَّه أنْ يسألَهُ مَزيــدَ العلمِ ، فقال تعالى : ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾(١) ، وكفى بهذا شرفاً للعلمِ أنْ أمرَ نبيَّهُ أن يسأَلَهُ المَزيدَ منهُ .

إخبار الله عن رفعة درجات أهل العلم

**الوجــهُ التَّاسِــعَ عَشَــرَ** : أنَّه سبحانه أخبرَ عن رِفعَةِ دَرَجَاتِ أهلِ العلمِ والإيمانِ خاصةً فقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾(٢) .

مواضع رفعة الدرجات الواردة في القرآن

وقد أخبرَ سبحانه في كتابِهِ برفْعَةِ الدَّرجاتِ في أربعةِ مَواضِعٍ :

**أحــدُهـا** : هذا .

**والثَّانــي** : قولُه : ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ (٣) .

**والثَّـالــثُ** : قولــه تعــالى : ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾ (٤) .

**والرَّابــع** : قولُه تعالى : ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا دَرَجَٰتٖ﴾(٥) .

---

(١) المجادلة : ١١ .

(٢) المجادلة : ١١ .

(٣) الأنفال : ٢ – ٤ .

(٤) طه : ٧٥ .

(٥) النساء : ٩٥ – ٩٦ . واختلف في المراد بالدرجات هنا ، وقد ساقها المؤلف في طريق الهجرتين (٧٠٥) ثم قال : " والصحيح أنَّ الدرجاتِ هي المذكورةُ في حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه ، الذي رواه البخاري في صحيحه (٢٦٣٧) ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : " من آمن باللهِ ورسولهِ ، وأقامَ الصلاةَ ، وصامَ رمضانَ ، =

**فهذه أربعةُ مواضعٍ في ثلاثةٍ منها الرِّفعةُ بالدَّرجاتِ لأهلِ الإيمانِ ، الذي هو العلمُ النَّافعُ [(١)] ، والعملُ الصَّالِحُ ، والرَّابع : الرِّفعةُ بالجهادِ ؛ فعادت رِفعةُ الدَّرجاتِ كُلُّها إلى العلمِ والجهادِ اللذَين بهما قِوامُ الدِّينِ .**

استشهاد الله بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار

**الوجهُ العشرون : أنَّه سبحانه استَشهَدَ بأهلِ العلمِ والايمانِ يومَ القيامةِ على بُطلانِ قولِ الكفارِ ، فقال تعالى :** ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [(٢)] .

---

فإن حقاً على اللهِ أن يُدخله الجنةَ هاجر في سبيلِ الله ، أو جلسَ في أرضهِ التي وُلِدَ فيها ، قالوا : يا رسول الله ، أفلا نُخبر الناسَ بذلك ؟ قال: إنَّ في الجنةِ مائةَ درجةٍ ، أعدَّها الله للمجاهدين في سبيله ، كلُّ درجتين كما بين السماءِ والأرضِ ، فإذا سألتُم الله ، فاسألوه الفردوسَ ؛ فإنه أوسطُ الجنة ، وأعلى الجنة وفوقُه عرشُ الرحمن ، ومنه تفجَّر أنهارُ الجنةِ " ينظر في المراد بالدرجات : تفسير الطبري : ٣٧٦/٧ ، وأحكام القرآن للجصاص : ٢٢٧/٣ وتفسير القرطبي : ٣٤٤/٥ ، وتفسير ابن كثير : ٣٨٨/٢ .

(١) ذكر المؤلفُ رحمه الله طبقات المُكلَّفين يوم القيامة ، فقال : " الطبقة الرابعة :ورثةُ الرسلِ وخلفاؤُهم في أمَمِهم وهم القائمون بما بُعثوا به عِلماً وعملاً ، ودعوةً للخلق إلى الله ، على طريقِهم ومنهاجِهم ، وهذه أفضلُ مراتبِ الخلقِ بعد الرِّسالةِ والنبوةِ ، وهي مرتبةُ الصِّديقيةِ " طريق الهجرتين (٦٩١) .
ثم ذكر : " الطبقة السادسةُ : المجاهدون في سبيلِ اللهِ ، وهم جُنْدُ اللهِ ، الذين يُقيمُ بهم دينَهُ ، ويدفعُ بهم بأسَ أعدائِه ويحفظُ بهم بَيضَةَ الإسلامِ ، ويَحمي بهم حَوزةَ الدِّين ، وهم الذين يُقاتلون أعداءَ اللهِ ؛ ليكون الدينُ كلُّه للهِ ، وتكون كلمةُ اللهِ هي العُليا ، قد بذلوا أنفسَهم في محبةِ الله ، ونصرِ دينِه ، وإعلاءِ كلمتِه ، ودفعِ أعدائِهِ ، وهم شُركاءُ لكلِّ مَن يحمُونَه بسيوفِهم ، في أعمالهم التي يعملُونَها ، وإن نأت ديارُهم ، ولهم مِثلُ أجورِ مَن عَبَدَ اللهَ بسبب جهادِهم ، وفُتوحِهم فإنَّهم كانوا هم السَّببَ فيه " طريق الهجرتين (٧٠٠) .
(٢) الروم : ٥٥ – ٥٦ .

اختصاصُ أهل العلم بأنهم أهل خشيةِ الله

الوجهُ الحادي والعشرون : أنَّه سبحانه أخبرَ أنَّهم أهلُ خَشيَتِهِ ، بل خصَّهُم من بينِ النَّاسِ بذلك ، فقال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (١) . وهذا حصرٌ لخشيَتِهِ في أُولي العلمِ .

وقال تعالى : ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ (٢) .

وقد أخبرَ أنَّ أهلَ خشيتِهِ همُ العلماءُ ، فدلَّ على أنَّ هذا الجزاءَ المَذكورَ للعلماءِ بمجموعِ النَّصَّين .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه :" كفى بخشيةِ اللهِ علماً ، وكفى بالاغترارِ باللهِ جهلاً " (٣)

انتفاع أهل العلم بالأمثال التي ضربها الله لعباده

الوجهُ الثاني والعشرون : أنَّه سبحانه أخبرَ عن أمثالِه التي يَضربُها لعبادِهِ ، يدلُّهم على صحَّةِ ما أخبرَ بهِ : أنَّ أهلَ العلمِ هم المُنتفعونَ بها ، المُختصونَ بعلمِها ، فقال تعالى : ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ (٤) .

وفي القرآن بضعةٌ وأربعونَ مَثَلاً (٥) .

وكان بعضُ السلفِ رضي الله عنهم إذا مَرَّ بمَثَلٍ لا يعرفه يبكي ويقول : لست من العالمين (٦) .

---

(١) فاطر : ٢٨ .

(٢) البينة : ٨ .

(٣) تقدمت ترجمة ابن مسعود رضي الله عنه ، ص : ٨٧ . والأثر رواه ابن المبارك في الزهد (١٥) ، وأحمد في : الزهد (١٣٠) ، وابن أبي شيبة في : مصنفه (١٠٤/٧) ، والطبراني في الكبير (١٨٩/٩) ، والبيهقي في الإيمان (٢٠٤/٢) ، وإسناده ضعيف ، إذ القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود لم يسمع من جدِّه عبد الله بن مسعود ، ولم يدركه . ينظر : مجمع الزوائد للهيثمي (١٥٧/٢ – ١٥٨، ٢١٠/٥) .

(٤) العنكبوت: ٤٣ .

(٥) جمع المؤلف رحمه الله تلك الأمثال الواردة في القرآن الكريم ، في كتابه : إعلام الموقعين عن رب العالمين (١١٦/١) .

(٦) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٠٦٤/٩) عن عمرو بن مُرَّة ، قال : " ما مررتُ بآيةٍ في كتاب اللهِ لا أعرفها إلا أحزنني ، لأني سمعتُ الله يقول : ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ " ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٩٥/٥) .

مناظرة إبراهيم لأبيه وقومه وغلبته بالحجة

**الوجهُ الثَّالثُ والعشرون** : أنَّه سبحانه ذكرَ مُناظرةَ إبراهيمَ لأبيهِ وقومهِ ، وغلبَتَهُ لهم بالحُجَّةِ ، وأخبرَ عن تفضيلهِ بذلك ، ورَفعهِ درجتَهُ بعلمِ الحُجَّةِ ، فقال تعالى عَقيبَ مُناظرتِهِ لأبيهِ وقومهِ ، في سورةِ الأنعامِ : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [1] .

قال زيدُ بن أسلمَ رضي الله عنه [2] : " نرفعُ درجاتٍ من نشاءُ بعلمِ الحُجَّةِ " [3] .

علم العباد بربهم وعبادته هو الغاية من الخلق والأمر

**الوجهُ الرابعُ والعشرون** : أنَّه سبحانه أخبرَ أنَّه خلقَ الخلقَ ، ووضعَ بيتَه الحرامَ والشَّهرَ الحرامَ ، والهَدْيَ ، والقلائدَ ؛ ليعلَمَ عبادُه أنَّه بكلِّ شيءٍ عليمٌ ، وعلى كُلِّ شيءٍ قديرٌ ، فقال تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [4] ؛ فدلَّ على أنَّ علمَ العبادِ بربِهم ، وصفاتِهِ ، وعبادَتِهِ وحدَهُ ، هو الغايةُ المَطلوبةُ من الخَلْقِ والأمرِ .

أمر أهل العلم بالفرح بما هو خير مما يجمع الناس

**الوجهُ الخامسُ والعشرون** : أنَّ الله سبحانه أمرَ أهلَ العلمِ بالفَرحِ بمَا آتاهُم ، وأخبرَ أنَّه خيرٌ مِمَّا يَجمعُ النَّاسُ ، فقال تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [5] ، وفُسِّرَ " فضلُ اللهِ " بالإيمانِ ، و" برحمتُهُ "بالقرآنِ [6] .

---

(١) الأنعام : ٨٣ .

(٢) أبو عبد الله : زيد بن أسلم القرشي العدوي العُمري المدني ، فقيه من العلماء العاملين ، له تفسير رواه عنه ابنه عبد الرحمن . توفي عام : ١٣٦ هـ . حلية الأولياء (٣/٢٢١) ، وتذكرة الحفاظ للمزي (١٠/١٢) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٥/٣١٦) .

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/١٣٣٥ ، ٧/٢١٧٧) .

(٤) الطلاق : ١٢ .

(٥) يونس : ٥٨ .

(٦) في : د ، ص : ورحمَتُهُ بالقرآن . وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة وزيد بن أسلم ، وغيرهم ، ينظر : تفسير عبد الرزاق (٢/١٧٦) ، وتفسير ابن جرير الطبري (١٢/١٩٦) وتفسير ابن أبي حاتم (٦/١٩٥٩) .

والإيمانُ والقرآنُ هما العلمُ النَّافعُ ، والعملُ الصالحُ ، والهُدى ودينُ الحقِّ ، وهما أفضلُ علمٍ وأفضلُ عملٍ .

شهادة الله لمن آتاه العلم بأنه قد آتاه خيراً كثيراً

الوجهُ السَّادسُ والعشرون : شهِدَ [١] لِمَن آتاهُ العِلمَ بأنَّهُ قد آتاهُ خيراً كثيراً ، فقال تعالى : ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [٢] ، قال ابن قُتيبةَ [٣] والجُمهورُ : الحكمَةُ إصابةُ الحقِّ والعملَ بهِ ، وهي العلمُ النَّافعُ ، والعملُ الصَّالحُ .

أجلُّ نِعم الله على رسوله أن آتاه الكتاب وعلَّمه ما لم يكن يعلم

الوجهُ السابعُ والعشرون : أنَّه سبحانه عدَّدَ نِعمهُ ، وفضلَهُ على رسولِهِ ، وجعلَ مِنْ أجَلِّها أنْ آتاهُ الكتابَ والحكمةَ ، وعلَّمَه ما لم يكنْ يعلم ، فقال تعالى : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [٤].

أن الله ذكَّرَ عبادَه بنعمة التعليم

الوجهُ الثامنُ والعشرون : أنَّه سبحانهُ ذكَّرَ عبادَه المُؤمنينَ بهذه النِّعمةِ ، وأمَرهُم بشُكرِهَا وأنْ يذكرُوهُ على إسدائِها إليهم ، فقال تعالى : ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [٥].

قصة آدم وبيان فضل العلم فيها

الوجهُ التاسعُ والعشرون : أنَّه سبحانهُ لمَّا أخبرَ ملائكتَهُ بأنَّه يُريدُ أنْ يجعل في الارضِ خليفةً ، قالوا له : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ

---

(١) في : د ، ص زيادة : أنَّه سبحانه شهد .

(٢) البقرة : ٢٦٩ .

(٣) تقدَّمت ترجمة ابن قتيبة ، ص : ٩١ . وينظر :غريب القرآن لابن قتيبة (٣٢) ، وتفسير ابن جرير الطبري (٨/٥) وتفسير الماوردي (١/١٣٥) ، وتفسير البغوي (١/٣٤٤) ، وتفسير القرطبي (٣/٣٣٠) .

(٤) النساء: ١١٣ .

(٥) البقرة : ١٥١ – ١٥٢ .

عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (١) ، إلى آخرِ قصَّةِ آدمَ وأمرِ الملائكةِ بالسُّجودِ لآدمَ ، وإباءِ إبليسَ ، ولعْنِهِ وإخراجِهِ مِن السَّماءِ .

بيان فضل العلم في قصة آدم من وجوه

وبيانُ فضلِ العلمِ من هذهِ القصَّةِ ، مِن وجُوهٍ :

أحدُها : أنَّه سبحانهُ ردَّ على المَلائكةِ لمَّا سألوهُ : كيفَ يَجعلُ في الأرضِ مَن هم أطوعُ لهُ منهِ ؟ فقال : ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، فأجابَ سؤالَهُم : بأنَّهُ يعلمُ مِن بواطِنِ الأمورِ ، وحقائِقِها ما لا يعلمونَهُ ، وهو العليمُ الحكيمُ ، فظهرَ مِن هذا الخليفَةُ مِن خِيارِ خلقِهِ ، ورُسلِهِ ، وأنبيائِهِ ، وصالحي عبادِهِ ، والشُّهداءِ ، والصِّدِّيقينَ ، والعلماءِ وطَبقاتِ أهلِ الإيمان ، مَنْ هو خيرٌ مِن الملائكةِ ، وظهرَ مِن إبليسَ مَنْ هو شرُّ العالمين فأخرَجَ سبحانهُ هذا وهذا ، والملائكةُ لمْ يكنْ لها عِلمٌ لا بهذا ، ولا بهذا ، ولا بمَا في خَلْقِ آدمَ ، وإسكانهِ الأرضَ مِن الحِكمِ البَاهِرَةِ .

الثاني : أنَّه سبحانه لمَّا أرادَ إظهارَ تفضيلِ آدمَ ، وتَمييزَهُ ، فضَّلَهُ ومَيَّزهُ عليهم بالعلمِ فعلَّمهُ الأسماءَ كُلَّها ، ثمَّ عرَضَهم على المَلائكةِ ، فقالَ : ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (٢) .

جاءَ في التَّفسيرِ (٣) :أنَّهم قالوا : لن يخلُقَ ربُّنا خَلقاً هو أكرمُ عليهِ مِنَّا ، فظنُّوا أنَّهم خيرٌ وأفضلُ مِن الخليفةِ الذي يجعلُهُ الله في الأرضِ ، فلمَّا امتحَنَهُم بعِلمِ ما علَّمَهُ لهذا الخليفَةِ ، أقرُّوا بالعجزِ ، وجهلِ ما لم يعلَمُوهُ ، فقالوا : ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا

---

(١) البقرة : ٣٠ - ٣١ .

(٢) البقرة : ٣١ .

(٣) رواه سعيد بن منصور في سننه ، ح (١٨٥) ، وابن جرير الطبري في تفسيره (٤٩٢/١) ، وفي تاريخه (٦٨/١) وابن أبي حاتم في تفسيره (٨٣/١) عن أبي العالية ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم .

عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (١) ، فحينئذٍ أظهرَ لهم فضلَ آدمَ ، بمَا خصَّهُ بهِ من العِلمِ ، فقال : ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ ﴾ (٢) ، أقرُّوا لهُ بالفضلِ .

الثَّالثُ : أنَّه سبحانهُ لمَّا أن عرَّفهُم فضلَ آدمَ بالعلمِ ، وعجزَهم عن معرفةِ ما علَّمهُ قال لهم : ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾(٣) ، فعرَّفَهُم سبحانهُ نفسَه بالعلمِ ، وأنَّه أحاطَ عِلماً بظاهِرِهم وباطنِهم وبغيبِ السَّمواتِ والأرضِ ؛ فتعرَّفَ إليهم بصفة العِلمِ ، وعرَّفَهم فضلَ نبيِّهِ ، وكليمِهِ بالعلمِ وعَجزَهُم عمَّا آتاهُ آدمَ من العِلمِ ، وكفى بِهذا شَرفاً للعلمِ .

الرابعُ : أنَّه سبحانهُ جعلَ في آدمَ مِن صفاتِ الكمالِ ، ما كان به أفضلَ مِن غيرِهِ مِن المَخلوقاتِ ، وأرادَ سبحانهُ يُظهر لملائكتهِ فضْلَه وشرَفَهُ ؛ فأظهرَ لهم أحسنَ ما فيهِ وهو علْمُهُ ، فدلَّ على أن العِلمَ أشرفُ ما في الإنسانِ ، وأنَّ فضلَهُ وشرَفَهُ إنَّما هو بالعلمِ .

الوجه الثلاثون إظهارُ فضلِ يوسفَ بالعلم لا بالصورة الحسية

ونظيرُ هذا ما فعَلهُ بنبيِّهِ يوسفَ عليهِ السَّلامُ لمَّا أرادَ إظهَارَ فضلِه وشرفِهِ على أهلِ زمانهِ كُلِّهم ، أظهرَ للمَلِكِ ، وأهلِ مصرَ مِن عِلمِهِ بتأويلِ رُؤيَاهُ ما عَجَزَ عنهُ عُلماءِ التَّعبيرِ فحينئذٍ قدَّمَهُ ، ومكَّنَهُ ، وسلَّم إليهِ خَزائِنَ الأرضِ ، وكان قبلَ ذلك قَدْ حَبَسَهُ على ما رآهُ مِن حُسْنِ وجْهِهِ ، وجمَالِ صُورتِهِ ، ولمَّا ظهَرَ لهُ حُسنُ صُورةِ عِلْمِهِ ، وجمَالُ معرفَتِهِ أطلَقَهُ مِن الحَبسِ ، ومكَّنَهُ في الأرضِ ، فدَلَّ على أنَّ صُورةَ العِلْمِ عندَ بني آدمَ أبهَى وأحسَنَ مِن الصُّورةِ الحِسيَّةِ ، ولو كانت أجمَلَ صُورةٍ .

وهذا وجهٌ مُستَقلٌّ في تفضيلِ العلمِ ، مُضافٌ إلى ما تَقَدَّمَ ، فتَمَّ به ثلاثُونَ وجهَاً .

---

(١) البقرة : ٣٢ .

(٢) البقرة : ٣٣ .

(٣) البقرة : ٣٣ .

ذمَّ الله أهلَ الجهل في مواضع كثيره من كتابه

**الوجهُ الحادِي والثلاثون : أنَّه سبحانَه ذمَّ أَهلَ الجهلِ في مَواضِعَ كثيرةٍ مِن كتابِه :**

**فقالَ تعالى :** ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (١) .

**وقال :** ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢) .

**وقال تعالى :** ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٣) ، **فلَمْ يَقتصرْ سبحانهُ على تشبيهِ الجُهَّالِ بالأنعامِ ، حتى جعَلَهم أضلَّ سبيلاً مِنْهم .**

**وقال :** ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤) ، **أخبرَ أنَّ الجُهَّالَ شرُّ الدَّوَابِّ عنْدَهُ ، على اختِلافِ أصنَافِهَا مِنْ الحميرِ ، والسِّبَاعِ ، والكِلابِ والحشَرَاتِ ، وسائرِ الدَّوَابِّ ، فالجُهَّالُ شرٌّ منهم . وليسَ على دِينِ الرُّسُلِ أضرُّ مِن الجُهَّالِ ، بل هم أعداؤُهُم على الحقيقة .**

**وقالَ تعالى لنَبِيِّهِ ، وقَدْ أعَاذَهُ :** ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٥) .

**وقالَ كلِيمُهُ موسى عليهِ الصلاةُ والسلامُ :** ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٦)

**وقالَ لأوَّلِ رُسُلِهِ نوحٍ عليهِ السلامُ :** ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٧) .

**فهذهِ حَالُ الجاهِلِينَ عِنْدَهُ ، والأوَّلُ حالُ أهلِ العِلمِ عِندَهُ .**

---

(١) الأنعام : ١١١ .

(٢) جاءت في تسعة مواطن : الأنعام : ٣٧ ، الأعراف : ١٣١ ، الأنفال : ٣٤ ، يونس : ٥٥ ، القصص : ١٣ و ٥٧ ، الزمر : ٤٩ ، الدخان : ٣٩ ، الطور : ٤٧ .

(٣) الفرقان : ٤٤.

(٤) الأنفال : ٢٢ .

(٥) الأنعام : ٣٥ .

(٦) البقرة : ٦٧ .

(٧) هود : ٤٦ .

وأخبرَ سبحانَهُ عن عقُوبَتِهِ لأعدَائِهِ أنَّهُ مَنَعَهُم عِلْمَ كِتَابِهِ ومعرِفَتَهُ وفِقهَهُ ، فقالَ تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ (١) .

وأمرَ نَبِيَّهُ بالإعرَاضِ عَنهُم ، فقال : ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ (٢) .

وأثنى على عِبَادِهِ بالإعرَاضِ عَنهُم ومُتَارَكَتِهِم ، كما في قوله : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ (٤) .

وكُلُّ هذا يدُلُّ على قُبْحِ الجهلِ عِندَهُ ، وبُغضِهِ للجَهلِ وأهلِهِ ، وهو كذلك عندَ النَّاسِ فإنَّ كُلَّ أحَدٍ يَتَبَرَّأُ مِنهُ وإنْ كانَ فيهِ .

العلم حياة ونور والجهل موت وظلمة

الوجهُ الثَّاني والثَّلاثُونَ : أنَّ العِلمَ حياةٌ ونورٌ ، والجهلَ موتٌ وظلمةٌ ، والشَّرُّ كلُّه سبَبُهُ عدمُ الحياةِ والنُّورِ ، والخيرُ كلُّهُ سبَبُهُ النُّورُ والحياةُ ، فإنَّ النُّورَ يَكْشِفُ عَنْ حقائِقِ الأشيَاءِ ، ويُبَيِّنُ مراتِبَهَا ، والحياةُ هي المُصحِّحَةُ لصِفَاتِ الكَمَالِ ، الموجِبَةُ لتسديدِ الأقوالِ والأعمالِ .

وكلمَّا تصرَّفَ مِن الحياةِ فهوَ خيرٌ كلُّهُ ؛ كالحياءِ الذي سبَبُهُ كمالُ حياةِ القَلبِ ، وتصوُّرُهُ حقيقةَ القُبحِ ونَفرتُهُ مِنهُ ، وضدُّهُ الوقاحةُ والفُحشُ ، وسبَبُهُ موتُ القَلبِ وعدمُ نَفرَتِهِ مِن القبيحِ . وكالحَيَا ، الذي هوَ المطرُ ، الذي بِهِ حياةُ كلِّ شيءٍ (٥) .

---

(١) الإسراء : ٤٥ – ٤٦ .

(٢) الأعراف : ١٩٩ .

(٣) القصص : ٥٥ .

(٤) الفرقان : ٦٣ .

(٥) ينظر : المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٣٩٨/٣) ، ولسان العرب لابن منظور (٢١١/١٤) .

**قال تعالى :** ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (١) ، **كانَ مَيْتًا بالجهلِ ، فأحْيَاهُ بالعِلْمِ** (٢) ، **وجعلَ لَهُ مِن الإيمَانِ نُوراً يمشِي بِهِ في النَّاسِ .**

**وقــال تعــالى :** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (٣) .

**وقــالَ تعــالى :** ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (٤) .

**وقالَ تعالى :** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٥) ؛ **فأخبــرَ أنَّــه رُوحٌ تَحصُلُ بِهِ الحياةُ ، ونورٌ يَحصُلُ بِهِ الإضاءَةُ والإشراقُ ، فجَمَعَ بينَ الأصْلَين** (٦) **: الحياةِ ، والنُّورِ .**

**وقالَ تعالى :** ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (١) .

---

(١) الأنعام : ١٢٢ .

(٢) في : ص : كان ميتا بالجهلِ ، فلهُ حياةٌ بالعلمِ .

(٣) الحديد : ٢٨ — ٢٩ .

(٤) البقرة : ٢٥٧ .

(٥) الشورى : ٥٢ . وتتمّة الآية : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ سقطت من : د ، ص .

(٦) " الأصلين " : سقطت من : د .

وقالَ تعالى : ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ (٢) .

وقال / تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ (٣) . [٢٩/أ]

وقالَ تعالى : ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (٤) .

النور في قلب العبد المؤمن

وقالَ تعالى : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ (٥) ؛ فضَـرَبَ سبحانَـهُ مَـثَـلاً لنُـورِهِ الـذي قذَفَـهُ في قلبِ المؤمنِ ، كما قالَ أُبَيُّ بن كعبٍ رضِيَ اللهُ عَنهُ (٦) : " مَثَلُ نُورِهِ في قَلبِ عَبدِهِ المؤمِنِ " (٧) .

وهوَ نورُ القُرآنِ ، والإيمَانِ الذي أعطَاهُ إيَّاهُ ، كما قالَ في آخرِ الآيةِ : ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾ يَعْني : نُورَ الإيمَانِ على نُورِ القُرآنِ ، كما قالَ بعضُ السَّلَفِ : " يكادُ المُؤمنُ يَنْطِقُ بِالحِكمَةِ وإنْ لمْ يَسمعْ بها ، فإذا سَمِعَ فيها بالأثَرِ (٨) ؛ كانَ نورًا على نورٍ "(٩) .

---

(١) المائدة : ١٥ - ١٦ .

(٢) التغابن : ٨ .

(٣) النساء : ١٧٤ .

(٤) الطلاق : ١٠ - ١١ .

(٥) النور : ٣٥ .

(٦) تقدَّمت ترجمته ، ص : ٩١ .

(٧) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧/٢٩٧) ، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨/٢٥٩٣) ، بنحوه .
وينظر : معاني القرآن للنحاس (٤/٥٣٦) ، وتفسير السمعاني (٣/٥٢٩) ، وتفسير البغوي (٦/٤٥) ، وتفسير القرطبي (١٢/٢٥٩) .

(٨) في : ص : يَنْطِقُ بِالحِكمَةِ ، وإنْ لمْ يَسمعْ فيها بالأثَرِ .

(٩) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧/٣٠٣) ، والبيهقي في الأسماء والصفات (١/٢٠١) ، واللالكائي في شرح =

وقَدْ جَمَعَ اللهُ سبحانَهُ بَينَ ذِكْرِ هذين النُّورَينِ ، وهمَا الكِتَابُ والإيمَانُ ، في غيرِ موضعٍ مِنْ كتَابِهِ ، كقولِهِ : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [1] .

وقـــال تعـــالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [2] ففضلُ اللهِ : الإيمَانُ ، ورحمَتُهُ : القُرآنُ .

وقال تعالى : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [3] . وقد تَقَدَّمَت هذِهِ الآيَاتُ [4].

وقالَ في آيةِ النُّورِ : ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ ، وهوَ نورُ القُرآنِ علَى نورِ الإيمَانِ .

وفي حديثِ النَّوَّاسِ بن سَمْعَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ [5] ، عنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم : ( إنَّ اللهَ ضَرَبَ مَثَلاً صِراطاً مُستَقِيماً ، علَى كَنفَي [6] الصِّرَاطِ دَارَانِ ، لَهُمَا أبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ ، على الأبوَابِ سُتُورٌ ، ودَاعٍ يَدعُو على الصِّرَاطِ ودَاعٍ يَدعُو فَوقَهُ ، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [7] ، والأبوابُ التي على كَنَفَي الصِّرَاطِ حدودُ اللهِ ، فلا يَقَعُ أَحَدٌ في حدُودِ اللهِ حتَّى يَكشِفَ السِّتْرَ ، والذي يَدْعُو مِن فَوقِهِ

---

أصول الاعتقاد (٢٢٥/١) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفيه : "كذلك يكونُ قلبُ المؤمنِ ، يعملُ بالهدى قبل أن يأتيهِ العلمُ ، فإذا أتاهُ العلمُ ازدادَ هدًى على هدًى ، ونوراً على نورٍ" .

(١) الشورى : ٥٢ .

(٢) يونس : ٥٨ .

(٣) الأنعام : ١٢٢ .

(٤) تقدَّمت قريباً ص : ١٨٢ .

(٥) النواس بن سمعان بن خالد بن عمرو العامريّ الكلابيّ ، له ولأبيه صُحبةٌ ، سكن الشام ومات بها . الاستيعاب لابن عبد البر (١٥٣٤/٤) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٣٤٥/٥) ، والإصابة لابن حجر (٣٧٧/٦) .

(٦) الكَنَفُ : الجانِبُ ، والناحيةُ ، والظِّلُّ ، وناحيتا كلِّ شيءٍ : كنفاه . العين للخليل بن أحمد (٣٨١/٥) والصحاح للجوهري (١٢٥/١٢) ، ولسان العرب لابن منظور (٣٠٨/٩) .

(٧) يونس : ٢٥ .

وَاعِظُ رَبِّه ) رواه الترمذيُّ ، وهذا لفظُهُ ، والإمامُ أحمدُ ولفظُهُ : ( فالدَّاعِي على رَأسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللهِ ، والدَّاعِي فَوقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللهِ في قَلبِ كُلِّ مُؤمِنٍ ) [١] .

فذَكَرَ الأصلَيْنِ ، وهما دَاعِي القرآنِ ودَاعِي الإيمَان .

وقالَ حُذَيفَةُ رضي الله عنه [٢] : حدَّثَنَا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ : ( الأمَانَةَ نَزَلَت فِي جَذْرِ [٣] قلُوبِ الرِّجَالِ ، ثُمَّ نزَلَ القُرآنُ ، فعَلِمُوا مِن الإيمَانِ ، ثُمَّ عَلِمُوا مِن القُرآنِ ) [٤]

أقسام الناس مع القرآن الكريم

وفي " الصَّحيحَينِ " [٥] مِنْ حَدِيثِ أَبِي موسى الأشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عنهُ [٦] ، عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : ( مَثَلُ المُؤمنِ الذي يَقرَأُ القُرآنَ كمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ ، طعمُهَا طَيِّبٌ وريحُهَا طَيِّبٌ ، ومَثَلُ المُؤمنِ الذي لا يَقْرَأُ القُرآنَ كمَثَلِ التَّمْرَةِ ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ ولا رِيحَ لهَا ، ومَثَلُ المُنَافِقِ الذي يَقرَأُ القُرآنَ كالرَّيحَانَةِ ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وطَعْمُهَا مُرٌّ ، ومَثَلُ المُنَافِقِ الذي لا يَقرَأُ القُرآنَ كمَثَلِ الحَنْظَلَةِ ، طَعْمُهَا مُرٌّ ولا رِيحَ لهَا ) .

فجَعَلَ النَّاسَ أَربَعَةَ أقْسَامٍ :

أهلُ الإيمَانِ والقُرآنِ ، وهُم خِيَارُ النَّاسِ .

الثَّاني : أَهلُ الإيمَانِ الذينَ لا يَقرَؤُونَ القُرآنَ ، وهُم دُونَهُم . فهؤلاءِ هُم السُّعَدَاءُ .

والأشقِيَاءُ قِسمَانِ :

أَحدُهُمَا : مَنْ أُوتِيَ قُرآناً بِلَا إِيمَانٍ ، فَهُوَ مُنَافِقٌ .

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٥٩) ، وأحمد (١٨٣/٤) ، والحاكم في مستدركه (٧٣/١) ، وغيرهم وقال الحاكم : "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولا أعرف له علة " ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني كما في مشكاة المصابيح (٦٧/١) .

(٢) تقدمت ترجمته ، ص : ٦٣ .

(٣) الجَذْرُ . بفتح الجيم أو كسرها . : هو الأصل من كلِّ شيءٍ . غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام (١١٨/٤) ، وغريب الحديث لإبراهيم الحربي (١١٧٨/٣) .

(٤) رواه البخاري (٦٤٩٧) ، ومسلم (١٤٣) .

(٥) البخاري (٥٠٢٠ ، ٥٠٥٩ ، ٥٤٢٧ ) ، ومسلم (٧٩٧) .

(٦) تقدمت ترجمته ، ص : ١١١ .

والثَّانِي : مَنْ لا أُوتِيَ قُرآناً ولا إِيمَاناً .

والمَقصُودُ : أنَّ القُرآنَ والإيمَانَ هُمَا نُورٌ يَجْعَلُهُ اللهُ فِي قَلْبِ مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ ، وأنَّهُمَا أصْلُ كُلِّ خيرٍ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ ، وعِلمُهُمَا أَصلُ العُلُومِ وأَفضَلُهَا ، بَلْ لا عِلْمَ فِي الحَقِيقَةِ يَنْفَعُ صَاحِبَهُ إلَّا عِلْمُهُمَا ، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١] .

صيدُ الكلبِ الجاهلِ ميتة وصيدُ المُعلَّم مباح أكله

الوجهُ الثَّالثُ والثَّلاثُونَ : أنَّ اللهَ سبحانهُ جَعَلَ صَيدَ الكَلبِ الجَاهِلِ مَيْتَةً يَحْرُمُ أَكْلُهَا وأَبَاحَ صَيدَ الكَلْبِ المُعَلَّمِ[٢]. وهذا أيضًا مِن شَرَفِ العِلمِ : أنَّهُ لا يُبَاحُ إلَّا صَيدُ الكَلبِ العَالِمِ ، وأمَّا الكَلبُ الجَاهِلُ ؛ فلا يَحِلُّ أكلُ صَيدِهِ ، فدَلَّ عَلى شَرَفِ العِلمِ وفَضلِهِ .

قال الله تعالى : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[٣] .

ولولا مَزِيَّةُ العِلمِ والتَّعلِيمِ وشَرَفُهُمَا ؛ كانَ صَيدُ الكَلبِ المُعلَّمِ والجَاهِلِ سواءً.

رحلة موسى عليه السلام في طلب العلم

الوَجهُ الرَّابعُ والثَّلاثُون : أنَّ اللهَ سُبحانَهُ أخبَرَنا عَنْ صَفِيِّهِ وكَلِيمِهِ الذي كَتَبَ لَه التَّوْرَاةَ بيَدِهِ[٤] ، وكَلَّمَهُ مِنهُ إلَيهِ ، أنَّهُ رَحَلَ إلى رَجلٍ عَالِمٍ يَتَعلَّمُ مِنْهُ ، ويَزْدَادُ عِلْماً إلى عِلْمِهِ

---

(١) البقرة : ٢١٣ .

(٢) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه ، قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه و سلم : ( إذا أرسلتَ كلبك المُعلَّم فقتلَ ، فكل ، وإذا أكلَ فلا تأكُلْ ؛ فإنَّما أمسكَهُ على نفسهِ ) . رواه البخاري (١٧٥) ، ومسلم (١٩٢٩) .

(٣) المائدة : ٤ .

(٤) كما جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، في حديث احتجاج آدمَ وموسى عليهما السلام عند الله ، وفيه : (قال له آدمُ : يا مُوسَى اصطَفَاكَ اللهُ بكلامِهِ ، وخَطَّ لكَ بيَدِهِ) . رواه البخاري (٦٦١٤) ، ومسلم (٦٩١٢) وفي رواية (وَكَتَبَ لَكَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ) ، وقد تقدَّم ص : ١١٨ .

وقالَ لفتَاهُ : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ (١) ، حِرصًا مِنهُ على لِقَاءِ هذا العَالِمِ ، وعلى التَّعَلُّمِ مِنهُ .

فلَمَّا لَقِيَهُ ، سَلَكَ مَعَهُ مَسْلَكَ المُتَعَلِّمِ مَعَ مُعَلِّمِهِ ، وقالَ لهُ : ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ (٢) ، فبَدَأَهُ بَعدَ السَّلَامِ بالاسْتِئذَانِ على مُتابعَتِهِ ، وأنَّهُ لا يَتَّبِعُهُ إلَّا بإذْنِهِ ، وقالَ : ﴿ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ .

فلَمْ يَجِئْ مُسْتَمْحِناً ، ولا مُتَعَنِّتاً ، وإنَّمَا جاءَ مُتَعَلِّماً ، مُسْتَزِيدًا عِلْماً إلى عِلْمِهِ ، وكَفَى بهذا فَضْلاً وشَرَفاً للعِلْمِ ؛ فإنَّ نبيَّ اللهِ ، وكَلِيمَهُ سَارَ ورَحَلَ ، حتَّى لَقِيَ النَّصَبَ مِن سَفَرِهِ في تَعَلُّمِ ثَلاثِ مَسَائِلَ مِن رَجلٍ عالِمٍ ، ولـمَّا سَمِعَ بهِ ، لـمْ يَقَرَّ لهُ قَرَارٌ حتَّى لَقِيَهُ ، وطَلَبَ مِنهُ مُتَابعَتَهُ ، وتَعلِيمَهُ.

وفي قِصَّتِهِمَا عِبَرٌ وآيَاتٌ وحِكَمٌ ، ليسَ هذا مَوْضِعَ ذِكرِهَا .

ندب الله المؤمنين إلى التفقه في الدين وتعليم أقوامهم

الوَجهُ الخَامِسُ والثَّلاثُونَ : قولُهُ تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (٣) ، نَدَبَ تَعَالَى المُؤمِنِينَ إلى التَّفَقُّهِ في الدِّيْنِ ، وهوَ تَعَلُّمُهُ وإنذَارِ قَومِهِم إذَا رَجَعُوا إليهِم ، وهوَ التَّعلِيمُ .

وقدِ اخْتُلِفَ في الآيةِ (٤) :

(١) الكهف : ٦٠ .

(٢) الكهف : ٦٦ .

(٣) التوبة : ١٢٢ .

(٤) بيَّن المؤلف رحمه الله الأقوال فيها كما في : إعلام الموقعين عن رب العالمين (١٧٨/٢) ، وفي : بدائع الفوائد (١٨٩/٤) ، وقال فيه : " وأصحُّ القولينِ : أنَّه ينفرُ منهم طائفةٌ في السَّرايا والبُعوثِ ، وتقعدُ طائفةٌ تتفقهُ في الدِّين فتُنذر القاعدةُ الطائفةَ النَّافرةَ ، إذا رجعت إليهم ، وتُخبرهم بما نَزلَ بعدَهم من الحلالِ والحرامِ ، والأحكام ، لوجوه " ثمَّ ساقها . وينظر في هذه المسألة : تفسير الماوردي (٤١٥/٢) ، وتفسير البغوي (١١١/٤) ، وتفسير القرطبي (٢٩٤/٨) ، وتفسير ابن جزي الكلبي (٣٥٠/١) .

فقيلَ : المَعنَى : أنَّ المُؤمنِينَ لمْ يَكُونُوا لِيَنْفِرُوا كُلُّهُم للتَّفَقُّهِ والتَّعَلُّمِ ، بَلْ يَنْبَغِي أنْ يَنْفِرَ مِنْ كُلِّ فِرقَةٍ مِنهُم (١) طَائِفَةٌ ، تَتَفَقَّهُ تِلكَ الطّائِفَةُ ، ثُمَّ تَرْجِعُ تُعَلِّمُ القَاعِدِينَ فيَكُونُ النَّفِيرُ على هذا نَفِيرَ تَعَلُّمٍ ، والطَّائِفَةُ تُقَالُ على الوَاحِدِ فمَا زَادَ (٢) .

قالوا : فهوَ دَلِيلٌ على قَبولِ خَبرِ الواحدِ (٣) ، وعلى هذا حَمَلَها الشَّافِعِيُّ (٤) وجمَاعَةٌ (٥) .

وقالَتْ طَائِفَةٌ أُخرَى : المعنى :

وما كانَ المؤمنونَ لِيَنْفِرُوا إلى الجِهَادِ كُلُّهُم ، بل يَنْبَغِي أنْ تَنْفِر طَائِفَةٌ للجِهَادِ ، وفِرقَةٌ تَقْعُدُ تَتَفَقَّهُ في الدِّينِ ، فإذا جاءَتِ الطَّائِفَةُ التي نَفَرَتْ ، فَقَّهَتْهَا القَاعِدةُ وعَلَّمَتْهَا ما أُنْزِلَ مِن الدِّينِ والحَلالِ والحَرَامِ .

وعلى هذا ، فيَكُونُ قَولُهُ : ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾ و ﴿وَلِيُنذِرُواْ﴾ للفِرقَةِ التي نَفَرَتْ مِنهَا طَائِفَةٌ . وهذا قَوْلُ الأَكْثَرِين .

---

(١) " منهم " ليست في : د ، ص .

(٢) روى ابن أبي حاتم في تفسيره (٢٥٢٠/٨) عن ابن عباس رضي الله عنه قوله :" الطائفة : الرجلُ فما فوق "
وروى عبد الرزاق في تفسير (٤٢٤/٢) ، وابن جرير الطبري في تفسيره (١٤٦/١٧) عن مجاهد قوله :
" الطَّائِفَةُ : رجُلٌ فما فوقه " ، وكذا روي عن الحسن ، والشعبي ،
وغيرهما . وينظر : معاني القرآن للنحاس (٤٩٦/٤) ، والمفردات للراغب الأصفهاني (٥٣٢) ، وتفسير ابن عطية (١٦٢/٤) ، ولسان العرب لابن منظور ( ٢٢٦/٩) .

(٣) عقدَ المؤلف رحمه الله فصلاً في : خبر الواحد ، كما في : مختصر الصواعق المرسلة ( ٥٢٦/٢) .
وقال ابن حزم رحمه الله : " صحَّ إجماعُ الأمةِ كلِّها على قبولِ خبرِ الواحدِ الثِّقةِ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن جميعَ أهلِ الإسلامِ كانوا على قبولِ خبرِ الواحدِ الثقةِ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، يجري على ذلك كلُّ فرقةٍ في علمها، كأهلِ السُّنةِ والخوارجِ والشيعةِ والقدريةِ ، حتى حدثَ مُتكلموا المعتزلةِ بعد المائة من التاريخ ؛ فخالفوا الإجماع في ذلك ". الإحكام في أصول الأحكام (١/ ١١٣- ١١٤) .

(٤) تقدمت ترجمته ، ص : ١١٣ .

(٥) ينظر : الفصول في الأصول للجصاص (٧٦/٣ ، ٩٤) ، والفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢٧٩/١) والمجموع شرح المهذب للنووي (٤٢٠/٤) .

وعلى هذا ، فالنَّفِيرُ نَفِيرُ جِهَادٍ على أَصْلِهِ ، فإنَّه حَيثُ اسْتُعمِلَ إنَّمَا يُفْهَمُ مِنْهُ الجِهَادُ قالَ اللهُ تعالى : ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ﴾ (١) ، وقالَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : / ( لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ ، ولكنْ جِهَادٌ ونِيَّةٌ ، وإذا اسْتُنْفِرْتُم فانْفِرُوا ) (٢) . [٣٠/أ]
وهذا هوَ المَعرُوفُ مِن هذه اللَّفْظَةِ .
وعلى القَولَينِ ، فهوَ تَرغِيبٌ في التَّفَقُّهِ في الدِّينِ ، وتَعَلُّمِهِ وتَعْلِيمِهِ ، وأنَّ ذلِكَ يَعْدِلُ الجِهَادَ ، بَل رُبَّمَا يكونُ أَفْضَلَ مِنهُ ، كما سَيأْتِي تَقْرِيرُهُ إنْ شَاءَ اللهُ تَعالى (٣) .

مراتب العلم في سورة العصر

الوَجهُ السَّادِسُ والثَّلاثُونَ : قَولُهُ تعالى : ﴿وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ (٤) .
قالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنه (٥) : " لو فَكَّرَ النَّاسُ كُلُّهُم في هَذِه السُّورَةِ ؛ لكَفَتْهُم " (٦)

وبيانُ ذلكَ أنَّ المَرَاتِبَ أربعٌ (٧) ، وباستِكمَالِهَا يَحْصُلُ للشَّخْصِ غَايَةُ كَمَالِهِ :
إحدَاهَا : مَعْرِفَةُ الحَقِّ .
الثَّانِيَةُ : عَمَلُهُ بهِ .
الثَّالِثَةُ : تَعلِيمُهُ مَنْ لا يُحْسِنُهُ .
الرَّابِعَةُ : صَبْرُهُ على تَعَلُّمِهِ ، والعَمَلِ بهِ ، وتَعلِيمِهِ .
فذَكَرَ تَعَالَى المراتِبَ الأربَع (٨) في هَذِهِ السُّورَةِ :

---

(١) التوبة : ٤١ .
(٢) رواه البخاري (٢٧٨٣) ، ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .
(٣) سيأتي في : الوَجهِ الثَّامِنِ والمائةِ ، ص : ٣٦٨ .
(٤) العصر : ١ – ٣ .
(٥) تقدمت ترجمته ، ص : ١١٣ .
(٦) الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٥٩/٢) ، وتفسير ابن كثير (٢٠٣/١) ، وقال النووي في رياض الصالحين (٩١) : " قالَ الإمام الشافعي رَحِمَهُ الله كلاماً معناه : إنَّ النَّاسَ أَوْ أكثرَهم في غَفلةٍ عن تدبُّرِ هذِهِ السورةِ " .
(٧) في النسخ الخطية كلِّها " أن المراتب أربعةٌ " والمُثبت هو الصواب ؛ لأن المراتب مؤنث .
(٨) في النسخ الخطية كلِّها " المراتب الأربعة " والمثبت هو الصواب . .

ـ فأَقْسَمَ سُبحَانَهُ بالعصرِ ، أنَّ كُلَّ أَحَدٍ في خُسْرٍ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ، الذينَ عَرَفُوا الحَقَّ [١] ، وصَدَّقُوا بهِ ، فهذِهِ مَرتَبَةٌ .

ـ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ، وهُــمُ الـذينَ عَمِلُـوا بِـمَا عَلِمُـوهُ مِـنَ الـحَقِّ ، فهـذِهِ مَرتَـبَةٌ أُخْرَى .

ـ ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ ﴾ وصَّى بهِ [٢] بَعْضُهُم بَعْضاً ؛ تَعلِيماً وإرشَاداً ، فهذِهِ مَرتَبَةٌ ثَالِثَةٌ .

ـ ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ ، صَبَرُوا عَلَى الحَقِّ ، ووَصَّى به [٣] بَعضُهُم بَعضاً ، بالصَّبرِ عليهِ والثَّبَاتِ ، فهذِهِ مَرتَبَةٌ رَابِعَةٌ .

وهذا نِهَايَةُ الكَمَالِ ؛ فإنَّ الكَمَالَ أَنْ يَكُونَ الشَّخْصُ كَامِلًا في نَفْسِهِ ، مُكَمِّلًا لِغَيرِهِ وكَمَالُـهُ بإصلَاحِ قُوَّتَيْهِ : العِلمِيَّةِ والعَمَلِيَّةِ ، فصَلَاحُ القُوَّةِ العِلمِيَّةِ بالإيمَانِ ، وصَلَاحُ القُوَّةِ العَمَلِيَّةِ بِعَمَلِ الصَّالِحَاتِ ، وتَكمِيلُهُ غيرَهُ : بتَعلِيمِهِ إيَّاهُ ، وصَبرِهِ عليهِ ، وتَوصِيَتِهِ بالصَّبرِ على العِلمِ والعَمَلِ.

فهذِهِ السُّورةُ على اختصَارِهَا ، هيَ مِنْ أَجْمَعِ سُوَرِ القرآنِ للخيرِ بحذَافِيرِهِ .

والحمـدُ للهِ الذي جَعَلَ كِتَابَهُ كَافِياً عن كُلِّ ما سِوَاهُ ، شَافِياً مِنْ كُلِّ دَاءٍ ، هَادِيـاً إلى كُلِّ خيرٍ .

فضل الله على أنبيائه ورسله وأوليائه بما آتاهم من العلم

الوجهُ السَّابِعُ والثَّلَاثُونَ : أنَّهُ سُبحَانَهُ ذَكَرَ فَضْلَهُ ، ومِنَّتَهُ على أنْبِيَائِهِ ، ورُسُلِهِ ، وأوْلِيَائِهِ وعِبَادِهِ بما آتَاهُم مِنَ العِلمِ .

فذَكَرَ نِعمَتَهُ عَلَى خاتَمِ أنْبِيَائِهِ ورُسُلِهِ بقَولِهِ : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [٤] ، وقد تَقدَّمَتْ الآيةُ [٥] .

---

(١) في : د : وهم الذينَ عَرَفُوا الحَقّ ، وفي : ص : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ﴾ ، همُ الذينَ عَرَفُوا الحَقَّ .

(٢) صُحِّفت إلى : " وضربه " في : ص .

(٣) " به " سقطت من : د ، ص .

(٤) النساء : ١١٣ .

(٥) ينظر : الوجه السابع والعشرون ص : ١٧٧ .

وقالَ في يُوسُفَ : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

وقالَ في كَلِيمِهِ موسَى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) .

ولمَّا كانَ الذي آتاهُ موسى مِن ذلِكَ أمرًا عَظِيمًا ؛ خَصَّهُ على غيرِهِ ، لا يَثبُتُ لَهُ إلَّا الأقوياءُ (٣) ، أُولُو العَزمِ ، هَيَّأَهُ لهُ بعدَ أنْ بَلَغَ أَشُدَّهُ واسْتَوَى ، يَعْني : تمَّ وكَمَلَتْ قُوَّتُهُ.

وقالَ في حَقِّ المَسِيحِ : ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ (٤) .

وقال في حقِّهِ : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ (٥) ، فجعَلَ تَعلِيمَهُ مِمَّا بَشَّرَ بهِ أُمَّهُ ، وأَقَرَّ عينَهَا بهِ.

وقَالَ في حَقِّ داوودَ : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ (٦) .

وقَالَ في حَقِّ الخَضِرِ صَاحِبِ موسى وفَتَاهُ : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ (٧) ، فذَكَرَ مِن نِعَمِهِ عليهِ تَعلِيمَهُ ، وما آتَاهُ مِن رَحمَة .

---

(١) يوسف : ٢٢ .

(٢) القصص : ١٤ .

(٣) في : ص : إلا قوياً .

(٤) المائدة : ١١٠ .

(٥) آل عمران : ٤٨ .

(٦) ص : ٢٠ .

(٧) الكهف : ٦٥ .

وقالَ تعالى يَذكُرُ نِعمَتَهُ على داوودَ وسُليمانَ : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (١)
فذَكَرَ النَّبِيَّينِ الكَريمَينِ ، وأثنى عليهِمَا بالحُكمِ والعِلمِ ، وخَصَّ بفهمِ القَضيَّةِ أحَدَهُمَا (٢) وقد ذَكَرْتُ الحُكمَيْنِ الدَّاوودِيَّ والسُّلَيمَانيَّ ووجهَهمَا ومَن صَارَ مِن الأَئمَّةِ إلى هذا ومَن صَارَ إلى هذا ، وتَرجِيحَ الحُكمِ السُّليمَانِيِّ مِن عِدَّة وجوهٍ ، وموافقتَهُ للقِيَاسِ وقوَاعِدِ الشَّرعِ في كِتابِ " الاجتهاد والتَّقليد " (٣) .

وقالَ تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ (٤) ، يَعْني : الذي أَنزَلَهُ جَعَلَ سبحانَهُ تَعليمَهُم ما لَمْ يَعلَمُوا ، هُم ولا آباؤُهُم دليلًا على صِحَةِ النُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ إذ لا يُنالُ هذا العِلمُ إلا من جهةِ الرُّسلِ ، فكيف يقولونَ : ما أنزَلَ اللهُ على بَشرٍ من شيءٍ ؟

وهذا مِن فضلِ العلمِ وشرَفِهِ ، أنَّه دليلٌ على صحَّةِ النُّبوةِ والرِّسَالةِ ، واللهُ المُوفِّق للرَّشادِ . وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٥)

---

(١) الأنبياء : ٧٨ – ٧٩ .

(٢) ينظر : تفسير عبد الرزاق (٣٨٨/٢) ، وتفسير ابن جرير الطبري (٣٢٠/١٦) ، وتفسير القرطبي (٣٠٧/١١) ، وتفسير ابن كثير (٣٥٥/٥) ، وغيرها .

(٣) ذكر المؤلف رحمه الله هذا الكتاب في : تهذيب السنن (٢٧٩/١٢) ، ولم يذكره أحدٌ ممن ترجم للمؤلف ، ينظر : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره للشيخ بكر أبو زيد (١٢٠) .

وفي " إعلام الموقعين عن رب العالمين " عقد المؤلف فصلا مستقلاً في مسألة التقليد ، وآخرَ في موضوع الاجتهاد .

(٤) الأنعام : ٩١ .

(٥) آل عمران : ١٦٤ .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (١) ، يعني : وبعَث في آخرينَ منهم لـمَّا يَلحقُوا بهم .

الخلاف في المراد باللحاق المنفي في قوله تعالى (لمَّا يلحقوا بهم)

وقد اختُلِفَ في هذا اللَّحاقِ الـمَنْفِيِّ ؛ فقيلَ : هو اللَّحاقُ في الزَّمَانِ ، أي : يَتأخَر زمَانُهُم عنهم .

وقيلَ : هو اللَّحاقُ في الفَضلِ والسَّبْقِ (٢) .

وعلى التَّقديرَينِ : فامتَنَّ عليهم بالعِلْمِ (٣) بعد الجَهلِ ، وهدَاهُم بعدَ الضَّلالةِ ، ويا لها مِن مِنَّةٍ عَظيمَةٍ ، فاتَت المِنَنَ ، وجَلَّتْ أنْ يَقدِرَ العبادُ لها على ثَمَنٍ !

ذكره سبحانه ما منَّ به على الإنسان من تعليمه ما لم يعلم كما في أول سورة نزلت

الوجهُ الثَّامنُ والثَّلاثُونَ : أنَّ أوَّلَ سُورةٍ أنْزَلها اللهُ في كتابِهِ سُورةُ القَلمِ (٤) ، فذَكَرَ فيها ما مَنَّ به على الإنسانِ مِن تعليمِهِ ما لم يعلم ، فذكَر فيها فَضلَه بتَعليمه ، وتَفضيلَهُ الإنسانَ بما علَّمهُ إيَّاه ، وذلك يدلُّ على شرَفِ التَّعليمِ والعلمِ فقال تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٥) ، فافتتحَ السُّورة بالأمرِ بالقراءةِ النَّاشئةِ عن العلمِ ، وذكَّرَ خلْقَه خصوصاً وعموماً ؛ فقال : ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ ، وخصَّ الإنسانَ مِن بين المخلوقاتِ ، لمَا أودَعهُ مِن عجائبِهِ وآياتِهِ الدَّالَّةِ على ربوبيَّتهِ وقدرَتِه ، وعلمِه وحكمَتِه ، وكمالِ رحمَته ، وأنَّه لا إله غيره ولا ربَّ سِواه .

---

(١) الجمعة : ٢ - ٤ .

(٢) ينظر : تفسير البغوي (١١٤/٨) ، وتفسير الخازن (٢٨٩/٤) .

(٣) " بالعلم" سقطت من : د ، ص .

(٤) يعني بذلك سورة العلق ، وقد سمَّاها البعض بسورة القلم . ينظر : إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس (١٦٢/٥) وتفسير ابن الجوزي (٤٦٦/٤) .

(٥) العلق : ١ - ٥ .

وذَكَرَ هنا مبدأَ خَلْقِه مِن عَلَقٍ ؛ لِكَوْنِ العلقَةِ مبدأَ الأطوارِ التي انتقلتْ إليها النُّطفَةُ فهي مبدأُ تعليقِ الخَلقِ [1].

ثمَّ أعادَ الأمرَ بالقراءةِ مُخبِراً عن نفْسهِ بأنَّه الأكرمُ ؛ وهو الأَفْعَلُ [2] مِن الكَرَمِ ، وهو كَثرةُ الخَيرِ ، ولا أَحدَ أولى بذلكَ مِنه سبحانه ؛ فإنَّ الخيرَ كُلَّهُ بيديهِ ، والخيرُ كلُّه مِنه والنِّعَمُ كلُّها فهوَ وليُّها ، والكمالُ كلُّه والمجدُ كلُّه له ، فهو الأكرمُ حقّاً .

ثمَّ ذَكَرَ تعليمَهُ عُمُومَاً وخُصُوصاً ، فقال : ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾[3] ، فهذا يدخُلُ فيهِ تعليمُ الملائكةِ والنَّاسِ .

ثمَّ ذَكَرَ تعليمَ الإنسانِ خُصوصاً ، فقال : ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [4] فاشتمَلتْ هذهِ الكلِماتُ على أنَّه مُعطِي المُوجودَاتِ كلِّها بجميعِ أقسَامِها ، فإنَّ المَوجودَ له مراتبُ أربعةٌ: مراتب الموجود

إحدَاها : مرتَبتُها الخارجيَّةُ ، المَدلولُ عليها بقوله : ﴿خَلَقَ﴾ .

المرتبةُ الثَّانيةُ : الذِّهنيَّةُ ، المَدلولُ عليها بقوله : ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ .

المرتبةُ الثَّالثةُ والرَّابعةُ : اللَّفظِيَّةُ والخَطِّيَّةُ ، / فالخَطِّيَّةُ مُصرَّحٌ بها في قوله : [٣١/أ]
﴿ عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ ، واللَّفظيَّةُ : الوجُودُ مِن لوازِمِ التَّعليمِ بالقلَمِ ، فإنَّ الكتابةَ فرعُ النُّطقِ ، والنُّطقُ فرعُ التَّصوُّرِ .

فاشتملتْ هذه الكلماتُ على مراتبِ الوجودِ كلِّها ، وأنَّه سبحانه هو مُعطِيها بخلقِهِ وتعليمِهِ ، فهو الخالقُ المُعلِّمُ ، فكلُّ [5] شيءٍ في الخارجِ فبِخَلقِه وُجِدَ ، وكلُّ عِلمٍ في الذِّهنِ فبتعليمِه حصَلَ ، وكلُّ لفظٍ في اللِّسانِ ، أو خَطٍّ في البنَانِ فبأقدارِه وخَلقِه وتعليمِهِ .

---

(١) في : ص : الحكمة .

(٢) يريد المؤلف رحمه الله أنَّ " الأكرم " صيغةُ مُبالغةٍ على وزنِ : أَفْعَل .

(٣) العلق : ٤ .

(٤) العلق : ٥ .

(٥) في : ص : وَكُلُّ .

وهذا مِن آياتِ قُدرتِه ، وبراهينِ حِكْمتِهِ ، لا إله إلا هو الرَّحمنُ الرَّحيمُ .

والمَقصُودُ أنَّه سبحانه تعرَّفَ إلى عبادِه بمَا علَّمَهَ إيَّاه مِن الخَطِّ ، واللَّفظِ ، والمَعنى فكانَ العِلمُ أحَدَ الأدلَّةِ الدَّالَّةِ عليهِ ، بل مِن أعظَمِها وأظهرِهَا ، وكفى بهذا شَرفاً وفضْلاً .

تسمية الله الحُجَّة العلمية سلطاناً

الوجهُ التَّاسعُ والثَّلاثونَ : أنَّه سبحانه سمَّى الحُجَّةَ العِلميَّةَ سُلطاناً ، قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما [(١)] : " كلُّ سلطانٍ في القرآنِ فهو حجَّةٌ " [(٢)] ، وهذا كقولِهِ تعالى : ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [(٣)] ، يعني : ما عندكُم مِن حُجَّةٍ بما قُلتُم ، إنْ هو إلَّا قَولٌ على اللهِ بلا علمٍ .

وقال تعالى : ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ ﴾ [(٤)] يعني : ما أنزَلَ الله بها حجَّةً ولا بُرهاناً ، بل هي مِن تِلقاءِ أنفُسِكم وآبائِكُم .

وقالَ تعالى : ﴿ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [(٥)] ، يعني : حُجَّةً واضحةً ، فأْتُوا بها إنْ كنتم صادقينَ في دَعواكُم .

إلَّا موضعاً واحداً اختُلِفَ فيه ، وهو قولُه : ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴾ [(٦)]

---

(١) تقدمت ترجمته ص : ٨٧ .

(٢) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٣٢٨/٢) عن سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٣٠/٣) ، وذكره البخاري تعليقاً ، وقال ابن حجر في فتح الباري (٣٩١/٨) : "وصله ابن عيينة في تفسيره عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس ، وهذا على شرط الصحيح ". وصححه ابن كثير في تفسيره (٤٤١/٢) .

(٣) يونس : ٦٨ .

(٤) النجم : ٢٣ .

(٥) الصافات : ١٥٦ - ١٥٧ .

(٦) الحاقة : ٢٨ - ٢٩ .

وتُنظر الأقوال في : تفسير ابن جرير الطبري (٢٣٦/٢٣) ، وتفسير الماوردي (٨٥/٦) ، وتفسير البغوي (٢١٢/٨) وتفسير الرازي (٦٣٠/٣٠) ،وتفسير أبي حيان (٢٦٢/١٠) .

فقيلَ : المرادُ بهِ القُدْرةُ والمُلكُ ، أي : ذهبَ عنِّي مالي (١) ومُلكي ، فلا مالَ لي ولا سُلطانَ ، وقيلَ : هو على بابِه ، أي : انقَطَعَت حُجَّتِي ، وبطَلَت ، فلا حُجَّةَ لي .

والمَقصودُ أنَّ اللهَ سبحانَه سَمَّى عِلمَ الحُجَّة سُلطاناً ؛ لأنَّها تُوجِبُ تسلُّطَ صاحِبِها واقتِدَارَه ، فلهُ بها سُلطانٌ على الجاهلينَ ، بل سُلطانُ العِلمِ أعظمُ مِن سلطانِ اليَدِ ولهذا ينقَادُ النَّاسُ للحجَّةِ مالا ينقَادُونَ لليدِ ؛ فإنَّ الحجة تَنقادُ لها القلوبُ ، وأمَّا اليدُ فإنَّما ينقادُ لها البَدنُ ، فالحُجَّة تأسِرُ القلبَ وتقودُهُ ، وتُذِلُّ المُخالِفَ ، وإنْ أظهرَ العِنادَ والمُكَابَرَةَ ؛ فقلبُهُ خاضِعٌ لها ، ذليلٌ مقهورٌ تحت سُلطانِها ، بل سُلطانُ الجَاهِ إنْ لم يكُن معه علمٌ يُساسُ به ، فهو بمنزلَةِ سُلطانِ السِّباعِ والأُسُودِ ونحوِها ، قُدرةٌ بِلا عِلمٍ ولا رَحمةٍ ، بخلافِ سُلطانِ الحُجَّةِ ، فإنَّه قُدرةٌ بعلمٍ ، ورحمةٍ ، وحِكمةٍ ، ومَن لم يكنْ له اقتِدَارٌ في عِلمِه ، فهو إمَّا لضَعفِ حُجَّته وسُلطانِه ، وإمَّا لقَهرِ سُلطانِ اليدِ والسَّيفِ له ، وإلَّا فالحُجَّةُ ناصِرةٌ نفسَها ، ظاهرةٌ على الباطلِ قاهرةٌ له .

وصفُ الله أهل النار بالجهل وأنه سدَّ عليهم طرق العلم

الوجهُ الأربعُونَ : أنَّ اللهَ تعالى وصَفَ أهلَ النَّارِ بالجهلِ ، وأخبَرَ أنَّه سدَّ عليهم طُرقَ العِلمِ ، فقالَ تعالى حكايةً عنهم : ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (٢) ، فأخبَرُوا أنَّهم كانُوا لا يَسمعونَ ، ولا يعقلونَ .

والسَّمعُ والعَقلُ هما أصلُ العِلمِ ، وبهِما يُنالُ ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ (٣) ، فأخبَرَ سبحانه أنَّهم لم يحصُل لهم عِلمٌ مِن جهَةٍ مِن جِهاتِ العِلمِ الثَّلاثِ ، وهي : العقلُ ، والسَّمعُ

---

(١) " مالي " سقطت من : ص .

(٢) الملك : ١٠ – ١١ .

(٣) الأعراف : ١٧٩ .

والبصرُ ، كما قالَ في موضعٍ آخر : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ (١) .

وقالَ تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ (٢) ، وقالَ تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٣) ، فقد وصفَ أهلَ الشَّقاءِ كما ترى بعدمِ العِلمِ ، وشبَّهَهُم بالأنعامِ تارَةً (٤) ، وتارَةً بالحمارِ الذي يحمِلُ الأسْفَارَ (٥) ، وتارَةً جعلهم أضَلَّ مِن الأنعامِ (٦) ، وتارَةً جعلَهم شرَّ الدَّوابِّ عنده (٧) وتارَةً جعلَهم أمواتاً غيرَ أحياءٍ (٨)، وتارَةً أخبَرَ أنَّهم في ظُلماتِ الجهلِ والضَّلالِ (٩) ، وتارَةً أخبَرَ أنَّ على قلوبِهم أكنَّةً ، وفي آذانِهم وَقراً (١٠) ، وعلى أبصارِهم غشاوةً (١١) .

وهذا كلُّهُ يدلُّ على قُبحِ الجهلِ ، وذَمِّه ، وبُغضِه لهم ، كما أنَّه يُحِبُّ أهلَ العِلمِ ويمدحُهُم ويُثني عليهم كما تقدَّمَ (١٢) ، واللهُ المُستعانُ .

---

(١) البقرة : ١٧ .

(٢) الحج : ٤٦ .

(٣) الأحقاف : ٢٦ .

(٤) كما في سورة محمد : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ .

(٥) كما في سورة الجمعة : ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ ﴿٥﴾﴾ .

(٦) كما في سورة الأعراف : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ .

(٧) كما في سورة الأنفال في موضعين : ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

(٨) كما في سورة النحل: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

(٩) كما في سورة الأنعام : ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴿٣٩﴾﴾ .

(١٠) كما في سورة الأنعام : ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴿٢٥﴾﴾ .

(١١) كما في سورة البقرة : ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴿٧﴾﴾ .

(١٢) ينظر مثلاً : الوجه الرابع ، والثالث عشر ، والسابع عشر ، التاسع عشر ، والحادي والعشرون .

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين

الوجهُ الحادي والأربعونَ : ما في " الصحيحين " [١] من حديث معاوية رضي الله عنه [٢] قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقولُ : ( مَن يُردِ اللهُ بهِ خَيراً يُفقِّهْهُ في الدِّينِ ) ، وهذا يدلُّ على أنَّ مَن لمْ يُفقِّهه في دينِهِ ، لم يُرِدْ بهِ خَيراً ، كما أنَّ مَن أرادَ بهِ خيراً فَقَّهَهُ في دِينِهِ ومَن فَقَّهَهُ في دِينِهِ فقدَ أرادَ بهِ خَيراً ، إذا أُريدَ بالفقهِ العلمُ المُستلزمُ للعَمَلِ .

وأمَّا إنْ أُريدَ بهِ مُجرَّدُ العِلمِ ؛ فلا يَدلُّ على أنَّ مَن فَقَّهَهُ في الدِّينِ ، فقد أرادَ بهِ خَيراً فإن الفِقْهَ حينئذٍ يكونُ شَرطاً [٣] لإرادَةِ الخَيرِ ، وعلى الأوَّلِ يكونُ مُوجِبَاً ، واللهُ أعلمُ .

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا

الوجهُ الثَّاني والأربعونَ : ما في " الصحيحين " [٤] أيضاً من حديثِ أبي موسى رضي اللهُ عنه [٥] قال : قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : ( إنَّ مَثَلَ ما بَعَثَني اللهُ به من الهُدَى والعِلْمِ ، كمَثَلِ غَيثٍ أصابَ أرضاً ، فكانت منها طائِفَةٌ طَيِّبَةٌ ، قَبِلَتِ الماءَ فأَنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكثيرَ ، وكانَ منها أجَادِبُ ، أَمْسَكَتِ الماءَ ، فنفعَ اللهُ بها الناسَ فشَرِبُوا ، وسَقَوْا ، وزرعوا ، وأصابَ طائفةً منها أخرى ، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً ؛ فذلك مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللهِ ، ونفَعَهُ ما بعثني اللهُ بهِ ، فعَلِمَ وعَلَّمَ ومَثَلُ من لم يَرْفَعْ بذلك رأسًا ، ولم يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الذي أُرْسِلْتُ به ) .

شبَّه صلى الله عليه وسلم العلمَ والهُدى الذي جاءَ بهِ بالغَيثِ لِمَا يَحصُلُ بكلِّ واحدٍ منهما مِن الحياةِ ، والمَنافعِ ، والاغذِيةِ ، والادويةِ ، وسائِرِ مَصالحِ العبادِ ، فإنَّها بالعِلمِ والمطرِ. وشبَّه القُلوبَ بالأراضي التي يقعُ عليها المطرُ ، لأنَّها المَحلُّ الذي يُمْسكُ

(١) رواه البخاري (٧١) ، ومسلم (١٠٣٧) .

(٢) معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي ، ولد قبل البعثة بخمسة أعوام وأسلم بعد الحديبية ، وكتمه ، ولم يظهره إلا عام الفتح ، من كُتَّاب الوحي ، ولي الشام لعمر وعثمان رضي الله عنهم ، توفي عام : ٦٠ هـ . ينظر : الاستيعاب لابن عبد البر (١٤١٦/٣) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٢٠١/٥) والإصابة لابن حجر (١٢٠/٦) .

(٣) في : ص ، زيادة " لازماً " .

(٤) رواه البخاري ( ٧٩ ) ، ومسلم ( ٢٢٨٢ ) .

(٥) تقدمت ترجمته ، ص : ١١١ .

الماءَ ، فيُنْبِتُ سائرَ أنواعِ النَّباتِ النَّافعِ ، كما أنَّ القلوبَ تَعي العِلمَ ، فيُثمرُ فيها ، ويَزكُو وتَظهرُ برَكَتُهُ ، وثَمرتُه .

أقسام الناس بحسب قبول العلم وحفظه وفهمه

ثمَّ قسَّمَ النَّاس إلى ثَلاثةِ أقسام ، بحسب قَبُولِهم ، واستعدَادِهم لحفظِهِ ، وفَهْمِ مَعانيهِ واستنبَاطِ أحكامِهِ ، واستخراجِ حِكَمِهِ ، وفوائِدِهِ [1] :

أحدُها : أهلُ الحفظِ والفهم ، الذين حَفِظوه وعَقَلُوهُ ، وفهَمُوا مَعانيهِ ، واستنبَطوا وجوهَ الأحكامِ ، والحِكمِ ، والفوائدِ منه ؛ فهؤلاءِ بِمَنزلةِ الأرضِ التي قبِلَت الماء ، وهذا بمنزلةِ الحفظِ ، فأنبَتَت الكلأَ والعُشبَ الكثيرَ ، وهذا هو الفَهمُ فيهِ ، والمَعرفةُ والاستِنباطُ ، فإنَّه بمَنزلةِ إنبَاتِ الكلأِ والعُشبِ بالماء ، فهذا مَثلُ الحُفَّاظِ الفُقهاء ، أهلُ الرِّوايةِ والدِّرايةِ /. [٣٢/أ]

القِسمُ الثَّاني : أهلُ الحِفظِ الذينَ رُزِقُوا حِفظَهُ ، ونقْلَه ، وضبْطَه ، ولم يرزقوا تفَقُّهاً في مَعانيهِ ، ولا استنبَاطاً ، واستخراجاً لوجُوهِ الحِكَمِ والفوائدِ منهُ ؛ فهم بِمَنزلةِ مَن يقرأُ القرآنَ ، ويحفَظُهُ ، ويُراعي حُروفَهُ وإعرَابَهُ ، ولم يُرزق فيه فَهْمَاً خاصَّاً عن اللهِ ، كما قال عليُّ بن أبي طالبٍ رضي اللهُ عنهُ [2] : " إلا فَهْماً يُؤتيهِ اللهُ عبداً في كتابهِ " [3] .

والنَّاسُ مُتفاوتونَ في الفَهمِ عن اللهِ ورسُولِهِ أعظمَ تَفاوتٍ ، فرُبَّ شَخصٍ يفهمُ من النَّصِّ حُكماً أو حُكمَين ، ويفهمُ منهُ الآخَرُ مئةً أو مئتَين .

فهؤلاءِ بمنزلةِ الأرضِ التي أمسكَت الماءَ للنَّاسِ فانتَفعوا بهِ ، هذا يشربُ منه ، وهذا يَسقي ، وهذا يَزرعُ .

---

(١) بيَّن المؤلف رحمه الله هذه الأقسام ، وفصَّلها في : الوابل الصَّيب من الكلم الطَّيب (٥٧) ، وشرَحَ حديثَ أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في : طريق الهجرتين (٢٢١) .

(٢) علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي ، ولد قبل البعثة بعشرة أعوام ، أوَّلُ من أسلم من الصبيان شهد بدراً ، والمشاهد بعدها عدا تبوك ، من علماء الصحابة ، استشهد على يد عبد الرحمن بن مُلجم ، عام : ٤٠ هـ . ينظر : الاستيعاب لابن عبد البر (١٠٨٩/٣) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٨٧/٤) ، والإصابة لابن حجر (٤٦٤/٤) .

(٣) رواه البخاري (١١١) بنحوه .

فهؤلاءِ القِسمَانِ هم السُّعداءُ ، والأوَّلون أرفعُ درجةً ، وأعلى قَدراً ، ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (١) .

القسمُ الثَّالثُ : الذين لا نَصيبَ لهم منهُ ؛ لا حِفظاً ، ولا فَهماً ، ولا روايَةً ، ولا دِرايةً بل هم بمَنزلةِ الأرضِ التي هي قِيعانٌ ؛ لا تُنبتُ ، ولا تُمسِكُ الماءَ ، وهؤلاءِ هم الأشقياءُ . والقسمانِ الأوَّلانِ اشتركا في العِلْمِ والتَّعليمِ ، كُلٌّ بحسبِ ما قَبِلَهُ ووَصلَ إليهِ فهذا يُعلِّمُ ألفاظَ القرآنِ ، ويحفَظُها ، وهذا يُعلِّمُ مَعانيَهُ ، وأحكامَهُ ، وعُلومَهُ .

والقسمُ الثَّالثُ : لا علمَ ولا تَعليم ! فهُم الذينَ لم يَرفَعوا بهديِ اللهِ رأساً ، ولم يَقبلوهُ وهؤلاء شرٌّ من الأنعامِ ، وهم وقودُ النَّار.

فقَد اشتملَ هذا الحديثُ الشريفُ العظيمُ على التَّنبيهِ على شرفِ العلمِ والتَّعليمِ وعِظَمِ موقعِهِ ، وشقاءِ مَن لَيسَ من أهلِهِ .

وذَكرَ أقسامَ بني آدمَ بالنِّسبَةِ فيه إلى شقيِّهم وسعيدِهم ، وتقسيم سعيدِهم إلى سابقٍ مُقرَّبٍ ، وصاحبِ يمينٍ مُقتَصِدٍ .

حاجة العباد إلى العلم أعظم من حاجتهم إلى المطر

وفيه دلالــةٌ على أنَّ حاجَـةَ العبادِ إلى العلمِ كحاجتِهم إلى المَطرِ ، بل أعظمُ ، وأنَّهُم إذا فَقَدوا العلمَ فهم بمنزلَةِ الأرضِ التي فَقَدَت الغَيثَ .

قال الإمامُ أحمَد (٢) : النَّاسُ مُحتاجونَ إلى العلمِ أكثرَ من حاجتهم إلى الطَّعامِ والشرابِ لأن الطَّعامَ والشرابِ يُحتاجُ إليه في اليومِ مرَّةً أو مرَّتين ، والعلمُ يُحتاجُ إليه بعدَدِ الأنفاسِ " (٣) .

ذكر المثل المائي و الناري

وقد قال تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ ﴾ (٤)

---

(١) الجمعة : ٤ .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ١١١ .

(٣) يُنظر نحوه في : مسائل حرب (٩٤٦/٢) ، وطبقات الحنابلة للقاضي ابن أبي يعلى (١٤٥/١) ، والآداب الشرعية لابن مفلح (٤٤/٢) .

(٤) الرعد : ١٧ .

شبَّه سبحانهُ العلمَ الذي أنزلهُ على رسولِه بالماء الذي أنزلَهُ مِن السَّماءِ ، لِمَا يحصُلُ بكُلِّ واحدٍ منهما من الحياةِ ، ومصالحِ العبادِ في معاشِهم ومعادِهم .

ثمَّ شبَّه القلوبَ بالأوديَةِ ؛ فقلبٌ كبيرٌ يَسَعُ علماً كثيراً ، كوادٍ عظيمٍ يسعُ ماءً كثيراً وقلبٌ صغيرٌ إنَّما يسعُ علماً قليلاً ، كوادٍ صغيرٍ إنَّما يَسَعُ ماءً قليلاً ؛ فقال : ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ ، هذا مَثَلٌ ضربهُ اللهُ تعالى للعلم حينَ تُخالِطُ القلوبَ بشاشتُهُ ، فإنَّهُ يَستخرجُ منها زَبَدَ الشبهاتِ البالطةِ ، فَيَطفو على وجهِ القَلبِ كما يستخرجُ السَّيلُ من الوادي زَبدًا يعلو فوقَ الماءِ .

وأخبَرَ سبحانهُ أنَّهُ رابٍ ، يَطفو [1] ويعلو على الماء ، لا يَستقرُّ في أرضِ الوادي ، كذلك الشُّبهاتُ الباطلةُ إذا أخرجَها العلمُ ، رَبَتْ فوقَ القلبِ وطَفَتْ ، فلا تستقرُّ فيهِ ، بل تُجفى وتُرمى ، فيستقرُّ في القلبِ ما ينفعُ صاحبَهُ والنَّاسَ من الهدى ودينِ الحقِّ ، كما يستقرُّ في الوادي الماءُ الصَّافي ، ويذهبُ الزَّبدُ جَفاءً ، وما يعقلُ عن اللهِ أمثالَهُ إلا العالِمونَ .

ثمَّ ضربَ سبحانه لذلك مَثلاً آخرَ ، فقال : ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [2] ، يعني أنَّ مِمَّا يُوقِدُ عليهِ بنو آدمَ مِن الذَّهبِ والفِضَّةِ ، والنُّحاسِ والحديدِ يخرجُ منه خَبثُهُ ، وهو الزَّبدُ الذي تُلقيهِ النَّارُ ، وتُخرجُهُ من ذلك الجَوهرِ بسببِ مُخالَطتِها ، فإنَّهُ يُقذفُ ، ويُلقى بهِ ، ويستقر الجوهر الخالصُ وحدَهُ .

وضَربَ سبحانه مَثلاً بالماءِ ، لِمَا فيهِ من الحياةِ ، والتَّبريدِ ، والمَنفعةِ ، ومَثلا بالنَّارِ لِمَا فيها من الإضَاءَةِ ، والإشراقِ ، والإحراقِ ، فآياتُ القرآنِ تُحيي القلوبَ ، كما تَحيى الأرضُ بالماءِ ، وتُحرِقُ خَبَثَها ، وشُبُهَاتِهَا ، وشَهواتِهَا ، وسَخَائِمَها [3] ، كما تُحرِقُ

---

(١) في : د ، ص : أي يطفوا .

(٢) الرعد : ١٧ .

(٣) جمع سَخِيمَة ، وهي : السَّوادِ ، وتُطلق على الحقدِ المدفون داخل النَّفْسِ . ينظر : الصحاح للجوهري (١٩٤٨/٥) النهاية في غريب الأثر لابن الأثير (٣٥١/٢) ، ولسان العرب لابن منظور (٢٨٢/١٢) .

النَّارُ ما يُلقَى فيها ، وتُمَيِّزُ زَبَـدَهَا مِـنْ زُبَــدِهَا ، كما تُميِّــزُ النَّارُ الخَبَثَ مِن الذَّهبِ والفضَّةِ ، والنُّحاسِ ، ونحوه [(١)] .

فهذا بعضُ ما في هذا المَثلِ العظيمِ مِن العِبْرَةِ ، والعِلمِ ، قال اللهُ تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [(٢)] .

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : لأن يهدي الله بك رجلا واحدا

الوجهُ الثَّالثُ والأربعونَ : ما في " الصَّحيحين " [(٣)] أيضاً ، من حديثِ سَهلِ بن سَعدٍ رضي الله عنه [(٤)] أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال لعليٍّ رضي الله عنهُ [(٥)] : ( لَأنْ يهديَ اللهُ بك رجُلاً واحداً ، خيرٌ لك مِن حُمْرِ النَّعَمِ ) ، وهذا يدلُّ على فضلِ العلمِ والتَّعليمِ ، وشرفِ مَنزلةِ أهلهِ ، بحيثُ إذا اهتدَى رجلٌ واحدٌ بالعالمِ كانَ ذلك خيراً لهُ من حُمْرِ النَّعَمِ ، وهي خِيارُها وأشرفُها عند أهلِهَا ، فما الظَّنُّ بِمَن يَهتَدي به كلَّ يومٍ طوائِفُ مِن النَّاس !.

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : من دعا إلى هدى

الوجهُ الرَّابعُ والأربعونَ : ما روى مُسلمٌ [(٦)] في " صحيحيه " [(٧)] من حديثِ أبي هُريرةَ رضي الله عنهُ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( من دَعا إلى هُدىً ، كان لهُ مِن الأجرِ مِثلُ أجورِ مَن تَبِعَهُ ، لا يُنْقِصُ ذلك من أجورِهم شيئاً ، ومن دَعا إلى ضَلالَـةٍ كان عليه مِن الإثمِ مِثلُ آثامِ مَن تَبِعَهُ ، لا يُنْقِصُ ذلك مِن آثامِهم شيئاً ) .

---

(١) ينظر كلام المؤلف رحمه الله في هذين المثلين المائي والناري في : إغاثة اللهفان (٢١/١) ، وإعلام الموقعين عن رب العالمين (١١٧/١) ، والوابل الصيب (٥٧/١) ، وطريق الهجرتين (٢٣٠) .

(٢) العنكبوت : ٤٣ .

(٣) صحيح البخاري (٢٩٤٢) ، ومسلم (٢٤٠٦) .

(٤) سهل بن سعد بن مالك بن خالد الخزرجي الأنصاري الساعدي . كان له يوم توفي النبي صلى الله عليه وسلم خمسة عشر عاماً ، وتوفي عام : ٨٨ هـ ، وقيل : ٩١ هـ . الاستيعاب لابن عبد البر (٦٦٤/٢) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٥٧٥/٢) .

(٥) تقدمت ترجمته ص : ١٩٩ .

(٦) تقدمت ترجمته ص : ٧٧ .

(٧) صحيح مسلم (٢٦٧٤) .

أخبر أنَّ المُتَسبِّبَ إلى الهُدى بدَعوتِهِ لهُ مِثلُ أجرِ مَن اهتَدى بهِ ، والمُتَسبِّبَ إلى الضَّلالةِ بدعوتِهِ ، عليه مِثلُ إثمِ مَن ضَـلَّ بهِ ؛ لأنَّ هذا بذلَ قُدرتَهُ في هدايَةِ النَّاسِ وهذا بذلَ قُدرَتَهُ في ضَلالتِهم ، فنُزِّلَ كلُّ واحدٍ منهما بمنزلةِ الفاعلِ التَّامِ [١].

وهذهِ قاعدةُ الشَّريعةِ ، كما هو مذكورٌ في غيرِ هذا الموضعِ ، قال تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [٣] ، وهذا يدلُّ على أنَّ مَن دَعا الأمَّةَ إلى غيرِ سُنَّةِ رسولِ اللهِ ، فهو عَدوُّهُ حقاً ؛ لأنَّه قطَعَ وصـولَ أجرِ مَن اهتَدى بسُنَّتِه إليهِ ، وهذا مِن أعظمِ مُعادَاتِهِ ، نعوذُ باللهِ مِن الخُذلانِ .

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا حسد إلا في اثنتين

الوجهُ الخامسُ والأربعونَ : ما خرَّجا في " الصحيحين " [٤] من حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه [٥] قال : قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : ( لا حسدَ إلا في اثنتين : رجلٌ آتاهُ الله مالاً فسلَّطَهُ على هَلَكَتِهِ في الحقِّ ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ الحِكمَةَ فهو يقضِي بها ويُعلِّمَها ) .

فأخبرَ صلى الله عليه وسلم أنَّه لا ينبغي لأحدٍ أن يَحسدَ أحداً ، يعني حسَدَ غِبْطَةٍ ويتمنَّى مِثلَ حالِهِ ، مِن غيرِ أن يتمنَّى / زوالَ نعمةِ اللهِ عنهُ ، إلا في واحدةٍ مِن هاتينِ [٣٣/أ]

---

(١) أوضح المؤلف رحمه الله في : طريق الهجرتين (٨١١) أن تغلُّظ الكفرِ المُوجبِ لتغلُّظِ العذاب يكون من ثلاثةِ أوجهٍ: أحدها : من حيثُ العقيدة الكافرة نفسها . وثانيها : تغلُّظُه بالعناد والضلال عمداً على بصيرة . ثم قال :" الجهة الثالثة : السعي في إطفاءِ نورِ اللهِ ، وصدِّ عبادِه عن دينهِ ، بما تصلُ إليه قدرتُهم ، فهؤلاءِ أشدُّ الكفارِ عذاباً بحسبِ تغلُّظِ كفرهِم ، ومنهم من يجتمع في حقِّهِ الجهاتُ الثَّلاثُ ، ومنهم من يكون فيه ثنتان منها أو واحدةٌ " .

(٢) النحل : ٢٥ .

(٣) العنكبوت : ١٣ .

(٤) رواه البخاري (٧٣) ، ومسلم (٨١٦) .

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

**الخَصْلتَينِ ، وهي الإحسانُ إلى النَّاسِ بعِلْمِهِ ، أو بِمالهِ ، وما عَدا هذين فلا ينبغي غِبْطَتَهُ ، ولا تَمنِّي مِثلَ حالهِ ، لقلَّةِ مَنفَعةِ النَّاسِ بهِ [١] .**

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : فضل العالم على العابد

**الوجهُ السَّادسُ والأربعون : قال الترمذيُّ [٢] حدَّثنا محمد بن عبدِ الأعلى [٣] : حدَّثنا سَلمةُ بن رجاءٍ [٤] : حدَّثنا الوليدُ بن جُمَيل [٥] حدَّثنا القاسمُ [٦] عن أبي أُمامةَ [٧] قال : ذُكِرَ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم رجلانِ أحدُهما عابدٌ ، والآخرُ عالمٌ فقالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : ( فضْلُ العالمِ على العابدِ كفَضلي على أدناكم ) ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : ( إنَّ اللهَ وملائكتَه وأهلَ السَّمواتِ والأرضِ**

---

(١) قال المؤلف رحمه الله في : الفوائد (١٤٠) : " فهذا حسدُ مُنافسةٍ ، يُطالبُ الحاسدُ به نفسَهُ أن يكونَ مثل المحسودِ ، لا حسد مَهانةٍ يتمنَّى بهِ زوالَ النِّعمةِ عن المحسود " . وقال في طريق الهجرتين (٧١٣) : "يعني أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يغبطَ أحداً على نعمةٍ ، ويتمنَّى مِثلها ، إلا أحدَ هذينِ ، وذلك لِمَا فيهما من النَّفعِ العامِّ والإحسانِ المتعدي إلى الخلقِ ، فهذا ينفعُهم بعلمِهِ ، وهذا ينفعُهم بمالهِ ، والخلقُ كلُّهم عِيالُ اللهِ ، وأحبُّهم إليهِ أنفعُهم لعيالهِ ، ولا ريبَ أنَّ هذين الصنفينِ من أنفعِ النَّاسِ لعيالِ اللهِ ، ولا يقومُ أمرُ النَّاسِ إلا بهذين الصِّنفينِ ، ولا يُعْمَرُ العالمُ إلا بهما" . وينظر كلام المؤلف حول الحسد ومراتبه ، في : بدائع الفوائد (٢/٢٣٦) .

(٢) محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك السُّلمي الترمذي ، الحافظ ، أحد الأئمة الأعلام الذين يُقتدى بهم في علم الحديث ، صنَّف : الجامع ، والعلل ، توفي عام : ٢٧٩ هـ . وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/٣٦٣) وتذكرة الحفاظ للذهبي (٢/١٥٤) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/٢٧٠) .

(٣) أبو عبد الله ، محمد بن عبد الأعلى الصنعاني البصري ، وثقه أبو حاتم ، وغيره ، توفي عام :٢٤٥ هـ .
الثقات لابن حبان (٩/١٠٤) ، والكاشف للذهبي (٢/١٩١).

(٤) سلمة بن رجاء التميمي ، أبو عبد الرحمن الكوفي ، ضعفه النسائي وغيره .
الضعفاء للنسائي (٤٧) ، وتهذيب الكمال للمزي (١١/٢٧٩) ، وميزان الاعتدال للذهبي (٢/١٨٩) .

(٥) الوليد بن جُميل بن قيس القرشي ، أبو الحجاج الفلسطيني ، قَال عنه أبو حاتم : " شيخ يروي عن القاسم أحاديث منكرة " . تهذيب الكمال للمزي (٣١/٨) ، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٩/٣) .

(٦) القاسم بن عبد الرحمن . أبي القاسم . ، أبو عبد الرحمن الدمشقي ، مولى عبد الرحمن بن خالد بن يزيد بن معاوية الأموي ، مُحدثُ دمشق ، وهو يرسل كثيرا عن قدماء الصحابة ، وثقه غير واحد ، توفي عام : ١١٢ هـ .
تهذيب الكمال للمزي (٢٣/٣٨٣) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٥/١٩٤)

(٧) الصُّدَيُّ بن عَجلان بن وهب بن عمرو بن عامر ، أبو أُمامة الباهلي ، غلبت عليه كنيته ، سكن في حمص ، توفي عام : ٨٦ هـ . الاستيعاب لابن عبد البر (٢/٧٣٦) ، والإصابة لابن حجر (٣/٣٣٩) .

**حتَّى النَّملةُ في جُحرِها وحتَّى الحوت ، لَيُصلُّونَ على معلِّمِ النَّاسِ الخيرَ ) (١) .**

**قالَ التِّرمذيُّ (٢) : " هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ ، سمعتُ أبا عمَّارٍ الحُسين بن حُرَيْثٍ الخُزاعيّ (٣) قالَ : سمعتُ الفُضَيلَ بن عِياضٍ (٤) يقولُ : " عالمٌ عاملٌ معلِّمٌ يُدعى كبيراً في ملكوتِ السَّماءِ " .**

**وهذا مرويٌّ عن الصَّحابةِ ؛ قالَ ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما : " علماءُ هذه الأُمَّةِ رجلانِ : فرجلٌ أعطاهُ اللهُ عِلماً ، فبَذَلهُ للنَّاسِ ولم يأخُذْ عليه صَفَداً (٥) ، ولم يَشتَرِ به ثمناً ، أولئكَ يُصلِّي عليهم طيرُ السَّماءِ ، وحيتانُ البحرِ ، ودوابُّ الأرضِ ، والكرامُ الكاتبونَ ، ورجلٌ آتَاهُ اللهُ عِلماً فضنَّ بهِ عن عبادِهِ ، وأخذَ به صَفَداً ، واشترى به ثمناً فذلك يأتي يومَ القيامةِ مُلجماً بلجَامٍ من نارٍ " .**

**ذكرَهُ ابن عبدِ البرِّ (٦) مرفوعاً (٧) ، وفي رفعِهِ نظرٌ !**

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٥) ، والطبراني في الكبير (٢٣٤/٨) ، وفيه : الوليد بن جُميل ، وهو مختلف فيه ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣٤٣/٢) .

(٢) سنن الترمذي ، كتاب : العلم ، باب : ما جاء في فضل الفقه على العبادة ، ح (٢٦٨٥) .

(٣) الحسين بن حُرَيْثٍ بن الحسن بن ثابت بن قطبة الخزاعي المروزي ، إمامٌ ، حافظٌ ، حُجة ، مولى عمران بن حصين توفي عام : ٢٤٤ هـ . تهذيب الكمال للمزي (٣٥٨/٦) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤٠٠/١١)

(٤) الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر ، أبو علي التميمي ، إمام ، قدوة ، ثبت ، ولد في سمرقند ، وارتحل في طلب العلم ، وجاور الحرم ، توفي عام : ١٨٧ هـ .

تذكرة الحفاظ للذهبي (١٨٠/١) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٢١/٨) ، وتهذيب التهذيب لابن حجر (٢٩٤/٨).

(٥) الصَّفَدُ : العطاء . العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٢/٧) ، وغريب الحديث للحربي (٧٠٦/٢) ، والمفردات للراغب الصفهاني (٤٨٦) .

(٦) يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النميري القرطبي ، إمام عصرِهِ في الحديث والأثر حافظ المغرب صاحب التصانيف الكثيرة ، منها : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد ، والاستذكار وغيرها ، توفي عام : ٤٦٣ هـ . وفيات الأعيان لابن خلكان (٤٤٥/٣) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٥٣/١٨) وطبقات الحفاظ للسيوطي (٤٣١) .

(٧) جامع بيان العلم وفضله (١٧٢/١) ، ورواه الطبراني في الأوسط (١٧١/٧) ح : ٧١٨٧ ، من طريقين عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا ، قال الهيثمي في : مجمع الزوائد (١٢٤/١) : " رواه الطبراني في الأوسط وفيه : عبد الله بن خِراش ضعفه البخاريُّ ، وأبو زُرعة ، وأبو حاتم ، وابن عَدي ، ووثقه ابن حبان " وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ( ٧٥/١) : " أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد ضعيف " .

وقولُه : (إنَّ اللهَ وملائكتَهُ وأهلَ السَّمـواتِ والأرضِ يُصَلُّونَ على معلِّمِ النَّاسِ الخيرَ ) لمَّا كانَ تَعلِيمُهُ للنَّاسِ الخيرَ سبباً لنجاتِهم ، وسعادَتِهم ، وزكاةِ نُفُوسِهم ، جازاهُ اللهُ من جِنسِ عمَلِهِ ، بأنْ جعلَ عليه مِن صلاتِه ، وصلاةِ ملائكتِه ، وأهلِ الأرضِ ما يكونُ سبباً لنجاتِهِ ، وسعادتِهِ وفلاحِهِ .

وأيضاً ؛ فإنَّ مُعلِّمَ النَّاسِ الخيرَ لمَّا كانَ مُظهِراً لدينِ الرَّبِّ ، وأحكامِهِ ، ومُعرِّفاً لهم بأسمائِهِ وصفاتِهِ ، جعلَ اللهُ مِن صلاتِهِ ، وصلاةِ أهلِ سمواتِهِ وأرضِهِ عليه ما يكونُ تنويهاً به ، وتشريفاً له ، وإظهاراً للثَّناءِ عليه بينَ أهلِ السَّماءِ والأرضِ .

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : من سلك طريقا يلتمس فيه علما

الوَجهُ السَّابعُ والأربَعُونَ : ما رواهُ أبو داودَ [(١)] والتِّرمِذي [(٢)] مِن حديثِ أبي الدَّردَاءِ رضي الله عنه [(٣)] قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقولُ : ( مَن سَلَكَ طَرِيقاً يبتَغِي فيه عِلماً ، سَلَكَ اللهُ به طريقاً إلى الجنَّةِ ، وإنَّ الملائِكَةَ لتضعُ أجنحتَها رِضاً لطالبِ العِلمِ ، وإنَّ العالِمَ ليَستغفِرُ له مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ ، حتَّى الحيتانُ في الماءِ ، وفَضلُ العالِمِ على العابِدِ كفَضلِ القمرِ على سائِرِ الكواكِبِ ، إنَّ العلمَاءَ ورثَةُ الأنبِيَاءَ ، إنَّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثُوا دِينَاراً ولا دِرهماً ، إنَّمَا وَرَّثُوا العِلمَ ؛ فمَن أخذَهُ أخذَ بحظٍّ وافرٍ ) .

---

(١) سليمان بن الأشْعث بن شدَّاد بن عمرو بن عامر أبو داود الأزدي السجستاني ، الإمام ، شيخ السنة ، مُحدِّث البصرة ، صاحب السُّنَن ، توفي عام : ٢٧٥ هـ . تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٧٥/١٠) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠٣/١٣) .

(٢) رواه أبو داود (٣٦٤١ ، ٣٦٤٢) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) ، وأحمد (١٩٦/٥) ، قال الترمذي : " ولا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حَيْوَة ، وليس هو عندي بمتصل "
وصححه ابن حبان في صحيحه (٨٨) ، وقال ابن حجر في فتح الباري (١٦٠/١) : " وحسنه حمزة الكناني وضعفه باضطراب في سنده ؛ لكن له شواهد يتقوى بها " ، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٤٣/١) .

(٣) عويمر ، وقيل : عامر بن ثعلبة بن عامر بن زيد بن قيس ، أبو الدرداء الأنصاري الخزرجي ، واختلف في اسم أبيه فقيل : عامر ، أو مالك ، أو ثعلبة ، أو عبد اللَّه ، أو زيد ، تأخر إسلامه ، فلم يشهد بدراً ، وشهد أحداً وما بعدها من المشاهد ، وقيل: إنه لم يشهد أحداً ، وأول مشاهده الخندق، توفي عام : ٣٢ هـ . الاستيعاب لابن عبد البر (١٦٤٦/٤) ، ولاسد الغابة لابن الأثير (٣٠٦/٤) ، والإصابة لابن حجر (٦٢١/٤) .

وقد رواه الوَليدُ بن مُسلِمٍ [١] عن خالِدِ بن يَزيدَ [٢] عن عثمانَ بن أيمنَ [٣] عن أبي الدَّردَاءِ قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقولُ : ( مَن غَدَا لعِلمٍ يتعلَّمُهُ فتحَ اللهُ له به طريقاً إلى الجنَّةِ ، وفَرَشتْ له الملائِكةُ أكنافَهَا [٤] ، وصلَّتْ عليه ملائِكةُ السَّماءِ ، وحيتانُ البحرِ ، وللعَالِمِ مِن الفَضلِ على العَابِدِ كفَضلِ القَمرِ ليلَةَ البَدرِ على سائِرِ الكواكِبِ ، والعلماءُ وَرَثَةُ الأنبياءِ ، لم يُورِّثُوا دينَاراً ولا دِرهماً ، إنَّما وَرَّثُوا العِلمَ فمَن أخَذَ بالعِلمِ أخَذَ بحَظٍّ وافرٍ ، وموتُ العالِمِ مُصيبَةٌ لا تُجبَرُ ، وثُلمَةٌ لا تُسَدُّ ، ونجمٌ طُمِسَ ، وموتُ قبيلَةٍ أيسَرُ مِن مَوتِ عالِمٍ ) ، وهذا حديثٌ حسنٌ [٥] .

والطَّريقُ التي يَسلُكُها إلى الجنَّةِ جزاءٌ على سلُوكِه في الدُّنيا طريقَ العِلمِ المُوصِلَةِ إلى رِضَا ربِّه .

وضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم

ووَضعُ الملائِكةِ أجنحتَها له تواضعاً له [٦] ، وتوقيراً ، وإكراماً لِمَا يحمِلُهُ مِن مِيرَاثِ النبوَّةِ ويطلبُهُ ، وهو يدلُّ على المحبَّةِ والتَّعظيمِ ؛ فمِن محبَّةِ الملائِكةِ له وتعظيمِه تَضَعُ أجنِحَتَها له ؛ لأنَّه طالِبٌ لِمَا به حياةُ العالَمِ ونجاتُه ، ففيهِ شَبَهٌ مِن الملائِكةِ ، وبينَهُ وبينَهم تناسُبٌ ؛ فإنَّ الملائِكةَ أنصَحُ خَلقِ اللهِ وأنفَعُهم لبني آدمَ ، وعلى أيدِيهم حصَلَ لهم كلُّ سعادةٍ ، وعلمٍ ، وهدى ، ومِنْ نفعِهم لبني آدمَ ونصحِهم ، أنَّهم يستغفِرونَ لمُسيئِهم ، ويُثنُونَ على مؤمنِيهم [٧] ، ويُعينُونَهم على أعدائِهم مِن الشياطينِ

---

(١) الوليد بن مسلم ، أبو العباس الدمشقي ، الإمام ، عالم أهل الشام ، الحافظ ، مولى بني أمية ، كثير التدليس ، توفي عام : ١٩٥ هـ . تهذيب الكمال للمزي (٨٦/٣١) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢١١/٩) .

(٢) خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أَبي مالك الهمداني الشامي ، ضعفه الإمام أحمد ، ويحيى بن معين ، والنسائي وغيرهم ، توفي عام : ١٨٥ هـ . الضعفاء للنسائي (٣٦) ، والكامل لابن عدي (١٠/٣) ، وتهذيب الكمال للمزي (١٩٦/٨) .

(٣) عثمان بن أيمن الدمشقي . تاريخ دمشق لابن عساكر (٣١٨/٣٨) .

(٤) جمع كَنَف ويراد به :الحِرزُ والسِّترُ والحفظُ والرِّعايةُ . العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (٣٨١/٥) ، وغريب الحديث لابن قتيبة (٥٧٢/١) ، والصحاح للجوهري (١٢٥/٢) .

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢٢٣/٣) ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٧٠/١) ، وفيه خالد بن يزيد وهو ضعيف كما تقدم في ترجمته أعلاه .

(٦) في ص : تواضعاً وتوقيراً .

(٧) في : د : ويُثَبِّتُون مُؤمِنَهم ، وفي : ص : ويُثنُون مُؤمنَهم .

**ويحرِصونَ على مَصالِحِ العبدِ أضعَافَ حِرصِهِ على مصلَحةِ نفسهِ ، بل يُريدونَ له مِن خَيرِ الدُّنيَا والآخِرةِ ما لا يُرِيدُ (١) العبدُ ، ولا يَخطرُ له ببالٍ ؛ كما قالَ بعضُ التَّابِعينَ : " وجَدنَا الملائِكَةَ أنصَحَ خلقِ اللهِ لعبادِهِ ، ووجَدنَا الشياطِينَ أغشَّ الخلقِ للعبادِ " (٢) .**

**وقالَ تعالى :** ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ (٣) ، **فأيُّ نُصْحٍ للعبادِ مثلُ هذا ؛ إلَّا نُصحُ الأنبياءِ .**

**فإذا طَلَبَ العبدُ العِلمَ ، فقد سَعَى في أعظَمِ ما يَنصَحُ به عِبادَ اللهِ ؛ فلذلكَ تُحبُّهُ الملائِكَةُ وتُعظِّمُه ، حتَّى تَضَعَ أجنحتَها رِضاً ومحبَّةً وتعظِيماً .**

**وقالَ أبو حاتم الرَّازي (٤): سمِعتُ ابن أبي أُوَيسٍ (٥) يقول : سمعتُ مالكَ بن أنَسٍ (٦) يقول : " معنَى قولِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ( تَضعُ أجنِحتَها ) يعني : تبسُطها**

---

(١) في ص : يُرِيدُهُ .

(٢) رواه عبد الرزاق في تفسيره (١٤٠/٣) ، وابن جرير الطبري في تفسيره (٢٨٧/٢٠) ، وأبو نعيم في الحلية (٢٠٨/٣) عن مُطَرِّفُ بن عبدِ اللهِ بن الشِّخِّيرِ .

(٣) غافر : ٧ – ٩ .

(٤) محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران الحنظلي ، أبو حاتم الرازي ، الإمام ، الحافظ ، الناقد ، شيخُ المحدثين من أقران البخاري ومسلم ، له من المصنفات : الجرحُ والتَّعديل ، وتفسيرُ القرآن العظيم ، وعِللُ الحديثِ ، أصلُ السنةِ واعتقادُ الدين ، وغيرها ، توفي عام : ٢٧٧ هـ . تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤١٤/٢) ، وطبقات الحنابلة للقاضي ابن أبي يعلى (٢٨٤/١) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢٤٧/١٣) .

(٥) أبو عبد الله ، إسماعيل بن عَبد الله بن عَبد الله بن أويس بن مالك بن أَبي عامر الأصبحي المدني ، توفي عام : ٢٢٦ هـ . تهذيب الكمال للمزي (١٢٤/٣) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣٩١/١٠) .

(٦) مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي ، إمام دار الهجرة ، أحدُ الأئمةِ الأربعة ، إمامُ أهلِ الحجاز في عصره وإليه ينتهي فقهُ المدينةِ ، ويُعدُّ كتابُه : الموطأ ، من أكبر آثارِهِ التي نقلت عنه ، توفي عام : ١٧٩ هـ . حلية الأولياء لأبي نعيم (٣١٦/٦) ، وترتيب المدارك للقاضي عياض (١٠٤/١) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٣٠٠/٢) .

**بالدُّعاءِ لطالبِ العِلمِ بَدَلاً مِن الأيدِي " [(١)] .**

**وقـالَ أحمـدُ بن مـروان المالكـي [(٢)] في كتابِ " المُجالَسَة " له : حدَّثنا زكريَّا بن عبدِ الرَّحمن البَصريِّ [(٣)] قالَ : سمعتُ أحمدَ بن شُعيبٍ يقولُ : كنَّا عِندَ بعضِ المُحدِّثين بالبَصرَةِ فحدَّثَنا بحديثِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : ( إنَّ الملائِكةَ تَضعُ أجنِحتَها لطالبِ العِلمِ ... ) ، وفي المَجلِسِ معنا رجلُ مِن المُعتزِلَة [(٤)] ، فجعلَ يستَهزِئُ بالحديثِ فقالَ : واللِه لأَقَطِّرنَّ غداً نَعلِي [(٥)] ، فأطَأُ بها أجنِحةَ الملائِكةِ ! ففَعَلَ ومَشى في النَّعلَينِ فجفَّتْ رِجلَاهُ جميعاً ، ووقَعَتْ فيهمَا الآكِلَةُ "[(٦)] .**

**وقالَ الطَّبَرَانِي [(٧)] : سمِعتُ أبا يحيى زكريَّا بن يحيى السَّاجي [(٨)] ، قالَ : كُنَّا نمشي في بعضِ أزِقَّةِ البَصرَةِ إلى بابِ بعضِ المُحدِّثينَ ، فأسرَعنا المشيَ ، وكانَ معنَا رجلٌ ماجنٌ متَّهمٌ في دينِه ، فقال : ارفَعوا أرجلَكُم عن أجنِحةِ الملائِكةِ لا تَكسِرُوها ! كالمُستَهزِيء ؛ فما زالَ مِن موضِعِه حتَّى جفَّتْ رِجلَاه وسَقَطَ " [(٩)] .**

---

(١) المجالسة للدِّيْنَوري (٥/٢٩٤) .

(٢) أبو بكر ، أحمد بن مروان الدِّيْنَوري المالكي ، الفقيه ، المحدث ، تولى قضاء (القلزم) ، ثم ولي قضاء (أسوان) بمصر من مؤلفاته : المجالسة وجواهر العلم ، ومناقب الإمام مالك ، وغيرها . وتوفي بالقاهرة عام : ٢٩٨ هـ .
سير أعلام النبلاء للذهبي (١٥/٤٢٧) ، وحسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للسيوطي (١/٣٦٧) .

(٣) زكريا بن عبد الرحمن البصري ، ذكره ابن العديم في مشيخة أحمد بن مروان الدِّيْنَوري ، بغية الطلب في تاريخ حلب (٣/١١٣٦) .

(٤) سبق التعريف بهم ، ص : ٨٩ .

(٥) المراد : تهيئة النعل وإعداده ، لفعل ذلك الأمر ، يُقَالُ : تَقَطَّرَ فلانٌ لِلقتَالِ تَقَطُّراً ، وتَقَتَّرَ وتَشَذَّرَ ، إذَا تَهَيَّأَ لَهُ .
تهذيب اللغة للأزهري (٩/٦) ، ولسان العرب لابن منظور (٥/١٠٥) ، وتاج العروس للزبيدي (١٣/٤٤٦)

(٦) كتاب المجالسة للدِّيْنَوري (٥/٢٩٤) .

(٧) سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني ، المحدِّث المشهور ، ثقة ، حافظ صاحب المصنفات ، ومن أشهرها : المعجم الكبير ، والمعجم الأوسط ، والمعجم الصغير ، توفي عام : ٣٦٠.
وفيات الأعيان لابن خلكان (١/٣٨٤) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٦/١١٩)

(٨) أبو يحيى ، زكريا بن يحيى بن عبد الرحمن بن بحر بن عدي السَّاجي الضَّبِّيُّ البَصْرِيُّ ، محدث البصرة ، وشيخها ومفتيها ، له كتاب : اختلاف الفقهاء ، وعلل الحديث ، توفي عام :٣٠٧ هـ . تذكرة الحفاظ للذهبي (٢/٢٠٠) وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٤/١٩٧) .

(٩) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى (٤/٣٥٩) : " ونظير هذا ما ذكره الطبراني في كتاب السنة " ثم

حفُّ الملائكة بأجنحتها طالب العلم

وفي " السُّننِ " و " المَسانِيد " [١] عن صفوانَ بن عسَّالٍ رضي الله عنه [٢] ، قال : قلت يا رسولَ الله : إنِّي جئتُ أطلبُ العِلمَ ، قال : " مرحباً بطَالبِ العِلْمِ ، إنَّ طالبَ العلمِ لتَحُفُّ بهِ الملائِكةُ ، وتُظِلُّهُ بأجنِحَتها ، فيركبُ بعضُهم بعضَاً ، حتى تبلغَ السَّماءَ الدُّنيا مِن حبِّهم لِمَا يطلبُ " وذكرَ حديثَ المسحِ على الخُفَّينِ .

قال أبو عبد اللهِ الحاكم [٣] : " إسنادهُ صحيحٌ " [٤] ، وقال / ابنُ عبدِ البَرِّ : " هو حديثٌ صحيحٌ حَسنٌ ثابت محفوظٌ مرفوعٌ ، ومثلهُ لا يُقال بالرأي " [٥] . [٣٤/أ]

الفرق بين وضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم وحفِّها له

ففي هذا الحديثِ حَفُّ الملائكةِ لهُ بأجنِحَتِها إلى السَّماءِ ، وفي الأوَّلِ وضعُهَا أجنِحَتَها له ، فالوَضعُ تواضعٌ ، وتوقيرٌ وتَبْجِيلٌ ، والحَفُّ بالأجنِحَةِ حِفظٌ ، وحِمايةٌ ، وصيانَةٌ . فتضَمَّنَ الحدِيثَانِ تعظيمَ الملائكةِ لهُ ، وحُبَّها إياهُ ، وحياطَتَهُ وحِفظَهُ ، فلو لم يكن لطالبِ العلمِ إلا هذا الحَظُّ الجَزيلُ لكفى بهِ شَرفاً وفَضلاً .

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (إن العالم ليستغفر له من في السموات ..) وسرُّ الاستغفار

وقولهُ صلى الله عليه وسلم : ( إنَّ العالمَ ليَستَغفِرُ لهُ مَن في السَّمواتِ ، ومَن في الأرضِ حتى الحيتانُ في الماءِ ) [٦] ؛ فإنهُ لمَّا كان العَالِمُ سَبَباً في حُصولِ العلمِ ، الذي بهِ نَجاةُ النُّفوسِ مِن أنواعِ الهَلَكَاتِ ، وكان سعيهُ مَقصوراً على هذا ، وكانت نَجاةُ العبادِ على يديهِ ، جُوزيَ مِن جنسِ عَملهِ ، وجُعلَ مَن في السَّمواتِ والأرضِ ساعياً في نجاتِهِ من

---

ساق القصة ، ورواه من طريق الطبراني الخطيبُ البغدادي في : الرحلة في طلب الحديث (٨٥) .

(١) رواه الترمذي (٣٥٣٥) ، والنسائي (١٥٨) ، وابن ماجه (٢٢٦) ، وأحمد (٢٣٩/٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤١) ، وغيرهم. قال الترمذي : " هذا حديث حسن صحيح " ، وصححه ابن حبان في صحيحه (٢٨٥/١) ، وحسَّنَهُ الألباني في صحيح سنن النسائي (٣٥/١) .

(٢) صفوانُ بن عسَّال المُراديُّ ، من بني الرَّبَض بن زاهر ، غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة غزوة . الاستيعاب لابن عبد البر (٧٢٤/٢) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٢٨/٣) ، والإصابة لابن حجر (٣٥٣/٣) .

(٣) أبو عبد الله الحاكم ، محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدَويه بن نُعيم بن الحكم الضَّبي ، الطَّهْمَاني النيسابوري الحافظ الكبير ، إمام المحدثين في عصره ، سمع من جماعة تقرب من ألفي شيخ ، له تصانيف كثيرة ، منها : العلل والأمالي ، والمستدرك ، والمدخل إلى علم الصحيح ، وغيرها ، توفي عام : ٤٠٥ هـ . تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٥٠٩/٣) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٣٦٤/٢) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (١٦٢/٣) .

(٤) المستدرك (١٠٠/١) .

(٥) جامع بيان العلم وفضله (١٥٨/١) .

(٦) سبق تخريجه ، ص : ٢٠٦ .

أسبَابِ الهَلَكَاتِ ، باستغفارِهم لهُ ، وإذا كانت الملائكةُ تستغفرُ للؤمنينَ ، فكيفَ لا تستغفرُ لخاصَّتِهم ، وخُلاصَتِهم .

وقد قيلَ : إنَّ " مَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرض " - المُستغفرينَ للعَالِمِ - عامٌ في الحيواناتِ ، ناطِقها وبَهِيمِهَا ، طيرِهَا ، وغيرِهِ [١].

ويُؤَكِّدُ هذا قولُهُ : ( حتى الحيتانُ في الماءِ ، وحتى النَّملةُ في جُحرِهَا ) .

فقيلَ : سبَبُ هذا الاستغفارِ ، أنَّ العَالِمَ يُعلِّمُ الخَلقَ مُراعاةَ هذهِ الحيواناتِ ، ويُعرِّفُهُم مَا يَحِلُّ منها ، وما يَحرمُ ، ويُعرِّفُهُم كَيفيَّةَ تناولِها ، واستخدَامِها ، ورُكُوبِها ، والانتفاعِ بها وكيفيَّةِ ذَبْحِها على أحسنِ الوُجُوهِ ، وأرفَقِها بالحيوانِ ، والعَالِمُ أشفقُ النَّاسِ على الحيوانِ ، وأقومُهم ببيانِ مَا خُلقَ لهُ [٢].

وبالجُملَةِ ؛ فالرَّحمةُ والإحسانُ التي خلق بهما ولهما الحيوانُ ، وكُتِبَ لهما حَظُّهما منهُ إنَّما يُعرفُ بالعِلمِ ، فالعالمُ مُعَرِّفٌ لذلك ؛ فاستحقَّ أن تستغفرَ لهُ البهائمُ ، والله أعلم .

تشبيه العالم بالقمر والعابد بالكوكب

وقولُهُ : ( وفضلُ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ على سائرِ الكواكبِ ) ، تشبيهٌ مُطابقٌ لحالِ القمرِ والكواكبِ ؛ فانَّ القمرَ يضيءُ الآفاقَ ، ويمتَدُّ نورهُ في أقطارِ العالَمِ ، وهذهِ حالَةُ العَالِمِ ، وأمَّا الكوكبُ فنُورهُ لا يُجاوزُ نفسَهُ ، أو ما قَرُبَ منهُ ، وهذهِ حالُ العابِدِ

---

(١) واستغفار الحوت ، والنملة ، ونحوهما من الحيوانات التي لا تعقل هو استغفار حقيقيٌّ بلسان المقال ؟

قال النووي عند كلامه على تسبيح الجمادات : " وأهل التحقيق على أنه يسبح حقيقة وإذا كان العقل لا يحيل جعل التمييز فيها وجاء النص به وجب المصير " شرح صحيح مسلم (٢٠٢/٣)

وقال شمس الدين السفيري في شرح صحيح البخاري (٨٤/٢) : " وهنا سؤال وهو: هل استغفار الحوت ونحوه من الحيوانات التي لا تعقل بلسان الحال أو بلسان القال ؟

والمرجح كما قال النووي: إنها تستغفر وتسبح بلسان القال ، إذ لا يمتنع عقلاً أن يجعل الله فيها قوَّةً تنطق بها وتُميز كما يجوز ذلك في بعض الجمادات كقوله تعالى في الحجارة :

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ﴾ [البقرة:٧٤] ، وقوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤] " .

(٢) قال الخطابي في معالم السنن (١٨٣/٤) : " إنَّ الله قد قيَّضَ للحيتان ، وغيرِها من أنواعِ الحيوانِ بالعِلْمِ على ألسِنةِ العلماءِ أنواعاً من المنافعِ والمصالحِ ، والإرفَاقِ ، فهم الذين بيَّنوا الحُكمَ فيها فيما يَحلُّ ويَحرمُ منها ، وأرشَدوا إلى المَصلحةِ في بابِها ، وأوصَوا بالإحسانِ إليها ، ونفي الضَّررِ عنها ؛ فألهَمَها اللهُ الاستغفارَ للعلماءِ مُجازاةً على حُسنِ صَنيعِهم بها ، وشفَقَتِهم عليها " .

**الذي يُضيءُ نُورُ عبادَتِهِ عليهِ دونَ غيرِهِ ، وإن جاوزَ نورَ عبادَتهِ غيرَهُ ، فإنَّما يُجاوزُ غيرَ بعيدٍ ، كما يُجاوزُ ضوءَ الكوكبِ لهُ مُجاوزةً يَسيرةً .**

**ومن هذا الأثر المَرويُّ : " إذا كان يومُ القيامةِ ، يقولُ اللهُ للعابدِ : ادخل الجنَّةَ ؛ فإنَّما كانت مَنفَعتُكَ لنَفْسِكَ ، ويقالُ للعالِمِ : اشفَعْ تُشَفَّع ؛ فإنَّما كانت مَنَفَعتُك للنَّاسِ " (١)**

**وروى ابنُ جُريجٍ (٢) ، عن عطاءٍ (٣) ، عن ابن عباس رضي الله عنهما (٤) : " إذا كان يومُ القيامةِ يُؤتى بالعابدِ والفقيهِ ، فيقالُ للعابدِ : ادخل الجنَّةَ ، ويُقالَ للفقيهِ : اشفَعْ تُشفَّع " (٥) .**

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في : الفقيه والمتفقه (١١١/١) عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وفي سنده : سمعان بن مهدي ، قال عنه الذهبي في الميزان (٢٣٤/٢) : " سمعان بن مهدي ، عن أنس بن مالك ، لا يكاد يُعرف ، أُلصقت به نُسخةٌ مكذوبةٌ ، رأيتها قبَّح الله من وضعها " .

ورواه ابن عدي في : الكامل (٤٣٨/٦) ، والبيهقي من طريقه في : شعب الإيمان (٢٤٣/٣) ، من حديث جابر رضي الله عنه . وفي سنده : بقية عن مقاتل بن سليمان ، وبقيّة : كثير التدليس ، وقد ضعفوه .

ينظر : تهذيب التهذيب لابن حجر (٤٧٣/١) ، وطبقات المدلسين لابن حجر (٤٩) ، ومقاتل : كذَّبوه . ينظر : تقريب التهذيب لابن حجر (٥٤٥/٢) .

ومن طريق أخرى ، رواه ابن عدي في الكامل (٤١٢/٢) ، وابن عبد البر في : جامع بيان العلم (١٠٨/١) من حديث جابر رضي الله عنه . وفي سنده : حبيبُ بن أبي حبيبٍ ، قال عنه ابن عدي في الكامل (٤١١/٢) : "وهو حبيب بن رُزيق الحنفي ، مصريٌّ ، يُكنَّى أبا محمد ، كاتبُ مالك بن أنسٍ ، يضعُ الحديثَ "

(٢) أبو الوليد ، عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي مولاهم ، رومي الأصل ، الإمام ، الفقيه ، الحافظ ، قيل : هو أوَّلُ من صنَّف في مكة ، توفي عام : ١٥٠ هـ . وفيات الأعيان لابن خلكان (٧٨/٢) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣٢٥/٦) .

(٣) عطاء بن أبي رباح . أسلم . بن صفوان ، أبو محمد القرشي مولاهم ، الإمام ، شيخُ الإسلام ، مُفتي الحرم ، تابعيٌّ من أجلّاء الفقهاء وكبارهم ، توفي عام : ١١٤ هـ . وفيات الأعيان لابن خلكان (١٢٤/٢) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٧٨/٥) .

(٤) سبقت ترجمته ، ص : ٨٧ .

(٥) رواه الخطيب البغدادي في : الفقيه والمتفقه (١١٢/١) ، وفي سنده : محمد بن مروان السُّديُّ الصغير ، قال عنه الذهبي في الميزان (٣٢/٤) : " تركوهُ ، واتهمَهُ بعضُهم بالكذبِ " .

وفي التشبيه المذكور لطيفةٌ أخرى : وهو أنَّ الجهل كالليلِ في ظُلْمَتِهِ ، وجنْسِهِ والعلماءُ والعُبَّادُ بِمنزلةِ القمرِ والكواكبِ الطَّالِعةِ في تلكَ الظُّلمةِ ، وفضلُ نورِ العالمِ فيها على نورِ العابدِ كفضلِ نُورِ القمرِ على الكواكب .

وأيضاً ؛ فالدِّينُ قِوامُه وزينَتهُ وأمنَتُهُ بعُلمَائِهِ وعُبَّادِهِ ، فإذا ذهبَ عُلماؤُهُ وعُبَّادُهُ ذهبَ الدِّينُ ، كما أنَّ السَّماءَ أمَنَتُها وزِينَتُها بقمرها وكواكِبها ، فإذا خسفَ قَمرهُا وانتَثَرَت كواكِبُها أتاها ما تُوعَدُ ، وفَضلُ عُلماءِ الدِّينِ على العبادِ كفَضلِ ما بين القمرِ والكواكبِ .

تشبيه العالم بالقمر دون الشمس

فإن قيلَ : كيفَ وقَعَ تَشبِيهُ العالِمِ بالقمرِ دونَ الشَّمسِ ، وهي أعظمُ نُوراً ؟
قيل : فيه فائِدتانِ :
إحداهما : أنَّ نورَ القمرِ لمَّا كان مُستفاداً مِن غَيرِهِ ، كان تشبيهُ العالمِ الذي نورهُ مُستفادٌ من شمسِ الرِّسالةِ بالقَمرِ أولى من تَشْبِيهِهِ بالشَّمسِ .
الثانية : أنَّ الشَّمسَ لا يختلفُ حالُها في نُورها ، ولا يلحقُها مُحاقٌ (١) ولا تفاوتٌ في الإضاءَةِ ، وأمَّا القمرُ فإنَّه يَقِلُّ نُورهُ ويكثرُ ، ويمتَليءُ وينقُصُ كما أنَّ العلماءَ في العلمِ على مراتِبهم مِن كثرتِهِ وقلَّتهِ ، فيُفضَّلُ كلٌّ منهم في عِلمِهِ بحَسبِ كثرَتِهِ وقلَّتِهِ وظُهورِهِ وخَفائِهِ ، كما يكونُ القمرُ كذلك ، فعالِمٌ كالبدرِ ليلةَ تِمِّهِ ، وآخرُ دونَهُ بليلَةٍ وثانِيَةٍ وثالِثَةٍ ، وما بعدَها ، إلى آخرِ مراتبهِ ، وهم دَرجاتٌ عندَ اللهِ .

---

(١) المَحْقُ : أن يَذْهَب الشيء كُلُّه حتى لا يُرَى منه شَيْءٌ ، والمُحاقُ مُثلث الميم ، وهو : أَن يسْتَسر القمرُ ، فلا يُرى غُدْوةً ولا عَشيَّةً ، لثلاث ليالٍ من الشهر . تهذيب اللغة للأزهري (٥٣/٤) ، والصحاح للجوهري (٦٧٨/٢) ولسان العرب لابن منظور (١٢/١٠) .

فإن قيلَ : تشبيهُ العلماءِ بالنُّجومِ أمرٌ معلومٌ ، كقولِهِ صلى الله عليه وسلم : ( أصحابي كالنُّجومِ ) [١] ، ولهذا هي في تعبيرِ الرُّؤيا عبارةٌ عن العلماءِ [٢] ، فكيف وقعَ تشبيهُهُم هنا بالقمرِ ؟

قيلَ : أمَّا تشبيهُ العلماءِ بالنُّجومِ ؛ فلأنَّ النُّجومَ يُهتدى بِها في ظُلماتِ البَرِّ والبحرِ وكذلك العلماء ، والنُّجومُ زينَةٌ للسماءِ ، وكذلك العلماءُ زينةٌ للأرضِ ، وهي رُجُومٌ للشَّياطين ، حائِلةٌ بينهم وبينَ استراقِ السَّمعِ لئلَّا يُلَبِّسوا بِما يستَرقُونَهُ من الوَحي الواردِ إلى الرُّسلِ من اللهِ على أيدي ملائكَتِهِ ، وكذلك العلماءُ رُجُومٌ لشياطين الإنسِ ، الذين يُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخرفَ القولِ غُروراً .

فالعلماءُ رُجومٌ لهذا الصِّنفِ مِن الشَّياطين ، ولولاهم لطُمِسَتْ مَعالمُ الدِّينِ بتَلبيسِ المُضلِّين ، ولكنَّ اللهَ سبحانهُ أقامَهُم حُرَّاساً ، وحَفَظَةً لدِينهِ ، ورُجوماً لأعدائِهِ ، وأعداءِ رُسلهِ .

فهذا وجهُ تشبيهِهِم بالنُّجوم .

وأمَّا تشبهُهُم بالقمرِ ؛ فذلك إنَّما كان في مَقامِ تفضيلِهم على أهلِ العبادةِ المُجرَّدةِ ومُوازنَةِ ما بينهما مِن الفضلِ .

والمعنى : أنَّهم يَفضُلُونَ العبادَ الذين ليسوا بعلماءَ ، كما يفضُلُ القمرُ سائرَ الكواكبِ فكلٌّ من التَّشبهَينِ لائقٌ بموضعهِ ، والحمدُ للهِ .

معنى قوله صلى الله عليه وسلم: العلماء ورثة الأنبياء

وقولهُ : ( إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ ) ، هذا من أعظمِ المَناقِبِ لأهلِ العلمِ ؛ فإنَّ الأنبياءَ خيرُ خلقِ اللهِ ، فورَثَتُهُم خيرُ الخلقِ بعدَهُم ، ولمَّا كان كلُّ مُورِّثٍ ينتقلُ مِيراثُه إلى ورَثَتِهِ

---

(١) روي عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم ، منهم : عمر بن الخطاب ، وابن عمر ، وجابر ، وابن عباس وأنس بن مالك ، وغيرهم ، بألفاظ عدة ، فحديث جابر : رواه البيهقي في المؤتلف والمختلف (١٧٧٨/٤) ، وابن عبد البر في : جامع بيان العلم وفضله (٩٢٥/٢) ، وقال : " هذا إسناد لا تقوم به حُجةٌ لأنَّ الحَارِثَ بن غُصَيْنٍ مَجهولٌ " وضعفه غير واحد ، ينظر : جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٩٢٣/٢) ، وسلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني (٧٨/١) .

(٢) يُنظر : تعبير الرؤيا لابن قتيبة (١٠٢) ، والبدر المنير في علم التعبير للشهاب العابر المقدسي (٢٠٩) والإشارات في علم العبارات لابن شاهين (١٩٢) .

إذ هم الذين يقومونَ مَقامَهُ مِن بعدهِ ، ولم يكن بعدَ الرُّسلِ مَن يقومُ مَقامَهُم في تبليغِ ما أُرسِلُوا به إلَّا العلماءُ ، كانوا أحقَّ النَّاسِ بـمِيراثِهم .

وفي هذا تنبيهٌ على أنَّهم أقرَبُ النَّاسِ إليهم ؛ فإنَّ المِيراثَ إنَّما يكونُ لأقربِ النَّاسِ إلى المُورِّثِ ، وهذا كما أنَّه ثابتٌ في مِيراثِ الدِّينارِ والدِّرهمِ ، فكذلكَ هو في مِيراثِ النُّبوةِ والله يختصُّ برحمتهِ مَن يشاءُ .

وفيه أيضاً إرشادٌ ، وأمرٌ للأُمَّةِ بطاعتِهم ، واحترامِهم ، وتعزيزِهم ، وتَوقيرِهم ، وإجلالِهم فإنَّهم ورثةُ مَن هذهِ بعضُ حُقوقِهم على الأُمَّةِ ، وخُلفاؤهم فيهم .

وفيه تنبيهٌ على أنَّ مَحبَّتَهُم مِن الدِّين ، وبُغضَهُم مُنافٍ للدِّين ، كما هو ثابتٌ لمُورِّثِهم (١) . وكذلك مُعاداتُهُم ومُحَارَبَتُهُم مُعاداةٌ ومُحَاربةٌ للهِ كما هو في مَوروثِهم .

قال علي رضي الله عنه : " مَحبةُ العلماءِ دينٌ يُدانُ بهِ " (٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربِّهِ عزَّ وجلَّ : ( من عَادَى لي وليًّاً ، فقد بارزني بالمُحارَبةِ ) (٣) ، ووَرَثةُ الأنبياءِ ساداتُ أولياءِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

وفيه تَنبيهٌ للعلماءِ على سُلوكِ هَدى الأنبياءِ ، وطريقَتِهم في التَّبليغِ ، من الصَّبرِ والاحتمالِ ، ومُقابلةِ إساءَةِ النَّاسِ إليهم بالإحسانِ ، والرِّفقِ بِهم ، واستجلابِهم إلى اللهِ بأحسنِ الطُّرقِ ، وبذلِ ما يُمكنُ مِن النَّصيحةِ لهم ؛ فإنَّه بذلكَ يَحصُلُ لهم نَصيبُهُم مِن هذا المِيراثِ / العظيمِ قَدْرُهُ ، الجَليلِ خَطَرُهُ . [٣٥/أ]

وفيه أيضاً ؛ تَنبيهٌ لأهلِ العلمِ على تَربيةِ الأُمَّةِ كما يُربي الوالدُ وَلَدَهُ ؛ فيربُّونَهم بالتَّدريجِ والتَّرقي من صغارِ العلم إلى كِبارِهِ ، وتَحمِيلِهم منهُ ما يُطيقونَ ، كما يفعلُ الأبُ بولدِهِ الطِّفلِ في إيصالِ الغِذاءِ إليهِ ؛ فإنَّ أرواحَ البَشرِ بالنِّسبَةِ إلى الأنبياءِ والرُّسلِ كالأطفالِ بالنِّسبةِ إلى آبائِهم ، بل دونَ هذهِ النِّسبةِ بكثيرٍ ، ولهذا كلُّ رُوحٍ لم يُربِها الرسول لم تُفلحْ ولم تَصلُحْ لصالِحةٍ ؛ كما قيل (٤) :

---

(١) في : د : لموروثهم .

(٢) جزء من وصية علي رضي الله عنه لكُميل بن زياد ، وستأتي كاملة في ص : ٣٨١ .

(٣) رواه البخاري (٦٥٠٢) ، وغيره .

(٤) نسبه خالد البلوي في : تاج المفرق في تحلية علماء المشرق (١١٥) إلى قطب الدين أبي بكر محمد بن أحمد

ومَن لا يُرَبِّيــه الرَّسولُ ويَسْقِــهِ     لُبَانَ هُدىً قدْ دَرَّ مِنْ ثَدْيِ قُدْسِهِ
فَذاكَ لَقِيطٌ مَا لــهُ نِسْبَةُ الــوَلَا     ولا يَـتَـعَدَّى طَـورَ أبْـنَـاءِ جِنْسِـهِ

معنى قوله صلى الله عليه وسلم: إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما

وقولُهُ : ( إنَّ الأنبياءَ لـم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً ، إنَّما وَرَّثوا العلمَ ) ، هذا من كمالِ الأنبياءِ وعِظَمِ نُصْحِهم للأُمَمِ ، وتَمامِ نعمَةِ اللهِ عليهم ، وعلى أُمَمِهم ، أنْ أزاحَ جميعَ العِلَلِ ، وحَسَمَ جميعَ المَوادِّ التي تُوهِمُ بعضَ النُّفوسِ أنَّ الأنبياءَ مِن جنسِ المُلوكِ الذينَ يُريدون الدُّنيا ومُلْكَهَا ! فحمَاهُم اللهُ سبحانه وتعالى من ذلك أتَمَّ الحِمايةَ .

ثمَّ لمَّا كان الغالبُ على النَّاسِ أنَّ أحدَهُم يُريدُ الدُّنيا لولَدِهِ من بَعدِهِ ، ويسعى ويَتعبُ ويَحْرِمُ نفْسَهُ لولدِهِ ، سَدَّ هذهِ الذَّريعةَ عن أنبيائهِ ورُسُلِهِ ، وقطعَ هذا الوهمَ الذي عساهُ أن يُخالطَ كثيراً من النُّفوسِ الذي [١] تقول : فلعلَّه لـم يطلبِ الدُّنيا لنفسهِ ، فهو يُحصِّله لولدِهِ ، فقال صلى الله عليه وسلم : ( نحــنُ مَعاشرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ ، ما تركنا فهو صـدَقةٌ ) [٢] ، فلم يُورِّثِ [٣] الأنبياءُ ديناراً ولا درهماً ، وإنَّما وَرَّثُوا العلمَ .

معنى قوله تعالى: (وورث سليمان داود)

وأمَّا قولُه تعالى : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [٤] ، فهو ميراثُ العلمِ والنُّبوةِ ، لا غَيرَ ، وهذا باتفاقِ أهلِ العلمِ مِن المُفسِّرينَ ، وغيرهم [٥] ، وهذا لأنَّ داودَ عليهِ السَّلام كان لهُ أولادٌ كثيرٌ سِوى سليمان ، فلو كان الـمَوروثُ هو المالَ ، لم يكُنْ سليمانُ يختصُّ بهِ .

وأيضاً ؛ فإنَّ كلامَ اللهِ يُصانُ عن الإخبَارِ بمثلِ هذا ؛ فإنَّه بمنزلةِ أنْ يُقالَ : ماتَ فلانٌ ووَرِثَهُ ابنُهُ ، ومن المعلومِ أنَّ كُلَّ أحدٍ يرِثُهُ ابنُهُ ، وليسَ في الإخبارِ بِمثلِ هذا فائِدَةٌ .

---

= القسطلاني ، وفيه :

ومَن لم تُرَبِّيـه الرِّجالُ وتَسْقِـهِ     لُبَاناً لهم قدْ دَرَّ مِنْ ثَدْيِ قُدْسِـهِ
ذاكَ لَقِيطٌ مَا لـهُ نِسْبَةُ الـوَرَى     ولا يَتَـعَدَّى المـرءُ أبْنَـاءَ جِنْسِـهِ

(١) في : د : التي .

(٢) رواه البخاري (٣٧١١) ، ومسلم (١٧٥٩) .

(٣) في : ص :يُورِّثـوا .

(٤) النمل : ١٦ .

(٥) ينظر : تفسير الماوردي (١٩٨/٤) ، وتفسير السمعاني (٨١/٤) ، وتفسير البغوي (٢١٩/٥) ، وتفسير القرطبي (٧٨/١١) ، وتفسير أبي حيان (٢١٦/٨) ، والتمهيد لابن عبد البر (١٧٤/٨) ، وفتح الباري لابن حجر (٨/١٢) ، وعمدة القاري للعيني (٢٥/١٥) .

**وأيضاً ؛ فإنَّ ما قَبلَ الآيةِ وما بَعدها يُبيِّنُ أنَّ المُراد بهذهِ الوِراثَةِ وراثةُ العلمِ والنُّبوَّةِ لا وراثةُ مالٍ ، قال : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ (١) ، وإنَّما سِيقَ هذا لبيانِ فضْلِ سليمانَ ، وما خصَّهُ اللهُ بهِ من كرامَتهِ ، ومِيراثِهِ ما كان لأبيهِ من أعلى المَواهبِ ، وهو العلمُ والنُّبوةُ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (٢) .**

**وكذلك قولُ زكريا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾(٣) ، فهذا ميراثُ العلمِ والنُّبوةِ والدَّعوةِ إلى اللهِ ، وإلا فلا يُظنُّ بنبيٍّ كريمٍ أنَّه يَخافُ عصبَتَهُ أن يَرثُوهُ مالَهُ ، فيسألَ اللهَ العظيمَ ولداً يمنعُهم مِيراثَهُ ، ويكونُ أحقَّ بهِ منهم . وقد نزَّه الله أنبياءَهُ ورُسلَهُ عن هذا وأمثالِهِ ، فبُعداً لمن حرَّفَ كتابَ اللهِ ، وردَّ على رسولِهِ كلامَهُ ، ونسَبَ الأنبياءَ إلى ما هم أبرياءُ مُنزَّهونَ عنهُ (٤) ، والحمدُ للهِ على توفيقهِ وهدايتِهِ .**

**ويُذْكَرُ عن أبي هريرة رضي اللهُ عنهُ أنَّه مَرَّ بالسُّوقِ ، فوَجَدَهُم في تجاراتِهم وبِيَاعاتِهم (٥) فقال : أنتم ههنا فيما أنتم فيهِ ، وميراثُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يُقَسَّمُ في مسجدِهِ !**

---

(١) النمل : ١٥ – ١٦ .

(٢) النمل : ١٦ .

(٣) مريم : ٥ – ٦ .

(٤) حيث شكك بعض الرافضة في قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة ) رواه البخاري (٢٩٢٦) ، ومسلم (١٧٥٨) ، وذلك عندما طلبت فاطمة رضي الله عنها نصيبها من ميراث النبي صلى الله عليه وسلم ، واستدل الرافضة بهذه الآية على أن الأنبياء يورثون من بعدهم ! وقد أجمع المفسرون على أن المراد بالميراث في الآية هو العلم والحكمة .

وقد فنَّدَ شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذه الشبهة وهدمها من وجوه كثيرة في منهاج السنة (١٩٣/٤) .

(٥) جمعُ بِياعَة ، وهي : السلعة التي يَتَبايع بها التُّجار . العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (٢٦٥/٢) ، ولسان العرب لابن منظور (٢٣/٨) .

فقامُوا سِراعاً إلى المسجدِ ، فلم يَجدوا فيه إلا القرآنَ ، والذِّكرَ ، ومَجالسَ العلمِ ! فقالوا : أين ما قلتَ يا أبا هريرة ؟ فقال : هذا مِيراثُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم يُقسَّمُ بين وَرَثتهِ ، وليس بمَوارِيثكم ودُنياكم . أو كما قال [١].

وقولُهُ : ( فمن أخذَهُ أخذَ بحظٍ وافرٍ ) :

أعظمُ الحُظوظِ ، وأجدَاها ما نفعَ العبدَ ، ودامَ نفعُهُ لهُ ، وليس هذا إلا حظَّهُ من العلمِ والدِّينِ ، فهو الحظُّ الدَّائمُ النَّافعُ ، الذي إذا انقَطَعَت الحُظوظُ لأربَابِها فهو موصولٌ له أبد الآبدين ، وذلك لأنَّه مَوصولٌ بالحيِّ الذي لا يَموتُ ، فلذلك لا ينقَطعُ ولا يَفوتُ وسائرُ الحُظوظِ تُعدَمُ ، وتَتَلاشى مُتعلقاتُها ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [٢] ؛ فإنَّ الغايةَ لمَّا كانت مُنقطِعَةً زائِلةً تَبِعَتها أعمالُهم فانقَطعت عنهم أحوجَ ما يكونُ العاملُ إلى عمَلهِ .

وهذه هي المُصيبةُ التي لا تُجبرُ ، عِياذاً باللهِ ، واستعانةً بهِ وافتِقَاراً ، وتوكُّلاً عليهِ ، ولا حولَ ولا قوةَ الا بالله .

وقولُهُ : ( موتُ العالمِ مُصيبةٌ لا تُجبرُ ، وثُلمَةٌ لا تُسدُّ ، ونَجمٌ طُمِسَ ، وموتُ قبيلةٍ أيسرُ من موتِ عالِمٍ ) [٣] :

معنى الحديث: موت العالم مصيبة لا تجبر وثلمة لا تُسدُّ

لمَّا كان صلاحُ الوجُودِ بالعلماءِ ، ولولاهم كانَ النَّاسُ كالبهائِمِ ، بل أسوأَ حالاً ، كان موتُ العالمِ مُصيبةً لا يَجبُرها إلَّا خَلَفُ غيرهِ لهُ .

وأيضاً ؛ فإنَّ العلماءَ هم الذينَ يَسُوسونَ العبادَ والبلادَ والمَمالِكَ ، فموتُهم فسادٌ لِنظامِ العالَمِ ، ولهذا لا يزالُ اللهُ يغرِسُ في هذا الدِّينِ منهم خالِفَاً في سَالِفٍ ، يَحفظُ بهم دينَهُ وكتابَهُ ، وعبادَهُ .

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (١١٤/٢) ح: ١٤٢٩ ، وحسَّنه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٤/١) ، وقال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (٣٥١/١) : " أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ، بإسنادٍ فيهِ جَهالةٌ أو انقطاعٍ " .

(٢) الفرقان : ٢٣ .

(٣) جزء من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه السابق في ص : ٢٠٧.

وتأمَّلْ إذا كان في الوجودِ رجلٌ قد فَاقَ العالِم في الغِنَى والكرمِ ، وحاجتُهم إلى ما عندهُ شديدةٌ ، وهو مُحسنٌ إليهم بكلِّ مُمكنٍ ، ثمَّ ماتَ ، وانقطعت عنهم تلك المَادَّةُ !

فموت العالِم أعظمُ مُصيبةً من موتِ مثلِ هذا بكثيرٍ .

ومثلُ هذا يَموتُ بمَوتِهِ أُمَمٌ وخلائقُ ، كما قيل [١] :

تَعَلَّمْ ما الرَّزِيَّةُ فَقْدَ مَالٍ ولا شاةً تَموتُ ولا بَعِيرُ
ولكنَّ الرَّزِيَّةَ فَقْدُ حُرٍّ يَموتُ بِموتِهِ بَشَرٌ كَثيرٌ

وقال آخر [٢] :

فما كان قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكُ واحدٍ ولكنَّه بُنيانُ قَومٍ تَهَدَّما

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : فقيه واحد أشدُّ على الشيطان من ألف عابد

والوجهُ الثامنُ والأربعون : ما روى التِّرمذي [٣] من حديث الوليد بن مسلم [٤] : حدَّثنا رَوحُ بن جَناحٍ [٥] ، عن مُجاهدٍ [٦] ، عن ابن عباس رضي الله عنهما [٧] ، قال :

---

(١) نسبه أبو علي القالي في الأمالي (٢٧٢/١) إلى أعرابي ، وذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٦٣/٥٦) منسوبا إلى مالك بن طوق المتوفى عام : ٢٥٩ هـ ، ونُسب إلى : مُلَيل بن دِهقانَة التَّغلبي ، كما في : معجم الشعراء للمرزباني (٤٧٤) ، والحماسة البصرية لعلي بن أبي الفرج البصري (٢١٢/١) ، ومن غير نسبة في : أمالي ابن الشجري (٢١٧/٣) .

(٢) لعَبْدة بن الطَّبيب التميمي، يرثي قيس بن عاصم المنقري .عيون الأخبار لابن قتيبة (٤٠٢/١) ، والشعر والشعراء له (٤٩٠) ، والعمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني (١٥٣/٢)

(٣) تقدَّمت ترجمته ، ص : ٢٠٤ .

(٤) تقدَّمت ترجمته ، ص : ٢٠٧ .

(٥) رَوحُ بن جَناحٍ ، أبو سعد الشامي ، مولى بني أمية ، ليس بالقوي ، قال أبو حاتم : لا يحتج بحديثه . الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٤٩٤/٣) ، وميزان الاعتدال للذهبي (٥٧/٢) .

(٦) مجاهد بن جبر ، ويقال : ابن جُبير ، أبو الحجاج المكيُّ ، مولى السَّائبِ بن أبي السَّائب المخزُوميّ ، المقرئُ المُفسِّرُ ، الحافظ ، أحد أعلام التابعين ، أخذ التفسير من ابن عباس رضي الله عنهما ، وعرضه عليه مراتٍ توفي عام : ١٠٣ هـ . تاريخ دمشق لابن عساكر (١٧/٥٧) ، وتهذيب الكمال للمزي (٢٢٨/٢٧) وتذكرة الحفاظ للذهبي (٧١/١) .

(٧) تقدَّمت ترجمته ، ص : ٨٧ .

**قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( فقيهٌ أشَدُّ على الشيطانِ من ألفِ عابدٍ ) [(١)] قال التِّرمذيُّ : " غريبٌ لا نعرفهُ إلا من هذا الوجهِ ، من حديثِ الوليدِ بن مُسلمٍ [(٢)] " . قال الدارقطني [(٣)] : " والأول [(٤)] هو المحفوظ عن روح [(٥)] ، مجاهد [(٦)] ، عن ابن عباس رضي الله عنهما [(٧)] ، وما أرى الوهمَ وقعَ في هذا الحديثِ إلا من أبي جعفر [(٨)] ؛ لأن عُمرَ بن سِنان [(٩)] عندهُ : عن هشام بن عمار [(١٠)] ، عن الوليد [(١١)] ، عن رَوْحٍ [(١٢)]**

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٨١) ، وابن ماجه (٢٢٢) ، وفيه : روح بن جناح ، وهو ضعيف . قال ابن حجر في التهذيب (٢٩٢/٣) : قال الساجي : هو حديثٌ مُنكرٌ ، وقال ابن حبَّان : مُنكر الحديثِ جدا" ، وضعفه الألباني في : تمام المنة (١١٥) .

(٢) تقدَّمت ترجمته ، ص : ٢٠٧ .

(٣) علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني ، أبو الحسن ، الإمام الحافظ ، المجوِّد ، المقرئ ، المحدّث ، صاحب السنن ، وغيرها من المصنفات الكثيرة ، توفي عام : ٣٨٥ هـ . تاريخ دمشق لابن عساكر (٩٣/٤٣) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤٤٩/١٦) .

(٤) حيث ذكر الخطيب في : الفقيه والمتفقه (١٢١/١) رواية أخرى للحديث عن أبي جعفر محمد بن الحسن بن علي اليقطيني : حدثنا عمر بن سعيد بن سنان : حدثنا هشام بن عمار : حدثنا الوليد بن مسلم : حدثنا روح بن جناح ، عن الزهري ، عن سعيد ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( فقيهٌ واحدٌ أشَدُّ على الشيطانِ من ألفِ عابدٍ ) ، ثم ذكر ما نقله المؤلف أعلاه .

(٥) تقدمت ترجمته ، ص : ٢١٩ .

(٦) تقدمت ترجمته في الصفحة السابقة .

(٧) تقدَّمت ترجمته ، ص : ٨٧ .

(٨) محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن عيسى بن يقطين أبو جعفر اليقطيني البغدادي البزار ، توفي عام :٣٦٧ هـ. تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٦١٤/٢) ، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٣٠٧/٥٢) .

(٩) عمر بن سعيد بن أحمد بن سعيد بن سنان الطائي المَنْبِجيُّ. أبو بكر ، الإمام المحدث ، القدوة العابد . تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٩/٤٥) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢٩٠/١٤) .

(١٠) هشام بن عمار بن نصير بن ميسرة بن أبان السُّلمي ، ويقال: الظفري ، الدمشقي ، أبو الوليد ، الإمام ، المقرئ المحدث ، توفي عام : ٢٤٥ هـ . تهذيب الكمال للمزي (٢٤٢/٣٠) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٥٢٧/١٤) .

(١١) الوليد بن مسلم ، تقدَّمت ترجمته ، ص : ٢٠٧ .

(١٢) رَوحُ بن جَناحٍ ، سبقت ترجمته ، ص : ٢١٩ .

**عن الزُّهري [١] ، عن سعيد [٢] حديثُ : ( في السَّماءِ بيتٌ يُقال له : البيتُ المَعمُورُ حِيالَ الكعبَةِ ) [٣] ، وحديث ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما ، كانا [٤] في كتابِ ابنِ سِنانٍ [٥] ، عن هشام [٦] يتلو أحدَهُما الآخر ؛ فكتبَ أبو جعفر إسنادَ حديثِ أبي هريرة رضي اللهُ عنهُ ، ثم عارَضَهُ سَهوٌ ، أو زاغَ نَظرُهُ ؛ فنزلِ إلى متنِ حديثِ ابنِ عباسٍ ، فركَّبَ متنَ هذا على إسنادِ هذا ، وكل واحدٍ منهما ثِقةٌ مأمُونٌ بريءٌ من تَعمُّدِ الغَلط" [٧] .**

(١) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شِهَاب الزُّهريُّ ، القرشي المدني ، أبو بكر ، أحد كبار الفقهاء والأعلام التابعين ، رأى عشرة من الصحابة رضي الله عنهم ، توفي عام : ١٢٤ هـ . تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٩٤/٥٥) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٣١٨/٢) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٨٣/١) .

(٢) سعيد بن المُسَيِّب بن حزن بن أبي وهب القرشي المخزومي ، أبو محمد ، عالم المدينة في عصره ، وأحد كبار التابعين ، توفي عام : ٩٤ هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (١١٩/٥) ، وحلية الأولياء لأبي نعيم (١٦١/٢) وتهذيب الكمال للمزي (٦٦/١١) .

(٣) رواه العُقيلي في : الضعفاء (٥٩/٢) ، وابن عدي في : الكامل(١٤٤/٣) .

قال العقيلي :" رَوح بن جَناح ، عن الزُّهري : قصَّةَ البيتِ المعمورِ ، لا يتابع عليه " ، وقال ابن الجوزي في : الموضوعات (١٤٧/١) : " هذا حديث لايتهم به إلا روح بن جناح فإنه يعرف به ولم يتابعه عليه أحد" وقال ابن كثير في تفسيره (٤٢٨/٧) : " هذا حديث غريب جدا ، تفرَّد به رَوحُ بن جَناح هذا ، وهو القرشي الأموي مولاهم أبو سعد الدِّمشقي ، وقد أنكرَ هذا الحديثَ عليه جماعةٌ من الحُفاظِ ، منهم : الجوزجاني ، والعقيلي والحاكم أبو عبد الله النيسابوري ، وغيرهم " .

(٤) أي حديث أبي هريرة ، وحديث ابن عباس .

(٥) تقدَّمت ترجمته ، ص : ٢٢٠ .

(٦) تقدَّمت ترجمته في الصفحة السابقة .

(٧) الفقيه والمتفقه (١٢١/١) ، وينظر كلام الدارقطني في : العلل (١٣٢/٩) ، حول هذا الوهم في هذه الرواية .

**وقد رواه أبو أحمد / بن عدي (١) ، عن محمد بن سعيدِ بن مِهران (٢) : حدَّثنا [ شيبان (٣) حدَّثنا ] (٤) : أبو الرَّبيعِ السَّمَّان (٥) ، عن أبي الزِّناد (٦) ، عن الأعرجِ (٧) ، عن أبي هريرة رضي الله عنهُ (٨) ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : ( لكلِّ شيءٍ دِعَامَةٌ ودِعَامَةُ الإسلامِ الفقهُ في الدِّينِ ، والفقيهُ أشدُّ على الشيطانِ من ألفِ عابدٍ ) (٩).** [٣٦/أ]

**ولهذا الحديثِ عِلَّةٌ ، وهو أنَّه روي من كلامِ أبي هريرة رضي الله عنه وهو أشبهُ ، رواهُ هَانئ بن يحيى (١٠) : حدَّثنا يَزيدُ بن عِياضٍ (١١) : حدَّثنا**

---

(١) أبو أحمد ، عبد الله بن عدي بن عبد الله بن محمد بن مبارك بن القطان الجرجاني ، علامة بالحديث ورجاله. أخذ عن أكثر من ألف شيخ ، يعرف في بلده بابن القطان، واشتهر بين علماء الحديث بابن عدي ، من مصنفاته : الكامل في معرفة الضعفاء والمتروكين من الرواة ، وعلل الحديث ، توفي عام : ٣٦٥ هـ . تاريخ جرجان لأبي القاسم الجرجاني (٢٦٦) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (١٠٢/٣) ، وطبقات الشافعية للسبكي (٣١٥/٣) .

(٢) مُحَمد بن سَعِيد بن مِهْرانَ الأَبُلِّيُّ ، ولم أقف على ترجمة له .

(٣) شَيْبان بن فَرُّوخ ، أبو محمد ابن أبي شيبة الحَبَطِي مولاهم الأُبُلِّي البصري ، الإمام ، الثقة ، مُحدث البصرة ومُسندُها ، توفي عام : ٢٣٥ هـ . تهذيب الكمال للمزي (٥٩٨/١٢) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٢٤/٢) .

(٤) سقط من الأصل و : د ، وفي ص : صُحف إلى " شيبة " ، والمثبت من كتاب الكامل لابن عدي .

(٥) أَشْعَث بن سَعِيد البصري ، أَبُو الربيع السمان ، قال أحمد : " مضطرب الحديث ، ليس بذاك " وقال ابن معين : " ليس بشيء ". الكامل لابن عدي (٤٨/٢) ، وتهذيب الكمال (٢٦١/٣) ، وميزان الاعتدال للذهبي (٢٦٣/١)

(٦) عبد الله بن ذكوان ، أبو عبد الرحمن القرشي المدني ، ويلقب بأبي الزناد ، الإمام ، الفقيه ، الحافظ ، من كبار فقهاء المدينة ، توفي عام : ١٣١ هـ .
تاريخ دمشق لابن عساكر ، (٤٤/٢٨) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (١٠١/١) .

(٧) عبد الرحمن بن هُرمز المدِني ، أبو داود الأعرجُ ، مولى محمد بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ، الإمام ، الحافظُ ، الحُجَّةُ ، المقرئُ ، توفي عام : ١١٧ هـ .
الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٨٣/٥) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٧٥/١) .

(٨) تقدمت ترجمته ، ص : ٦٤ .

(٩) رواه ابن عدي في الكامل (٣٧٧/١ – ٣٧٨) ، وقال : " وهذا الحديث لا أعلم رواهُ عن أبي الزِّناد غير أبي الربيع السَّمان " .

(١٠) في النسخ كلها : " هَمَّام بن يحيى " ، وهو تصحيف ، والمثبت من مصادر الحديث .
هانئ بن يحيى السُّلمي ، يُكنّى بأبي مسعود ، قال عنه ابن حبان : " يُخطئ " . الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١٠٣/٩) ، والثقات لابن حبان (٢٤٧/٩) .

(١١) يزيد بن عياض بن يزيد بن جعدبة الليثي ، أبو الحكم المدني ، قال البخاري وغيره : منكر الحديث .
تهذيب الكمال للمزي (٢٢١/٣٢) ، وميزان الاعتدال للذهبي (٤٣٦/٤) .

**صَفوانُ بن سُليم [١] ، عن سُليمانَ بن يسارٍ [٢] ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : ( ما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أفضلَ من فِقهٍ في الدِّينِ ).**

**قال : قال أبو هريرة رضي الله : " لأنْ أفقهَ ساعةً أحبُّ إليَّ من أنْ أُحييَ ليلةً أُصَلِّيهَا حتى أُصبِحَ ، والفقيهُ أشدُّ على الشيطانِ من ألفِ عابدٍ ، ولكلِّ شيءٍ دِعَامَةٌ ، ودعامةُ الدِّينِ الفقهُ " [٣].**

**وقد رُويَ بإسنادٍ فيهِ مَنْ لا يُحتجُ بهِ من حديثِ عاصِمِ بن أبي النُّجودِ [٤] ، عن زِرِّ بن حُبَيشٍ [٥] ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه [٦] يرفعه : ( إنَّ الفقيهَ أشدُّ على الشيطانِ من ألفِ وَرِعٍ ، وألفِ مُجتَهدٍ ، وألفِ مُتَعَبِّدٍ ) [٧] .**

---

(١) صفوان بن سليم المدني ، القرشي ، الزُّهْرِيّ ، أبو عبد الله ، الفقيه ، العابد ، توفي عام : ١٢٤ هـ .
حلية الأولياء لأبي نعيم (١٥٨/٣) ، وتهذيب الكمال للمزي (١٨٤/١٣)

(٢) سليمان بن يسار ، مولى ميمونة أم المؤمنين ، أحد فقهاء المدينة ، روى عن ابن عباس ، وأبي هريرة ، وأم سلمة توفي عام : ١٠٧ هـ . حلية الأولياء لأبي نعيم (١٩٠/٢) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٣٨٠/١) .

(٣) رواه الخطيب في : الفقيه والمتفقه (٩٦/١ — ٩٧ ) ، والجامع لآداب الراوي وأخلاق السامع (١١٠/٢)
وأبو نُعيم في حلية الأولياء (١٩٢/٢) ، وفيه : يزيد بن عياض ، وهو منكر الحديث كما تقدم .

(٤) عاصم بن بَهدَلة . أبي النجود . ، الأسدي مولاهم ، الكوفي ، أبو بكر المقرئُ ، كان فصيحا ، نحوياً ، توفي عام : ١٢٧ هـ . سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٥٧/٥) ، وتهذيب التهذيب لابن حجر (٣٨/٥) .

(٥) زِرُّ بن حُبيش بن حُبَاشة بن أوس ، أبو مريم الأسدي الكوفي ، الإمام ، القدوة ، مقرئ الكوفة ، روى عن عمر بن الخطاب ، وأُبَيّ بن كعب ، وعثمان ، وعلي ، رضي الله عنهم ، وغيرهم ، توفي عام : ٨١ هـ .
حلية الأولياء لأبي نعيم (١٨/٤) ، وسير أعلام النبلاء (١٦٦/٤) .

(٦) عمر بن الخطاب بن نفيل القُرشي العدويُّ ، وُلِدَ بعد عامِ الفيلِ بثلاث عشرة سنة ، كان من أشرافِ قريش ، وكان إسلامُه عِزاً للإسلام ، وهو من المهاجرين الأوَّلين ، شهدَ المشاهدَ كلَّها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتحَ الله في خلافتِه الشامَ ، والعراقَ ، ومصرَ ، توفي عام : ٢٣ هـ . الاستيعاب لابن عبد البر (١١٤٤/٣) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٦٤١/٣) ، والإصابة لابن حجر (٥٨٨/٤) .

(٧) رواه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١٢٤/١) ، وفي إسناده : سَلْمُ بن المغيرة الأزدي ، وهو ضعيف ، كما قال المؤلف رحمه الله . ينظر : ميزان الاعتدال للذهبي (١٨٦/٢) .

ورُوِيَ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما (١) أنَّه قال : "إنَّ الشَّياطينَ قالوا لإبليسَ : يا سَيِّدَنا مَا لنا نَراكَ تفرحُ بموتِ العالِمِ ما لا تفرحُ بموتِ العابدِ ، والعالـِمُ لا نُصيبُ منهُ ، والعابدُ نُصيبُ منهُ ؟ قال انْطَلِقُوا فانطَلَقوا إلى عابدٍ فأتوهُ في عبادَتِهِ ، فقالوا : إنَّا نُريدُ أنْ نَسأَلَكَ ، فانْصَرَفَ ، فقال إبليسُ : هل يقدِرُ ربُّكَ أن يَجعلَ الدُّنيا في جَوفِ بَيْضَةٍ ؟ فقالَ : لا أدري ، فقال أتَرَونَهُ كَفَرَ في سَاعَةٍ ! ثمَّ جاؤوا إلى عَالِمٍ في حَلْقَتِهِ يُضَاحِكُ أصحابَهُ ، ويُحَدِّثهم ، فقالوا : إنَّا نُريدُ أنْ نسأَلكَ ، فقالَ : سَلْ ، فقالَ : هلْ يَقْدِرُ ربُّكَ أن يَجعلَ الدُّنيا في جَوفِ بَيْضَةٍ ؟ قال : نعم ، قالوا : كيفَ ؟ قال : يقولُ : كُنْ فيَكونُ فقال : أترونَ ذلك لا يَعدو نَفْسَهُ ، وهذا يُفسِدُ عليَّ عَالَمَاً كثيراً " (٢) .

وقد رُويتْ هذهِ الحكايةُ على وجهِ آخرَ ، وإنَّهم سألوا العابدَ ، فقالوا : هل يَقدِرُ ربُّك أن يَخلقَ مثلَ نَفْسِهِ ؟ فقال : لا أدري ، فقالَ : أتَرونَهُ لم تَنْفَعْهُ عبادَتُه معَ جَهلِهِ ! وسألوا العَالِمَ عن ذلك ؟ فقال : هذهِ المَسألةُ مُـحالٌ ؛ لأنَّهُ لـو كانَ مِثلُـهُ لـمْ يكـنْ مَخلُـوقاً فكونُهُ مَخلوقـاً وهـو مثلُ نَفْسِهِ مُستحيلٌ ، فإذا كان مَخلوقاً لم يكنْ مِثلَهُ ، بل كان عبداً من عَبيدهِ ، وخَلْقَاً من خَلقهِ ، فقال : أترونَ هذا يَهْدِمُ في ساعةٍ ما أبْنِيهِ في سِنينَ أو كما قال .

ورويَ عن عبد الله بن عمر (٣) : " وفضلُ العالِم على العابدِ سبعينَ دَرجةً ، بين كلِّ دَرجتين حُضْرُ (٤) الفَرسِ سبعين عاماً ، وذلك أنَّ الشيطانَ يضعُ البِدعةَ ، فيُبصِرَها العالِمُ وينهَى عنها ، والعابدُ مُقبلٌ على عبادةِ ربِّهِ لا يتوجَّهُ لها ، ولا يَعرفها " (٥) .

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

(٢) رواه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ١٢٥ ) ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/١٢٧) وقد رُويت القصة عن المزني : إبراهيم بن إسماعيل بن يحيى قال : قال ابن عباس ، والمزني توفي عام : ٢٥٨ هـ !
وقال العقيلي في الضعفاء (١/١١٠ – ١١١) : " حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي قال : كان ابن نُمير لا يرضى إبراهيم بن إسماعيل ويُضعِّفه ، قال : روى مَناكير " وقال أيضاً : "ولم يكن إبراهيمُ هذا يُقيم الحديثَ" .

(٣) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٤ .

(٤) الحُضْرُ : هو عَدْو الدَّوابِ ، وإسراعُها ، العين للخليل بن أحمد (١٠٢/٣٠) ، وتهذيب اللغة للأزهري ( ١١٨/٤) .

(٥) رواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب (٩٥/٣ – ٩٦) ، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١٦/١) .

وهـذا معناهُ صحيحٌ فإنَّ العالِمَ يُفسدُ على الشَّيطانِ ما يسعى فيهِ ، ويهدمُ ما يبنيهِ فكُلَّما أرادَ إحياءَ بدعَةٍ ، وإماتَةَ سُنَّةٍ ، حالَ العالِمُ بينَهُ وبينَ ذلك ، فلا شيءَ أشدَّ عليه من بقاءِ العالِمِ بين ظَهْرَاني الأُمَّةِ ، ولا شيءَ أحبَّ إليهِ من زوالِهِ من بين أظهُرِهِم ليتمكَّنَ من إفسادِ الدِّينِ ، وإغواءِ الأُمَّةِ ، وأمَّا العابدُ فغايتُهُ أن يُجاهدَهُ ليسلَمَ منهُ في خاصَّةِ نَفسِهِ ، وهيهاتَ لهُ ذلك .

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه

الوجـهُ التَّاسعُ والأربعون : ما روى التَّرمذيُّ [١] من حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه [٢] قال : سمعتُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقول : ( الدُّنيا ملعُونةٌ ، وملعونٌ ما فيها إلا ذكرَ اللهِ وما والاه ، وعالِمٌ ، ومُتعلمٌ ) [٣] قال الترمذيُّ : هذا حديث حسن .

ولـمَّا كانت الدُّنيا حَقيرةً عند الله لا تُساوي لديهِ جَناحَ بَعوضَةٍ ، كانت وما فيها في غايةِ البُعدِ منهُ ، وهذا هو حقيقةُ اللَّعنَةِ ، وهو سبحانه إنَّما خلقَها مَزرعةً للآخرةِ ، ومَعبراً إليها يتزوَّدُ منها عبادُهُ ، إليهِ ، فلم يكن يُقَرِّبُ منها إلا ما كان مُتضَمِّناً لإقامَـةِ ذِكـرِهِ ومُفضياً إلى مَحابِّهِ ، وهو العلمُ الذي به يُعرفُ ، ويُعبدُ ، ويُذكرُ ، ويُثنى عليهِ ويُمجَّـدُ ولهـذا خَلقَها ، وخلقَ أهلَها ، كما قال تعـالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٤] ، وقال : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [٥] .

فتضمَّنت هاتانِ الآيتانِ أنَّه سبحانه إنَّما خلقَ السَّمواتِ والأرضَ ، وما بينهما ليُعرفَ بأسمائِهِ وصفاتِهِ ، وليُعبَد .

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٤ .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٦٤ .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٢٢) ، وابن ماجه (٤١١٢) ، وغيرهما ، وحسّنه الترمذي ، وحسَّنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/٢٦٩) .

(٤) الذاريات : ٥٦ .

(٥) الطلاق : ١٢ .

فهذا المطلوبُ ، وما كان طريقاً إليهِ من العلمِ والتَّعلُّمِ ، فهو المُستثنى من اللَّعنةِ واللَّعنةُ واقعةٌ على ما عداهُ ، إذ هو بعيدٌ عن اللهِ ، وعن مَحابهِ ، وعن دينهِ ، وهذا هو مُتعَلَّقُ العقابِ في الآخرةِ ؛ فإنَّه كما كان مُتعلَّقَ اللَّعنةِ التي تتضمَّنُ الذَّمَّ والبُغضَ ، فهو مُتعلَّقُ العقابِ ، واللهُ سبحانه إنَّما يُحبُّ من عبادِهِ ذكْرَهُ ، وعبادَتَهُ ، ومعرفَتَهُ ، ومَحبَّتَهُ ولوازِمَ ذلك ، وما أفضَى إليهِ ، وما عداهُ فهو مَبغوضٌ له ، مَذمومٌ عندهُ .

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع

الوجهُ الخمسون : ما رواهُ التِّرمذيُّ [(١)] من حديث أبي جَعفر الرَّازيِّ [(٢)] ، عن الرَّبيعِ بن أنسٍ [(٣)] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( من خرجَ في طلب العلمِ ، فهو في سبيلِ الله حتى يرجعَ ) [(٤)] قال التِّرمذيُّ : هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ رواهُ بعضُهم ، فلمْ يرفَعهُ .

وإنما جُعلَ طلبُ العلمِ من سبيلِ اللهِ ؛ لأنَّ بهِ قِوامُ الإسلامِ ، كما أن قِوامَهُ بالجهادِ فقِوامُ العلمِ بالدِّين والجهادِ .

أنواع الجهاد في سبيل الله

ولهذا كان الجهادُ نوعين جهادٌ باليدِ والسِّنانِ ، وهذا المُشارِكُ فيهِ كثيرٌ .

والثاني : جهادٌ بالحُجَّةِ والبَيانِ ، وهذا جِهادُ الخاصَّةِ من أتبَاعِ الرُّسلِ ، وهو جهادُ الأئمَّةِ ، وهو أفضلُ الجهَادَين ، لعظَمِ مَنفعتهِ ، وشدَّةِ مَؤنتهِ ، وكثرةِ أعدائِهِ ، قال تعالى في سورة الفرقان ، وهي مَكيةٌ : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا فَلَا تُطِعِ

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٤ .

(٢) عيسى بن أَبي عيسى ـ مـاهان ـ ، أبو جعفر الرازي ، قال عنه أحمد بن حنبل والنسائي وغيرهما : ليس بالقوي وقال ابن حبان : كان ممن يتفردُ بالمناكيرِ عن المشاهيرِ ، توفي عام : ١٦٠ هـ . تاريخ بغداد للخطيب (٤٦١/١٢) ، وتهذيب الكمال للمزي (١١٩٢/٣٣) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣٤٦/٧) .

(٣) الربيع بن أنس بن زياد البكري ، المروزيّ ، الخرسانيُّ ، سمع من أنس بن مالك رضي الله عنه ، وأبي العالية والحسن البصري ، وغيرهم ، توفي عام : ١٣٩ هـ . تهذيب الكمال (٦٠/٩) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٦٩/٦) .

(٤) رواه الترمذي (٢٦٤٧) ، وفيه أبو جعفر الرازي ، وهو ضعيف ، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٣١٤) ح : ٤٩٤ .

ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾ (١) ، فهذا جهادٌ لهم بالقرآنِ ، وهو أكبرُ الجهادَين ، وهو جهادُ المُنافقينَ أيضاً ؛ فإنَّ المُنافقينَ لم يكونوا يُقاتِلونَ المسلمين ، بل كانوا معهم في الظَّاهرِ ، وربَّما كانوا يُقاتلونَ عدُوَّهم معهم ، ومع هذا فقد قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ (٢) ومعلومٌ أنَّ جهادَ المنافقينَ بالحُجَّةِ والقرآنِ .

والمقصود أنَّ سبيلَ اللهِ هي الجهادُ ، وطلبُ العلمِ ، ودعوةُ الخلقِ بهِ إلى اللهِ ، ولهذا قال معاذٌ رضي الله عنه (٣) : " عليكم بطلبِ العلمِ ؛ فإنَّ تعلُّمَهُ للهِ خشيَةٌ ، ومُدارَستَهُ عبادةٌ ، ومُذاكرتَهُ تسبيحٌ ، والبَحثَ عنهُ جهادٌ " (٤) .

ولهذا يقْرِنُ سبحانه بين الكتابِ المُنزَّلِ والحديدِ النَّاصرِ (٥) ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾(٦) ، فذكرَ الكتابَ والحديدَ ، إذ بهما قِيامُ الدِّينِ ، كما قيل (٧) :

وما هو إلا الوحيُ أو حَدُّ مُرهَفٍ     تُمِيلُ ظُبَاهُ أخْدَعَيْ كُلِّ مَائِلِ

---

(١) الفرقان : ٥١ – ٥٢ .

(٢) التوبة : ٧٣ .

(٣) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ الأنصاري الخزرجي الجُشَمي ، أبو عبد الرحمن ، أسلم وعمره ثمانية عشر عاما ، شهد المشاهد كلَّها ، أعلمُ الأُمَّةِ بالحلالِ والحرامِ ، وقد بعثه الرسولُ صلى الله عليه وسلم إلى اليمن يعلمهم القرآن ، وشرائع الإسلام ، توفي عام : ١٨ هـ .
الاستيعاب لابن عبد البر (١٤٠٢/٣) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٤٠٠/٤) ، والإصابة لابن حجر (١٣٦/٦) .

(٤) سيأتي تخريجهُ في الوجه العاشر بعد المئة ص : ٣٧٢ .

(٥) ينظر كلام المؤلف رحمه الله حول ذلك في : طريق الهجرتين (٥٨٥) ، وهداية الحيارى في أجوبة النصارى (٢٣٢/١) وبدائع الفوائد (١٤/٢) .

(٦) الحديد : ٢٥ .

(٧) القائل : أبو تمَّام ، ينظر : الحماسة المغربية لأبي العباس النادلي (٣٨٣/١) ، والمثل السائر لابن الأثير (٢٩٥/٢) .

[٣٧/أ] / فهذا شِفَاءُ الــدَّاءِ مِنْ كُـلِّ عَاقِــلٍ وهــذا دَواءُ الـــدَّاءِ مِـن كُـلِّ جَاهِلِ

ولـمَّا كان الجهادُ (١) بالسَّيفِ والحُجَّةِ ، والسَّيفُ يُسمَّى : سبيلُ اللهِ ، فسَّرَ الصَّحابةُ رضي الله عنهم قولَهُ : ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ (٢) ، [ بالأُمراءِ ] (٣) والعلماءِ (٤) ، فإنَّهم المجاهدون في سبيلِ اللهِ ، هؤلاء بأيدِيهم ، وهؤلاء بألسِنَتِهم فطلبُ العلمِ ، وتعليمُهُ من أعظمِ سبيل الله .

قــال كـعبُ الأحبارِ رضي الله عنه (٥) : " طـالبُ العلمِ كالغادِي (٦) الــرَّائِــحِ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ " (٧) .

وجاءَ عن بعضِ الصحابة رضي الله عنهم : " إذا جاءَ الموتُ طالبَ العلمِ ، وهو على هذه الحالِ ، ماتَ وهو شهيدٌ " (٨) .

وقال سفيانُ بن عُيينة : " من طلبَ العلمَ فقد بايَعَ اللهَ عزَّ وجلَّ " (٩) .

---

(١) في : ص : ولـمَّا كان من الجهاد .

(٢) النساء : ٥٩ .

(٣) سقطت من الأصل ، والمثبت من : د ، ص .

(٤) يُنظر مجموع أقوالهم في : تفسير عبد الرزاق (٤٦٤/١) ، تفسير ابن جرير الطبري (١٧٤/٧) ، تفسير ابن أبي حاتم (٩٨٧/٣) ، والمستدرك للحاكم (١٢٢/١) ، والفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (١٢٦/١) .

(٥) كعب بن ماتع الحميَرِيُّ ، اليمانِيُّ ، أدرك عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يـره ، كان إسلامه في خلافة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، توفي عـام : ٣٢ هـ . أسد الغابة لابن الأثير (٤٦٠/٤) ، والإصابة لابن حجر (٤٨١/٥) .

(٦) في : ص : كالغازي .

(٧) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٧٦/٥-٣٧٧) .

(٨) رواه البزّار في مسنده (١٩١/١٥) ، والعقيلي في الضعفاء (٣٥٠/٤) ، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١٠١/١) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٢١/١) ، عن أبي هريرة وأبي ذرٍّ رضي الله عنهما مرفوعاً .
قال العقيلي : " هلال بن عبد الرحمن الحنفي مُنكر الحديث " وقال الهيثمي في : مجمع الزوائد (٢٥٢/٢) : وفيه هلال بن عبد الرحمن الحنفي وهو متروك " وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (٢١٢٦) : " ضعيف جداً " .

(٩) رواه أبو نعيم في : حلية الأولياء (٢٨٠/٧) ، وابن عساكر في : تاريخ دمشق (١٧٤/٥) .

**وقال أبو الدَّردَاءِ رضي الله عنه [١] : " من رأىَ الغُدُوَّ والرَّواح إلى العلم ليسَ بجهادٍ فقد نَقَصَ في عقْلِهِ ، ورَأْيِهِ " [٢] .**

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : من سلك طريقا يلتمس فيه علما

**الوجه الحادي والخمسون : ما رواه التِّرمذيُّ [٣] : حدثنا محمودُ بن غَيلان [٤] : حدثنا أبو أسامةَ [٥] ، عن الأعمشِ [٦] ، عن أبي صالح [٧] ، عن أبي هريرة رضي الله عنه [٨] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( من سلكَ طريقاً يلتَمسُ فيهِ عِلماً ، سهَّلَ اللهُ له طريقاً إلى الجنَّةِ ) ، قال التِّرمذيُّ : " هذا حديثٌ حَسنٌ " .**

**قال بعضهم : ولم يقل في هذا الحديث : صحيحٌ ؛ لأنَّه يُقالُ : دَلَّسَ الأعمشُ في هذا الحديثِ ؛ لأنَّه رَوَاهُ بعضُهم ، فقال : حُدِّثتُ عن أبي صالحٍ [٩] .**

**والحديثُ رواه مسلمٌ [١٠] في صحيحهِ [١١] ، من أوجهٍ عن الأعمش ، عن أبي صالح .**

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٦ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١٥٢/١) ، وذكره الغزالي في : إحياء علوم الدين (٩/١) .

(٣) رقم الحديث (٢٦٤٦ و ٢٩٤٥) .

(٤) محمود بن غيلان العدَويُّ ، مولاهم المروزيُّ ، أبو أحمد ، الإمام ، الحافظ ، الحجة ، توفي عام : ٢٣٩ هـ . طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (٣٤٠/١) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢٢٣/١٢) .

(٥) حماد بن أسامة بن زيد بن سليمان بن زياد القرشي ، أبو أسامة مولى بني هاشم ، توفي عام : ٢٠١ هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٩٥/٦) ، وتهذيب الكمال للمزي (٢١٧/٧) .

(٦) سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي ، مولاهم ، الكوفي ، أبو محمد الأعمش ، تابعيٌّ ، مشهور ، كان عالما بالقرآن والحديث والفرائض ، شيخ المقرئين والمحدثين في عصره ، توفي عام : ١٤٨ هـ . الطبقات لابن سعد (٣٤٢/٦) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٣٨٠/١) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢٢٦/٦) .

(٧) ذكوان بن عبد الله السَّمان الزَّيَّات ، أبو صالح المدني ، كان ثقةً ، حجَّةً ، كثيرَ الحديث ، توفي عام : ١٠١ هـ الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٠١/٥) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣٦/٥)

(٨) تقدَّمت ترجمته ص : ٦٤ .

(٩) قال النسائي في السنن الكبرى (٤٦٧/٦) : " أخبرني محمد بن إسماعيل بن سَمُرة الكوفي ، قال : حدَّثنا أسباط هو ابن محمد ، قال : حدثنا الأعمش ، قال : حُدِّثْتُ عنْ أَبي صَالِحٍ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه عنِ النبي صلى الله عليه وسلم نحوهُ " .

(١٠) تقدَّمت ترجمته ص : ٧٧ .

(١١) برقم (٢٦٩٩) .

**قـــال الحاكـــمُ (١) في " المستدرك " (٢) : " هو صحيحٌ على شـــرطِ البخاريِّ (٣) ومســـلمٍ (٤) رواه عـــن الأعمشِ جماعـــةٌ ، منهم زائِـــدةُ (٥) ، وأبـــو مُعاويـةَ (٦) وابنُ نُميرٍ " (٧) .**

**وقـــد تقـــدَّمَ حـــديثُ أبـــي الـــدَّرداءِ (٨) فـي ذلك ، والحـديثُ مَحفـــوظٌ ولـــهُ أصـــلٌ ، وقد تظاهَرَ الشَّرعُ والقَدرُ على أنَّ الجزاءَ من جنسِ العملِ ، فكلما (٩) سلكَ طريقـــاً يطلبُ فيه حيـــاةَ قلبِهِ ، ونجاتَه من الهلاكِ ، سلكَ الله بهِ طريقاً يُحصِّلُ لهُ ذلك .**

**وقد رُوي من حديث عائشة (١٠) ، رواه ابن عَديٍّ (١١) ، من حديثِ محمدِ بن عبدِ الملك**

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٢١٠ .

(٢) (٨٩/١) بنحو كلام المؤلف .

(٣) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٦ .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٧٧ .

(٥) زائـــدة بن قدامـــة الثقفي ، أبو الصلت الكوفي ، الإمام ، الحجة ، كان وكيع لا يقدم على زائدة في الحفظ أحدًا توفي عام : ١٦١ هـ .
تهذيب الكمال للمزي (٢٧٣/٩) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (١٥٨/١) .

(٦) محمد بن خازم الكوفي الضرير ، مولى بني سعد ، أبو معاوية ، الحافظ ، الثبت ، مُحدِّثُ الكوفة ، أحد الأعلام ، توفي عام : ١٩٥ هـ . تهذيب الكمال للمزي (١٢٣/٢٥) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٧٣/٩) .

(٧) عبد الله بن نُمير الهمداني الخارفي الكوفي ، الحافظ ، أبو هشام ، الإمام ، توفي عام : ١٩٩ هـ .
تهذيب الكمال للمزي (٢٢٥/١٦) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٢٣٩/١).

(٨) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٦ .

(٩) في : د ، ص : فكما .

(١٠) عـــائشة بنت الصِّديـــق أبي بكر عبد الله بن قُحافـــة ، أحـــبُّ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم إليه ، وأفقـــه نســـاء المسلمين ، وأكثرهنَّ رواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم حـديثاً ، وأغـزرهنَّ علماً . وقد توفيت في المدينة عـام : ٥٨هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (٤٦/٨) ، وأسد الغابة لابن الأثير (١٩١/٦) ، والإصابة لابن حجر (١٦/٨) .

(١١) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٢٢ .

**الأنصاريُّ [١] ، عن الزُّهريِّ [٢] ، عن عُروةَ [٣] ، عنها مرفوعاً ، ولفظُهُ : ( أوحى الله إليَّ أنَّه من سَلَكَ مَسلكاً ، يطلبُ العلمَ سهَّلتُ له طَريقاً إلى الجنَّةِ ) [٤] .**

دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لمن سمع كلامه ووعاه وبلغه بالنُّضرة

**الوجه الثاني الخمسون : أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم دعَا لِمَن سَمِعَ كلامَهُ ووَعَاهُ ، وبلَّغَهُ بالنُّضرةِ ، وهي البَهجةُ ، ونضارَةُ الوجهِ ، وتَحسينُهُ ففي التِّرمذيُّ [٥] ، وغيره [٦] من حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه [٧] ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : ( نضَّرَ اللهُ امرءاً سَمِعَ مقالتي ، فوَعَاها ، وحفِظَها ، وبلَّغَها ، فرُبَّ حاملِ فقهٍ إلى من هو أفقهُ منهُ ، ثلاثٌ لا يَغِلُ عليهنَّ قلبُ مُسلمٍ : إخلاصُ العملِ للهِ ، ومُناصَحةُ أئِمَّةِ المسلمين ولزومُ جماعَتِهم ؛ فإنَّ دعوَتَهُم تُحيطُ مِنْ ورَائِهم ) .**

**وروى هذا الأصلَ عن النَّبي صلى الله عليه وسلم :**

---

(١) محمد بن عبد الملك ، أبو عبد الله الانصاري ، ويقال أنه من ولد أَبِي أيوب الأنصاري ، قال عنه البخاري : "عن ابن المنكدر ، منكر الحديث " . التاريخ الكبير للبخاري (١/١٦٤) ، والكامل لابن عدي (٦/١٥٦) .

(٢) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزُّهري ، أبو بكر القُرشي المدني ، أحد الفقهاء والمحدثين والأعلام التابعين ، رأى عشرة من الصحابة رضي الله عنهم ، توفي عام : ١٢٤ هـ .
وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/٣١٨) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (١/٨٣) .

(٣) عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العُزى بن قصي القرشي الأسدي ، أبو عبد الله المدني الإمام ، عالم المدينة ، وأحدُ الفقهاء السبعة ، توفي عام : ٩٣ هـ .
حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/١٧٦) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٢/١٢١) .

(٤) رواه ابن عدي في الكامل (٦/١٦٠) ، وهو ضعيف ؛ لأنَّ فيه : محمد بن عبد الملك ، قال ابن عدي : " وهذه الأحاديثُ ، عن الزُّهري ، عن عُروةَ ، عن عائشةَ بهذا الإسناد ، مَناكيرٌ كلُّها ، لا يرويها عن الزُّهريُّ غيرَ محمد بن عبد الملك" .

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٤ .

(٦) رواه الترمذيُّ (٢٦٥٧) ، وابن ماجه (٢٣٢) ، وأحمد (١/٤٣٧) ، وغيرهم . وصححه الترمذيُّ كما ذكر المؤلف .

(٧) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

**ابـــن مَسعـــودٍ (١) ، ومعـــاذ بن جبل (٢) ، وأبـو الـــدرداء (٣) ، وجُبيـر بن مُطعمٍ (٤) وأنسُ بن مالك (٥) ، وزيدُ بن ثابتٍ (٦) ، والنُّعمانُ بن بَشيرٍ (٧) .**

**قال التِّرمذيُّ (٨) : " حديث ابنِ مسعودٍ حديثٌ حسنٌ ، وحديثُ زيدِ بن ثابتٍ حديثٌ حَسنٌ" (٩).**

**وأخرجَ الحاكمُ (١٠) في " صحيحه " (١١) حديثَ جُبير بن مُطعم ، والنَّعمان بن بشيرٍ وقال في حديثِ جُبير : " على شرط البخاريِّ (١٢) ومسلم (١٣) " .**

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٨٢/٢٠) ، وفي مسند الشاميين (٢٥٩/٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٣٨/٤٦) والقضاعي في مسند الشهاب (٣٠٧/٢) ، وغيرهم . وقد تقدَّمت ترجمة معاذ بن جبل ، ص : ٢٢٧ .

(٣) رواه الدارمي في سننه (٨٧/١) . وقد تقدَّمت ترجمة أبي الدرداء ، ص : ٢٠٦ .

(٤) جُبيرُ بن مُطعِم بن عَدي بن نَوفل بن عبد مناف بن قُصي القُرشي النَّوفلي ، كان من حلماء قريش وساداتهم وكان يؤخذ عنه النسب لقريش ، أسلم بين الحديبيّة والفتح ، وقيل في الفتح توفي عام : ٥٧ هـ .

الاستيعاب لابن عبد البر (٢٣٢/١) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٥١٥/١) ، والإصابة لابن حجر (٥٧٠/١) .

(٥) رواه ابن ماجه (٢٣٦) ، وأحمد (٢٢٥/٣) ، وغيرهما . وقد تقدَّمت ترجمة أنس بن مالك ص : ٨٦ .

(٦) رواه الترمذي (٢٦٥٦) ، وأبو داود (٣٦٦٠) ، وابن ماجه (٢٣٠) ، وغيرهم . وقدتقدَّمت ترجمة زيد ص : ٦٣ .

(٧) رواه الحاكم في المستدرك (٨٨/١) ، والرامَهُرْمُزي في المحدث الفاصل بين الراوي والواعي (١٦٨) ، وغيرهما .

. النعمانُ بن بشير بن ثَعلبة بن سعد بن خلاس بن زيد بن مالك الأنصاريُّ الخزرجيُّ ، لهُ ولأبويهِ صحبةٌ ، وُلِدَ قبل وفاةِ النبي صلى الله عليه وسلم بثماني سنين وسبعة أشهر ، وتوفي عام : ٦٤ هـ .

الاستيعاب لابن عبد البر (١٤٩٦/٤) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٣١٠/٥) ، والإصابة لابن حجر (٣٤٦/٦) .

(٨) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٤ .

(٩) سنن الترمذي (٣٣/٥) .

(١٠) تقدَّمت ترجمته ص : ٢١٠ .

(١١) المستدرك (٨٨/١) .

(١٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٦ .

(١٣) تقدَّمت ترجمته ص : ٧٧ .

والحديث عدَّه بعض أهلِ العلم حديثاً متواتراً عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ رواه " أربعةٌ وعشرونَ صحابياً " وخرَّجه : سبعةٌ وثلاثون إماماً ، في أكثرَ من : خمسةٍ وأربعين كتاباً ، وبلغت طرقه : سبعةً وخمسين ومئة طريق .

ينظر : رسالة : دراسة ورواية ودراية في حديث نضَّر الله امرءا للشيخ عبد المحسن بن حمد العباد .

ولو لم يكنْ في فضلِ العلمِ إلا هذا وحدَهُ لكفى به شَرفاً ؛ فإنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم دعا لمن سَمعَ كلامَهُ ، ووعَاهُ ، وحفظَهُ ، وبلَّغَهُ .

مراتب العلم الأربع التي حواها حديث : نضَّر الله

وهذهِ مراتبُ العلمِ [1] :

* أوَّلُها : سَمَاعُهُ .

* فإذا سمِعهُ ، وعَاهُ بقلبِهِ [2] ، أي : عقَلَهُ ، واستَقَرَّ في قلبِهِ كما يَستقرُّ الشيءُ الذي يُوعى في وِعَائِهِ ، لا يَخرجُ منه ، وكذلك عَقْلُهُ هو بمنزلةِ عَقْلِ البَعيرِ والدَّابةِ ونحوها ، حتى لا تَشردُ وتذهبُ ، ولهذا كان الوعيُ ، والعقلُ قدراً زائداً على مُجرَّدِ إدراكِ المَعلومِ .

* المرتَبةُ الثَّالثة : تعاهُدهُ ، وحفظُهُ ، حتى لاينساهُ ؛ فيذهَبُ .

* المرتَبةُ الرَّابعة : تبليغُهُ وبَثُّهُ في الأُمَّةِ ؛ ليَحصُلَ بهِ ثمَرتُه ، ومقصُودُه ، فما لمْ يُبلَّغ ويُبَثُّ [3] في الأمَّةِ ، فهو بمنزلة الكنزِ المَدفونِ في الأرضِ ، الذي لا يُنْفَقُ منه ، وهو مُعرَّضٌ لذهابِهِ ، فإنَّ العلمَ ما لمْ يُنفقُ منهُ ، ويُعلَّمْ ؛ فإنَّه يُوشكُ أن يذهبَ ، فإذا أُنفِقَ منه نَمَا وزَكَا على الإنفَاقِ .

فمن قامَ بهذه المراتبِ الأربعِ ، دخلَ تحت هذهِ الدَّعوةِ النَّبويَّةِ المُتضمِّنةِ لجَمالِ الظَّاهرِ والباطنِ ، فإنَّ النَّضرةَ هي البَهجةُ والحُسنُ الذي يُكساهُ الوجهُ ، من آثارِ الإيمانِ وابتهاجِ الباطنِ بهِ ، وفرحِ القلبِ وسُرورِهِ ، والتِذَاذِهِ به ، فتظهرُ هذه البَهجةُ والسُّرورُ والفَرحةُ نَضارةً على الوجهِ ، ولهذا يجمعُ سبحانه بين البَهجةِ والسُّرورِ والنَّضرةِ ، كما في قولهِ تعالى : ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [4].

(١) في : د ، ص : وهذهِ هي مراتبُ .

(٢) وهذه هي المرتبة الثانية .

(٣) في : ص : وثُبِّتَ .

(٤) الإنسان : ١١ .

فالنَّضرةُ في وجوهِهم ، والسُّرورُ في قلوبِهم ، فالنَّعيمُ ، وطِيبُ القلبِ يُظهِرُ نَضارةَ الوجهِ كما قال تعالى : ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾(١) .

والمقصود انَّ هذه النَّضرةَ في وجهِ من سمع سُنَّةَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ووَعَاهَـا ، وحَفِظَها ، وبلَّغَها ، فهي أثرُ تلك الحَلاوةِ ، والبَهجةِ ، والسُّرورِ الذي في قلبِهِ وباطنِهِ.

معنى قوله : رُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه

وقولُهُ : ( رُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَن هو أفقهُ منهُ ) ، تنبيهٌ على فائدةِ التَّبليغ ، وأنَّ المُبَلَّغَ قد يكونُ أفهَمَ مِن المُبَلِّغِ ، فيحصلُ له في تلك المَقالةِ ما لمْ يَحصل للمُبَلِّغِ .

أو يكون المعنى : أنَّ المُبَلَّغَ قد يكون أفقهَ من المبلِّغِ ، فإذا سمعَ تلك المَقالةَ حمَلها على أحسنِ وُجُوهِها ، واستنبَطَ فِقْهَهَا ، وعلِمَ المُرادَ منها .

معنى قوله : ثلاث لا يَغِلُّ عليهن قلب مسلم

وقولُهُ : ( ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ مسلمٍ ...) إلى آخِرِهِ ، أي لا يحملُ الغِلَّ ويبقى فيه معَ هذهِ الثَّلاثَةِ ؛ فإنَّها تَنفي الغِلَّ ، والغشَّ ، وهو فسادُ القلبِ ، وسخائمُهُ ، فالمُخلِصُ لله إخلاصُهُ يمنعُ غِلَّ قلبِهِ ، ويُخرجُهُ ، ويُزيلُهُ جُملةً ؛ لأنَّه قد انصرفَتْ دواعي قلبِهِ وإرادَتُهُ إلى مَرضـاةِ ربِّـهِ ، فلم يَبْـقَ فيه موضـعٌ للغِلِّ والغشِّ ، كما قال تعالى (٢) : ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ (٣) ، فلمَّا أخلصَ لربِّهِ صَرفَ عنه دواعيَ السُّوءِ ، والفحشاءِ .

ولهذا لمَّا علمَ إبليسُ أنَّه لا سبيلَ له على أهلِ الإخلاصِ ، استثناهُم من شِرْطَتِهِ التي اشترطَها للغِـوايـةِ والإهـلاكِ ، فقـالَ : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ

---

(١) المطففين : ٢٤ .

(٢) من هنا من قوله : " كما قال تعالى " سقطت عدة صفحات من : ص ، حتى قوله : "لا يرضاها الله ورسوله " في صفحة : ٢٤٧ .

(٣) يوسف : ٢٤ .

﴿ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[١] ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[٢].

**فالإخلاصُ هو سبيلُ الخَلاصِ ، والإسلامُ هو مَركبُ السَّلامةِ ، والإيمانُ خاتَمُ الأمانِ .**

**وقولُهُ : ( ومُناصحةُ أئمَّةِ المسلمين ) ، هذا أيضاً مُنافٍ للغِلِّ والغِشِّ ؛ فإنَّ النَّصيحةَ لا تُجامعُ الغِلَّ ، إذ هي ضِدُّهُ ، فمن نصَحَ الأئمَّةَ والأُمَّةَ فقد برئَ من الغِلِّ .**

**وقولُهُ : ( ولُـزومِ جمَاعتِهم ) ، هذا أيضاً ممَّا يُطهِّرُ القلبَ من الغلِّ والغشِّ ؛ فإنَّ صاحبَهُ للزُومِهِ جماعةَ المسلمين ، يُحِبُّ لهم ما يُحبُّ لنفسِهِ ، ويكرهُ لهم ما يكرَهُ لها ويسوؤُهُ ما يسؤوهُم ، ويسُرُّه ما يسرُّهم .**

**وهذا بخــــلافِ / من انحـــازَ عنهم ، واشتغلَ بالطَّعنِ عليهم ، والعَيبِ ، والذَّمِ ؛ كفعلِ الـرَّافضـةِ [٣] والـخـوارج [٤] ، والـمعتزلــة [٥] ، وغيرهــم ، فـــإنَّ قلوبَهم مُمتلئـــةً غِـــلاً ، وغِشـــاً ، ولهـــذا تَجـــدُ الرَّافضـــةَ أبعـدَ النَّاسِ من الإخـلاصِ** [٣٨/أ]

---

(١) ص : ٨٢ – ٨٣ .

(٢) الحجر : ٤٢ .

(٣) الرافضة : فرقة من فرق الشيعة ؛ إذ إنهم انقسموا أقساماً : الغالية ، والرافضة ، والزيدية ، وسموا بذلك ؛ لأنهم رفضوا إمامةَ أبي بكر الصديق وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، وقيل غير ذلك ، والرافضة في عِداد غُلاة الشيعةِ وهم فرق منها : الهاشمية ، والكيسانية ، والمباركية ، والعمارية ، والقطيعية ، وغيرها . وهم يتبرؤون من الشيخين ويعتقدون أن النبي صلى الله عليه وسلم استخلف علي بن أبي طالب ، ويقولون بالعصمة لأئمتهم .
مقالات الإسلاميين للأشعري (٢٥/١) ، والتنبيه والرد للملطي (١٥٦) ،والتبصير في الدين للإسفراييني (٢٧) والملل والنحل للشهرستاني (١٤٦/١) .

(٤) الخوارج : يطلق على الفرقة التي خرجت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وعلى كلِّ من خرج على الإمام الحـقِّ ، الذي اتفقت عليه الجماعة ، سواء كان الخروجُ في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين ، أم كان بعدهم على الأئمة في كل زمان ، ثم أصبح هذا الاسم علَمَاً على من خرج على أمير المؤمنين ، حيث اعترضوا على قبول التحكيم في حــرب صفِّين ، وهم فِـرق يجمعهم القـول بتكفير عثمان ، وعلي رضي الله عنهما ، والتبريّ منهما ويقدمـــون ذلك على كلِّ طاعـة ، ويكفرون أصحاب الكبائر ، ويوجبون لهم الخلود في النَّار ، إلا النجدات منهم قالوا : الفاسق كافر بالنعمة . مقالات الإسلاميين للأشعري (٨٤/١) ، والفرق بين الفرق للبغدادي (٧٢) ، والملل والنحل للشهرستاني (١١٤/١) .

(٥) سبق التعريف بهم ص : ٨٩ .

وأغشَّهم للأئمةِ ، والأمةِ ، وأشدَّهم بُعداً عن جماعةِ المسلمين . فهؤلاء أشدُّ النَّاسِ غِلاً وغِشّاً بشهادةِ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم ، والأمَّةِ عليهم ، وشهادتِهم على أنفُسِهم بذلك ؛ فإنَّهم لايكونونَ قطُّ إلا أعواناً وظَهْرَاً على أهلِ الإسلامِ ، فأيُّ عدوٍّ قام للمسلمين كانوا أعوانَ ذلك العدوِّ وبطانَتَهُ .

وهذا أمرٌ قد شاهَدَتهُ الأمَّةُ منهم ، ومَن لم يُشاهِدهُ فقد سَمعَ منه ما يُصِمُّ الآذانَ ويُشجي القلوبَ .

وقولُهُ : ( فإنَّ دعوتَهم تُحيطُ من ورائهم ) ، هذا من أحسنِ الكلامِ ، وأوجزِهِ ، وأفخَمِهِ معنىً ، شَبَّهَ دَعوةَ المسلمين بالسُّورِ ، والسِّياجِ المُحيطِ بهم ، المانعِ من دُخولِ عدُوِّهم عليهم ، فتلك الدَّعوةُ التي هي دعوى [1] الإسلام ، وهم داخلوها لـمَّا كانت سُوراً وسياجاً عليهم ، أخبرَ أنَّ من لزمَ جماعةَ المسلمين ، أحاطتْ به تلك الدَّعوةُ ، التي هي دعوةُ الإسلامِ ، كما أحاطتْ بهم ، فالدَّعوةُ تجمعُ شملَ الأمةِ ، وتَلُمُّ شَعَثَهَا ، وتُحيطُ بها ، فمن دخلَ في جماعتِها أحاطتْ بهِ ، وشمِلتهُ .

الوجه الثالث والخمسون : أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم أمرَ بتبليغِ العلمِ عنهُ ، ففي " الصَّحيح " [2] من حديثِ عبد الله بن عمرو رضي الله عنه [3] قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : ( بلِّغُوا عنِّي ولو آيةً ، وحدِّثوا عن بني إسرائيلَ ولا حَرجَ ، ومن كَذَبَ عليَّ مُتعمداً ؛ فليتَبَوَّأ مَقعَدَهُ من النَّارِ ) . أمرُ النبي صلى الله عليه وسلم بتبليغ العلم عنه في غير ما حديث

وقال صلى الله عليه وسلم : ( ليبلِّغ الشاهدُ منكم الغائِبَ ) [4] ، روى ذلك أبو بَكَرَةَ [5]

---

(١) في : د ، ص : دعوة .

(٢) رواه البخاري (٣٤٦١) .

(٣) عبد اللَّه بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم القرشيّ السّهمي ، أسلم قبل أبيه ، وكان من العُباد الزُّهاد ، وكان حافظاً عالماً ، استأذن الرسولَ صلى الله عليه وسلم في أن يكتب حديثَه ، فأذنَ له . توفي عام : ٦٥ هـ . الاستيعاب لابن عبد البر (٩٥٦/٣) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٣٤٥/٣) ، والإصابة لابن حجر (١٦٥/٤) .

(٤) الحديث جزء من حديث خطبة الوداع ، رواه البخاري (٦٧) ، ومسلم (١٦٧٩) .

(٥) أبو بكرة هو : نفيع بن مسروح وقيل نفيع بن الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج بن أبي سلمة بن عبد العُزى بن عبدة بن عوف الثقفي ، وهو معدود في موالي النبي صلى الله عليه وسلم ، توفي عام : ٥١ هـ . الاستيعاب لابن عبد البر (١٥٣٠/٤)، وأسد الغابة لابن الأثير (٣٣٤/٥) ، والإصابة لابن حجر (٣٦٩/٦) .

**ووابِصَــةُ بن مَعبَـــدٍ [١] ، وعمَّـــارُ بن ياســـرٍ [٢] ، وعبـــد الله بـن عمــرَ [٣] وعبد الله بن عباسٍ [٤] ، وأسماءُ بنت يزيدَ بن السَّكَنِ [٥] ، وحُجَيرٌ [٦] ، وأبو قُرِيعَ [٧] وسَرَّى بنت نَبهَانَ [٨] ومعاويةُ بن حَيْدَةَ القُشَيريُّ [٩] ، وعمُّ أبي حُرَّةَ [١] ، وغيرُهم .**

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (١٦٣/٣) ، وتَمَّامٌ في الفوائد (٣٦٣/١) ، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٩٠/٢) .
وابِصَةُ بن مَعبد بن مَالك بن عُبيد الأسدي ، من بني أسدِ بن خُزيمة ، يكنى أبا شدَّادٍ ، سكن الكوفة ، ثُمَّ تحول إلى الرقة ، فأقام بها إلى أن مات بهَا .
الاستيعاب لابن عبد البر (١٥٦٣/٤)، وأسد الغابة لابن الأثير (٣٩٨/٥) ، والإصابة لابن حجر (٣٦٩/٦) .

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده (١٩٣/٣) وفي المعجم (٢٠٤) ، وابن عدي في الكامل (١٢٠/٥) .
عمار بن ياسر بن عامر الكناني المذحجي العنسي القحطاني ، أبو اليقظان ، كان من السابقين الأولين ، هو وأبوه ، وكانوا ممن يعذّب في سبيل اللّه . توفي عام : ٣٧ هـ .
الاستيعاب لابن عبد البر (١١٣٥/٣) ، وأسد الغابة لابن الأثير (١٢٢/٤) ، والإصابة لابن حجر (٤٧٣/٤) .

(٣) رواه أبو داود (١٢٧٨) ، والترمذي (٤١٩) ، وأحمد (١٠٤/٢) ، وغيرهم . وقد تقدَّمت ترجمة ابن عمر ص :٨٤.

(٤) رواه البخاري (١٧٣٩) ، وغيره . وقد تقدَّمت ترجمة ابن عباس ص : ٨٧ .

(٥) رواه أحمد (٤٥٦/٦) . أسماء بنت يزيد بن السَّكَن الأنصارية الأوسية ، من نساء بني عبد الأشهل ، تُكنى أم سلمة وقيل : أم عامر ، كانت من ذواتِ العقلِ والدين ، وهي من أخطبِ نساءِ العربِ ، ومن ذواتِ الشجاعةِ والاقدام ، وهي من المبايعات . قيل : وفاتها عام : ٣٠ هـ .
الاستيعاب لابن عبد البر (١٧٨٧/٤)، وأسد الغابة لابن الأثير (١٦/٧) ، والإصابة لابن حجر (٢١/٨) .

(٦) رواه الطبراني في الكبير (٣٤/٤) ، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٠٢/٣) .
حجير بن أبي حجير ، أبو مخشي الهلالي، وقيل اسمه : حنفي . الاستيعاب لابن عبد البر (٣٣٣/١) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٧٠٠/١) ، والإصابة لابن حجر (٣٦/٢) .

(٧) قال ابن الأثير في أسد الغابة (٢٤٨/٦) : " أبو قُريع ، قال: كنت تحت ناقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجته . روى حديثَه طالبُ بن قُريع، عن أبيه ، عن جدِّهِ ، أخرجه ابن منده .
وينظر : الإصابة لابن حجر (٢٧٦/٧) .

(٨) رواه البخاري في خلق أفعال العباد (٩٠) ، وأبو داود في سننه (١٩٥٣) .
سَرَّى بِنْت نبهان الغنويَة ، وقيل : العنبرية ، وضبطها بعضهم بألفٍ ممدودة : سَــرَّاء .
الاستيعاب لابن عبد البر (١٨٦٠/٤ )، وأسد الغابة لابن الأثير (١٤١/٧ ) .

(٩) رواه أحمد (٤/٥) ، والبخاري في خلق أفعال العباد (٩٠) ، وابن ماجه (٢٣٤) ، وغيرهم .
معاوية بن حيدة بن معاوية بن حيدة بن قُشير بن كعب القُشيري ، من أهل البصرة ، له وفادة وصحبة. وقال البخاريّ : سمع النبيّ صلى اللّه عليه وسلّم ، وقد غزا خراسان ومات بِهَا .
الاستيعاب لابن عبد البر (١٤١٥/٣)، وأسد الغابة لابن الأثير (٢٠٠/٥) ، والإصابة لابن حجر (١١٨/٦) .

فأمَرَ صلى الله عليه وسلم بالتَّبليغِ عنهُ ، لِمَا في ذلك من حُصولِ الهُدى بالتَّبليغِ ، وله صلى الله عليه وسلم أجرُ مَن بلَّغَ عنهُ ، وأجرُ من قَبِلَ ذلك البلاغَ .

وكلَّما كثرَ التَّبليغُ عنه تضاعفَ له الثَّوابُ ، فله من الأجرِ بعددِ كُلِّ مُبلِّغٍ ، وكلِّ مُهتدٍ بذلك البلاغِ ، سِوى ما له من أجرِ عَمَلِهِ المُختصِّ بِهِ ، فكلُّ مَن هُديَ واهتدَى بتبليغهِ فلهُ أجرهُ ؛ لأنَّه هو الداعي إليهِ ، ولو لم يكنْ في تبليغِ العلمِ عنهُ إلَّا حُصولُ ما يُحبُّهُ صلى الله عليه وسلم لكفى بهِ فضلاً .

وعلامةُ المُحبِّ الصَّادقِ أن يسعى في حُصولِ مَحبوبِ مَحبُوبِهِ ، ويبذلَ جهدَهُ وطاقَتَهُ فيها .

ومعلومٌ أنَّه لا شيءَ أحبَّ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم من إيصالِهِ الهُدى إلى جميعِ الأمَّةِ ، فالمُبلِّغُ عنه ساعٍ في حصولِ مَحابهِ ، فهو أقربُ النَّاسِ منه ، وأحبُّهم إليه وهو نائبُهُ وخليفَتُهُ في أمَّتِهِ ، وكفى بهذا فضلاً ، وشرَفاً للعلمِ وأهلِهِ .

أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قدَّمَ بالفضائلِ العِلميَّةِ في أعلى الولاياتِ الدِّينيةِ وأشرفِها

الوجه الرَّابع والخمسون : أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قدَّمَ بالفضائلِ العِلميَّةِ في أعلى الولاياتِ الدِّينيةِ وأشرفِها ، وقدَّمَ بالعلمِ بالأفضلِ على غيرِهِ .

فروى مسلم (٢) في " صحيحه " (٣) من حديث أبي مسعودٍ البَدريِّ (٤) عن النَّبي صلى الله عليه وسلم : ( يؤمُ القومَ اقرَؤُهُم لكتابِ الله ؛ فإن كانوا في القراءةِ سواءً فأعلَمُهم

---

(١) في مسند الإمام أحمد (٥/٧٢ – ٧٣) ، وفي سنن أبي داود (١٩٥٣) . =

أبو حُرَّة الرُّقاشي ، يقال اسمه : حنيفة ، وقيل : حكيم ، وعمُّه صحابي ، قيل اسمه : حُذيم بن حنيفة ، وقيل : عامر بن عبيدة ، وقيل : حكيم بن أبي زيد ، وقيل : حنيفة كاسم ابن أخيه .

ينظر: المؤتَلِف والمختَلِف للدارقطني (٢/٧٥٠) ، وتوضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة لابن ناصر الدين الدمشقي (٣/١٩٤ ) ، وتهذيب التهذيب لابن حجر (٣/٦٤).

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٧٧ .

(٣) رقم الحديث (٦٧٣) .

(٤) عقبة بن عمرو بن ثعلبة بن أسيرة بن عطية الخزرجي الأنصاري ، أبو مسعود البدري ، اشتهر بكنيَته ، كني بها لأنه سكن بدراً ، واختلفوا في شهوده بدرا ، واتفقوا على أنه شهد العَقَبةَ ، توفي عام : ٤٠ هـ ، وقيل : توفي

بالسُّنةِ ؛ فإن كانوا في السُّنةِ سواءً [١] فأقدَمهم سِلْمَاً أو سِنَّاً ....) وذكرَ الحديث .

فقدَّمَ في الإمامةِ بفضيلةِ العلمِ على تقديمِ الإسلامِ والهجرةِ ، ولمَّا كان العلمُ بالقرآنِ أفضلَ من العلمِ بالسُّنةِ ؛ لشرفِ مَعلومِهِ على مَعلومِ السُّنةِ ، قدَّمَ العلمَ بِهِ ثم قدَّمَ العلمَ بالسُّنةِ على تقدِيمِ الهجرةِ ، وفيه من زيادةِ العملِ ما هو مُتميزٌ بِهِ ، لكنْ إنَّما راعى التَّقديمَ بالعلمِ ثمَّ بالعملِ ، وراعى التَّقديمَ بالعلمِ بالأفضلِ على غيرِهِ ، وهذا يدلُّ على شرفِ العلمِ وفَضلِهِ ، وإنَّ أهلَهُ هم أهلُ التَّقدمِ إلى المَراتبِ الدِّينِيَّةِ .

قول النَّبي صلى الله عليه وسلم : خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه

الوجه الخامس والخمسون : ما ثبتَ في " صحيح البخاري " [٢] من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه [٣] ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : ( خَيركُم من تعلَّمَ القرآنَ ، وعلَّمهُ ) ، وتعلُّم القرآنَ ، وتعليمُهُ يتناولُ تعلُّمَ حُروفِهِ وتعليمَهَا ، وتعلُّمَ مَعانيهِ وتعليمَهَا ، وهو أشرفُ قِسْمَيْ عِلمهِ وتعلُّمِهِ [٤] ؛ فإنَّ المعنى هو المقصودُ واللفظُ وسيلةٌ إليهِ ، فتعلُّمُ المعنى وتعليمُهُ ، تعلُّمُ الغايةِ وتعليمُهَا ، وتعلُّمُ اللَّفظِ المُجرَّدِ وتعليمُهُ تعلُّمُ الوسائلِ وتعليمُهَا ، وبينهما كما بين الغاياتِ والوسائِلِ .

قول النَّبي صلى الله عليه وسلم : لن يشبع المؤمن من خير يسمعه

بعدها بقليل. الاستيعاب لابن عبد البر (١٠٧٤/٣) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٥٥/٤) ، والإصابة لابن حجر (٤٣٢/٤) .

(١) في : د " فإن كانوا في القراءة سواءً فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا في الهجرة سواءً فأقدمهم سِلْما ..." .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٧٩ .

(٣) ذو النُّورين : عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصي القُرشي الأموي ، يُكنى أبا عبد الله وأبا عمرو ، كنيتان مشهورتان له ، ثالثُ الخلفاء الراشدين ، أسلم قديما ، وهاجر إلى الحبشة ، ولم يشهد بدرا ، إذ تخلف عنها بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، ليمرِّضَ زوجته رقية ، توفي عام : ٣٥ هـ .
الاستيعاب لابن عبد البر (١٠٣٧/٣) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٥٧٨/٣) ، والإصابة لابن حجر (٣٤٩/٢) .

(٤) في : د " وتعليمِهِ " .

**الوجه السادس والخمسون : ما رواهُ التِّرمذيُّ ، وغيرُهُ ، في نُسخةِ عمرو بن الحارث [١] عن درَّاجٍ [٢] ، عن أبي الهيثمِ [٣] ، عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه [٤] ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال :( لن يشبعَ المؤمنُ من خيرٍ يسمعهُ ، حتى يكونَ مُنتهاهُ الجنَّةَ ) [٥] .**

**قال التِّرمذيُّ [٦] : " هذا حديثٌ حَسنٌ غريبٌ " .**

**وهذه نسخةٌ معروفةٌ رواها النَّاسُ ، وساقَ أحمدُ [٧] في " المسند " أكثرَها ، أو كثيراً منها [٨] .**

**ولهذا الحديثِ شواهدُ .**

**فجعل النَّبي صلى الله عليه وسلم النَّهمَةَ في العلمِ ، وعدمَ الشِّبعِ منه ، من لوازمِ الإيمان ، وأوصافِ المؤمنين ، وأخبرَ أنَّ هذا لا يزالُ دَأْبَ المؤمنِ حتى دخولهِ**

---

(١) عمرو بن الحارث بن يعقوب أبو أمية الأنصاري ، مولاهم ، المصري أحد الأعلام ، كان قارئاً ، فقيهاً ، مفتياً ، توفي عام : ١٤٧ هـ . تهذيب الكمال للمزي (٥٧١/٢١) ، والكاشف للذهبي (٧٤/٢) .

(٢) درَّاج بن سمعان ، يقال : اسمه عبد الرحمن ودراج لقب ، أبو السمح المصريُّ ، القاصُّ ، مولى عبد الله بن عمرو بن العاص ، فهو مختلف فيه ، وثقه ابن معين وغيره ، وضعفه أحمد وغيره ، وقال النسائي : "منكر الحديث" وقال أبو داود وغيره : حديثه مستقيمٌ إلا ما كان عن أبي الهيثم ، توفي عام : ١٢٦ هـ . تهذيب الكمال للمزي (٤٧٧/٨) ، والكاشف للذهبي (٣٨٣/١) .

(٣) أبو الهيثم ، سليمان بن عمرو بن عُبيد الليثي العتواري ، المصري ، صاحب أبي سَعِيد الخُدْرِيّ ، وكان في حجره . تهذيب الكمال للمزي (٥٠/١٢) ، والكاشف للذهبي (٤٦٣/١) .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٤ .

(٥) رواه الترمذي (٢٦٢٦) ، والحاكم في المستدرك (١٢٩/٤) ، وابن حبان في صحيحه (٩٠٣) ، وابن عدي في الكامل (١١٤/٣) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٣٧/٢) ، وفيه : درَّاج ، وقد ضعفوه في أبي الهيثم . وضعَّفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي ص (٣٢٠) .

(٦) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٤ .

(٧) تقدَّمت ترجمته ص : ١١١ .

(٨) ينظر المسند ج (٣) ص :( ٨ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٨٣ ) .

وقال المؤلف رحمه الله عن نسخة درَّاج في : حادي الأرواح (٥٩) : "وهذه النسخة ضعيفة " وقال في ص(٦٠) : "قال الإمام أحمد: أحاديثُ درَّاجٍ مناكير ، وقال أبو حاتم الرَّازي: ضعيف ، وقال النسائي: ليس بالقوي" ، وقال في ص (٢٣٠) : "وقال النسائي منكر الحديث ضعيف وقال أيضا ليس بالقوة وساق له ابن عدي أحاديث وقال عامتها لا يتابع عليها وقال الدارقطني ضعيف وقال مرة متروك وأما يحيى بن معين فقد وثقه"

**الجنَّةَ ، ولهذا كان أئمَّةُ الإسلامِ إذا قيل : لأحدهِم إلى متى تطلب العلمَ ؟ فيقول : إلى المَماتِ " .**

**قال نُعَيمُ بن حمَّاد (١) : سمعت عبد الله بن المبارك رحمه الله (٢) يقولُ ، وقد عابَهُ قومٌ في كثرةِ طلبهِ للحديثِ ، فقالوا له : إلى متى تسمع ؟ قال إلى الممات ! (٣) .**

**وقال الحسين بن منصور الجصَّاص (٤) : قلت لأحمد بن حنبل رضي الله عنه (٥) : " إلى متى يكتبُ الرجلُ الحديثَ ؟ قال إلى الموت " (٦) .**

**وقال عبد الله بن محمد البغوي (٧) سمعت أحمدَ بن حنبل رضي الله عنه يقول : " إنما أطلبُ العلمَ إلى أن أدخلَ القبر " (٨) .**

**وقال محمد بن إسماعيل الصائغ (١) : " كنت أصوغُ مع أبي ببغدادٍ ، فمَرَّ بنا أحمد بن حنبلٍ ، وهو يَعدو ، ونعلاهُ في يديهِ ، فأخذ أبي بمجامعِ ثوبِهِ ، فقال : يا أبا عبد الله ألا تستحي ! إلى متى تعدو مع هؤلاء ؟ قال : إلى الموت " (٢) .**

---

(١) نُعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث بن همام بن سلمة بن مالك الخُزاعي ، المروزي ، الإمام ، العلامة ، الحافظ كان من أعلم الناس بالفرائض ، له كتاب : الفتن والملاحم ، توفي عام : ٢٢٧ هـ .
تهذيب الكمال للمزي (٤٦٦/٢٩) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٥٩٥/١٠) .

(٢) عبد الله بن المبارك بن واضِح الحنظلي التميمي ، مولاهم ، أبو عبد الرحمن المروزي ، أحدُ الأئمةِ الأعلام ، وحُفاظ الإسلام ، جمع الحديث ، والفقه ، والعربية ، وأيامَ الناسِ ، والشجاعة ، والسخاء ، توفي عام : ١٨١ هـ .
حلية الأولياء لأبي نعيم (١٦٢/٨) ، وتاريخ بغداد للخطيب (٣٨٨/١١) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (١٦/٢)

(٣) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٤٠٦/١) ، وينظر : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢٢٠/٢) ، وترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض (٣٩/٣) .

(٤) الحسين بن منصور بن جعفر بن عَبد الله بن رُزين بن محمد بن برد السلمي ، أبو علي النيسابوري ، الإمام الحافظ كان كثير الحديث ، والرحلة فيه ، توفي عام : ٢٣٨ هـ . تهذيب الكمال للمزي (٤٨١/٦) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣٨٣/١١)

(٥) تقدمت ترجمته ص : ١١١ .

(٦) رواه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب أهل الحديث (٦٨) ، وينظر : طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١٤٠/١) والمقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد (٣٣٨/١) .

(٧) أبو القاسم ، عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان البغوي ، الحافظ ، الإمام ، الحُجَّة ، المُعمَّر، مُسند عصره توفي عام : ٣١٧ هـ . طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١٩٠/١) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤٤٠/١٤) .

(٨) رواه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب أهل الحديث (٦٨) .

**وقال عبد الله بن بِشر الطَّالْقاني [٣] : " أرجو أن يأتيني أمرُ ربِّي والمِحبرةُ بين يَدَيَ ، ولم يُفارقني القلمُ والمِحبرةُ " [٤] .**

**وقال حُميد بن يزيد البصري [٥] جاء ابن بِسطَام الحافظُ [٦] يسألني عن الحديث ؟ فقلت له : " ما أشدَّ حرصَك على الحديثِ ؟ فقال : أو مَا أُحِبُّ أن أكونَ في قِطارِ آلِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم " [٧] .**

**وسُئِلَ الحَسَن رحمه الله [٨] عن الرَّجُلِ له ثمانونَ سَنةً : أيَحسُنُ أن يطلبَ العلمَ ؟ قال : " إن كان يَحسُنُ به أن يعيشَ " [٩].**

---

(١) أبو جعفر ، محمد بن إسماعيل بن سالم الصائغ البغدادي ، المُحدِّث، سكن مكة ، وحدَّث بها ، شيخ الحرم ، توفي عام : ٢٧٦ هـ . تاريخ بغداد للخطيب (٣٦٣/٢) ، و تهذيب الكمال للمزي (٤٧٥/٢٤)

(٢) رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٢٥٧/٧) .

(٣) عبد الله بن بِشر بن عُميرة بن الصَّدى بن حميل بن شرحبيل ، أبو محمد الطالقاني البكري ، من بكر بن وائل رحل وسمع بدمشق ومصر . الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١٤/٥) ، وتاريخ دمشق لابن عساكر (١٦٥/٢٧) .

(٤) رواه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب أهل الحديث (٦٨) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٦٨/٢٧) .

(٥) حُميد بن يزيد البَصْرِيّ ، أبو الخطاب ، روى عن نافع عن ابن عمر ، وروى عنه حماد بن سلمة ، قال الذهبي : لا يُدرى من هو . الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١٤/٥) ، وميزان الاعتدال للذهبي (٦١٧/١)

(٦) زكريا بن عدي بن رزيق بن عدي بن الصَّلت بن بسطام ، أبو يحيى التَّيْمِيّ ، مولاهم ، الكوفي ، كان حافظاً مجوداً ، توفي عام : ٢١٢ هـ . تذكرة الحفاظ للذهبي (٢٩١/١) ، وتهذيب التهذيب لابن حجر (٣٣١/٣) .

(٧) أورده ابن الجوزي في المنتظم (٣٠٤/١٦) ، وابن الأثير في الكامل في التاريخ (٣٥٨/٨) ، وابن خلكان في وفيات الأعيان (٢٥٥/١) عن : الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس ، الملقب بنظام الملك .

(٨) تقدَّمت ترجمته ص : ٩١ .

(٩) رواه الخطيب البغدادي في : شرف أصحاب الحديث (٦٩) ، ورواه في : الفقيه والمتفقه (١٦٧/٢) عن أبي عمرو ابن العلاء .

قول النَّبي صلى الله عليه وسلم : الكلمةُ الحِكمةُ ضالَّةُ المؤمنِ

**الوجه السابعُ والخمسون : ما روى التِّرمذيُّ (١) أيضاً من حديثِ إبراهيمَ بن الفَضْلِ (٢) ، عن المَقْبُريِّ (٣) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه (٤) قال : قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : ( الكلمةُ الحِكمةُ ضالَّةُ المؤمنِ ، فحيثُ وجَدَها فهو أحقُّ بها ) (٥) .**

**قال التِّرمذيُّ : " هذا حديثٌ غريبٌ ، لا نعرفهُ إلا من هذا الوجهِ ، وإبراهيمُ بن الفَضْلِ المَدينيُّ المَخزوميُّ ، يُضَعَّفُ في الحديثِ من قِبَلِ حِفْظِهِ " (٦) .**

**وهذا أيضاً شاهدٌ لِمَا تقدَّمَ ، وله شواهدُ .**

**والحكمةُ هي العلمُ ؛ فإذا فقدَهُ المؤمنُ فهو بمنزلةِ مَن فقدَ ضالَّةً نَفيسَةً مِن نفائِسهِ فإذا وجدَهَا / قرَّ قلبُهُ ، وفَرِحَتْ نفسُهُ بوِجْدَانِها ، كذلك المؤمن إذا وجدَ ضالَّةَ قلبِهِ [٣٩/أ] ورُوحِهِ ، التي هو دائماً في طلبِها ونِشدَانِها ، والتَّفتيشِ عليها .**

**وهذا من أحسنِ الأمثلةِ ؛ فإنَّ قلبَ المؤمنِ يطلبُ العلمَ حيثُ وجَدَهُ أعظمَ مِن طلبِ صاحبِ الضَّالَّةِ لها .**

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٤ .

(٢) إبراهيم بن الفضل بن سلمان المخزومي ، أبو إسحاق المدني ، قال عنه أبو حاتم : " ضعيف الحديث منكر الحديث " ، وقال البخاري : منكر الحديث " . التاريخ الكبير للبخاري (٣١١/١) ، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١٢٢/٢) ، وتهذيب الكمال للمزي (١٦٥/٢)

(٣) تقدَّمت ترجمته ص : ١٠٨ .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٦٤ .

(٥) رواه الترمذي (٢٦٨٧) ، وابن ماجه (٤١٦٩) ، وقد بيَّن ضعفه الترمذي ، كما نقل المؤلف .

(٦) سنن الترمذي (٤٩/٥) .

قول النَّبي صلى الله عليه وسلم : خَصلتانِ لا يجتمعانِ في مُنافقٍ

**الوجـه الثامنُ والخمسـون : قال الترمذي : حدَّثنا أبو كُرَيبٍ [١] : حدَّثنا خَلَفُ بن أيوبَ [٢] ، عن عوفٍ [٣] ، عن ابن سِيرينَ [٤] ، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم : ( خَصلتانِ لا يجتمعانِ في مُنافقٍ : حُسْنُ سَمْتٍ ، وفِقهٌ في الدِّين ) [٥].**

**قال التِّرمذيُّ : " هذا حديثٌ غريبٌ ، ولا يُعرفُ هذا الحديثُ من حديثِ عوفٍ ، إلَّا من حديثِ هذا الشيخ : خَلَفُ بن أيوب العامِري ، ولم أرَ احداً يروي عنهُ غيرَ أبي كُرَيبٍ محمدُ بن العَلاء [٦] ، ولا أدري كيف هو " [٧] .**

**وهذه شهادةٌ بأنَّ من اجتمعَ فيه حُسنُ السَّمتِ والفِقهُ في الدِّين فهو مؤمن .**

**وأحرى بهذا الحديثِ أن يكون حقَّاً ، وإنْ كان إسنادُهُ فيه جَهالةٌ ؛ فإنَّ حُسنَ السَّمتِ والفِقهَ في الدِّينِ من أخصِّ علاماتِ الإيمانِ ، ولن يجمَعَهُما الله في مُنافقٍ ؛ فإنَّ النِّفاقَ يُنافيهما ويُنافيانِهِ .**

---

(١) محمد بن العلاء بن كُريب الهمداني ، أبو كريب الكوفي ، الحافظ ، الثقة ، الإمام ، شيخ المحدثين توفي عام : ٢٤٦ هـ . تهذيب الكمال للمزي (٢٤٣/٢٦) ، وسير اعلام النبلاء للذهبي (٣٩٤/١١) .

(٢) خلف بن أيوب العامري ، أبو سعيد البلخي ، قال الإمام أحمد بن حنبل: " روى عن عوف ، وقيس المناكير " توفي عام : ٢٠٥ هـ .
تهذيب الكمال للمزي (٢٧٣/٨) ، ميزان الاعتدال للذهبي (٦٥٩/١) .

(٣) عوف بن أبي جميلة ، تقدَّمت ترجمته ص : ١١١.

(٤) محمد بن سيرين الأنصاري ، أبو بكر ، مولى أنس بن مالك ، الإمام ، الحافظ ، الورع ، توفي عام : ١١٠ هـ . حلية الأولياء لأبي نعيم (٢٦٣/٢) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٦٠٦/٤) .

(٥) رواه الترمذي (٢٦٨٤) ، والعقيلي في الضعفاء (٢٤/٢) ، والطبراني في المعجم الوسط (٧٥/٨) ، وفيه : خلف بن أيوب ، وهو : ضعيف ، وقال العقيلي : " ليس له أصل من حديث عوف ، وإنما يروى هذا عن أنس بإسناد لا يثبت " .

(٦) ذكر الذهبي في ميزان الاعتدال : أنَّه حدَّث عن خلف بن أيوب جماعةٌ غير أبي كريب ، وينظر : تهذيب الكمال (٢٧٣/٨) .

(٧) سنن الترمذي (٤٨/٥) .

قول النَّبي صلى الله عليه وسلم : من أحيا سُنَّتي فقد أحبني ومن أحبني كان معي في الجنة

**الوجه التَّاسعُ والخمسون : قال التِّرمذيُّ [1] : حدَّثنا مُسلمُ بن حاتم الأنصاريُّ أبو حاتم البصري [2] : حدَّثنا محمد بن عبد الله الأنصاريّ [3] ، عن أبيهِ [4] عن علي بن زيد [5] ، عن سعيد بن المُسيِّب [6] ، قال : قال أنس بن مالك رضي الله عنه [7] : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : ( إن قدرتَ أن تُصبِحَ وتُمسي ، وليس في قلبِكَ غِشٌّ لأحدٍ فافعلْ ) .**

**ثمَّ قال : ( يا بُنَيَّ ، وذلك من سُنَّتي ، ومن أحيا سُنَّتي فقد أحبَّني ، ومن أحبَّني كان معيَ في الجنَّة ) [8] .**

**وفي الحديث قصَّةٌ طويلةٌ .**

**قال التِّرمذيُّ : " هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الوجهِ ، ومحمد بن عبد الله الأنصاريُّ صدوقٌ ، وأبوه ثقةٌ ، وعلي بن زيد صدوقٌ ؛ إلا أنَّه رُبَّما يرفعُ الشيءَ الذي يُوقِفُهُ غيرُه**

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٤ .

(٢) في النسخ الخطية : " حدَّثنا مُسلمُ بن حاتم الأنصاريُّ : حدَّثنا أبو حاتم البصري "
والمثبت هو الصواب كما في سنن الترمذي .
ومسلم بن حاتم أبو حاتم الأنصاري البصري ، قال الترمذيُّ وأبو القاسم الطبرانيّ : كان ثقة .
الثقات لابن حبان (١٥٨/٩) ، وتهذيب التهذيب لابن حجر (١٢٤/١٠)

(٣) محمد بن عبد الله بن المُثنَّى بن عبد الله بن أنس بن مالك الأنصاريّ ، أبو عبد الله البَصرِيّ ، المحدث ، الثقة شيخ البصرة وقاضيها ، توفي عام : ٢١٥ هـ . تهذيب الكمال للمزي (٥٣٩/٢٥) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٢٧٢/١) .

(٤) عبد الله بن المثنى بن عَبد الله بن أنس بن مالك الأَنْصارِيّ ، أبو المثنى البَصْرِيّ .
الثقات للعجلي (٥٧/٢) ، وتهذيب الكمال للمزي (٢٥/١٦) .

(٥) علي بن زيد بن عبد الله بن أبي مليكة زهير بن عبد الله بن جدعان ، أبو الحسن التَّيميُّ القُرشي البَصريُّ ، الأعمى قال الإمام أحمد : " ليس بشيء " ، وقال أبو زرعة : " ليس بقوي " ، وقال أبو حاتم : " ليس بقوي ، يكتب حديثه ، ولا يحتج به " ، توفي عام : ١٢٩ هـ .
تذكرة الحفاظ للذهبي (١٠٦/١) ، وتهذيب التهذيب لابن حجر (٣٢٢/٧) .

(٦) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٢١ .

(٧) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٦ .

(٨) رواه الترمذي (٢٦٧٨) وفيه : علي بن زيد ، وقد ضعَّفوه ، كما تقدَّم ، وضعفه الألباني في : ضعيف سنن الترمذي (٣١٧ – ٣١٨ ) .

**سمعت محمد بن بشَّار [١] يقول : قال أبو الوليد [٢]: قال شُعبة [٣] : حدَّثنا عليُّ بن زيدٍ ، وكان رَفَّاعاً " .**

**قال التِّرمذيُّ : " ولا نعرفُ لسعيد بن المُسَيِّب ، عن أنس روايةً إلا هذا الحديثُ بطُولِهِ وقد روى عبَّادُ المِنْقَريُّ [٤] هذا الحديثَ عن عليِّ بن زيدٍ عن أنسٍ ، ولم يَذكُر فيه : عن سعيدِ بن المُسَيِّب ، [ وذاكرتُ بهِ محمد بن إسماعيل [٥] ؛ فلم يعرفهُ ، ولم يعرفْ لسعيدِ بن المُسَيِّب ] [٦] عن أنس هذا الحديثَ ، ولا غيرَهُ .**

**ومات أنس سنةَ ثلاثٍ وتسعينَ ، وسعيدُ بن المُسَيِّبِ سنةَ خمسٍ وتسعينَ ، بعدَهُ بسنتين " [٧] .**

**قلتُ : ولهذا الحديثِ شواهدٌ :**

**منها ما رواهُ الدَّارميُّ عبد الله [٨] : حدَّثنا محمد بن عُيَينَة [٩] ، عن مروانَ بن مُعاويةَ**

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ١٠٨ .

(٢) هشام بن عبد الملك الباهلي ـ مولاهم ـ أبو الوليد الطيالسي البصري ، الإمام ، الحافظ ، روى عنه البخاري وأبو داود وغيرهما ، توفي عام : ٢٢٧ هـ . سير اعلام النبلاء للذهبي (٣٤١/١٠) ، وتهذيب الكمال للمزي (٢٢٦/٣٠) .

(٣) شُعبة بن الحَجَّاج بن الوَرْد الواسطي ، أبو بِسْطام الأزدي العَتَكي مولاهم ، الإمام ، الحافظ ، نزيلُ البصرة وعالمها ومُحَدِّثُها ، قال الشافعي : " لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق " ، توفي عام : ١٦٠ هـ .
التاريخ الكبير للبخاري (٢٤٤/٤) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (١٤٤/١) .

(٤) عبَّاد بن ميسرة المِنقَري التميميُّ ، البَصْرِيُّ ، ضعَّفه أحمد ، ويحيى ، وقال يحيى ـ مرة ـ : ليس به بأس .
تهذيب الكمال للمزي (١٦٧/١٤) ، وميزان الاعتدال للذهبي (٣٧٨/٢)

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٦ .

(٦) ليست في النسخة الأصل ، والمثبت من : د ، وسنن الترمذيّ .

(٧) سنن الترمذي (٤٥/٥) .

(٨) عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الدارمي التميمي ، أبو محمد السَّمرقندي ، الحافظ المُتقن ، العابد ، شيخ الإسلام بسمرقند ، صنَّف المسند ، والتفسير ، والجامع ، وغيرها ، توفي عام : ٢٥٥ هـ .
تهذيب الكمال للمزي (٢١٠/١٥) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٩٠/٢) .

(٩) محمد بن عُيينة الفَزَارِي ، أبو عبد الله الثَّغري المِصِّيصِيُّ ، توفي في المَصِيصَةِ عام : ٢١٧ هـ .
الطبقات الكبرى لابن سعد (٤٩١/٧) ، والكاشف للذهبي (٢٠٩/٢) ، وتهذيب التهذيب لابن حجر (٣٩٤/٩) .

**الفَزَاريِّ (١) ، عن كَثِيرِ بن عبد الله (٢) ، عن أبيهِ (٣) ، عن جَدِّهِ (٤) ، أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قال لبــلالِ بن الحارث (٥) : ( اعلَمْ ) ، قال : ما أعلمُ يا رسولَ الله ؟ قال : ( اعلمْ ، يا بلال ) ، قال : ما أعلمُ يا رسولَ الله ؟ قال : ( إنَّه من أحيا سُنةً من سُنَّتي قد أُمِيتَتْ بعدي ، كان لهُ من الأجرِ مِثلُ من عمِلَ بها ، من غيرِ أن يَنْقُصَ من أُجورِهِم شيءٌ ومن ابتَدَعَ بدعةً ضلالةً ، لا يرضاها الله ورسولُهُ (٦) ، كان عليهِ مثلُ آثامِ من عمِلَ بها ، لا يَنقُصُ ذلكَ من أوزارِ النَّاسِ شيئاً ) (٧) .**

**رواه الترمذيُّ عنهُ ، وقال : " حديثٌ حسنٌ " . قال : " ومحمد بن عُيَينةَ مِصِّيصِيٌّ شامِيٌّ ، وكَثِيرُ بن عبد الله هو كَثيرُ بن عمرو بن عَوْفٍ المُزَنِيُّ " (٨) .**

---

(١) مروان بن معاوية بن الحارث بن أسماء بن خَارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفَزَارِي ، أبو عبد الله الكوفي الحافظ ، المحدث ، الثقة ، نزل مكة ، ثم دمشق ، ، توفي عام : ١٩٣ هـ .
الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٢٩/٧) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٢١٦/١) .

(٢) كَثِيرُ بن عبد الله بن عَمْرو بن عوف بن زيد بن ملحة المُزني المَدني ، قال عنه الإمام أحمد : " منكر الحديث ليس بشيءٍ " ، وقال ابن معين : " ليس بشيء " وقال أبو داود : " كذَّاب " .
تهذيب الكمال للمزي (١٣٦/٢٤) ، والكاشف للذهبي (١٤٥/٢)

(٣) عبد الله بن عمْرو بن عوف بن زيد بن ملحة المزني المدني . التاريخ الكبير للبخاري (١٥٤/٥) ، والثقات لابن حبان (٤١/٥) ، والكاشف للذهبي (٥٨٠/١) .

(٤) عمرو بن عوف بن زيد بن مليحة ، وقيل: ملحة بن عمرو بن بكر المُزني ، أسلم قديما ، وقيل : أول مشاهده الخندق ، سكن المدينة ومات بها في آخر خلافة معاوية رضي الله عنهما . الاستيعاب لابن عبد البر (١١٩٦/٣) وأسد الغابة لابن الأثير (٢٤٧/٤) ، والإصابة لابن حجر (٥٥٤/٤) .

(٥) بلال بن الحارث بن عُصْم بن سعيد بن قُرَّة المُزني ، أبو عبد الرحمن المَدني ، كان أوَّل من قدم إلى النبي صلى الله عليه وسلم في وفدِ مُزينة عام : ٥ هـ ، وكان صاحبَ لواءِ مُزينة يومَ الفتح ، توفي عام : ٦٤ هـ .
الاستيعاب لابن عبد البر (١٨٣/١) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٤١٣/١) ، والإصابة لابن حجر (٤٥٤/١) .

(٦) إلى هنا انتهى السقط من نسخة : ص ، وكانت بدايته من قوله :" كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ " في الصفحة : ٢٣٤ .

(٧) رواه الترمذي (٢٦٧٧) ، وابن ماجه (٢١٠) ، وابن وضاح في كتاب : ما جاء في البدع ، ح (٩٣) ، وغيرهم وفيه كَثير بن عبد الله ، وهو ضعيف كما تقدّم .

(٨) سنن الترمذي (٤٤/٥) .

وفي حديثه ثلاثةُ أقوالٍ لأهلِ الحديثِ ، منهم من يُصحِّحُه ، ومنهم مَن يُحسِّنُه ، وهما للتِّرمذيِّ [١] ، ومنهم من يُضعِّفُهُ ، ولا يراهُ حُجَّةً ، كالإمام أحمدَ وغيره [٢] .

ولكنَّ هذا الأصلَ ثابتٌ من وجوهٍ :

كحديثِ : ( من دعا إلى هُدىً كان له من الأجرِ مِثلُ أجورِ من اتَّبعهُ ) [٣] ، وهو صحيح من وجوه .

وحديثِ : ( مَن دلَّ على خيرٍ ، فله مثلُ أجر فاعلِهِ ) ، وهو حديثٌ حسنٌ ، رواه الترمذي وغيره [٤] .

فهذا الأصلُ محفوظٌ عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، فالحديثُ الضَّعيفُ فيه بمنزلةِ الشَّواهدِ والمُتابعاتِ ، فلا يضُرُّ ذِكْرُهُ .

أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بطلبة العلم خيراً

الوجه الستون : أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم أوصى بطلبةِ العلمِ خيراً ، وما ذاك إلا لفضلِ مَطلوبِهم ، وشَرَفِهِ :

قال التِّرمذيُّ [٥] : حدَّثنا سفيانُ بن وكيع [٦] ، حدَّثنا أبو داود الحَفَريُّ [٧]

---

(١) ينظر سنن الترمذي (٣٦٢/٢) و (٢/ ٤١٦) و (٦٣٥/٣) و (١٩/٥-٢٠) ، وفي تهذيب الكمال (١٣٩/٢٤) نقل عن الترمذي رأي البخاري في كَثير بن عبد الله : "وقال الترمذي : قلت لمحمد ، في حديث كَثير بن عبد الله عن أبيه ، عن جده ، في الساعة التي ترجى في يوم الجمعة ، كيف هو ؟ قال : حديث حسن إلا أن أحمد بن حنبل كان يحمل على كثير ، يُضَعِّفه " .

(٢) ينظر : المجروحين لابن حبان (٢٢١/٢) ، والضعفاء والمتروكون لابن الجوزي (٢٣/٣) ، وتهذيب التهذيب لابن حجر (٤٢٢/٨) ، وميزان الاعتدال للذهبي (٤٠٧/٣) ، وقال الذهبي في : الميزان (٤٠٧/٣) : " وأمَّا الترمذي فروى من حديثه : ( الصلح جائز بين المسلمين ) وصححه ، فلهذا لا يعتَمِدُ العلماءُ على تصحيحِ الترمذي " .

(٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد تقدَّم تخريجه ص : ٢٠٣ .

(٤) رواه الترمذي (٢٦٧١) ، وهو في صحيح مسلم (١٨٩٣) .

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٤ .

(٦) سفيان بن وكيع بن الجراح الرُّواسي ، أبو محمد الكوفي ، ضعَّفه البخاري ، وأبو زرعة ، وأبو حاتم ، وغيرهم ، توفي عام : ٢٤٧ هـ . تهذيب الكمال للمزي (٢٠٠/١١) ، وميزان الاعتدال للذهبي (١٧٣/٢) .

(٧) عمر بن سعد بن عُبيد ، أبو داود الحَفَريُّ ، الكوفيُّ ، والحَفَرُ : موضع في الكوفة ، وقد اشتهر بكنيته ، وكان حافظاً مُتقناً ، عابداً ، توفي عام : ٢٠٣ هـ . سير أعلام النبلاء للذهبي (٤١٥/٩) ، وتهذيب التهذيب (٤٥٢/٧) .

**عن سفيانَ (١) عن أبي هارونَ (٢) ، قال : كنَّا نأتي أبا سعيدٍ (٣) ، فيقولُ : مرحباً بوصيةِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، إنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : ( إنَّ النَّاسَ لكم تَبعٌ ، وإنَّ رجالاً يأتُونَكم من أقطارِ الأرضِ ، يتفَقَّهون في الدِّين ، فإذا أتوكم فاستَوصُوا بهم خيراً ) .**

**فكان (٤) أبو سعيدٍ إذا رآنا قال :" مرحباً بوصيةٍ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم " .**

**قال التِّرمذيُّ : " هذا حديثٌ لا نعرفُهُ إلَّا من حديثِ أبي هارون العَبْدي ، عن أبي سعيد " (٥) .**

**" قال أبو بكر العطَّار (٦) ، قال علي بن المديني (٧) ، قال يحيى بن سعيد (٨) : كان شعبة (٩) يُضعِّفُ أبا هارون العبدي ، قال يحيى :**

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب ، أبو عبد الله الثوريُّ ، كان إماماً من أئمة المسلمين ، وعلَمَاً من أعلام الدين ، أجمع الناس على دينه وورعه وثقته ، قال عن نفسه : ما استودعت قلبي شيئاً فخانني ، توفي عام : ١٦١هـ . تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١٥١/٩) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٣٧٤/١) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (١٥١/١) ..

(٢) عُمَارةُ بن جُوين ، أبو هارون العَبْدي البَصريُّ ، روى عن أبي سعيد الخُدري وابن عمر رضي الله عنهما ، وهو : متروك ، توفي عام : ١٣٤ هـ . الكاشف للذهبي (٥٣/٢) وتهذيب الكمال للمزي( (٢٣٢/٢١) .

(٣) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٤ .

(٤) في : ص : وكان .

(٥) سنن الترمذي (٣٠/٥) ، وضعَّفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي ح (٤٩٦) .

(٦) عبد القدوس بن محمد بن عبد الكبير بن شعيب بن الحَبْحَاب ، أبو بكر الحَبْحَابي العطَّار . الكاشف للذهبي (٦٦٠/١) ، وتهذيب التهذيب لابن حجر (٣٧٠/٦) .

(٧) علي بن عبد الله بن جعفر السَّعدي بالولاء ، أبو الحسن المديني ، البصري ، المعروف بابن المديني ، المُحدِّثٌ ، المُؤرِّخٌ ، كان حافظ عصره ، صاحب المؤلفات الكثيرة ، له نحو مئتي مُصنَّفٍ ، توفي عام : ٢٣٤ هـ . تاريخ بغداد للخطيب (٤٢١/١٣) ، وسير أعلام النبلاء (٤١/١١) .

(٨) يحيى بن سعيد بن فَرُّوخ التَّميمي . مولاهم . البصري ، أبو سعيد القطَّان ، الأحول ، الإمام ، العلم ، سيِّد الحُفاظ في عصره ، وأمير المؤمنين في الحديث ، من أقران مالك وشعبة ، توفي عام : ١٩٨ هـ . تاريخ بغداد للخطيب (١٣٥/١٤) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٧٥/٩) .

(٩) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٤٦.

**وما زال ابن عون [١] يروي عن أبي هارون حتى مات ، وأبو هارون اسمه : عمارة بن جوين " [٢] .**

قول النبي صلى الله عليه وسلم من طلب العلم كان كفارة لما مضى

**الوجه الحادي والستون : ما رواه التِّرمذيُّ من حديثِ أبي داود [٣] ، عن عبد الله بن سَخْبَرَةَ [٤] ، [ عن سَخْبَرَةَ [٥] ] [٦] ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : ( من طلَبَ العلمَ كان كَفَّارةً لِما مضى ) [٧] .**

**هذا الأصلُ لم أجدْ فيه إلا هذا الحديثَ ، وليس بشيءٍ ؛ فإنَّ أبا داودَ هو نُفيعٌ الأعمى غيرُ ثِقَةٍ ، ولكنْ قد تقدَّمَ أنَّ العالمَ يستغفرُ له من في السمواتِ ومن في الأرضِ [٨] .**

**وقد رُويتْ آثارٌ عديدةٌ عن جماعةٍ من الصَّحابة رضي الله عنهم في هذا المعنى . منها :**

---

(١) عبد الله بن عون بن أرْطَبَان المُزني مولاهم البَصري ، الإمام ، الحافظ ، شيخ أهل البصرة ، من حفاظ الحديث ، توفي عام : ١٥١ هـ . وتذكرة الحفاظ للذهبي (١/١٧٧) ، وتهذيب الكمال للمزي (١٥/٣٩٤) .

(٢) لم يرد هذا النقل عن الترمذي في الموضع السابق (٥/٣٠) ، وإنَّما ورد في (٤/٢٩٧) .

(٣) نُفَيعُ بن الحارث النَّخعي الكوفي ، الدَّارميُّ ، ويقال : الهَمذانيُّ ، القاصُّ ، الأعمى ، قال البخاري : يتكلمون فيه. وقال يحيى بن معين: ليس بشيء . التاريخ الكبير للبخاري (٨/١١٤) ، وتهذيب الكمال للمزي (٣٠/٩) .

(٤) عبد الله بن سَخْبَرَة ، عن أبيه ، وعنه أبو داود الأعمى ، روى له الترمذي حديثا واحدا ، وضعَّفه . تهذيب التهذيب لابن حجر (٥/٢٣١)

(٥) سَخْبَرَة بن عبد الله ، روى عنه ابنه عبد الله ، وليس بالأزدي ، وهو صحابي في إسناد حديثه ضَعفٌ . الكاشف للذهبي (١/٤٢٦) ، وتقريب التهذيب لابن حجر (١/١٢٩) .

(٦) ليست في النسخ الخطِّية ، والمثبت من سنن الترمذيِّ .

(٧) سنن الترمذي (٢٦٤٨) ، ورواه الدارمي في سننه (١/١٤٩) ، وابن قانع في معجم الصحابة (١/٣٢١) وغيرهم ، والحديث ضعيف ، إذ فيه أبو داود نفيع بن الحارث ، وقد تركوه ، وعبد الله بن سَخْبَرَة لا يُعرف ، قال الترمذي (٥/٢٩) : " هذا حديث ضعيف الإسناد ، أبو داود يُضعَّف ، ولا نعرف لعبد الله بن سَخْبَرَة كبيرَ شيءٍ ولا لأبيهِ ، واسم أبي داود نُفَيْعُ الأعمى تَكلَّمَ فيه قَتادةُ ، وغيرُ واحدٍ من أهلِ العلمِ " . وضعَّفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي ح (٤٩٥)

(٨) تقدَّم الحديث في ص : ٢١٠ .

**ما رواه الثَّـــوري (١) ، عن عبد الكريم (٢) ، عن مُـجاهـدٍ (٣) ، عن ابن عباس رضي الله عنهما (٤) : " أنَّ مَلَكاً مُوكَّـــلاً بطالبِ العلمِ ، حتَّى يرُدَّهُ من حيثُ أبداهُ مَغفوراً له " (٥) .**

**ومنها ما رواه فِطْرُ بن خَليفةَ (٦) ، عن أبي الطُّفيل (٧) ، عن علي رضي الله عنه (٨) : " ما انتعَلَ عبدٌ قطٌّ ، ولا تَخفَّفَ ، ولا أُلبسَ ثوباً ليَغدو في طلبِ العلمِ ، إلَّا غُفرتْ ذنوبُهُ حيثُ يَخطو عند بابِ بيتِهِ ".**

**وقد رواهُ ابنُ عَـديّ (٩) مَرفوعـاً (١٠) ، وقـال : " ليسَ يـرويـه عن فِطْرٍ إلا إسماعيلَ بن يَحيى التَّيمي (١١) " .**

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٤٩ .

(٢) عبد الكريم بن أبي المُخَارِق . قيس . البَصري ، أبو أُمَيَّة المُؤدب ، وهو ضعيف ، قال النسائي والدارقطني : متروك . تهذيب الكمال للمزي (٢٥٩/١٨) ، وميزان الاعتدال للذهبي (٦٤٦/٢) .

(٣) تقدَّمت ترجمته ص : ٢١٩ .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

(٥) رواه أبو الحسن النعالي في : جزء من حديثه (٤١) مرفوعاً ، وهو ضعيف لضعف عبد الكريم بن أبي المُخَارق .

(٦) فِطْرُ بن خليفة القُرشي المَخزُوميُّ ، مولاهم ، أبو بكر الحنَّاط ، الكوفي ، وكان فيه تشيُّعٌ قليلٌ ، توفي عام : ٢٥٥ هـ ، وقيل : ٢٥٣ هـ . ميزان الاعتدال للذهبي (٣٦٣/٣) ، وتهذيب التهذيب لابن حجر (٣٠٠/٨) .

(٧) عامر بن واثلة بن عبد الله بن عُمير الكناني ، أبو الطُّفيل اللَّيثي ، غلبت عليه كنيته ، أدرك من حياة النبي صلى الله عليه وسلم ثمانية أعوام ، حيث ولد عام أحد ، ومن أواخر الصحابة موتاً ، توفي عام : ١٠٧ هـ .
الاستيعاب لابن عبد البر (٧٩٨/٢) ، وأسد الغابة لابن الأثير (١٤٣/٣) .

(٨) تقدَّمت ترجمته ص : ١٩١ .

(٩) تقدَّمت ترجمته ص : ٢١٣ .

(١٠) الكامل لابن عدي (٣٠٧/١) ، ورواه تمام في فوائده (٢٩٦/٢) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٨١/٨) وفيه إسماعيل بن يحيى ، مُجمعٌ على تركه . ينظر ميزان الاعتدال للذهبي (٢٥٣/١) .

(١١) إسماعيل بن يَحيى بن عُبَيد الله بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، أبو يحيى التَّيمِيُّ ، قال عنه ابن عدي: " حدث عن الثقات بالبواطيل" قال الذهبي : " مُجمَعٌ على تركه".
الكامل لابن عدي (٣٠٢/١)، ميزان الاعتدال للذهبي (٢٥٣/١) .

**قلت : وقد رواهُ إسماعيل بن يحيى هذا عن الثَّوريِّ [١] : حدَّثنا محمد بن أيوبَ الجُوزْجَانيّ [٢] ، عن مُجالدٍ [٣] ، عن الشَّعبي [٤] ، عن الأسودِ [٥] ، عن عائشةَ رضي الله عنها [٦] مَرفُوعاً :**

**( من انْتَعلَ ليتعلَّمَ خيراً ، غُفِرَ لهُ قبلَ أن يَخطو ) [٧] .**

**وقد رواهُ عبد الرحمن بن محمد المُحارِبي [٨] ، عن فِطْرٍ [٩] ، عن أبي الطُّفَيل [١٠] ، عن علي رضي الله عنه [١١] .**

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٤٩ .

(٢) عند ابن شاهين في : الترغيب في فضائل الأعمال (٧٤) ح : ٢٢٠ : " حدَّثنا إسماعيل بن يحيى التيمي ، حدَّثنا سفيان الثوري ، عن مجالد ..." وليس فيه محمد بن أيوب الجُوزْجاني .

(٣) مُجالد بن سعيد بن عُمير بن بِسْطام الهمداني ، أبو عمرو ، ويقال : أبو سعيد الكوفي ، قال يحيى بن مَعِين : " " ضعيف ، واهي الحديث " توفي عام : ١٤٤ هـ . ميزان الاعتدال للذهبي (٤٣٨/٣) ، وتهذيب التهذيب لابن حجر (٣٩/١٠) .

(٤) عامر بن شَراحيل بن عبد بن ذي كِبَار ، أبو عمرو الهَمْدَاني الشَّعبي ، الكوفي ، الإمام ، الحافظ ، الفقيه ، تابعيٌّ جليل القدر ، وافر العلم ، توفي عام : ١٠٤ هـ ، وقيل غير ذلك . حلية الأولياء لأبي نعيم (٣١٠/٣) ، وتاريخ بغداد للخطيب (٢٢٧/١٢) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٦/٢) .

(٥) الأسود بن يزيد بن قيس بن عبد الله بن مالك بن علقمة النَّخعي ، أبو عمرو ، وكان مُخضرما، أدرك الجاهلية والإسلام ، تابعي فقيه ، حدَّث عن جمع من الصحابة ، وهو عالم الكوفة في عصره ، توفي عام : ٧٥ هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (٧٠/٦) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٠/٤)

(٦) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٣٠ .

(٧) رواه ابن شاهين في : الترغيب في فضائل الأعمال (٧٤) ح : ٢٢٠ ، وليس فيه : محمد بن أيوب الجُوزْجاني " حدَّثنا إسماعيل بن يحيى التيمي ، حدَّثنا سفيان الثوري ، عن مجالد ...". وفيه مجالد ، وقد ضعَّفوه كما سبق وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (٢٦٧٧) : موضوع .

(٨) عبد الرحمن بن محمد بن زياد المحاربي ، أبو محمد الكوفي ، الحافظ الثقة ، توفي عام : ١٩٥ هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٩٢/٦) ، وتهذيب الكمال للمزي (٣٨٦/١٧) .

(٩) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٥١ .

(١٠) عامر بن واثلة ، تقدَّمت ترجمته ص : ٢٥١ .

(١١) عزاه الألباني في السلسلة الضعيفة (٢٦٧٦) إلى عفيف الدين في : فضل العلم (١٢٢/٢) ، وقال الألباني : موضوع .

وهذه الأسانيدُ وإن لم تكنْ بمفردِها حُجَّةً ، فطلبُ العلمِ من أفضلِ الحسناتِ والحسناتُ يُذهبنَ السَّيئاتِ ، فجديرٌ أن يكون طلبُ العلمِ ابتغاءَ وجهِ اللهِ يُكفِّر ما مضى من السَّيئاتِ ، فقد دلَّتِ النُّصوصُ أنَّ إتْبَاعَ السَّيِّئةِ الحَسنةَ تَمْحُوها ، فكيف بمَا هو من أفضلِ الحسناتِ ، وأجلِّ الطَّاعاتِ ، فالعُمدةُ على ذلك لا على حديثِ أبي داود (١) والله أعلمُ .

وقد رُوي عن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه : " إنَّ الرَّجلَ ليخرجُ من منزلِهِ ، وعليه من الذُّنوبِ مِثلُ جبلِ تِهَامة ، فإذا سمِعَ العلم خافَ ورجعَ وتابَ ، فانْصَرفَ إلى منزلِهِ وليس عليه ذَنبٌ ، فلا تُفارقوا مجالسَ العلماءِ " (٢) .

خرج النبي صلى الله عليه وسلم فإذا في المجلس مجلسان مجلس يتفقهون ومجلس يدعون

الوجه الثاني والستون : ما رواه ابن ماجه (٣) في " سُنَنِهِ " (٤) من حديثِ عبد الله بن عمرو بن العاصِ رضي الله عنهما (٥) ، قال : خرجَ رسولُ اللهِ صلى الله / عليه وسلم فإذا في المجلسِ مَجلسانِ ، مجلسٌ يتفقَّهون ، ومجلسٌ يدعونَ الله تعالى ويسألونَهُ ، فقال : ( كلا المَجلِسَين إلى خيرٍ ، أمَّا هؤلاءِ فيَدعون الله ، وأمَّا هؤلاء فيتعلَّمونَ ، ويُفقِّهونَ الجاهلَ ، هؤلاء أفضلُ ، بالتَّعليمِ أُرسِلتُ ) ، ثمَّ قعَدَ معهم . [٤٠/أ]

---

(١) يريد حديث أبي داود الأعمى نُفَيعُ بن الحارث النَّخعي : ( من طلَبَ العلمَ كان كَفَّارةً لِما مضى ) وقد تقدَّم في ص : ٢٥٠ .

(٢) ذكره الغزالي في : إحياء علوم الدين (٣٤٩/١) ، والرازي في تفسيره (١٧٧/٢) .

(٣) محمد بن يزيد الرَّبَعي بالولاء ، القَزْويني ، أبو عبد الله ، وماجة اسم أبيه يزيد ، وهو الحافظ الكبير ، صاحب السُّنن والتفسير ، والتاريخ ، ارتحل إلى البصرة والكوفة ومكة والشام ومصر والحجاز والري في طلب الحديث ، توفي عام : ٢٧٣ هـ . وفيات العيان لابن خلكان (٣٦٣/٢) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (١٥٥/٢) .

(٤) سنن ابن ماجه (٢٢٩) والطيالسي في مسنده (٢٣٦٥) ، والدارمي في سننه (١١١/١) ، وفيه عبد الرحمن بن زياد بن أَنْعُم الإفريقي ، قال ابن حجر في التقريب (٣٤٠/٢) : ضعيف . وضعَّفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه (١٧) .

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٢٧ .

أن الله سبحانه يباهي ملائكته بالقوم الذين يتذاكرون العلم

**الوجـــه الثالث والستون : أنَّ اللهَ تبارك وتعالى يُباهي ملائكتَهُ بالقومِ الذين يَتَذاكرُون العلمَ ، ويذْكُرون اللهَ ، ويَحمدُونه على ما مَنَّ عليهم به منهُ :**

**قال التِّرمذيُّ : حدَّثنا محمد بن بَشَّار (١) : حدَّثنا مَرحومُ بن عبد العزيز العطَّار (٢) : حدَّثنا أبو نَعَامةَ (٣) ، عن أبي عثمانَ (٤) ، عن أبي سعيدٍ (٥) ، قال : خرجَ معاوية رضي الله عنه (٦) إلى المسجد ، فقال : " ما يُجلِسُكُم ؟ قالوا : جلسنا نذكُرُ اللهَ عزَّ وجلَّ ، قال : آللهِ ما أجلسَكُم إلا ذلك ؟ قالوا : آلله ما أجلسَنَا إلَّا ذلك ، قال : أمَا إنِّي لم أستحلِفكُم تُهمَةً لكم ، وما كان أحدٌ بمنزلتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم أقلَّ حديثاً عنه منِّي ، إنَّ رســـولَ الله صلى الله عليه وسلم خرجَ على حَلْقةٍ من أصحابِـهِ قال : ( ما يُجلسُكُم ؟ ) قالوا : جلسنا نذكُرُ اللهَ ، ونَحمَده لِما هدانا للإسلام ، ومَنَّ علينا بكَ ، قـــال : ( آللهِ ما أجلسَكـــم إلَّا ذلك ؟ ) قالـــوا : آللهِ ما أجلسَنَا إلَّا ذلك قال : (أمَا إنِّي لم أستحلِفكُم تُهمَةً لكم ، إنَّه أتاني جبريلُ فأخبرَني أنَّ اللهَ تعالى يُباهي بكم الملائكةَ ) (٧) .**

**قال التِّرمذيُّ : " هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ ، لا نعرفهُ إلَّا من هذا الوجهِ ، وأبو نَعَامَة السَّعدي اسمهُ عمرو بن عيسى ، وأبو عثمان النَّهدي اسمه عبد الرحمن بن مَلٍّ " (٨) .**

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ١٠٨ .

(٢) مَرحوم بن عبد العزيز بن مِهْـــران العطَّار القُرشي الأُمَوِي ، مولاهم ، أبو محمد ، الإمام ، المُحدِّث ، الثِّقة توفي عام : ١٨٨ هـ . سير أعلام النبلاء للذهبي (٨/٣٣٢) وتهذيب الكمال للمزي (٢٧/٣٦٦) .

(٣) أبو نعامة السَّعدي البَصْرِيّ ، قيل : اسمه عبد ربه ، وقيل : اسمه عَمْرو بن عيسى ، وثَّقه يحيى بن معين وغيره . تهذيب الكمال للمزي (٣٤/٣٤٩) ، وميزان الاعتدال للذهبي (٤/٥٨٠) .

(٤) أبو عثمان النَّهــدي ، عبد الرحمن بن مَـلٍّ بن عمرو بن عــدي البصري ، أدرك من زمن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرَ النبي صلى الله عليه وسلم ، وسئل هل أدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال: نعم أسلمت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأديت إليه ثلاث صدقات ، ولم ألقه ، وكان عالما ، صوَّاماً ، قوَّاماً ، توفي عام : ٩٥ هـ ، وقيل غير ذلك . الاستيعاب لابن عبد البر (٢/٨٥٣) ، والإصابة لابن حجر (٥/٨٤) .

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٤ .

(٦) تقدَّمت ترجمته ص : ١٩٨ .

(٧) سنن الترمذي (٣٣٧٩) ، ورواه مسلم (٢٧٠١) .

(٨) سنن الترمذي (٥/٤٣٠) .

فهؤلاء كانوا قد جَلسوا يَحمدونُ اللهَ بذكرِ أوصافِهِ ، وآلائِهِ ، ويُثنُونَ عليه بذلك ويَذكُرونَ حُسنَ الإسلامِ ، ويعترفون للهِ بالفَضلِ العظيمِ ؛ إذ هدَاهُم لهُ ، ومَنَّ عليهم برسولِهِ صلى الله عليه وسلم .

وهذا أشرفُ عِلْمٍ على الإطلاقِ ، ولا يُعني بهِ إلَّا الراسخونَ في العلمِ ؛ فإنَّه يَتضمَّنُ معرفةَ اللهِ وصفاتِهِ ، وأفعالِه ، ودينِه ، ورسولِهِ صلى الله عليه وسلم ، ومَحبةَ ذلك وتعظيمَهُ ، والفرحَ بهِ ، وأحرى بأصحابِ هذا العلمِ أنْ يُباهيَ اللهُ بهم المَلائكةَ .

وقد بشَّرَ النَّبي صلى الله عليه وسلم الرَّجلَ الذي كانَ يُحبُّ سورةَ الإخلاصِ ، وقال : أُحِبُّها لأنَّها صفةُ الرحمنِ عزَّ وجلَّ ، فقال : ( حُبُّكَ إيَّاها أدخلَك الجنَّةَ ) [١] .

وفي لفظٍ آخرَ : ( أخبرُوهُ أنَّ الله يُحِبُّهُ ) [٢] ؛ فدلَّ على أنَّ من أحبَّ صفاتِ اللهِ أحبَّهُ الله ، وأدخلَهُ الجنَّةَ .

والجهميَّةُ [٣] اشدُّ النَّاسِ نَفرَةً ، وتنْفِيراً عن صفاتِه ، ونعوتِ كمالِهِ ، يُعاقِبُون ، ويذُمُّون مَن يَذكُرهَا ، ويُقرؤهَا ، ويَجمعها ، ويعتني بها ، ولهذا لهم المَقْتُ والذَّمُ عند الأمَّةِ ، وعلى لسانِ كلِّ عالمٍ من علماءِ الإسلامِ ، والله تعالى أشدُّ بُغضاً ، ومَقتاً لهم ، جزاءً وِفَاقاً .

أفضل منازل الخلق عند الله منزلة الرسالة والنبوة ثم أتباع الرسل

الوجه الرابع والستون : أنَّ أفضل منازِلِ الخلقِ عند الله ، منزلةُ الرِّسالةِ والنُّبوةِ ، فالله يصطفي من الملائِكةِ رُسلاً ومن النَّاسِ ، وكيف لا يكونُ أفضلَ الخلقِ عند اللهِ من جعلَهم وسائِطَ بينهُ وبين عبادهِ في تبليغِ رسالاتِهِ ، وتعريفِ اسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وأحكامِهِ ، ومَراضيهِ ومَساخِطـهِ ، وثوابِـهِ وعقابِـهِ ، وخصَّهم بوحيِهِ ، واختصَّهم بتفضيلِهِ

---

(١) رواه البخاري معلقاً (٧٧٤) ، ووصله الترمذي (٢٩٠١) ، وأحمد (١٤١/٣ ، ١٥٠) ، وابن خزيمة في صحيحه (٥٣٧) ، وصححه الترمذي (١٥٦/٥) ، والألباني في صحيح سنن الترمذي (٧/٣) .

(٢) رواه البخاري (٧٣٧٥) ، ومسلم (٨١٣) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٣) الجهمية : فرقة ضالَّةٌ ، وهم أصحابُ : جَهْم بن صفوان ، أنكروا الأسماء والصفات ، وقالوا : إن الإنسان مجبور على فعله ، وإن الجنة والنار تبيدان وتفنيان ، وإن الإيمان هو المعرفة بالقلب فقط .

مقالات الإسلاميين ، لأبي الحسن الأشعري (٢١٩/١) ، والتنبيه والرد ، للملطي (٩٦) ، والفرق بين الفرق للبغدادي (١٩٩) ، والملل والنحل ، للشهرستاني (٨٦/١) .

وارتَضَاهم لرسالَتِهِ إلى عبادِهِ ، وجعلَهم أزكى العالَمين نُفوساً ، وأشرَفَهم أخلاقاً وأكمَلَهم عُلوماً وأعمالاً ، وأحسنَهم خِلقَةً ، وأعظمَهُم مَحبةً ، وقَبُولاً في قلوبِ النَّاس وبرَّأهم من كلِّ وَصمٍ وعَيبٍ ، وكلِّ خُلقٍ دَنيءٍ ، وجعل أشرفَ مراتبِ النَّاس بعدهم مَرتبةَ خِلافَتِهم ونيابتِهم في أُمَمِهم ؛ فإنَّهم يَخلُفونهم على منهاجِهم وطريقِهم ، من نصيحتِهم للأمَّةِ ، وإرشادِهم الضَّال ، وتعليمِهم الجاهلَ ، ونصرهِم المَظلومَ ، وأخذِهم على يد الظَّالم ، وأمرهِم بالمعروفِ وفعلهِ ، ونهيهم عن المُنكر وتركِهِ ، والدَّعوة إلى الله بالحِكمةِ للمُستَجيبين ، والموعظةِ الحسنةِ للمُعرضين الغافلين ، والجدالِ بالتي هي أحسنُ للمُعاندين المُعارضين .

فهذه حالُ أتباعِ المرسلين ووَرَثةِ النَّبيين ، قال تعالى : ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ (١) .

وسواءٌ كان المَعنى : أنا ومن اتَّبعني على بَصيرةٍ ، وأنا ادعو إلى اللهِ ، أو المعنى : ادعو إلى الله على بصيرةٍ ، والقولان مُتلازمانِ ؛ فإنَّه لا يكون مِنْ أتبَاعِهِ حقَّاً إلا من دعا إلى الله على بَصيرةٍ ، كما كان مَتبوعُهُ يفعلُ صلى الله عليه وسلم (٢) .

فهؤلاء خُلفاءُ الرُّسلِ حقَّاً ، ووَرَثتُهم دون النَّاس ، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به عِلمَاً وعملاً ، وهدايةً وإرشاداً ، وصبراً وجهاداً ، وهؤلاء هم الصِّدِّيقون ، وهم أفضل أتباعِ الأنبياءِ ، ورأسُهم وإمامُهم الصِّدِّيقُ الأكبرُ أبو بكر رضي الله عنه (٣)، قال الله تعالى:

---

(١) يوسف : ١٠٨ .

(٢) قال المؤلف رحمه الله في : الصواعق المرسلة (١/١٥٥) : " فمن اتبعني ، إن كان عطفاً على الضمير في : ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فهو دليلٌ أنَّ أتباعَه هم الدُّعاة إلى الله ، وإن كان عطفاً على الضمير المنفصلِ ، فهو صريحٌ أنَّ أتبَاعَهُ هم أهلُ البصيرةِ فيما جاء به دون من عَدَاهم . والتحقيقُ أنَّ العطف يتضمَّن المعنيين ؛ فأتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله "وينظر : جلاء الأفهام (١/٤١٥) ، ومدارج السالكين (٢/٤٥١) ، ورسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (٢٢) وتنظر الأقوال في المسألة في : تفسير البغوي (٤/٢٨٤) ، وتفسير الخازن (٢/٥٥٢) ، وتفسير أبي حيان (٦/٣٣٣) .

(٣) عبد الله بن أبي قحافة ، واسم أبيه : عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد القرشي التَّيمي ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأفضل أمته ، وخليفة المسلمين من بعده ، توفي عام : ١٣ هـ .

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ (١) ، فذكرَ مراتبَ السُّعداءِ ، وهي أربعةٌ وبدأ بأعلاهم مَرتبةً ، ثمَّ الذين يلونَهم إلى آخرِ المَراتبِ (٢) .

وهؤلاء الأربعة هم أهلُ الجنَّةِ الذين هم أهلُها ، جعلنا الله منهم بِمَنِّه وكرَمِهِ .

تميز الإنسان عن الحيوانات بفضيلة العلم والبيان

الوجهُ الخامسُ والستون : أنَّ الإنسان إنَّما يُميَّزُ على غيره من الحيواناتِ بفضيلةِ العلمِ والبيانِ ، وإلَّا فغيرُه من الدَّوابِ والسِّباعِ أكثرُ أكلاً منه ، وأقوى بَطْشاً ، وأكثرُ جِماعاً وأولاداً ، واطولُ أعماراً ، وإنَّما مُيِّزَ على الدَّوابِ والحيواناتِ بعلمهِ وبيانِهِ ، فإذا عُدم العلمُ بقيَ معه القَدْرُ المُشتركُ بينه وبين سائرِ الدَّوابِ ، وهي الحيوانِيَّةُ المَحضةُ ، فلا يبقى فيه فضلٌ عليهم ، بل قد يبقى شراً منهم ؛ كما قال تعالى في هذا الصِّنفِ من النَّاسِ : ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ (٣) ، فهؤلاء هم

---

الاستيعاب لابن عبد البر (٣/٩٦٣) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٣/٣١٠) .

(١) النساء : ٦٩ - ٧٠ .

(٢) قال المؤلف رحمه الله في طريق الهجرتين (٦٩١) : " الطبقة الرابعةُ : ورثةُ الرُّسلِ وخلفاؤُهم في أممِهم ، وهم القائمون بما بُعثوا به علماً وعملاً ، ودعوةً للخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم ، وهذه أفضل مراتب الخلقِ بعد الرِّسالة والنُّبوة ، وهي مرتبة الصِّديقيةِ ، ولهذا قَرَنَهم الله في كتابه بالأنبياء فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ فجعل درجة الصدِّيقيةِ تلي درجة النُّبوةِ ، وهؤلاء هم الرَّبانيون ، وهم الرَّاسخون في العلم ، وهم الوسائط بين الرَّسولِ وأُمتهِ ، فهم خُلفاؤه ، وأولياؤه وحزبُه ، وخاصتُه ، وحملةُ دينِه ، وهم المضمُون لهم أنَّهم لا يزالون على الحقِّ لا يضرهم من خذلهم ، ولا مَن خالَفَهم حتى يأتيَ أمرُ اللهِ وهم على ذلك" . وينظر كلام المؤلف رحمه الله حول هذه المراتب في طريق الهجرتين (٦٩٠،٦٩١،٧٠٠) .

(٣) الأنفال : ٢٢ .

**الجُهَّالُ ، ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾(١) ، أي : ليس عندهم مَحلٌّ قابلٌ للخيرِ ولو كان مَحلُّهم قابلاً للخيرِ ﴿ لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ أي : لأفهَمَهُم .**

**فالسَّمعُ ههنا سَمْعُ فَهْمٍ ، وإلَّا فسمعُ الصَّوتِ حاصلٌ لهم ، وبه قامَتْ حُجَّةُ الله عليهم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾(٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾(٣) .**

**وسواءٌ كان المعنى(٤) : ومَثلُ داعي الذين كفروا كمَثلِ الذي ينعِقُ بِمَا لا يَسمعُ من الدَّوابِ إلَّا أصواتاً مُجرَّدةً ، أو كان المعنى : ومَثلُ الذين كفروا حينَ يُنادَون كمَثلِ دوابِّ الذي يَنعِقُ بها ؛ فلا تسمعُ إلَّا صوتَ الدُّعاءِ والنِّداءِ ، فالقولان مُتلازمان ، بل هما واحدٌ ، وإنْ كان التَّقديرُ الثاني أقربَ إلى اللفظِ ، وأبلغَ في المعنى ؛ فعلى التَّقديرين لم يحصُل لهم من الدَّعوةِ إلَّا / الصوتُ الحاصلُ للأنعامِ .** [٤١/أ]

**فهؤلاء لم يحصُل لهم حقيقةُ الإنسانيةِ التي يُمَيَّزُ بها صاحبُها عن سائرِ الحيوان .**

المراد بالسمع وأنواعه الواردة في القرآن

**والسَّمعُ يُرادُ به إدراكُ الصَّوت ، ويُرادُ به فهمُ المعنى ، ويُرادُ به القَبولُ والإجابةُ والثَّلاثةُ في القرآن :**

**فمن الأول : قولُهُ : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾(٥) ، وهذا أصرَحُ ما يكون في إثباتِ صفةِ السمعِ لله ؛ ذكَرَ الماضي والمُضارعَ واسمَ الفاعلِ ﴿ سَمِعَ ﴾ ، و﴿ يَسْمَعُ ﴾ ، وهو ﴿ سَمِيعٌ ﴾ وله السَّمعُ**

(١) الأنفال : ٢٣ .

(٢) الأنفال : ٢١ .

(٣) البقرة : ١٧١ .

(٤) ينظر : الأمثال في القرآن للمؤلف (٤٨) ، وتفسير ابن جرير الطبري (٤٤/٣) ، وتفسير ابن أبي حاتم (٢٨٢/١) وتفسير البغوي (١٨١/١) ، وتفسير القرطبي (٢١٤/٢) .

(٥) المجادلة : ١ .

كما قالت عائشةُ رضي الله عنها : " الحمدُ لله الذي وسِعَ سمعُه الأصوات ، لقد جاءت المُجادِلَةُ تشكو إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وأنا في جانبِ البيتِ ، وإنَّه ليخفى عليَّ بعضُ كلامِها ، فأنزل الله : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ (١) .

والثاني : سمْعُ الفَهْمِ ؛ كقوله : ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (٢) ، لِمَا في قلوبِهم من الكِبرِ والإعراضِ عن قَبولِ الحقِّ ، ففيهم آفتانِ :

إحداهما : أنَّهم لا يفهمونَ الحقَّ لجهلِهم .

ولو فَهِمُوهُ لتولَّوا عنه لكِبْرِهم (٣) ، وهذا غايةُ النَّقصِ والعَيبِ .

والثَّالثُ : سمْعُ القَبولِ والإجابةِ ؛ كقولِه تعالى : ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ (٤) ، أي قابِلونَ مُستجيبونَ ، ومنه قولُه : ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ (٥) ، أي قابِلون له مُستجيبون لأهلِهِ .

ومنه قولُ المُصلي : " سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمِدَهُ " ، أي : أجابَ الله حمدَ من حَمِدَهُ ودُعاءَ مَن دَعاهُ ، وقولُ النَّبي صلى الله عليه وسلم : ( إذا قال الإمامُ سمِعَ الله لمنْ حَمِدَه ، فقولوا : ربَّنا ولكَ الحَمدُ يَسمَعِ اللهُ لكُم ) (٦) ، أي : يُجِيبُكم .

والمقصود : أنَّ الإنسانَ إذا لم يكن له عِلمٌ بما يُصلحُهُ في مَعاشِه ومَعادِه، كان الحيوانُ البَهيمُ خيراً منهُ ، لسلامَتِه في المعادِ مِمَّا يُهلِكُهُ دونَ الإنسان الجاهل .

---

(١) رواه البخاري (٧٣٨٦) تعليقاً مجزوما به ، ورواه أحمد (٤٦/٦) ، وابن ماجه (١٨٨ و ٢٠٦٣) وغيرهم ، وصححه الألباني في : صحيح سنن ابن ماجه (٣٧/١) .

(٢) الأنفال : ٢٣ .

(٣) هذه الآفة الثانية .

(٤) التوبة : ٤٧ .

(٥) المائدة : ٤١ .

(٦) رواه مسلم (٤٠٤) ، من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه .

العلم حاكم على ما سواه ولا يحكم عليه شيء

الوجهُ السَّادسُ والستون : أنَّ العلمَ حاكِمٌ على ما سواهُ ، ولا يَحكُم عليه شيءٌ ، فكلُّ شيءٍ اختُلفَ في وُجودِهِ وعَدمِهِ ، وصحتِه وفسادِه ، ومنفَعتِه ومَضرَّتِه ، ورُجحانِه ونُقصانِه وكَمالِه ونَقصِه ، ومَـدحِه وذَمِّـهِ ، ومَرتَبتِه في الخيـرِ ، وجَوْدَتِـه ورَداءتِـه ، وقُربِه وبُعدِه وإفضائِه إلى مَطلوبِ كذا ، وعدمِ إفضائِه ، وحصولِ المَقصودِ بهِ ، وعدمِ حصولِه ، إلى سائرِ جهاتِ المَعلوماتِ ؛ فإنَّ العلمَ حاكمٌ على ذلك كُلِّهِ ، فإذا حَكَمَ العلمُ انقطعَ النِّزاعُ ووَجَبَ الاتِّباعُ ، وهو الحاكمُ على المَمالِك ، والسِّياسَاتِ ، والأموالِ ، والأقـلامِ فمُلكٌ لا يتأيَّدُ بعلمٍ لا يقومُ ، وسيفٌ بلا عِلمٍ مِخراقُ لاعبٍ ، وقلمٌ بلا عِلمٍ حركةُ عابِثٍ والعلم مُسلَّطٌ حاكمٌ على ذلك كلِّهِ ، ولا يحكُمُ شيءٌ من ذلك على العِلمِ .

أيهما أفضل مداد العلماء أم دم الشهداء

وقد اختلفُ في تفضيلِ مِدادِ العلماءِ على دَمِ الشُّهداءِ وعكسِهِ ، وذُكرَ لكلِّ قولٍ وجوهٌ من التَّراجيحِ والأدلةِ .

ونفسُ هذا النِّزاعِ دليلٌ على تفضيلِ العلمِ ، ومرتَبتهِ ؛ فإنَّ الحاكمَ في هذه المسألةِ هو العلمُ ، فيهِ وإليهِ وعندهُ يقعُ التَّحاكمُ والتَّخاصمُ ، والمُفَضَّلُ منهُما مَن حُكِمَ له بالفَضْلِ .

فإن قيلَ : فكيفَ يُقْبَلُ حُكمُه لنَفسِه ؟ قيل : وهذا أيضاً دليلٌ على تفضيلِهِ وعُلُوِّ مَرتبتهِ وشرفِهِ ؛ فإنَّ الحاكمَ إنَّما لم يَسُغْ أن يَحكمَ لنفسِه لأجلِ مَظِنَّةِ التُّهمَةِ ، والعلمُ فلا يَلحَقهُ تُهمَةٌ في حُكمِهِ لنفسِهِ ، فإنَّه إذا حَكَمَ حكمَ بما تَشهدُ العُقولُ والنَّظـرُ بصحتِهِ وتتلقَّاهُ بالقَبُولِ ، ويستحيلُ حُكمُهُ لتهمةٍ ، فإنَّه إذا حَكَمَ بها انعزلَ عن مرتبتهِ ، وانحطَّ عن درجتهِ ، فهو الشَّاهدُ المُزكِّي المُعَدِّلُ ، والحاكمُ الذي لا يجورُ ، ولا يُعزلُ .

فإنْ قيلَ : فماذا حُكمُهُ في هذه المسألةِ التي ذكرتُموها ؟

قيل : هذه المسألةُ كَثُرَ فيها الجِدالُ ، واتسعَ المَجالُ ، وأدلى كلٌّ منهما بحُجَّتِهِ واستعلى بمَرتبتهِ ، والذي يفصلُ النِّزاع ، ويعيدُ المسألةَ إلى مواقعِ الإجماع ، الكلامُ في أنواعِ مراتبِ الكمالِ ، وذكرُ الأفضلِ منهما ، والنَّظرُ في أيِّ هذين الأمرين أولى بهِ وأقربُ إليهِ .

فهذه الأصولُ الثَّلاثةُ تُبين الصَّوابَ ، ويقعُ بها فصلُ الخِطابِ .

مراتب الكمال أربع : النبوة والصديقية والشهادة والولاية

فأمَّا مَراتبُ الكَمالِ فأربعٌ :

النُّبوةُ ، والصِّدِّيقيةُ ، والشَّهادةُ ، والوِلايَةُ ، وقد ذكرَها الله سبحانه في قولِهِ : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ (١) وذكرَ تعالى هؤلاء الأربعَ في سورةِ الحديدِ ؛ فذكر تعالى : الإيمانَ بهِ وبرسولهِ ، ثمَّ نَدَبَ المُؤمنين إلى أن تخشعَ قلوبُهم لكتابهِ ووَحيهَ ، ثمَّ ذكرَ مَراتِبَ الخلائقِ شقيِّهم وسعيدِهم ؛ فقال : ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ (٢) ، وذكرَ المُنافقين قبلَ ذلك .

فاستَوعَبَتْ هذهِ الآيةُ أقسامَ المَعادِ : شقيِّهم وسعيدِهم .

والمقصود أنَّه ذكرَ فيها المَراتبَ الأربَعَةَ : الرِّسالةَ ، والصِّدِّيقيَّةَ ، والشَّهادةَ ، والوِلايةَ : فأعلى هذه المَراتبِ : النُّبوةُ ، والرِّسالةُ ، ويليها الصِّدِّيقيَّةُ ، فالصِّدِّيقونَ هم أئمةُ أتبَاعِ الرُّسل ، ودرجتُهم أعلى الدَّرجاتِ بعد النُّبوةِ ، فإن جرَى قلَمُ العالِمِ بالصِّدِّيقيةِ ، وسالَ مِدادُهُ بها كان أفضَلَ من دَمِ الشَّهيدِ الذي لم يَلحَقْهُ في رُتبةِ الصِّدِّيقيةِ ، وإن سالَ دمُ الشَّهيدِ بالصِّدِّيقيةِ ، وقطَرَ عليها كانَ أفضَلَ مِن مِدادِ العالِمِ الذي قَصَّرَ عنها فأفضلُهُما صِدِّيقُهُما ، فإن استَويا في الصِّدِّيقيةِ استويا في المَرتبةِ ، والله أعلم .

والصِّدِّيقيَّةُ : هي كمالُ الإيمانِ بما جاءَ بهِ الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم عِلْمَاً ، وتصدِيقاً وقِياماً به، فهي راجعةٌ إلى نفسِ العِلْمِ ، فكلُّ مَن كان أعلمَ بمَا جاءَ به الرَّسولُ صلى الله

(١) النساء : ٦٩ – ٧٠ .

(٢) الحديد : ١٨ – ١٩ .

عليه وسلم ، وأكملَ تصديقاً لهُ ، كان أتَمَّ صدِّيقيَّةً ، فالصِّدِّيقيةُ شجرةٌ أصولُها العلْمُ وفروعُها التَّصديقُ ، وثمَرتُها العملُ (١) .

فهذه كلِماتٌ جامعةٌ في مسالةِ العَالِمِ والشَّهيدِ ، وأيِّهما أفضلُ .

تواتر النصوص النبوية على أن الإيمان بالله أفضل الأعمال

الوجهُ السابعُ والستون : أنَّ النُّصوصَ النَّبويةَ قد تواترَت بأنَّ أفضلَ الأعمالِ إيمانٌ باللهِ ، فهو رأسُ الأمرِ ، والأعمالُ بعدَهُ على مراتِبِهَا ومَنازِلِها .

والإيمانُ له رُكنَانِ :

أحدُهُما : معرفةُ ما جاء به الرسولُ صلى الله عليه وسلم ، والعِلْمُ بهِ .

والثاني : تَصديقُهُ بالقولِ والعملِ ، والتَّصديقُ بدونِ العِلمِ والمَعرفةِ مُحالٌ ؛ فإنَّه فرعُ العِلمِ بالشيءِ المُصَدَّقِ بهِ ، فإذاً العلمُ من الإيمانِ بمنزلةِ الرُّوحِ من الجسدِ ، ولا تقومُ شجرةُ الإيمانِ إلَّا على ساقِ العِلمِ والمَعرفةِ ، فالعلمُ إذاً أجلُّ المَطالبِ (٢) ، وأسنى المَواهبِ .

صفات الكمال ترجع إلى العلم

الوجهُ الثامنُ والستون : أنَّ صفاتِ الكمالِ كُلَّها ترجعُ إلى العلمِ والقُدرةِ والإرادةِ والإرادةُ فرعُ العلمِ ؛ فإنَّها تستلزمُ / الشُّعورَ بالمُرادِ ، فهي مُفتَقِرَةٌ إلى العلمِ في ذاتِها وحقيقَتِها ، والقُدرةُ لا تُؤثرُ إلَّا بواسطةِ الإرادةِ ، والعلمُ لا يفتَقِرُ في تعلُّقِهِ بالمَعلومِ إلى واحدةٍ منهما ، وأمَّا القُدرةُ والإرادةُ فكلٌّ منها يفتَقِرُ في تعلُّقِه بالمُرادِ والمَقدورِ إلى العلم ، وذلك يدُلُّ على فضيلَتِهِ وشرفِ مَنزلَتِه . [٤٢/أ]

العلم أعمُّ الصفات تعلقاً بمُتعلَّقه وأوسعها

الوجهُ التاسعُ والستون : أنَّ العلمَ أعمُّ الصفاتِ تعلُّقاً بمُتعلَّقِه وأوسعُها ؛ فإنَّه يتعلقُ بالواجبِ والمُمكنِ ، والمُستحيلِ والجائزِ ، والمَوجودِ والمَعدومِ ، فذاتُ الرَّب سبحانه وصفاتُه وأسماؤُه معلومةٌ له ، ويَعْلَمُ العبادُ من ذلك ما علَّمهم العليم الخبير .

---

(١) ينظر كلام المؤلف عن درجة الصِّدِّيقية في : طريق الهجرتين (٦٩١) .

(٢) في : ص : أجلُّ المَراتبِ .

وأمَّا القُدرةُ والإرادةُ فكلٌّ منهما خاصٌ في التَّعلقِ (١) ، أمَّا القدرةُ فإنَّما تتعَلَّقُ بالمُمكنِ خاصَّةً ، لا بالمُستحيلِ ولا بالواجبِ ، فهي أخصُّ من العِلْمِ من هذا الوجهِ ، وأعمُّ من الإرادةِ ؛ فإنَّ الإرادةَ لا تتعلَّقُ إلَّا ببعضِ المُمْكِناتِ ، وهو ما أُريدَ وجودُه .

فالعلمُ أوسعُ وأعمُّ وأشمَلُ في ذاتِه ومتعلَّقِهِ .

أن الله أخبر عن أهل العلم بأنه جعلهم أئمة يهدون بأمره ويأتم بهم من بعدهم

الوجه السبعون : أنَّ الله سبحانه أخبر عن أهلِ العلمِ بأنَّه جعلَهم يَهدونَ بأمرِهِ ، ويأتُّم بهم مَن بعدهم ، فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (٢) .

وقال في موضعٍ آخرَ : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (٣) ، أي : أئمَّةً يَقتَدِي بنا مَن بعدَنا .

فأخبرَ سبحانه أنَّ بالصَّبرِ واليقينِ تُنالُ الإمامةُ في الدِّينِ (٤) ، وهي أرفعُ مراتبِ الصِّدِّيقين .

واليقينُ هو كمالُ العلمِ وغايتُهُ ، فبتَكمِيلِ مَرتبةِ العلمِ تحصلُ إمامةُ الدِّينِ ، وهي ولايَةٌ آلتُها العلمُ ، يختصُّ الله بها من يشاءُ من عبادِه .

أن حاجة العباد إلى العلم ضرورية فوق الحاجة إلى الغذاء

الوجه الحادي والسبعون : أنَّ حاجةَ العبادِ إلى العلمِ ضروريةٌ ، فوق حاجةِ الجسمِ إلى الغِذاءِ ؛ لأنَّ الجسمَ يحتاجُ إلى الغِذاءِ في اليوم مَرَّةً أو مَرَّتين ، وحاجةُ الإنسانِ إلى العلمِ بعددِ الأنفاسِ لأنَّ كُلَّ نَفَسٍ من أنفاسِه فهو مُحتاجٌ فيه إلى أن يكونَ مُصاحِباً للإيمانِ أو حُكْمِهِ ؛ فإن فارقهُ الإيمانُ أو حُكمُهُ في نَفَسٍ من أنفاسِهِ ؛ فقد عَطِبَ

---

(١) في : د " خاص من التعلق " وصُححت في الهامش إلى " في التعلق" ، وفي : ص : " خاص من التعلق " .

(٢) السجدة : ٢٤ .

(٣) الفرقان : ٧٤ .

(٤) قال المؤلف رحمه الله في : مدارج السالكين (١٥٣/٢) : " سمعتُ شيخَ الإسلامِ ابن تيمية قدَّس الله روحَه يقول : بالصبر واليقين تُنال الإمامةُ في الدِّين ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ " . والمؤلف رحمه الله كثيرا ما يُورد هذه العبارة في مؤلفاته ، ينظر : إغاثة اللهفان (١٦٧/٢) ومدارج السالكين (٢٨٤/٣) ، وزاد المعاد (١٠/٣) ، ورسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (١٦) ، وإعلام الموقعين عن رب العالمين (١٠٣/٤) ، والداء والدواء (٩٣) ، وعدة الصابرين (١١ و ٧٢) .

وقَرُبَ هلاكُهُ ، وليس إلى حصولِ ذلك سبيلٌ إلا بالعلمِ ، فالحاجةُ إليه فوقَ الحاجةِ إلى الطَّعامِ والشَّرابِ .

وقد ذكرَ الإمامُ أحمد (١) هذا المعنى بعينِهِ ، فقال : " الناسُ أحوجُ إلى العلمِ منهم إلى الطَّعامِ والشَّرابِ ؛ لأنَّ الطَّعامَ والشَّراب يُحتاجُ إليه في اليومِ مَرَّةً أو مَرَّتين ، والعلمُ يُحتاجُ اليهِ كلَّ وقتٍ " (٢) .

أنَّ صاحب العلم أقلُّ تعباً وعملا وأكثر أجراً

الوجه الثاني والسبعون : أنَّ صاحبَ العلمِ أقلُّ تعباً وعملاً ، وأكثرُ أجراً .

واعتَبِرْ هذا بالشَّاهدِ ؛ فإنَّ الصُّنَّاعَ ، والأُجَرَاءَ يُعانُونَ الاعمالَ الشَّاقةَ بأنفسِهم ، والأستاذُ المُعلِّمُ يَجلسُ ، يأمرُهُم (٣) ويَنهاهُم ، ويُريهم كيفيَّةَ العملِ ، ويأخذُ أضعافَ ما يأخذونَهُ .

وقد أشار النَّبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى ، حيثُ قال : ( أفضلُ الأعمالِ إيمانٌ باللهِ ، ثمَّ الجهادُ ) (٤) .

فالجهادُ فيه بذلُ النَّفسِ ، وغايةُ المَشقَّةِ ، والإيمانُ عِلْمُ القلبِ وعملُهُ وتصديقُهُ ، وهو أفضلُ الأعمالِ ، مع أنَّ مَشقةَ الجهادِ فوقَ مَشقَّتِه بأضعافٍ مُضاعفة ، وهذا لأنَّ العلمَ يُعرِّفُ مَقاديرَ الأعمالِ ، ومراتِبِها ، وفاضِلَها من مَفضُولِها ، وراجِحَها من مَرجوحِها ، فصاحبُهُ لا يختارُ لنَفسِه إلا افضلَ الأعمالِ ، والعامِلُ بلا علمٍ يَظُنُّ أنَّ الفَضيلَةَ في كثرَةِ المَشقَّةِ ، فهو يتحمَّلُ المَشاقَّ وإنْ كان ما يُعانيه مَفضولاً ، ورُبَّ عملٍ فاضلٍ والمَفضولُ أكثرُ مَشقَّةً منه .

واعتَبِرْ هذا بحالِ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه فإنَّه أفضلُ الأُمَّةَ ، ومعلومٌ أنَّ فيهم مَن هو أكثرُ عمَلاً ، وحجَّاً ، وصوماً ، وصلاةً ، وقراءَةً ، قال أبو بكر بن عيَّاش (٥):

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ١١١ .

(٢) تقدَّم في : ص : ٢٠٠ .

(٣) في : ص : فيأمرُهم .

(٤) رواه البخاري (٢٥١٨) ، ومسلم (٨٤) .

(٥) أبو بكر بن عيَّاش بن سالم الأسدي، مولاهم الكوفي الحنَّاطُ ، المُقرئُ ، الفقيهُ ، المُحدِّثُ ، واختلف في اسمه فقيل : شُعبة ، وقيل : اسمه كنيته ، وقيل : محمد ، وقيل غير ذلك ، توفي عام: ١٩٣ هـ . =

" ما سبَقَهُم أبو بكرٍ بكثرةِ صلاةٍ ، ولا صومٍ ، ولكنْ بشيءٍ وَقَرَ في قلبِه " (١) .
وهذا مَوضِعُ المَثلِ المَشهورِ(٢) :

مَنْ لي بِمِثْلِ سَيْرِكَ المُدَلَّلِ　　　تَمْشِي رُوَيْدَاً وتَجِي في الأوَّلِ

أن العلم إمامُ العمل وقائدٌ له

الوجهُ الثالثُ والسبعون : أنّ العلمَ إمامُ العملِ ، وقائدٌ له ، والعملُ تابعٌ له ، ومُؤتَمٌّ به فكلُّ عملٍ لا يكون خلفَ العلمِ مُقتدِياً به فهو غيرُ نافعٍ لصاحبِه ، بل مَضرَّةٌ عليه ، كما قال بعضُ السَّلفِ : " من عبدَ الله بغيرِ علمٍ كان ما يُفسدُ أكثرَ مِمَّا يُصْلِحُ " (٣) .

والأعمال إنَّما تتفاوتُ في القَبولِ والرَّدِّ بحسب مُوافقتها للعلمِ ومُخالفتها له ، فالعملُ المُوافقُ للعلمِ هو المَقبولُ ، والمخالفُ له هو المَردودُ .

فالعلمُ هو الميزانُ ، وهو المَحكُّ ، قال تعالى : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ (٤) ، قال الفُضيلُ بن عِياض (٥) : " هو أخلصُ العملِ وأصوبُهُ ، قالوا : يا أبا عليٍّ ، ما أخلَصُهُ وأصوبُه ؟ قال : إنَّ العملَ إذا كان خالصاً ، ولم يكن صَواباً لم يُقبلْ ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبلْ ، حتى يكون خالصاً وصَواباً ، فالخالصُ أنْ يكون للهِ ، والصَّوابُ أنْ يكون على السُّنةِ " (٦) .

---

حلية الأولياء لأبي نعيم (٣٠٣/٨) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤٩٥/٨) .
(١) رواه الحكيم الترمذي في : نوادر الأصول (١٤٨/١) و (٥٥/٣) و (٥/٤) من قول : بكر بن عبد الله المزني .
(٢) نسبه ابن المرزبان في ذم الثقلاء (٣٥) إلى النضر بن شُمَيْل ، وفيه :

تَسْأَلني أمُّ الحبَابِ جمَلا　　　يمشي رويداً ويكون أوَّلا

ورواه الخطيب البغدادي في : الفقيه والمتفقه (٣١٨/٢) عن الخليل بن أحمد .
وهذا البيت المروي عن الخليل يُضرب في طلب ما يُتعذر ، أمَّا عجزُ البيتِ فهو مَثَلٌ مشهورٌ ، فيه ثناءٌ على من يدركُ حاجتَه بتؤدةٍ ورويَّةٍ ، وقد ذكره ابن قتيبة في المعاني الكبير (٧٦/١) ، والميداني في : مجمع الأمثال (١٤١/١) والنويري في : نهاية الأرب في فنون الأدب (٦٠/٣) ، والدَّميري في : حياة الحيوان الكبرى (٢٩٠/١) .
(٣) رواه أحمد في الزهد (٢٤٤) ، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٧٥/٧) ، والدارمي في سننه (١٠٣/١) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩١/٣) ، وغيرهم عن عمر بن عبد العزيز ، ورواه أحمد في الزهد (٢٣٤) عن الحسن البصري .
(٤) الملك : ٢ .
(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٥ .
(٦) رواه أبو نعيم في الحلية (٩٥/٨) .

وقد قال تعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ (١) .
فهذا هو العملُ المَقبولُ الذي لا يقبلُ الله من الأعمالِ سواهُ ، وهو أنْ يكون مُوافقاً لسنةِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، مُراداً به وجهُ الله .
ولا يتمكَّن العاملُ من الإتيانِ بعملٍ يَجمعُ هذين الوصفين إلَّا بالعلمِ ، فإنَّه إن لم يعلمْ ما جاءَ به الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم ، لم يُمْكِنْهُ قَصدُه ، وإنْ لم يعرفْ معبودَهُ لم يُمْكِنْهُ إرادتُه وحدَهُ ، فلولا العلمُ لمَا كان عَمَلُه مَقبولاً ، فالعلم هو الدَّليلُ على الإخلاصِ ، وهو الدَّليلُ على المُتابعةِ .
وقد قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (٢) ، وأحسنُ ما قيلَ في تفسيرِ الآيةِ : إنَّه إنَّما يتقبلُ الله عملَ من اتَّقاهُ في ذلك العملِ (٣) ، وتقواهُ فيه أن يكونَ لوجههِ على مُوافقَةِ أمرِهِ ، وهذا إنَّما يحصُلُ بالعلم .
وإذا كان هذا مَنزلةَ العلمِ ومَوقِعَهُ عُلم أنَّه أشرفُ شيءٍ وأجلُّهُ وأفضلُهُ ، والله أعلم .

الوجهُ الرَّابعُ والسَّبعون : أنَّ العاملَ بلا علمٍ كالسَّائرِ بلا دليلٍ ، ومعلومٌ أنَّ عَطَبَ مِثلَ هذا أقربُ من سلامَتِه ، وإن قُدِّرَ سلامتُه اتفاقاً نادراً ، فهو غيرُ مَحمودٍ ، بل مَذمومٌ عند العُقلاء. وكان شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه الله (٤) يقولُ : " مَن فارقَ الدَّليلَ ضَلَّ السَّبيلَ ، ولا دليلَ إلَّا ما جاء به الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم " (٥). أنَّ العامل بلا علم كالسَّائر بلا دليل

---

(١) الكهف : ١١٠ .
(٢) المائدة : ٢٧ .
(٣) ينظر : تفسير ابن كثير (٣/٨٥) .
(٤) شيخ الإسلام : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم محمد بن الخضر الحرَّاني الدمشقي تقي الدين أبو العباس ، بحر من بحور العلم ، صاحب التصانيف ، امتحن وأوذي مرات ، وحبس في قلعة مصر والقاهرة ، والإسكندرية ، وفي قلعة دمشق مرتين ، وتوفي فيها عام: ٧٢٨ هـ .
العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية لابن عبد الهادي (١٨) ، والأعلام العلية للبزار (١٦) والبداية والنهاية لابن كثير (١٤/١٥٦) .
(٥) مجموع الفتاوى (٦/٣٨٨) و (١٣/١٣٦) ، ودرء تعارض العقل والنقل (٤/٤٠) بلفظ : " إنَّ العلمَ ما قامَ عليه الدَّليلُ ، والنَّافعُ منه ما جاء به الرسولُ صلى الله عليه وسلم" .

قال الحسنُ [(١)] : " العامِلُ على غيرِ علمٍ كالسَّالكِ على غير طريقٍ ، والعامِلُ على غيرِ علمٍ ما يُفسدُ أكثرَ مِمَّا يُصلحُ ، فاطلبوا العلمَ طلباً لا تضرُّوا بالعبادَةِ ، واطلبوا العبادَةَ طلباً لا تضرُّوا بالعلمِ ؛ فإنَّ قوماً طلبوا العبادةَ ، وتركوا العلمَ حتى خَرَجُوا بأسيافِهِم على أُمَّةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، ولو طلبُوا العلمَ لم يدُلَّهُم على ما فعلوا " [(٢)] .

والفرقُ / بين هذا وبينَ ما قبلَه : أنَّ العلمَ مَرتَبَتُهُ في الوجهِ الأوَّلِ مَرتبةُ المُطاعِ المَتبوعِ [٤٣/أ] المُقتدى بهِ ، المُتَّبعِ حُكمُهُ المُطاعِ أمرُه ، ومرتَبتُهُ في هذا الوجهِ مَرتبةُ الدَّليلِ المُرشدِ إلى المَطلوبِ المُوصلِ إلى الغايةِ .

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك

الوجهُ الخامسُ والسَّبعون : أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم ثبت في " الصَّحيح " [(٣)] عنه أنَّه كان يقولُ : ( اللهم ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ ، فاطرَ السمواتِ والأرضِ ، عالمَ الغيبِ والشَّهادة ، أنت تحكم بين عبادِك فيما كانوا فيهِ يختلفونَ ، اهدِني لِمَا اختُلفَ فيه من الحقِّ بإذنِكَ ، إنَّك تهدي من تشاءُ إلى صراط مُستقيم ) [(٤)] .

وفي بعضِ " السُّننِ " [(٥)] أنَّه كان يُكبِّرُ تكبيرةَ الإحرامِ في صلاةِ اللَّيلِ ، ثمَّ يدعو بهذا الدُّعاءِ .

والهدايةُ هي العلمُ بالحقِّ مع قصدِهِ وإيثارِه على غيرِه ، فالمُهتدي هو العالِم بالحقِّ المُريدُ له ، وهي أعظمُ نعمةٍ للهِ على العبدِ ، ولهذا أمَرنا سبحانه أن نسألَهُ هدايَةَ الصِّراطِ المُستقيمِ كلَّ يومٍ وليلةٍ في صلواتِنا الخَمسِ ؛ فإنَّ العبدَ مُحتاج إلى معرفةِ الحقِّ الذي يُرضي اللّهَ في كلِّ حركةٍ ظاهِرةٍ وباطنةٍ ، فإذا عَرفَها فهو مُحتاجٌ إلى مَن يُلْهِمُهُ قصْدَ الحقِّ ، فيجعلَ إرادَتَهُ في قلبِه ، ثمَّ إلى مَن يُقَدِّرُهُ على فعلِه .

---

(١) الحسن البصري ، تقدَّمت ترجمته ص : ٩١ .

(٢) أورده ابن عبد البر في : جامع بيان العلم وفضله (٥٤٥/١) .

(٣) في الأصل ، وفي : ص : الصحيحين ، وفي : د : صححت إلى : صحيح مسلم .

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٧٧٠) ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٥) رواه أبو داود (٧٦٧) ، والترمذي (٣٤٢٠) ، وابن ماجه (١٣٥٧) ، وهو حديث عائشة رضي الله عنها المتقدِّم .

ومعلومٌ أنَّ ما يجهلُه العبدُ أضعافُ أضعافِ ما يعلمُه ، وإنَّ كلَّ ما يعلمُه أنَّه حقٌّ لا تُطاوعُه نفسُه على إرادَتِه ، ولو أرادَهُ لَعَجَزَ عن كثيرٍ منهُ ، فهو مُضطرٌ كلَّ وقتٍ إلى هدايةٍ تَتعَلَّقُ بالماضي ، وبالحالِ ، والمستقبلِ .

أمَّا الماضي فهو مُحتاجٌ إلى محاسبة نفسِه عليه ، وهل وقَعَ على السَّدادِ ، فيشكُرَ اللهَ عليه ويستديمَهُ ، أم خرَجَ فيه عن الحقِّ فيَتوبَ إلى الله تعالى منه ، ويتسغفرَهُ ، ويَعزمَ على أن لا يَعودَ .

وأمَّا الهدايةُ في الحالِ فهي مطلوبةٌ منه ؛ فإنَّه ابنُ وقتِهِ ، فيحتاجُ أن يعلمَ حُكمَ ما هو مُتلبِّسٌ به من الأفعال ، هل هو صوابٌ أم خطأ .

وأمَّا المُستقبلُ فحاجتهُ في الهدايةِ أظهَرُ ، ليكونَ سَيْرُهُ على الطَّريقِ .

وإذا كان هذا شأنَ الهدايةِ عُلِمَ أنَّ العبدَ أشدُّ شيءٍ اضطراراً إليها ، وأنَّ ما يُورِدُهُ بعضُ النَّاسِ من السُّـؤالِ الفاســد ، وهي أنَّا إذا كُنَّا مُهتَدينَ فــأيُّ حاجَةٍ بنا أن نسـألَ اللهَ أن يَهدينا ؟ وهل هذا إلَّا تحصيلُ الحاصلِ ، أفسدُ سؤالٍ وأبعدُهُ عن الصَّواب ، وهو دليلٌ على أنَّ صاحِبَهُ لم يحَصِّل معنى الهداية ، ولا أحاطَ علماً بحقيقتِها ومُسمَّاها .

فلذلك تكلَّفَ من تكلَّفَ الجوابَ عنه بأنَّ المعنى : ثَبِّتْنا على الهدايةِ ، وأدِمْها لنا .

ومَن أحاطَ علماً بحقيقةِ الهدايةِ ، وحاجةِ العبدِ إليها ، عَلِمَ أنَّ الذي لم يَحْصُلْ له منها أضعافُ ما حصَلَ له ، وأنَّ كلَّ وقتٍ مُحتاجٌ إلى هدايةٍ مُتجَدِّدةٍ ، لاسيَّما واللهُ تعالى خالقُ أفعالِ القلوبِ والجوارحِ ، فهو كلَّ وقتٍ مُحتاجٌ أن يخلق اللهُ له هدايةً خاصةً ، ثم إن لم يصرفْ عنه الموانعَ والصَّوارفَ التي تَمنعُ مُوجبَ الهِدايَةَ وتصرفُها لم ينتفعْ بالهدايةِ ، ولم يتمَّ مقصودُها له ، فإنَّ الحُكم لا يكفي فيه وجودُ مُقتضيه ، بل لا بدَّ مع ذلك من عدمِ مانِعهِ ومُنافيهِ .

ومعلومٌ أنَّ وسَاوِسَ (١) العبدِ ، وخواطِرَهُ ، وشهواتِ الغَيِّ في قلبهِ ، كلٌّ منها مانعٌ وصولَ أثرِ الهدايةِ إليه ، فإنْ لم يصرِفْهَا الله عنه لم يَهْتَدِ هُدىً تامَّاً ، فحاجاتُه إلى هدايةِ الله لهُ مَقرونةٌ بأنْفَاسِهِ ، وهي أعظمُ حاجةٍ للعبدِ .

(١) في : ص : وسْواس .

وذكر النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الدُّعاءِ العظيمِ القَدْرِ مِن أوصافِ اللهِ ورُبوبيتهِ ما يُناسِبُ المَطلوبَ :

ـ فإنَّ فَطْرَ السَّمواتِ والأرضِ توسُّلٌ إلى الله بهذا الوصفِ في الهداية للفطرةِ التي ابتدأ الخَلْقَ عليها ، فذَكَرَ كونَه فاطرَ السَّمواتِ والأرض .

ـ والمَطلوبُ تعليمُ الحقِّ ، والتَّوفيقُ له ، فذَكَرَ عِلْمَهُ سبحانه بالغيبِ والشَّهادةِ ، وأنَّ من هو بكلِّ شيءٍ عليمٌ جَديرٌ أن يطلبَ منه عبْدُه أن يُعَلِّمَهُ ، ويُرشِدَهُ ، ويهدِيَهُ ، وهو بمنزلةِ التَّوسلِ إلى الغَنيِّ بغِنَاهُ وسَعةِ كرمِهِ أنْ يُعطيَ عبدَه شيئاً مِن مَالهِ ، والتَّوسلُ إلى الغَفورِ بسَعةِ مَغفرتِهِ أنْ يغْفِرَ لعبدِه ، وبعَفْوِه أن يَعفو عنه ، وبرحمَتِه أن يرحَمَه ، ونظائِرُ ذلك .

ـ وذَكَرَ رُبوبيَّتَه تعالى لجبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ ، وهذا والله أعلمُ ، لأنَّ المَطلوبَ هُدىً يَحيا بهِ القلبُ ، وهؤلاءِ الثَّلاثةُ الأملاكُ قد جَعَلَ اللهُ تعالى على أيدِيهِم أسبابَ حياةِ العبادِ (١) :

أمَّا جبريلُ ، فهو صاحبُ الوَحي الذي يُوحيه اللهُ إلى الأنبياء ، وهو سَبَبُ حياةِ الدُّنيا والآخرةِ .

وأمَّا ميكائيل ، فهو مُوَكَّلٌ بالقَطْرِ الذي بهِ سَبَبُ حياةِ كُلِّ شيءٍ .

وامَّا إسرافيل ، فهو الذي يَنفُخُ في الصُّور ؛ فيُحيى الله المَوتى بنفخَتِهِ ؛ فإذا هم قِيامٌ لربِّ العَالَمين .

مراتب الهداية في القرآن

والهدايةُ لها أربعُ مَراتبٍ ، وهي مذكورةٌ في القرآن (٢) :

المرتَبةُ الأولى : الهدايةُ العامَّةُ ، وهي هدايةُ كلِّ مخلوقٍ من الحيوانِ والآدَميِّ لمَصالِحهِ التي بها قامَ أمرُه ، قال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (١) ، فذكرَ أموراً أربعةً :

(١) ينظر كلام المؤلف حول الأملاك الثلاثة في : إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان (١٢٧/٢) ، وزاد المعاد (٤٣/١ و ٢٠٥/٤) .

(٢) فصَّلَ المؤلفُ رحمه الله في معنى الهداية ، وأنواعها الأربعة ، والسبل التي تُكمِّل الهداية في كتابه : بدائع الفوائد (٣٥/٢) .

**الخلـقَ ، والتَّسويةَ ، والتَّقديرَ ، والهدايةَ ، فسوَّى خَلقَهُ وأتقَنه وأحكَمَهُ ، ثمَّ قدَّرَ أسبابَ (٢) مَصالِحِهِ في معاشِه ، وتقلُّباتِه ، وتصرُّفاتِه ، وهَدَاهُ إليها .**

**والهدايةُ تعليمٌ ، فذَكَرَ أنهُ خلَقَ (٣) وعَلَّمَ ، كما ذكَرَ نظيرَ ذلك في أوَّلِ سورةٍ أنزلها على رسولِه صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدَّمَ ذلك (٤) .**

**وقال تعالى حكايةً عن عدُوِّه فرعونَ أنَّه قال لموسى عليه السلام :** ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (٥) **، وهذه المرتبةُ أسبقُ مراتبِ الهدايةِ ، وأعمُّهَا .**

**المرتبةُ الثَّانيةُ : هدايةُ البيانِ والدَّلالةِ التي أقامَ بها حُجَّتَه على عبادِه ، وهذه لا تستلزمُ الاهتداءَ التَّامَّ ، قال الله تعالى :** ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَـٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَـٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ (٦) **، يعني : بيَّنَّا لهم ودَلَلْنَاهُم وعرَّفنَاهم ، فآثروا الضَّلالةَ والعَمى ، وقال تعالى :** ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ أَعۡمَـٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ (٧) **، وهذه المَرتبةُ أخصُّ من الأولى ، وأعمُّ من الثالثةِ ، وهي هُدى التَّوفيقِ والإلهامِ ، قال الله تعالى :** ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهۡدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ (٨) **، فعَمَّ بالدَّعوةِ خَلْقَهُ ، وخَصَّ بالهدايةِ مَن شاءَ منهم .**

---

(١) الأعلى : ١ – ٣ .
(٢) في : د ، ص : قدَّرَ لهُ أسبابَ .
(٣) في : ص : أنَّه الذي خَلَقَ .
(٤) تقدَّم في ص : ١٩٣ .
(٥) طه : ٤٩ – ٥٠ .
(٦) فصلت : ١٧ .
(٧) العنكبوت : ٣٨ .
(٨) يونس : ٢٥ .

**وقال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (١) ، مع قولِهِ : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) ، فأثبتَ هدايةَ الدَّعوةِ والبيانِ ، ونَفى هدايةَ التَّوفيقِ والإلهامِ .**

**وقال النبي صلى الله عليه وسلم في تشهُّدِ الحاجةِ : ( مَن يَهْدِ اللهُ فلا مُضِّلَ له ، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ لهُ ) (٣) .**

**وقال تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾(٤) ، أي من يضله الله فلا يُهدى (٥) أبداً .**

**وهذهِ الهدايةُ / الثَّالثةُ هي الهدايةُ المُوجبةُ المُستلزمةُ للاهتداءِ ، وأمَّا الثانيةُ فشرطٌ لا مُوجِبٌ ، فلا يستحيلُ تخلُّفُ الهُدى عنها ، بخلافِ الثَّالثةِ ؛ فإنَّ تخلف الهُدى عنها مُستحيلٌ.** **[٤٤/أ]**

**المرتبةُ الرَّابعةُ الهدايةُ في الآخرةِ إلى طريقِ الجنَّةِ والنَّارِ .**

**قال تعالى : ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (٦) . وأمَّا قولُ أهلِ الجنَّة : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ (٧) ، فيحتَمِلُ أن يكونوا أرادوا الهدايةَ إلى طريقِ الجنَّةِ ، وأنْ يكونوا أرادوا الهدايةَ في الدُّنيا التي أوصلتهم إلى دارِ النَّعيمِ .**

---

(١) القصص : ٥٦ .

(٢) الشورى : ٥٢ .

(٣) رواه مسلم (٨٦٧ و ٨٦٨) من حديث جابر بن عبد الله وابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) النحل : ٣٧ .

(٥) في : د ، ص : لا يُهدى .

(٦) الصافات : ٢٢ – ٢٣ .

(٧) الأعراف : ٤٣ .

ولو قيل : إنَّ كلا الأمرين مُرادٌ لهم ، وأنَّهم حَمَدوا الله على هدايتِهِ لهم في الدُّنيا وهدايتِهم إلى طريقِ الجنَّةِ ، كان أحسنَ وأبلَغَ [١] .

وقد ضربَ اللهُ تعالى لمن لم يحصل له العلمُ بالحقِّ واتِّباعُه مَثلاً مُطابقاً لحاله ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [٢] .

أن فضيلة الشيء وشرفه يظهر تارة من عموم منفعته وتارة من شدَّة الحاجة إليه

الوجهُ السادسُ والسبعون : أنَّ فضيلةَ الشيءِ وشَرَفَهُ يظهرُ تارةً من عُمومِ مَنفعتِهِ ، وتارةً من شِدَّةِ الحاجةِ إليهِ ، وعدمِ الاستغناءِ عنه ، وتارةً من ظُهورِ النَّقصِ والشَّرِّ بفقدِه ، وتارةً من حُصولِ اللذَّةِ والسُّرورِ والبَهجةِ بوجودِه ، لكونهِ مَحبُوباً مُلائماً ، فإدراكُه يُعْقِبُ غايةَ اللذَّة ، وتارةً من كمالِ الثَّمرةِ المُترتِّبةِ عليه ، وشرفِ علَّته الغَائيَّـةِ [٣] ، وإفضائِه إلى أجلِّ المَطالبِ . وهذه الوجوهُ ونحوها تنشأُ وتظهرُ مِن مُتعلَّقهِ ؛ فإذا كان في نفسهِ كمالاً وشرفاً ، بقطع النَّظرِ عن مُتعلَّقاتِه ، جمع جهاتِ الشَّرفِ والفضلِ في نفسهِ ومُتعلَّقِه .

ومعلومٌ أنَّ هذه الجهاتِ بأسرِها حاصلةٌ للعلمِ ، فإنَّه أعمُّ شيءٍ نفعاً ، وأكثرُهُ وأدوَمُه والحاجةُ إليه فوقَ الحاجةِ إلى الغذاءِ ، بل فوقَ الحاجةِ إلى التَّنَفُّسِ ؛ إذ غايةُ ما يُتَصَوَّرُ مِن فَقْدِهِمَا فَقْدُ حياةِ الجسم ، وأمَّا فقدُ العلم ففيه فَقدُ حياةِ القلبِ والرُّوحِ ؛ فلا غناء للعبدِ عنه طَرفةَ عَينٍ ، ولهذا إذا فُقدَ من الشَّخصِ كان شرَّاً من الحميرِ ، بل كان شراً من الدَّوابِ عند اللهِ ، ولا شيءَ أنقصُ منه حينئذٍ .

---

(١) تنظر الأقوال في : معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣٣٩/٢) ،وتفسير الماوردي (٢٢٥/٢) وتفسير ابن الجوزي (١٢١/٢) ، وتفسير أبي حيان الأندلسي (٣٥/٥) .

(٢) الأنعام : ٧١ .

(٣) العلَّة الغائيَّة هي : ما يوجد الشيء لأجله . التعريفات للجرجاني (٢٠٢) .

وأمَّا حُصولُ اللذَّةِ والبَهجةِ بوجودِهِ ؛ فلأنَّه كمالٌ في نفسهِ ، وهو مُلائمٌ غايةَ المُلاءَمةِ للنُّفوسِ ؛ فإنَّ الجهلَ مرضٌ ونقصٌ ، وهو في غايةِ الإيذاءِ والإيلامِ للنَّفسِ ، ومَن لم يشعُر بهذه المُلاءَمَةِ والمُنافَرةِ فهو لفَقْدِ حِسِّهِ ، وموتِ نفْسِه :

وما لِجُرحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ (١) .

فحصوله لنَفْسٍ إدراكٌ منها لغايةِ مَحبوبِها ، واتصالٌ به ، وذلك غايةُ لذَّتِها وفَرحَتِها وهذا بحسَبِ المعلومِ في نفسِه ، ومحبَّةِ النَّفسِ له ، ولذَّتِها بقُربِهِ .

والعلومُ والمعلوماتُ مُتفاوِتَةٌ في ذلك أعظمَ التَّفاوتِ وأبيَنَهُ ، فليس علمُ النُّفوسِ بفاطِرِها وبارِئِها ومُبدِعها (٢) ، ومحبَّتهُ والتَّقرُّبُ إليه ، كعِلمِهَا بالطَّبيعةِ وأحوالِها ، وعوارِضها وصحَّتِها وفسادِها ، وحركاتِها .

وهذا يتبيَّنُ بالوجهِ السابعِ والسبعين : وهو أنَّ شَرفَ العلمِ تابعٌ لشرفِ مَعلومهِ لوثوقِ النَّفس بأدلةِ وجودهِ وبراهينهِ ، ولشدَّةِ الحاجةِ إلى معرفتهِ ، وعظَمِ النَّفعِ بِها . أنَّ شرف العلم تابع لشرف معلومه

ولا ريبَ أنَّ أجلَّ معلومٍ وأعظَمَهُ واكبَرَهُ فهو اللهُ الذي لا إلهَ إلا هو ربُّ العالَمين ، وقيُّومُ السَّمواتِ والأرضين ، المَلِكُ الحقُّ المُبين ، الموصوفُ بالكمالِ كلِّه ، المُنزَّه عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ ، وعن كلِّ تمثيلٍ وتشبيهٍ في كمالهِ .

ولا ريب أنَّ العلمَ به وبأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه أجلُّ العلومِ وأفضلُها ، ونسبته إلى سائرِ العلومِ كنسبةِ مَعلُومهِ إلى سائرِ المعلوماتِ ، وكما أنَّ العلم به أجلُّ العلوم واشرفُها ، فهو اصلُها كلِّها ، كما أنَّ كلَّ موجودٍ فهو مُستندٌ في وجُودِه إلى المَلِكِ الحقِّ المُبين ومُفتَقرٌ إليه في تَحقُّقِ (٣) ذاتِه وإنِّيَّتِهِ (١) ، وكلُّ علمٍ فهو تابعٌ للعلمِ بهِ ، مُفتَقرٌ في تحقُّقِ ذاتِه إليه ، فالعلم به أصلُ كلِّ علمٍ ، كما أنَّه سبحانه ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُهُ ومُوجِدُهُ .

---

(١) شطر بيت للمتنبي ، وأوَّله : مَن يَهُن يسْهُلِ الهَوَانُ عليه ... ما لِجُرحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ

ديوانه (٢٢٤) ، ويتمة الدَّهر للثعالبي (١/٢٥٠) ، وخزانة الأدب وغاية الأرب للحموي (١/١٨٩) .

في : ص : وما بجُرحٍ لِميِّتٍ .

(٢) في : ص : وأربابِها ومُبتَدعها .

(٣) في : ص : تحقيق .

ولا ريب أنَّ كمال العلم بالسَّبب التَّامِ ، وكونَه سبباً يستلزمُ العلم بمُسبِّبِهِ ، كما أنَّ العلم بالعلةِ التَّامةِ ، ومعرفتَهُ كونها علةً ، تستلزمُ العلمَ بالمَعلولِ ، وكلُّ مَوجودٍ سِوى الله فهو مُستندٌ في وجودِه إليه استنادَ المَصنوعِ إلى صانِعِهِ ، والمفعولِ إلى فاعِله .

فالعلمُ بذاتِه سبحانه وصفاتِهِ وافعالِه يستلزمُ العلمَ بما سواه ، فهو في ذاتِهِ ربُّ كُلِّ شيءٍ ومَليكُه ، والعلمُ به أصلُ كلِّ علمٍ ومنشؤهُ ؛ فمن عَرفَ اللهَ عرفَ ما سواهُ ، ومن جَهِلَ ربَّه فهو لما سواهُ أجهل .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ (٢) ، فتأملْ هذه الآيةَ تجد تحتها معنىً شريفاً عظيماً ، وهو انَّ من نسيَ ربَّه أنساه ذاتَهُ ونفسَهُ ، فلم يعرِفْ حقيقتَه ولا مَصالِحَه ، بل نَسيَ ما به صلاحُهُ وفلاحُهُ في مَعاشِه ومَعادِه ، فصارَ مُعطَّلاً مُهمَلاً بمنزلةِ الأنعامِ السَّائبةِ ، بل ربَّما كانت الأنعام السائِمةُ (٣) أخبَرَ بمَصالِحها منه ، لبقائِها على هُداها التامِّ الذي أعطاها إيَّاه خالقُها ، وأمَّا هذا فخرجَ عن فطرته التي خُلقَ عليها فنسيَ ربَّه فأنساهُ نفسَه وصفاتِها ، وما تكْمُل بهِ (٤) ، وما تَزكُو بهِ (٥) ، وتسعَدُ به (٦) في مَعاشِها ومَعادِها ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ (٧) ، فغفلَ عن ذكرِ ربِّه فانفرطَ عليه أمرُهُ وقلبُه ، فلا التفاتَ له إلى

---

(١) الإِنِّيَّةُ: إِنِّيَّةُ الشَّيْءِ ، وهو ثُبُوْتُ كَوْنِه ، وإشارةٌ إلى وُجُوْدُه .

قال الراغب الأصفهاني : " وهو لفظ مُحدثٌ ليس من كلام العرب"

ينظر : المفردات للراغب (٩٥) ، والمحيط في اللغة للصاحب بن عباد (٤٢٤/١٠) ، والتوقيف على مهمات التعريف للمناوي (٦٤) .

(٢) الحشر : ١٩ .

(٣) "السائمة" سقطت من : د ، ص .

(٤) في : د ، ص : يكمُل .

(٥) في : د ، ص : يزكو .

(٦) في : د ، ص : يسعدُ .

(٧) الكهف : ٢٨ .

مصالِحه وكمالِه ، وما تزكُو به نفسُه وقلبُه ، بل هو مُشتَّتُ القلبِ مُضَيَّعُهُ ، مُنفرِطُ الأمرِ حَيرانُ ، لا يَهتَدي سبيلاً .

والمقصود أنَّ العلمَ بالله أصلُ كلِّ علمٍ ، وهو أصلُ علم العبدِ بسعادَتِه ، وكَمالِهِ ومصالِح دُنياهُ وآخرتِهِ ، والجهلُ به مُستلزم للجهل بنفسِه ، ومصالِحها ، وكمالِها ، وما تزكو بهِ ، وتفلحُ بهِ ، فالعلمُ به سعادةُ العبدِ ، والجهلُ به أصلُ شقاوتِهِ .

يزيدهُ إيضاحاً :

الوجــهُ الثامــنُ والسبعون : أنَّه لا شيءَ أطيبُ للعبد ، ولا ألذُ ، ولا أهنأُ ، ولا أنعمُ لقلبِه وعيشِهِ ، من مَحبَّةِ فاطِرِهِ وبارِيه ، ودوامِ ذكرِهِ ، والسَّعي في مَرضاتِه . أنَّه لا شيء أطيبُ للعبد من محبة ربِّه

وهذا هو الكمالُ الذي لا كمالَ للعبدِ بدونِهِ ، وله خُلِقَ الخَلقُ ، ولأجلهِ نزلَ الوحيُ وأُرسِلت الرُّسلُ ، وقامت السَّمواتِ والأرضُ ، ووُجِدَت الجنَّة والنَّارُ ، ولأجله شُرِعَت الشَّرائعُ ، ووُضِعَ البيتُ الحرامُ ، ووَجَب حجُّهُ على النَّاس إقامةً لذكرِهِ الذي هو من توابعِ محبَّتِه ، والرِّضا بهِ وعنهُ ، / ولأجلِ هذا أُمرَ بالجهادِ ، وضربِ أعناقِ من أباهُ ، وآثرَ غيرَه عليه ، وجَعلَ له في الآخرةِ دارَ الهوانِ خالداً مُخلداً . [٤٥/أ]

وعلى هذا الأمر العظيمِ أُسِّسَت المِلةُ ، ونُصبت القِبلةُ ، وهو قُطبُ رحَى الخَلْقِ والأمرِ الذي مَدارُهما عليه ، ولا سبيلَ إلى الدُّخولِ إلى ذلك إلا من بابِ العلمِ ؛ فإنَّ محبَّةَ الشيءِ فرعٌ عن الشُّعور به ، وأعرفُ الخلْقِ بالله أشدُّهم حُبَّاً له ، فكلُّ من عَرَفَ اللهَ أحبَّه ، ومن عرَفَ الدُّنيا وأهلها زهِدَ فيها (١).

فالعلمُ يفتحُ هذا البابَ العظيمَ الذي هو سرُّ الخَلْقِ والأمرِ ، كما سيأتي بيانُه إن شاء الله تعالى .

---

(١) بيَّن المؤلف رحمه الله طريقين باعثين على محبة الله ، الأول منهما : مطالعة مِنَنِ الرَّب وإحسانه ، ثم ذكر الآخر بقوله : " حتى إذا دخلوا منه دعوا من الباب الآخر ، وهو بابُ الأسماءِ والصفاتِ الذي إنَّما يدخلُ منه إليه خواصُّ عبادِهِ وأولياؤُهُ ، وهو بابُ المُحبِّين حقَّاً ، الذي لا يدخل منه غيرُهم ، ولا يشبعُ من معرفتِهِ أحدٌ منهم ، بل كلَّمَا بدا له منه عَلَمٌ ؛ ازدادَ شوقاً ومحبةً وظمَأً . فإذا انضمَّ داعي الإحسانِ والإنعام إلى داعي الكمَال والجمَالِ ؛ لم يتخلفْ عن محبةِ مَن هذا شأنُه إلا أرْدَأ القلوبِ ، وأخبثَها وأشدَّها نقصاً ، وأبعدَها من كلِّ خيرٍ .... " طريق الهجرتين (٦٢٧) .

أن اللذة بالمحبوب تكون بحسب قوة الحب وضعفه والحب تابع للعلم

الوجهُ التاسعُ والسبعون : أنَّ اللذَّة بالمَحبوبِ تَضعُفُ وتَقوى بحسبِ قُوَّةِ الحبِّ وضعفِه ، فكلَّما كان الحبُّ أقوى كانت اللذَّة أعظمَ ، ولهذا تَعْظُمُ لذَّةُ الظَّمآنِ بشُربِ الماء البارِدِ بحسَب شدَّة طلبِه للماء ، وكذلك الجائعُ ، وكذلك من أحبَّ شيئاً كانت لذَّتُه على قدرِ حُبِّه إيَّاهُ ، والحبُّ تابعٌ للعلمِ بالمَحبوبِ ، ومعرفةِ جمَالِهِ الظَّاهِرِ والباطنِ فلذَّةُ النَّظر إلى الله بعد لقائهِ بحسَبِ قُوَّة حُبِّهِ وإرادَتِه ، وذلك بحسَب العلمِ بهِ ونقصانِ كمالهِ [(١)] .

فإذاً : العلمُ هو أقربُ الطُّرق إلى أعظمِ اللذَّات .

وسيأتي تقريرُ هذا فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

أنَّ كل ما سوى الله يفتقر إلى العلم لا قَوام له بدونه

الـوجـه الثمانون : أنَّ كلَّ ما سوى اللهَ يفتقرُ إلى العلمِ ، لا قِوامَ له بدونه ، فإنَّ الوجودَ وجودانِ : وجودُ الخَلْقِ ، ووُجودُ الأمرِ .

والخَلقُ والأمرُ مصدَرُهُمَا عِلمُ الرَّبِّ وحكمتُه ، فكلُّ ما ضمَّهُ الوجودُ من خَلْقِه وأمرِه صادِرٌ عن عِلمهِ وحكْمَتِه ، فما قامَت السَّمواتِ والأرضِ وما بينَهُما إلَّا بالعلمِ ، ولا بُعِثَت الرُّسلُ ، وأُنزلت الكُتبُ إلَّا بالعِلمِ ، ولا عُبِدَ اللهُ وحدَه ، وحُمِدَ وأُثنِيَ عليه ومُجِّدَ إلا بالعلم ، ولا عُرِف الحلالُ من الحَرام إلا بالعلمِ ، ولا عُرفَ فضلُ الإسلامِ على غيرِه إلا بالعلم .

هل العلم صفة فعلية أو انفعالية ؟ والأقوال في ذلك

واختُلِفَ هنا في مسألةٍ ؛ وهي أنَّ العلمَ صفةٌ فِعليةٌ أو انفعاليَّةٌ ؟

فقالت طائِفَةٌ : هو صفةٌ فعليةٌ لأنَّه شرطٌ ، أو جزءُ سَبَبٍ في وجودِ المَفعولِ ؛ فإنَّ الفعلَ الاختياريَّ يستدعي حياةَ الفاعلِ وعِلمَه وقُدرتَه وإرادَته ، ولا يُتصوَّرُ وجودُه بدونِ هذه الصِّفات .

وقالت طائِفَةٌ : هو انفِعَاليٌّ ؛ فإنَّه تابعٌ للمَعلومِ مُتعلِّقٌ بهِ على ما هو عليه ، فإنَّ العالِمَ يُدرك المَعلومَ على ما هو به ، فإدراكُه تابعٌ له فيكونُ مُتقدِّماً عليهِ .

---

(١) قال المؤلف رحمه الله : " ولمَّا كانت المحبةُ التَّامة مَيل القلبِ بكلِّيته إلى المحبوب ، كان ذلك الميل حامِلاً على طاعته وتعظيمه ، وكلما كان الميلُ أقوى كانت الطاعةُ أتمَّ ، والتَّعظيم أوفرَ ، وهذا الميل يلازم الإيمان ، بل هو روح الإيمان ولُبُّهُ ، فأيُّ شيءٍ يكون أعلى من أمرٍ يتضمَّنُ أن يكون الله سبحانه أحبَّ الأشياء إلى العبدِ ، وأولى الأشياء بالتَّعظيم ، وأحقَّ الأشياء بالطاعة ، وبهذا يجد العبد حلاوة الإيمان " . مدارج السالكين (٢/١٨٦) .

والصَّوابُ أنَّ العلمَ قسمانِ (١) :

علمٌ فِعليٌّ : وهو علم الفاعلِ المُختارِ بمَا يُريدُ أن يفعَله ، فإنَّه مَوقوفٌ على إرادَتِه الموقوفَةِ على تَصوُّرِ المُرادِ ، وعلمهِ به .

فهذا علمٌ قبلَ الفعلِ مُتقدِّمٌ عليه ، مُؤثِّرٌ فيه .

وعلم انفعالي : وهو العلمُ التَّابعُ للمعلومِ الذي لا تأثيرَ له فيهِ ؛ كعلمِنَا بوجودِ الأنبياءِ والأمَمِ والمُلوكِ ، وسائرِ الموجوداتِ ؛ فإنَّ هذا العلمَ لا يُؤثِّرُ في المعلومِ ، ولا هو شرطٌ فيهِ .

فكلٌّ من الطَّائفتين نظرتْ جُزئياً ، وحكَمَت كُليّاً .

وهذا مَوضعٌ يغلطُ فيه كثيرٌ من النَّاسِ ، وكلا القِسمين من العلمِ صفةُ كمالٍ ، وعدمُهُ من أعظمِ النَّقصِ . يُوضِّحُهُ :

فضيلة الشيء تُعرف بضدّه والجهل أصل كل فساد

الوجه الحادي والثمانون : أنَّ فضيلةَ الشيءِ تُعرفُ بضدِّهِ :

فالضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ (٢) .

وبِضِدِّها تَتَبَيَّنُ الأشيَاءُ (٣) .

---

(١) قال المؤلف رحمه الله في : بدائع الفوائد (٢١٢/٤ - ٢١٣) : " العلوم التابعة هي : الانفعالية ، والمتقدِّمةُ هي : الفعلية ، وعلومُ الله تعالى فِعليةٌ ، والانفعاليُّ عليه مُحال ، قال الشيخ : قلتُ : العلمُ الفعليُّ هو : الذي يتبَعُه الفعلُ ، كمن يعلم مَصلحةً فيفعلها ، والعلم الانفِعاليُّ هو : الذي ينشأُ عن الأسبابِ ، كما إذا مَرَّ زيدٌ بين يديكَ فحصلَ لك العلمُ بمُرُورِه ، وقد يكون عِلماً خالياً عن القسمينِ ، كعِلمِنَا بوجودِ السَّماءِ " . وينظر : مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨٠/٨ و ١٢٩/١٩) ، والتوقيف على مهمات التعريف للمناوي (٢٤٦) ، والكلِّيات لأبي البقاء الكفوي (٦١٦) .

(٢) شطر بيت ، وصدره : ضِدَّانِ لمّا استَجْمَعا حَسُنا . وهو من القصيدة " اليتيمة " ، والتي مطلعها :

هَلْ بالطُّلُولِ لسَائِلٍ رَدُّ ... أَو هَلْ لها بتَكَلُّمٍ عَهْدُ

وقد تقدم ذكره ص : ٥١ .

(٣) عجز بيت للمتنبي ديوانه (١٥) ، وصدره :

ونَذِيمهُم وبهم عَرَفْنا فَضْلَهُ ... ..............................

وينظر : الحماسة المغربية لأبي العباس النادلي (٤٧٣/١)

ولا ريبَ انَّ الجهلَ أصلُ كلِّ فسادٍ ، وكلِّ ضررٍ يلحقَ العبدَ في دُنياه وأخراه ، فهو نتيجةُ الجهلِ ، وإلا فمع العلم التَّام بأنَّ هذا الطَّعامَ . مثلاً . مَسْمُومٌ مَن اكلهُ قَطَّعَ أمعاءَهُ في وقتٍ مُعينٍ ، لا يُقْدِمُ على أكلهِ ، وإنْ قُدِّرَ أنَّه أقدَمَ عليهِ لغَلبةِ جُوعٍ ، أو استعجالِ وفاةٍ فهو لعلمِه بمُوافقةِ آكلهِ لمَقصودِهِ الذي هو أحبُّ إليه من العَذابِ بالجُوعِ أو بغيرِهِ .

العلم هل يستلزم الاهتداء ؟

وهنا اختلفُ في مسألةٍ عظيمةٍ وهي أنَّ العلمَ هل يستلزمُ الاهتداءَ ، ولا يتخلَّفُ عنه الهُدى إلا لعدمِ العلمِ أو نقْصِه ، وإلا فمع المَعرفةِ الجَازِمةِ لا يُتصورُ الضَّلالُ ؟ وأنَّه لا يستلزمُ الهُدى ؛ فقد يكونُ الرَّجلَ عالِمَاً وهو ضالٌّ على عَمْدٍ ؟ هذا ممَّا اختلَفَ فيه المُتكلِّمون (١) ، وأربابُ السُّلوكِ ، وغيرُهم .

القول الأول : إن العلم يستلزم الاهتداء ومن عرف الحق معرفة لا شكَّ فيها استحال أن لا يهتدي وبيان حججهم

فقالت فرقةٌ : مَن عرفَ الحقَّ مَعرفةً لا يشكُّ فيها استحالَ أن لا يَهتَدِيَ ، وحيثُ ضلَّ فلِنُقصَانِ عِلمِه ؛ واحتَجُّوا من النُّصوصِ بقولِه تعالى : ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ (٢) ، فشهد تعالى لكلِّ راسخٍ في العلمِ بالإيمـــان ، وبقولِـــه تعالى :﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ (٣) ، وبقولـــهِ : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ (٤) ، وبقولِه : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ ﴾ (٥) ، وبقولِه : ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ (٦) ، قسَّمَ النَّاس قِسمين :

أحدهُما : العلماءُ بأنَّ ما أُنزِلَ إليه من ربِّه هو الحقُّ .

والثَّاني : العُمْيُ ؛ فدَلَّ على أنَّه لا واسطةَ بينهما .

---

(١) سبق التعريف بهم في ص : ٩٥ .

(٢) النساء : ١٦٢ .

(٣) فاطر : ٢٨.

(٤) سبأ : ٦ .

(٥) آل عمران : ١٨ .

(٦) الرعد : ١٩ .

وبقولِهِ في وصفِ الكفَّارِ : ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [١] ، و: ﴿ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [٢] ، وبقولِهِ : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ ﴾ [٣] .

وهذه مَدارِكُ العلمِ الثَّلاثُ قد سُدَّتْ عليهم .

وكذلك قوله تعالى : ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [٤].

وقوله : ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ ﴾ ، قال سعيد بن جُبيرٍ رحمه الله [٥] : " على عِلْمِه تعالى فيهِ " [٦] .

قال الزَّجَّاجُ [٧] : أي : على ما سبقَ في عِلْمِه تعالى أنَّه ضالٌّ قبلَ أن يَخلقه " [٨] .

﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ ﴾ ، أي [١] طبعَ عليه فلم يسمَع الهُدى ، وعلى قلْبِه ؛ فلم يعقِل الهُدى و﴿عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ ﴾ ، فهو لا يُبصرُ أسبابَ الهُدى .

---

(١) البقرة : ١٧١ .

(٢) التوبة : ٩٣ .

(٣) البقرة : ٧ .

(٤) الجاثية : ٢٣ .

(٥) سعيد بن جُبير الأسدي ، مولاهم ، تابعي حبشي الأصل، الإمام ، الحافظ ، العالم ، أخذ العلم عن عبد الله ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم ، كان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه ، قال: أتسألونني وفيكم ابن أمِّ دَهماء ؟ يعني سعيد بن جبير . توفي عام : ٩٥ هـ .
وفيات الأعيان لابن خلكان (٣٦٧/١) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣٢١/٤) .

(٦) الإبانة الكبرى لابن بطة (١٧٣/٣) ، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ينظر : تفسير ابن أبي حاتم (٣٢٩١/١٠) ، وتفسير ابن جرير الطبري (٩٣/٢١) ، والأسماء والصفات للبيهقي (٣٠٩/١) .

(٧)إبراهيم بن السَّريّ بن سهل ، أبو إسحاق الزجَّاج ، وغلب عليه اللقب ؛ لأنه كان أوَّلَ حياته يعمل في خَرطِ الزُّجَاج كان من أهلِ الفضلِ و الدين ، حسنَ الاعتقاد ، عالماً بالنحو والعربية ، له مؤلّفات منها: معاني القرآن ، الاشتقاق العروض ، وغيرها ، توفي عام : ٣١١ هـ . طبقات المفسرين للأدنه وي (٥٢) ، والأعلام للزركلي (٤٠/١) .

(٨) معاني القرآن وإعرابه (٤٣٣/٤) .

وهذا في القرآن كثير ممَّا يُبيِّنُ (٢) فيه مُنافاةَ الضَّلالِ للعلمِ ، ومنه قولُه تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ (٣) .

فلو كانوا علِموا ما قال الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم لم يسألوا أهلَ العلمِ : ماذا قال ولَمَا كان مطبُوعاً على قلوبِهم .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ (٥) .

فهذه شهادةٌ من الله تعالى لأُولي العلمِ بالإيمانِ بهِ وبكلامِهِ .

وقال تعالى عن أهلِ النَّارِ : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (٦) ؛ فدلَّ على أنَّ أصحابَ الضَّلالِ لا سَمْعَ لهم ، ولا عقْلَ .

وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ (٧)

أخبرَ تعالى أنَّه لا يَعْقِلُ / أمثالَهُ إلَّا العَالِمُون ، والكفَّارُ لا يدخُلون في مُسمَّى العَالِمينَ فهم لا يعقِلُونَها . [٤٦/أ]

وقال تعالى : ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ

(١) " أي " ليست في : د ، ص .
(٢) في : ص : بيَّنَ .
(٣) محمد : ١٦ .
(٤) الأنعام : ٣٩ .
(٥) الإسراء : ١٠٧ – ١٠٨ .
(٦) الملك : ١٠ .
(٧) العنكبوت : ٤٣ .

تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ (٢) ، **وقال تعالى :** ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (٣) ، **[ ولو كان الضَّلالُ يُجامِعُ العلمَ لكان الذين لا يعلمون أحسنَ حالاً من الذين يعلمونَ ]** (٤) ، **والنَّصُّ بخلافِهِ .**

**والقرآنُ مملُوءٌ بسلبِ العلمِ والمَعرفةِ عن الكفَّار ؛ فتارةً يصِفُهم بأنَّهم لا يعلمون ، وتارةً بأنَّهم لا يعقِلون ، وتارةً بأنَّهم لا يشعُرون ، وتارةً بأنَّهم لا يفقَهون ، وتارةً بأنَّهم لا يسمَعُون ، والمُرادُ بالسَّمعِ المنفيِّ سمْعُ الفَهْمِ ، وهو سمع القلبِ ، لا إدراكُ الصَّوتِ وتارةً بأنَّهم لا يُبصرون ؛ فدَلَّ ذلك كلُّه على أنَّ الكفر مُستلزمٌ للجهل ، مُنافٍ للعلمِ ، لا يُجامِعهُ ، ولهذا يصِفُ سبحانه الكفَّارَ بأنَّهم جاهِلون ، كقولِه تعالى :** ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ (٥) ، **وقوله تعالى :** ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ (٦) ، **وقوله تعالى :** ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ (٧) **وقال النَّبي صلى الله عليه وسلم لمَّا بلَغَ قومُهُ مِن أذاهُ ذلك المَبلغَ : ( اللهمَّ اغفِرْ لقَومِي فإنَّهم لا يعلمون )** (٨) .

---

(١) الروم : ٢٩ .

(٢) البقرة : ١١٨ .

(٣) الزمر : ٩ .

(٤) ليست في النسخ ، والمثبت من المطبوع .

(٥) الفرقان : ٦٣ .

(٦) القصص : ٥٥ .

(٧) الأعراف : ١٩٩ .

(٨) رواه يعقوب الفَسَوي في : تاريخه (٣٣٨/١) ، وابن أبي عاصم في : الآحاد والمثاني (١٢٣/٤) ، وابن حبان في : صحيحه (٩٧٣) ، والطبراني في : المعجم الكبير (١٢٠/٦) ، وغيرهم ، وصححه ابن حبان ، وقال الهيثمي في : مجمع الزوائد (١١٧/٦) : " ورجاله رجال الصحيح " .

وفي " الصحيحين "(١) عنه صلى الله عليه وسلم :( مَن يُرد الله به خيراً يُفقِّههُ في الدِّين ) فـدَلَّ على أنَّ الفقهَ مُستلزمٌ لإرادةِ الله الخَيرَ في العبدِ ، ولا يُقالُ : الحديثُ دَلَّ على أنَّ من أرادَ الله بِهِ خيراً فقَّهَهُ في الدِّينِ ، ولا يدُلُّ على أنَّ كلَّ من فقَّهَهُ في الدِّين فقَد أرادَ بِهِ خيراً ، وبينهما فَرقٌ ، ودليلُكم إنَّما يتمُّ بالتَّقديرِ الثَّاني ، والحديثُ لا يقتَضيه لأنَّا نقولُ : النَّبي صلى الله عليه وسلم جعلَ الفِقْهَ في الدِّينِ دليلاً وعلامَةً على إرادةِ الله بصاحبِه خيراً ، والدَّليلُ يستَلزمُ المَدلولَ ، ولا يتخَلَّفُ عنهُ ؛ فإنَّ المَدلولَ لازِمُهُ ، ووُجودُ المَلزومِ بدون لازِمه مُحالٌ .

وفي " التِّرمذيِّ " وغيرِهِ عنه صلى الله عليه وسلم : ( خَصلتانِ لا يجتَمِعَان في مُنافقٍ : حسْنُ سَمْتٍ ، وفقهٌ في الدِّين ) (٢) ؛ فجعلَ الفِقهَ في الدِّين مُنافياً للنِّفاقِ ، بل لم يكن السَّلفُ يُطلقُون اسمَ الفقهِ إلا على العلمِ الذي يَصحبُه العملُ ، كما سُئلَ سعدُ بن إبراهيمَ (٣) عن أفقهِ أهلِ المدينةِ ؟ قال : " أتقَاهُم " (٤).

وسألَ فَرقَدٌ (٥) الحسنَ البصريَّ (٦) عن شيءٍ ، فأجابَهُ ، فقال : إنَّ الفُقهاءَ يُخالِفُونَك فقال الحسنُ : ثكلَتكَ أمُّكَ فُرَيقِدُ ! وهل رأيتَ بعَيْنَيكَ فقِيهَاً ؟ إنَّما الفقيهُ : الزَّاهدُ في الدُّنيا ، الرَّاغبُ في الآخرةِ ، البصيرُ بدينِهِ ، المُداومُ على عبادةِ ربِّهِ ، الذي لا يهْمزُ مَن فوقَهُ ، ولا يسخرُ بِمَن دونهُ ، ولا يبتَغي على علمٍ علَّمهُ الله تعالى أجراً " (٧)

---

(١) سبق تخريجه ص : ١٩٨ .

(٢) سبق تخريجه ص : ٢٤٤ .

(٣) سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف القُرشي الزُّهري المدني ، الإمام ، الحجة ، الفقيه ، قاضي المدينة ، من كبار العلماء ، رأى ابن عمر وجابرا رضي الله عنهما ، توفي عام : ١٢٥هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٠٤/٩) وتهذيب الكمال للمزي (٢٤٠/١٠) .

(٤) رواه الدارمي في : سننه (١٠١/١) ، وأبو نعيم في : حلية الأولياء (١٦٩/٣) ، والخطيب البغدادي في : الفقيه والمتفقه (٤٨/٢) ، وابن عساكر في : تاريخ دمشق (٢١٨/٢٠) ، وغيرهم .

(٥) فَرْقَدُ بن يعقوب السَّبْخِيُّ ، أبو يعقوب البصري ، من سبخة البصرة وقيل من سبخة الكوفة ، قال عنه ابن حجر : "صدوق ، لكنه لين الحديث ، كثير الخطأ " ، توفي عام : ١٣١ هـ .
الكاشف للذهبي (١٢٠/٢) ، وتهذيب التهذيب لابن حجر (٢٣٦/٨) .

(٦) تقدَّمت ترجمته ص : ٩١ .

(٧) رواه ابن المبارك في : الزهد (٣٠) ، والدارمي في سننه (١٠١/١) ، والخطيب البغدادي في : الفقيه والمتفقه =

**وقال بعضُ السَّلفِ : " إنَّ الفقيهَ مَن لم يُقنِطِ النَّاسَ مِن رحمةِ الله ، ولم يُؤْمِنهُم مِن مَكر اللهِ ، ولم يدَعِ القرآنَ رغبَةً عنه إلى ما سِواهُ " (١) .**

**وقال ابن مسعود رضي الله عنه (٢) : " كفى بخشية الله علما وبالاغترار بالله جهلا " (٣) .**

**قالوا : فهذا القرآنُ والسُّنة وإطلاقُ السَّلف من الصَّحابةِ والتَّابعينَ يدُلُّ على أنَّ العلمَ والمعرفةَ مُستلزمٌ للهدايةِ ، وأنَّ عدمَ الهدايةِ دليلٌ على الجهلِ ، وعدمِ العلمِ .**

**قالوا : ويدلُّ عليه أنَّ الإنسانَ ما دامَ عقلُه معه لا يُؤثِر هَلاكَ نفسِه على نجاتِها وعذابَها العظيمَ الدَّائمَ على نعيمِها المُقيمِ ، والحسُّ شاهدٌ بذلك ، ولهذا وصفَ سبحانهُ أهلَ معصيَتِهِ بالجهل في قولِه تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٤) ، قال سفيان الثَّوري (٥) : " كلُّ من عملَ ذنباً مِن خَلقِ الله فهو جاهلٌ ، كان جاهلاً أو عالِمَاً إن كان عالِماً فمَنْ أجهلُ منهُ ، وإن كان لا يعلمُ فمثلُ ذلك " (٦).**

**وقوله : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ ، قال : قبل الموت .**

**وقال ابن عباسٍ رضي الله عنهما : " ذَنْبُ المُؤمن جَهْلٌ منهُ " (٧).**

**قال قتادةُ (٨) : " أجمع أصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنَّ كلَّ شيءٍ عُصِـيَ اللهُ**

---

(٣٤١/٢) ، وليس فيها عن فرقد ، وإنما عن عمران المنقري .

(١) رواه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (٣٣٩/٢) ، والآجري في أخلاق العلماء (٧٢) ، والدارمي في سننه (١٠١/١) ، وغيرهم ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

(٣) تقدَّم تخريجه ص : ١٧٥ .

(٤) النساء : ١٧ .

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٤٩ .

(٦) ذكره ابن أبي حاتم في : تفسيره (٨٩٧/٣ ) ، وروي نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ومجاهد ، وعطاء والسُّدِّي وغيرهم ، ينظر : تفسير ابن جرير الطبري (٥٠٧/٦) .

(٧) رواه ابن جرير الطبري في : تفسيره (٥٠٧/٦) .

(٨) قَتَادَةُ بن دِعَامَة بن قتادة بن عزيز بن عمرو السَّدوسي البصري ، الأكمه ، الضرير ، تابعي من كبار العلماء في

به فهو جَهالَةٌ " (١).

وقال السُّدِّيُّ (٢) : " كلُّ من عصى الله فهو جاهلٌ " (٣).

قالوا : ويدُلُّ على صحةِ هذا أنَّ مع كمالِ العلم لا تصدُرُ المعصيةُ من العبدِ ؛ فإنَّه لو رأى صَبيَّاً يتطلَّعُ عليه من كُوَّةٍ لم تَتَحرَّكْ جوارِحُه لمُواقعَةِ الفاحشة ، فكيف يقعُ منه حالَ كمالِ عِلمِه بنظرِ اللهِ إليه ، ورُؤيتهِ له ، وعقابهِ على الذَّنبِ ، وتَحريمِه له ، وسوءِ عاقبتهِ ؟

فلا بُدَّ من غفلةِ القلبِ عن هذا العلمِ ، وغَيبَتِهِ عنه ، فحينئذٍ يكونُ وقوعُه في المَعصيةِ صادِراً عن جَهلٍ ، وغفلَةٍ ، ونسيانٍ ، مُضادٍّ للعلمِ .

والذَّنْبُ مَحفوفٌ بِجَهلين جَهلٌ بحقيقةِ الأسبابِ الصَّارِفةِ عنه ، وجهلٌ بحقيقةِ المَفسدةِ المُترتبةِ عليه ، وكلُّ واحدٍ من الجَهلين تحته جَهَالاتٌ كثيرةٌ ؛ فما عُصيَ اللهُ إلا بالجهلِ وما أطيعَ إلا بالعلمِ .

فهذا بعضُ ما احتجتْ به هذه الطَّائِفةُ .

القول الآخر : إن العلم لا يستلزم الهداية وكثيرا ما يكون الضلال عن عمد وعلم وبيان حُجَجهم

قالت الطائفة الأخرى : العلمُ لا يستلزمُ الهدايةَ ، وكثيراً ما يكون الضَّلالُ عن عمدٍ وعلمٍ لا يَشُكُّ صاحبُهُ فيهِ ، بل يُؤثِرُ الضَّلالَ والكفرَ ، وهو عالِمٌ بقُبحِهِ ومَفسدَتِه .

قالوا : وهذا شيخُ الضَّلالِ ، وداعي الكفرِ ، وإمامُ الفَجَرةِ ، إبليسُ عدوُّ الله قد علِمَ أمرَ اللهِ له بالسُّجودِ لآدم ، ولم يَشُكَّ فيه ، فخالَفَهُ وعانَد الأمرَ ، وباءَ بلعنةِ الله ، وعذابِهِ الدَّائم ، مع علمه بذلك ، ومعرفَته به ، وأقسَمَ له بعزَّتِهِ أنَّه يُغوي خَلقهُ أجمعين إلا عبادَهُ منهم المُخلَصين ، فكانَ غيرَ شاكٍّ في الله ، وفي وحدَانِيَّتِه ، وفي البَعثِ الآخِرِ ، وفي

---

التفسير ، أحفظ أهل البصرة ، لا يسمع شيئا إلا حفظه ، وكان يرى القدر ، توفي عام : ١١٨ هـ . =
وفيات الأعيان لابن خلكان (٢٧٧/٢) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٩٢/١) .

(١) رواه عبد الرزاق في : تفسيره (٤٤١/١) ، وابن جرير الطبري في : تفسيره (٥٠٧/٦) .

(٢) إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السُّدي ، أبو محمد القرشي الكوفي الأعور ، من موالي قريش ، سكن الكوفة وكان يقعد في سدة باب الجامع بالكوفة ، فسمي السُّديُّ ، وهو السُّدي الكبير ، اختُلف في حديثه ، ورمي بالتشيع ، توفي عام : ١٢٧ هـ . تهذيب الكمال للمزي (١٣٢/٣) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢٦٤/٥) .

(٣) رواه ابن جرير الطبري في : تفسيره (٥٠٨/٦) .

الجنَّة والنَّارِ ، ومع ذلك اختارَ الخُلودَ في النَّارِ ، واحتمالَ لعنةِ الله ، وغضَبِه ، وطَرْدِهِ من سَمائه وجَنَّتهِ ، عن علمٍ بذلك ومعرفةٍ لم تَحصلْ لكثيرٍ من النَّاسِ ، ولهذا : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (١) ، وهذا اعترافٌ منه بالبعثِ ، وإقرارٌ بهِ ، وقد عَلِمَ قَسَمَ ربِّه ليملأنَّ جهنمَ منه ، ومِن أتبَاعهِ ، فكان كُفرُهُ كُفرَ عِنادٍ مَحضٍ ، لا كُفرَ جَهلٍ .

وقال تعالى إخباراً عن قوم صالح (٢) : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ (٣) ، يعني : بيَّنَّا لهم ، وعرَّفناهم فعَرفوا الحقَّ وتيقَّنُوه ، وآثروا العَمى عليهِ فكان كُفرُ هؤلاءِ عن جَهلٍ .

وقال تعالى / حاكِياً عن موسى عليه الصلاة والسلام أنَّه قال لفرعونَ : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ (٤) [٤٧/أ]
أي : هالِكاً على قراءةِ مَن فتحَ التاءَ ، وهي قِراءةُ الجمهورِ ، وضَمَّها الكِسائيُّ (٥) وحدهُ (٦) .

وقراءَةُ الجُمهورِ أحسنُ ، وأوضحُ ، وأفخمُ معنىً ، وبها تقومُ الدَّلالةُ ، ويتمُّ الإلزامُ ويتحقَّقُ كُفرُ فِرعونَ وعِنَادُهُ (٧) .

---

(١) الحجر : ٣٦ .

(٢) " صالح " ليست في : ص .

(٣) الإسراء : ١٠٢ .

(٤) فصلت : ١٧ .

(٥) أبو الحسن ، علي بن حمزة بن عبد الله بن بَهْمَن بن فيروز الأسَديُّ ، مولاهم الكوفي ، الملقب بالكسائي لكساءٍ أحْرَم فيه ، شيخ القراءة والعربية ، توفي عام : ١٨٩ هـ . تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤٠٤/١١) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (١٤٠/٢) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٣١/٩) .

(٦) معاني القرآن للفراء (١٣٢/٢) ، ومعاني القرآن للزجاج (٢٦٣/٣) ، والسبعة في القراءات لابن مجاهد (٣٨٥) والحجة لابن زنجلة (٤١١) ، والنشر لابن الجزري (٣٠٩/٢) .

(٧) وقرأ بعضهم لقد عَلِمتُ – بضم التاء – والأجوَدُ في القراءةِ ( لقد عَلِمتَ ) بفتحِ التاء ؛ لأنَّ عِلْمَ فرعونَ بأنَّها آياتٌ من عند اللّه ، أوكدُ في الحُجَّةِ عليهِ ، ودليلُ ذلك قولُه عزَّ وجلَّ في فرعونَ وقومِهِ : ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤] " الزجاج في معاني القرآن وإعرابه (٢٦٣/٣) .

**ويشهدُ لها قولُه تعالى إخباراً عنهُ ، وعن قومِهِ : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ ﴾ (١) ، فأخبرَ سبحانه أنَّ تكذيبَهُم وكُفرَهُم كان عن يقينٍ ، وهو أقوى العِلْم ، ظُلمَاً منهم وعُلواً لا جهلاً .**

**وقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ (٢) ، يعني أنَّهم قد عرَفوا صِدْقَك وأنَّك غيرَ كاذبٍ فيما تقولُ ، ولكنْ عاندوا [ وجَحدوا بالمَعرفة ، قاله ابنُ عباس رضي الله عنهما (٣) والمفسرون (٤).**

**قال قَتادة (٥) : " يعلمون أنَّك رسولٌ ، ولكنْ يَجحدون " (٦) .**

**كقولِهِ تعالى ] (٧) : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ ﴾ (٨) ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾(٩) ، يعني : تكفرونَ بالقرآنِ ، وبمَن جاءَ بهِ وأنتم تشهدونَ بصحَّتهِ ، وبأنَّه الحقُّ ، فكُفركم كُفرُ عِنادٍ وجُحودٍ عن علمٍ لا عن جهلٍ وخَفاءٍ .**

---

(١) النمل : ١٣ – ١٤ .

(٢) الأنعام : ٣٣ .

(٣) تقدَّمت ترجمته : ٨٧ .

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١٢٨٢/٤) ، والدر المنثور للسيوطي (٢٦٤/٣) .

(٥) تقدَّمت ترجمته : ٢٨٣ .

(٦) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٤٨/٢) ، وابن جرير الطبري في تفسيره (٢٢١/٩) .

(٧) سقط من : ص .

(٨) النمل : ١٤ .

(٩) آل عمران : ٧٠ – ٧١ .

**وقال تعالى عن السَّحرةِ من اليهودِ : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾(١) ، أي : علِموا مَن أخذ هذا السِّحرَ وقبِلَه لا نصيبَ له في الآخرةِ ، ومع هذا العلمِ والمَعرفةِ فهم يشترونَهُ ويَقبلونَهُ ويتعلَّمونَهُ .**

**وقال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ (٢) ، ذكرَ هذه المَعرفةَ عن أهل الكتابِ في القبلةِ كما في سورة البقرةِ ، وفي التوحيدِ كقولِه في الأنعام : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾ (٣) .**

**وفي الكتابِ أنَّه مُنزلٌ من عندِ اللهِ كقولِهِ تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ (٤) .**

**وقال تعالى : ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٥) .**

**قال ابن عباس رضي الله عنهما : " هم قُرَيظَةُ والنَّضِيرُ (٦) ومَن دانَ بدينِهم ، كفَروا بالنَّبي صلى الله عليه وسلم بعدَ أن كانوا قبلَ مَبعثِه مُؤمنينَ بهِ ، وشَهِدوا لهُ بالنُّبوةِ ، وإنَّما كفروا بغياً وحسَداً " (١) .**

(١) البقرة : ١٠٢ .

(٢) البقرة : ١٤٦ .

(٣) الأنعام : ١٩ — ٢٠ .

(٤) الأنعام : ١١٤ .

(٥) آل عمران : ٨٦ .

(٦) ارتحل اليهود إلى شبه الجزيرة العربية في القرن الخامس الميلادي ، وذلك عقب الحروب التي كانت بين اليهود والرومان وحالفوا أهل المدينة ، قال المؤلف رحمه الله : " ووادع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مَن بالمدينة مِن اليهود ، وكتب بينه وبينهم كتاباً ، وبادر حَبْرُهم وعالمُهم عبدُ اللهِ بنُ سلام ، فدخل في الإسلام ، وأبى عامَّتُهم إلا الكفرَ . وكانوا ثلاثَ قبائل : بنو قَيْنُقَاع ، وبنو النَّضير ، وبنو قُرَيْظَة ، وحاربه الثلاثة ، فمنَّ على بني قَيْنُقَاع ، وأجلى بني النَّضِير ، وقتل بني قُريظة ، وسبى ذُرِّيَّتهم ، ونزلت سورة الحشر في بني النَّضيرِ ، وسورة الأحزاب في بني قُريظة " . زاد المعاد (٣/٦٥) .

قال الزجاج [٢] : " أعلَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّه لا جِهَةَ لهدايتِهم ، لأنَّهم قد استَحقُّوا أن يَضِلُّوا بكُفرِهِم ؛ لأنَّهم كفروا بعدَ البيِّنَاتِ " [٣] .

﴿ وَشَهِدُوٓاْ ﴾ به ، وتيقَّنوهُ ، وكفروا عمداً ، فمِن أينَ تأتيهِمُ الهدايةُ ؟ فإنَّ الذي تُرتَجى هدايتُه مَن كان ضالاً ، ولا يدري أنَّه ضَالٌ ، بل يظُنُّ أنَّه على هُدىً ، فإذا عَرَفَ الهُدى اهتدى ، وأمَّا من عَرَفَ الحقَّ وتيقَّنَه ، وشهِدَ به قلبُه ، ثمَّ اختارَ الكُفر والضَّلالَ عليه ، فكيف يهدي الله مثلَ هذا ؟.

وقال تعالى عن اليهود : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ [٤] ، قال ابن عباس رضى الله عنهما [٥] : " لم يكنْ كُفرهُم شكَّاً ولا اشتباهاً ، ولكنْ بَغْياً منهم ، حيثُ صارت النُّبوَّةُ في ولدِ إسماعيل " [٦].

ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [٧] .

فلمَّا شبَّههُم في فعلِهِم هذا بمَن لا يَعلمُ دَلَّ على أنَّهم نَبَذوهُ عن علمٍ كفعلِ مَن لا يَعلمُ تقولُ إذا خاطَبتَ مَن عصاكَ عَمْداً : كأنَّكَ لم تعلمْ ما فعلتَ ؟ أو : كأنَّك لم تعلمْ بِنَهْيي إيَّاكَ ؟ .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٦٩٩/٢) ، وابن جرير الطبري في تفسيره (٥٦٠/٥) بنحوه .
(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٧٩ .
(٣) معاني القرآن وإعرابه (٤٣٩/١) .
(٤) البقرة : ٨٩ – ٩٠ .
(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .
(٦) ينظر : تفسير الواحدي (١٧٣/١) ، وتفسير ابن أبي حاتم (١٧٢/١) ، وتفسير ابن جرير الطبري (٣٤٢/٢) .
(٧) البقرة : ١٠١ .

**ومنهُ على أحد القولين ، قولُه تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (١) ، قال السُّدِّيُّ : " يعني محمداً صلى الله عليه وسلم " (٢) .**

**واختاره الزَّجَّاجُ (٣) ، فقال : " يعرفون أنَّ أمر محمدٍ حقٌّ ثمَّ يُنكرونَ ذلك " (٤) ، وأوَّلُ الآيةِ يشهدُ لهذا القولِ .**

**وقال تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ ﴾ (٥) ، قالوا : فهل بعدَ هذهِ الآيةِ بيانٌ ؟ فإنَّ هذا آتاهُ الله آياتِهِ فانسَلَخَ منها ، وآثرَ الضَّلالَ والغيَّ .**

**وقِصَّتُهُ معروفةٌ (٦) ، حتى قيلَ : إنَّه كان أوتي الاسم الأعظمَ ، ومع هذا فلم ينْفَعْهُ علمُهُ وكان من الغاوين ، فلو استلزَمَ العلمُ والمَعرفةُ الهدَايةَ لاسْتَلزَمَهُ في حقِّ هذا .**

---

(١) النحل : ٨٢ – ٨٣ .

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٣٢٥/١٤) .

(٣) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٧٩ .

(٤) معاني القرآن وإعرابه (٢١٦/٣) .

(٥) الأعراف : ١٧٥ – ١٧٦ .

(٦) قال المؤلف رحمه الله في الفوائد (١٠٢) : " وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذَمِّهِ وذلك من وجُوهٍ : أحدها : أنَّه ضلَّ بعد العلم ، واختارَ الكفر على الإيمان عمداً لا جهلاً . وثانيها : أنَّه فارقَ الإيمان مُفارقةَ مَن لا يعود إليه أبدا فإنَّه انسلخَ من الآيات بالجملةِ ، كما تنسَلِخُ الحيَّةُ من قِشْرِها ، ولو بقى معه منها شيءٌ لم ينسلخْ منها . وثالثها : أنَّ الشيطانَ أدركهُ ولحقَهُ ، بحيث ظفرَ بهِ ، وافترَسَهُ ، ولهذا قال : ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ، ولم يقلْ : تبعَهُ ؛ فإنَّ في معنى : أتبَعَه : أدركَهُ ولَحَقَهُ ، وهو أبلغُ من تبعَهُ لفظاً ومعنىً . ورابعها : أنَّه غوى بعد الرُّشد ، والغيُّ : الضَّلالُ فى العِلْمِ والقَصدِ ، وهو أخصُّ بفسادِ القصدِ والعملِ ، كما أنَّ الضَّلالَ أخصُّ فسادِ العلمِ والاعتقادِ ، فإذا أفردَ أحدُهما دخلَ فيه الآخر ، وإن اقترنا فالفَرقُ ما ذُكر . وخامِسُها : أنَّه سبحانه لم يشأ أنْ يرفعهُ بالعلمِ ، فكان سببَ هلاكِهِ لأنَّه لم يرفعْ بهِ ، فصارَ وبَالاً عليه ، فلو لم يكن عَالِماً كان خيراً له ، وأخفَّ لعذابِهِ . وسادسها : أنَّه سبحانه أخبرَ عن خِسَّةِ هِمَّتِه ، وأنَّه اختارَ الأسفلَ الأدنى على الأشرفِ الأعلى . وسابعها : أنَّ احتيارَهُ للأدنى لم يكنْ عن خاطرٍ وحديثِ نَفْسٍ ، ولكنَّه كان عن إخلاد إلى الأرض ، وميلٍ بكُلِّيتهِ إلى ما هناك ..." إلى أن قال : " وثامنها : أنه =

**وقال تعالى :** ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴾ (١) **، وهذا يدُلُّ على أنَّ قولَهم :** ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ (٢) **، إمَّا بَهْتٌ منهم وجُحودٌ ، وإمَّا نفيٌ لآياتِ الاقتراحِ والتَّعنُّتِ ، ولا يجبُ الإتيانُ بها .**

المراد بقوله تعالى (مبصرة فظلموا بها) وذكر معاني أبصره

**وقد وصَفَ سبحانه ثمودَ بأنَّها كفرَتْ عن عِلْمٍ وبَصيرةٍ بالحقِّ ، ولهذا قال :** ﴿ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ (٣) **، يعني : بيِّنَةً مُضيئَةً ، وهذا كقولِهِ تعالى :** ﴿ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ ﴾ (٤) **، أي : مُضيئةً ، وحقيقةُ اللَّفظِ انَّها تجعلُ مَن رآهَا مُبصِراً ، فهي تُوجبُ له البَصَرَ فتُبَصِّرُهُ ، أي : تجعَلُهُ ذا بَصَرٍ ، فهي مُوضِّحةٌ مُبَيِّنةٌ ، يُقالُ : بَصُرَ بهِ إذا رآه كقولِهِ تعالى :** ﴿ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ ﴾ (٥) **، وقولِهِ :** ﴿ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ ﴾ (٦) **.**

---

رَغِبَ عن هُداه ، واتبع هَواهُ ، فجعل هواهُ إماماً له يقتَدي به ، ويتَبعهُ . وتاسعها : أنَّه شبَّهَهُ بالكلب الذي هو أخَسُّ الحيواناتِ همَّةً ، وأسقَطُها نفساً ، وأبخَلُها ، وأشدُّهَا كَلَباً ، ولهذا سُمِّيَ كَلْبَاً . وعاشرها : أنَّه شبَّه لَهَثَهُ على الدنيا ، وعدمَ صبرِهِ عنها ، وجَزَعَهُ لفقْدِها ، وحرصَهُ على تحصيلِهَا بلهثِ الكلبِ في حالتي تَرْكِهِ ، والحَمْلِ عليه بالطَّردِ ، وهكذا هذا إنْ تُرِك فهو لهثَانُ على الدنيا ، وإنْ وُعِظَ وزُجِرَ فهو كذلك ، فاللَّهثُ لا يُفارقه فى كلِّ حالٍ كلهث الكلبِ ، قال ابن قتيبة : كلُّ شيءٍ يلهثُ فإنما يلهثُ مِن إعياءٍ أو عطشٍ إلا الكلب، فإنَّه يلهث في حالِ الكلال وحالِ الراحة وحالِ الصحة وحالِ المرض والعطش فضربه الله مثلاً لمن كذَّب بآياته، وقال: إنْ وعَظْتَه فهو ضالٌّ، وإن ترَكْتَه فهو ضالٌّ، كالكلب إنْ طردتَّه لهث وإنْ ترَكْتَه على حاله لهث ، وهذا التَّمثيلُ لم يقعْ بكلِّ كلبٍ وإنَّما وقع بالكلب اللاهِثِ ، وذلك أخسّ ما يكونُ وأشنَعهُ "

(١) العنكبوت : ٣٨ .

(٢) هود : ٥٣ .

(٣) الإسراء : ٥٩ .

(٤) الإسراء : ١٢ .

(٥) القصص : ١١ .

(٦) طه : ٩٦ .

وأمَّا أبصَرَهُ له [١] معنيان [٢] :

أحدهما : جعلهُ باصراً بالشيءِ ، أي : ذا بَصَرٍ بهِ ، كآيَةِ النَّهار ، وآيةِ ثمودَ .

والثاني : بمعنى رآهُ ، كقولِكَ : أبصَرْتُ زيداً ، وفي حديثِ أبي شُرَيح العَدويِّ [٣] : ( أُحدِّثُكَ قَولاً قام به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يومَ الفتحِ ، فسَمِعَتْهُ أُذُنَايَ / ، [٤٨/أ] ووَعَاهُ قلْبي ، وأبصَرَتهُ عَينايَ حينَ تكَلَّمَ بهِ ) [٤] .

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ [٥] ، قيل : المعنى : أبصِرْهُم وما يُقضَى عليهم مِن الأسر والقتلِ والعذابِ في الآخرةِ ، فسوف يُبْصرُونَك وما يُقضى لكَ مِن النَّصرِ والتَّأييدِ ، وحُسنِ العاقبةِ [٦].

والمُرادُ : تقريبُ المُبْصَرِ مِن المُخاطَبِ حتى كأنَّه نُصبَ عينيهِ ، ورأي ناظِرَيه .

والمقصود : أنَّ الآيَةَ أوجَبَتْ لهم البَصيرَةَ ؛ فآثروا الضَّلالَ والكُفرَ عن علمٍ ويقينٍ ولهذا . والله أعلم . ذكَرَ قِصَّتَهُم مِن بين قَصصِ سائرِ الأممِ في سورة ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ لأنَّه ذكَرَ فيها انقِسَامَ النُّفوسِ إلى الزَّكيَّةِ الرَّاشدةِ المُهتدِيةِ ، وإلى الفاجِرةِ الضَّالةِ الغَاويةِ وذكَرَ فيها الأصلَين : القَدَرَ والشَّرعَ ؛ فقال :﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [٧] ، فهذا قدرُهُ وقضَاؤُهُ ، ثمَّ قال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [٨] ، فهذا أمرُهُ ودينُهُ .

---

(١) في : ص : فله .

(٢) ينظر : الصحاح للجوهري (٥٩٢/٢) ، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢٥٣/١) ، والفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (١٠٥) .

(٣) خويلد بن عمرو بن صخر بن عبد العزى الخُزاعي العَدَوي ، أبو شُرَيح الكَعبي ، أسلمَ قبل فتحِ مكة ، وكان معه لواءُ خُزاعة يومَ الفتحِ ، نزل المدينة ، وتوفي فيها عام : ٦٨ هـ .
الاستيعاب لابن عبد البر (٢٥٥/٢) ، وأسد الغابة لابن الأثير (١٩٤/٢) ، والإصابة للذهبي (١٧٣/٧) .

(٤) رواه البخاري (١٠٤ و ١٨٣٢ و ٤٢٩٥) ، ومسلم (١٣٥٤) .

(٥) الصافات : ١٧٤ – ١٧٥ .

(٦) ينظر : تفسير الرازي (١٥٠/٢٦) ، وتفسير الماوردي (٧٣/٥) ، وتفسير أبي حيان (١٣١/٩) .

(٧) الشمس : ٨ .

(٨) الشمس : ٩ – ١٠ .

وثمودُ هداهُم ، فاستحبوا العَمَى على الهُدى ، فذكَرَ قِصَّتَهُم ليُبيِّنَ سوءَ عاقبةِ من آثرَ الفُجورَ على التَّقوى ، والتَّدسيَةَ على التَّزكيةِ ، والله أعلم بما أرادَ .

قالـوا : ويكفى في هذا إخبارُه تعالى عن الكفَّارِ انَّهم يقولونَ بعد ما عاينُوا العذابَ ووَردُوا القيامــةَ ، ورأوا مــا أخبَــرَتْ بهِ الرُّسُـلُ عليهم السلام : ﴿ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ (١) ، فأيُّ علمٍ أبينَ مِن علمِ من ورَدَ القيامةَ ، ورأى ما فيها ، وذاقَ عذابَ الآخرةِ ثمَّ لو رُدَّ إلى الدُّنيا لاختارَ الضَّلالَ على الهُدى ، ولم يَنْفَعهُ ما قد عَايَنَهُ ورآهُ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ﴾ (٢) ، فهل بعدَ نزولِ الملائكةِ عِياناً ، وتكليمِ المَوتى لهم ، وشهادتِهم للرَّسولِ بالصِّدقِ ، وحَشْرِ كلِّ شيءٍ في الدُّنيا عليهم ، مِنْ بيانٍ وإيضاحٍ للحقِّ وهُدىً ؟ ومع هذا فلا يؤمنونَ ، ولا يَنْقَادون للحقِّ ، ولا يُصدِّقون الرَّسولَ !

علم اليهود بصدق محمد صلى الله عليه وسلم وعدم شكهم في ذلك

ومَن نظرَ في سيرةِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مع قومِهِ ، ومع اليهودِ ، عَلِمَ أنَّهم كانوا جازمينَ بصدقِهِ صلى الله عليه وسلم ، لا يَشُكُّونَ أنَّه صادقٌ في قولِهِ : إنَّهُ رسولُ اللهِ ، ولكنِ اختارُوا الضَّلالَ والكفرَ على الإيمانِ .

قال المِسْوَرُ بن مَخْرَمَة رضي الله عنه (٣) لأبي جَهْلٍ (٤) ، وكان خالَهُ : أيْ خالُ ، هل كنتُم تَتَّهِمونَ محمداً بالكذبِ قبلَ أنْ يقولَ مَقالَتَهُ التي قالَهَا ؟ قال : يا ابن أخي ، واللهِ

(١) الأنعام : ٢٧ – ٢٨ .

(٢) الأنعام : ١١١ .

(٣) المِسْوَرُ بن مَخْرَمَة بن نَوفل بن عبد مناف بن زهرة ، أبو عبد الرحمن ، أمُّهُ : عاتِكة أخت عبد الرحمن بن عوف له صحبة ورواية ، ولد في السنة الثانية من الهجرة ، وتوفي عام : ٦٤ هـ . البداية النهاية لابن كثير (٨/٢٧٠) .

(٤) عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله المخزومي القُرشي ، أشدُّ الناس عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم ، أحدُ سادات قريش ، كان يُقالُ له : أبو الحَكَم ، فدعاه المسلمون : أبا جَهْل ، قتل في بدر عام : ٢ هـ . السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٦٦) .

**لقد كانَ محمدٌ فينَا . وهو شَابٌّ . يُدعى الأمين ؛ ما جَرَّبْنَا عليه كَذِباً قطُّ ، فلمَّا وخَطَهُ الشَّيبُ [١] لم يكن ليَكذِبَ على اللهِ ! قال : يا خالُ فلِمَ لا تَتَّبِعُونَهُ ؟ قال : يا ابن أخي تنازَعْنا نحنُ بنو هاشمٍ الشَّرفَ ، فأطْعَمُوا وأطعَمْنَا ، وسَقَوا وسقَينا ، وأجَارُوا وأجَرْنَا فلمَّا تجاثَينا على الرُّكبِ ، وكنَّا كفرَسَي رِهَانٍ ، قالوا : مِنَّا نَبيٌّ ، فمتى نُدْرِكُ هذهِ ؟ [٢] .**

**وهذا أمَيَّةُ بن أبي الصَّلت [٣] كان ينتظرهُ يوماً بيومٍ ، وعِلْمُهُ عندَهُ قبلَ مَبْعَثِهِ ، وقِصَّتُهُ مع أبي سفيانَ رضي الله عنه [٤] لمَّا سافرا معاً معروفَةٌ ، وإخبَارهُ برسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، ثمَّ لمَّا تيقَّنَهُ ، وعرَفَ صِدْقَهُ ، قال : " لا أُومنُ بنَبيٍّ مِن غَير ثَقيفٍ أبداً " [٥] .**

**وهذا هِـــرَقْلُ تيقَّــنَ أنَّه رسولُ الله ، ولـم يشكَّ فيه ، وآثَرَ الضَّلالَ والكُفرَ استبْقَاءً لمُلْكِه [٦] .**

**ولمَّا سأله اليهودُ عن التِّسعِ آياتِ البيِّناتِ ؟ فاخبَرَهُم بها ، قَبَّلوا يدَهُ ، وقالوا : نَشْهَدُ أنَّك نبيٌّ ، قال : فما يمنَعُكم أنْ تَتبَعُوني ؟ قالوا : إنَّ داود عليه السلام دعا أن لا يزالَ في ذُرِّيَّتِهِ نبيٌّ ، وإنَّا نخشى إن اتَّبَعنَاك أن تَقتُلَنا يَهودُ ؟ [٧] .**

---

(١) أي خالطه ، وفشا في شعره . لسان العرب لابن منظور (٤٢٤/٧) ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (٥٩١/٢) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٩١/١٤) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٢٠٧/٢) كلاهما عن المغيرة بن شعبة .

ورواية المِسْوَر بن مخرمة لم أقف عليها ، ولا أظنها تصحُّ ؛ لأنّ المِسْوَر وُلدَ في السنة الثانية ، وأبو جهل قتل في بدر في العام الثاني من الهجرة ! .

(٣) أُمَيَّة بن عبد الله بن أبي الصَّلت بن أبي ربيعة بن عبد عوف الثَّقفي ، من أهل الطائف ، ومن شعراء الجاهلية ، وكان مُطَّلعاً على الكتب المُنزَّلة ، ورَغبَ عن عبادة الأوثان ، وعن شُرب الخمر ،وكان يُخبر بمبعث نبيٍّ ، فلمَّا بلغَهُ أمرُ النبي صلى الله عليه وسلم كفَرَ به حَسَداً له . توفي في الطائف عام : ٥ هـ .

الشعر والشعراء لابن قتيبة (٣٠٥) ، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٢٥٥/٩) .

(٤) صخــر بن حــرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد منـاف ، أبو سفيان القُرشي الأمـوي ، سيد قبائل قريش وكنانة وأحد أشراف العرب وساداتهم في الجاهلية ، وصدرِ الإسلام ، ولد في مكة قبل عام الفيل بعشر سنين ، أسلم يوم فتح مكة ، وشهد حُنَيناً ، وتوفي عام : ٣٣ هـ .

الاستيعاب لابن عبد البر (٧١٤/٢) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٩/٣) ، والإصابة لابن حجر (٣٣٢/٣) .

(٥) روى هذه القصة : الطبراني في المعجم الكبير (٥/٨) ، والبيهقي في دلائل النبوة (١١٦/٢) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٥٦/٩) ، وغيرهم .

(٦) وقِصَّتُه في صحيح البخاري (٧ و ٥١ و ٢٩٤١ و ٤٥٥٣ و) ، وصحيح مسلم (١٧٧٣) .

(٧) رواه الترمذي (٢٧٣٣) ، وابن ماجه (٣٧٠٥) ، وأحمد (٢٣٩/٤) ، وغيرهم ، قال الترمذي : " هذا حديث

فهؤلاء قد تحقَّقُوا نُبوَّتَه ، وشهِدُوا له بها ، ومع هذا فآثَروا الكفرَ والضَّلالَ ، ولم يصيروا مسلمين بهذهِ الشَّهادةِ .

الإخبار بصحة رسالة الرسول لا يوجب الإسلام إلا أن يلتزم طاعته ومتابعته

فقيلَ : لا يصيرُ الكافرُ مُسلماً بمُجرَّد شهادةِ أنَّ محمدا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتى يشهدَ للهِ بالوحدانيَّة . وقيلَ : يصيرُ بذلك مسلماً .

وقيلَ : إن كانَ كُفرُهُ بتكذيبِ الرسولِ ، كاليهودِ صارَ مُسلماً بذلك ، وإن كان كُفرُهُ بالشِّركِ مع ذلك لم يَصِرْ مسلماً إلَّا بالشَّهادةِ بالتَّوحيدِ ، كالنَّصارى والمُشركين .

وهذه الأقوالُ الثَّلاثةُ في مذهبِ الإمامِ أحمدَ (١) ، وغيرِهِ (٢) .

وعلى هذا فإنَّما لم يُحكم لهؤلاءِ اليهودِ ، الذين شهدوا له بالرِّسالةِ ، بحكمِ الإسلامِ لأنَّ مُجرَّدَ الإخبَارِ بصحةِ رسالتِهِ لا يُوجبُ الإسلامَ ، إلَّا أن يلتَزِمَ طاعَتَهُ ومُتابعتَهُ ، وإلَّا فلو قال : أنا أعلمُ أنَّه نبيٌّ ، ولكنْ لا أتَّبِعهُ ، ولا أدينُ بدينِهِ ، كان من أكفَرِ الكفَّارِ كحالِ هؤلاءِ المَذكورين ، وغيرهِم (٣) .

وهذا مُتفقٌ عليه بين الصَّحابةِ والتَّابعين وأئِمَّةِ السُّنةِ ؛ أنَّ الإيمان لا يكفي فيه قَولِ اللسانِ بمُجرَّدِهِ ، ولا معرِفَةُ القلبِ مع ذلك ، بل لا بُدَّ فيه من عملِ القلبِ ، وهو حُبُّه لله ورسولِه ، وانقيادُهُ لدينِهِ ، والتزامُه طاعتَهُ ، ومتابعتَه رسوله ، وهذا خلافُ من زعمَ أنَّ الإيمانَ هو مُجرَّدُ مَعرفةِ القلبِ وإقْرَارِهِ (٤).

---

حسن صحيح " ، وقال الحاكم في المستدرك (٩/١) : " هذا حديث صحيح لا نعرف له علةً بوجه من الوجوه ولم يخرجاه " ، ولم يتعقبه الذهبي ، وضعَّفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي ص (٣٩١) .

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ١١١ .

(٢) المغني لابن قدامة (٢٨٩/١٢) ، والكافي (٣٢٤/٥) ، وشرح صحيح مسلم للنووي (١٤٩/١) ، وشرح الزركشي (٢٦٦/٦) ، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني (١١٠/١) ، والبحر الرائق لابن نجيم (١٣٩/٥) ، وينظر كلام المؤلف رحمه الله في : زاد المعاد (٦٣٩/٣) .

(٣) قال شيخ الإسلام رحمه الله فيمن علم في قلبه صحةَ رسالةِ الرسولِ ، لكنه لم يتبعه : " فإذا كان عالماً بأن محمداً رسولُ اللّه ، ولم يقترن بذلك حبهُ ، وتعظيمهُ ، بل كان يبغِضُه ويَحسُدُه ، ويستكبر عن اتِّباعه ، فإنَّ هذا ليس بمؤمنٍ به ، بل كافر به ، ومن هذا الباب : كفرُ إبليسَ ، وفرعونَ ، وأهلِ الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم ، وغير هؤلاء " مجموع الفتاوى (٢٧٠/١٠) .

(٤) قال شيخ الإسلام : " فمن قال : أنه يُصدِّق الرسولَ ، ويحبه ، ويعظمه بقلبه ، ولم يتكلم قط بالإسلام ، ولا فعل شيئاً من واجباته ، بلا خوف ، فهذا لا يكون مؤمناً في الباطن ، وإنما هو كافر ! وزعم جهم ومن وافقه أنه يكون =

وفيما تَقدَّمَ كفايةٌ في إبطالِ هذهِ المَقالَةِ ، ومن قال : الإيمان هو مُجردُ اعتقادِ صدقِ الرَّسولِ فيما جاء به ، وإن لم يلتزم مُتابَعتَهُ ، وعادَاه وأبغضَهُ وقاتَله ، لزِمَه أن يكون هؤلاء كلُّهم مؤمنين !.

وهذا إلزَامٌ لا مَحيدَ عنهُ ، ولهذا اضطربَ هؤلاء في الجوابِ عن ذلكَ لمَّا ورَدَ عليهم وأجابوا بمَا يَستحي العاقلُ من قولِهِ ، كقولِ بعضِهم : إنَّ إبليسَ كان مُستهزِئاً ، ولم يكن يُقِرُّ بوجودِ اللهِ ، ولا بأنَّ اللهَ ربُّهُ وخالقُهُ ، ولم يكن يعرف ذلك ، وكذلك فرعونُ وقومُهُ لم يكونوا يَعرفُونَ صِحَّةَ نبوَّةِ موسى ، ولا يَعتَقدُون وجُودَ الصَّانعِ ! (١) .

وهذه فضائحُ نعوذُ باللهِ من الوقوعِ في أمثالِها ، ونُصرةُ المَقالاتِ ، وتقليدُ أربَابِها تحملُ على أكثرَ من هذا ، ونعوذُ بالله من الخُذلانِ .

أقسام الكفر كما وردت في القرآن

قالوا : وقد بيَّنَ القرآنُ أنَّ الكفرَ أقسامٌ :

أحدُها : كفرٌ صادرٌ عن جَهلٍ وضلالٍ ، وتقليدِ الأسلافِ ، وهو كفرُ أكثرِ الأتباعِ والعوامِّ .

الثاني : كفرُ جُحودٍ ، وعنادٍ ، وقصْدِ مُخالفةِ الحقِّ ، ككُفرِ مَن تقدَّمَ ذِكْرُهُ (٢) .

وغالبُ ما يقعُ هذا النَّوعُ فيمن له رياسَةٌ علميَّةٌ في قومِهِ من الكفَّارِ ، أو رياسَةٌ سُلْطَانيَّةٌ أو مَن لهُ مآكِلٌ وأموالٌ في قومِهِ ، فيخافُ هذا على رياستِهِ ، وهذا على مَالِهِ ومآكِلِهِ فيُؤثِرُ الكفرَ على الإيمانِ عَمداً (٣).

---

مؤمناً في الباطن ، وأن مجرد معرفةِ القلبِ وتصديقِه يكون إيماناً يُوجب الثوابَ يوم القيامة بلا قولٍ ولا عملٍ ظاهرٍ ! وهذا باطل شرعاً وعقلاً " مجموع الفتاوى (١٤/١٢٠) .

(١) ينظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٣/١١١ و ٤/١٥٦) ، وجامع الرسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/٢٤٧) ، والصارم المسلول على شاتم الرسول لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣/٩٦٧) .

(٢) قال المؤلف رحمه الله في مدراج السالكين (١/٣٣٧) : " أمَّا كفر التكذيب ، فهو اعتقاد كذب الرسل ، وهذا القسم قليل في الكفار ، فإن الله تعالى أيد رسله وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ، ما أقام به الحجة وأزال به المعذرة ، قال الله تعالى عن فرعون وقومه ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤] " .

(٣) قال شيخ الإسلام رحمه الله : " فإنَّ الإنسانَ قد يعرف أنَّ الحقَّ مع غيره ، ومع هذا يجحد ذلك لحسده إياه ، أو لطلبِ عُلوهِ عليه ، أو لهوى النَّفسِ ، ويحملُه ذلك الهوى على أن يعتدي عليه ، ويردَّ ما يقولُ بكل طريقٍ ، وهو في قلبِهِ يعلمُ أنَّ الحقَّ معه ، وعامَّة من كذَّبَ الرُّسلَ علموا أنَّ الحقَ معهم ، وأنَّهم صادقون ، لكنْ إمَّا لحسدِهِم =

**الثالث : كفرُ إعراضٍ مَحضٍ ، لا يَنظرُ فيما جاءَ به الرَّسولُ ، ولا يُحبُّهُ ولا يُبْغِضُهُ ، ولا يُواليهِ ولا يُعادِيه ، بل هو مُعرضٌ عن مُتابعَتِهِ ومُعادَاتِه (١).**

**وهذان القسمانِ أكثرُ المُتكلِّمينَ (٢) يُنكِرُونَهما ، ولا يُثْبِتُونَ من الكفرِ إلَّا الأوَّلَ ويجعلون الثَّاني والثَّالثَ كفراً لدلالتِهِ على الأوَّلِ ، لا لأنَّه في / ذاتِهِ كفرٌ ، فليس عندهم الكفرُ إلَّا مُجردَ الجهلِ .** [٤٩/أ]

**ومن تأمَّلَ القرآنَ والسُّنةَ ، وسِيرَ الأنبياءِ في أممِهم ودعوتِهم لهم ، وما جَرى لهم معهُم جزَمَ بخطأ أهلِ الكلامِ فيما قالوه ، وعلِمَ أنَّ عامةَ كفر الأمم عن تيقن وعلم ومعرفة بصدق أنبيائهم ، وصحةِ دعواهم وما جاؤا به ، وهذا القرآنُ مملوءٌ من الإخبارِ عن المشركين عُبادِ الأصنامِ أنَّهم كانوا يُقرُّون بالله ، وأنَّه هو وحده ربُّهم وخالقُهم ، وأنَّ الأرض وما فيها له وحده ، وأنَّه ربُّ السموات السبع ، وربُّ العرش العظيمِ ، وأنَّه بيده مَلكوتُ كلِّ شيءٍ ، وهو يُجيرُ ولا يُجارُ عليه ، وأنَّه هو الذي سخَّرَ الشَّمس والقَمَر وأنزلَ المَطر ، وأخرجَ النَّبات (٣).**

---

وإمَّا لإرادَتِهم العلوَّ والرِّياسَة ، وإمَّا لحبِّهم دينَهم الذي كانوا عليه ، وما يحصل لهم به من الأغراضِ كأموالٍ ورياسةٍ وصداقَةِ أقوامٍ ، وغيرِ ذلك ، فيرونَ في اتِّباع الرُّسلِ تركَ الأهواءِ المحبوبةِ إليهم ، أو حصولَ أمُورٍ مَكروهةٍ إليهم ؛ فيكذبونهم ، ويعادُونهم فيكونون من أكفرِ النَّاسِ ، كإبليسَ وفرعونَ ، مع علمهم بأنَّهم على الباطل ، والرسل على الحق " مجموع الفتاوى (١٩١/٧) .

(١) قال المؤلف رحمه الله : " يُعرض بسمعِهِ وقلبِه عن الرَّسولِ ، لا يُصدِّقهُ ولا يُكذِّبهُ ، ولا يُواليهِ ولا يُعاديهِ ، ولا يُصغي إلى ما جاءَ به ألبتةَ ، كما قال أحدُ بني عبدِ ياليل للنَّبي صلى الله عليه وسلم : والله أقولُ لك كلمةً ، إن كنتَ صادقاً فأنت أجلُّ في عيني من أن أردَّ عليك ، وإن كنتَ كاذِباً فأنتَ أحقرُ من أن أُكلِّمَك " مدراج السالكين (٣٣٧/١) .

(٢) سبق التعريف بهم في ص : ٩٥ .

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " والمشركون من قريشٍ وغيرِهم ، الذين أخبرَ القرآنُ بشِركِهم ، واستحَلَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم دماءَهُم ، وأموالَهُم ، وسَبَى حَرِيمَهُم ، وأوجبَ لهم النَّار ، كانوا مُقرِّينَ بأنَّ اللهَ وحدَه خلَقَ السماوات والأرضَ ، كما قال : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان:٢٥] وقال : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:٦١] ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ

=

**والقرآنُ مُنادٍ عليهم بذلك ، مُحتجٌ بما أقرُّوا به من ذلك على صحة ما دعتهُم إليه رُسلُهُ ، فكيف يُقال : إنَّ القومَ لم يكونوا مُقرِّين قطُّ بأنَّ لهم ربّاً وخالقاً ؟! .**

**وهذا بهتان عظيمٌ ، فالكفر أمرٌ وراء مُجردِ الجهل ، بل الكفر الأغلظ هو ما أنكره هؤلاء ، وزعموا أنَّه ليس بكفرٍ.**

**قالوا : والقلبُ عليه واجبانِ لا يصيرُ مُؤمناً إلا بهما جميعاً :**

**واجبُ المعرفةِ والعِلْمِ ، وواجبُ الحُبِّ والانقيادِ والاستسلام ، فكما لا يكون مُؤمناً إذا لم يأتِ بواجبِ العِلم والاعتقاد ، لا يكونُ مؤمناً إذا لم يأتِ بواجبِ الحُبِّ والانقياد والاستسلام ، بل إذا ترك هذا الواجبَ مع علمِه ومعرفتِه به ،كان أعظمَ كفراً ، وأبعدَ عن الإيمانِ من الكافرِ جَهْلاً ، فإنَّ الجاهلَ إذا عرفَ وعَلِمَ فهو قريبٌ إلى الانقياد والاتباع وأمَّا المُعاندُ فلا دواءَ فيه ، قال تعالى : ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [1].**

**قالوا : فحُبُّ اللهِ ورسولهِ . بل كونُ اللهِ ورسولِهِ أحَبَّ إلى العبدِ من سواهما . لا يكونُ العبدُ مُسلماً إلا به .**

**ولا ريب أنَّ الحُبَّ أمرٌ وراءَ العِلمِ ، فما كلُّ مَن عرفَ الرَّسولَ أحبَّهُ ، كما تقدَّم .**

**قالوا : وهذا الحاسِدُ يحمِلُهُ بغضُ المَحسودِ على مُعادَاتِهِ [2] ، والسَّعي في أذاهُ بكلِّ مُمكنٍ ، مع عِلمِهِ بفضلِهِ وعِلْمِهِ ، وأنَّه لا شيءَ فيه يُوجبُ عداوتَهُ إلا مَحاسنُهُ وفضائِلُهُ .**

---

إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٩١] وكانَ المُشركُونَ الذِينَ جعَلُوا معَهُ آلِهَةً أُخرى مُقِرِّينَ بِأَنَّ آلِهَتَهُم مَخْلُوقَةٌ ، وَلَكِنَّهُم كانُوا يتَّخِذُونَهُم شُفَعَاءَ ، ويتَقَرَّبُونَ بعبَادَتِهِم إليهِ " .

مجموع الفتاوى (١/١٥٥)

(١) آل عمران : ٨٦ .

(٢) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية الحديث المخرج في السنن (دَبَّ إليكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُم : الحَسَدُ والبَغْضَاءُ =

ولهذا قيلَ للحاسدِ : عدوُّ النِّعَمِ والمَكارمِ (١) .

فالحاسدُ لم يحملْهُ على مُعاداةِ المَحسودِ جهلُهُ بفضلِهِ وكمالِهِ ، وإنَّما حمَلَهُ على ذلك إفسادُ قصدِهِ وإرادَتِهِ ، كما هي حالُ الرُّسلِ ووَرَثَتِهِم مع الرُّؤساءِ الذين سلَبَهُم الرُّسلُ ووَارِثُوهم رئاسَتَهُم الباطلةَ ، فعَادَوهم ، وصدُّوا النُّفوسَ عن مُتابعَتِهِم ، ظنّاً أنَّ الرِّيَاسةَ تبقى لهم وينفَرِدُون بها ، وسُنَّةُ الله في هؤلاءِ أن يسلُبَهُم رياسةَ الدُّنيا والآخرةِ ويُصغِّرَهَم في عيونِ الخلقِ مُقابَلَةً لهم بنقيضِ قصدِهِم ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (٢)

أصحاب القولين في استلزام العلم للهداية من عدمه لم يخرجوا عن موجب العلم فكلهم مصيب وإنما اختلافهم بسبب عدم التوارد على محل واحد واطلاقهم لألفاظ مجملة

فهذا موردُ احتجاجِ الفَريقينِ ، وموقفُ أقدامِ الطَّائفتَين ، فاجلسْ أيُّها المُنْصِفُ فيها مجلِسَ الحكومَةِ ، وتَوَخَّ بعلمِكَ وعدلِكَ فَصْلَ هذه الخصومَةِ ، فقد أدْلَى كلٌّ منهما بحُجَجٍ لا تُعَارَضُ ولا تُمَانَعُ ، وجاءَ ببيِّنَاتٍ لا تُرَدُّ ولا تُدَافَعُ ، فهل عندكَ شيءٌ غيرُ هذا يحصُلُ به فصلُ الخِطابِ ، وينكَشِفُ به لطَالبِ الحقِّ وجهُ الصَّوابِ ؟ فيُرضِي الطَّائفتَين ويزولُ به الاختلافُ من البَينِ ، وإلَّا فَخَلِّ المُطيَّ وحادِيهَا ، وأعطِ القَوسَ باريها :

دَعِ الهَوى لأُناسٍ يُعرَفُونَ به  قَدْ كابَدُوا الحُبَّ حتَّى لانَ أصعَبُهُ (٣)

---

وهي الحَالِقَةُ ...) ، ثم قال " وقرن في الحديث الأول الحسد بالبغضاء؛ لأن الحاسد يكره أولاً فضل اللّه على ذلك الغير، ثم ينتقل إلى بغضه، فإن بغض اللازم يقتضي بغض الملزوم ، فإن نعمةَ اللّه إذا كانت لازمةً وهو يُحبُّ زوالها هي لا تزول إلا بزواله ، أبغضَهُ وأحَبَّ عدمَهُ ، والحسد يوجب البغي، كما أخبر اللّه تعالى عمن قبلنا: أنهم اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، فلم يكن اختلافُهم لعدمِ العلمِ ، بل علِمُوا الحقَّ ، ولكنْ بغى بعضُهم على بعضٍ ، كما يبغي الحاسد على المحسود " مجموع الفتاوى (١٠/١٢٦-١٢٧) .

(١) نثر الدُّر للآبي (٥٣/٢) ، والتذكرة الحمدونية لابن حمدون (١٨١/٢) .

(٢) فصلت : ٤٦ . وقد فصَّلَ المؤلف رحمه الله في الأسبَابِ المانِعةِ من قَبُولِ الحقِّ ، وقال : " ومن أعظم هذه الأسبابِ : الحسدُ فإنَّه داءٌ كامِنٌ في النَّفسِ ، ويرى الحاسدُ المحسودَ قد فُضِّلَ عليه ، وأُوتِي ما لم يُؤتَ نظيرُه ، فلا يدَعُه الحسدُ أن ينقَادَ له ، ويكونَ من أتباعِهِ ، وهل منعَ إبليسَ من السجود لآدمَ إلا الحسد ، فإنَّه لما رآهُ قد فُضِّلَ عليه ، ورُفِعَ فوقَهُ غصَّ بريقِهِ ، واختارَ الكفر على الإيمانِ ، بعد أن كان بين الملائكة ، وهذا الداءُ هو الذي منعَ اليهودَ مِن الإيمانِ بعيسى ابن مريم وقد عَلِمُوا عِلماً لا شكَّ فيه أنَّهُ رسولُ الله ، جاءَ بالبيِّنَات والهدى ، فحمَلَهم الحسدُ على أن اختاروا الكفر على الإيمانِ ، وأطبقوا عليه " هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (٢٤٥/١) .

(٣) البيت لعلي بن أفْلَح العَبْسي ، ينظر : المنتظم لابن الجوزي (٣٣٩/١٧) ، والمدهش له (٤٣٣) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣٢٧/٣٦) ، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي (٢٦٤/٥) .

ومَن عَرَفَ قَدرَهُ ، وعرَفَ لذي الفَضلِ فَضلَه ، فقدْ قَرعَ بابَ التَّوفِيقِ ، واللهُ الفتَّاحُ العليمُ ، فنقولُ وباللهِ التَّوفيق :

كلا الطَّائفتين ما خَرَجَت عن مُوجَبِ العلمِ ، ولا عَدَلَت عن سَنَن الحقِّ ، وإنَّما الاختلافُ والتَّبايُنُ بينهما من عَدمِ التَّوارُدِ على محلٍّ واحدٍ ، ومِن إطلاقِ ألفاظٍ مُجمَلَةٍ بتَفصِيلِ معانِيها يَزولُ الاختلافُ ، ويَظهرُ أنَّ كلَّ طائِفةٍ موافقةٌ للأُخرى على نَفسِ قولِها .

وبيانُ هذا أنَّ المُقتَضيَ قِسمَان [1]:

مُقتَضٍ لا يَتَخلَّفُ عنهُ [ مُوجَبهُ ومقتضاهُ ، بل يَستلزِمُهُ استلزامَ العلَّةِ التَّامَّةِ لمَعلولِها .

ومُقتَضٍ غيرُ تامٍّ ؛ يتخلَّفُ عنه ] [2] مقتضاهُ لقُصورهِ في نفسهِ عن التَّمَامِ ، أو لفوَاتِ شرطِ اقتِضَائِه ، أو قيامِ مانعٍ مَنَعَ تأثيرَه .

فإن أُريدَ بكونِ العِلمِ مُقتَضِياً للاهتداءِ والاقتضاءِ التَّامِّ الذي لا يتخلَّف عنه أثَرُهُ ، بل يلزَمُه الاهتداءُ بالفعلِ ، فالصَّوَابُ قولُ الطَّائفةِ الثَّانيةِ ؛ وأنَّه لا يلزمُ مِن العلمِ حصولُ الاهتداءِ المطلوبِ .

وإن أُريدَ بكونِهِ مُوجِباً ، أنَّهُ صالحٌ للاهتداءِ مُقتَضٍ ، وقد يتخلَّفُ عنه مُقتضاهُ لقصورهِ أو فواتِ شرطٍ أو قيامِ مانعٍ . فالصَّوابُ قولُ الطَّائفةِ الأولى .

---

(١) دلالةُ الاقتضاءِ هي : دلالةُ الكلام على معنىً لازم مسكوتٍ عنه ، لا يستقيمُ الكلامُ إلا بتقديره ، وهذه الدَّلالةُ من ضرورةِ اللفظ ، وليس منطوقا بها ، إما من حيثُ أنَّ المتكلم لا يكون صادقاً إلا بها ، كقوله صلى الله عليه وسلم : (لا عمل إلا بنيَّةٍ ) ، أو من حيثُ امتناعُ وجودِ اللفظ شرعاً إلا بها ، كقوله تعالى : ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ﴾ [البقرة:١٨٤] ، أي فأفطرَ فعدةٌ ، أو من حيثُ يمتنع وجودُه عقلاً ، كقوله تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء:٢٣] فهذا يتضمن إضمارَ الوطءِ ويقتضيهِ .
ينظر : المستصفى في علم الأصول للغزالي (٢٦٣) ، وروضة الناظر لابن قدامة (٢٦٢) .

(٢) سقط من : ص .

أسباب تخلف العمل بمقتضى العلم

وتفصيلُ هذه الجُملةِ أنَّ العلمَ بكونِ الشيءِ سبباً لمَصلحةِ العبدِ ، ولذَّتِهِ وسرورِهِ قَد يتخلَّفُ عنه عمَلُهُ بمُقتضَاهُ لأسبابٍ عديدةٍ :

السبب الأول ضعف المعرفة

السَّبَبُ الأولُ : ضعفُ معرفتِهِ (١).

السبب الثاني عدم الأهلية

السَّبَبُ الثَّاني : عدمُ الأهليَّةِ ، وقَد تكونُ معرفتُهُ به تامَّةً ، لكنْ يكونُ مشروطاً بزكاةِ المَحلِّ وقبولِهِ للتَّزكيةِ ، فإذا كانَ المَحلُّ غيرَ زَكيٍّ ، ولا قابلٍ للتَّزكيةِ ، كانَ كالأرضِ الصَّلدَةِ التي لا يُخالِطُها المَاءُ ؛ فإنَّهُ يمتنعُ النَّباتُ منها لعدمِ أهليَّتِها وقَبُولِهَا ، فإذا كانَ القلبُ قاسياً (٢) لا يقبَلُ تزكيَةً ، ولا تؤثِّرُ فيه النَّصائحُ ، لم يَنتفعْ بكلِّ علمٍ يعلمُهُ ، كما لا تُنبِتُ الأرضُ الصَّلبةُ ولو أصابها كلُّ مَطرٍ وبُذِرَ فيها كلُّ بَذْرٍ (٣) ، كما قالَ تعالى في هذا الصِّنفِ من النَّاسِ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ (٤)، وقالَ تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (٥) ، وقالَ تعالى : ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) . وهذا في القُرآنِ كثيرٌ .

---

(١) بيَّن المؤلف رحمه الله الأسبابَ المانعةَ من قَبُولِ الحقِّ ، وذَكَرَ منها : الجَهلَ ، ثم قال : "وهذا السَّببُ هو الغالبُ على أكثرِ النُّفوسِ ؛ فإنَّ من جَهَلَ شيئاً عادَاهُ وعادَى أهلَهُ " هداية الحيارى (١/٢٤٤) .

(٢) في : د ، ص : قاسياً حَجَريًّا .

(٣) قال المؤلف رحمه الله في : طريق الهجرتين (٢٢٢) : " ومن الأرض أرضٌ قِيعانٌ ، وهي المستوية التي لا تُنبت ، إمَّا لكونها صَبَخَةً ، أو رِمَالاً ، ولا يستقرُّ فيها الماءُ ، فإذا وقع عليها الماءُ ذهَبَ ضائعاً لم تُمْسِكْهُ لشُربِ النَّاسِ ، ولم تُنْبِت به كَلأً ؛ لأنَّها غيرُ قابلةٍ لحفظِ الماءِ ، ولا لنباتِ الكلأِ والعُشبِ ، وهذا حالُ أكثرِ الخلقِ ، وهم الأشقياءُ الذين لم يقبلوا هُدى اللهِ ، ولم يرفعوا به رأساً ، ومن كان بهذه المَثابةِ فليسَ من المسلمينَ ، بل لا بُدَّ لكُلِّ مسلمٍ أن يزكو الوحي في قلبِهِ ؛ فيُنبتُ من العمل الصَّالحِ ، والكَلِمِ الطَّيِّبِ ، ونَفْعِ نفسِه وغيرِهِ بحَسَبِ قُدرته ، فمن لم يُنبت قلبُهُ شيئاً من الخيرِ ألبتَّةُ ، فهذا من أشقى الأشقياء " .

(٤) يونس : ٩٦ – ٩٧ .

(٥) الأنعام : ١١١ .

(٦) يونس : ١٠١ .

**فإذا كان القلبُ قاسياً غليظاً جافياً لا يَعمَلُ فيه العِلمُ شيئاً ، وكذلك إذا كان مريضاً مَهيناً مائيًّا ، لا صلابةَ فيه ، ولا قوَّةَ ، ولا عزيمَةَ لم يُؤثِّر فيه العلمُ (١) .**

السبب الثالث قيام مانع مثل الحسد والكِبر

**السَّبَبُ الثَّالِثُ : قيامُ مانِعٍ ؛ وهو إمَّا حسدٌ أو كِبْرٌ ، وذلك مانِعُ إبليسَ مِن الانقيادِ للأمرِ وهو داءُ الأوَّلِينَ والآخِرين إلَّا مَن عَصمَ اللهُ ، وبه تخلَّفَ الإيمانُ عن / اليهودِ الذين شاهَدُوا رسولَ اللهِ ، وعرَفُوا صحَّةَ نبوَّتِهِ ومَن جَرَى مجرَاهُم ، وهو** [٥٠/أ] **الذي مَنَعَ عبدَ الله بن أُبَيٍّ مِن الإيمانِ (٢) ، وبه تخلَّفَ الإيمانُ عن أبي جَهلٍ (٣) ، وسائِرِ المُشركين فإنَّهم لم يكونُوا يرتابونَ في صِدْقِهِ ؛ وأنَّ الحقَّ معهُ ، ولكنْ حملهم الكِبْرُ والحَسَدُ على الكفرِ ، وبه تخلَّفَ الإيمانُ عن أُميَّةَ (٤) وأضرَابِهِ ممَّن كانَ عندَهُ علمٌ بنبوَّةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلّم (٥) .**

---

(١) تحدث المؤلف رحمه الله عن القلوب عند قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ [النور:٣٥] ، فذكرَ قلبَ المؤمن ، ثم قال : "وبإزاءِ هذا القلبِ قلبانِ مذمُومَانِ في طَرَفي نقيضٍ : أحدهما : قلبٌ حَجريٌّ قاسٍ لا رحمة فيه ، ولا إحسانَ ولا برَّ ، ولا له صفاءٌ يَرى به الحقَّ ، بل هو جبارٌ جاهلٌ ، لا عِلمَ له بالحقِّ ، ولا رحمةٍ للخلق . وبإزائه قلبٌ ضعيفٌ مائيٌّ ، لا قُوَّةَ فيه ، ولا استمساكَ ، بل يقبلُ كلَّ صُورةٍ ، وليس له قوةُ حِفظِ تلك الصور ، ولا قوةُ التأثيرِ في غيرِه ، وكلُّ ما خالَطَهُ أثَّرَ فيه من قويٍّ وضعيفٍ ، وطيِّبٍ وخبيثٍ " . الوابل الصيب من الكلم الطيب (٥٣) .

(٢) عبد الله بن أبيّ بن مالك بن الحارث بن عبيد الخزرجيُّ ، المعروف بابن سلول ، وسلول أمُّ أبيه : أبيّ ، وهي امرأة من خُزاعةَ ، وقد أظهر الإسلام بعد غزوة بدر ، وكان رأس المنافقين ، توفي في المدينة عام : ٩ هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (٥٤٠/٣) .

(٣) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٩٢.

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٩٣ .

(٥) ذكر الرازي في تفسيره (٦٤٨/٣) أسبابَ الحسدِ ومنها قوله : " أن يكونَ في طبيعتِه أنْ يستخدمَ غيرَهُ ، فيريدُ زَوالَ النِّعمةِ من ذلك الغَيرِ ، ليقدِرَ على ذلك الغَرَضِ ، ومن هذا البابِ كان حسَد أكثرِ الكُفَّارِ للرسول عليه الصلاة والسلام ، إذ قالوا : كيفَ يتقدَّمُ علينا غلامٌ يتيمٌ ؟ وكيفَ نُطَأطِئُ لهُ رؤوسَنَا ؟ فقالوا : ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزُّخرُف:٣١] وقال تعالى يصفُ قولَ قريشٍ : ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ [الأنعام:٥٣] ، كالاستِحقَارِ بهم ، والأنَفَةِ منهم" .

وقد تقدَّم كلام المؤلف رحمه الله تعالى عن حسد مشركي قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ص : ٢٩٢ .

السبب الرابع مانع الرياسة والملك

**السَّبَبُ الرَّابِعُ : مانِعُ الرِّياسَةِ والمُلكِ ، وإنْ لم يَقُم بصاحبِهِ حسدٌ ولا تكبُّرٌ عن الانقيادِ للحقِّ ، لكنْ لا يُمكِنُ أنْ يجتَمِعَ له الانقيادُ ومُلكُهُ ورياسَتُهُ ، فيَضِنُّ بمُلكِهِ ورياستِهِ كحالِ هِرَقلَ وأضرَابِهِ مِن ملوكِ الكفَّارِ ، الذينَ علِمُوا نبوَّته وصِدقَه ، وأقرُّوا بها باطناً وأحبُّوا**

**الدُّخولَ في دِينِه لكنْ خافُوا على مُلكِهم ! (١) .**

**وهذا داءُ أربابِ المُلْكِ والولايَةِ والرِّياسَةِ ، وقَلَّ مَن نجا منه إلَّا مَن عَصَمَ اللهُ ، وهو داءُ فرعونَ وقومِه ، ولهذا قالُوا : ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ (٢) أنِفُوا أنْ يؤمِنُوا ويتَّبِعوا موسى وهارونَ وينقادُوا لهُما ، وبنو إسرائيلَ عبيدٌ لهم (٣) .**

**ولهذا قِيلَ : إنَّ فرعونَ لمَّا أرادَ مُتابَعَةَ موسى وتصديقَهُ ، شاورَ هامانَ وزيرَهُ ، فقال : بينما أنتَ إلهٌ تُعبَدُ تصيرُ عبداً تَعبُدُ غيرَكَ ! فأَبَى العبوديَّةَ واختَارَ الرِّياسَةَ والإلهيَّةَ المُحالَ ! .**

السبب الخامس مانع الشهوة والمال

**السَّبَبُ الخامسُ : مانِعُ الشَّهوةِ والمالِ ، وهو الذي منعَ كثيراً من أهلِ الكتابِ من الإيمانِ خِوفاً من بُطلانِ مَأْكلِهم وأموالِهم التي تصيرُ إليهم من قومهم (٤).**

---

(١) جاء في صحيح البخاري (٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة دخول أبي سفيان رضي الله عنه مع ركبٍ من قريشٍ على هِرَقْل ، حيث قال هِرَقلُ : ( يا معشرَ الرُّومِ هل لكم في الفَلاحِ والرُّشْدِ ، وأن يَثْبُتَ مُلكُكُم فتُبايعوا هذا النَّبي ؟ فحاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوحشِ إلى الأبوابِ ، فوجَدُوها قد غُلِّقَتْ ، فلمَّا رأى هِرَقْلُ نفرَتَهم ، وأيِسَ من الإيمان ، قال : رُدُّوهم عليَّ ، وقال لهم : إنِّي قلتُ مَقالتِي آنِفاً أختبرُ بها شِدَّتَكُم على دِينكم ، فقد رأيتُ فسجدُوا لهُ ، وَرَضُوا عنه ) . قال المؤلف رحمه الله : " فإن هِرَقْلَ عرفَ الحقَّ ، وهَمَّ بالدُّخول في الإسلامِ فلم يطاوِعهُ قومُهُ ، وخافَهُم على نفسِه فاختَارَ الكُفرَ على الإسلامِ بعدَ ما تبيَّنَ له الهدى" هداية الحيارى (٢٤٥/١) .

(٢) المؤمنون : ٤٧ .

(٣) قال السعدي رحمه الله في تفسيره (٥٥٢) : " فكيف نكون تابعينَ بعدَ أن كُنَّا مَتبُوعين ؟ وكيف يكونُ هؤلاءِ رُؤساءَ علينا ؟ ، ونظيرُ قولِهم قولُ قومِ نوحٍ : ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١] ، ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود:٢٧] ، ومن المعلوم أن هذا لا يصلح لدفع الحق ، وأنَّه تكذيبٌ ومُعانَدةٌ "

(٤) "وليس بمُستَنكَرٍ أن تمنعَ الرِّياسةُ والمناصبُ والمآكلُ للرُّؤساءِ ، ويمنعَ الأتْباعَ تقليدَهم ، بل هذا هو الواقعُ ، والعقلُ لا يستَشْكِلهُ " هداية الحيارى للمؤلف (٢٦٥/١) .

وقَد كانت كفَّارُ قريشٍ يَصُدُّونَ الرَّجلَ عن الإيمانِ بحسبِ شهوَتِه ، فيَدخلُونَ عليه منها فكانوا يقولونَ لمَن يُحبُّ الزِّنَا والفواحشَ : إنَّ محمَّداً يُحرِّمُ الزِّنَا ويُحرِّمُ الخَمرَ ، وبهِ صَدُّوا الأعشى الشَّاعِرَ (١) عن الإسلام (٢) .

وقد فاوَضتُ غيرَ واحدٍ مِن أهلِ الكتَابِ في الإسلامِ وصحَّتِهِ ، فكانَ آخِرَ ما كلَّمَنِي بهِ أحدُهم : أنا لا أترُكُ الخمرَ وأشربُها آمِناً ، فإذا أسلَمتُ حِلْتُم بيني وبينها وجلدتموني على شُربِها .

وقالَ آخر منهم بعدَ أنْ عرَفَ ما قُلتُ له : لي أقاربُ أربابُ أموالٍ ، وإنِّي إنْ أسلَمتُ لم يَصِلْ إليَّ منها شيءٌ ، وأنا أُؤَمِّلُ إرثَهُم ! أو كما قال (٣) .

ولا ريبَ أنَّ هذا القَدْرَ في نفوسِ خلقٍ كثيرٍ من الكفَّارِ فتتَّفِقُ قوَّةُ داعِي الشَّهوةِ والمالِ وضعفِ داعِي الإيمانِ ، فيُجِيبُ داعِي الشهوةِ والمالِ ، ويقولُ : لا أرغبُ بنفسِي عن آبائي وسَلَفِي .

---

(١) أعشى قيس ، ميمون بن قيس ، تقدَّمت ترجمته ص : ٧٢ .

(٢) أدركَ الأعشى الإسلامَ آخرَ عُمُرِه ، فقدِمَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد الحديبية يريد الإسلام ، فلقيه بعض المشركين ، فقالوا له : إنَّه يُحرِّمُ عليك الخمرَ والزنا والقِمَارَ ! فقال الأعشى : أما الزنا فقد تركني ولم أتركه وأما الخمر فقد قضيتُ منها وطرَاً ، وأما القمار فلعليّ أصيب منه خَلَفَاً . ثم لما رأو عزمَه أغروه بمئة ناقةٍ ؛ فرجع ولم يُسلم ، على أن يعود في قابلٍ ، فمات في عامه !

وقد جاء بقصيدته المشهورة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيها :

مَتَى مَا تُنِيخِي عِنْدَ بَابِ ابْنِ هَاشِمٍ ... تُرِيحِي وَتَلْقَيْ مِنْ فَوَاضِلِهِ نَدَى
نَبِيٌّ يَرَى مَا لاَ يَرَوْنَ وَذِكْرُهُ ... أَغَارَ لَعَمْرِي فِي البِلاَدِ وَأَنْجَدَا
لَهُ صَدَقَاتٌ مَا تَغِيبُ وَنَائِلٌ ... وَلَيْسَ عَطَاءُ اليَوْمِ مَانِعَهُ غَدَا

الشعر والشعراء لابن قتيبة (١٥٩) ، والتذكرة الحمدونية لابن حمدون (٣٦٥/٨) .

(٣) قال المؤلف رحمه الله في : أحكام أهل الذمة (٨٥٥/٢) : " ولا ريبَ أن حملَ قولِه : (لا يَرِثُ المسلمُ الكافرَ ) على الحربِيِّ أولى وأقربُ مَحملاً ، فإنَّ في توريثِ المسلمين منهم تَرغيباً في الإسلام ، لمن أرادَ الدُّخولَ فيه من أهلِ الذِّمةِ فإنَّ كثيراً منهم يمنعُهُم من الدُّخولِ في الإسلامِ خوفَ أن يموت أقاربُهم ولهم أموالٌ ، فلا يرثونَ منهم شيئاً . وقد سمعنا ذلك منهم من غيرِ واحدٍ منهم شِفَاهَاً ، فإذا عَلِمَ أنَّ إسلامَهُ لا يُسقطُ مِيراثَهُ ضعُفَ المانع من الإسلامِ وصارت رغبَتُه فيه قويَّة " .

السبب السادس
محبة الأهل والأقارب والعشيرة

السبب السادس : مَحبةُ الأهلِ والأقاربِ والعَشيرةِ ، يرى أنَّه إذا اتَّبَعَ الحقَّ وخالفَهم أبعدُوه ، وطردُوه عنهم ، وأخرَجُوهُ من بين أظهُرِهم .

وهذا سَببُ بقاءِ خلقٍ كثير على الكفرِ بين قومِهم وأهالِيهم وعشَائِرهم .

السبب السابع
محبة الدار والوطن

السبب السابع : محبةُ الدَّارِ والوطنِ ، وإن لم يكن بها عشيرةٌ ، ولا أقاربُ ، لكن يرى أنَّ في متابعة الرَّسول خُروجَهُ عن دارِهِ ووطَنِه إلى دارِ الغُربةِ والنَّوى ، فيَضِنُّ بوطنِهِ ودَارِه [1] .

السبب الثامن
التَّخيُّل أن في الإسلام ومتابعة الرسول إزراءً وطعناً منه على آبائه وأجداده

السبب الثامن : تخيُّلُه أنَّ في الإسلام ومُتابَعةِ الرَّسولِ إزرَاءً وطَعنَاً منه على آبائهِ وأجْدَادِهِ وذمَّاً لهم ، وهذا هو الذي منعَ أبا طالبٍ وأمثالَه عن الإسلامِ ، استعظموا آباءَهُم وأجدَادَهُم أن يشهدوا عليهم بالكفرِ والضَّلالِ ، وأن يختاروا خِلافَ ما اختارَ أولئكَ لأنفسِهم ، ورأَوا أنَّهم إن أسلموا سفَّهوا أحلامَ أولئكِ ، وضلَّلوا عقولَهُم ، ورَمَوهُم بأقبحِ القبائحِ ، وهو الكفرُ والشِّركُ .

ولهذا قال أعداءُ الله لأبي طالبٍ [2] عند الموتِ : أترغبُ عن ملَّةِ عبد المطلب [3] ؟

---

(١) إنَّ الدين الإسلامي لا يُغيِّر محبةَ الوطن والبلد في قلب المرءِ الذي وُلِدَ فيه ونشأ على تُرابه ، لأنَّ محبة الوطن مغروسة في فِطَرِ بني آدمَ ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحنُّ لمكة ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمكة : ( ما أطيبَكِ من بلدٍ ، وما أحبَّك إليَّ ، ولولا أنَّ قَومِي أخرجُوني منكِ ما سكنْتُ غيرَكِ ) رواه الترمذي ، وصححه الألباني في : صحيح الترمذي (٣/٢٥٠) ، لكنَّ الإسلام يُنكرُ أن تكونَ أواصرَ الترابط والتراحم والأخوَّة مَبنيَّةً على الانتماءِ إلى قُطْرٍ أو بلد ، أو أن يؤثِّرَ هذا الانتماءُ سلباً على دينِ المرء وعقيدته وعبادته ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤] .

(٢) عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم القرشي ، أحدُ ساداتِ قريشٍ عمُّ النبي صلى الله عليه وسلم ، وكافلُهُ ومُربِّيه نشأ في بيته ، وحَمَاهُ من قريش ، وصدَّهم عنه ، ووعد بحمايته ونُصرتِه حتى موته ، توفي في السنة الثالثة قبل الهجرة الطبقات الكبرى لابن سعد (١/١١٩) ، والأعلام للزركلي (٤/١٦٦)

(٣) عبد المطلب بن هاشم القرشي ، أبو الحارث ، جدُّ النبي صلى الله عليه وسلم ، أحدُ ساداتِ قريشٍ ، وزعيمها في الجاهلية ، كانت له حظوة في قومه ، فكانت له السقاية والرفادة ، وهو أحد سادات العرب ، توفي في السنة =

**فكانَ آخرَ ما كلَّمَهُم به : هو على ملَّةِ عبد المطلب [(١)] !**

**فلم يَدْعُهُ أعداءُ اللهِ إلا من هذا البابِ ؛ لعِلمِهم بتعظيمِه أباهُ عبدَ المطلب ، وأنَّه إنَّما حازَ الفَخرَ والشَّرَفَ به ، فكيف يأتي أمراً يلزمُ منه تَنقِيصَهُ وذَمَّهُ ؟**

**ولهذا قال : " لولا أنْ تكونَ مَسَبَّةً على بني عبد المطلب لاقرَرتُ بها عينَكَ " [(٢)] ، أو كما قال .**

**وهذا شِعرُهُ يُصرِّحُ فيه بأنَّهُ قد عَلِمَ وتحقَّقَ نُبوةَ محمدٍ صلى الله عليه وسلم وصِدْقَهُ كقولِه [(٣)] :**

**ولقَدْ عَلِمْتُ بأنَّ دِينَ محمدٍ ... مِنْ خَيرِ أديَانِ البَرِيَّةِ دِيْنَا**
**لولا المَلامَةُ أو حَذَارُ مَسَبَّةٍ ... لوَجَدْتَنِي سَمْحَاً بذاكَ مُبِينَا**

**وفي قصِيدَتِهِ اللَّامِيةِ [(٤)] :**

---

الخامسة والأربعين قبل الهجرة . الطبقات الكبرى لابن سعد (٨١/١) .

(١) في صحيح البخاري (١٣٦٠) ومسلم (٣٩) : " لمَّا حضرتْ أبا طالبٍ الوفَاةُ جاءه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فوَجَدَ عنده أبا جَهْل بن هِشام وعبدَ الله بن أبي أُمَيَّة بن المُغيرةِ ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالبٍ : يا عمِّ ، قُلْ : لا إله إلا اللهُ ، كلمةً أشْهدُ لك بها عند اللهِ ، فقال أبو جَهلٍ وعبدُ الله بن أبي أُمَيَّةَ : يا أبا طالبٍ أتَرغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المطلب ؟ فلم يَزلْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَعرِضُها عليهِ ، ويعودَانِ بتلكَ المَقالةِ حتى قال أبو طالبٍ آخرَ ما كَلَّمَهُم : هو على مِلَّةِ عبد المطلب ، وأبى أن يقولَ : لا إله إلا الله ! فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : أمَا والله لأستَغفِرَنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ [التوبة:١١٣] الآية .

(٢) في صحيح مسلم (٤٢) : "عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لعَمِّهِ : قل لا إله إلا الله أشهَدُ لك بها يومَ القيامةِ ، قال : لولا أن تُعَيِّرِني قريشٌ ، يقولون : إنَّما حَمَلَه على ذلك الجَزَعُ ، لأقْرَرتُ بها عينُكَ فأنزلَ الله : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦] " .

(٣) الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي للأزهري (٢٤٩) ، والبداية والنهاية لابن كثير (٥٦/٣) .

(٤) أوردها ابن هشام كاملة في السيرة النبوية (١٠٨/٢) ، ثم قال : " وبعض أهل العلم بالشِّعر يُنكر أكثرها " وذكرها ابن كثير في البداية والنهاية (٧٠/٣) ، ثم قال بعدها : " هذه قصيدةٌ عظيمةٌ بليغَةٌ جداً ، لا يستطيعُ يقولُها إلَّا مَن نُسِبَتْ إليه ، وهي أفحَلُ من المُعلَّقَاتِ السَّبْعِ ، وأبلغُ في تأدِيَةِ المعنى فيها جميعاً "

فواللهِ لـولا أنْ تكونَ مَسَبَّـــةٌ    تُـجَـرُّ على أشياخِنَا في المَحافلِ
لكُنَّا اتَّبَعنَاهُ على كُـلِّ حَالَـــةٍ    مِنْ الدَّهرِ جَـدَّاً غيرَ قَـولِ التَّـهَازُلِ
لقـد عَلِمُوا أنَّ ابْنَنا لا مُكَذَّبٌ    لَدينَا ولا يُعـنى بقَولِ الأبَـاطِـــلِ

والمَسَبَّةُ التي زعَمَ أنَّها تُجرُّ على أشياخِهِ ، شهادَتُه عليهم بالكفرِ والضَّلالِ ، وتسفيهِ الأحلامِ ، وتضليلِ العُقُولِ ، فهذا هو الذي مَنَعَهُ من الإسلامِ بعد تيَقُّنِهِ .

السبب التاسع متابعة من يُعاديه من الناس للرسول وسبقه إلى الدخول في دينه

السَّببُ التاسع : مُتابَعةُ مَن يُعادِيه مِن النَّاسِ للرَّسولِ ، وسبقه إلى الدُّخولِ في دِينِهِ وتَخصيصُهُ وقُربُه منهُ .

وهذا القَدْرُ مَنعَ [١] كثيراً مِن اتِّبَاعِ الهُدى ، يكونُ للرَّجلِ عدوٌّ يُبْغِضُ مَكانَهُ ، ولا يُحبُّ أرضَاً يمشي عليها ، ويقصدُ مُخالَفَتَهُ ومُناقَضَتَهُ ، فيراه قد اتَّبَع الحقَّ ، فيحمِلُهُ قَصدُ مُناقضتِه ومُعادَاتِهِ على مُعادَاتِهِ الحقَّ وأهلَه ، وإن كان لا عَداوَةَ بينهُ وبينهم .

وهذا كما جرى لليهودِ مع الأنصارِ ، فإنَّهم كانوا أعدائَهُم ، وكانوا يتواعَدُونَهُم بخروجِ النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنَّهم يتَّبِعُونَه ويقاتلونَهم معه ، فلمَّا بَدَرَهُم إليه الأنصارُ وأسلمُوا حَمَلَهُم مُعادَاتهم على البقَاءِ على كفرِهم ويهودِيَّتِهِم [٢].

السبب العاشر مانع الإلفِ والعادة والمنشأ

السَّببُ العاشرُ : مانعُ الإلْفِ والعادَةِ والمَنشَأ ؛ فإنَّ العادةَ قد تقوى حتى تغلبَ حُكمَ الطَّبيعَةِ ، ولهذا قيلَ :" هي طبيعةٌ ثانيةٌ " [٣] ، فيُربَّى الرَّجلُ على المَقالةِ ، ويُنَشَّأُ عليها

---

(١) في : ص : وهذا الذي يمنع .

(٢) قال ابن جرير الطبري في : تفسيره (٦٢٦/٥) : "وقد ذُكرَ أنَّ هاتين الآيتينِ من قولِهِ ﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:٧٠]، والآيات بعدهما إلى قولِهِ : ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٠٥] ، نزلت في رجلٍ من اليهودِ حاوَلَ الإغرَاءَ بين الحَيَّينِ من الأوسِ والخزرجِ بعد الإسلام ، ليُراجِعُوا ما كانوا عليه في جاهِليَّتِهم مِـن العـداوةِ والبغضاء . فعنَّفَهُ الله بفعلِهِ ذلك ، وقبَّحَ له ما فَعَلَ ووَبَّخَه عليه ، ووَعَظَ أيضاً أصحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ونهاهُم عن الافتراق والاختلاف ، وأمرَهُم بالاجتماعِ والائتلاف .

وينظـر في هـــذا : تفسير ابن أبي حاتم (٧١٦/٣) ، وتفسير البغوي (٧٥/٢) ، وتفسير ابن الجوزي (٣٠٠/١) وتفسير القرطبي (١٥٥/٤) .

(٣) اشتهرت من مقولات الحكماء ، ونُسبت لأبقراط ، ينظر : العقد الفريد لابن عبد ربه (١٠/٣) ، ونثر الدُّر للآبي (١٣٨/٤) ، والهوامل والشوامل لابن مسكويه (٢٠٨/١) ، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (٣٣٩/١) .

صَغِيراً ، فيتربَّى قلْبُه ونفسُهُ عليها ، كما يتربَّى لحْمُهُ وعَظْمُهُ على الغذاءِ المُعتادِ ، فلا يعْقلُ نفسَهُ إلا عليها ، ثم يأتيهِ العلمُ وهْلَةً واحِدةً يريدُ إزالَتَها وإخرَاجَها من قلبِه ، وأن يَسْكُنَ مَوضعَها ، فيَعسرُ عليه الانتقالُ ، ويصعُبُ عليه الزَّوالُ (١) .

وهذا السَّببُ ، وإن كان أضعفَ الأسبابِ معنىً ، فهو أغلبُها على الأمَمِ وأربابِ المَقالاتِ والنِّحلِ ، ليس مع أكثرِهم بل جميعهم / ، إلا ما عسى أن يَشُذَّ إلَّا عادَةً ومَرْبَي تَربَّى عليه طفلاً ، لا يعرفُ غيرَها ، ولا يُحسُّ به (٢) ، فدينُ العوايدِ هو الغالبُ على أكثرِ النَّاسِ ، فالانتقالُ عنه كالانتقالِ عن الطَّبيعةِ إلى طَبيعةٍ ثانيةٍ . [٥١/أ]

فصلواتُ الله وسَلامُهُ على أنبيائِهِ ورُسلِهِ خُصوصاً على خَاتَمِهم وأفضَلِهم محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، كيف غيَّروا عوائدَ الأمَمِ الباطلةِ ، ونقلُوهُم إلى الإيمان ، حتى استَحدَثُوا بهِ طبيعةً ثانيةً خرجوا بها عن عادَتِهم وطبيعَتِهم الفاسِدَةِ .

ولا يعلم مَشقةَ هذا على النُّفوسِ إلا مَن زَاوَلَ نَقلَ رجلٍ واحدٍ عن دينِهِ ومَقالتِهِ إلى الحقِّ فجزى اللهُ المُرسلين أفضلَ ما جزى به أحداً مِن العالمين (٣) .

إذا عُرِفَ أنَّ المُقتضي نوعانِ ، فالهُدى المُقتَضي وحدَهُ لا يُوجبُ الاهتداءَ ، والهدى التَّامُّ يُوجبُ الاهتداءَ .

فالأوَّلُ : هُدى البيانِ والدَّلالة والتَّعليمِ ، ولهذا يُقالُ : هُدِيَ فما اهتَدى .

---

(١) لا سيما وأنَّه مع إلفه لِمَا كان عليه من العقائد الباطلة المخالِفة ، فإنَّ المُرَبِّين له من الآباء والأجدادُ ، وغيرَهم يُزيِّنون الباطل ويزخرفونه لمن تحت أيديهم ، ويكسونهم أجمل الأوصاف ، قال المؤلف رحمه الله : " وكلُّ أهل نحلةٍ ومقالةٍ يكسُونَ نِحلتَهُم ومَقالتَهم أحسنَ ما يقدِرُون عليه من الألفاظِ ، ومَقالةَ مُخالفيهم أقبحَ ما يقدرون عليه من الألفاظِ " ينظر ما يأتي ص : ٤٢٤ .

(٢) في : ص : ولا يحسن بها .

(٣) قال المؤلف رحمه الله في : طريق الهجرتين (٢٢٢ – ٢٢٣) : " والمقصودُ أنَّ الله سبحانه أعلمُ بمَواقِعِ فضلِهِ ورحمَتِهِ وتوفيقِهِ ، ومَن يصلُحُ لها ، ومَن لا يَصلُح ، وأنَّ حكمتَهُ تأبى أن يضَعَ ذلك عندَ غيرِ أهلِهِ ، كما تأبَى أن يمْنَعَهُ مَن يصلحُ له ، وهو سبحانه الذي جعلَ المَحَلَّ صالحاً ، وجعلَهُ أهْلاً وقَابِلاً ، فمِنهُ الإعدادُ والإمْدادُ ، ومنهُ السَّببُ والمُسَبَّبُ " .

والثاني : هُدى البيانِ والدَّلالةِ ، مع إعطاءِ التَّوفيق ، وخَلقِ الإرادةِ ، فهذا الهدى الذي يسلتزمُ الاهتداءَ ، ولا يتخلَّفُ عنه مُوجَبهُ ، فمتى وُجِدَ السَّببُ ، وانتفتِ المَوانعُ لزِمَ وجُودُ حُكمِهِ .

هل يضعف العلم من أثر الموانع ويعدم أو العلم بحاله لكن الموانع بقوتها غلبت فكان الحكم لها ؟

وها هنا دَقيقةٌ بها ينفصلُ النِّزاعُ ، وهو أنَّه : هل ينعَطفُ من قيامِ المَانعِ وعدَمِ الشَّرطِ على المُقتَضي أمرٌ يُضْعِفهُ في نفسِه ، ويسلُبُه اقتضَاءَهُ وقوَّتَهُ ، أو اقتضاءَهُ بحالِه ، وإنَّما غلَبَ المانعُ فكان التَّاثيرُ له ؟ .

ومثالُ [١] ذلك في مسألتِنَا : أنَّه بوجودِ هذه الموانعِ المذكورةِ أو بعضِها هل يضعُفُ العلمُ ويُعدَمُ حتى لا يصيرَ مُؤثراً ألبتَّة ، أو العِلمُ بحالِهِ ، ولكنَّ المَانعَ بقوَّتِه غَلبَ فكانَ الحُكمُ له ؟.

هذا سِرُّ المَسألةِ وفقْهُها .

فأمَّا الأوَّلُ فلا شكَّ فيه ، ولكنَّ الشأنَ في القسمِ الثَّاني ، وهو بقَاءُ العلمِ بحالِهِ

الموانع التي تحجب العلم وتُعمِّيه والأدلة على ذلك الأول : الزيغ عن الحق ابتداءً

والتَّحقيقُ أنَّ المَوانعَ تحجُبُهُ وتُعْمِّيهِ ، وربُّما قلبَ حقيقَتَهُ من القلبِ ، والقرآنُ قد دلَّ على هذا ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [٢] فعاقَبَهم سبحانه بإزاغَةِ قلُوبِهم عن الحقِّ لمَّا زاغُوا عنه ابتداءً .

ونظيرُهُ قولُهُ تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [٣] ، ولهذا قيلَ : من عُرِضَ عليهِ حقٌّ فردَّهُ ، ولم يقْبَلهُ عُوقِبَ بفسادِ قلْبِهِ وعقْلِهِ ورأيِهِ [٤] .

---

(١) في : د : وأمثال .

(٢) الصف : ٥ .

(٣) الأنعام : ١١٠ .

(٤) قال المؤلف رحمه الله : " من نصرَ هواهُ فَسَدَ عليه عقلُه ورأيُه ؛ لأنَّه قد خانَ اللهَ في عقلِهِ ؛ فأفسَدَهُ عليهِ ، وهذا شأنُه سبحانه وتعالى في كُلِّ مَن خانَهُ في أمْرٍ من الأمُورِ ؛ فإنَّه يُفسدُه عليه . وقال المعتصم يوماً لبعضِ أصحابِهِ : يا فُلانٌ إذا نُصرَ الهوى ذَهبَ الرَّأيُ ، وسمعتُ رجلاً يقول لشيخِنَا : إذا خانَ الرَّجلُ في نَقْدِ الدَّراهمِ سلبَهُ الله مَعرفةَ =

**ومن هنا قيلَ : لا رأيَ لصاحبِ هوىً ؛ فإنَّ هواهُ يَحملُهُ على رَدِّ الحقِّ ، فيُفسِدُ اللهُ عليهِ رأيَهُ وعقلَهُ** (١).

معنى قوله تعالى ( قلوبنا غلف ) والرد على من زعم أنها أوعية للعلم والحكمة من وجوه

**وقال تعالى : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾** (٢) **، أخبرَ سبحانه أنَّ كُفرَهُم بالحقِّ بعد أن عَلِمُوه كان سبباً لطَبعِ الله على قُلوبِهم ، حتى صارت غُلْفاً ، والغُلْفُ : جمعُ أغلَف وهو : القلبُ الذي قد غَشيَهُ غِلافٌ ، كالسَّيفِ الذي في غِلافِهِ ، وكلُّ شيءٍ في غِلافِهِ فهو أغلفُ ، وجمعُه غُلْفٌ ، يُقال : سَيفٌ أغلَفُ ، وقوسٌ غَلفَاء ، ورجل أغلَفُ وأقْلَفُ إذا لم يُختن** (٣) **.**

**والمعنى : قُلوبُنَا عليها غشاوةٌ وغطاءٌ ، فلا نفقَهُ ما تقولُ يا محمد صلى الله عليه وسلم** (٤) **.**

**ولم يصنَع شيئاً مَن قالَ : " إنَّ المعنى : أنَّها غُلفٌ للعلمِ والحكمةِ ، أي : أوعِيَةٌ لها فلا يُحتاجُ إلى قولِكَ ، ولا نقبَلهُ استغناءً بما عندهم "** (٥) **؛ لوجوهٍ :**

---

النَّقدِ ، أو قالَ : نسِيَهُ ، فقال الشيخُ : هكذا من خانَ اللهَ تعالى ورسولَهُ في مَسائِلِ العلمِ" روضة المحبين (٤٨٠) .

(١) قال المؤلف رحمه الله في : روضة المحبين (٤٨٢) : " أنَّ الله سبحانه وتعالى جعلَ في العبدِ هَوىً وعقلاً ، فأيُّهما ظهرَ تَوارَى الآخرُ ، كما قال أبو عليٍّ الثَّقفيّ : " من غلبه هواه توارى عنه عقله " ، فانظر عاقبةَ مَنْ استَتَرَ عنه عقْلُه ، وظهرَ عليه خِلافُه ! ، وقال علي بن سَهْل رحمه الله : " العقل والهوى يتنازعان فالتوفيقُ قرينُ العقلِ والخذلانُ قرينُ الهَوى ، والنَّفسُ واقفةٌ بينهما ؛ فأيُّهما غَلَبَ كانت النَّفسُ معهُ " .

(٢) النساء : ١٥٥ .

(٣) قال المؤلف رحمه الله : " وقد قسَّمَ الصَّحابةُ رضي الله تعالى عنهم القلوبَ إلى أربعةٍ كما صَحَّ عن حذيفةَ بن اليَمانِ : القلوبُ أربعةٌ : قلبٌ أجْرَدُ فيه سراجٌ يُزْهِرُ ، فذلك قلبُ المؤمن ، وقلبٌ أغْلَفُ ، فذلك قلبُ الكافرِ ، وقلبٌ مَنكوسٌ ، فذلك قلبُ المُنافِقِ عرفَ ثمَّ أنكرَ ، وأبصَرَ ثمَّ عَمِيَ ، وقلبٌ تُمدُّه مادتَان : مادةُ إيمانٍ ، ومادةُ نفاقٍ وهو لِمَا غَلبَ عليه منهما " إغاثة اللهفان (١٢/١) .

(٤) في : د ، ص : فلا نفقه ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم .

(٥) قال المؤلف رحمه الله في : بدائع الفوائد (١١٦/٣) : " وسمعتُ شيخَ الإسلام ابن تيمية يُضعِّفُ قولَ من قال : أوعية ، جداً ، وقال : إنَّما هي : جمعُ أغْلَف ، ويقالُ للقلبِ الذي في الغِشَا : أغْلَف ، وجمعُهُ : غُلْفٌ ، كما يُقال للرجل غيرِ المَختونِ : أقْلَفُ ، وجمعُهُ : قُلْفٌ " .

الوجه الأول أن معنى الأغلف من القلوب في اللغة هو الداخل في الغلاف

أحدها : أنَّ ﴿غُلْفٌ﴾ جمعُ أغلَف ، كقُلْف وأقْلَف ، وحُمْرٍ وأحمَرَ ، وجُرْدٍ وأجْرَد وغُلْبٍ وأغْلَب ، ونظائِره .

والأغلفُ من القلوبِ هو الدَّاخلُ في الغِلافِ ، هذا المعروفُ من اللغةِ [١] .

الوجه الثاني أنه ليس من السائع أن يقال : قلب فلان غلافٌ لكذا

الثاني : أنَّهُ ليس من الاستعمالِ السَّائغِ المَشهورِ أن يُقالَ : قلبُ فلانٍ غِلافٌ لكذا وهذا لا يكادُ يُوجدُ في شيءٍ من نَثْرِ كلامِهِم ولا نَظْمِهِ ، ولا نظيرَ له في القرآنِ فيُحملُ عليه ، ولا هو مِن التَّشبيهِ البَديعِ المُستَحسنِ ؛ فلا يجوزُ حملُ الآيةِ عليه .

الوجه الثالث أن نظير قولهم قول الآخرين من الكفار (قلوبنا في أكنة)

الثالث : أنَّ نظيرَ قولِ هـؤلاءِ قولُ الآخرين مِن الكفارِ : ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾[٢] ، والأكِنَّةُ هنا : هي الغُلفُ التي قلوبُ هؤلاءِ فيها ، والأكنَّةُ كالأوعيةِ والأغطِيَةِ التي تُغطِّي المتاعَ ، ومنهُ : الكِنَانَةُ لغِلافِ السِّهامِ .

الوجه الرابع أن سياق الآية لا يحسن مع المعنى الذي ذكروه

الرابع : أنَّ سياقَ الآية لا يَحسنُ مع المعنى الذي ذكرُوه ، ولا يَحسنُ مُقابَلتُهُ بقولِهِ : ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾[٣] ، وإنَّما يَحسنُ مع هذا المَعنى أن يُسلَبَ عنهم العلمُ والحِكمةُ التي ادَّعَوهَا ، كما قيلَ لهم لمَّا ادَّعوا ذلكَ : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[٤] ، وأمَّا هنا فلمَّا ادَّعوا أنَّ قلوبَهم في أغطيةٍ وأغشيَةٍ لا تفقَهُ قولَهُ ، قُوبلُوا بأن عَرَّفَهم أنَّ كُفرَهُم ونقضَهُم مِيثاقَهُم وقتلَهُم الأنبياءَ كان سبباً لأن طُبِعَ على قلوبِهم [٥] .

---

(١) ينظر : تهذيب اللغة للأزهري (١٣٢/٨) ، الصحاح للجوهري (١٤١٢/٤) ، ومقاييس اللغة لابن فارس (٣٩٠/٤) ، والمحكم والمحيط لابن سيده (٥٢٨/٥) .

(٢) فصلت : ٥ .

(٣) النساء : ١٥٥ .

(٤) الإسراء : ٨٥ .

(٥) قال المؤلف رحمه الله في : شفاء العليل (٩٣/١) : " فإن قيل : فالإضرابُ بـ ﴿بَلۡ﴾ على هذا القول الذي قويتُمُوهُ ما معناه ؟ وأما على القولِ الآخرِ فظاهرٌ ، أي : ليستَ قلوبُكم محالاً للعلمِ والحِكمةِ بل مَطبوعٌ عليها ، قيل : وجه الإضرَابِ في غايةِ الظُهورِ ، وهو : أنَّهم احتجوا بأنَّ اللهَ لم يفتح لهم الطريقَ إلى فَهْمِ ما جاءَ به الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم ، ومعرفَتِهِ ، بل جعلَ قلوبَهُم داخلةً في غُلْفٍ فلا تفقَهه ، فكيفَ تقومُ به عليهم الحُجَّةُ ؟ وكأنَّهم ادعوا أنَّ قلوبَهُم خُلقتْ في غُلْفٍ ، فهم معذورونَ في عدمِ الإيمانِ ! فأكذَبَهم اللهُ ، وقال : ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾ [النساء : ١٥٥] ، وفي الآية الأخرى : ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾ [البقرة:٨٨] ، فأخبرَ سبحانه أنَّ الطَّبعَ والإبعادَ عن =

ولا ريب أنَّ القلبَ إذا طُبِعَ عليه أظلَمَت صورةُ العلمِ فيه ، وانْطمَستْ وربَّما ذهبَ أثَرُهَا حتى يصيرَ السَّببُ الذي يَهتَدِي به المُهتدون سبَباً لضَلالِ هذا ؛ كما قال تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ (١) ، فأخبرَ تعالى انَّ القرآنَ سببٌ لضَلالِ هذا الصِّنفِ من النَّاسِ ، وهو هُداهُ الذي هَدى به رسُولَهُ وعبادَهُ المؤمنين (٢) .

ولهذا أخبرَ سبحانه أنَّه إنَّما يهدي به من اتبعَ رضوانَ اللهِ ، وقال تعالى : ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ (٣) .

ولا شيء أعظمُ فساداً لمَحلِّ العلمِ مِن صَيرُورتِه بحيثُ يَضِلُّ بما يهتَدي بهِ ، فنسبَتِهِ إلى الهُدى والعلمِ نسبةُ الفَمِ الذي قد استحكَمَت فيهِ المَرارةُ إلى الماءِ العَذبِ ؛ كما قيلَ (٤) :

ومَن يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَريضٍ يَجِدْ مُرَّاً بهِ المَاءَ الزُّلالا

فإذا فسَدَ القلبُ فسدَ إدراكُهُ ، وإذا فسدَ الفَمُ فسدَ إدراكُهُ ، وكذلك إذا فسَدَت العَينُ . وأهلُ المَعرفةِ من الصَّيارفَةِ يقولونَ : " إنَّ مَن خانَ في نَقْدِهِ نسِيَ النَّقدَ وسُلِبَهُ ، فاشتَبَهَ

---

توفيقهِ وفضلِهِ إنَّما كان بكفرِهم الذي اختارُوهُ لأنفسِهم ، وآثروهُ على الإيمانِ ؛ فعاقَبَهُم عليه بالطَّبعِ واللَّعنةِ والمعنى : لم نَخْلُق قلوبَهُم غُلْفَاً لا تَعِي ولا تفْقَه ، ثم نأمُرُهم بالإيمانِ وهم لا يفهمَونَهُ ولا يفقَهُونَه ، بل اكتسبُوا أعمَالاً عاقَبنَاهم عليها بالطَّبعِ على القلوبِ ، والخَتْمِ عليها " .

(١) البقرة : ٢٦ – ٢٧ .

(٢) ينظر : تفسير ابن جرير الطبري (١/٤٣٣) ، وتفسير المَاوردي (١/٨٨) ، وتفسير ابن كثير (١/٢٠٩) .

(٣) التوبة : ١٢٤ – ١٢٥ .

(٤) القائل هو المتنبي ، ديوانه (١٨١) .

**عليه الخالصَ بالزَّغلِ " (١) .**

**ومن كلامِ بعضِ السلفِ : " العلم يهتفُ بالعملِ ؛ فإن أجابَهُ وإلَّا ارتحلَ " (٢) .**

**وقال بعضُ السلفِ : " كنَّا نستعينُ على حفظِ العلمِ بالعملِ به " (٣) .**

**فتركُ العملِ بالعلمِ أقوى (٤) الأسبابِ في ذهابِه ونسيانِه .**

**وأيضاً ؛ فإنَّ العلمَ يُرادُ للعملِ فإنَّه بمَنزلةِ / الدَّليلِ السَّائرِ ، فإذا لم يَسِرْ خلفَ الدَّليلِ لم ينتفعْ بدَلالَتِه ، فنزل منزلَته (٥) مَن لم يعلم شيئاً ، لأنَّ مَن عَلِمَ ولم يعمل بمَنزلةِ الجَاهلِ الذي لا يعلم ، كما أنَّ مَن مَلك ذهَباً وفِضَّةً وجاعَ وعَرِيَ ولم يشتَرِ منها ما يأكلُ ويلبسُ فهو بمَنزلةِ الفقيرِ العادمِ ؛ كما قيل (٦) :** [٥٢/أ]

**ومَن تركَ الإنفَاقَ عندَ احتِيَاجِهِ     مَخَافَةَ فَقْرٍ فالذي فَعَلَ الفَقْرُ**

**والعربُ تُسمِّي الفُحشَ والبَذَاءَ جَهْلاً ؛ إمَّا لكونِهِ ثَمرةَ الجهلِ ، فيُسمَّى باسمِ سَبَبِهِ ومُوجِبِهِ ، وإمَّا لأنَّ الجَهلَ يقالُ في جانبِ العلمِ والعملِ ، قال الشاعر (٧) :**

**ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينَا     فنَجْهَلَ فوقَ جَهْلِ الجَاهِلينَا**

**ومِن هذا قولُ موسى لقومِهِ وقد قالوا : ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (٨) ، فجعلَ الاستهزاءَ بالمؤمنين جهلاً ، ومنه قولُه تعالى حكايةً عن يوسفَ**

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (٤٨٠) .

(٢) رواه الخطيب البغدادي في : اقتضاء العلم العمل (٣٥ – ٣٦) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وعن محمد ابن المنكدر رحمه الله .

(٣) رواه البيهقي في : شعب الإيمان (٢٨٤/٣ و ٣١١) ، والخطيب البغدادي في : اقتضاء العلم العمل (٩٠) عن إبراهيم بن إسماعيل بن مُجَمِّع . ورواه الخطيب البغداي عن الشعبي كما في : جامع بيان العلم وفضله (٧٠٨/١) ورواه عن وكيع بن الجراح (٧٠٨/١ و ١٠٣١/٢) .

(٤) في : د ، ص : من أقوى .

(٥) في : د ، ص : منزلة .

(٦) لم أقف عليه ، ولعله محور من قول المتنبي ، ديوانه (١٥٧) :

ومن يُنفقُ السَّاعاتِ في جَمْعِ مَالِهِ     مَخَافَةَ فَقْرٍ فالذي فَعَلَ الفَقْرُ

(٧) عَمْرِو بن كُلثُومٍ ، ديوانه (٧٨) .

(٨) البقرة : ٦٧ .

عليه السلام أنَّه قال : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (١) ، ومن هذا قولُهُ تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (٢) ، ليس المُرادُ إعراضَهُ عمَّن لا علمَ عنده فلا يَعلَمُهُ ولا يُرشِدُهُ ، وإنَّما المُرادُ إعِراضُهُ عن جهلِ من جَهَلَ عليهِ (٣) فلا يُقابِلُهُ ولا يُعاتِبُهُ .

قال مُقاتل (٤) وعُروةُ (٥) والضَّحاكُ (٦) وغيرُهُم (٧) :" صُنْ نفسَكَ عن مُقابَلَتِهم على سَفَهِهِم "

وهذا كثيرٌ في كلامِهم .

ومنه الحديثُ : ( إذا كان صومُ أحدِكُم ، فلا يصْخَبْ ولا يَجهَلْ ) (٨) .

ومن هذا تسميةُ المعصيةِ : جَهلاً ، قال قتادةُ (٩) : " أجمَع أصحابُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم أنَّ كلَّ مَن عصى الله فهو جاهِلٌ " (١٠) ، وليس المُرادُ أنَّه جاهلٌ بالتَّحريمِ إذ لو كان جاهلاً به لم يكنْ عاصياً ، ولا يترتَّبُ الحدُّ في الدنيا (١١) والعقوبةُ في الآخرةِ على جاهلٍ بالتَّحريمِ ، بل نفسُ الذَّنبِ يُسمَّى جهْلاً ، وإنْ علِمَ مُرتكبُه بتحريمِهِ ؛ إمَّا أنَّه

(١) يوسف : ٣٣ .

(٢) الأعراف : ١٩٩ .

(٣) في : ص : من جهل عليه منهم .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ١٦٠ .

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٣١ .

(٦) الضَّحاك بن مُزاحِم الهِلالي ، أبو القاسم ، ويقال : أبو محمد الخُرساني ، كان من أوعية العلم ، حدَّثَ عن ابن عباس ، وأبي سعيد ، وابن عمر ، وأنس ، وغيرهم ، وله كتاب في التفسير . توفي عام : ١٠٥هـ .
الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٠٠/٦) ، وتهذيب الكمال للمزي (٢٩١/١٣) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٥٩٨/٤) .

(٧) ينظر : تفسير مقاتل بن سليمان (٤٣٠/١) ، والتفسير من سنن سعيد بن منصور (١٧٤/٥) .

(٨) رواه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٩) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٨٤ .

(١٠) تقدَّم تخريجه ، ص : ٢٨٤ .

(١١) في : ص : ولا يترتَّبُ في الحدُّ في الدنيا .

لا يَصدرُ إلا عن ضعفِ العِلمِ ونُقصانِه ، وذلك جهلٌ ؛ فسُمِّيَ باسمِ سبَبِهِ ، وإمَّا تنزيلاً لفاعِلِهِ مَنزلةَ الجاهلِ بهِ (١).

الثاني من الموانع التي تحجب العلم وتُعمِّيه : المعاقبة بالطبع والرين وسلب العقل والفهم لمَّا ردوا الحق

الثاني (٢) : أنَّهم لمَّا رَدُّوا الحقَّ ورَغبُوا عنه ، عُوقِبُوا بالطَّبعِ والرَّينِ ، وسلبِ العقلِ والفَهْمِ كما قال تعالى عن المنافقين : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٣) .

الثالث من الموانع التي تحجب العلم وتُعمِّيه : أن العلم الذي يُنتفع به ويستلزم النجاة لم يكن حاصلا لهم فسلبت عنهم حقيقته

الثالث : أنَّ العلمَ الذي يُنتَفَعُ به ، ويستَلزمُ النَّجاةَ والفلاحَ لم يكن حاصِلاً لهم فسُلِبَ عنهم حقيقَتُهُ ، والشيءُ قد ينتَفِي لنَفي ثَمرتِهِ والمُرادِ منه ، قال تعالى في ساكنِ النَّارِ : ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ (٤) ، نفى الحياةَ لانتفاءِ فائِدَتِها والمُرادِ منها ويقولون :

" لا مالَ إلَّا ما أُنْفِقَ ، ولا عِلمَ إلَّا ما نَفعَ " (٥) .

ولهذا نفى سبحانهُ عن الكفَّارِ الأسماعَ والأبصَارَ والعُقولَ لمَّا لم ينتفعوا بها ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا

---

(١) قال الزَّجاج : " ومعنى : ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ ، أي ليس بأنَّهم يجهلون أنَّه سُوءٌ . لو أتى المسلمُ ما يَجهَل أنَّه سوءٌ لكان كمن لم يَتَعَمَّد سوءاً ، ولم يُوقع سوءاً . وقولُك : عَملَ فلانٌ كذا وكذا بجهالةٍ ، يحتَمِلُ أمرين : فأحَدُهُما : أنَّه عملهُ وهو جاهِلٌ بالمكروهِ فيه ، أي : لم يعرف أنَّ فيه مكروهاً ، والآخرُ : أقدمَ عليه على بصيرةٍ ، وَعَلِمَ أنَّ عاقِبَته مَكروهةٌ ، فآثرَ العَاجِلَ فجُعلَ جاهلًا ، فإنَّه آثرَ القليلَ على الرَّاحةِ الكثيرةِ والعافية الدَّائمةِ " . معاني القرآن وإعرابه (٢/٢٩) . وقال المَاورْدي في تفسيره (١/٤٦٤) : " اختلف في المراد بالجهالة على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنَّ كلَّ ذنبٍ أصابَهُ الإنسانُ فهو بجهالةٍ ، وكلَّ عاصٍ عصى فهو جاهلٌ ، وهو قولُ أبي العالية .

والثاني : يريدُ : يعملون ذلك عمداً ، والجهالةُ : العَمْدُ ، وهو قولُ الضَّحاكِ ، ومُجاهد .

والثالث : الجهالةُ : عملُ السُّوءِ في الدُّنيا ، وهو قول عكرمة " .

(٢) يستكمل المؤلف هنا الأدلة على الموانع التي تحجب العلم وتُعَمِّيَهُ ، حيث ذكر الأول في ص : ٣٠٨ .

(٣) المنافقون : ٣ .

(٤) طه : ٧٤ .

(٥) ذكره الغزالي في : المستصفى (٢٦٣) .

كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ (٢) .

ولمَّا لم يحصلْ لهم الهُدى المطلوبُ بهذهِ الحَواسِّ ، كانوا بمنزلةِ فاقِدِيها (٣) ، قال تعالى :

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٤) .

والقلبُ يُوصفُ بالبَصرِ والعَمَى ، والسَّمعِ والصَّمَمِ ، والنُّطقِ والبَكَمِ ، بل هذهِ له أصلاً وللعينِ والأذنِ واللسَانِ تبَعاً ، فإذا عَدِمَها القلبُ فصاحِبُه أعمى مَفتوحُ العينِ ، أصَمُّ ولا آفةَ بأُذُنِه ، أبْكَمُ وإنْ كانَ فصيحَ اللسانِ ، قال تعالى : ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (٥) ، فلا تنَافِيَ بين قيامِ الحُجَّةِ بالعِلمِ ، وبينَ سَلْبِهِ ونفيِهِ بالطَّبعِ والخَتمِ والقَفْلِ على قلوبِ مَن لم يعملْ بمُوجَبِ الحُجَّة وينقَادُ لها .

لا تنافي بين قيام الحجة بالعلم وبين سلبه ونفيه بالطبع والختم والقَفْل على قلب من لم يعمل بمُوجَب الحجة

قال تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ (٦) ، فأخبرَ سبحانه أنَّهُ مَنعَهُم فِقْهَ كلامِهِ ، وهو الإدراكُ الذي ينتَفِعُ به مَن فَقِهَهُ ، ولم يكن ذلك مانِعاً لهم مِن الإدراكِ الذي تقومُ به الحُجَّةُ عليهم فإنَّهم لو لم يفهَمُوهُ جملةً ما وَلَّوا على أدبارِهِم نُفوراً عند ذِكرِ توحيدِ اللهِ ، فلمَّا وَلَّوا

(١) الأحقاف : ٢٦ .

(٢) الأعراف : ١٧٩ .

(٣) قال أبو حيان في تفسيره (٥/٢٢٨) : " لـمَّا كانوا لا يتَدَبَّرون شيئاً من الآياتِ ، ولا ينظُرونَ إليها نَظَرَ اعتبارٍ ، ولا يسمَعُونها سَماعَ تفَكُّرٍ جُعلوا كأنَّهم فقدوا الفِقهَ بالقلوبِ ، والإبصَارَ بالعُيونِ ، والسَّماعَ بالآذانِ ، وليس المُرادُ : نفيَ هذهِ الإدرَاكاتِ عن هذهِ الحواسِّ ، وإنَّما المُرادُ نفيُ الانتفاعِ بها فيما طُلِبَ منهم من الإيمانِ " .

(٤) البقرة : ١٧١ .

(٥) الحج : ٤٦ .

(٦) الإسراء : ٤٥ — ٤٦ .

عندَ ذِكرِ التَّوحيدِ دَلَّ على أنَّهم كانوا يفهَمُون الخطابَ ، وأنَّ الذي غَشِيَ قلوبَهم كالذي غشِيَ آذانَهم (١) .

ومعلومٌ أنَّهم لم يَعْدَمُوا السَّمعَ جُملةً ويصيروا كالأصَمِّ ، ومعلومٌ أنَّهم قد سَمِعوا القرآنَ وأُمِرَ الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم بإسمَاعِهم إياهُ .

وقال تعالى : ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (٢) ، فهذا السَّمعُ المنفيُّ عنهم سمعُ الفَهمِ والفِقْهِ ، والمعنى : ولو علمَ اللهُ فيهم خيراً لأسمَعهم سَمْعَاً ينتَفِعُون بهِ وهو فِقْهُ المعنى وعَقْلُهُ ، وإلا فقد سَمعُوه سمْعَاً تقومُ به عليهم الحُجَّةُ ، ولكن لمَّا سمعُوهُ مع شدَّةِ بُغضِهِ وكَراهَتِه ، ونُفْرَتِهم عنه لم يفهَمُوهُ ، ولم يعقِلوهُ .

والرَّجلُ إذا اشتدَّ كراهتُهُ للكلامِ ، ونُفرَتُه عنه لم يفهم ما يُرادُ بهِ ؛ فيُنَزَّلُ مَنزلةَ مَن لم يسمَعْهُ. قال تعالى : ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾(٣) ، نفى عنه استطاعةَ السَّمعِ مع صحَّةِ حَواسِّهم وسلامَتِها ، وإنَّما لفَرْطِ بُغضِهم ونُفرَتِهم عنه وعن كلامِهِ ، صارُوا بمَنزلةِ مَن لا يستطيعُ أن يَسمَعَهُ ولا يراهُ ، وهذا استعمالٌ معروفٌ للخاصَّةِ والعامَّةِ ، يقولون : " لا أطيقُ أنظرُ إلى فلانٍ ، ولا أستطيعُ أن أسمعَ كلامَهُ " (٤) مِن بُغضِهِ ونُفرَتِه عنه .

وبعض الجبرية (٥) يحتَجُّ بهذه الآيةِ وشِبهِهَا على مذهَبِهم ، ولا دلالةَ فيها ؛ إذ ليس المرادُ سلْبَهُم السَّمع والبَصرَ الذي تقومُ الحُجَّةُ به (١) قطعاً ، وإنَّما المرادُ سَلْبُ السَّمعِ

(١) قال الطاهر بن عاشور في تفسيره (٩٤/١٤) : " لمَّا كان الإخبارُ عنهم قَبلَ هذا يقتَضي أنَّهم لا يفقَهُون مَعانِيَ القرآنِ ، أتبَعَ ذلك بأنَّهم يُعرِضُون عن فَهْمِ ما فيه خيرٌ لهم ، فإذا سَمِعُوا ما يُبْطِلُ إلاهِيَّة أصنَامِهم فهمُوا ذلك ؛ فولَّوا على أدبارِهم نُفوراً ، أي : زادَهُم ذلك الفَهمُ ضَلالاً ، كما حَرَمَهُم عدمُ الفَهْمِ هَدْيَاً ، فحالُهُم مُتنَاقِضٌ ! فهم لا يسمَعُون ما يَحقُّ أن يُسمَع ، ويسمعُون ما يَهْوَونَ أن يَسمعُوه ؛ ليزدادُوا به كفراً " .

(٢) الملك : ١٠ .

(٣) هود : ٢٠ .

(٤) ذكره الطوسي في التبيان في تفسير القرآن (٣٨٧/٢) .

(٥) فِرقة سُمِّيت بذلك نسبة إلى قولهم بالجبر ، حيث قالوا : إنَّ اللهَ جبَرَ الخلقَ على الإيمان والكفر والطاعة ، وخَلَقَهَا فيهم ، وأنكروا أن يكون للعبد فعلٌ ، وهم صنفان : الجبريةُ الخالصَةُ : وهي لا تُثبتُ للعبد فعلا ، ولا قُدرةً على الفعل ، والجبرية المتوسطةُ : وهي تُثبتُ للعبد قُدرةً غيرَ مُؤثِّرةٍ . ينظر : الملل والنحل للشهرستاني (٨٥/١)

الذي يترتَّبُ عليه فائِدَتُه وثمَرتُه ، والقَدَرُ حقٌّ ، ولكنَّ الواجبَ تنزيلُ القرآنِ مَنازِلَهُ ووضعُ الآياتِ مَواضِعَها ، واتِّباعُ الحقِّ حيث كان [٢] .

ومثلُ هذا إذا لم يحصلْ له فَهْمُ الخطابِ لا يُعذرُ بذلكَ ؛ لانَّ الآفةَ منه ، وهو بمنزلةِ مَن سَدَّ أذُنيهِ عند الخطابِ فلم يسمَعهُ ، فلا يكون ذلك عذراً له .

ومن هذا قولُهم : ﴿ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [٣] ، يعنونَ أنَّهم في تركِ القَبولِ منهُ ومحبةِ الاستمَاعِ لِمَا جاءَ بهِ ، وإيثارِ الإعراضِ عنه ، وشدَّةِ النِّفَارِ عنه ، بمنزلةِ مَن لا يعقلُهُ ، ولا يسمَعهُ ، ولا يُبصرُ المُخاطِبُ لهم بهِ ، فهذا هو الذي يقولونَ لأجلهِ في النَّار : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [٤] ، ولهذا / جَعَلَ ذلك مقدُوراً لهم ، وذَنْباً اكتسبُوهُ ، فقال تعالى : [٥٣/أ] ﴿ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [٥] .

والله تعالى تارةً ينفي [٦] عن هؤلاءِ العقلَ والسَّمعَ والبصرَ ، فإنَّها مَداركُ العلمِ وأسبابُ حصولِهِ ، وتارةً ينفي عنهم السَّمعَ والعقلَ ، وتارةً ينفي عنهم السَّمعَ والبصرَ ، وتارةً ينفي عنهم العقلَ والبصرَ ، وتارةً ينفي عنهم العقلَ [٧] وحدهُ ، وتارةً ينفي عنهم السَّمعَ وحدَهُ

---

واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي (٦٨) ، والقضاء والقدر للدكتور عبد الرحمن المحمود (١٩٩) .

(١) في : د ، ص : تقومُ به الحُجَّةُ .

(٢) قال ابن أبي العزِّ : " وليس في ذلك إرادةُ ما سمَّوهُ استطاعةً ، وهو ما لا يكون إلا مع الفِعلِ ، فإنَّ اللهَ ذَمَّ هؤلاء على كونِهم لا يستطيعون السَّمعَ ، ولو أرادَ بذلك المُقارِنَ لكانَ جميعُ الخلقِ لا يستطيعون السَّمعَ قبلَ السَّمعِ ! فلم يكنْ لتخصيصِ هؤلاء بذلك معنى ، ولكن هؤلاء لبُغضِهم الحقَّ وثُقلِهِ عليهم ، إمَّا حسداً لصاحبِه ، وإمَّا اتِّباعا للهوى لا يستطيعون السَّمعَ " شرح العقيدة الطحاوية (٦٥٥/٢) .

(٣) فصلت : ٥ .

(٤) الملك : ١٠ .

(٥) الملك : ١١ .

(٦) في : ص : ينفي تارةً .

(٧) في : ص : ينفي العقل .

**فنفي الثَّلاثةِ نفيٌ لمَدارِكِ العلمِ بطريقِ المُطابَقَةِ (١) ، ونفي بعضها نفيٌ له بالمُطابَقَةِ والآخرُ باللُّزُومِ (٢) ؛ فإنَّ القلبَ إذا فسَدَ ، فسَدَ السَّمعُ والبصرُ ، بل أصلُ فسادِهِما مِن فسادِهِ ، وإذا فسَدَ السَّمعُ والبصرُ فسَدَ القلبُ ، فإذا أعرضَ عن سَمْعِ الحقِّ ، وأبغضَ قائِلَهُ ، بحيثُ لا يُحبُّ رؤيَتَه ، امتنعَ وصولُ الهُدى إلى القلبِ ، ففَسَدَ ، وإذا فسدَ السَّمعُ والعقلُ تبعَهُما فسادُ البَصرِ ، فكلُّ مَدْرَكٍ من هذهِ يصحُّ بصحَّةِ الآخرِ ، ويفسُدُ بفسادِه ؛ فلهذا يجيءُ في القرآنِ نفيُ ذلك صريحاً ، ولُزُوماً (٣) .**

**وبهذا التَّفصيلُ يُعلَمُ اتفاقُ الأدلةِ من الجانبين .**

المراد بـ (الذين آتيناهم الكتاب) و( يا أهل الكتاب) و(الذين أوتوا الكتاب)

**وفي استــدلالِ الطَّــائفةِ الثَّانيةِ بقولِهِ : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ (٤) ، ونظائرِهَا نَظرٌ ؛ فإنَّ الله تعالى حيثُ قال : ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ، لم يكونوا إلا مَمدوحينَ مُؤمنينَ ، وإذا أرادَ ذمَّهُم والإخبارَ عنهم بالعنادِ ، وإيثارِ الضَّلالِ أتى بلفظِ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾(٥)، مبنيَّاً للمفعولِ (٦) :**

---

(١) دلالة المُطابقة : هي دلالةُ اللفظِ على كاملِ معناه ؛كدَلالَةِ لفظِ البيتِ على معنى البيت .

(٢) دلالة اللزوم : وهي دلالةُ اللفظِ على شيء خارجٍ عن معناه ؛ لكنَّه لازمٌ له لا يُفارقه ، وقد تقدّم الكلام على أنواع الدلالات ، ص: ٩٩ .

(٣) قال المؤلف رحمه الله : " وها هنا عدةُ أمورٍ عاقَبَ بها الكفَّارَ بمنعِهم عن الإيمانِ ، وهي : الختْمُ ، والطَّبعُ ، والأكِنَّةُ والغِطـــاءُ ، والغِـلافُ والحِجابُ ، والوَقْرُ ، والغِشاوةُ ، والرَّانُ ، والغِلُّ ، والسَّدُّ ، والقُفلُ والصَّممُ ، والبَكمُ ، والعمى والصَّدُّ والصَّرفُ والشَّد على القلبِ والضَّلالُ والإغفَالُ والمرضُ وتقلِيبُ الأفئدَةِ والحَولُ بين المرء وقلبِهِ وإزاغةُ القلوبِ والخِـذلانُ والإركَــاسُ والتَّثبيطُ والتَّزيينُ وعدمُ إرادةِ هُداهم وتطهيرهم وإماتةُ قلوبِهم بعد خلقِ الحياةِ فيها ؛ فتبقى على الموتِ الأصلي ، وإمْسَــاكُ النُّــورِ عنها ؛ فتبقــى في الظُّلمةِ الأصليةِ ، وجعلُ القلبِ قاسياً لا ينطَبعُ فيه مِثالُ الهدى وصورتُهُ ، وجعلُ الصَّدرِ ضيِّقاً حَرجَاً لا يقبلُ الإيمانَ ، وهذه الأمورُ منها ما يرجعُ إلى القلبِ ؛كالخَتمِ والطَّبعِ والقُفلِ والأكنةِ والإغفالِ والمرضِ ونحوهَا ، ومنها ما يرجعُ إلى رســولِهِ المُوصلِ إليهِ الهدى ؛ كالصَّممِ والوقْرِ ، ومنها ما يرجعُ إلى طليعَتِه ورائِــدِه ؛ كالعمى والغَشا ، ومنها ما يرجعُ إلى تُرجُمَانِه ورسولِهِ المُبلغِ عنه ؛ كالبَكَمِ النُّطقي ، وهو نتيجةُ البَكَمِ القَلبي ، فإذا بَكَمَ القلبُ بَكَم اللسانُ " شفاء العليل (٩٢) .

(٤) البقرة : ١٤٦ .

(٥) البقرة : ١٠١ .

(٦) قال المؤلف رحمه في الفرق بين قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١] وقوله : ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [البقرة:١٠١] : " والفرقُ بين الموضعين ، وأنَّه حيثُ ذُكر الفاعلُ كان مَن آتاهُ الكتاب واقِعاً في

**فالأولُ : كقولِهِ تعالى:** ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ **الآيات** (١) ، **وكقولِهِ تعالى :** ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (٢) **فهذا في سياقِ مَدحِهِم ، والاستشهادِ بهم ، ليسَ في سياقِ ذَمِّهم ، والإخبارِ بعنادِهِم وجُحُودِهم ، كما استشهدَ بهم في قولِهِ تعالى :** ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ (٣) ، **وقال تعالى :** ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

**واختُلفَ في الضميرِ في** ﴿ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ :

**فقيلَ : هو ضميرُ للكتابِ الذي أوتوه ، قال ابنُ مسعود رضي الله عنه (٥) : " يُحِلُّونَ حلالَه ويُحرِّمون حرامَه ، ويقرؤونَهُ كما أنزلَ ، ولا يُحرِّفُونهُ عن مَواضِعِهِ "** (٦) .

**قالوا : ونزلَت في مؤمني أهلِ الكتابِ** (٧).

---

سياق المدحِ ، وحيثُ حذفَهُ كان مَن أُوتيَهُ واقعاً في سياقِ الذَّمِّ ، أو مُنقَسِمَاً ، وذلك من أسرار القرآن الكريم " بدائع الفوائد (٢/٤٤٠) .

(١) القصص : ٥٢ – ٥٤ .

(٢) الأنعام : ١١٤ .

(٣) الرعد : ٤٣ .

(٤) النحل : ٤٣ .

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

(٦) رواه عبد الرزاق في تفسيره (١/٢٨٨) ، وابن جرير الطبري في تفسيره (٢/٢٨٩ و ٢٩٢) ، ورواه عن ابن عباس رضي الله عنهما ابن أبي حاتم في تفسيره (١/٢١٨) ، وابن جرير الطبري في تفسيره (٢/٢٨٨) .

(٧) ينظر : تفسير ابن جرير الطبري (٢/٤٨٦) ، وتفسير الماوردي (١/١٨٢) ، وتفسير البغوي (١/١٤٤) ، وتفسير أبي حيان (١/٥٩٢)

وقيلَ : هذا وصفٌ للمسلمين (١) ، والضميرُ في ﴿ يَتْلُونَهُۥ ﴾ للكتاب الذي هو القرآن وهذا بعيد ، إذ عُرْفُ القرآنِ يأبَاهُ (٢) .

ولا يرِدُ على ما ذكرنا قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) ، بل هذا حجةٌ أيضاً لمَا ذكرنا ؛ فإنَّه أخبرَ في الأولِ عن معرفَتِهم برسولِهِ صلى الله عليه وسلم ، ودينِهِ ، وقِبلَـتِـهِ كما يعرفون أبناءَهُم (٤) ، استشهاداً بهم على مَن كفرَ ، وثناءً عليهم .

ولهذا ذكرَ المفسرون أنَّهم عبد الله بن سلام (٥) وأصحابه (٦) ، وخَصَّ في آخرِ الآيةِ بالذَّمِ طائفةً منهم ، فدَلَّ على أنَّ الأوَّلين غيرُ مذمومين ، وكونُهم دخَلوا في جُملةِ الأوَّلين بلفظِ المُضمَرِ لا يُوجِبُ أن يُقالَ : ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ عند الإطلاقِ ؛ فإنَّهم دخلوا في هذا اللَّفظِ ضِمناً وتَبَعَاً ، فلا يلزمُ تناولُه لهم قصْدَاً واختياراً .

---

(١) روي ذلك عن قتادة رحمه الله ، ينظر : تفسير ابن أبي حاتم (٢١٨/١) ، وتفسير ابن جرير الطبري (٤٨٦/٢) .

(٢) قال ابن جرير الطبري في تفسيره (٤٨٧/٢) : " وهذا القولُ أولى بالصَّوابِ من القولِ الذي قاله قتادة ؛ لأنَّ الآياتِ قبلَها مَضت بأخبارِ أهلِ الكتابين ، وتبديلِ من بدَّل منهم كتابَ الله ، وتأوّلهم إياه على غيرِ تأويلِهِ ، وادعائِهم على الله الأباطيلَ . ولم يَجرِ لأصحابِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم في الآيةِ التي قبلها ذِكرٌ ، فيكون قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، مُوجَّها إلى الخبرِ عنهم ، ولا لهم بعدَها ذِكرٌ في الآيةِ التي تتلُوها ؛ فيكون مُوجهاً ذلك إلى أنَّه خبرٌ مبتدأٌ عن قَصص أصحابِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، بعد انقضَاءِ قَصَصِ غيرِهم ، ولا جاءَ بأنَّ ذلك خبرٌ عنهم أثَرٌ يجب التسليمُ له ؛ فإذ كان ذلك كذلك ، فالذي هو أولى بمعنى الآية أن يكون مُوجهاً إلى أنَّه خبرٌ عمَّن قصَّ الله جلَّ ثناؤه في الآيةِ قَبلها والآيةِ بعدَها ، وهم أهلُ الكتابَين : التوراةُ والإنجيل " .

(٣) البقرة : ١٤٦ .

(٤) قال القرطبي في تفسيره (١٦٣/٢) : " وخصَّ الأبناءَ في المعرفةِ بالذِّكرِ دونَ الأنْفُسِ ، وإن كانت ألصقَ ؛ لأنَّ الإنسانَ يَمُرُّ عليه مِن زَمنِه بُرهةٌ لا يعرفُ فيها نفسَهُ ، ولا يَمُرُّ عليه وقتٌ لا يعرفُ فيه ابنَهُ " .

(٥) عبد الله بن سلام بن الحارث ، أبو يوسف من ذرية النبي يوسف عليه السلام ، كان يهودياً من يهود بني قينقاع وكان حَبْرَاً من الأحبار ، أراد الله به خيراً فأسلم ، كان اسمه في الجاهلية الحصين، فسماه النبي صلى الله عليه وسلم : عبد الله ، توفي عام : ٤٣ هـ . الاستيعاب لابن عبد البر (٩٢٣/٢) وأسد الغابة لابن الأثير (٢٦٥/٣) والإصابة لابن حجر (١٠٢/٤) .

(٦) ينظر : الدر المنثور للسيوطي (٣٥٧/١) ، وتفسير القرطبي (١٦٣/٢) .

وقال تعالى في سورةِ الأنعام : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾ (١) .

قيل : الرَّسولُ وصِدْقُهُ .

وقيل : المذكورُ ، وهو التوحيد (٢) .

والقولانِ مُتلازِمانِ ؛ إذ ذلك في مَعرِضِ الاستشهادِ والاحتجاجِ على المشركين ، لا في مَعرِضِ ذَمِّ الذين آتاهُم الكتابَ ؛ فإنَّ السورةَ مَكيَّةٌ ، والحِجَاجُ كان فيها مع أهلِ الشِّركِ والسِّياقُ يدلُّ على الاحتجاجِ لا ذَمِّ المذكورين من أهلِ الكتاب . (٣)

وأمَّا الثاني : فكقولِه : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ﴾ (٤) ، فهذا شهادَتُه سبحانه للذين أُوتوا الكتابَ ، والأولُ شهادَتُه للذين آتاهُم الكتابَ بأنَّهم يؤمنون.

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ الآية (٥) ، وقال تعالى : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ

(١) الأنعام : ١٩ – ٢٠ .

(٢) تنظر الأقوال في الآية في : تفسير الماوردي (١٠١/٢) ، وتفسير السعدي (٢٥٢) .

(٣) قال السعدي رحمه الله : " لما بيَّن شهادَتَه وشهادَةَ رسولِهِ صلى الله عليه وسلم على التَّوحيدِ ، وشهادَةَ المشركين الذين لا عِلمَ لديهم على ضدِّه ، ذكرَ أنَّ أهلَ الكتابِ من اليهودِ والنَّصارى ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي : يعرفون صحةَ التوحيد ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ أي : لا شكَّ عندهم فيه بوجهٍ ، كما أنَّهم لا يشتبهون بأولادِهم ، خصوصا البنين المُلازمينَ في الغالبِ لآبائهم.

ويحتملُ أنَّ الضميرَ عائدٌ إلى الرَّسولِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، وأنَّ أهلَ الكتابِ لا يشتَبِهون بصحَّةِ رسالتِه ولا يمترونُ بها ؛ لِمَا عندهم من البشَاراتِ بهِ ، ونُعوتِهِ التي تنطَبِقُ عليه ، ولا تصلُحُ لغيرِه ، والمعنيان مُتلازمان ". تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٥٢) .

(٤) البقرة : ١٤٤ – ١٤٥ .

(٥) النساء : ٤٧ .

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴾ (١) ، وهذا خطابٌ لمَن لم يُسلِمْ منهم ، وإلا فلم يُؤمَر صلى الله عليه وسلم أن يقولَ هذا لمَن أسلَمَ منهم وصدَّقَ بهِ .

ولهذا لا يذكرُ سبحانه الذين أوتوا نصيباً من الكتابِ إلا بالذَّمِّ أيضاً ؛ كقولِهِ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ الآية (٢) ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (٤) .

فالأقسامُ أربعةٌ :

- و﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ، وهذا لا يذكُرُه سبحانه إلا في مَعرِضِ المَدحِ .
- و ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ، لا يكون قطُّ إلا في مَعرِضِ الذَّمِّ .
- و ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أعمُّ منهُ ، فإنَّه قد يتناولُهُما ، ولكن لا يُفْرَدُ به المَمدُوحون قطُّ .
- و ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ، يعُمُّ الجنسَ كلَّهُ ، ويتناولُ المَمْدُوحَ منهُ والمَذمُومَ كقولِهِ : ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية (٥) .

---

(١) آل عمران : ٢٠ .
(٢) النساء : ٥١ .
(٣) النساء : ٤٤ .
(٤) آل عمران : ٢٣ .
(٥) آل عمران : ١١٣ – ١١٤ .

وقال في الـذَّمِّ : ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ (١) .

وهذا الفصلُ يُنْتَفعُ به جداً في أكبرِ مسائلِ أصولِ الإسلامِ ، وهي مسألةُ الإيمان واختلافِ أهـلِ القبلةِ فيهِ ، وقد ذكرنا فيهِ نُكتاً حِسَاناً يتَّضحُ بها الحقُّ في المَسألةِ والله أعلم .

أن الله فاوت بين النوع الإنساني وفاوت بينهم بالعلم فجعل عالمهم مُعلِّم الملائكة

الوجه الثاني والثمانون : أنَّ الله سبحانه فاوتَ بين النَّوعِ الإنساني أعظمَ تفاوتٍ يكون بين المخلوقين ، فلا يُعرفُ اثنانِ من نوعٍ واحدٍ بينهما من التَّفاوتِ ما بينَ خيرِ البَشرِ وشرِّهم والله سبحانه خلقَ الملائكةَ عقولاً بلا شهواتٍ ، وخلقَ الحيواناتِ ذواتِ شهواتٍ بلا عقولٍ ، وخلقَ الإنسانَ مُركَّباً من عقلٍ وشَهوةٍ ، فمن غَلَبَ عقلُه شهوتَهُ كان خيراً / من الملائكةِ ، ومن غلَبَت شهوتُهُ عقلَهُ كان شرَّاً من الحيوانات . [٥٤/أ]

وفـاوَتَ سبحانـه بينهم في العِلمِ ، فجعلَ عالِمَهُـم مُعَلِّمَ الملائكةِ ، كما قال تعالى : ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ (٢) ، وتلك مَرتبةٌ لا مَرتبةَ فوقَها ، وجعلَ جاهِلَهُم بحيثُ لا يرضى الشيطانُ به ولا يَصْلُحُ له ، كما قال الشيطانُ لجاهِلِهم الذي أطاعَهُ في الكفرِ : ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ (٣) ، وقـال لجَهَلَتِهم الذين عصوا رَسولَهُ : ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ (٤) .

فلِلَّهِ ما أشدَّ هذا التَّفاوتَ [ بين شخصين ، أحدِهما : تسجدُ له الملائكةُ ، ويُعلِّمها ممَّا اللهُ علَّمه ، والآخرِ : لا يرضى الشيطانُ به وليَّاً ، وهذا التَّفاوتُ ] (٥) العظيمُ إنَّما حصلَ بالعلمِ وثمرَتِه ، ولو لم يكن في العلمِ إلا القُربُ من ربِّ العالمين ، والالتِحاقُ بعالَم

---

(١) البينة : ١ .
(٢) البقرة : ٣٣ .
(٣) الحشر : ١٦ .
(٤) الأنفال : ٤٨ .
(٥) سقط من النسخ الخطية ، والمثبت من المطبوع .

الملائكة وصُحبةُ الملأِ الأعلى ، لكفى به فضلاً وشَرفاً ، فكيف وعِزُّ الدُّنيا والآخرةِ مَنوطٌ به ، ومَشروطٌ بحُصولهِ .

أنَّ أشرف ما في الإنسان محل العلم منه : قلبه وسمعه وبصره

الوجهُ الثَّالثُ والثَّمانون : أنَّ أشرفَ ما في الإنسانِ محلُّ العلمِ منهُ ، وهو قلْبُهُ وسمعُهُ وبصَرُهُ ، ولمَّا كان القلبُ هو محلَّ العلمِ ، والسَّمعُ رسولُهُ الذي يأتيهِ بهِ ، والعينُ طليعتهُ كان مَلِكاً على سائر الأعضاءِ ، يأمُرها فتأتَمِرُ لأمرِهِ ، ويصرفُهُا فتنقَادُ لهُ طائِعةً بما خُصَّ به من العلمِ دونَها ، فلذلك كان مَلِكَها والمُطاعَ فيها ، وهكذا العَالِمُ في النَّاس كالقلبِ في الأعضاءِ .

ولمَّا كان صلاحُ الأعضاءِ بصلاحِ مَلِكِها ومُطاعِهَا ، وفسادُها بفسادِه ؛ كانت هذه حالَ النَّاسِ مع عُلمائِهم ومُلوكِهِم ، كما قال بعضُ السلفِ : " صِنفانِ إذا صَلَحا صلحَ الناسُ وإذا فسدا فسدَ الناسُ : العلماءُ والأمراءُ " (١) .

قال عبد الله بن المبارك :

وهـل أفسـدَ الدِّيـنَ إلا المُلـوكُ ... وأحبَـارُ سُـوءٍ ورُهبَـانُـهـا (٢)

مكانة السمع والبصر والخلاف في أيهما أفضل

ولمَّا كان للسَّمعِ والبصرِ مِن الإدراكِ ما ليسَ لغيرِهما من الإعضاءِ ، كانا في أشرفِ جُزءٍ مِن الإنسانِ ، وهو وجْهُهُ ، وكانا من أفضلِ ما في الإنسانِ من الأجزاءِ والأعضاءِ والمَنافعِ . واختُلِفَ في الأفضلِ منهما :

فقالت طائفةٌ منهم أبو المعالي (٣) ، وغيرُهُ : السَّمعُ أفضلُ .

---

(١) رواه ابن قتيبة في المجالسة (٣٠٨/٢) ، وأبو نعيم في الحلية (٥/٧) عن سفيان الثوري رحمه الله .

وروي مرفوعا عن ابن عباس رضي الله عنهما ، رواه تمام في فوائده (١٩٦/٢) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٩٦/٤) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٦٤١/١) ، وقال الألباني في السلسة الضعيفة (٢٥/١) : موضوع .

(٢) تقدَّمت ترجمة ابن المبارك ص : ٢٤١ . وقد رواه عنه ابن قتيبة في المجالسة (٣٠/٢) ، وأبو نعيم في الحلية (٢٧٩/٨) والبيهقي في شعب الإيمان (٤٢٢/٩) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٦٣٨/١) كلهم بألفاظ مقاربة .

(٣) البرهان للجويني (٢٨/١) .

عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن عبد الله الجُويني ، ولُقب بإمام الحرمين لأنَّه كما قيل : جاورَ في مكةَ أربعَة أعوام ، تفقّه على مذهب الإمام الشافعي ، وخلَفَ والدَهُ في التَّدريس ، له مصنفات عِدَّةٌ منها : الشَّامل ، والبرهان ، والعقيدةُ النِّظامية في الأركان الإسلامية ، والإرشاد ، وغيرها ، توفي عام : ٤٧٨ هـ .

وفيات الأعيان لابن خلكان (٨٠/٢) ، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١٦٥/٥)

قالوا : لأنَّ به تُنالُ سعادةَ الدُّنيا والآخرةِ ، فإنَّها إنَّما تَحصلُ بمُتابَعةِ الرُّسلِ ، وقَبُولِ رسالاتِهم ، وبالسَّمعِ عُرِفَ ذلك ، فإنَّ مَن لا سَمعَ له لا يعلمُ ما جاؤا بهِ .

وأيضاً ؛ فإنَّ السَّمعَ يُدركُ به أجلُّ شيءٍ وأفضَلُهُ ، وهو كلامُ اللهِ الذي فضْلُهُ على الكلامِ كفضلِ اللهِ على خلْقِهِ [١] .

وأيضاً : فإنَّ العلومَ إنَّما تُنالُ بالتَّفاهُمِ والتخاطب ولا يحصل ذلك الا بالسَّمعِ .

وأيضاً ؛ فإنَّ مُدْرَكَهُ أعمُّ من مُدْرَكِ البَصرِ ؛ فإنَّه يُدْرِكُ الكلِّياتِ والجُزئياتِ ، والشاهدَ والغائبَ ، والموجودَ والمَعدومَ ، والبصرُ لا يُدرك إلا بعضَ المُشاهدَاتِ ، والسَّمعُ يسمعُ كلَّ عِلمٍ ، فأين أحدُهُما مِن الآخرِ ؟

ولو فرضنَا شخصين أحدَهما يسمعُ كلامَ الرَّسولِ ، ولا يَرى شخصَهُ ، والآخرُ بصيرٌ يراهُ ولا يسمعُ كلامَهُ لصَمَمِهِ ، هل كانا سواءً ؟ .

وأيضاً ؛ ففاقدُ البصرِ إنَّما يفقدُ إدراكَ بعضِ الأمورِ الجُزئيةِ المُشاهَدةِ ، ويُمكِنُهُ مَعرفتُها بالصِّفةِ ولو تقريباً ، وأمَّا فاقدَ السَّمعِ فالذي فاتَهُ من العلمِ لا يُمكنُ حُصولُهُ بحاسَّةِ البصرِ ولا قريباً .

وايضاً ؛ فإنَّ ذمَّ اللهِ تعالى للكفارِ بعدمِ السَّمعِ في القرآنِ أكثرُ من ذمِّهِ لهم بعدمِ البصرِ بل إنَّما يذمُّهم بعدمِ البصرِ تبَعاً لعدَمِ العقلِ والسَّمعِ .

وأيضاً ؛ فإنَّ [٢] الذي يُوردُهُ السَّمعُ على القلبِ من العُلومِ لا يلحَقُه فيه كَلالٌ [ ولا سآمَةٌ ولا تَعبٌ مع كثرتِهِ وعِظَمِه ، والذي يُوردُه البصرُ عليه يلحقُه فيه الكَلالُ ] [٣] والضَّعفُ والنَّقصُ وربَّمَا خشِيَ صاحبُهُ على ذهابِهِ مع قلَّتِهِ ونَزارَتِهِ بالنِّسبةِ إلى السَّمعِ .

---

(١) روي في ذلك حديثُ أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه و سلم : يقول الرَّب عزَّ و جلَّ : ( من شغَلَه القرآنُ وذكري عن مسألتي ، أعطيتُهُ أفضلَ ما أُعطي السَّائلينَ ، وفضلُ كلامِ اللهِ على سائرِ الكلامِ ، كفضلِ اللهِ على خلْقِهِ ) رواه الترمذي (٢٩٢٦) ، والدارمي (٥٣٣/٢) وغيرهما ، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٥٠٧) .

(٢) "فإنَّ " ليست في : ص .

(٣) سقط من : ص .

وقالت طائفة منهم ابن قتيبة (١) : بل البصرُ أفضلُ (٢) ؛ فإنَّ أعلى النَّعيمِ وأفضلَه وأعظمَهُ لذَّةً هو النَّظرُ إلى الله في الدَّارِ الآخرةِ ، وهذا إنَّما يُنالُ بالبَصرِ ، وهذه وحدَها كافيةٌ في تفضيلِهِ .

قالوا : وهو مقدمةُ القلبِ وطليعتُه ورائدُه ، فمنزلتُه منه أقربُ من منزلةِ السَّمعِ ،ولهذا كثيراً ما يُقْرَنُ بينهما في الذِّكرِ بقولِهِ : ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ (٣) فالاعتبارُ بالقلبِ والبصرُ بالعينِ ، وقال تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ (٤) ، ولم يقل : وأسماعَهُم ، وقال تعالى : ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (٥) وقال تعالى : ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾ (٦) .

قالَ تعالى : ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ (٧) ، وقالَ في حقِّ رسولِهِ : ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ (٨) ثم قال : ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ (٩) ، هذا يدُلُّ على شدَّةِ الوَصلَةِ والارتباطِ بينَ القَلبِ والبَصرِ ، ولهذا يقرأُ الإنسانُ ما في قلبِ الآخَرِ مِن عينهِ وهذا كثيرٌ في كلامِ النَّاسِ ؛ نظمِهِ ونثرِهِ ، وهو أكثَرُ مِن أن نَذكُرَهُ هنا.

ولمَّا كانَ القَلبُ أشرَفَ الأعضاءِ ؛ كانَ أشدَّها ارتباطاً به ، وأشرَفَ من غَيرِهِ .

قالوا : ولهذا يأتمِنُهُ القَلبُ ما لا يأتمِنُ السَّمعَ عليه ، بل إذا ارتابَ جهَتهِ السمعُ عَرَضَ ما يأتيهِ به على البَصَرِ ليُزكِّيَهُ أم يردَّهُ ، فالبَصَرِ حاكمٌ عليهِ مؤتَمَنٌ عليه .

---

(١) ابن قتيبة تقدمت ترجمته في ص : ٩١ .

(٢) الذي جاء في تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (١٣) تفضيلُهُ السمعَ على البصر ، وكذا نقله عنه الجويني في البرهان (٢٨/١) ، وشيخ الإسلام ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل (٣٥/٤) ، والرازي في تفسيره (٨٢/١٧) .

(٣) الحشر : ٢ .

(٤) الأنعام : ١١٠ .

(٥) الحج : ٤٦ .

(٦) النازعات : ٨ — ٩ .

(٧) غافر : ١٩ .

(٨) النجم : ١١ .

(٩) النجم : ١٧ .

قالوا : ومن هذا : الحديثُ الذي رواهُ أحمد (١) في "مسنَدِهِ" (٢) مرفوعاً : "ليسَ المُخبَرُ كالمُعاين" .

قالوا: ولهذا أخبَرَ اللهُ سبحانَهُ موسى عليه الصلاة والسلام أنَّ قومَهُ افتَتَنوا مِن بعدِهِ وعَبَدوا العِجلَ ، فلم يَلحقْهُ في ذلكَ ما لَحِقَهُ عند رؤيَةِ ذلكَ ومُعايَنَتِهِ من إلقاءِ الألواحِ وكَسْرِها لقُوَّةِ المُعاينَةِ على الخبَرَ .

قالوا : وهذا إبراهيمُ خليلُ اللهِ يسألُ ربَّهُ أن يُرِيَهُ كيفَ يُحيي الموتى ، وقَد علمَ ذلكَ بخبَرِ اللهِ له ، ولكنْ طَلَبَ أفضَلَ المَنازِلِ وهي طمأنينَةُ القلبِ .

قالوا: ولليَقينِ ثلاثُ مراتب : مراتب اليقين

أوَّلها : للسَّمعِ .

والثَّاني : للعَين ؛ وهي المُسمَّاةُ بعَين اليَقين ، وهي أفضلُ مِن المرتبَةِ الأُولى وأكملُ (٣) .

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ١١١ .

(٢) (٢١٥/١ ، ٢١٧) ، ورواه البزار (٢٧٢/١١ و ٣٣٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ : ( ليس الخبرُ كالمُعاينة ) ، وصححه ابن حبان (٦٢١٣) ، والحاكم في المستدرك (٣٢١/٢) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٤٨/٢) .

(٣) ولم يذكر رحمه الله المرتبة الثالثة ، وهي طمأنينة القلب ، وقد فصَّلَ هذه المَراتب في : التبيان في أقسام القرآن (١٩١) فقال : " ذكرَ الله سبحانه في كتابِهِ مَراتبَ اليقينِ ، وهي ثلاثةٌ : حقُّ اليقينِ ، وعلمُ اليقينِ ، وعينُ اليقينِ كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر: ٥ -٧] ، فهذه ثلاثُ مراتب لليقين ، أولها عليه وهو التَّصديقُ التَّامُّ به ، بحيث لا يعرضُ له شَكٌّ ، ولا شُبهةٌ تقدحُ في تصديقِه كعلمِ اليقين بالجنةِ مَثلاً ، وتيقُنِهم أنَّها دارُ المتقين ، ومقرُّ المؤمنين ، فهذه مرتبةُ العلمِ كيقينِهم أنَّ الرُّسل أخبروا بها عن اللهِ ، وتيقُّنهم صِدقَ المُخبِرِ .

المرتبة الثانية : عينُ اليقين ، وهي مرتبةُ الرؤيةِ والمُشاهَدةِ ، كما قال تعالى : ﴿ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ ، وبينَ هذه المرتبةِ ، والتي قبلها فَرقُ ما بين العلمِ والمُشاهَدةِ : فاليقينُ للسَّمعِ ، وعينُ اليقينِ للبصرِ ، وفي المسند للإمام أحمدَ مرفوعاً ( ليسَ الخبرُ كالمُعاينِ ) " ثم قال : " المرتبة الثالثة : مرتبةُ حقِّ اليقينِ ، وهي مُباشرةُ الشيءِ بالإحساسِ بهِ كما إذا أدخلوا الجنةَ ، وتمتَّعوا بما فيها ، فهم في الدُّنيا في مرتبةِ علمِ اليقينِ ، وفي الموقفِ حين تزلفُ وتقربُ منهم

قالوا : وأيضاً ؛ فالبَصَرُ يُؤدِّي إلى القَلب ، ويُؤدِّي عنه ، فإنَّ العينَ مِرآةُ القَلبِ ، يَظهرُ فيها ما يُجِنُّهُ مِن المحبَّةِ والبُغضِ ، والمُوالاةِ والمُعاداةِ ، والسُّرورِ والحُزنِ وغيرِها.

وأمَّا الأُذنُ فلا تُؤدِّي عن القَلبِ شيئاً البتَّة ، وإنَّما مرتبتُها الإيصالُ إليه حَسْبُ ، فالعَينُ أشدُّ تعلُّقاً به (١) .

والصَّوابُ أنَّ كلَّاً منهما له خاصِّيَّةٌ فَضُلَ بها الآخرَ ، فالمُدرَكُ بالسَّمعِ أعمُّ وأشملُ والمُدرَكُ بالبَصَرِ أتمُّ وأكملُ ، فالسَّمعُ له العمومُ والشمولُ ، والبَصَرُ له الظُّهورُ والتَّمامُ وكمالُ الإدراكِ (٢) .

وأمَّا نعيمُ أهلِ الجنَّةِ فشيئان :

أحدُهما : النَّظرُ إلى اللهِ.

والثَّاني : سماعُ خِطابهِ وكلامهِ ، كما رواهُ عبد اللهِ بن الإمام أحمدَ (٣) في " السنَّة " وغيرِهِ : " كأنَّ النَّاسَ يومَ القيامَةِ لم يَسمَعوا القُرآنَ إذا سمعوهُ مِن الرَّحمنِ عزَّ وجَلَّ " (٤) .

---

حتى يُعاينوها في مرتبة عينِ اليقينِ ، وإذا دخلوها وباشروا نعيمَهَا في مرتبةِ حقِّ اليقين ، ومُباشرةُ المَعلومِ تارةً يكون بالحواسِّ الظاهرةِ ، وتارةً يكون بالقلبِ ، فلهذا قال : ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة:٥١] ، فإنَّ القلبَ يُباشرُ الإيمان به ويُخالِطُه كما يُباشر بالحواسِّ ما يتعلقُ بها ، فحينئذ يُخالطُ بشاشَتَه القلوبَ ، ويبقى لها حقُّ اليقينِ ، وهذه أعلى مراتبِ الإيمانِ ، وهي الصِّديقيَّةُ التي تتفاوتُ فيها مَراتبُ المؤمنين "

(١) فصَّل الرازي في تفسيره (٨٢/١٧ – ٨٣) حُجَج كلِّ طائفة .

(٢) سيذكر المؤلف في هذا الكتاب : أن التحقيقُ في المسألة أن أيَّ الصِّفتين كانت أكملَ ، فالضَّررُ بعدَمِها أقوى (٢٧٥/١) طبعة دار الفكر .

(٣) عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني ، أبو عبد الرحمن ، إمام حافظ ، مُحدِّثُ بغداد ، روى عن أبيه أحاديث كثيرة ، منها : المسند ، والزهد ، توفي عام : ٢٩٠ . تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٣٧٥/٩) وطبقات الحنابلة للقاضي ابن أبي يعلى (١٨٠/١) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (١٧٣/٢) .

(٤) (١٤٧/١) ح : ١٢٣ ، عن موسى بن عُبيدة ، عن محمد بن كعب القرظي ، موقوفاً .

وموسى بن عُبيدة بن نَشِيط بن عمرو بن الحارث الرَّبَذي ، ضعيف ، قال الإمام أحمد عنه : منكر الحديث =

ومعلومٌ أنَّ سلامَهُ عليهم ، وخِطابَهُ لهم ، ومُحاضرتَهُ إيَّاهُم – كما في الترمذي [(١)] وغيره [(٢)] – لا يُشبهها شيءٌ قطُّ ، ولا يكونُ أطيبَ عندهم منها .

ولهذا يذكرُ سبحانَهُ في وعيدِ أعدائهِ أنَّهُ لايُكلِّمُهُم ، كما يَذكرُ احتجابَهُ عنهُم ، ولا يَرونهُ، فكلامُهُ ورؤيتُهُ أعلى نعيمِ أهلِ الجنَّةِ ، واللهُ أعلم [(٣)] .

عدَّدَ الله على عباده نعمَه عليهم بأن أعطاهم آلات العلم

الوجهُ الرَّابعُ والثمانون : أنَّ اللهَ سبحانَهُ في القُرآنِ يُعدِّدُ على عبادِهِ مِن نعمِهِ عليهم أنْ أعطاهُم آلاتِ العلمِ ، فيذكرُ الفؤادَ والسَّمعَ والأبصارَ ، ومرَّةً يذكرُ اللسانَ الذي يُترجَمُ به عن القَلبِ ، فقال تعالى في سورةِ النِّعَم ، وهي سورَة النَّحل [(٤)] ، التي ذكرَ فيها أُصولَ النِّعَمِ ، وفروعَها ، ومُتمَّاتِها ، ومُكمِّلاتِها ، فعدَّدَ نِعمَهُ فيها على عبادِه ، وتعرَّفَ بها إليهم ، واقتضاهم شُكرَها ، وأخبَرَ أنَّهُ يُتِمُّها عليهم ليعرفُوها ويذكُروها ويشكُروها فأوَّلُها في أُصولِ النِّعمِ ، وآخرُها في مُكمِّلاتِها ، قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [(٥)] ؛ فذكَرَ سبحانَهُ نِعمتَهُ عليهم بأنْ أخرجَهم لا علمَ لهم ، ثمَّ أعطاهُم الأسماعَ

---

وقال : لا تحل الرواية عنه . تهذيب التهذيب لابن حجر (٣٥٧/١٠) .

(١) تقدمت ترجمته ص : ٢٠٤ .

(٢) رواه الترمذي (٢٥٤٩) ، وابن ماجه (٤٣٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وفيه : قال أبو هريرة : قلت يا رسول الله : وهل نرى ربنا ؟ قال : ( نعم ، هل تَتَمَارَوْنَ في رُؤيةِ الشمس والقمر ليلةَ البدرِ ؟ " قلنا : لا ، قال : (كذلك لا تتمارَوْنَ في رُؤيةِ ربكم ، ولا يبقى في ذلك المجلس رجلٌ إلا حاضَرَهُ الله مُحاضَرَةً حتى يقول للرجلِ منهم : يا فلان ابنَ فلانٍ ، أتذكُرُ يومَ قلتَ : كذا وكذا ؟ فيُذَكِّرُهُ ببعض غَدَرَاتِهِ في الدنيا ، فيقولُ : يا ربِّ ! أفلمْ تغْفِرْ لي ؟ فيقولُ : بلى فبِسَعَةِ مَغفِرَتِي ، بلغت منزلتَك هذه ...) الحديث ، وقد ضعفه الترمذي ، وكذا ضعَّفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٢٩٥/١) .

(٣) ينظر تفصيل هذه المسألة في : بدائع الفوائد للمؤلف (٧٠/١) ، والصواعق المرسلة له (٨٧٣/٣) ، ومدارج السالكين له (٤٠٩/٢) ، والحاوي الكبير للماوردي (٢٤٤/١٢) ، وتفسير الرازي (٤٩/٢ و ٨٢/١٧ – ٨٣) ونكث الهميان للصفدي (١٦) ، والفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي (٥٧) ، وتفسير أبي السعود (٣٨/١) .

(٤) تُسمى سورة النِعم ، كما روي عن قتادة رحمه الله ينظر : تفسير ابن أبي حاتم (٢٢٩٥/٧) ، وتفسير الماوردي (٢٠٧/٣) ، وتفسير السمعاني (١٥٨/٣) ، تفسير السيوطي (١٥٥/٥) .

(٥) النحل : ٧٨ .

والأبصارَ والأفئدَةَ التي نالوا بها مِن العلم مانالُوهُ ، وأنَّهُ فَعَلَ بهم ذلك ليَشكروهُ ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن ﴾ [1] ، وقال تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [2] ، فذَكَرَ هنا العَينين التي يُبْصِرُ بهما فيعلَمَ المُشاهَداتِ ، وذكرَ هدايةَ النَّجدَين وهما طريقا الخيرِ والشَّرِّ ، وفي ذلكَ حديثٌ مرفوعٌ ومرسلٌ [3] ، وهو قولُ أكثر المُفسرين [4] وتدلُّ عليه الآيَةُ الأُخرى :﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [5] .

والهدايَةُ تكونُ بالقَلبِ والسَّمعِ ، فقَد دَخلَ السَّمعُ في ذلكَ لُزوماً ، وذَكَرَ اللسانَ والشفَتينِ اللتين هما آلةُ التَّعليم ، فَذَكَرَ آلاتِ العِلمِ والتَّعليمِ وجَعلَها مِن آياتهِ الدَّالَّةِ عليهِ وعلى قُدرتهِ ووحدانيَّتهِ ، ونِعَمهِ التي تعرَّف بها إلى عبادِه .

ولمَّا كانت هذه الأعضاءُ الثَّلاثَةُ هي أشرفَ الأعضاءِ ومُلوكَها ، والمُتَصرِّفَةَ فيها والحاكمَةَ عليها خصَّها سبحانَهُ وتعالى بالذِّكر في السُّؤالِ عنها ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ

---

(١) الأحقاف : ٢٦ .

(٢) البلد : ٨ – ١٠ .

(٣) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٤٢٨/٣) ، وابن جرير الطبري في تفسيره (٤١٧/٢٤) ، عن الحسن مرسلاً .
ورواه عبد الرزاق في تفسيره (٤٢٩/٣) ، وابن جرير الطبري في تفسيره (٤١٥/٢٤) ، والطبراني في الكبير (٢٢٥/٩) عن ابن مسعود موقوفاً . وصححه الحاكم (٥٢٣/٢) ، وحسَّنه ابن حجر في الفتح (٧٠٤/٨) .

(٤) قال ابن جرير الطبري في تفسيره (٤١٩/٢٤) : " وأولى القولين بالصَّوابِ في ذلك عندنا : قولُ من قال : عُنِي بذلك طريقَ الخيرِ والشرّ، وذلك أنَّه لا قول في ذلك نعلمُه غيرَ القولين اللذين ذكرنا ، والثَّديان وإن كانا سبيلي اللبن فإنَّ الله تعالى ذكْره إذ عدّد على العبد نِعَمه بقوله : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الإنسان:٢– ٣] إنما عدّد عليه هدايتَهُ إياه إلى سبيلِ الخيرِ من نِعَمِهِ ، فكذلك قولُه : ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ "

(٥) الإنسان : ٣ .

﴿ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (١) ، فسعادَةُ الإنسانِ بصحَّةِ هذه الأعضاء الثَّلاثة ، وشقاوتُهُ بفسادها (٢).

قال ابنُ عباس رضي الله عنه (٣) : "يسألُ اللهُ العبادَ فيما استعملوا هذه الثَّلاثةَ : السمعَ والبصرَ ، والفؤادَ " (٤) .

واللهُ تعالى أعطى العَبدَ السَّمع ليسمعَ بهِ أوامرَ ربِّه ونواهيَه وعهودَه ، والقَلبَ ليَعقلَها ويفقَهَها ، والبَصَرَ ليرى آياتهِ فيستدلَّ بها على وحدانيَّتهِ وربوبيَّتهِ ، فالمقصودُ بإعطائهِ هذه الآلاتِ العلمُ وثمرتُهُ ومُقتضاهُ .

السعادة الحقيقية هي سعادة العلم النافع وثمرته

الوجـهُ الخامسُ والثامنون : أنَّ أنواعَ السَّعاداتِ التي تُؤثِرُها النُّفوسِ ثلاثةٌ :

- سعادَةٌ خارجيَّةٌ عن ذاتِ الإنسانِ ، بل هي مُستعارَةٌ له من غيرِهِ ، يزولُ باستردادِ العاريَّةِ ، وهي سعادَةُ المالِ والجاه ، فبينا المرءُ بها سعيداً، ملحوظاً بالعنايَةِ ، مَرموقاً بالأبصارِ ، إذ أصبحَ في اليومِ الواحدِ " أذلَّ مِن وَتَـدٍ بقَـاعٍ يُشَجِّجُ رأسَهُ بالفِهْرِ واجِي " (٥)

(١) الإسراء : ٣٦ .

(٢) قال المؤلف رحمه الله في : التبيان في أقسام القرآن (٢٥١) : " وقد جعلَ الله سبحانه بين السَّمعِ والبصرِ والفؤادِ علاقةً وارتباطاً ونفوذاً ، يقومُ به بعضُها مَقامَ بعضٍ ، ولهذا يقرِنُ سبحانه بينهما كثيراً في كتابه كقولِهِ : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] ، وقولِهِ تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً ﴾ [الأحقاف:٢٦] ، وقولِهِ : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ [الأعراف:١٧٩] وهذا من عنايةِ الخالقِ سبحانه بكمالِ هذهِ الصُّورةِ البشريةِ ؛ لتقومَ كلُّ حاسَّةٍ منها مَقامَ الحاسَّةِ الأخرى وتُفيدُ فائدَتَها في الجملة لا في كلِّ شيءٍ " .

(٣) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

(٤) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٤٦٠/١٠) ، وابن جرير الطبري في تفسيره (٦٠٤/٢٤) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٣٧/٦) .

(٥) مثل من الأمثال ، وهو بيت من قصيدة لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، هجا بها عبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص ، حيث أنَّ ابن الحكم تفاخر على ابن حسان أن الخلفاء من بني أمية ، لا من الأوس والخزرج . =

**فالسَّعادَةُ والفَرحُ بهذه كفَرح الأقرعِ بجُمَّةِ ابن عمِّهِ ! والجمالُ بها كجمالِ المرءِ بثيابهِ وبِزَّتِهِ ، فإذا جاوَزَ بصرُك كسوتَهُ فليسَ وراءَ عَبَّادانَ قريةٌ (١).**

**ويُحكى عن بعضِ العلماءِ أنَّهُ رَكِبَ مع تُجَّارٍ في مَركبٍ ، فانكسَرَتْ بهم السَّفينَةُ فأصبحوا بعدَ عزِّ الغنى في ذُلِّ الفَقرِ ، وَوَصَلَ العالِمُ إلى البَلدِ ، فأُكرِمَ وقُصِدَ بأنواعِ التُّحَفِ والكراماتِ ، فلمَّا أرادوا الرُّجوعَ إلى بلادهم قالوا له : هل لكَ إلى قومِكَ كتابٌ أو حاجةٌ ؟ فقالَ: نعم ، تقولونَ لهم : إذا اتَّخذتُم مالاً فاتَّخِذوا مالاً لا يَغرَقُ إذا انكسَرَت السَّفينةُ ، فاتِّخِذوا العلمَ تجارةً .**

**واجتمعَ رجلٌ ذو هَيئةٍ حَسَنةٍ ، ولباسٍ جميلٍ ورُوَاءٍ (٢) برجلٍ عالِمٍ ، فجسَّ المَخَاضَةَ (١) فلم يَرَ شيئاً ، فقالوا : كيف رأيتَهُ ؟ فقال : رأيتُ داراً حسنةً مُزخرفةً ولكنْ ليسَ بها ساكنٌ ! .**

---

ولفظه : وكنت أذلَّ مِن وَتَدٍ بقَاعٍ يُشَجِّجُ رأسَهُ بالفِهْرِ واجِي

ينظر : الكتاب لسيبويه (٥٥٥/٣) ، والكامل في اللغة للمبرد (٧٥/٢) ، والمحتسب لابن جني (٨١/١) ، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (٣٧٦/١) .

والقاع : كل ما استوى من الأرض ، ويُشجِّجُ : مُبالغة في الشجِّ ، وأصل الشجِّ في الرأس ، والفِهْرُ بكسر الفاء : الحَجَرُ مِلءُ الكفِّ ، وواجي : أصلها واجئ ، وهو الذي يدقُّ ، اسمُ فاعل من وجأتُ عُنُقَه أجؤها ، إذا ضربته . ويضربُ المثلُ في الذُّلِّ والمهانَةِ بالوتَدِ ، فيقال : هو أذل من وتد بقاع ، حيث أنَّه يُشجُّ أي يضربُ على رأسه ، فلا يرثي له أحد ، ولا يرقُّ له أحدٌ ولا يحمِهِ . ينظر : جمهرة الأمثال لابي هلال العسكري (٤٤٦٨/١) ، ومجمع الأمثال للميداني (٢٨٣/١) و المستقصى للزمخشري (١٣٦/١) ، وزهر الأكم في الأمثال والحكم لليوسي (١٤/٣) .

(١) ذكَر الثعالبي في رسائله (٧٥) : أنَّ الأستاذ الطبري أنشده لنفسه في أبي سعدٍ بن دُوسْت ، قال :

أبو سَعْدٍ لهُ ثوبٌ نَفِيسٌ ولكنْ تحتَ ذاكَ الثَّوبِ عُريَه
فإنْ جَاوَزتَ كِسوَتَهُ إليهِ فليس ورَاءَ عَبَّادَانِ قَريَه

وذكَرَ البيتين الراغبُ الأصفهاني في محاضرات الأدباء (٣٨٠/٢) .

وعبَّادان : جزيرة أحاط بها نهر دجلة ، جنوب البصرة ، وهي آخر موضع من جهة الخليج العربي ، وسميت بذلك نسبة إلى عبَّاد بن الحُصين إذ هو أول من رابط فيها زمن الحجاج ، وهي الآن أحد مدن جمهورية إيران ، واسمها الحالي : آبادان ، وقيل هذا المثل لأنَّ وراءها البحر . معجم البلدان لياقوت الحموي (٧٤/٤) ، وآثار البلاد وأخبار العباد للقزويني (٤١٩) .

(٢) الرُّواءُ : حُسْنُ المَنظرِ في البَهاءِ والجمالِ .

ينظر : العين للخليل بن أحمد (٣١١/٨) ، تهذيب اللغة للأزهري (٢٢٨/١٥) ، والصحاح للجوهري

- **السَّعادَةُ الثَّانيةُ : سعادَةٌ في جسمهِ وبَدنِه ؛ كصحّتهِ ، واعتدالِ مزاجِهِ ، وتناسُبِ أعضائِهِ ، وحُسنِ تركيبِهِ ، وصفاءِ لونِهِ ، وقُوَّةِ أعضائِهِ ، فهذه ألصقُ به من الأُولى ولكنْ هي في الحقيقةِ خارجةٌ عن ذاتِهِ وحقيقتِهِ ، فإنَّ الإنسانَ إنسانٌ بروحِهِ وقلبهِ لا بجسمهِ وبدنهِ ، كما قيل :**

**يا خادَم الجسمِ كَمْ تَشقَى بِخِدْمَتِهِ فـأنتَ بالـرُّوحِ لا بالجِسمِ إنسـانُ [٢]**

**فنسبةُ هذه إلى روحهِ وقلبهِ كنسبةِ ثيابهِ ولباسهِ إلى بدنهِ ؛ فإنَّ البَدَنَ أيضاً عاريَةٌ للرُّوحِ وآلةٌ لها ، ومركبٌ مِن مراكبها ، فسعادتُها بصحّتهِ ، وجمالُه وحُسنُه سعادةٌ خارجيةٌ عن ذاتِها وحقيقَتِها [٣] .**

- **السَّعادَةُ الثَّالثَةُ : هي السَّعادةُ الحقيقيَّةُ ؛ وهي سعـادَةٌ نَفسانيَّةٌ روحيَّةٌ قلبيَّةٌ وهي سعادَةُ العلمِ النَّافعِ وثمرتُهُ ، فإنَّها هي الباقيَةُ على تقلُّبِ الأحـوالِ والمُصاحِبَةُ للعَبدِ في جميعِ أسفارِهِ ، وفي دُورِهِ الثَّلاثَةِ ، أعني : دارَ الدُّنيا ، ودارَ البرزَخِ ، ودارَ القَرارِ ، وبها يترقَّى معارجَ الفَضلِ ، ودرجاتِ الكمالِ .**

**أمَّا الأولى : فإنَّها تصحبُهُ في البُقعَةِ التي فيها مالُهُ وجاهُهُ .**

---

(٢٣٦٥/٦) .

(١) أي : اختبره ، والمَخَاضَةُ : موضعُ الخوضِ في الماء ، وهي مكان عبور الناس والدَّوابِ .
ينظر : الصحاح للجوهري (١٠٧٥/٣) ، ولسان العرب لابن منظور (١٤٧/٧)

(٢) البيت لأبي الفتح علي بن محمد البستي . ينظر : المنتظم لابن الجوزي (٢٣٢/١٤) ، والسلوك في طبقات العلماء والملوك للجُندي اليمني (٣٢٣/١) ، وحياة الحيوان الكبرى للدَّمِيري (٢٥٠/١) ، والكشكول للعاملي (٢٤٠) وفيها :

يا خادمَ الجسمِ كم تشقى بخِدمَتِهِ أتطلـبُ الرِّبْحَ مِمَّا فيهِ خُسـرَانُ
أقبِلْ على النَّفسِ واستكمِلْ فضَائِلَهَا فأنتَ بالنَّفسِ لا بالجسمِ إنسَانُ

(٣) قال المؤلف رحمه الله في عُدَّة الصابرين (٣٨) : " فإنَّه ليس إلى شيءٍ أحوجَ وأشدَّ فاقةً منه إلى مَعرفَةِ ربِّهِ وتوحيدِهِ وإخلاصِ العملِ لهُ ، وإفرادِهِ بالعُبوديَّةِ والمحبَّةِ والطَّاعةِ ، وضرورَتُه إلى ذلك أعظمُ من ضرورَتِه إلى نفْسِهِ ونفَسِهِ وحياتِهِ ، أعظمُ مِن ضرورتِهِ إلى غِذائِه الذي به قِوامُ بدنِهِ ، بل هذا لقلْبِهِ ورُوحِهِ كالحياةِ والغِذاءِ لبدَنِهِ ، وهو إنَّما هو إنسانٌ بروحِهِ وقلْبِهِ ، لا ببَدنِه وقالَبِهِ "

والثَّانيَةُ : بعُرضَةٍ للزَّوالِ والتَّبدُّلِ بنَكْسِ الخَلْقِ والرَّدِّ إلى الضَّعفِ ، فلا سعادَةَ في الحقيقة إلا هذه الثَّالثَةَ ، التي كلَّما طالَ الأمدُ ازدادَت قوَّةً وعُلُوًّا ، وإذا عُدِمَ المالُ والجاهُ فهي مالُ العَبدِ وجاهُهُ ، وتَظهَرُ قوَّتُها وأثرُها بعدَ مُفارقَةِ البدنَ ، إذا انقطَعَتِ السَّعادَتانِ الأوَّلتانِ .

وهذه السَّعادَةُ لا يعرِفُ قَدْرَها ، ويَبعَثُ على طَلبها إلاّ العلمُ بها ، فعادَت السَّعادَةُ كلُّها إلى العلمِ وما يَقتَضيهِ ، واللهُ يُوفِّقُ مَنْ يشاءُ ، لا مانعَ لما أعطى ولا مُعطي لما منَعَ .

وإنَّما رَغِبَ أكثرُ الخَلْق عن اكتسابِ هذه السَّعادَةِ وتحصيلها لِوَعورَةِ طريقها ومرارَةِ مبادِيها وتَعَبِ تحصيلها ، وأنَّها لا تُنالُ إلا على جِسْرٍ مِن التَّعبِ ؛ فإنَّها لا تُحصَّلُ إلا بالجدِّ المحضِ ، بخلافِ الأَوَّلَين ؛ فإنَّهما حظٌّ / قَد يحوزُهُ غيرُ طالبِهِ [٥٦/أ]
وبَخْتٌ (١) قَد يحوزهُ غيرُ جالبهِ مِن ميراثٍ ، أو هِبَةٍ ، أو غَيرِ ذلكَ .

وأمَّا سعادَةُ العلمِ فلا يُورثُكَ إيَّاها إلاّ بذلُ الوُسعِ ، وصِدقُ الطَّلب ، وصحَّةُ النيَّة .

وقَد أحسَنَ القائلُ (٢) :

فقُل لِـمُرجِّي مَعالي الأُمُورِ ... بغَيرِ اجتهادٍ رَجَوتَ المُحالا

وقال الآخَرُ (٣) :

لولا المَشقَّةُ سادَ النَّاسُ كلُّهُمُ ... الجُودُ يُفقِرُ والإقْدَامُ قتَّالُ

ومَن طَمَحَتْ همَّتُهُ إلى الأُمورِ العَليَّةِ فَواجِبٌ عليه أن يَسُد على هِمَّتِهِ الطُّرقَ الدَّنيَّةَ .

---

(١) البَختُ : الحظُّ ، وهي كلمة مُعَرَّبةٌ . ينظر : المحيط في اللغة للصاحب بن عباد (٣١٥/٤) ، وتاج العروس للزبيدي (٤٣٧/٤) .

(٢) هو : نصر بن أحمد الخُبْز أَرُزِّي ، من الشعراء العباسيين ت : ٣٣٠ هـ . ينظر : محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (٥٢٣/١) .

(٣) هو : المتنبي ديوانه (١٩١) .

**وهذه السَّعادَةُ وإنْ كانت في ابتدائها لا تنفَكُّ عن ضربٍ مِن المَشقَّةِ والكُرهِ والتَّأذِّي فإنَّها متى أُكرِهَت النَّفسُ عليها ، وسيقَت طائعَةً وكارهةً إليها ، وصَبَرَتْ على لأوائها وشدَّتِها ، أفضَت منها إلى رياضٍ مُؤنَّقةٍ ، ومقاعدِ صدقٍ ، ومقامٍ كريمٍ ، تجدُ كُلَّ لذَّةٍ دونها كلذَّةِ لَعِبِ الصَّبيِّ بالعُصفورِ بالنِّسبَةِ إلى لذَّةِ المُلوكِ ، فحينئذٍ حالُ صاحبها كما قيل (١) :**

**وكنتُ أرى أنْ قَد تناهَـى بـيَ الهَوى ... إلى غايَـةٍ مَا بَعدَهَـا لي مَـذهَـبُ**
**فلـمَّا تَـلاقَـيْنَـا وعايَنـتُ حُـسنَهـا ... تيـقَّنـتُ أنِّي إنَّمـا كنـتُ ألعـبُ**

**فالمَكارمُ مَنُوطَةٌ بالمَكارهِ ، والسَّعادَةُ لا يُعبَرُ إليها إلاّ على جِسرِ المَشقَّةِ ، ولا تُقطعُ مسافَتُها إلاّ في سفينَةِ الجدِّ والاجتهاد ، قالَ مسلمٌ (٢) في "صحيحه" (٣) قال يحيى بن أبي كثيرٍ (٤) : " لايُنالُ العلمُ براحَةِ الجسم " .**
**وقد قيلَ : " مَنْ طَلَبَ الرَّاحَةَ تركَ الرَّاحَةَ " (٥) .**

---

(١) ذكرهما محمد بن داود الظاهري في الزهرة (٧٦) ونسبهما إلى بعض أهل عصره ، وذكرهما المؤلف من غير نسبة في طريق الهجرتين (٤٣٤) ، وفي مدارج السالكين (٤٩٩/١) .

(٢) تقدّمت ترجمته ص : ٧٧ .

(٣) الحديث رقم (٦١٢) .

(٤) يحيى بن أبي كثير ، أبو نصر الطائي ، مولاهم ، اليماني ، واسم أبيه : صالح ، وقيل : يسار ، وقيل غير ذلك إمام ، حافظ ، روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وتوفي عام : ١٢٩ هـ . تهذيب الكمال للمزي (٥٠٤/٣١) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢٧/٦) .

(٥) روى نحوه البيهقي في الزهد (٨٢) عن محمد بن علي الكتَّاني ، وينظر : أدب الدنيا والدين للماوردي (٥٧) وفيض القدير للمناوي (٥٤١/٢) .

وقال المؤلف رحمه الله : " العقلاءُ قاطبةً مُتفقون على استحسانِ أتعابِ النُّفوسِ في تحصيلِ كَمَالاتِها من العِلمِ والعملِ الصَّالحِ ، والأخلاقِ الفاضِلةِ ، وطلبِ مَحمَدةِ مَن ينفَعُهم حَمدُه ، وكلُّ من كان أتعبَ في تحصيلِ ذلك كان أحسنَ حالاً ، وأرفعَ قدْراً ، وكذلك يستَحسِنُون أتعابَ النُّفوسِ في تحصيلِ الغِنى والعزِّ والشَّرفِ ، ويذمُّون القاعِدَ عن ذلك وينسُبُونَهُ إلى دَناءَةِ الهِمَّةِ ، وخِسَّةِ النَّفسِ ، وضَعَةِ القَدْرِ :

دعِ الـمَكارمَ لا تنْهَضْ لبُغيَتِها ... واقْعُدْ فإنَّك أنتَ الطَّاعمُ الكَاسِي

وهـذا التَّـعبُ والـكَـدُّ يستلـزمُ آلامـاً ، وحُصولَ مَكـارِهَ ومَـشَـاقٍ ، هي الطَّريـقُ إلى تلك الكمَـالات " شفاء العليل (٢٢٥/١) .

فيا وصْلَ الحَبيبِ أمَا إليهِ ... بغيرِ مَشقَّةٍ أبداً طريقٌ (١)

ولولا جهلُ الأكثرينَ بحَلاوَةِ هذه اللَّذَّةِ ، وعِظَمِ قَدرِها لَتجالَدوا عليها بالسُّيوف ، ولكنْ حُفَّت بحجابٍ مِن المكارهِ ، وحُجبوا عنها بحجابٍ من الجهلِ ؛ ليختصَّ اللَّهُ بها مَنْ يشاءُ مِن عبادهِ ، واللَّهُ ذو الفضلِ العظيم (٢).

أن الكمال لا يُنال إلا بالعلم فإذا عُدم العبد كماله انتقل إلى الدرجة التي دونها

الوجهُ السَّادسُ والثمانون : أنَّ اللهَ سبحانَهُ خَلَقَ المَوجودَاتِ ، وجَعَلَ لكلِّ شيءٍ منها كمالاً يَختَصُّ بهِ هو غايَةُ شَرفهِ ، فإذا عُدِمَ كمالُهُ انتقلَ إلى الرُّتبَةِ التي دونهُ ، واستُعمِلَ فيها ، فكانَ استعمالُهُ فيها كمالَ أمثالهِ ، فإذا عَدِمَ تلكَ أيضاً نُقِلَ إلى ما دونَها ولا تعَطُّلُ وهكذا أبداً حتى إذا عَدِمَ كلَّ فَضيلَةٍ صارَ كالشوكِ ، وكالحَطَبِ الذي لا يَصلُحُ إلا للوقُودِ .

فالفَرَسُ إذا كانَت فيهِ فروسيَّتُهُ التَّامَّةُ أُعِدَّ لمَراكبِ المُلوكِ ، وأُكرِمَ إكرامَ مثْلِهِ فإذا نَزَلَ عنها قليلاً أُعدَّ لمَن دونَ الملكِ ، فإن ازدادَ تَقصيرُهُ فيها أُعِدَّ لآحادِ الأجنادِ ، فإنْ تقاصَرَ عنها جملَةً استُعْمِلَ استعمالَ الحمارِ ؛ إمَّا حَولَ المَدارِ ، وإمَّا لنقلِ الزِّبْلِ (٣) ونحوهِ ، فإنْ عَدِمَ ذلكَ استُعملَ استعمالَ الأغنامِ للذبحِ والإعدام ، كما يُقال في المَثَل: إنّ فَرَسَين التَقيا ، أحدُهما تحتَ مَلِكٍ والآخَرُ يحملُ الرَّوايا (٤) فقالَ فرسُ الملِكِ : أمَا أنتَ صاحبي ، وكنتُ أنا وأنتَ في مكانٍ واحدٍ

(١) لم أقف عليه .

(٢) قال المؤلف رحمه الله : " قد استقرَّت حكمتُه سبحانه أنَّ السعادةَ والنعيم والراحةَ ، لا يُوصل إليها إلا على جسر المَشقَّةِ والتَّعب ، ولا يُدخل إليها إلا من باب المكاره ، والصَّبر وتحمُّل المَشاقِّ ، ولذلك حَفَّ الجنة بالمكاره والنارَ بالشهوات ، ولذلك أخرجَ صفيَّه آدمَ من الجنة ، وقد خلقها له ، واقتضت حكمته أن لا يدخلَها دُخولَ استقرارٍ إلا بعد التَّعب والنَّصب ؛ فما أخرجه منها إلا ليُدخله إليها أتمَّ دخولٍ ؛ فلله كم بين الدُّخولِ الأول والدخول الثاني من التفاوت ؟! " شفاء العليل (٢٢٥) .

(٣) هو : مُخلَّفاتُ الحيواناتِ وفَضَلاتُها التي تلقيها من بطونها ، ويُسمَّى : السِّرجِينُ ، والدَمَالُ ، والروث ، ونحوها ويستعمل لتَسْمِيدِ الأرض ، واستصلاحها للزرع .
ينظر : الصحاح للجوهري (١٧١٥/٤) ، ولسان العرب لابن منظور (٣٠٠/١١) .

(٤) جمع راوِية ، وهي : أعظم وأكبر من المَزَادة ، يُحفظ فيها الماء .
العين للخليل بن أحمد (٣١٢/٨) ، والمحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٣٥٣/١٠) .

**فما الَّذي نَزَلَ بكَ إلى هذه المَرتَبة ؟ فقال: ما ذاكَ إلا أنَّكَ هَمْلَجْتَ (١) قليلاً وتسَكَّعْتُ (٢) أنا ! (٣)**

**وهكذا السَّيفُ إذا نبَا عمَّا هُيِّىءَ له (٤) ولم يصلُحْ له ، ضُربَ منه فأسٌ أو مِنشارٌ أو نحوهُ . وهكذا الدُّورُ العِظامُ الحِسانُ إذا خَرِبَتْ وتهدَّمَت اتُّخِذَتْ حظائرَ للغَنمِ أو الإبلِ وغيرهما (٥).**

**وهكذا الآدميُّ إذا كانَ صالحاً لاصطفاء الله له برسالتِهِ ونُبوَّتِهِ اتَّخَذَهُ رسولاً ونبيّاً ، كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (٦) ، فإذا كانَ جوهرُهُ قاصِراً عن هذه الدَّرجَة ، صالحاً لخِلافَة النُّبوَّةِ ومِيراثِها ، رشَّحهُ لذلكَ ، وبلَّغَهُ إيَّاهُ ، فإذا كانَ قاصراً عن ذلكَ ، قابلاً لدرجَةِ الولايَةِ رُشِّحَ لها ، وإنْ كانَ ممَّن يَصلُحُ للعَمَلِ والعبادَةِ ، دونَ**

---

(١) الهَمْلَجةُ : حسنُ سَيْرِ الدّابّة في سُرعةٍ وبَختَرَةٍ ، والذّكرُ والأُنثى نعتُهُما : هِمْلاَجُ ، وهو من الانقِيادِ والتَّذلُّل .
العين للخليل بن أحمد (١١٨/٤) ، وتهذيب اللغة للأزهري (٢٧١/٦) .

(٢) التَّسَكُّعُ : هو التمادي في الباطل ، ويراد به : الذي يمشي ولا يدري أين يقصد ويتوجَّه .
الصحاح للجوهري (١٣٠٨/٣) ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (٩٤١/١)

(٣) قال أبو إسحاق الحُصري في جمع الجواهر (٨٢) : " نظر أبو الحارث إلى بِرذَون يُستَسقَى عليه الماءُ ، فقال :
وما المرءُ إلاّ حيثُ يجعلُ نفْسَــهُ ففي صالحِ الأخلاقِ نفْسَك فاجعَل
لو أن هذا البِرذَون هَمْلَجَ لَمَا فُعِلَ به هذا .
وينظر : البيان والتبيين للجاحظ (١٥٥/٣) ، وعيون الأخبار لابن قتيبة (٣٣٩/١) ، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (٥٢١/١ و ٦٨٧/٢) ، والتذكرة الحمدونية لابن حمدون (١٨٤/١ و ٢١٦/٣) ، والمدهش لابن الجوزي (١٧٦)

(٤) يقال : نبا السيفُ : إذا كَلَّ ، وبَرَدَ عن الضَّربِ ؛ فلم يقطع ، وخرجَ عمَّا يُصنع له ويُتَّخَذ .
العين للخليل بن أحمد (٣٧٩/٨) ، ولسان العرب لابن منظور (٣٠١/١٥) .

(٥) قال الراغب الأصفهاني : " وكلُّ ما أُوجدَ لفعلٍ مَا ، فشرَفُه بتمَامِ وُجُودِ ذلك الفعلِ منه ، ودنَاءَتُه بفُقدانِ ذلك الفعلِ منه ؛ كالفرَسِ للعَدو ، والسَّيفِ للقطعِ والعملِ المُختصِّ به في القتالِ ، ومتى لم يُوجد فيه المعنى الذي أُوجِدَ لأجلِهِ كان ناقِصًا ، فإمَّا أن يُطرَح طَرحًا ، وإمَّا يُردُّ إلى مَنزلةِ النَّوعِ الذي هو دونَهُ ؛ كالفَرسِ إذا لم يَصْلُح للعَدْوِ في الكرِّ والفرِّ اتُّخِذَ حَمُولَةً أو أُعِدَّ أَكولَةً ، والسَّيف إذا لم يصلُح للقطْعِ اتُّخذَ مِنْشَاراً ، فمن لم يصْلُح لخِلافَةِ اللّه تعالى ولا لعبادَتِه ، ولا لعِمَارةِ أرضِهِ ؛ فالبهيمَةُ خيرٌ منه " الذريعة إلى مكارم الشريعة (٨٣) .

(٦) الأنعام : ١٢٤ .

المعرفَةِ والعلمِ ، جُعِل مِن أهلهِ ، حتى ينتهي إلى درجَةِ عُمومِ المؤمنين ، فإنْ نَقَصَ عن هذه الدَّرجَة ولم تكُن نفسُهُ قابلَةً لشيءٍ من الخيرِ أصلاً ، استُعملَ حَطَباً ووقوداً للنَّارِ (١).

وفي أثَرٍ إسرائيليٍّ : " أنَّ موسى عليه الصلاة والسلام سألَ ربَّهُ عن شأنِ مَنْ يعذِّبهُم مِن خلقهِ ؟ فقال: يا موسى ازرَع زرعاً ، فزَرَعَهُ ، فأوحى اللهُ إليه أنِ احصدهُ ، ثمَّ أوحى إليهِ أن انسِفْهُ وذُرَّهُ (٢) ، ففعَلَ ، وخَلَصَ الحَبُّ وحدَه ، والتِّبنُ والعيدانُ والعَصفُ وحدَهُ فأوحى اللهُ إليهِ : إنِّي لا أجعلُ في النَّارِ مِن العبادِ إلَّا مَنْ لا خَيرَ فيهِ ، بمنزلَةِ العيدانِ والشوكِ التي لا تصلُحُ إلَّا للنَّارِ " (٣) .

وهكذا الإنسانُ يترقَّى في درجاتِ الكمالِ درجَةً بعدَ درجَةً حتى يبلغَ نهايَة ما ينالُهُ أمثالُهُ منها ، فكَم بين حالهِ في أوَّلِ كونهِ نُطفَةً ، وبينَ حالهِ والرَّبُّ تبارك وتعالى يُسلِّمُ عليه في دارِهِ ، وينظرُ إلى وجهِه بُكرَةً وعَشيًّا ! .

والنَّبيُّ صَلَى اللهُ عليهِ وسلمَ في أوَّلِ أمرهِ لمَّا جاءَهُ المَلَكُ فقال له: اقرأ ، فقال : " ما أنا بقارىءٍ " (٤) ، وفي آخرِ أمْرِهِ يقولُ اللهُ لهُ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ

---

(١) ذكر المؤلف رحمه الله أن الليالي والأيام مراحلُ سفرٍ إلى الدار الآخرة ، وأنَّ الناسَ فيها قسمان : سائر إلى دار السلام ، وسائر إلى دار الشقاء ، وقال عن أصحاب دار الشقاء : " قطعوها مُسافرين فيها إلى دارِ الشَّقاءِ فكلَّمَا قطعوا منها مَرحلةً ، قرَّبُوا من تلك الدَّارِ ، وبعَدُوا عن ربِّهِم ، وعن دارِ كرامَتِه ، فقطَعوا تلك المَراحلَ بمَساخِطِ الرَّب ، ومُعادَاةِ رُسلِهِ وأوليائِه ودينِه ، والسعي في إطفاءِ نُورهِ ، وإبطالِ دعوتِه ، وإقامَةِ دعوةٍ غيرها فهؤلاء جُعلتْ أيامُهم مَراحلَ يُسافرون فيها إلى الدَّارِ التي خُلقوا لها ، واستُعمِلوا بعمَلِها ، فهم مصحُوبون فيها بالشَّياطين المُوكلة بهم ، يسوقُوهم إلى منازِلِهم سَوْقاً ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم:٨٣] ، أي تزعجُهم إلى المعاصي والكفر إزعاجاً ، وتسُوقُهم سَوقاً " طريق الهجرتين (٣٧٧) .

(٢) النَّسْفُ : غربلةُ الشيء وتنقية الجيد من الرديء . تهذيب اللغة للأزهري (٧/١٣) ، وتاج العروس للزبيدي (٤٠١/٢٤) .
والتَّذريةُ : تفريقُ الحبِّ ونثرُهُ لينفكَّ عن قشرِهِ . الصحاح للجوهري (٦٦٣/٢) ، ولسان العرب لابن منظور (٣٠٣/٤) .

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد (١١٨) ، وأحمد في الزهد (٨٨) ، والبيهقي في القضاء والقدر (٦٩/١) وأبو نعيم في الحلية (٩١/٥) عن عمار بن ياسر رضي الله عنه . ورواه أبو نعيم في الحلية (٢٨٦/٤) عن سعيد بن جبير .

(٤) رواه البخاري (٣) ، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها .

عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي ﴾ (١) ، وبقوله له خاصَّةً : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴾ (٢) .

ويُحكى أنَّ جماعةً من النَّصارى تحدَّثوا فيما بينهم ، فقال قائلٌ منهم : ما أقلَّ عقولَ المسلمين ! يَزعُمُونَ أنَّ نبيَّهُم كانَ راعي الغَنَمِ ، فكيفَ يصلُحُ راعي الغنَمِ للنُّبوَّةِ ؟ (٣) .

فقال له آخَرُ مِن بينهم : أمَّا هم فو اللهِ أعقَلُ منَّا ؛ فإنَّ الله بحكمَتهِ يَسترعي النَّبيَّ الحيوانَ البَهيمَ ، فإذا أحسَنَ رعايَتَهُ والقيامَ عليه نَقَلهُ منهُ إلى رعايَةِ الحيوان النَّاطقِ حِكمةً من اللهِ وتدريجاً لعبدِهِ ، ولكنْ نحنُ جئنا إلى مولودٍ خَرَجَ مِن امرأةٍ ، يأكُلُ ويشرَبُ ويبولُ ويُبكي ، فقلنا: هذا إلهنا الذي خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ ! فأمسَكَ القومُ عنه .

فكيفَ يَحسُنُ بذي همَّةٍ قَد أزاحَ اللهُ عنهُ عِلَلَهُ ، وعرَّفَهُ السَّعادَةَ والشقاوَةَ ، أن يَرضى بأن يكونَ حيواناً ، وقَد أمكنهُ أن يَصيرَ إنساناً ، وبأنْ يكونَ إنساناً وقَد أمكنهُ أن يكون مَلَكاً ، وبأن يكونَ مَلَكاً وقد أمكنَهُ أن يكون مَلَكاً في مَقعَدِ صدقٍ عندَ مليكٍ مقتَدر

---

(١) المائدة : ٣ .

(٢) النساء : ١١٣ .

(٣) روى البخاري (٢٢٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما بعث اللهُ نبيًّا إلا رعى الغنمَ ) ، فقال أصحابُه : وأنت ؟ فقال : ( نعم ، كنتُ أرعاها على قراريطَ لأهلِ مكةَ ) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى : " قال العلماء : الحكمــةُ في إلهامِ الأنبياءِ من رعــي الغنمِ قبل النُّبــوةِ ، أن يحصلَ لهم التَّمرنُ برعيها على ما يكلفونَهُ من القيامِ بأمرِ أمَّتهم ، ولأنَّ في مُخالطتها ما يُحصِّلُ لهم الحلمَ والشَّفقة لأنَّهم إذا صبروا على رعيها ، وجمعها بعد تفرُّقها في المرعى ، ونقلها من مَسرحٍ إلى مَسرحٍ ، ودفعِ عدوِّها من سَبعٍ وغيرِهِ كالسَّارِقِ ، وعلموا اختلافَ طباعِها ، وشدَّةَ تفرُّقِها ، مع ضعفِها واحتياجها إلى المُعاهَدةِ ، أَلِفُوا من ذلك الصَّبرَ على الأمَّةِ ، وعرفوا اختلافَ طباعِها ، وتفاوتِ عقولِها ؛ فجبروا كسرَها ، ورفقُوا بضعيفِها ، وأحسنوا التَّعاهُدَ لها ، فيكون تحمُّلهم لمشقةِ ذلك أسهلَ ممَّا لو كُلفوا القيامَ بذلك من أوَّلِ وهلَةٍ ، لِمَا يحصلُ لهم من التَّدريجِ على ذلك برعي الغنمِ .

وخُصَّت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها ، ولأنَّ تفرُّقَها أكثرُ من تفرُّقِ الإبلِ والبقرِ ، لإمكان ضبطِ الإبل والبقر بالربطِ دونها في العادة المألوفةِ ، ومع أكثريةِ تفرُّقها فهي أسرعُ انقياداً من غيرها ، وفي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم لذلك بعد أن علم كونَهُ أكرم الخلقِ على الله ما كان عليه من عظيم التَّواضعِ لرِّبه ، والتصريحِ بمنَّتِه عليه وعلى إخوانِه من الأنبياء صلواتُ الله وسلامُه عليه وعلى سائر الأنبياءِ ". فتح الباري (٤/٤٤١)

فتقومُ الملائكَةُ في خدمتهِ ، وتَدخُلُ عليهم مِن كلِّ بابٍ : ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ (١) .

وهــذا الكمالُ إنَّما يُــنالُ بالعلمِ ورعـايتهِ ، والقيامِ بُـموجَبـهِ ، فعــادَ الأمـــرُ إلى العلمِ وثمرتهِ

واللهُ المُوفِّقُ (٢) .

وأعظمُ النَّقصِ ، وأشدُّ الحسرَةِ : نقصُ القادرِ على التَّمامِ ، وحسرتُهُ على تفويتهِ ، كما قال بعضُ السَّلفِ : " إذا كثُرتَ طرقُ الخيرِ كانَ الخارجُ منها أشدَّ حسرَةً " (٣) .

وصَدَقَ القائلُ (٤) / : [٥٧/أ]

ولـم أَرَ في عُـيـوبِ النَّـــاسِ عَيْبَـاً كَنَقـــصِ القـادريـنَ على التَّمَـــام

فثبَتَ أنَّهُ لا شيءَ أقبحُ بالإنسانِ مِن أن يكونَ غافلاً عن الفضائلِ الدِّينيَّةِ، والعلومِ النَّافعَةِ والأعمالِ الصَّالحَةِ ، فمَن كـانَ كذلكَ فهو مِن الهَمجِ الرَّعاعِ الذينَ يُكَدِّرونَ الماءَ ويُغْلُونَ الأسعارَ ، إنْ عاشَ عاشَ غيرَ حميدٍ ، وإنْ ماتَ ماتَ غيرَ فَقيدٍ ، فَفَقْدُهُم راحَةٌ للبلادِ والعبادِ ، ولا تبكي عليهم السَّماءُ ، ولا تستَوحشُ لهم الغَبراءُ .

---

(١) الرعد : ٢٤ .

(٢) قال المؤلف رحمه الله في مدارج السالكين (٢٤٧/٣) : " ضعفُ الإرادةِ والطَّلبِ من ضعفِ حياةِ القلبِ ، وكلَّما كان القلبُ أتمَّ حياةً كانت همَّتُه أعلى ، وإرادَتُه ومحبَّتُه أقوى ، فإنَّ الإرادةَ والمَحبةَ تتبعُ الشُّعورَ بالمُرادِ المَحبوبِ ، وسلامةَ القلبِ من الآفةِ التي تحولُ بينَهُ وبين صلاتِهِ وإرادَتِه ، فضعفُ الطلبِ ، وفتورُ الهمَّةِ لا يأتي إلا من نُقصانِ الشُّعورِ والإحساس ، أو من وجودِ الآفةِ المُضعِفةِ للحياةِ ، فقوةُ الشُّعور ، وقوةُ الإرادة ، دليلٌ على قوةِ الحياةِ ، وضعفُها دليلٌ على ضعفِها ، وكما أن علوَ الهمَّةِ ، وصدقَ الإرادةِ والطَّلبِ من كمال الحياةِ ، فهو سببٌ إلى حُصولِ أكملِ الحياةِ وأطيَبِها ؛ فإنَّ الحياةَ الطَّيبةَ إنَّما تُنالُ بالهمَّةِ العاليةِ ، والمحبةِ الصَّادقةِ ، والإرادةِ الخالصةِ ، فعلى قدرِ ذلك تكونُ الحياةُ الطيبةُ ، وأخسُّ الناسِ حياةً أخسُّهم هِمَّةً ، وأضعفُهم مَحبةً وطلباً ، وحياةُ البهائمِ خيرٌ من حياتِه ... "

(٣) ذكره الطرطوشي في سراج الملوك (٣٠٠) في معرض أمثالٍ سردها .

(٤) المتنبي ، ينظر ديوانه (٢٣٤) .

أن القلب يعترضه مرضا الشهوات والشبهات ودواؤه العلم

**الوجهُ السَّابعُ والثمانون : أنَّ القَلبَ يعترضُهُ مَرضان يتواردانِ عليه ، إذا استحكما فيه كانَ هلاكُهُ وموتُهُ ، وهما مرضُ الشهواتِ ومرضُ الشبهات ؛ هذان أصلُ داءِ الخَلقِ إلاّ مَنْ عافاهُ اللهُ.**

**وقدَ ذكرَ اللهُ تعالى هذين المرضين في كتابهِ :**

**أمَّا مرضُ الشبهات ، وهو أصعبُهُما وأقتلُهُما للقَلبِ ، ففي قولهِ تعالى في حقِّ المُنافقين :**

**﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ (١)، وقوله : ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٣) فهذه ثلاثةُ مواضعَ ؛ المُرادُ بمرضِ القَلبِ فيها مرضُ الجهلِ والشُّبهَةِ (٤).**

**وأمَّا مَرضُ الشهوَة: ففي قولِه : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ (٥) ، أي لا تَلِنَّ في الكلامِ فيطمعَ الذي في قلبهِ فُجورٌ وزناءٌ .**

**قالوا : والمرأةُ ينبغي لها إذا خاطَبَت الأجانبَ أن تُغلِظَ كلامَها وتُقوِّيَهُ ، ولا تُليِّنَهُ وتُكسِّرَهُ فإنَّ ذلكَ أبعَدُ من الرِّيبَةِ والطَّمعِ فيها (٦).**

---

(١) البقرة : ١٠ .

(٢) المدثر : ٣١ .

(٣) الحج : ٥٣ .

(٤) قال المؤلف رحمه الله في شفاء العليل (٩٨-٩٩) : " ومرضُ القلبِ خروجٌ عن صحَّتهِ واعتدَالِه ، فإنَّ صحتَه أن يكون عارفاً بالحقِّ ، مُحبَّاً له ، مُؤثِراً له على غيرِهِ ، فمرضُه إمَّا بالشَّك فيه ، وإمَّا بإيثارِ غيرِهِ عليهِ فمرضُ المنافقين مرضُ شكٍّ ورَيبٍ ، ومرضُ العصاةِ مرضُ غيٍّ وشهوةٍ ، وقد سمَّى الله سبحانه كلاً منهما مَرضاً ، قال ابن الأنباري : ( أصلُ المرضِ في اللغةِ : الفساد ) "
ثم قال : " والمرضُ يدورُ على أربعة أشياءٍ : فسادٌ ، وضَعفٌ ، ونُقصانٌ ، وظُلمةٌ " .

(٥) الأحزاب : ٣٢ .

(٦) قال المؤلف رحمه الله : " أمرَهنَّ أن لا يَلِنَّ في كلامِهنَّ كما تلينُ المرأة المُعطيَةُ اللَّيانَ في مَنطقِها ؛ فيطمعَ الذي في

وللقَلبِ أمراضٌ أُخَرُ من الرِّياءِ ، والكِبْرِ ، والعُجبِ ، والحَسَدِ ، والفَخرِ ، والخُيَلاءِ وحُبِّ الرِّياسَةِ ، والعُلُوِّ في الأرضِ .

وهذا مرضٌ مُركَّبٌ من مرضِ الشُّبهَةِ والشَّهوَةِ ؛ فإنَّهُ لا بدَّ فيهِ مِن تخيُّلٍ فاسدٍ ، وإرادةٍ باطلةٍ ، كالعُجْبِ والفَخرِ والخُيَلاءِ والكِبْرِ المُركَّبِ من تخيُّلِ عظمتهِ وفَضلهِ ، وإرادةِ تَعظيم الخَلقِ له ومِدْحَتِهم .

فلا يخرجُ مرضهُ عن شهوةٍ ، أو شُبهَةٍ ، أو مُركَّبٍ منها .

وهذه الأمراضُ كلُّها مُتولِّدَةٌ عن الجَهلِ ، ودواؤها العلمُ ، كما قال النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم في حديثِ صاحبِ الشَّجَّةِ (١) الذي أفتَوهُ بالغُسلِ ؛ فماتَ : ( قتلوهُ قتلَهم اللهُ ألاَ سألوا إذ لم يعلَموا ؟ إنَّما شفاءُ العِيِّ السُّؤالُ ) (٢) ، فجعَلَ العِيَّ . وهو عِيُّ القَلبِ عن العلمِ واللسانِ عن النُّطقِ به ـ مرضاً ، وشفاؤهُ سؤالُ العُلَماءِ .

فأمراضُ القلوبِ أصعَبُ مِن أمراضِ الأبدانِ ؛ لأنَّ غايَةَ مَرَضِ البدَنِ أنْ يُفضي بصاحبهِ إلى الموتِ ، وأمَّا مرَضُ القَلبِ فيُفضي بصاحبهِ إلى الشقاءِ الأبديِّ ، ولا شفاءَ لهذا المرضِ إلاّ بالعلمِ ، ولهذا سمَّى اللهُ تعالى كتابَهُ شفاءً لأمراضِ الصُّدور، قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (٣) .

---

قلبِه مرضُ الشَّهوةِ ، ومع ذلك فلا يَخشنَّ في القولِ بحيث يلتحقُ بالفحشِ ، بل يقلنَ قولاً معروفاً " إغاثة اللهفان (١٤/١) .

(١) الشَّجُّ : يدل على الصدع في الشيء ، والقطع فيه ، والشجَّة : هي الجرح الذي يكون في الرأس أو الوجه فقط ، دون سائر الجسد . ينظر : العين للخليل بن أحمد (٤/٦) ، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس (١٧٨/٣) ، ولسان العرب لابن منظور (٣٠٣/٢) .

(٢) رواه أبو داود (٣٣٧) ، وابن ماجه (٥٧٢)، وأحمد (٣٣٠/١) ، وغيرهم ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وصححه الحاكم (١٧٨/١) ، وحسَّنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٦٩/١ ) .

(٣) يونس : ٥٧ .

ولهذا السَّبَبِ نسبةُ العُلَماءِ إلى القلوبِ كنسبَةِ الأطبَّاءِ إلى الأبدانِ ، وما يقالُ للعلماءِ : أطبَّاءُ القلوبِ (١) ، فهو لِقَدرٍ ما جامعٍ بينهما ، وإلاّ فالأمرُ أعظمُ من ذلك ؛ فإنَّ كثيراً مِن الأُمَمِ يَستغنونَ عن الأطبَّاءِ ، ولا يوجَدُ الأطبَّاءُ إلا في اليَسيرِ مِن البلادِ ، وقَد يَعيشُ الرَّجلُ عُمُرَهُ أو بُرهَةً منه لا يحتاجُ إلى طبيبٍ.

وأمَّا العُلَماءُ باللهِ وأمرِهِ فهم حياةُ الوجودِ وروحُه ، ولا يُستَغنى عنهُم طرفَةَ عَينٍ ، فحاجةُ القَلبِ إلى العلمِ ليسَت كالحاجَةِ إلى التنفُّسِ في الهواءِ ، بل أعظَمُ .

وبالجُملَةِ ؛ فالعلمُ للقَلبِ مثلُ الماءِ للسَّمكِ ؛ إذا فقَدَهُ ماتَ ، فنسبَةُ العلمِ إلى القَلبِ كنسبَةِ ضوءِ العَينِ إليها، وكنسبَةِ سمعِ الآذانِ ، وكنسبةِ كلامَ اللِّسان إليهِ ، فإذا عَدِمَهُ كانَ كالعَينِ العَمياءِ ، والأُذنِ الصمَّاءِ ، واللسانِ الأخرَسِ .

وصف أهل الجهل بالعمى والصمم والبكم والمراد بقوله تعالى ( ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما)

ولهذا يصِفُ سبحانَهُ أهلَ الجَهلِ بالعَمى والصَّمَم والبَكَمِ ، وذلكَ صفَةُ قلوبهم ، فَقَدَت العلمَ النَّافعَ ، فبقيَت على عَماها وصمَمِها وبكَمِها ، قال تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٢) ، والمرادُ : عمى القَلبِ في الدُّنيا (٣) وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ (٤) ؛ لأنَّهُم هكذا كانوا في الدُّنيا ، والعَبدُ يُبعَثُ على ما ماتَ عليهِ .

---

(١) قال المؤلف رحمه الله في زاد المعاد (٧/٤) : " فأمَّا طبُّ القلوب فمُسلَّمٌ إلى الرُّسلِ صلوات الله وسلامه عليهم ، ولا سبيل إلى حصولِه إلا من جهتِهم ، وعلى أيديهم ، فإنَّ صلاحَ القلوب أن تكون عارفةً بربِّها ، وفاطرِها ، وبأسمائِهِ وصفاتِه ، وأفعالِه ، وأحكامِه ، وأن تكون مُؤثِرةً لمرضاتِه ومحابِّه ، مُتجنِّبةً لمَنَاهيهِ ومَسَاخطِه ، ولا صحَّةَ لها ولا حياةَ ألبتةَ إلا بذلك ، ولا سبيلَ إلى تلقِّيه إلا من جهةِ الرُّسلِ ، وما يُظن من حصول صِحَّة القلب بدون اتِّباعِهم فغلطٌ ممَّن يَظُنُّ ذلك ، وإنَّما ذلك حياةُ نفسِه البهيميةِ الشَّهوانية ، وصِحَّتها وقُوَّتها ، وحياةُ قلبه وصحتُه وقوَّتُه عن ذلك بمعزلٍ ، ومَن لم يميز بين هذا وهذا ؛ فليبك على حياةِ قلبِه ؛ فإنَّه من الأموات ، وعلى نوره ؛ فإنَّه منغمِسٌ في بحار الظُّلمات " وينظر : إغاثة اللهفان (١/ ١٢٠ و ٢٤٨) ، زاد المعاد (٥١/٢ و ٣١/٤) ، ومدارج السالكين (٤٢٦/١ و ٣١٥/٢) .

(٢) الإسراء : ٧٢ .

(٣) ينظر تفسير الآية في : تفسير عبد الرزاق (٣٠٥/٢) ، وتفسير ابن جرير الطبري (٩/١٥) ، وتفسير الماوردي (٢٥٨/٣) ، وتفسير ابن الجوزي (٤١/٣) ، وتفسير القرطبي (٢٩٨/١٠) .

(٤) الإسراء : ٩٧ .

واختُلفَ في هذا العَمى في الآخرَةِ :

فقيلَ : هو عمى البَصيرَةِ ، بدليلِ إخبارهِ تعالى عن رؤيَةِ الكفَّار ما في القيامَةِ ، ورؤيَةِ الملائكَةِ ، ورؤيةِ النَّارِ .

وقيل : هو عمى البَصَر ، ورُجِّحَ هذا بأنَّ الإطلاقَ ينصرفُ إليه ، وبقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ (١) ، وهذا عمى العَينِ ، فإنَّ الكافرَ لم يكُن بصيراً بحجَّتهِ (٢) .

وأجابَ هؤلاءِ عن رؤيَةِ الكفَّارِ في القيامَةِ بأنَّ اللهَ يُخرجهم مِن قبورهم إلى موقفِ القيامَةِ بُصراءَ ، ويُحشَرونَ مِن الموقفِ إلى النَّارِ عُمياً ، قالهُ الفرَّاء (٣) وغيرهُ (٤) .

أن الله سلَّط على العبد عدوا عالما بطرق هلاكه ولا بدَّ للعبد من العلم لاتقاء شرّه

الوجهُ الثَّامنُ والثمانون : إنَّ اللهَ سبحانَهُ بحكمتَهِ سلَّطَ على العَبدِ عَدُوَّا عالِماً بطرقِ هلاكهِ ، وأسبابِ الشرِّ الذي يُلقيهِ فيه مُتفنِّناً فيها ، خبيراً بها ، حَريصاً عليها ، لا يفتُرُ يقظَةً ولا مناماً ، ولا بدَّ لهُ مِن واحدةٍ مِن ستٍّ ينالُها منه (٥) :

مصائد إبليس السِّتَّة التي ينال بها من العبد

- إحدها– وهي غايةُ مرادِهِ منه– : أن يَحُولَ بينه وبينَ العلمِ والإيمانِ ، فيُلقيَهُ في الكُفرِ فإذا ظفِرَ بذلكَ فرغَ منه واستراحَ .

---

(١) طه : ١٢٥ .

(٢) تنظر الأقوال في : تفسير ابن جرير الطبري (٩٣/١٥) ، وتفسير الماوردي (٢٧٥/٣) ، وتفسير ابن الجوزي (٥٥/٣) وتفسير القرطبي (٣٣٣/١٠) ، وتفسير أبي حيان (٦٠/٦) .

(٣) أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الدَّيلميُّ ، ينسب إلى إقليم : الدَّيلم ، في بلاد فارس ، لُقِّبَ بالفرَّاء لأنَّه كان يفْرِي الكلام أي : يحسنُ تقطيعَه وتفصيلَه ، كان إمام الكوفيين في اللغة والنحو الأدب ، سُمِّيَ أمير المؤمنين في النحو ، ومن مصنفاته : معاني القرآن ، والحدود ، والفاخر في الأمثال ، والوقف والابتداء ، وغيرها ، توفي عام : ٢٠٧هـ .

إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي (٧/٤) ، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة للفيروزآبادي (٣١٣) .

(٤) ينظر : معاني القرآن للفراء (١٩٤/٢) ، ويُراجع كلام المؤلف فقد فصَّلَ في ذلك ص : ١٥٠ .

(٥) قد فصَّل المؤلف رحمه الله في هذه الشُّرور الستةِ ، كما في : بدائع الفوائد (٢٦٠/٢) .

- **فإنْ فاتَتْهُ هذه ، وهُدِيَ للإسلامِ حرِصَ على تِلوِ الكفرِ ، وهي البدعَةُ " وهي أحبُّ إليهِ مِن المعصيَةِ ؛ فإنَّ المَعصيَةَ يُتابُ منها ، والبدعَةُ لا يُتابُ منها " (١) لأنَّ صاحبَها يرى أنَّهُ على هُدىً .**

**وفي بَعض الآثارِ : "يقولُ إبليسُ : أهلكتُ بني آدمَ بالذُّنوبِ ، وأهلكوني بالاستغفار وبلا إلهَ إلاّ الله ، فلمَّا رأيتُ ذلكَ بَثَثْتُ فيهم الأهواءَ فهم يُذنبونَ ولا يتوبونَ ، لأنَّهُم يَحسَبُونَ أنَّهُم يُحسِنونَ صُنعاً " (٢) .**

**فإذا ظَفِرَ منه بهذِهِ صيَّرهُ من رُعاتهِ وأُمرائهِ .**

- **فإن أعجَزتْه ألقاهُ في الثالثةِ ؛ وهي الكبائرُ .**
- **فإن أعجَزته ألقاهُ في اللَّمَمِ ؛ وهي الرابعة ، وهي الصغائرُ .**
- **فإنْ أعجزَتْهُ شَغَلَهُ بالعَملِ المفضولِ عمَّا هو أفضلُ منه ليَربَحَ عليه (٣) الذي بينهما (٤) ؛ وهي الخامسةُ .**

---

(١) رواه ابن الجعد في مسنده (٢٧٢) ، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/١٤٩) ، والبغوي في شرح السنة (١/٢١٦) عن سفيان الثوري رحمه الله .

(٢) رواه ابن أبي عاصم في السنة (١/٩) ، وأبو يعلى في المسند (ح : ١٣٦ ، ١/١٢٣) وغيرهما من حديث أبي بكر رضي الله عنه مرفوعا ، وفيه : عثمان بن مطر الشيباني وأبو الصباح عبد الغفور بن عبد العزيز الأنصاري الواسطي وهما ضعيفان ، قال البخاري في التاريخ الكبير (٦/٢٥٣) : " عثمان .. منكر الحديث " ، وقال ابن كثير في تفسيره (٢/١٢٤) : " عثمان وشيخه ضعيفان " ، وقال الألباني في ظلال الجنة (١/٤) : " موضوع " .

(٣) في : د : ليربح عليه الفضلَ الذي بينهما ، وفي : ص : ليربح عليه الفُضولَ الذي بينهما.

(٤) ويفصِّلُ المؤلف رحمه الله في هذا فيقول : " ويفوِّته ثوابَ العملِ الفاضلِ ، فيأمرَه بفعل الخير المَفضولِ ، ويحضَّه عليه ويحسِّنَه له ، إذا تضمَّن تركَ ما هو أفضلُ وأعلى منه ، وقلَّ من يتنبَّه لهذا من الناس ؛ فإنَّه إذا رأى فيه داعياً قوياً ومُحركاً إلى نوعٍ من الطاعة ، لا يشكُّ أنَّه طاعةٌ وقُربةٌ ، فإنَّه لا يكاد يقولُ : إنَّ هذا الداعيَ من الشيطان ؛ فإنَّ الشيطانَ لا يأمر بخيرٍ ، ويرى أنَّ هذا خيرٌ ، فيقول : هذا الداعي من الله ! وهو معذورٌ ولم يصل علْمُه إلى أنَّ الشيطانَ يأمرُ بسبعين باباً من أبوابِ الخيرِ ، إمَّا ليتوصلَ بها إلى بابٍ واحدٍ من الشَّرِ ، وإمَّا ليفوتَ بها خيراً أعظمَ من تلك السبعين باباً ، وأجلَّ وأفضلَ ، وهذا لا يُتوصَّل إلى معرفته إلا بنورٍ من الله يقذِفُه في قلبِ العبدِ يكون سببُه تجريدُ مُتابعةِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم ، وشدَّةُ عنايتِه بمراتبِ الأعمالِ عند الله وأحبِّها إليه ، وأرضاها له وأنفَعِها للعبدِ ، وأعمِّها نصيحةً لله تعالى ولرسوله ولكتابِه ولعبادِه المؤمنين ، خاصَّتِهم وعامَّتِهم ، ولا يعرفُ هذا إلا مَن كان مِن ورَثَةِ الرسولِ ونوَّابِه في الأمةِ وخُلفائِه في الأرضِ ، وأكثرُ الخلقِ مَحجُوبون عن ذلك ، فلا يخطرُ بقلوبِهم والله تعالى يمنُّ بفضله على من يشاءُ من عبادِه " بدائع الفوائد (٢/٢٦١) .

- فإنْ أعجزَهُ ذلكَ صارَ إلى السَّادسَة ؛ وهي تَسليطُ حزبهِ عليه يُؤذونهُ ويشتِمونهُ ويبهَتُونهُ ويرمونهُ بالعظائمِ ؛ ليحْزُنَهُ ، ويشغلَ قلبهُ عن العلمِ والإرادَةِ وسائرِ أعمالهِ

فكيفَ يُمكــنُ أن يحترزَ منه مَنْ لا علمَ له بهذه الأمورِ ، ولا بعدوِّهِ ، ولا بما يُحصِّنُهُ منهُ ؟ فإنَّه لا يَنجو مِن عَدوِّهِ إلاّ مَنْ عرَفَهُ وعرَفَ طُرقَهُ التي يأتيهِ / منها ، وجيشَهُ الذي [٥٨/أ] يستعينُ به عليهِ ، وعَرَفَ مداخلَهُ ومخارجَهُ ، وكيفيَّةَ مُحاربتهِ ، وبأيِّ شيءٍ يُحاربهُ ، وبماذا يُداوي جراحَتهُ ، وبأيِّ شيءٍ يستمدُّ القوَّةَ لقتالهِ ودفعهِ ؟!

وهذا كلُّهُ لا يَحصُلُ إلاّ بالعلمِ، فالجاهلُ في غفلةٍ وعمَىً عن هذا الأمرِ العَظيم والخَطْبِ الجسيمِ .

ولهذا جاءَ ذِكْرُ العَدِّوّ (١) وشأنهِ وجُنودهِ ومكايدهِ في القُرآنِ كثيراً جدًّا (٢) ؛ لحاجَةِ النُّفوسِ إلى معرفَةِ عدوِّها ، وطُرقِ مُحاربتِهِ ومُجاهدتِهِ ، فلولا العلمُ يكشفُ عن هذا لمَا نجا مَن نجا منه ، فالعلمُ وثمَرتُه هو الذي تحصُلُ به النَّجاةُ .

أن أعظم أسباب الحرمان : الغفلة المضادة للعلم والكسل المضاد للإرادة

الوجــهُ التَّاسعُ والثمانــون : أنَّ أعظمَ الأسبابِ التي يُحرَمُ بها العبدُ خَيرَ الدُّنيا والآخرَةِ ، ولذَّةَ النَّعيمِ في الدَّارين ، ويدخُلُ عليهِ عدوُّهُ منها هو :

- الغفلَةُ المُضادَّةُ للعِلمِ .
- والكسلُ المُضادُّ للإرادَةِ والعزيمَةِ .

هذانِ أصلُ بلاءِ العبدِ وحرمانهِ منازلَ السُّعَداء ، وهما مِن عَدمِ العلمِ .

- أمَّا الغفلةُ ، فمُضادَّةُ للعلمِ مُنافيَةٌ له ؛ وقد ذمَّ سبحانَهُ أهلَها ، ونهى عن الكَوْنِ منهم وعَن طاعتهــم ، والقَبُــولِ منهم ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ (٤) .

---

(١) في : د ، ص : هذا العدوّ .

(٢) مثل قوله تعالى في سورة فاطر : ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ .

(٣) الأعراف : ٢٠٥ .

(٤) الكهف : ٢٨ .

**وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ (١) .**

**وقال النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم في وصيَّتِهِ لنساءِ المؤمنين : " فتَنْسَيْنَ الرَّحمَة " (٢) .**

**وسُئلَ بعضُ العُلَماء عن عِشقِ الصُّوَر ؟ ، فقال : " قلوبٌ غفلَتْ عن ذكرِ اللهِ ، فابتلاها الله بِعُبوديَّةِ غيرِهِ " (٣) .**

**فالقَلبُ الغافلُ مأوى الشيطانِ ؛ فإنَّهُ وسواسٌ خنَّاسٌ ، قد التَقَمَ القلبَ الغافلَ يقرأُ عليهِ أنواعَ الوساوسِ والخيالاتِ الباطلةِ ، فإذا تذكَّرَ وذكرَ اللهَ انجمعَ ، وانضمَّ ، وخَنَسَ وتضاءَلَ لذكرِ اللهِ ، فهو دائماً بينَ الوَسوَسةِ والخَنْسِ .**

**وقال عُروَةُ بن رُويم (٤) : " إنَّ المسيحَ عليه السَّلام سألَ ربَّهُ أن يُريَهُ موضِعَ الشيطانِ مِن ابن آدَمَ ؛ فجلَّى له فإذا رأسُهُ رأسُ الحيَّةِ ، واضعٌ رأسَهُ على ثمرَةِ**

---

(١) الأعراف :١٧٩ .

(٢) في : د ، ص : ولا تغفَلنَ فتَنسَين الرَّحمةَ .

رواه أبو داود (١٥٠١) ، والترمذي (٣٥٨٣) ، وأحمد (٣٧٠/٦) ، وغيرهم من حديث يُسَيرَةَ أم حُمَيْضَة رضي الله عنها قالت : قال لنا رسول الله صلى الله عليه و سلم : ( عليكن بالتَّسبيحِ والتَّهليلِ والتَّقديسِ واعقدنَ بالأناملِ فإنَّهنَ مسئولات مُستنطقات ، ولا تغفَلنَ فتَنسَين الرَّحمةَ ) ، وقد صححه ابن حبان (٨٤٢) ، والحاكم (٥٤٧/١) ، وحسَّنه النووي في الأذكار (١٨) ، والألباني في صحيح سنن الترمذي (١٨٣/٣) .

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " ومن المعلوم أنَّه ليس في عشقِ الصُّور مصلحةٌ شرعية دينية ، لِمَا يُؤدِّي إلى الاشتغالِ بذكرِ المخلوق عن ذكرِ الخالق ، والعبثِ بالصور لا المعاني ، والالتحاقِ بالعَالم الحيواني غيرِ النَّاطقِ في الائتلافِ الصوري . كما سُئِل بعضهم عن العشق ، فقال : هي قلوبٌ غَفلَتْ عن ذكر الحقِّ ، فشُغِلَتْ بذكرِ الخلقِ فهذا مما يدل على بُعْدِ عُشّاق الصور عن الربّ العظيم ، باشتغالهم بالخسيس الذميم " جامع المسائل (١٧٨/١) .

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (١٢٣/٦) .

أبو القاسم : عُروة بن رُوَيم اللَّخمِي الأردني ، فقيه ، مُحدِّثٌ ، روى عن أنس بن مالك ، وغيره ، قال أبو حاتم : عامة حديثه مراسيل ، توفي عام : ١٣٥ هـ ، وقيل غير ذلك . سير أعلام النبلاء للذهبي (١٣٧/٦) ، وتهذيب التهذيب لابن حجر (١٧٩/٧) .

القَلبِ ، فإذا ذكرَ العبدُ ربَّهُ خَنَسَ ، وإذا لم يذكر وضعَ رأسَهُ على ثمرَةِ قلبهِ ؛ فمنّاه وحدّثه " .

وقد رُوِي في هذا المعنى حديثٌ مرفوعٌ [(١)] ؛ فهو دائماً يترقَّبُ غفلةَ العبيد ، فيَبذُر في قلبه بَذرَ الأماني والشهواتِ والخيالاتِ الباطلَةِ ، فيُثمرُ كلَّ حنظَلَةٍ ، وكلَّ شوكٍ ، وكلَّ بلاءٍ ، ولا يزالُ يُمِدُّهُ بسَقيِهِ حتى يُغطِّيَ القَلبَ ويُعميَه .

- وأمَّا الكَسَلُ ، فيتولَّدُ عنه الإضاعةُ ، والتَّفريطُ ، والحِرْمانُ ، وأشدُّ النَّدامَةِ ، وهو مُنافٍ للإرادَةِ والعَزيمَةِ التي هي ثمرَةُ العلمِ ؛ فإنَّ مَنْ علمَ أنَّ كمالَهُ ونعيمَهُ في شيءٍ ، طَلَبَهُ بجهدهِ ، وعزَمَ عليهِ بقلبهِ كلِّهِ ، فإنَّ كلَّ أحدٍ يسعى في تكميلِ نفسهِ ولذَّتهِ ، ولكنَّ أكثَرَهُم أخطأ الطَّريقَ لعَدمِ علمهِ بما يَنبَغي أن يطلبَهُ ، فالإرادَةُ مسبوقَةٌ بالعلمِ والتَّصوُّرِ ، فتخلُّفُها في الغالبِ إنَّما يكونُ لتخلُّفِ العلمِ والإدراكِ وإلاّ فمعَ العلمِ التَّامِّ بأنَّ سعادَةَ العَبدِ في هذا المطلبِ ونجاتَه وفوزَه كيفَ يلحقُهُ كسلٌ في النُّهوضِ إليهِ ؟!

المراد بقوله صلى الله عليه وسلم ( اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل ...)

ولهذا استعاذَ النَّبي صَلى اللهُ عَليهِ وسَلْم من الكسَل ، ففي "الصحيح" [(٢)] عنه أنَّهُ كانَ يقولُ : ( اللهمَّ إنَّي أعوذُ بكَ من الهَمِّ والحَزَن ، والعَجْزِ والكَسَل، والجُبْنِ والبُخلِ ، وضَلَعِ الدَّينِ ، وغَلَبَةِ الرِّجال ) [(٣)] .

---

(١) يشير إلى حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إنَّ الشيطانَ واضعٌ خَطْمَهُ على قلبِ ابنِ آدمَ ، فإنْ ذكرَ اللهَ خنسَ ، وإنْ نسيَ التقمَ قلبَهُ " . رواه أبو يعلى في مسنده (٢٧٨/٧) ، وأبو نعيم في الحلية (٢٦٨/٦) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٤/٢) ، وقال الهيثمي في المجمع ( ١٤٩/٧ ) : " وفيه عَديُّ بن أبي عُمارة وهو ضعيف " ، وضعّفه ابن حجر في الفتح (٧٤٢/٨) ، والألباني في السلسلة الضعيفة (١٣٦٧) .

(٢) رواه البخاري بلفظه ( ٢٨٩٣ ، ٥٤٢٥ ، ٦٣٦٣ ، ٦٣٩٦) ، ومسلم (٢٧٠٦) بنحوه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٣) ضَلَع الدَّينِ : الضَّلع هو الاعوجاج ، أي : يُثقِله حَتَّى يُمِيلَ صاحِبَه عن الاستواءِ والاعتدال لِثِقَلِه وقوته وشدَّته . غريب الحديث لابن الجوزي (١٦/٢) ، والنهاية في غريب الأثر لابن الأثير(٩٦/٣) .

قال الكرماني : " هذا الدعاءُ من جوامع الكلم ؛ لأنَّ أنواع الرذائل ثلاثةٌ : نفسانية وبدنية وخارجية . والأول بحسب القوى التي للإنسان . العقلية والغضبية والشهوانية . ثــلاث أيضاً : فالهمُّ والحَزنُ تتعلق بالعقلية ، والجُبن بالغضبية والبُخل بالشَّهَويَّة ، والعجز والكسل بالبدنية ، والثَّاني يكون عند سلامة الأعضاء ، وتمامِ الآلاتِ والقُوى ، والأول عند

استعاذة النبي صلى الله عليه وسلم من ثمانية أشياء

فاستعاذَ مِن ثمانيةِ أشياء ، كلُّ شيئينِ منها قرينان :

- فالهمُّ والحَزَنُ قرينان .

والفرقُ بينهما : أنَّ المكروهَ الواردَ على القلبِ إمَّا أن يكونَ على ما مَضى ، أو لِمَا يُستقبل : فالأوَّل هو الحَزَنُ ، والثَّاني الهمُّ .

وإنْ شئتَ قلتَ: الحَزَنُ على المكروه الذي فاتَ ولا يُتوقَّعُ دفعُهُ ، والهمُّ على المكروهِ المُنْتَظَرِ الذي يُتوقَّعُ دفعُهُ ، وتأمَّلْهُ (١) .

- والعجزُ والكسلُ قرينان ؛ فإنَّ تخلُّفَ مصلحَةِ العَبدِ وكمالِهِ ولذَّتهِ وسرورِهِ عنهُ إمَّا أن يكونَ مصدرُهُ عدمَ القدرَةَ – فهو العجزُ– ، أو يكونَ قادراً عليهِ لكنْ تخلَّفَ لعَدمِ إرادتهِ – فهو الكسَلُ – ، وصاحبُهُ يُلامُ عيه ما لا يُلامُ على العجزِ.

وقَد يكونُ العجزُ ثمرَةَ الكسَلِ ، فيُلامُ عليهِ أيضاً ؛ فكثيراً ما يكسلُ المرءُ عن الشيءِ الذي هو قادرٌ عليهِ ، وتضعُفُ عنه إرادتُهُ ، فيُفضي به إلى العجزِ عنه .

وهذا هو العجزُ الذي يلومُ اللهُ عليه في قولِ النبي صَلى اللهُ عَليهِ وسَلْم : ( إنَّ اللهَ يلومُ على العَجزِ ) (٢) ، وإلاّ فالعجزُ الذي لم تَخلُقُ له قُدرَةٌ على دفعهِ ، ولا يدخُلُ مَعجوزُهُ تحتَ القدرَةِ لا يُلامُ عليه .

---

نقصان عضوٍ ونحوه ، والضَّلَع والغَلبةُ للخارجية ، والأول ماليٌّ والثاني جاهيٌّ ، والدعاءُ مشتمل على الكلِّ " شرح صحيح البخاري (٢٢/١٥٩) .

(١) قال المؤلف رحمه الله في طريق الهجرتين (٥٥٣) : " اعلمْ أنَّ الحزنَ من عوارض الطريق ، ليس من مقامات الإيمان ولا من مَنازل السَّائرين ، ولهذا لم يأمرِ الله به في موضعٍ قطُّ ، ولا أثنى على أهلِه ، ولا رتَّبَ عليه جزاءً ولا ثواباً بل نهى عنه في غيرِ موضعٍ كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩] وقال تعالى : ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٧] ..." إلخ .

(٢) رواه أبو داود (٣٦٢٧) ، وأحمد (٦/٢٤) ، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦٢٦) ، وغيرهم ، من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه ، وفيه سيف الشامي ، قال النسائي : " لا أعرفه " ، وقال الذهبي في ميزان الاعتدال (٢/٢٥٩) : " سيف شامي لا يُعرف تفرَّد عنه خالد بن معدان " ، وضعَّف الحديثَ الألبانيُّ في ضعيف

وقال بعضُ الحُكماء في وصيَّتهِ :
" إيَّاكَ والكسَلَ والضَّجَرَ ؛ فإنَّ الكسَلَ لا ينهضُ لمكرَمَةٍ ، والضَّجَرُ إذا نَهَضَ لها لا يَصبرُ عليها " (١) .
والضَّجَرُ مُتوَلِّدٌ عن الكسَلِ والعجزِ، فلم يُفرِدهُ في الحديثِ بلفظٍ (٢) .

- ثمَّ ذكرَ الجُبنَ والبخلَ ؛ فإنَّ الإحسانَ المُتوقَّعَ من العَبدِ ؛ إمَّا بمالِهِ ، وإمَّا ببدنهِ ، فالبَخيلُ مانعٌ لنفعِ مالِهِ ، والجبانُ مانعٌ لنفعِ بدنهِ .

والمشهورُ عندَ النَّاسِ أنَّ البخلَ يستلزم (٣) الجُبنَ من غير عَكسٍ ؛ لأنَّ مَنْ بخلَ بمالِهِ فهو بنفسهِ أبخلُ ، والشجاعَةُ تستلزمُ الكرمَ مِن غيرِ عكسٍ ؛ لأنَّ مَنْ جادَ بنفسهِ فهو بمالِهِ أسمحُ وأجوَدُ .
وهذا الذي قالوهُ ليسَ بلازم وإن كان أكثَرِيَّاً ؛ فإنَّ الشجاعَةَ والكرَمَ وأضدادَها أخلاقٌ وغرائزُ قد تُجمعُ في الرَّجُلِ ، وقد يُعطى بعضَها دونَ بَعضٍ (٤).

---

سنن أبي داود (٣٥٩) .

(١) نسبت هذه الوصية إلى : لقمان عليه السلام ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والأحنف بن قيس ، وغيرهم . ينظر : البيان والتبيين للجاحظ (٤٩/٢) ، ونثر الدر للآبي (١٩٤/١ و ٣٤/٥) ، والشكوى والعتاب للثعالبي (١٢٧) ، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (٥٢٦/١) ، وربيع الأبرار للزمخشري (٤٠٢/٣) .

(٢) قال المؤلف رحمه في زاد المعاد (٣٥٨/٢) : " وأما العجزُ فإنَّه يفتحُ عملَ الشيطان ، فإنَّه إذا عَجَزَ عما ينفعُه وصار إلى الأماني الباطِلة بقوله : لو كانَ كذا وكذا ، ولو فعلتُ كذا ، يُفتح عليه عملُ الشيطان ، فإنَّ بابَه العجزُ والكسلُ ، ولهذا استعاذَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم منهما ، وهما مفتاحُ كلِّ شرٍّ، ويصدر عنهما الهمُّ والحَزَنُ ، والجُبْنُ والبُخْلُ ، وضِلَعُ الدَّيْنِ ، وغَلَبَةُ الرِّجَالِ ، فمصدَرُها كلُّها عن العجزِ والكسلِ ، وعنوانُها "لو" ، فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : ( فإن لو تفتحُ عمل الشيطان ) فالمُتمنِّي من أعجزِ الناس وأفلسِهم ؛ فإنَّ التَّمني رأسُ أموالِ المَفاليسِ ، والعجزَ مفتاحُ كُلِّ شرٍّ . وأصلُ المعاصى كلها العجزُ ؛ فإنَّ العبدَ يَعجَز عن أسبابِ أعمالِ الطاعاتِ وعن الأسباب التى تُبْعِدُه عن المعاصي ، وتحول بينه وبينها ، فيقعُ في المعاصي " .

(٣) في : ص : يلزم .

(٤) ينظر : الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي لأبي الفرج المعافى بن زكريا (٤٠٣) ، وتاريخ دمشق لابن عساكر (١٠٠/٦) .

وقد شاهدَ النَّاسُ مِن أهلِ الإقـدامِ والشجـاعَةِ والبأسِ مَنْ هو أبخَلُ النَّاس وهذا كثيراً ما يُوجَدُ في أُمَّةِ التُـركِ ؛ يكـونُ " أشجعَ مِن ليـثٍ " (١) " وأبخلَ من كلبٍ " (٢)

فالرَجلُ قد يسمحُ بنفسهِ ويَضَنُّ بمالهِ ، ولهذا يُقاتلُ عليهِ حتى يُقتلَ ، فيبدأُ بنفسهِ دونَهُ فَمِنَ النَّاس مَنْ يسمحُ بنفسهِ ومالهِ ، ومنهم مَنْ يبخلُ بنفسهِ ، ومنهم مَنْ يسمح بمالهِ ويبخلُ بنفسهِ وعكسُهُ .

والأقسامُ الأربعَةُ موجودَةٌ في النَّاسِ .

- ثمَّ ذكرَ ضَلَعَ الدَّين وغَلَبَةَ الرِّجالِ ؛ فإنَّ القَهرَ الذي ينالُ العبدَ نوعان :

أحدُهما : قَهرٌ بحقٍّ ؛ وهو ضِلَعُ الدَّين .

والثَّاني : قَهرٌ بباطلٍ ؛ وهو غلبةُ الرِّجالِ .

فصلواتُ اللهِ وسلامُهُ على مَنْ أوتيَ جوامعَ الكلمِ، واقتُبِسَت كنوزُ العلمِ والحكمَةِ من ألفاظهِ (٣) .

والمقصودُ أنَّ الغفلَةَ والكسَلَ – اللذينِ هما أصلُ الحِرمانِ – سبَبُهُما عدمُ العلمِ ؛ فعادَ النَّقصُ كلُّهُ إلى عَدمِ العلمِ والعَزيمَةِ، والكمالُ كلُّهُ إلى العلمِ والعَزَيمَةِ .

الناس في العلم والعزيمة أربعة أضرب

والنَّاسُ في هذا على أربعَةِ أضرُبٍ :

الضرب الأول : من رزق علما وأُعين عليه بقوة العزيمة

الضُّربُ الأوَّل : مَـنَ رُزِقَ علماً وأُعِينَ على ذلكَ بقـوَّةِ العَزيمَةِ على العَمـل به وهذا الضَّربُ هم خُلاصَةُ الخَلقِ ، وهم الموصوفونَ في القُرآنِ بقولِه : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(١) مثلٌ مشهورٌ ، ينظر : الأمثال لأبي عُبيد بن سلام (٣٧١) ، ونثر الدر للآبي (١٠٧/٦) ، والمستقصى في الأمثال للزمخشري (١٩١/١) .

(٢) مثلٌ سائرٌ ، ينظر : جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (٥٣٨/١) ، ونثر الـدر للآبي (١٠٨/٦) ، ومجمع الأمثال للميداني (١١٤/١) .

(٣) لقد فصَّل المؤلف رحمه الله في الاستعاذة من هذه الأمور الثمانية في : زاد المعاد (٣٥٨/٢) ، وطريق الهجرتين (٥٥٣) ، وبدائع الفوائد (٢٠٧/٢) ، وروضة المحبين (٣٨) .

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ (٢) ، وبقوله : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (٣) ، / فبالحياةِ نالَ العَزيمةَ ، وبالنُّورِ نالَ العلمَ (٤) . [٥٩/أ]

وأئمَّةُ هذا الضَّربِ هم أولو العَزمِ من الرُّسُل .

الضرب الثاني من حرم العلم والعمل

الضَّربُ الثَّاني : مَنْ حُرِمَ هذا وهذا ، وهم الموصوفونَ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٥) ، وبقوله : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٦) ، وبقوله :

---

(١) البقرة : ٢٥ .

(٢) ص : ٤٥ .

(٣) الأنعام : ١٢٢ .

قال الماوَرْدي في تفسيره (١٦٣/٢) : " قوله عز وجل ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

**أحدها** : كان ميتاً حين كان نطفة ؛ فأحييناه بنفخ الروح فيه ، حكاه ابن بحر .

**والثاني** : كان ميتاً بالكفر ؛ فأحييناه بالهداية إلى الإيمان ، حكاه ابن عيسى .

**والثالث** : كان ميتاً بالجهل ؛ فأحييناه بالعمل ، أنشدَني بعضُ أهل العلم ما يدلُّ على صحة هذا التأويل لبعض شعراءِ البصرةِ :

وفي الجهل قبل الموتِ موتٌ لأهلِهِ ... فأجسامُهم قبلَ القُبورِ قُبورُ

وإنْ امرأً لم يَحيَ بالعلمِ مَيتٌ ... فليس لهُ حتى النُّشور نُشورُ "

(٤) قال المؤلف رحمه الله : " فأخبر أنَّ وحيه روحٌ ونورٌ ؛ فالحياة والاستنارة موقوفة على نفخ الرسولِ الملكي ؛ فمن أصابه نفخُ الرسول الملكي ونفخُ الرسول البشري حصلت له الحياتان ، ومن حصل له نفخُ المَلَكِ دون نفخ الرسولِ حصلت له إحدى الحياتين ، وفاتته الأخرى ، قال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ ، فجمع له بين النَّور والحياةِ ، كما جمع لمن أعرضَ عن كتابهِ بين الموت والظُّلمةِ ، قال ابن عباس وجميعُ المفسرين : كان كافراً ضالاً فهديناه " الفوائد (٨٩-٩٠) .

(٥) الأنفال : ٢٢ .

(٦) الفرقان : ٤٤ .

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ (٢)

وهذا الصنفُ شرُّ البريَّة ، يُضيِّقونَ الدِّيارَ ، ويُغلونَ الأسعارَ ، وعندَ أنفسهم أنَّهُم يعلمونَ ولكنْ ظاهراً مِن الحياةِ الدُّنيا وهم عن الآخرَةِ هم غافلون .

ويتعلَّمُونَ ، ولكنْ ما يضرُّهُم ولا يَنفعُهُم .

وينطقونَ ، ولكنْ عن الهَوى ينطقونَ .

ويتكلَّمونَ ، ولكنْ بالجهلِ يتكلَّمونَ (٣) .

ويؤمنونَ ، ولكنْ بالجبتِ والطَّاغوتِ .

ويَعبُدونَ ، ولكنْ يَعبدونَ من دون اللهِ ما لا يضرُّهم ولا ينفعهم .

ويُجادلونَ ، ولكنْ بالباطل ليُدحضوا به الحقَّ .

ويتفكرونَ ويُبيِّتونَ ، ولكنْ ما لا يَرضى مِن القولِ يَبِيتُونَ .

ويَدْعُونَ ، ولكنْ مع اللهِ آلهةً أخرى يدْعون .

ويذْكُرونَ ، ولكن إذا ذُكِّروا لا يَذْكُرون .

ويُصَلُّونَ ، ولكنَّهم من المُصلِّين الذين هم عن صلاتِهم ساهُون ، الذين هم يُراؤون ويمنعونَ الماعون .

ويَحْكُمونَ ، ولكنْ حُكْمَ الجاهليةِ يَبْغُون .

ويكتُبونَ ، ولكنْ يكتُبون الكتاب بأيديهم ، ثمَّ يقولون : هذا من عند الله ؛ ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويلٌ لهم مِمَّا كتَبَت أيديهم ، وويلٌ لهم مِمَّا يكسبون .

ويقولونَ : إنَّما نحن مُصلحونَ ، ألا إنَّهم هم المُفسدون ولكن لا يشعرون (٤) .

---

(١) النمل : ٨٠ .

(٢) فاطر : ٢٢ .

(٣) "ولكن" سقطت من : ص .

(٤) في : د ، ص زيادة : " وإذا قيل لهم : آمنوا كما آمن الناس ، قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ! ألا إنهم هم السفهاء ولكنْ لا يعلمون " .

**هذا الضَّربُ ناسٌ بالصورة ، وشياطينُ بالحقيقة (١) .**

**وجُلُّهم إذا فكَّرتَ فيهم حَمِيرٌ أو كِلابٌ أو ذِئابُ (٢) (٣) .**

**وصدقَ البُحتريُّ (٤) قولهِ (٥) (٦) :**

**لم يَبْقَ مِن جُلِّ هذا النَّاسِ باقِيَةٌ يَنالُها الوهمُ إلا هذهِ الصُّورُ**

**وقال آخرُ (٧) (٨) :**

**لا تَخدَعَنَّك اللِّحى ولا الصُّورُ تِسعةُ أعشارِ مَن ترى بَقَرُ**

**في شجَرِ السَّرْوِ منهمُ مَثَلُ لهـا رُواءٌ ومـا لهـا ثَمَرُ (٩)**

---

(١) في : د زيادة " كما قيل " .

(٢) في : ص : كلاب في ثياب .

(٣) نسبه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٣/٣٥٣) إلى صالح بن عبد القدوس ، وفيه :

كأنَّهم إذا فكَّرتَ فيهم ذِئابٌ أو كِلابٌ أو حَميرُ

قال المؤلف رحمه الله بعد أن ذكر الأرواح السفلية وأنَّها لا تستحق العلو والقرب من الرب سبحانه : " قد أخلدتْ إلى الأرض ، وعكفتْ على ما تقتضيهِ طِباعُها مِمَّا يُشاركُها فيه . بل قد يزيدُ عليها . الحيوانُ البَّهيمُ وقَصَرت هِمَّتَها عليه ، وأقبلتْ بكُليَّتها عليهِ ، لا ترى نعيماً ولا لذَّةً ولا سُروراً إلا ما وافق طِباعَها ، مِنْ مَأكلٍ ومَشربٍ ومَنكحٍ ، من أينَ كان ، وكيفَ اتَّفقَ ؛ فالفرق بينها وبين الحَميرِ والكِلابِ والبَقرِ بانتصاب القامةِ ، ونُطق اللسانِ ، والأكلِ باليد ، وإلا فالقلبُ والطَّبعُ على قلوبِ هذه الحيواناتِ وطِباعِها ، وربما كانت طِباعُ الحيواناتِ خيراً من طِباع هؤلاءِ وأسْلمَ ، وأقبلَ للخيرِ ، ولهذا جعلهم الله سبحانه شرَّ الدَّوابِّ " طريق الهجرتين (٢٢٨-٢٢٩).

(٤) أبو عبادة ، الوليد بن عبيد بن يحيى البحتري الطائي ، أحد أشهر شعراء العرب في العصر العباسي ، وكان يقال لشعره : سلاسل الذهب ، توفي عام : ٢٨٤ هـ . بُغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم (١/٥٦٨) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٣/٢١٩) .

(٥) في : د ، ص : في قوله . وسقطت "وصدق " من : ص .

(٦) ديوانه (٢/٩٥٤) .

(٧) في : د ، ص : الآخر .

(٨) ابنُ لَنْكَك البصري ، كما في يتيمة الدهر للثعالبي (٢/٤١٠) .

(٩) السَّرْو : هو شجر العرعر ، وهي كلمة فارسيَّة مُعرَّبة . الاشتقاق لابن دريد (٧٠) ، الصحاح للجوهري (٦/٢٣٧٥) ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (٢/١٦٣) .

الرُّواءُ : حُسْنُ المَنظرِ في البَهاءِ والجَمالِ . العين للخليل بن أحمد (٨/٣١١) ، تهذيب اللغة للأزهري (١٥/٢٢٨) .

وأحسنُ من هذا كلِّه قولُه تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ (١) .

عالِمُهم كما قيلَ فيهِ (٢) :

زواملُ للأسْفَارِ لا عِـلْمَ عندهُم بـجَيِّـدِها إلا كعِلمِ الأبَـاعِـرِ
لعمري ما يدري البَعِيرُ إذا غـدا بأوسَاقِـهِ أو راحَ ما في الغَرَائِرِ (٣)

وأحسنُ من هذا وأبلَغُ وأوجزُ وأفصحُ قولُه تعالى :

﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤) (٥) .

---

(١) المنافقون : ٤ .

(٢) البيتان لمروان بن أبي حفصة . الكامل للمبرد (٩٨/٣) ، والعقد الفريد لابن عبد ربه (٣١٢/٢) ، والمصون في الأدب للعسكري (١١) فيها : زوامل للأشعار .

(٣) الزَّواملُ : جمع زامِلة ، وهو الواحد من الإبل الذي يحملُ المسافرُ عليه طعامه وشرابه ومتاعه ، وأصله من : الزَّمْل وهو : الحمل . لسان العرب لابن منظور (٣٠٩/١١) ، وتاج العروس للزبيدي (١٣٦/٢٩) .
الأوساق : حِمْلُ البعير . القاموس المحيط للفيروزآبادي (٣٩٢/٣) .
الغرائر : جمع غِرارة ، وهي : وعاء من الخيش ونحوه توضع فيه الحبوب وغيرها . تهذيب اللغة للأزهري (١٨/٨) والصحاح للجوهري (٧٦٩/٢) .

(٤) الجمعة : ٥ .

(٥) قال الراغب الأصفهاني في تفصيل النشأتين (١١٩) : " النـاس ضربـان : ضرب لم يحظَ من الإنسانية إلا بالصورةِ التَّخطيطية من انتصاب القامة ، وعرضِ الظُّفر ، والقوة على الضحكِ ، ولغوٍ من النُّطق يجري مجرى المكاء والتصدية وهو دون البهائم . وضرب هو الإنسان وهو المعنّي بما خُلق لأجله " .

الضرب الثالث من فُتح له باب العلم وأغلق عنه باب العزم والعمل

الضربُ الثَّالث :

من فُتحَ له بابُ العلمِ ، وأُغلقَ عنه بابُ العَزمِ والعَملِ ، فهذا في رُتبةِ الجاهلِ أو شَرٌّ منه وفي الحديثِ المرفوعِ : ( أشدُّ النَّاسِ عذَابا يومَ القيامةِ عالِمٌ لم يَنْفَعه الله بعِلمِه ) ثبَّتَهُ أبو نُعيمٍ [١] وغيرُهُ [٢] .

فهــذا جهلُه كان خيراً لــه ، وأخــفَّ لعذَابِــهِ مِن عِملِه ، فما زادَهُ العِلــمُ إلا وبَالاً وعذاباً .

وهذا لا مَطْمَع في صلاحِه ؛ فإنَّ التائهَ عن الطَّريقِ يُرجى له العَودُ إليها إذا أبصَرَها ، فإذا عَرفَها وحادَ عنها عمْدَاً فمتى تُرجى هِدايَتُه ؟ قال تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [٣] .

الضرب الرابع من رُزق حظاً من العزيمة والإرادة لكن قلَّ نصيبه من العلم

الضَّربُ الرَّابعُ : مَن رُزقَ حَظَّاً من العزيمةِ والإرادةِ ، ولكنْ قلَّ نصيبُهُ من العِلمِ والمعرفةِ ، فهذا إذا وافق له الاقتداءُ بداعٍ من دُعاةِ اللهِ ورسولِهِ ، كان من الذين قال الله فيهم : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [٤] .

رزقنا اللهُ من فضلِهِ ، ولا حرمَنَا بسوءِ أعمالِنَا ، إنَّه غفورٌ رحيمٌ .

---

(١) أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصفهاني ، الحافظ ، المؤرخ ، صاحب التصانيف الكثيرة ، ومن مؤلفاتــه : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ومعرفة الصحابة ، ودلائل النبوة ، وغيرها ، توفي عام : ٤٣٠ هـ . وفيات الأعيان لابن خلكان (٥٤/١) ، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٩١/١) .

(٢) رواه الطبراني في المعجم الصغير (٣٠٥/١) ، وابن عدي في الكامل (٤١/٣ و ١٥٨/٥) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٧٣/٣) ، وغيرهم ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وفيه : عثمان بن مِقْسَمٍ البرّي ، وهو ضعيف قال عنه الإمام أحمد : " حديثه منكر " وضعفه النسائي والدارقطني ، وغيرهم ، ميزان الاعتدال للذهبي (٥٨/٣) . ورواه أبو نُعيم في حلية الأولياء (٢٨٨/٧) عن سفيان ابن عيينة قال : " كان يقال : ...." فذكره بنحوه .

(٣) آل عمران : ٨٦ .

(٤) النساء : ٦٩ .

أن كل صفة مدح الله بها العبد في القرآن فهي ثمرة العلم

**الوجه التسعون** : أنَّ كلَّ صفةٍ مدحَ اللهُ بها العبدَ في القرآنِ فهي ثمرةُ العلمِ ونتيجتُهُ وكلَّ ذمٍّ ذمَّهُ فهو ثمرةُ الجهلِ ونتيجتُهُ ، فمَدَحَهُ بالإيمـانِ ، وهو رأسُ العلمِ ولُبُّهُ ومدَحَهُ بالعملِ الصَّالحِ الذي هو ثمرةُ العلمِ النَّافعِ ، ومدَحَهُ بالشُّكرِ والصَّبـرِ والمُسارَعةِ في الخيراتِ ، والحُبِّ له ، والخوفِ منهُ ، والرَّجاءِ ، والإنابةِ ، والحِلمِ والوقارِ ، واللبِّ والعقلِ ، والعِفَّةِ ، والكرمِ ، والإيثارِ على النَّفسِ ، والنَّصيحةِ لعبادِهِ والرَّحمةِ بهم ، والرَّأفةِ ، وخفضِ الجناحِ ، والعفوِ عن مُسيئِهم ، والصَّفحِ عن جانيهم وبذلِ الإحسانِ لكافَّتِهم ، ودفعِ السيئةِ بالحسنةِ ، والأمر بالمعروفِ والنَّهي عن المنكرِ والصبرِ في مواطنِ الصَّبرِ ، والرِّضا بالقضاءِ ، واللينِ للأولياءِ ، والشِّدَّةِ على الأعداءِ والصدقِ في الوعدِ ، والوفاءِ بالعهدِ ، والإعراضِ عن الجاهلين ، والقَبُولِ مِن النَّاصحين واليقينِ ، والتَّوكلِ ، والطُّمأنينةِ والسكينةِ ، والتَّواصلِ والتَّعاطفِ ، والعدلِ في الأقوالِ والأفعالِ والأخلاقِ ، والقوَّةِ في أمرِه ، والبصيرةِ في دينهِ ، والقيامِ بأداءِ حقِّـهِ واستخراجِه من المانعين لهُ ، والدَّعوةِ إليه وإلى مرضاتِه وجنَّتِه ، والتَّحذيرِ عن سُبلِ أهلِ الضَّلالِ ، وتبيينِ طُرقِ الغَيِّ وحالِ سالِكِيها ، والتَّواصي بالحقِ ، والتَّواصي بالصَّبرِ والحضِّ على طعامِ المسكينِ ، وبرِّ الوالدين ، وصِلةِ الأرحامِ ، وبذلِ السَّلامِ لكافة المؤمنين ، إلى سائرِ الأخلاقِ المحمودةِ ، والأفعالِ المرضيةِ التي أقسم الله سبحانه على عِظَمِهَا ؛ فقال تعالى : ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (١) ، قالت عائشةُ رضي الله عنها (٢) ، وقد سُئلت عن خُلُقِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : " كان خلقه القرآن " ، فاكتفى بذلك السَّائلُ ، وقال : فهَمَمْتُ أن أقومَ ولا أسألَ عن شيءٍ بعدها (٣).

فهذه الأخلاقُ ونحوها هي ثمرةُ شجرةِ العِلمِ .

---

(١) القلم : ١ — ٤ .

(٢) تقدَّمت ترجمتها ص : ٢٣٠ .

(٣) والسائل لعائشة رضي الله عنها هو : سعد بن هشام بن عامر ، وقد رواه مسلم (٧٤٦) .

وإمَّا شجرةُ الجهلِ فتثمرُ كلَّ ثمرةٍ قبيحةٍ من الكفرِ ، والفسادِ ، والشِّركِ ، والظلمِ والبغي والعُدوانِ ، والجزعِ ، والهلعِ ، والكُنودِ ، والعَجلةِ ، والطَّيشِ ، والحِدَّةِ والفُحشِ والبَذاءِ ، والشُّحِ ، والبُخلِ .

ولهذا قيل في حدِّ البُخلِ : جزعٌ مقرونٌ بسوءِ الظَّنِ (١) .

ومن ثمرهِ (٢) : الغشُّ للخلق ، والكِبرُ عليهم ، / والفخرُ ، والخُيلاءُ ، والعُجبُ ، والرِّياءُ [٦٠/أ] والسُّمْعةُ ، والنِّفاقُ ، والكذبُ ، واخلافُ الوعْدِ ، والغِلظةُ على الناسِ ، والانتقامُ ومقابلةُ الحسنةِ بالسيئةِ ، والأمرُ بالمنكرِ ، والنَّهي عن المعروفِ ، وتركُ القَبولِ من النَّاصحينَ ، وحبُّ غير الله ورجاؤه ، والتوكلُ عليه ، وإيثارُ رضاه على رضا الله ، وتقديمُ أمرِه على أمرِ الله ، والتَّماوتُ عند حقِّ الله ، والوثوبُ عندَ حقِّ نفسِه ، والغضبُ لها والانتصارُ لها ؛ فإذا انتُهِكَتْ حقوقُ نفسِه لم يقُمْ لغضبِه شيءٌ حتى ينتقمَ بأكثرَ من حقِّه وإذا انتُهِكَت محارمُ الله لم يَنْبِضْ له عِرْقٌ غضَبَ للهِ (٣) ، فلا قوةَ في أمرِه ، ولا بصيرةَ في دِينهِ .

ومن ثمَرتِهَا : الدَّعوةُ إلى سبيلِ الشيطانِ ، وإلى سُلوكِ طريقِ البَغي ، واتِّباعِ الهوى وإيثارُ الشهواتِ على الطاعاتِ ، وقيلَ وقالَ ، وكثرةُ السؤالِ ، وإضاعةُ المالِ ، ووأدُ البناتِ ، وعقوقُ الأمهاتِ ، وقطيعةُ الأرحامِ ، وإساءَةُ الجِوارِ ، وركوبُ مَركبِ الخِزي والعارِ .

وبالجُملةِ ؛ فالخيرُ بمجموعِهِ ثمارٌ تُجتنى مِن شجرةِ العلمِ ، والشَّرُّ بمجموعِه شوكٌ يُجتنى من شجرةِ الجهلِ (٤) ، فلو ظهَرت صورةُ العلمِ للأبصارِ لزادَ حُسنُها على صورة الشمسِ والقمرِ ، ولو ظهَرت صورةُ الجهلِ لكان منظرَها أقبحَ منظرٍ .

بل كلُّ خيرٍ في العالم فهو من آثارِ العلم الذي جاءَت به الرُّسلُ ومُسبَّبٌ عنه .

---

(١) ينظر : معاني الأخبار للكلاباذي (١٥٩) ، وإحياء علوم الدين للغزالي (٢٦٧/٣) ، وسراج الملوك للطرطوشي (٩٥) .

(٢) في : د : ومن ثمرته .

(٣) في : د : بغضبٍ لله .

(٤) في : د : من ثمرة الجهل .

وكذلك كلُّ خيرٍ يكون إلى قيامِ الساعةِ وبعدها في القيامة ، وكلُّ شرٍّ وفسادٍ حصلَ في العَالَم ويحصُلُ إلى قيامِ الساعةِ وبعدها في القيامةِ ؛ فسببُه مُخالفةُ ما جاءت به الرُّسلُ في العِلْمِ والعملِ [١] .

العقل أبٌ للعلم ومربٍّ له وسائس ووزير

ولو لم يكن للعلم أبٌ ومُربٍّ وسائسٌ ووزيرٌ إلا العقلَ الذي به عِمارةُ الدَّارينِ ، وهو الذي أرشدَ إلى طاعةِ الرُّسلِ عليهم الصلاة والسلام ، وسلَّمَ القلبَ ، والجوارحَ ونفسَهُ إليهم ، وانقادَ لحكمهم [٢] ، وعزلَ نفسَه ، وسلَّمَ الأمرَ إلى أهلِه لكفى به شرفاً وفضلاً .

وقد مدَحَ الله سبحانه العقلَ وأهلَه في كتابِه في مواضع كثيرةٍ منه ، وذمَّ من لا عقلَ لهم ، وأخبرَ أنَّهم أهلُ النَّارِ الذين لا سمعَ لهم ، ولا عقلَ ، فهو آلةُ كلِّ علمٍ وميزانُه الذي به يُعرفُ صحيحُه من سقيمِه ، وراجحُه من مَرجُوحِه ، والمِرآةُ التي يُعرفُ بها الحَسنُ من القبيحِ .

وقد قيل : " العقلُ مَلِكٌ ، والبدنُ روحُه ، وحواسُّه وأفعالُه وحركاتُه كلُّها رعيَّةٌ له ؛ فإذا ضَعُفَ عن القيامِ عليها وتعَهُّدِهَا وصَلَ الخللُ إليها كلِّها " [٣] .

---

(١) قال المؤلف رحمه في الرسالة التبوكية (٤٣-٤٤) : " ومن تدبَّرَ العَالَم والشُّرورَ الواقعة فيه ، عَلِمَ أنَّ كلَّ شرٍّ في العَالم سببُه مُخالفةُ الرَّسولِ ، والخروجُ عن طاعته ، وكلّ خيرٍ في العَالم فإنَّه بسبب طاعةِ الرَّسولِ . وكذلك شرورُ الآخرةِ وآلامُها ، وعذابُها إنَّما هو من مُوجبات مُخالفةِ الرسولِ ومُقتضياتِها ، فعادَ شرُّ الدنيا والآخرة إلى مُخالفةِ الرسولِ وما يترتبُ عليه ، فلو أنَّ الناسَ أطاعوا الرسولَ حقَّ طاعتِه لم يكنْ في الأرض شرٌّ قط ، وهذا كما أنَّه معلومٌ في الشُّرورِ العامة والمصائبِ الواقعةِ في الأرضِ ، فكذلك هو في الشرِّ والألمِ والغمِّ الذي يُصيبُ العبدَ في نفسِه ؛ فإنَّما هو بسبب مخالفةِ الرسول ، ولأنَّ طاعتَه هي الحصنُ الذي من دخله كان من الآمنين ، والكهفُ الذي من لجأ إليه كان من الناجين . فعُلِمَ أنَّ شرورَ الدنيا والآخرة إنَّما هو الجهلُ بما جاء به الرسولُ صلى الله عليه وسلم ، والخروجُ عنه ، وهذا برهانٌ قاطعٌ على أنَّه لا نَجاةَ للعبد ولا سعادة إلا بالاجتهاد في معرفة ما جاء به الرسولُ صلى الله عليه وسلم عِلْمَاً ، والقيام به عملاً "

(٢) في النسخ : " لحكمه " ولعل المثبت أصوب .

(٣) القائل هو : علي بن عُبيدة الريحاني ، ينظر: البصائر والذخائر للتوحيدي (٢٨/١) ، ونثر الدر للآبي (١٢٠/٤) والشكوى والعتاب للثعالبي (١٩٣) ، وربيع الأبرار للزمخشري (٤٤٢/٣) ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (٤٢/٢٠) .

ولهذا قيل : " مَن لم يكنْ عقلُهُ أغلَبَ خِصالِ الخيرِ عليه كان حتفُهُ في أغلبِ خصالِ الشرِّ عليهِ " (١) .

ورُوِيَ أنَّه لمَّـا أُهبِـطَ آدم عليه السلام من الجنَّةِ أتاهُ جبريـلُ عليه الصلاة والسلام فقـال : إنَّ الله أحضَرَكَ العقلَ والدِّينَ والحياءَ لتختارَ واحداً منها ؛ فقال : أخذتُ العقلَ فقال الدِّينُ والحياءُ : أُمِرْنَا أن لا نفارقَ العقلَ حيثُ كان ، فانحازا إليه (٢) .

العقل عقلان
عقل غريزة وهو أبٌ للعلم وثمرته
وعقل مكتسب هو ولد العلم

والعقلُ عقلانِ :

- عقلُ غريزةٍ : وهو أبٌ للعلمِ وثمرتُهُ (٣) .
- وعقلٌ مُكتسبٌ مُستفادٌ : وهو ولدُ العلمِ وثمرتُه ونتيجتُه .

فإذا اجتمعا في العبدِ فذلك فضلُ الله يُؤتيهِ من يشاءُ ، واستقامَ له أمرُه ، وأقبلت عليه جُيوشُ السعادةِ من كلِّ جانبٍ ، وإذا فقدَهُما فالحيوانُ البهيمُ أحسنُ حالاً منه ، وإذا انفَرَدَا نَقَصَ الرَّجلُ بنقصانِ أحدِهما .

ومن الناسِ من يُرجِّحُ صاحبَ العقلِ الغَريزيِّ ، ومنهم من يُرجِّحُ صاحبَ العقلِ المُكتسبِ .

والتَّحقيقُ أنَّ صاحبَ العقلِ الغَريزيِّ الذي لا عِلمَ ولا تجرِبَةَ عندهُ آفتُهُ التي يُؤتى منها الإحجَامُ وتركُ انتهازِ الفُرصَةِ ؛ لأنَّ عقلَهُ يعقِلُهُ عن انتهازِ الفُرصةِ لعَدمِ علْمِه بها وصاحبُ العقلِ المُكتسبِ يُؤتى من الإقدامِ ؛ فإنَّ عِلْمَه بالفُرصِ وطُرقِها يُلقيهِ على المُبادَرةِ إليها ، وعقلُه الغريزيُّ لا يُطيقُ ردَّهُ عنها ؛ فهو غالباً يُؤتى من إقدَامِه ، والأولُ من إحجَامِه .

---

(١) نُسب إلى : أردشير بن هرمز بن بابك ، وإلى القاسم بن محمد ، ينظر : عيون الأخبار لابن قتيبة (٤٥١/١) ونثر الدر للآبي (٣٤/٧) ، والشكوى والعتاب للثعالبي (١٩٦) ، وسراج الملوك للطرطوشي (٦٧) ،وربيع الأبرار للزمخشري (٤٤٤/٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في : العقل وفضله (٣٧) عن حماد عن رجل من أهل مكة ، فذكره ، وفي ص (٣٨) عن أحمد بن عبد الأعلى الشَّيباني عن شيخ له ، وهو لا يصح مرفوعاً ، وفيه مجاهيل .

(٣) في : د ، ص : وهو أبُ العلمِ وثمرته .

فإذا رُزِقَ العقلُ الغَريزيُّ عقلاً إيمانياً مُستفاداً من مِشكاةِ النُّبوةِ ، لا عقلاً مَعيشياً نِفاقيَّاً يظنُّ أربابُهُ أنَّهم على شيءٍ ، ألا إنَّهم هم الكاذبون ، فإنَّهم يرون العقلَ أنْ يُرضُوا الناسَ على طبقاتِهم ، ويُسالِمُوهم ، ويستَجلِبُون مَودَّتَهم ومَحبَّتَهم .

وهذا مع أنَّه لا سبيلَ إليه ، فهو إيثارٌ للرَّاحةِ والدَّعةِ ومؤنةِ الأذى في الله ، والمُوالاةِ فيه والمُعاداةِ فيه ، وهو وإن كان أسلمَ عاجلةً ، فهو الهُلْكُ في الآجلةِ ، فإنَّه ما ذاقَ طعمَ الإيمانِ من لم يُوالِ في الله ويُعادِ فيه (١) ؛ فالعقلُ كلُّ العقلِ ما أوصلَ إلى رِضَا الله ورسولهِ والله الموفقُ المعينُ .

وفي حديثٍ مرفوعٍ ذكرهُ ابن عبد البرِّ ، وغيرُه : ( أوحى الله إلى نبيٍّ من أنبياءِ بني إسرائيلَ : قُلْ لفُلانٍ العابدِ : أمَّا زهدُك في الدُّنيا فقد تعجَّلتَ به الرَّاحةَ ، وامَّا انقطاعُك إليَّ فقد اكتَسبتَ به العِزَّ ، فما عملتَ فيما ليَ عليكَ ؟ قال : وما لكَ عليَّ ؟ قال : هل واليتَ فيَّ وليّاً ، أو عادَيتَ فيَّ عدوّاً ؟ ) (٢) .

وذكر أيضاً : ( أنَّه أوحى الله إلى جبريلَ عليه الصلاة والسلام : أن اخسِف بقريةِ كذا وكذا ، قال يا ربِّ إنَّ فيهم فُلاناً العابدَ ! قال : به فابدأ ، إنَّه لم يتمعَّرْ وجهُهُ فيَّ يوماً قطُّ ) (٣) .

---

(١) عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار ) رواه البخاري (١٦) ، ومسلم (٦٧) .

(٢) تقدّمت ترجمة ابن عبد البر ص : ٢٠٥ . والحديث رواه ابن عبد البر في التمهيد (٤٣٢/١٧) ، وأبو نُعيم في الحلية (٣١٦/١٠) ، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٢٠٢/٣) من طريق حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن ابن مسعود رضي الله عنه يرفعه . قال ابن عبد البر :
" حميد الأعرج هذا الذي يروي عن عبد الله بن الحارث منكر الحديث عند جميع أهل العلم بالنقل" .

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٣٣٦/٧) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٤/١٠) ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه . قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧٠/٧) : " رواه الطبراني في الأوسط من رواية عبيد بن إسحاق العطَّار ، عن عمَّار بن سيف ، وكلاهما ضعيفٌ ، ووَثَّقَ عمَّارَ بن سيفٍ ابنُ المُبارك وجماعةٌ ، ورضي أبو حاتم عُبيدَ بنَ إسحاق " ، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٧٦/٤) : " ضعيف جداً ".

قوله صلى الله عليه وسلم : إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا

**الوجهُ الحادي والتِّسعونَ : حديثُ ابن عمرَ الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : ( إذا مَرَرتُم برياضِ الجنةِ فارتَعـوا ) ، قالوا : يا رسولَ الله وما رياضُ الجنةِ ؟ قال : ( حِلَقُ الذِّكرِ ؛ فإنَّ لله تبارك وتعالى سيَّاراتٍ من الملائكةِ يطلبونَ حِلَقَ الذِّكـر فإذا أتَوا عليهم حفُّوا بهم )** (١) **.**

**قال عطاءٌ** (٢) **: " مجالسُ الذِّكر مَجالسُ الحلالِ والحرامِ ؛ كيف يشتري ، ويبيعُ ، ويصومُ ويُصلي ، ويتصدَّقُ ، وينكحُ ويُطلِّقُ ، ويحُجُّ " ذكره الخطيب** (٣) **في كتابِ " الفقيه والمتفقه "** (٤) **، وقد تقدم بيانه** (٥) **.**

قوله صلى الله عليه وسلم : مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة

**الوجه الثاني والتسعون : ما رواه الخطيـبُ أيضـاً عن ابن عمـرَ رضي الله عنهما** (٦) **يرفعُه : ( مجلسُ فقهٍ خيرٌ من عبادةِ ستينَ سنةً )** (٧) **.**

**وفي رفعِه نظرٌ .**

قوله صلى الله عليه وسلم : يسير فقه خير من كثير عبادة

**الوجهُ الثالثُ والتسـعون : ما رواه أيضـاً من حـديث عبد الـرحمـن بن عـوف**

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٦/٣٥٤) ، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/٩٣) وفيه : محمد بن عبد الله بن عامر السَّمَرْقَندِيُّ ، قال عنه الذهبي في ميزان الاعتدال (٣/٦٣٣) :" معروف بوضع الحديث " وقد ساق الألباني شواهد للحديث ، ينظر : السلسلة الصحيحة للألباني (٦/١٣٠) .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٢١٢ .

(٣) أبو بكر ، أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي ، المعروف بالخطيب ، أحد الحفاظ المُؤرخين المُقدَّمين ، صاحب المصنفات الكثيرة ، ومن أشهرها : تاريخ بغداد ، توفي عام : ٤٦٣ هـ . تاريخ دمشق لابن عساكر (٥/٣١) ، ووفيات العيان لابن خلكان (١/٥٤) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/٢٧٠) .

(٤) (١/٩٤) .

(٥) ينظر : الوجه الثاني والستون ص : ٢٥٣ .

(٦) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٤ .

(٧) رواه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١/٩٧) ، وفيه عبد الله بن أُذَيْنَةَ ، قال عنه ابن حبان في المجروحين (٢/١٨) : " منكر الحديث جداً يروي عن ثور ما ليس من حديثه ، لا يجوز الاحتجاج به بحال " .

رضي الله عنه (١) يرفعه : ( يسيرُ الفقهِ خيرٌ من كثيرِ العبادةِ ) (٢) ولا يثبتُ رفعُهُ .

قوله صلى الله عليه وسلم : فقيهٌ واحد أفضل عند الله من ألف عابد

الوجهُ الرابعُ والتسعون : ما رواه أيضاً من حديث أنسٍ رضي الله عنه (٣) يرفعه : ( فقيهٌ أفضلُ عند الله من ألفِ عابدٍ ) (٤) .

وهو في الترمذيِّ من حديث روحِ بن جناح (٥) عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعا (٦) .

وفي ثبوتهما مرفوعين نظرٌ ، والظاهرُ أنَّ هذا من كلامِ الصحابة فمن دونهم .

قوله صلى الله عليه وسلم : أفضل العبادة الفقه

الوجـــهُ الخامــسُ والتسعــون : ما رواه أيضاً عن ابن عمر رضي الله عنهما يرفعُهُ : ( أفضلُ العبادةِ الفقهُ ) (٧) .

قوله صلى الله عليه وسلم : ما عُبِدَ الله بشيء أفضل من فقه في دين

الوجهُ السادسُ والتسعون : ما رواه أيضاً من حديثِ نافعٍ (٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما يرفعُهُ : ( ما عُبدَ الله بشيء أفضل من فقه في دين ) (١) .

---

(١) أبو محمد ، عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث القُرشي ، كان اسمه في الجاهلية : عبد عمرو وقيل : عبد الكعبة ، وسمَّاه النبي صلى الله عليه وسلم : عبد الرحمن ، كان من المهاجرين الأولين ، شهد بدراً وما بعدها ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد أصحاب الشورى الستة ، توفي عام : ٣٢ هـ ، وقيل غير ذلك .
الاستيعاب لابن عبد البر (٢/٨٤٤) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٣/٤٧٥) ، والإصابة لابن حجر (٤/٢٩٠) .

(٢) الفقيه والمتفقه (١/٩٨) ، ورواه الطبراني في الكبير (١/١٣٥) ، ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٢١) : " وفيه خارجة بن مصعب ، وهو ضعيف جدا " .

(٣) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٦ .

(٤) الفقيه والمتفقه (١/١٠٥) ، وفي سنده سمعان بن المهدي وهو ممن يضع الحديث ، قال عنه الذهبي في ميزان الاعتدال (٢/٢٣٤) : " حيوانٌ لا يُعرف ، أُلصقت به نسخةٌ مكذوبةٌ رأيتُها ، قبَّحَ الله من وضَعَها " .

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٢١٩ .

(٦) تقدّم ذكر الحديث بسنده ، ينظر : الوجه الثامن والأربعون ص : ٢١٩ .

(٧) الفقيه والمتفقه (١/١١٣) ، والطبراني في المعجم الأوسط (٩/١٠٧) وفي المعجم الصغير (٢/٢٥١) ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٢٠) : " وفيه : محمد بن أبي ليلى ، ضعَّفوه لسوء حفظه " .

(٨) الإمام نافع ، مولى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أبو عبد الله القرشي العدوي العُمري ، العَلم ، المفتي المُحدِّث عالم المدينة ، من أئمة التابعين ، توفي عام : ١١٧ هـ .

قول علي رضي الله عنه : العالم أعظم أجرا من الصائم القائم الغازي

**الوجـهُ السابـعُ والتسعـون : ما رواه [٢] عن علي رضي الله عنه [٣] أنَّه قال : " العالم أعظمُ أجراً من الصائمِ القائمِ الغازي في سبيل الله " .**

قول أبي هريرة وأبي ذر رضي الله عنهما : باب من العلم نتعلمه أحبُّ إلينا من ألف ركعة تطوعا

**الوجــهُ الثامــنُ والتسعــون : ما رواه المُخَلِّص [٤] عن ابن صاعد [٥] : حدثنا القاسم بن الفضل بن بَزيع [٦] : حدثنا حجاج بن نصير [٧] : حدثنا هلالُ بن عبد الرحمن الحَنَفي [٨] عن عطاء بن أبي ميمونة [٩] عن أبي هريرة وأبي ذرٍّ رضي الله عنهما [١٠] أنَّهما قالا : " بابٌ من العلم نتعلَّمُه أحبُّ إلينا من ألفِ ركعةٍ تطوُّعاً ، وبابٌ من العلم نُعلِّمُه . عُمِلَ به أو لم يُعمل . أحبُّ إلينا من مئةِ ركعةٍ تطوُّعاً " .**

---

وفيات الأعيان لابن خلكان (١٨٣/٣) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٧٦/١) .

(١) الفقيه والمتفقه (١١٣/١) ، ورواه أبو نُعيم في أخبار أصبهان (١٠٩/١) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٣٠/٣) وقال البيهقي : " والمحفوظ هذا اللفظ من قول الزُّهري " .

(٢) الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (١٩٧/٢) ، والمُعافى بن زكريا في الجليس الصالح (٤٥٠) ، بسند منقطع وفيه : أخبرنا ابن الأعرابي ( ت : ٢٣١هـ ) وسهل بن هارون ( ت : ٢١٥ هـ ) قالا : قال علي رضي الله عنه فذكره .

(٣) تقدّمت ترجمته ص : ١٩٩ .

(٤) أبو طاهر ، محمد بن عبد الرحمن بن العباس بن عبد الرحمن البغداديُّ الذهبيُّ ، مُخلِّص الذهبِ من الغشِّ الحافظ المحدث ، مُسندُ بغداد ، من مصنفاته : الأمالي ، والفوائد المنتقاة ، والأجزاء المُخلصيَّات ، وغيرها توفي عام : ٣٩٣ هـ ، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٣٢٢/٢) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤٧٨/١٦) .

(٥) يحيى بن محمد بن صاعد بن كاتب ، أبو محمد الهاشمي البغدادي، مولى الخليفة أبي جعفر المنصور ، إمامٌ ، حافظٌ مُجوِّدٌ ، مُحدثُ العراق ، توفي عام : ٣١٨ هـ .

تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٥٦/٦٤) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٢٤٠/٢) .

(٦) أبو محمد ، القاسم بن الفضل بن بَزيع ، توفي عام : ٢٥٩ هـ . تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤٥٩/١٢) .

(٧) حجاج بن نُصير الفساطيطي القيسي ، أبو محمد البَصْرِيّ ، قال عنه البخاري : " يتكلَّمُ فيه بعضهم " ، توفي عام : ٢١٣ هـ . التاريخ الكبير للبخاري (٣٨٠/٢) ، وتهذيب الكمال للمزي (٤٦١/٥) .

(٨) هلال بن عبد الرحمن الحنفي ، قال عنه العقيلي :" منكر الحديث " ، وقال ابن حجر : " الضعف على أحاديثه لائح فليترك " . الضعفاء للعقيلي (٣٥٠/٤) ، ولسان الميزان : (٣٤٨/٨) .

(٩) عطاء بن أبي ميمونة ، واسم والده : مَنِيع ، أبو معاذ مولى أنس بن مالك رضي الله عنه ، بصريٌّ ، وكان يرى القدر ، توفي عام : ١٣٥ هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٤٥/٧) ، وتهذيب الكمال للمزي (١١٧/٢٠) .

(١٠) أبو ذرٍّ ، جُندبُ بن جنادة بن سكن بن عمرو بن صعير الغِفاري ، مختلف في اسمه واسم أبيه ، كان من السابقين إلى الإسلام ، توفي بالرَّبذةِ عام : ٣١ هـ . الاستيعاب لابن عبد البر (٢٥٢/١) ، والإصابة لابن حجر (١٠٥/٧) .

وقالا : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ( إذا جاء الموتُ طالبَ العلمِ وهو على هذه الحال ماتَ شهيداً ) (١) .

ورواه ابن أبي داود (٢) عن شاذان (٣) عن حَجَّاج به .

قلتُ : وشاهدُهُ ما مَرَّ (٤) من حديثِ الترمذي عن أنسٍ رضي الله عنه يرفعُه : ( من خرج في طلبِ العلمِ فهو في سبيلِ الله حتى يرجعَ ) .

قول أبي هريرة رضي الله عنه : لأن أعلم باباً من العلم في أمر أو نهي أحبُّ إليَّ من سبعين غزوة

**الوجهُ التاسعُ والتسعون** : ما رواه الخطيبُ أيضاً عن أبي هريرة قال : " لأن أعلمَ باباً من العلم في أمرٍ أو نهي أحبُّ إليَّ من سبعينَ غزوةً في سبيل الله " (٥) .

وهذا إن صحَّ فمعناهُ : أحبُّ إليَّ من سبعين غزوةً بلا علمٍ ؛ لأنَّ العملَ بلا علمٍ فسادُه أكثرُ من صلاحِه .

أو يريـدُ عِلماً يتعلَّمُه ويُعلِّمُه ؛ فيكونُ له أجـرُ من عمِـلَ به إلى يوم القيامة ، وهذا لا يحصلُ في الغَزوِ المُجرَّدِ .

قول أبي الدرداء رضي الله عنه : مذاكرة العلم ساعةً خير من قيام ليلة

**الوجه المئة** : ما رواه الخطيبُ أيضاً عن أبي الدرداءِ رضي الله عنه (٦) أنَّـه قـال :

" مُذاكرةُ العلم ساعةً خيرٌ من قيامِ ليلةٍ " (٧) .

---

(١) تقدَّم في : الوجه الخمسين ، ص : ٢٢٨ .

(٢) عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني ، أبو بكر بن أبي داود ، الحافظ ، الثقة ، شيخ بغداد صاحب التصانيف ، ومن مؤلفاته : السنن ، المصاحف ، البعث ، وغيرها ، توفي عام : ٣١٦ هـ .
تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٩/٤٦٤) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/٢٢١) .

(٣) أبو بكر ، إسحاق بن إبراهيم بن عبد الله بن بكير بن زيد ، النَّهْشَلِي الفارسي ، يُعرفُ بشاذان ، قال ابن حجر : " له مناكير وغرائب مع أن ابن حبان ذكره في الثقات" ، توفي عام : ٢٦٧ هـ .
الثقات لابن حبان (٨/١٢٠) ، ولسان الميزان لابن حجر (٢/٣٣) .

(٤) تقدَّم في الوجه : الخمسين ص : ٢٢٦ .

(٥) الفقيه والمتفقه (١/١٠٢) .

(٦) تقدّمت ترجمته ص : ٢٠٦ .

(٧) الفقيه والمتفقه (١/١٠٢) وفيه انقطاع ، إذ فيه : عن معمر قال : بلغنا عن أبي الدرداء ، فذكره .

قول الحسن : لأن أتعلَّمَ باباً من العلم فأُعَلِّمَهُ مسلماً أحبُّ إليَّ من أن تكون لي الدنيا فأجعلها في سبيل الله

**الوجه الحادي والمئة : ما رواه** (١) **عن الحسن** (٢) **قال : " لأن أتعلَّمَ باباً من العلم فأُعَلِّمَهُ مسلماً أحبُّ إليَّ من أن تكون لي الدنيا كلُّها [ أجعلها ]** (٣) **في سبيلِ الله " .**

قول مكحول : ما عُبِدَ الله بأفضل من الفقه

**الوجهُ الثاني والمئة : قال مكحول** (٤) **: " ما عُبِدَ الله بأفضلَ من الفقه "** (٥) **.**

قول ابن المسيِّب ليست عبادة الله بالصوم والصلاة ولكن بالفقه في دينه

**الوجهُ الثالثُ والمئة : قال سعيدُ بن المُسيِّب** (٦) **: " ليست عبادةُ الله بالصومِ والصَّلاةِ ولكنْ بالفِقهِ في دينِهِ "** (٧) **.**

**وهذا الكلامُ يُرادُ به أمرانِ :**

**أحدهُما : أنَّها ليست بالصَّومِ والصَّلاةِ الخالِيَين عن العلمِ ، ولكنْ بالفقهِ بالدين الذي يُعلَمُ** (٨) **به كيفَ الصَّومُ والصَّلاةُ .**

**والثاني : أنَّها ليست الصَّومَ والصَّلاةَ فقط ، بل الفِقهُ في دينِهِ من أعظمِ عبادَاتِه .**

---

(١) المصدر السابق (١٠٢/١)

(٢) تقدّمت ترجمته ص : ٩١ .

(٣) ليست في النسخ ، وهي من المصدر .

(٤) أبو عبد الله مكحول بن عبد الله بن شاذل بن سند الشامي ، كان جده شاذل من أهل هراة ، إمام أهل الشام وفقيههم ، لم يكن في زمنه أبصر منه بالفتيا ، توفي عام : ١١٢ هـ ، وقيل غير ذلك .
حلية الأولياء لأبي نُعيم (١٧٧/٥) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (١٤١/٣) .

(٥) الفقيه والمتفقه (١١٨/١) ، وفي سنده ياسين الزَّيات ، وهو متروك الحديث ، ينظر : ميزان الاعتدال للذهبي (٣٥٨/٤) .

(٦) تقدّمت ترجمته ص : ٢٢١ .

(٧) الفقيه والمتفقه (١١٧/١) ، ورواه أبو الشيخ في العظمة (٢١٩/١) ، وفي سنده : محمد بن صالح الليثي ، قال عنه ابن معين : " ضعيف " ، وقال البخاري :" منكر الحديث " . ميزان الاعتدال للذهبي (٢٩٩/٢) .

(٨) في : ص : يُعملُ به .

قول ابن أبي فروة أقرب الناس من درجة النبوة العلماء وأهل الجهاد

الوجهُ الرابعُ والمئة : قال إسحاقُ بن عبد الله بن أبي فروة (١) : " أقربُ الناسِ من درجةِ النُّبوةِ العلماءُ وأهلُ الجهادِ ، والعلماءُ دلُّوا الناسَ على ما جاءت به الرسلُ " (٢) وقد تقدم الكلامُ في تفضيلِ العالمِ على الشَّهيدِ وعكسه (٣) .

قول سفيان ابن عيينة : أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عباده

الوجه الخامس والمئة : قال سفيانُ بن عيينة (٤) : " أرفعُ الناسِ عند الله مَنزلةً مَن كان بين الله وبين عبادهِ ، وهم الرُّسلُ والعلماءُ " (٥) .

قول الزهري ما عُبد الله بمثل الفقه

الوجه السادسُ والمئة : قال محمد بن شهاب الزُّهري (٦) : " ما عُبِدَ الله بمثلِ الفقهِ " (٧) .

وهذا الكلامُ ونحوهُ يُرادُ به انَّه ما يُعبدُ الله بمثلِ أن يُتعبَّدَ بالفقهِ في الدِّينِ ، فيكونَ نفسُ التَّفقُّهِ عبادةٌ ، كما قال معاذ بن جبلٍ رضي الله عنه (٨) : " عليكم بالعلم ؛ فإنَّ طلبَهُ لله عبادةٌ " .

وسيأتي إن شاء الله ذُكرُ كلامِه بتَمَامِه (٩) .

---

(١) إسحاق بن عَبد الله بن أَبي فروة ، واسمه عبد الرحمن بن الأسود بن سوادة ، ويُقال : الأسود بن عَمْرو بن رياش ويُقال : كيسان ، القُرشي الأُمَوِي ، أبو سُلَيْمان المدني مولى آل عثمان بن عفان ، توفي عام : ١٤٤هـ . ميزان الاعتدال للذهبي (١٩٣/١) ، وتهذيب الكمال للمزي (٤٤٦/٢) .

(٢) رواه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١٤٨/١) ، وفي سنده : ضرار بن عمرو المَلطي ، قال عنه البخاري : " فيه نظر " ، وقال ابن عدي : " منكر الحديث " . الكامل لابن عدي (١٠١/٤) ، وميزان الاعتدال للذهبي (٣٢٨/٢) .

(٣) تقدّم في ص : ٢٦٠ .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٩٠ .

(٥) رواه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١٤٨/١) .

(٦) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٣١ .

(٧) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٢٥٦/١١) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣٦٥/٣) ، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١١٩/١) بسند صحيح .

(٨) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٢٧ .

(٩) سيأتي في الوجه : العاشر بعد المئة ، ص : ٣٧٢ .

وقد يُرادُ به أنَّه ما عُبِدَ الله بعبادةٍ أفضلَ من عبادةٍ يصحبُها الفقهُ في الدِّينِ ؛ لعِلْمِ الفقيهِ في دينهِ بمراتبِ العباداتِ ، ومُفسِداتها ، وواجباتِها ، وسُنَنِها ، وما يُكمِّلها وما يُنقِصها .

وكلا المعنَيين صحيحٌ .

قول سهل التستري من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء

الوجهُ السابعُ والمئة : قال سهلُ التستري رحمه الله [١] : " من أرادَ النَّظرَ إلى مجالسِ الأنبياءِ فلينظُر إلى مَجالسِ العلماءِ " [٢] .

وهذا لأنَّ العلماءَ خُلفاءُ الرسلِ في أُمَمِهم ، ووارِثُوهم في عِلمِهم ، فمَجالِسُهم مَجالسُ خلافةِ النُّبوَّةِ [٣] .

تصريح كثير من الأئمة بأن أفضل الأعمال بعد الفرائض طلبُ العلم

الوجهُ الثامنُ والمئة : أنَّ كثيراً من الأئمَّةِ صرَّحوا بأنَّ أفضلَ الأعمالِ بعد الفرائضِ طلبُ العلمِ .

فقال الشافعي رحمه الله [٤] : " ليس شيءٌ بعدَ الفرائضِ أفضلَ من طلبِ العلمِ " [٥] .

وهذا الذي ذكرهُ أصحابُه عنه أنَّه مذهبُه [٦] .

وكذلك قال سفيانُ الثوريُّ [٧] .

وحكاه الحَنفيةُ عن أبي حنيفةَ [٨] .

وأما الإمام أحمد [٩] فحُكيَ عنه ثلاثُ رواياتٍ :

---

(١) أبو محمد ، سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى التُّسْتَرِيُّ ، الشيخ الصالحُ ، المَشهورُ ، صاحب الكلمات النافعة والمواعظ المحسنة ، توفي عام : ٢٨٣ هـ .

وفيات الأعيان لابن خلكان (١/٣٩٥) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/٣٣٠) .

(٢) رواه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١/١٤٩) .

(٣) تقدَّم كلام المؤلف رحمه الله عن ورثة الأنبياء ص : ٢١٤ .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ١١٣ .

(٥) رواه البيهقي في مناقب الشافعي (٢/١٣٨) ، وفي المدخل إلى السنن الكبرى (٣١٠) ، وبنحوه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/١١٩) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/١٢٣) .

(٦) المجموع شرح المهذب للنووي (١/١٢ ، ٢٠) .

(٧) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/٣٦٣) ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/١٢٣) .

(٨) الكسب لمحمد بن الحسن (٦٦) ، وحاشية ابن عابدين (٦/٤٠٧) .

(٩) تقدَّمت ترجمته ص : ١١١ .

**إحداهُنَّ : أنَّه العلمُ ؛ فإنَّه قيلَ له : أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك ؛ أجلسُ بالليلِ أنسخُ أو أُصلي تطوُّعاً ؟ قال : " نسخُك تعلَمُ به أمرَ دينِك فهو أحبُّ إليَّ "** (١) **.**

**وذكر الخلال** (٢) **عنه في كتاب " العلم "** (٣) **نصوصاً كثيرة في تفضيل العلم ، ومن كلامه فيه : " الناسُ إلى العلمِ أحوجُ منهم إلى الطعامِ والشرابِ " وقد تقدم** (٤) **.**

**والرِّوايةُ الثَّانيةُ : أنَّ أفضلَ الأعمالِ بعد الفرائض صلاة التطوع** (٥) **.**

**واحتُجَّ لهذه الرواية بقوله صلى الله عليه وسلم : ( واعلموا أنَّ خيرَ أعمالِكُم الصَّلاةُ )** (٦) **، وبقولِه في حديثِ أبي ذرٍّ رضي الله عنه** (٧) **، وقد سألَهُ عن الصَّلاةِ فقال: ( خيرٌ موضوعٌ )** (٨) **، وبأنَّه أوصى مَن سألَهُ مُرافقَتَهُ في الجنَّةِ بكثرةِ**

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (١٠٣/١) ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١١٨/١) وينظر : مسائل حرب (٩٤٦/٢) ، والفروع لابن مفلح (٣٣٩/٢ و ٣٤٣) والإنصاف للمرداوي (١٦٢/٢) .

(٢) أبو بكر الخلَّال ، أحمد بن محمد بن هارون البغدادي ، ، الفقيه ، المُحدِّث ، المفسرٌ ، من كبار الحنابلة ، صاحب التصانيف الكثيرة ، ومنها : الجامع ، والعلل ، والسنة ، والطبقات ، والعلم ، وتفسير الغريب ، وغيرها ، توفي عام : ٣١١ هـ . طبقات الحنابلة للقاضي ابن أبي يعلى (١٢/٢) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٦/٣) .

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن كتابي السنة والعلم للخلال : " وهو أجمعُ كتاب يذكرُ فيه أقوالَ أحمد في مسائلِ الأصولِ الدينيةِ ، وإن كان له أقوالٌ زائدةٌ على ما فيه ، كما أنَّ كتابَه في العلم أجمعُ كتابٍ يذكرُ فيه أقوالَ أحمدَ في الأصولِ الفقهيةِ " مجموع الفتاوى (٣٩٠/٧) .

(٤) ص : ٢٠٠ و ٢٦٤ . وينظر : مسائل حرب للكرماني (٩٤٦/٢) ، وطبقات الحنابلة للقاضي ابن أبي يعلى (١٤٥/١) ، والآداب الشرعية لابن مفلح (٤٤/٢) .

(٥) ينظر : الشرح الكبير للمقدسي (٧٠٥/١) ، والمبدع لابن مفلح (٥/٢) ، والإنصاف للمرداوي (١٦١/٢) .

(٦) رواه أحمد (٢٧٦/٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢) ، وابن ماجه (٢٧٧) ، وغيرهما من حديث ثوبان رضي الله عنه ، والحديث صححه ابن حبان في صحيحه (٣١١/٣) ، والحاكم في المستدرك (١٣٠/١) ، والألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٥١/١) .

(٧) تقدَّمت ترجمته ص : ٣٦٤ .

(٨) جزءُ حديث رواه أحمد (١٧٨/٥ ، ١٧٩) ، وللحديث شاهدان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٨٤/١) ، ومن حديث أبي أمامة رضي الله عنه ، رواه أحمد (١٦٥/٥) ، وقد صححه ابن حبان (٧٦/٢) ، والحاكم (٥٩٧/٢) ، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٣/١) .

**السُّجودِ [١] وهو الصلاة .**

**وكذلك قولُهُ صلى الله عليه وسلم في الحديثِ الآخرِ : ( عليك بكثرةِ السُّجودِ ؛ فإنَّك لا تسجدُ لله سجدةً ؛ إلا رفعكَ اللهُ بها درجةً ، وحَـطَّ عنك بها خطيئةً ) [٢] وبالأحاديث الدالة على تفضيل الصلاة .**

**والروايةُ الثَّالثةُ : أنَّه الجهـادُ [٣] . فإنَّه قـــال [٤] : " لا أعــدِلُ بالجهادِ شيئاً ، ومن ذا يُطيقُهُ " ؟ .**

**ولا ريب أنَّ أكثر الأحاديث في الصلاة والجهاد .**

**وأمَّا مالك [٥] فقال ابن القاسم [٦] سمعتُ مالكاً يقولُ : " إنَّ أقواماً ابتغوا العبادةَ وأضاعوا العلمَ ، فخرجوا على أمةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم بأسيافِهم ، ولو ابتغوا العلمَ لحجزَهُم عن ذلك " [٧] .**

**قال مالكٌ : " وكتب أبو موسى الأشعري رضي الله عنه [٨] إلى عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه [١] أنَّه قد قرأَ القرآنَ عندنا عددُ كذا وكذا ، فكتبَ إليه عمرُ : أن افرِض لهم من**

---

(١) رواه مسلم (٤٨٩) من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم (٤٨٨) من حديث ثوبان رضي الله عنه .

(٣) ينظر : المغني لابن قدامة (١٠/١٣) ، والعدة شرح العمدة لبهاء الدين المقدسي (٣٣٨/٢) ، والفروع لابن مفلح (٣٣٧/٢) ، ومنتهى الإرادات لابن النجار (٢٠٥/٢).

(٤) يريد الإمام أحمد ، ينظر : المغني لابن قدامة (١٨/١٣) ، والشرح الكبير للمقدسي (١٥٠/٣ ، ٣٧٤/١٠) والمبدع لابن مفلح (٥/٢) . وقال ابن مفلح في الفروع (٣٣٧/٢) : " الجهاد أفضلُ تطوعاتِ البدنِ ، أطلقه الإمامُ أحمد والأصحابُ رحمهم الله " ، وقال المرداوي في الإنصاف (١١٥/٢) : "والصحيحُ من المذهب أيضاً أنَّه أفضلُ من الرِّباطِ ، وقيل الرِّباط أفضلُ ، وحكي رواية " .

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٨ .

(٦) أبو عبد الله ، عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جُنَادَة العُتَقي . بالولاء . المصري ، صحِبَ الإمامَ مالك عشرين عاماً ، فقيه مالكي ، جمع بين الزهد والعلم ، وهو صاحب " المدونة " في مذهب المالكية ، توفي عام : ١٩١هـ . ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض (٢٤٤/٣) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٦٢/٢) .

(٧) تقدَّم عن الحسن رحمه الله ص : ٢٦٧ .

(٨) تقدَّمت ترجمته ص : ١١١ .

بيتِ المال ، فلمَّا كان في العام الثاني كتبَ إليه أنَّه قد قرأَ القرآنَ عندنا عددٌ كثيرٌ لأكثرَ من ذلك ، فكتب إليه عمرُ رضي الله عنه : " أن امْحُهم من الدِّيوانِ ؛ فإنِّي أخافُ من أن يُسرِعَ الناسُ في القرآنِ أن يتفقهوا في الدِّين فيتأوَّلوه على غير تأويلِه " (٢).

وقال ابن وهب (٣) : " كنت بين يدي مالك بن أنس فوضعتُ ألواحي ، وقمتُ إلى الصلاة ، فقال : ما الذي قمتَ إليه بأفضلَ من الذي تركتَهُ " (٤) .

قال شيخنا قدَّس الله روحَهُ (٥) : " وهذه الأمورُ الثلاثةُ التي فضَّلَ كلُّ واحدٍ من الأئمةِ بعضَها ، وهي الصَّلاةُ والعلمُ والجهادُ ، هي التي قال فيها عمرُ بن / الخطاب رضي الله [٦٢/أ] عنه : " لولا ثلاثٌ في الدنيا لما أحببتُ البقاءَ فيها ؛ لولا أن أُحمَل ، أو أُجهِّزَ جيشاً في سبيل الله ، ولولا مُكابدَةُ هذا الليلِ ، ولولا مُجالسةُ أقوامٍ ينتقون أطايبَ الكلامِ كما يُنْتَقى أطايبُ التَّمرِ لَمَا أحببتُ البقاءَ " (٦) .

فالأولُ : الجهادُ ، والثاني : قيامُ الليلِ ، والثالثُ : مُذاكرةُ العلمِ .

فاجتمَعت في الصحابةِ بكمالهم ، وتفرَّقَتْ فيمَن بعدهم .

قوله صلى الله عليه وسلم : فضل العلم خير من العمل وخير دينكم الورع

الوجهُ التاسعُ والمئة : ما ذكره أبو نُعيم (٧) وغيره عن بعضِ أصحابِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : ( فضلُ العلم خيرٌ من العمل ، وخيرُ دينِكُم الورعُ ) (٨) .

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٢٣ .

(٢) رواه معمر بن راشد في جامعه (٢١٧/١١) ، وعبد الله بن أحمد في السنة (١٣٥/١) ، ويعقوب الفسوي في تاريخه (٥١٦/١) ، بنحوه .

(٣) أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القُرَشي . بالولاء . المصري ، فقيه مالكيٌّ ، كان أحد أئمة عصره ، وصحب الإمام مالك رحمه الله عشرين عاماً ، قال مالك في حقِّه : " ابن وهب إمام " ، صنَّف الجامع والموطأ وغيرهما ، توفي عام : ١٩٧ هـ . وفيات الأعيان لابن خلكان (١٨/٢) ، وترتيب المدارك للقاضي عياض (٢٢٣/٣) .

(٤) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٢٢/١) .

(٥) ينظر : المستدرك على مجموع الفتاوى (٢١٨/٣) .

(٦) رواه ابن المبارك في الجهاد (١٦٧) ، وأبو يوسف القاضي في الآثار (٢١٣) ، وأبو نُعيم في حلية الأولياء (٥١/١).

(٧) تقدَّمت ترجمته ص : ٣٥٦ .

(٨) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢١٢/٢) ، والبزار في المسند (٣٧١/٧) ، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه . وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٧٦/٢) .

وقد رُوي هذا مرفوعاً من حديثِ عائشةَ رضي الله عنها [١] ، وفي رفعه نظر [٢] .

وهذا الكلامُ هو فصلُ الخطابِ في هذه المسألةِ ؛ فإنَّه إذا كان كلٌّ من العلمِ والعملِ فَرضاً فلا بدَّ منهما كالصَّومِ والصَّلاة ، فإذا كانا فضْلَين ، وهما النَّفلانِ المُتطَوَّعُ بهما ففضلُ العلمِ ونفلُهُ خيرٌ من فضلِ العبادةِ ونفلِها ؛ لانَّ العلمَ يعُمُّ نفعُهُ صاحِبَه والناسَ معه والعبادةُ يختصُّ نفعُها بصاحِبِها ، ولأنَّ العلمَ تبقى فائدَتُه وعلمُه بعد موتِهِ ، والعبادةُ تنقطعُ عنه [٣] ، ولِمَا مَرَّ من الوجوهِ السابقةِ .

قول معاذ رضي الله عنه : تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية

الوجهُ العاشرُ بعد المئة : ما رواه الخطيبُ [٤] وأبو نُعيم [٥] وغيرهما عن معاذ بن جبل رضي الله عنه [٦] قال : " تعلَّموا العلمَ فإنَّ تعلُّمَهُ لله خشيةٌ ، وطلَبَهُ عبادةٌ ، ومُدارسَتَهُ تسبيحٌ ، والبحثَ عنه جهادٌ ، وتعليمَهُ لمن لا يُحسنُه صدقةٌ ، وبذلَه لأهلِه قُربةٌ ، به يُعرفُ الله ويُعبدُ ، وبه يُوحَّدُ ، وبه يُعرفُ الحلالُ من الحرامِ ، وتُوصلُ الأرحامُ ، وهو الأنيسُ في الوحدَةِ ، والصاحبُ في الخلوةِ ، والدَّليلُ على السَّراءِ ، والمُعينُ على الضَّراءِ والوزيرُ عند الأخِلَّاءِ ، والقريبُ عند الغرباءِ ، ومَنارُ سبيلِ الجنة ، يَرفعُ الله به أقواماً فيجعلُهم في الخيرِ قادةً وسادةً يُقتدى بهم ، أدِلَّةً في الخير تُقتَصُّ آثارُهم ، وتُرمقُ أفعالُهم ، وتَرغبُ الملائكة في خَلَّتِهم ، وبأجنحتها تمسَحُهم ، يستغفرُ لهم كلُّ رطبٍ

---

(١) تقدَّمت ترجمتها ص : ٢٣٠ .

(٢) رواه ابن عدي في الكامل (٦/١٦٠) ، وفي سنده : محمد بن عبد الملك النصاري المديني ، وقد ضُعِّفَ ، قال عنه الإمام أحمد :" كان أعمى يضع الحديث " قال أبو حاتم : " ذاهب الحديث جداً ، كذَّابٌ كان يضعُ الحديثَ " الضعفاء للعقيلي (٤/١٠٣) ، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٤/٨) .

(٣) قال ابن جماعة في تذكرة السامع والمتكلم (٤٣-٤٤) بعد أن ذكر النصوص في فضل العلم : " وقد ظهر بما ذكرناه أنَّ الاشتغالَ بالعلم لله أفضلُ من نوافلِ العباداتِ البدنيةِ ، من صلاةٍ وصيامٍ وتسبيحٍ ودعاءٍ ونحو ذلك ؛ لأنَّ نفعَ العلم يعُمُّ صاحبَه والناسَ ، والنوافلُ البدنيةُ مقصورة على صاحبِها ؛ ولأنَّ العلمَ مُصححٌ لغيره من العباداتِ ؛ فهي تفتقرُ إليه ، وتتوقفُ عليه ، ولا يتوقفُ هو عليها ، ولأنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ عليهم الصلاة والتَّسليمُ ، وليس ذلك للمُتعبِّدين ، ولأنَّ طاعةَ العالِمِ واجبةٌ على غيره فيه ، ولأنَّ العلمَ يبقى أثرُه بعد موتِ صاحبِه ، وغيرُه من النَّوافلِ تنقطعُ بموتِ صاحبِها ، ولأنَّ في بقاءِ العلمِ إحياءُ الشريعةِ ، وحفظُ مَعالِمِ المِلَّةِ " .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٣٦٢ .

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٣٥٦ .

(٦) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٢٧ .

**ويابسٍ ، حتى حيتانُ البحر وهوامُّه ، وسباعُ البرِّ وأنعامُه ، والسماءُ ونجومُها ، والعلمُ حياةُ القلوب من العَمَى ، ونورٌ للأبصارِ من الظُّلمِ ، وقوَّةٌ للأبدانِ من الضَّعفِ ، يبلغُ به العبدُ منازلَ الأبرارِ والدرجاتِ العُلى ، التَّفكرُ فيه يُعدَلُ بالصيام ، ومُدارستُه بالقيام ، وهو إمامٌ للعملِ ، والعملُ تابعُهُ ، يُلْهَمُهُ السُّعداءُ ، ويُحرمُه الأشقياءُ " [١] .**

**هذا الأثر معروفٌ عن معاذ رضي الله عنه ، ورواه أبو نُعيمٍ في المعجم من حديث معاذٍ مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يثبتُ ، وحسبُهُ أن يصلَ إلى معاذ رضي الله عنه .**

قوله صلى الله عليه وسلم : من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليُحيي به الإسلام

**الوجهُ الحادي عشر بعد المئة : ما رواهُ يونس بن عبد الأعلى [٢] عن ابنِ أبي فُدَيْكٍ [٣] : حدثني عمرو بن كَثير ، عن أبي العلاء [٤] ، عن الحسن [٥] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ( من جاءَهُ الموتُ وهو يطلبُ العلمَ ليُحيى به الإسلامَ فبَينَهُ وبين الأنبياءِ في الجنَّةِ درجةُ النُّبوة ) [٦] .**

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٣٩/١) عن معاذ رضي الله عنه موقوفاً ، وفي سنده رجل مبهم ، لم يسمَّ ، ورواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٣٨/١) مرفوعاً ، وهو حديث موضوع ، في سنده : عبد الرحيم بن زيد العمي ؛ وهو متروك ، قال ابن معين : ليس بشيء ، تهذيب التهذيب لابن حجر (٣٠٥/٦) ، وفيه أيضا : محمد بن موسى بن عطاء القرشي ، قال عنه ابن حبان : " لا تحل الرواية عنه ، كان يضع الحديث" ، وقال الذهبي : " أحد التلفَى " ميزان الاعتدال (٢١١/٤) . ورواه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (١٠٠/١) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، وفي سنده : نُعيم بن حماد الخزاعي ، وهو ضعيف ، قال النسائي: ضعيف ، ليس بثقة . وقال الدارقطني : كثير الوهم . تهذيب الكمال للمزي (٤٧٦/٢٩) .

(٢) أبو موسى ، يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة بن حفص بن حيان الصدفي المِصْرِي ، عالم الديار المصرية ، الإمام الحافظ ، المقرئ ، الفقيه ، توفي عام : ٢٦٤ هـ . تذكرة الحفاظ للذهبي (٨٤/٢) ، وتهذيب الكمال للمزي (٥١٣/٣٢) .

(٣) محمد بن إسماعيل بن مسلم بن أَبي فُدَيْكٍ واسمه دينار الديلي المدني ، مولى بني الديل ، الحافظ الكبير ، مُحدِّث المدينة ، توفي عام : ٢٠٠ هـ . الثقات لابن حبان (٤٢/٩) ، وتهذيب الكمال للمزي (٤٨٥/٢٤) .

(٤) أبو العلاء هذا : لا يُعرف من هو ! .

(٥) والحسن ، اضطرب في تحديده ! فمنهم من قال : هو الحسن البصري ، ومنهم من قال: هو الحسن بن علي . ينظر : تخريج الإحياء للعراقي (١٦/١) . كما أنَّ أبا العلاء لا يُعرف من هو ، وكذا عمرو بن كثير فإنَّه مجهول !

(٦) رواه الدارمي في سننه (١١٢/١) ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢٠٦/١) مُرسلاً ، وفي سنده مجاهيل كما تقدَّم .

وقد رُوي من حديثِ علي بن زيد بن جَدعان [١] عن سعيد بن المُسَيِّب [٢] عن ابن عباس رضي الله عنهما [٣] عن النبي صلى الله عليه وسلم [٤] .

وهذا وإن كان لا يثبُتُ إسنادُه ، فلا يَبعُدُ معناهُ من الصِّحةِ ؛ فإنَّ أفضلَ الدَّرجاتِ النُّبوةُ وبعدَها الصِّدِّيقيةُ ، وبعدها الشَّهادَةُ ، وبعدها الصَّلاحُ .

وهذه الدَّرجاتُ الأربعُ التي ذكرها الله تعالى في كتابهِ في قولِهِ : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [٥] .

فمن طلبَ العلـمَ ليُحيي به الإسلامَ فهو من الصِّديقين ، ودرجتُهُ بعد درجةِ النُّبوة .

قول الحسن في قوله تعالى: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة)

الوجهُ الثاني عشر بعد المئة : قال الحسنُ رحمـه الله [٦] في قولِـه تعـالى : ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ [٧] : " هي العلم والعبادة " .

﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾ : هي " الجنة " [٨] .

وهذا من أحسنِ التفسيرِ ؛ فإنَّ أجلَّ حسناتِ الدُّنيا العلمُ النَّافعُ ، والعملُ الصالحُ [٩] .

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٤٥ .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٢١ .

(٣) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

(٤) رواه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١٦٥/٢) ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٤٠٢/١) . والحديث ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان ، كما تقدَّم ، ينظر ص : ٢٤٥ .

(٥) النساء : ٦٩ .

(٦) تقدَّمت ترجمته ص : ٩١ .

(٧) البقرة : ٢٠١ .

(٨) رواه الترمذي (٣٤٨٨) ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٥٧٦/٥) ، وابن جرير الطبري في تفسيره (٥٤٥/٣) .

(٩) قال أبو حيان في تفسيره (٣١٠/٢) : " وقد مثَّل المفسرون ذلك بأنَّها المرأةُ الصَّالحةُ ، قاله علي رضي الله عنه . أو : العافية في الصِّحةِ وكفافُ المالِ ، قاله قتادة . أو : العلمُ ، أو العبادةُ ، قاله الحسن . أو : المالُ ، قاله السدي وأبو وائل ، وابن زيد . أو : الرِّزقُ الواسعُ ، قاله مُقاتل. أو : النِّعمةُ في الدنيا ، قاله : ابن قتيبة . أو : القناعة بالرزق ، أو : التَّوفيقُ والعِصمةُ . أو : الأولادُ الأبرارُ . أو : الثباتُ على الإيمان . أو : حلاوةُ الطَّاعةِ . أو : اتِّباعُ =

**الوجهُ الثالث عشر بعد المئة : قال ابن مسعود رضي الله عنه** (١) **: " عليكم بالعلم قبل أن يُرفعَ ، ورفعُهُ هلاكُ العلماءِ ، فوالذي نفسي بيدهِ لَيَوَدَّنَّ رجالٌ قُتلوا في سبيل الله شُهداءَ أن يبعثَهُم الله علماءَ لِمَا يرونَ من كرامَتِهِم ، وإنَّ أحداً لم يُولد عالِمَاً ، وإنَّما العلمُ بالتَّعلمِ "** (٢) **.**

قول ابن مسعود رضي الله عنه : عليكم بالعلم قبل أن يرفع

**الوجهُ الرابع عشر بعد المئة : قال ابن عباس** (٣) **، وأبو هريرة رضي الله عنهم** (٤) **وبعدهما أحمدُ بن حنبل** (٥) **: " تذاكُرُ العلمِ بعضَ ليلةٍ أحبُّ إلينا من إحيائِها " .**

قول ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلينا من إحيائها

**الوجه الخامس عشر بعد المئة : قال عمرُ رضي الله عنه : " أيُّها الناسُ عليكم بالعلمِ فإنَّ لله سبحانه رداءً يُحبُّهُ ، فمن طَلَبَ باباً من العلمِ رَدَّاهُ الله بردَائِهِ ، فإن أذنَبَ ذنْبَاً استعتَبَهُ ، فإن أذنَبَ ذنْبَاً استعتَبهُ** (٦) **، لئلَّا يَسْلُبَهُ رِدَاءَهُ ذلك حتى يموتَ بهِ "** (٧) **.**

قول عمر رضي الله عنه : عليكم بالعلم فإن لله سبحانه رداءً يحبُّه

**قلت : ومعنى استِعْتَابِ اللهِ عبدَهُ أن يطلبَ منه أن يُعْتِبَهُ ، أي : يُزيلَ عَتْبَهُ عليه بالتوبةِ والاستغفارِ والإنابةِ ، فإذا أنابَ إليه رفعَ عنه عَتْبَهُ ، فيكونُ قد أعْتَبَ ربَّهُ ، أي : أزالَ عَتْبَهُ عليه ، والربُّ تعالى قد استَعْتَبَهُ ، أي : طلبَ منه أن يُعْتِبَهُ** (٨) **.**

---

السُّنة . أو : ثناءُ الخلق . أو : الصِّحةُ والأمنُ ، والكفاية ، والنُّصرةُ على الأعداء . أو : الفَهم في كتاب اللّه تعالى أو : صحبةُ الصَّالحين " .

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٢٥٢/١١) ، و الدارمي في سننه (٦٦/١) ، وابن بطة في الإبانة (٣٣٣/١) ، وغيرهم بنحوه ، وفيه انقطاع ؛ لأنَّ أبا قلابة لم يسمع من ابن مسعود .

(٣) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٢٥٣/١١) ، و الدارمي في سننه (١٥٧/١) ، وفيه عن ابن جريج قال : قال ابن عباس ، فذكره ، وابن جريج لم يسمع من ابن عباس ، فالأثر فيه انقطاع .

(٤) تقدَّم تخريجه في الوجه الثامن والأربعين ص : ٢٢٣ .

(٥) مسائل إسحاق بن منصور الكَوسَج (٤٦٥٢/٩) .

(٦) هكذا كُرِّرت في النسخ عدا نسخة : ص ، وهي مكررة كذلك في المصادر المذكورة .

(٧) أورده ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢٥٢/١) تعليقاً ، وذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٨/١) .

(٨) قال الزَبيدي في تاج العروس (٣١١/٣) : " استَعْتَبَه : طلبَ إليه العُتْبَى ، أَو طلبَ منه . تقولُ : استَعْتَبْتُه فأَعْتَبَنِي أَي : استَرْضَيْتُه فأَرْضَاني ، واسْتَعْتَبْتُه فمَا أَعْتَبَنِي ،كقولكَ : استَقَلْتُه فما أَقَالَني . والاستِعْتَابُ : الاستِقَالَة . واستَعْتَبَ فلانٌ إذا طلبَ أن يُعْتَبَ ، أي : يُرْضَى . والمُعْتَبُ : المُرْضَى..." إلى أن قال : "والاستِعْتَابُ : الرُّجوعُ عن الإِسَاءَة وتَطلُّبُ الرِّضا " .

ومن هذا قول ابن مسعود رضي الله عنه (١) وقد وقَعَت زَلزَلَةٌ بالكوفةِ : " إنَّ ربَّكم يستَعْتِبُكُم فأَعْتِبُوهُ " (٢) .

وهذا هو الاستِعْتَابُ الذي نفاهُ سبحانه في الآخرةِ في قولهِ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (٣) ، أي لا نطلبُ منهم إزالةَ عَتْبِنَا عليهم ؛ فإنَّ إزالتَهُ إنَّما تكونُ بالتوبةِ ، وهي لا تنفعُ في الآخرةِ .

وهذا غيرُ استِعتَابِ العبدِ ربَّهُ كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ (٤) ، فهذا معناهُ أن يطلبُوا إزالةَ عَتْبِنا عليهم والعفو ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ ، أي : ما هم مِمَّن يُزالُ العَتْبُ [ عنهم ] (٥) ، وهذا الاستِعْتَابُ ينفعُ في الدنيا دونَ الآخرةِ .

قول عمر رضي الله عنه : موت عابد أهون من موت عالم

الوجهُ السادس عشر بعد المئة : قال عمرُ رضي الله عنه : " موتُ ألفِ عابدٍ أهونُ من موتِ عالمٍ بصيرٍ بحلالِ الله وحرامِهِ " (٦) .

ووجهُ قولِ عمرَ رضي الله عنه ، أنَّ هذا العالِمَ يهدمُ على إبليسَ كلَّ ما يبْنِيهِ بعلمِهِ وإرشَادِه ، والعابدُ فنفعُهُ مقصورٌ على نفسِهِ .

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٢١/٢) ، وفيه : ليث بن أبي سليم ، وهو ضعيف لأنه اختلط فلم يُميز حديثُهُ ينظر : تهذيب التهذيب لابن حجر (٤٦٥/٨) . والأثر مرسلٌ ؛ لانَّ شهر بن حوشب لم يسمع من ابن مسعود رضي الله عنه .

(٣) الجاثية : ٣٥ .

(٤) فصلت : ٢٤ .

(٥) ليست في النسخ ، وكُتبَ في هامش النسخة الأصل : " لعله عنهم " .

(٦) رواه الحارث في مسنده (٨١٣/٢) ، وفي سنده : سلّام بن سليم الطويل ، قال عنه الإمام أحمد : منكر الحديث وقال ابن معين : ضعيف ، لا يكتب حديثه . ميزان الاعتدال للذهبي (١٧٥/٢) . وفي سنده انقطاع ؛ فإنَّ حُميد بن هلال العدوي لم يسمع من عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

قول بعض السلف : إذا أتى عليَّ يوم لا أزداد فيه علما يقربني إلى الله ...

الوجهُ السابع عشر بعد المئة : قولُ بعضِ السلفِ : " إذا أتى عليَّ يومٌ لا أزدَادُ فيه عِلمَاً يُقرِّبُني إلى الله ، فلا بُورِكَ لي في طُلُوعِ شمسِ ذلكَ اليومِ " .

وقد رُفِعَ هذا إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم (١) ، ورَفْعُهُ إليه باطلٌ ، وحسْبُه أن يصلَ إلى واحدٍ من الصحابةِ أو التابعين .

/ [ وفي مثلِه (٢) قال القائلُ (٣) :

إذا مَـرَّ بي يومٌ ولم أستَفِدْ هُـدىً ولم أكتَسِبْ عِلْمَاً فمَا ذاكَ من عُمْري

قول بعض السلف الإيمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم

الوجهُ الثامن عشر بعد المئة : قال بعضُ السلفِ : " الإيمانُ عُرْيَانٌ ، ولبَاسُهُ التقوى وزينَتُهُ الحياءُ ، وثمرتُه العلمُ " (٤) .

وقد رفع هذا أيضاً ، ورفعُه باطلٌ (٥) .

قول بعض السلف بين العالم والعابد مئة درجة

الوجه التاسع عشر بعد المئة : أنَّه في بعضِ الآثارِ : " بين العالِمِ والعابدِ مئةُ درجةٍ بين كلِّ درَجتين حُضْرُ الجوادِ المُضمَّر سبعين سنةً " (٦) .

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٣٦٧/٦) ، وإسحاق بن راهويه في مسنده (٥٥٣/٢) ، وابن عدي في الكامل (٢٩٤/٣) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١٨٨/٨) ، وغيرهم عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً . والحديث موضوع في سنده : الحكم بن عبد الله بن خُطاف ، قال فيه أبو حاتم : كذاب ، وقال ابن عدي عقب ذكر الحديث : " وهذا حديث منكر المتن ، وهو عن الزهري منكر ، لا يرويه عنه غير الحكم " ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٢٣٣/١) ، وينظر : السلسلة الضعيفة للألباني (٣٧٨/١) .

(٢) من قوله : " وفي مثله ..." سقط من النسخة الأصل ، حيث سقطت ورقةٌ كاملة من المخطوط ، والمثبت من نسخة : د ، ص .

(٣) أبو الفتح علي بن محمد البُستي ، كما في يتيمة الدهر للثعالبي (٣٨٢/٤) ، والتمثيل والمحاضرة له (١٢٧) ، والمنتظم لابن الجوزي (٢٣٢/١٤) ، ونهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (١١٥/٣) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٩١/٧) ، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (١٤٦/١) ، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٤١) ، والخرائطي في مكارم الأخلاق (١٠٩) ، وغيرهم عن وهب بن مُنبّه .
ورواه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (١٤٦/١) ، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٤٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(٥) رواه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (١٤٦/١) ، وفي سنده مجهول لم يُسمَّ .

(٦) رواه بنحوه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٦٥/٣) عن الزهري ، وتقدَّم معنى قوله " حُضْر" ص : ٢٢٤ .

وقد رُفِعَ هذا أيضاً ، وفي رفعه نظرٌ [١] .

قوله صلى الله عليه وسلم ( يجمع الله العلماء يوم القيامة ثم يقول : يا معشر العلماء ..)

الوجه العشرون بعد المئة : ما رواه حربٌ [٢] في مسائِله مَرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم : ( يجمعُ الله تعالى العلماءَ يومَ القيامةِ ، ثم يقولُ : يا معشرَ العلماءِ إنِّي لم أضعْ عِلْمي فيكم إلا لعِلْمِي بكم ، ولم أضعْ عِلْمِي فيكم لأُعَـذِّبَكُم ، اذهَبُـوا فقد غفرتُ لكم ) [٣] .

وهذا وإن كان غريبا فله شواهد حِسانٌ .

قوله قول ابن المبارك وقد سئل من الناس ؟ قال : العلماء

الوجه الحادي والعشرون بعد المئة : قولُ ابنِ المبارك ، وقـد سئلَ : مَن الناسُ ؟ قال : " العلماءُ ، قيل : فمن الملوكُ ؟ قال : الزُّهادُ ، قيل : فمن السَّفَلَةُ ؟ قال : الذي يأكلُ بدينِهِ " [٤] .

أن من أدرك العلم لم يضره ما فاته من الحظوظ

الوجه الثاني والعشرون بعد المئة : أنَّ مـن أدركَ العلمَ لم يضرَّهُ ما فاتَـه بعد إدراكِه إذ هــو أفضلُ الحظوظِ والعطايا ، ومن فاتَـهُ العلمُ لـم ينفَعْهُ ما حصلَ له من الحظوظِ بل يكون وبالاً عليه ، وسبَباً لهلاكِهِ .

وفي هذا قال بعضُ السلفِ : " أيَّ شيءٍ أدركَ من فاتَهُ العلمُ ؟ وأيُّ شيءٍ فاتَهُ من أدركَ العلمَ " [٥] .

---

(١) قد تقدَّم ص : ٢٢٤ .

(٢) أبو محمد ، حرب بن إسماعيل بن خلف الحنظلي الكرماني ، الإمام ، العلامة ، الفقيه ، تلميذ الإمام أحمد بن حنبل ، ومسائله من أنفس كتب الحنابلة ، توفي عام : ٢٨٠ هـ .
طبقات الحنابلة للقاضي ابن أبي يعلى (١/١٤٥) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/٢٤٤) .

(٣) رواه ابن عدي في الكامل (٤/١١١) وقال : " وهذا الحديث بهذا الإسناد باطل "، ورواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/٢١٥) ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١/٢٦٣) . وفي سنده : طلحة بن زيد عن موسى بن عبيدة ، وطلحة متَّهمٌ بالوضع ، وموسى بن عُبيدة بن نَشِيط الرَّبَذي ، ضعيف ، قال الإمام أحمد عنه : منكر الحديث ، وقال : لا تحل الرواية عنه . تهذيب التهذيب لابن حجر (١٠/٣٥٧) . والحديث له طرق كثيرة لا يصحُّ منها شيء ، ينظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (٢/٢٥٩) .

(٤) تقدَّمت ترجمة ابن المبارك ص : ٢٤١ . والأثر رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩/٢٠٥) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/٤٦٦) ، والخطيب في تاريخ بغداد (٧/١٩٢) .

(٥) إحياء علوم الدين للغزالي (١/٧) ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (٢٠/٢٨٩) .

قول بعض العارفين : إذا منع العلم والحكمة عن القلب ثلاثة أيام يموت

الوجه الثالث والعشرون بعد المئة : قال بعضُ العارفين [١] : " أليس المريضُ إذا مُنِعَ الطعامَ والشَّرابَ والدَّواءَ يموتُ ؟ قالوا : بلى ، قال : فكذلك القلبُ إذا مُنعَ عنه العلمُ والحكمةُ ثلاثةَ أيامٍ يموتُ ".

وصدقَ ؛ فإنَّ العلمَ طعامُ القلبِ وشرابُه ودواؤُه ، وحياتُه موقُوفةٌ على ذلك ، فإذا فَقَدَ القلبُ العلمَ فهو مَيِّتٌ ، و لكنْ لا يشعرُ بموتِه كما أنَّ السَّكرانَ الذي قد زال عقلُه والخائفَ الذي قد انتهى خوفُه إلى غايتِه ، والمُحبَّ والمُفكِّرَ قد يبْطُلُ إحسَاسُهم بألم الجِراحَاتِ في تلك الحال ، فإذا صحَوا وعادوا إلى حالِ الاعتِدَال أدركوا آلامَها [٢] .

هكذا العبدُ إذا حَطَّ عنه الموتُ أحمالَ الدُّنيا وشواغِلَها ، أحسَّ بهلاكِهِ وخُسرانِهِ .

فحتَّامَ لا تَصحُــوا وقد قَرُبَ الــمَدَى ... وحتَّامَ لا يَنْجَابُ عن قلْبِكَ السُّكْرُ

بلى سوفَ تصحُو حين ينكشِفُ الغَطَا ... وتذكُرُ قَولي حينَ لا ينفعُ الذِّكرُ [٣]

فإذا كُشفَ الغطاءُ ، وبَرَحَ الخفاءُ ، وبُليتِ السَّرائرُ ، وبدَتِ الضَّمائرُ ، وبُعثرَ ما في القبورِ ، وحُصِّلَ ما في الصُّدورِ ؛ فحينئذٍ يكون الجهلُ ظلمةً على الجاهلين ، والعلمُ حسرةً على الباطِّلين .

قول أبي الدرداء رضي الله عنه من رأى أن الغدو إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص في رأيه وعقله

الوجه الرابع والعشرون بعد المئة : قــال أبـو الـدرداء رضي الله عنه [٤] : " من رأى أنَّ الغُـدو إلى العلم ليس بجهادٍ فقد نقَصَ في رأيهِ وعقْلِهِ " [٥] وشاهِــدُ هذا قولُ معاذٍ رضي الله عنه ، وقد تقدم [٦] .

(١) هو فتح الموصلي كما في إحياء علوم الدين (١/٧) ، والتذكرة في الوعظ لابن الجوزي (٥٦) .

(٢) ينظر : إحياء علوم الدين للغزالي (١/٧-٨) .

(٣) أورده ابن الجوزي في المدهش (٢٢٠) ، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة (٢١٩/١٨) من غير نسبة .
وقوله " حتَّام " أصلها : حتى ما ؛ فحذفت ألف " ما " للاستفهام . لسان العرب لابن منظور (٢٢/٢) .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٦ .

(٥) تقدَّم في الوجه : الخمسين ، ص : ٢٢٩.

(٦) تقدَّم في الوجه العاشر بعد المئة ، ص : ٣٧٢ .

قول أبي الدرداء رضي الله عنه : لأن أتعلم مسألةً أحبُّ إليَّ من قيام ليلة

**الوجه الخامس والعشرون بعد المئة : قول أبي الدَّرداء رضي الله عنه (١) أيضاً : " لأَن أتعلمُ مسألةً أحبُّ إليَّ من قيامِ ليلةٍ " (٢) .**

قوله: العالم والمتعلم شريكان في الأجر وسائر الناس همج

**الوجه السادس والعشرون بعد المئة : قوله أيضاً : " العالمُ والمتعلِّمُ شريكان في الأجرِ ، وسائرُ الناسِ هَمَجٌ لا خيرَ فيهم " (٣) .**

قوله صلى الله عليه وسلم (من دخل مسجدنا هذا ليتعلَّم خيرا أو ليُعلِّمه كان كالمجاهد

**الوجه السابع والعشرون بعد المئة : ما رواه أبو حاتم بن حبان (٤) في صحيحه (٥) من حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه (٦) أنَّه سمعَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : ( من دخل مسجدَنا هذا ليتعلَّمَ خيراً أو ليُعلِّمَهُ ، كان كالمُجاهدِ في سبيلِ الله ، ومن دخلَهُ لغير ذلك ، كان كالنَّاظرِ إلى ما ليس له ) .**

قوله صلى الله عليه وسلم لمن جلس في فرجة الحلقة : فآوى إلى الله ؛ فآواه الله

**الوجه الثامن والعشرون بعد المئة : ما رواه أيضاً في صحيحه (٧) ، حديثُ الثلاثةِ الذين انتهوا إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وهو جالسٌ في حَلْقَة ، فأعرضَ أحدُهم واستحيى الآخرُ فجلس خلفَهم ، وجلسَ الثالثُ في فُرجةٍ في الحَلْقَة ، فقال النبي صلى**

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٦ .

(٢) تقدَّم في الوجه المئة ، ص : ٣٦٥ .

(٣) رواه أحمد في الزهد (١١٢) ، وابن المبارك في الزهد (١/١٩٢) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/٢١٢) ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/١٣٤) ، وفيه : عن خالد بن مَعْدَان قال : قال أبو ذر رضي الله عنه : فذكره ، وسنده منقطع ، فخالد بن معدان لم يسمع من أبي ذر.

(٤) أبو حاتم ، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبد التميمي الدارمي البُستي ، الإمام ، العلامة الحافظ ، المُجود ، المُحدِّث ، المُؤرخ ، شيخ خراسان ، صاحب المصنَّفات المشهورة ، توفي عام : ٣٥٤هـ . سير أعلام النبلاء للذهبي (١٦/٩٢) ، وتذكرة الحفاظ (٣/٨٩) .

(٥) (١/٢٨٧) ، ورواه ابن ماجه (٢٢٧) ، وأحمد (٢/٣٥٠ ، ٤١٨ ، ٥٢٦) ، والحاكم في المستدرك (١/٩١) وقال : " هذا حديث على شرط الشيخين ، فقد احتجا بجميع رواته ، ولم يخرجاه ، ولا أعلم له علة " .

(٦) تقدَّمت ترجمته ص : ٦٤ .

(٧) (١/٢٨٦) ، ورواه البخاري (٦٦) و (٤٧٤) ، ومسلم (٢١٧٦) ، وغيرهم من حديث أبي واقدٍ اللَّيثي رضي الله عنه .

الله عليه وسلم : ( أمَّا أحدُهم فأوى إلى الله ؛ فآواهُ الله ، وأمَّا الآخرُ فاستيحى فاستحيى اللهُ منه ، وأما الآخرُ فأعرضَ ؛ فأعرضَ اللهُ عنه ) .

فلو لم يكن لطالب العلم الا أنَّ الله يؤويه إليه ، ولا يُعرضُ عنه لكفى به فضلاً .

وصية علي رضي الله عنه لكُمَيْل بن زياد النَّخعي

الوجه التاسع والعشرون بعد المئة : ما رواه كُمَيْلُ بن زياد النَّخعي [١] قال : " أخذَ عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه [٢] بيدي ، فأخرَجَني ناحيةَ الجَبَّان [٣] ، فلمَّا أصحَرَ جعلَ يتَنفَّسُ ، ثمَّ قال : يا كُمَيل بن زيادٍ ، القلوبُ أوعيةٌ فخيرُها أوعاها ، احفَظْ عنِّي ما أقولُ : الناسُ ثلاثةٌ ؛ فعَالِمٌ ربَّانيٌّ ، ومُتعلِّمٌ على سبيلِ نجاةٍ ، وهَمَجٌ رَعَاعٌ أتبَاعُ كلِّ ناعِقٍ يميلون مع كلِّ ريحٍ ، لم يستَضيئوا بنورِ العلم ، ولم يلجؤوا إلى ركنٍ وثيقٍ .

العلمُ خيرٌ من المال ، العلمُ يحرسُك وأنتَ تحرسُ المالَ ، العلمُ يزكُو على الإنفاقِ . وفي روايةٍ : على العمل . والمالُ تنقصُهُ النَّفقةُ ، العلم حاكمٌ ، والمالُ محكومٌ عليه ، ومحبَّةُ العلم دينٌ يُدانُ بها ، العلمُ يُكسِبُ العالِمَ الطاعةَ في حياته ، وجميلَ الأُحْدُوثَةِ [٤] بعد وفاتِه ، وصنيعةُ المالِ تزول بزوالِه ، مات خُزَّانُ الأموالِ وهم أحياءٌ ، والعلماءُ باقون ما بقي الدهرُ ، أعيانُهم مفقودةٌ ، وأمثالُهم في القلوب موجودةٌ .

هاه ؛ إنَّ ها هنا علماً . وأشار بيده إلى صدرِهِ . لو أصبْتُ له حَمَلَةً ! بلى أصبتُ لَقِنَاً [٥] غيرَ مأمونٍ عليه ، يستعملُ آلةَ الدِّين للدنيا ، يستظهرُ بحُجَجِ الله على كتابِه ، وبنعَمِهِ

---

(١) كُمَيْل بن زياد بن نَهِيْك بن هيثم بن سعد بن مالك النَّخَعِي ، تابعي من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، شهد معه صفين ، قتله الحجاج بن يوسف عام : ٨٢ هـ .
الطبقات الكبرى لابن سعد (١٧٩/٦) ، والإصابة لابن حجر (٤٨٥/٥) .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ١٩٩ .

(٣) الجَبَّان والجَبَّانة : الصحراء ، وتُسمَّى بهما المقابرُ ؛ لأنَّ المقابر عادة تكون في الصحراءِ ، وهذا من تسميةِ الشيء بموضعِهِ . لسان العرب لابن منظور (٨٤/١٣) ، وتاج العروس للزبيدي (٣٤٥/٣٤) .

(٤) الأُحْدُوثَةُ : كلُّ ما يُتحدَّث به ، يقال : انتشر له في الناس أُحْدُوثَةٌ ، أي : تحدَّث الناس عنه خيراً أو شرّاً .
لسان العرب لابن منظر (١٣١/٢) ، تاج العروس للزبيدي (٢١١/٥) .

(٥) أي : سريع الفهم ، حاضر البديهة ، حسَن التَّلقِين لما يسمعه ، يُقال : لَقِنْتُ الكلامَ ، أي : فهَمتُه .
تهذيب اللغة للأزهري (١٢٧/٩) ، والصحاح للجوهري (٢١٩٦/٦) .

على عبادِه ، أو مُنقادَاً لأهلِ الحقِّ ، لا بصيرةَ له في أحْنَائِه (١) ، ينقدحُ الشَّك في قلبه بأوَّلِ عـارضٍ من شُبهة ، لا ذا ولا ذاك ، أو منهُوماً باللذَّاتِ ، سَلِسَ القيادِ للشهواتِ أو مُغرىً بجمعِ الأموالِ والادِّخارِ ، ليس من دُعاة الدين ، أقربُ شبَهاً بهم الأنعامُ السائمةُ .

كذلك يموت العلمُ بموت حامليهِ ، اللهم بلى : لن تخلوَ الأرضُ من قائمٍ لله بحُجَّتِه لكيلا تبطُلَ حُجَجُ الله وبيِّناتُه ، أولئك الأقلُّونَ عدداً ، الأعظمونَ عند الله قدْرَاً ، بهم يدفعُ الله عن حُجَجِه حتى يُؤدُّوها إلى نُظرائِهم ، ويزرَعُوها في قلوبِ أشبَاهِهم ، هَجَمَ بهم العلمُ على حقيقةِ الأمرِ ؛ فاستَلانوا ما استوعَرَ منه المُترَفُون ، وأنِسُوا بما استوحشَ منه الجاهلون ، صحِبُوا ] (٢) / الدنيا بأبدانٍ أرواحُها مُعلَّقةٌ بالملأ الأعلى أولئك خُلفاءُ [٦٣/أ] الله في أرضهِ ، ودُعاتُه إلى دينهِ ، هاه.. هاه ..شوقاً إلى رؤيتهِم ، وأستغفرُ الله لي ولك ، إذا شئتَ فقُمْ " .

ذكره أبو نُعيمٍ (٣) في " الحلية " وغيره (٤) .

شرح الخطيب البغدادي لوصية علي رضي الله عنه لكُمَيْل بن زياد

قال أبو بكرٍ الخطيب (٥) : " هذا حديث حسنٌ من أحسنِ الأحاديثِ معنىً ، وأشرفِها لفظاً ، وتقسيمُ أميرِ المؤمنين الناسَ في أوَّلِه تقسيمٌ في غايةِ الصحةِ ونهايةِ السَّدادِ ؛ لأنَّ الإنسان لا يخلو من أحدِ الأقسامِ التي ذكرَها مع كمالِ العقلِ وإزاحَةِ العِلَلِ ؛ إمَّا أن يكون عالِمَاً ، أو مُتعلِّمَاً ، أو مُغفِلاً للعلم وطلبِه ليس بعالمٍ ولا طالبٍ له .

فالعالمُ الرَّبانيُّ هو الذي لا زيادةَ على فضلِه لفاضِلٍ ، ولا منزلةَ فوقَ منزلتِه لمُجتهدٍ .

---

(١) جمع حِنْو ، والحِنْوُ : كل شيءٍ فيه اعْوِجَاجٌ أو شَبه اعوجاج ، ويطلق على منعرج الطرق والأودية ونحوها ، والمراد هنا : جوانب الحقِّ الخافيةِ على عامة الناس ، المشتبهةِ عليهم . العين للخليل بن أحمد (٣٠٢/٣) ، وتهذيب اللغة للأزهري (١٦٢/٥) ، ولسان العرب لابن منظور (٢٠٢/١٤) .

(٢) إلى هنا انتهى سقط الورقة الكاملة من النسخة الأصل ، وبدايته ص : ٣٧٧ .

(٣) تقدَّمت ترجمته ص : ٣٥٦.

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧٩/١ – ٨٠) ، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١٨٢/١) ، وفي تاريخ بغداد (٣٧٩/٦) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٥١/٥٠) ، وغيرهم .

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٣٦٢ .

**وقد دخلَ في الوصفِ له بأنَّه ربَّانيٌّ وصفُه بالصفاتِ التي يقتَضِيها العلمُ لأهلِهِ ، ويمنعُ وصفَهُ بما خالَفَها .**

**ومعنى الرَّبَّاني في اللغةِ [(١)] : الرَّفيعُ الدَّرجةِ في العلم ، العالي المنزلةِ فيه ، وعلى ذلك حمَلوا قولَه تعالى : ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ ﴾ [(٢)] ، وقولَه : ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ [(٣)] ، قال [ سعيد بن جبير ] [(٤)] : " حكماء فقهاء " [(٥)] .**

**وقال أبو رَزِينٍ [(٦)] : " فقهاءَ علماءَ " [(٧)] .**

**وقال أبو عمر الزَّاهد [(٨)] : سألتُ ثعلباً [(٩)] عن هذا الحرفِ . وهو الرَّبَّاني . ، فقال : سألتُ ابن الأعرابي [(١٠)] ، فقال : " إذا كان الرجلُ عالِماً عامِلاً مُعلِّماً ، قيل له : هذا ربَّاني ؛ فإن**

---

(١) ينظر : غريب القرآن لليزيدي (١٠٧) ، غريب القرآن لابن قتيبة (١٠٧) ، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤٣٦/١) وتهذيب اللغة للأزهري (٢٢٥/١٤) ، والمفردات للراغب الأصفهاني (٣٣٧) ، ولسان العرب لابن منظور (٣٠٧/١٤) .

(٢) المائدة : ٦٣ .

(٣) آل عمران : ٧٩ .

(٤) ليست في النسخ ، والمثبت من الفقيه والمتفقه . وتقدَّمت ترجمة سعيد بن جبير ص : ٢٧٩ .

(٥) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٥٢٨/٥) عن ابن عباس رضي الله عنه .

(٦) أبو رَزين الأسدي ، مسعود بن مالك ، مولى أبي وائل الأسدي الكوفي ، أحد التابعين ، يقال : شهد صفين مع علي رضي الله عنه ، توفي عام : ٩٠ هـ ، وقيل غير ذلك .
تهذيب الكمال للمزي (٤٧٧/٢٧) ، والإصابة لابن حجر (١٢٦/٧) .

(٧) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٥٢٦/٥) .

(٨) محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم المُطرز الباوَرْدي ، أبو عمر الزاهد العلامة اللغوي المحدث ، المعروف بغلام ثعلب ، توفي عام : ٣٤٥ هـ . وفيات الأعيان لابن خلكان (٣٨٦/٢) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٥٠٨/١٥) .

(٩) أحمد بن يحيى بن زيد بن سيّار ، أبو العباس النحويّ الشيبانيّ مولاهم ، المعروف بثعلب ، إمام الكوفيين في النحو واللغة ، كان راويةً للشعر ، مُحدِّثا ، مشهورا بالحفظ وصدقِ اللهجة ، توفي عام : ٢٩١ هـ .
إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي (١٧٤/١) ، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة للفيروزآبادي (٨٦) .

(١٠) أبو عبد الله محمد بن زياد بن الأعرابي الهاشمي ، إمام من أئمة اللغة ، راوية ، نسَّابة ، له مصنفات كثيرة ، منها: أسماء الخيل وفرسانها ، والنوادر ، وتاريخ القبائل ، وتفسير الأمثال ، وغيرها ، توفي عام : ٢٣١ هـ .
تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٢٨٢/٥) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٦٨٧/١٠) .

**حُرِمَ عن خَصلةٍ منها لم يُقلْ له : ربَّاني " (١) . قال ابن الأنباري (٢) عن النَّحويِّينَ : " إنَّ الرَّبَّانيين منسوبونَ إلى الرَّبِّ ، وإنَّ الألِفَ والنُّونَ زيدَتَا للمبالغةِ في النَّسب ، كما تقولُ : لِحْيَانيّ [ وجُمَّاني ] (٣) إذا كان عظيمَ اللحيةِ والجُمَّةِ " (٤).**

**وأمَّا المُتعلِّمُ على سبيلِ النجاةِ فهو الطالبُ بتعلُّمِه ، والقاصِدُ به نجاتَهُ من التَّفريطِ في تضييعِ الفُروضِ الواجبةِ عليه ، والرَّغبةَ بنفسهِ عن إهمالِهَا واطِّراحِهَا ، والأنَفَةَ من مُجانَسةِ البهائمِ " (٥) .**

**قال (٦) : " وقد نفى بعضُ المُتقدِّمين عن الناس مَنْ لم يكن مِن أهلِ العلمِ .**

**وامَّا القسمُ الثالثُ : فهم المُهمِلونَ لأنفسِهم ، الرَّاضونُ بالمنزلةِ الدَّنيةِ ، والحالِ الخسِيسَةِ ، التي هي في الحَضيضِ الأوْهَدِ ، والهُبوطِ الأسفلِ التي لا منزلةَ بعدها في الجهلِ ، ولا دونها في السُّقُوطِ .**

**وما أحسنَ ما شبَّهَهُم بالهَمَجِ الرَّعَاعِ ! وبه يُشبَّهُ دُناةُ الناسِ وأراذلُهم (٧) .**

---

(١) تهذيب اللغة للأزهري (٢٢٥/١٤) ، ولسان العرب لابن منظور (٣٠٧/١٤) .

(٢) محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري ، من أعلمِ أهلِ زمانِه بالأدبِ واللغةِ ، ومن أكثر الناس حفظا للشعر والأخبار ، من مصنفاته : إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل ، والزاهر في معاني كلمات الناس ، وغيرها ، توفي عام : ٣٢٨ هـ .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من النسخ ، والمثبت من الزاهر لابن الأنباري .

(٤) الزاهر في معاني كلمات الناس (١٧٨/١) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " قيل : إن الرَّبَّاني منسوبٌ إلى الرَّب ، فزيادةُ الألف والنُّون كاللَّحيانيِّ وقيل : إلى تربيتِه الناسَ ، وقيل : إلى رُبَّانِ السفينةِ ، وهذا أصحُّ ؛ فإنَّ الأصلَ عدمُ الزيادة في النِّسبةِ ؛ لأنَّهم منسوبون إلى التربيةِ ، وهذه تختصُّ بهم ، وأمَّا نسبتُهم إلى الربِّ فلا اختصاصَ لهم بذلك ، بل كلُّ عبد له فهو منسوبٌ إليه ، إمَّا نسبةَ عمومٍ أو خُصوص ، ولم يُسمِّ الله أولياءَه المتقين ربَّانيين ، ولا سمَّى به رُسلَه وأنبياءَه ، فإنَّ الربَّاني من يَرُبُّ الناسَ ، كما يَرُبُّ الربَّانيُّ السفينةَ ، ولهذا كان الربَّانيون يُذمَّون تارةً ، ويُمدحون أخرى ، ولو كانوا منسوبين إلى الربِّ لم يُذمُّوا قطُّ " مجموع الفتاوى (٦٢/١) .

(٥) الفقيه والمتفقه (١٨٢/١) وما بعدها .

(٦) الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (١٨٦/١) .

(٧) يُنظر : العين للخليل بن أحمد (٨٧/١) ، وتهذيب اللغة للأزهري (٤٦/٦) ، والنهاية في غريب الأثر لابن الأثير (٥٧٧/٢) .

والرَّعَـاعُ : المُتَبَدِّدُ المُتفرِّقُ (١) ، والنَّاعِــقُ : الصَّائحُ ، وهو في هذا الموضــعِ الرَّاعي ، يقــال : نعَــقَ الرَّاعي بالغَنم ينْعِقُ ، إذا صاحَ بها (٢) ، ومنه قولُه تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) " (٤) .

ونحن نشيرُ إلى بعض ما في هذا الحديثِ من الفوائدِ :

قول علي رضي الله عنه : القلوب أوعية

فقولُه رضي الله عنه : " القلوبُ أوعيةٌ " ؛ القلبُ يُشبَّهُ بالوعاءِ والإناءِ والوادي ؛ لأنَّه وعاءٌ للخير والشرِّ .

وفي بعض الآثار : " إنَّ لله في أرضِهِ آنيةً ، وهي القلوبُ ، فخَيرُها أرَقُّها وأصلَبُها وأصْفَاها " (٥) .

فهي أواني مملوءةٌ من الخير ، وأواني مملوءةٌ من الشرِّ ، كما قال بعضُ السلفِ : " قلوبُ الأبرار تغلي بالبرِّ ، وقلوبُ الفجَّار تغلي بالفُجورِ " (٦) .

وفي مثلِ هذا قيلَ المَثلُ : " وكلُّ إناءٍ بالذي فيه يَنْضَحُ " (٧) .

---

(١) الرَّاءُ والعين أصل يدلُّ على الحركة والاضطراب ، وأطلق على الرُّذَالِ والضُّعفاء ، وهم الذين إذا فَزِعوا طاروا وتفرقوا وتبددوا . تهذيب اللغة للأزهري (٧٨/١) ، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣٧٥/٢) .

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤٤٥/٥) ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (٣٨٨/٣)

(٣) البقرة : ١٧١ .

(٤) قال ابن عباس رضي الله عنه : " مثلُ الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دُعاءً ونداءً ، كمثل البعيرِ والحِمارِ والشاه ، إنْ قلتَ لبعضهم كلاماً لم يعلمْ ما تقولُ ، غير أنَّه يسمعُ صوتَك ، وكذلك الكافرُ إنْ أمَرتَه بخيرٍ أو نهيتَهُ عن شرٍّ أو وعَظْتَهُ لمْ يَعْقِلْ ما تقولُ، غير أنَّه يسمع صوتَك" رواه ابن جرير في تفسيره (٤٥/٣) ، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٨٢/١) .

(٥) رواه الطبراني في مسند الشاميين (١٩/٢) من حديث أبي عِنَبَةَ الخَوْلانيِّ رضي الله عنه يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وإسناده جيد ، ينظر : السلسلة الصحيحة للألباني (٢٦٣/٤) .

(٦) رواه أبو إسحاق الفزاري في السير (٢٧٣) ، وأحمد في الزهد (٢٦٢) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣٧٠/٢) وغيرهم عن مالك بن دينار رحمه الله .

(٧) العقد الفريد لابن عبد ربه (١٦/٣) ، والتمثيل والمحاضرة لأبي إسحاق الثعالبي (٣٠٣) ، ومجمع الأمثال للميداني (١٦٢/٢) .

وقال تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾ (١) .

شبَّه العِلمَ بالماءِ النَّازلِ من السماءِ ، والقلوبَ في سَعَتِها وضِيقِها بالأوديةِ ؛ فقلبٌ كبير واسع يَسَعُ عِلماً كثيراً ، كوادٍ كبيرٍ واسعٍ يَسَعُ ماءاً كثيراً ، وقلبٌ صغير ضيِّقٌ يَسَعُ عِلماً قليلاً ، كوادٍ صغيرٍ ضيِّقٍ يَسَعُ ماءاً قليلاً ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم :

( لا تُسَمُّوا العنبَ الكَرْمَ ؛ فإنَّ الكَرْمَ قلبُ المؤمن ) (٢) ، فإنَّهم كانوا يُسمُّونَ شجرَ العنبِ الكَرْمَ لكثرةِ منافعِه وخيرِه ، والكَرْمُ كثرةُ الخير والمنافعِ ، فأخبرَهم أنَّ قلبَ المؤمنِ أولى بهذه التَّسميةِ ؛ لكثرةِ ما فيه من الخير والمنافعِ (٣).

قول علي رضي الله عنه : فخيرها أوعاها

وقولُه : " فخَيْرُها أوعَاهَا " ؛ يُرادُ به أسرَعُها وعْيَاً ، وأكثرُها وعْيَاً ، ويُرادُ به أيضاً أحسَنُها وعْيَاً ، فيكونُ حُسنُ الوعـي . الذي هو أيعاءٌ لِمَا يُقالُ له في قلبِه . هو سرعَتُه وكثرَتُه وثباتُه .

والوعاءُ من مادَّةِ الوَعي ؛ فإنَّه آلةُ ما يُوعى فيه كالغِطاءِ والفِراشِ والبِساطِ ونحوها (٤) ويُوصفُ بذلك القلبُ والأُذُنُ ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا

(١) الرعد : ١٧ .

(٢) رواه البخاري (٦١٨٣) ، ومسلم (٢٢٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) قال المؤلف رحمه الله في علَّةِ النهي عن تسمية العنبِ كَرْمًا : " وفى هذا معنيان : أحدُهما : أنَّ العرب كانت تُسمي شجرةَ العِنَب الكَرْمَ ، لكثرة مَنافعها وخيرِها ، فكَرِهَ النبيُّ صلى اللَّه عليه وسلَّم تسميَتها باسمٍ يُهيِّج النفوسَ على محبتها ومحبةِ ما يُتخذُ منها مِن المُسكرِ ، وهو أمُّ الخبائثِ ، فكَرِهَ أن يُسمَّى أصلُه بأحسنِ الأسماءِ وأجمعها للخير . والثاني : أنَّه من بابِ قولِهِ : ( ليسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ ) ، و( ليسَ المِسْكينُ بالطَّوَّافِ ) ، أي : أنَّكم تُسمونَ شجرةَ العِنَب كَرْماً لكثرة مَنافعه ، وقلبُ المؤمن أو الرجلِ المسلم أولى بهذا الاسم منه ، فإنَّ المؤمنَ خيرٌ كُلُّه ونفع ، فهو من باب التَّنبيهِ والتعريفِ لِمَا في قلب المؤمن من الخير ، والجود ، والإيمانِ ... " زاد المعاد (٣٦٩/٤) .

(٤) ينظر : العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (٢٧٢/٢) ، وتهذيب اللغة للأزهري (١٦٦/٣) ، ولسان العرب لابن منظور (٣٩٦/١٥)

لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ (١) ، قال قتادة (٢) : " أُذُنٌ سمِعَت وعقَلَت عن الله ما سَمِعَت " (٣) .

وقال الفرَّاءُ (٤) : " لتحفظَها كل أُذنٍ فتكونَ عِظةً لمن يأتي بعدُ " (٥) .

فالوعيُ تُوصفُ به الأُذُنُ كما يُوصف به القلبُ ، يُقال : قلبٌ واعٍ ، وأُذنٌ واعيةٌ ، لِمَا بين الأُذنِ والقلبِ من الارتباطِ ، فالعلمُ يدخلُ من الأُذنِ إلى القلبِ ، فهي بابُهُ ، والرَّسولُ المُوصلُ إليه العلمَ ، كما أنَّ اللِّسانَ رسولُهُ المُؤدِّي عنه .

ومن عرفَ ارتباطَ الجوارحِ بالقلبِ عَلِمَ أنَّ الأُذنَ أحقُّها بأن تُوصفَ بالوعيِ ، وأنَّها إذا وَعَتْ وَعى القلبُ (٦) .

وفي حديثِ جابرٍ رضي الله عنه (٧) في المَثلِ الذي ضَرَبَتْهُ الملائكة للنبي صلى الله عليه وسلم ولأُمَّتِهِ ، وقولِ المَلَكِ له : ( اسمَعْ سَمِعتْ أُذُنُكَ ، ووعى قلْبُك ) (٨) .

فلمَّا كان القلبُ وعاءً ، والأُذنُ مَدخلُ ذلك الوعاءِ وبابُهُ ، كان حُصولُ العلمِ موقُوفاً على حُسنِ الاستماعِ وعَقْلِ القلبِ .

والعقلُ هو ضبطُ ما وصلَ إلى القلبِ وإمسَاكُه حتى لا يتَفَلَّتَ منه .

---

(١) الحاقة : ١١ – ١٢ .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٨٣ .

(٣) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٣٣٩/٣) ، وابن جرير الطبري في تفسيره (٢٢٢/٢٣) .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٣٤٤ .

(٥) معاني القرآن (١٨١/٣) .

(٦) وقد تقدَّم كلام المؤلف رحمه الله في مكانة السمع والبصر وأيهما أفضل ، ص : ٣٢٤ .

(٧) أبو عبد الله ، جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن كعب الأنصاري السلمي ، أحد المكثرين عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه جماعة من الصحابة ، شهِدَ العقبة الثانية مع أبيه وهو صبيٌّ ، ولم يشهد بدراً ولا أُحداً ، وشهد المشاهد كلها بعد ذلك ، توفي عام : ٧٤ هـ ، وقيل : ٧٨ هـ .
الاستيعاب لابن عبد البر (٢١٩/١) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٤٩٢/١) ، والإصابة لابن حجر (٥٤٦/١) .

(٨) رواه الترمذي (٢٨٦٠) ، وقال : " هذا حديثٌ مُرسلٌ ، سعيد بن أبي هلال لم يدرك جابرَ بن عبد الله ، وفي الباب عن ابن مسعود " وقال ابن حجر في فتح الباري (٢٥٦/١٣): " وقد اعتضد هذا المنقطعُ بحديث ربيعةَ الـجُرَشِيِّ عند الطبراني ؛ فإنَّه بنحو سياقه ، وسنده جيِّدٌ " . وهو في المعجم الكبير (٦٥/٥) .

ومنه : عَقْلُ البعيرِ والدَّابةِ ، والعِقالُ لِمَا يُعْقَلُ به ، وعقلُ الإنسانِ سُمِّيَ عقلاً ؛ لأنَّه يَعْقِلُهُ عن اتِّباعِ الغَيِّ والهلاكِ ، ولهذا يُسمَّى حِجْرَاً ؛ لأنَّه يمنعُ صاحِبَه كما يمنعُ الحِجْرُ ما حواهُ (١) ، فعقلُ الشيءِ أخصُّ من عِلْمِه ومعرفتِه ؛ لأنَّ صاحبَه يعقلُ ما عَلِمَه فلا يدعُه يذهبُ ، كما تُعقلُ الدَّابةُ التي يُخافُ شُرودُها .

وللإدراكِ مراتبُ بعضُها أقوى من بعضٍ ؛ فأوَّلُها : الشُّعورُ ، ثمَّ الفَهْمُ ، ثمَّ المعرفةُ ، ثمَّ العلمُ ، ثمَّ العقلُ .

ومُرادُنا بالعقل المَصدرُ ، لا القُوةُ الغَريزيَّةُ التي ركَّبها الله في الإنسانِ ، فخيرُ القلوبِ ما كان واعياً للخير ضابِطاً له ، وليس كالقلبِ القاسي الذي لا يقبلُه ؛ فهذا قلبٌ حَجَريٌّ ، ولا كالمائعِ الأخرَقِ الذي يقبلُ ولكنْ لا يحفظُ ولا يَضبِطُ ، فتَفْهِيمُ الأول كالرَّسمِ في الحَجَرِ ، وتفهيمُ الثاني كالرَّسم على الماءِ .

بل خيرُ القلوبِ ما كان ليِّناً صَلباً يقبلُ بلِيْنِهِ ما ينطَبِعُ فيه ، ويحفظُ صورتَهُ بصلابَتِه فهذا تفْهيمُه كالرَّسم في شَمْعٍ وشبْهِهِ (٢) .

قول علي رضي الله عنه : الناس ثلاثة عالم ومتعلم وهمج

وقولُهُ : " الناسُ ثلاثةٌ : فعالِمٌ ربَّانيٌّ ، ومُتعلِّمٌ على سبيلِ نَجَاةٍ ، وهَمَجٌ رَعَاعٌ " ، هذا تقسيمٌ حاصِرٌ للناس (٣) ، وهو الواقعُ ؛ فإنَّ العبدَ إمَّا / أن يكون قد حصَّلَ كمَالَهُ من العلمِ والعملِ أو لا ؛ فالأولُ : العالمُ الرَّبانيُّ ، والثاني : إمَّا أن تكون نفسُه مُتحرِّكَةٌ في طلبِ ذلك الكمالِ ، ساعِيَةً في إدراكِهِ أو لا ، والثاني : هو المُتعلِّمُ على سبيلِ النَّجَاةِ [٦٤/أ]

(١) الحِجْرُ ـ بالكسر ـ : العقلُ واللُّبُّ لإمساكه وضعه ، وإحاطته بالتمييز ، والحَجْرُ ـ بالفتح ، ويأتي بالكسر ـ : هو الحضن ، وكلاهما يحيط ما بداخله ويحويه . لسان العرب لابن منظور (١٦٥/٤) .

(٢) قال المؤلف رحمه الله : " والقلوبُ ثلاثةٌ : قلبٌ قاسٍ ، وهو اليابس الصلبُ الذي لا يقبلُ صورةَ الحقِّ ولا تنطبع فيه وضدُّه القلبُ اللَّينُ المُتماسكُ ، وهو السليمُ من المَرَضِ ، الذي يقبلُ صورةَ الحقِّ بلِينِهِ ، ويحفظُهُ بتمَاسُكِهِ بخلافِ المريضِ الذي لا يحفظُ ما ينطبعُ فيه لِمَيَعَانِه ورَخَاوتِهِ ، كالمائعِ الذي إذا طبعتَ فيه الشيءَ قبل صورتِه بما فيه من اللِّينِ ، ولكنْ رخَاوتُه تمنعُه من حِفظِها ، فخيرُ القلوبِ القلبُ الصَّلبُ الصَّافي "
شفاء العليل (١٠٥ – ١٠٦) ، وينظر : كتاب الروح للمؤلف (٢٤١) .

(٣) في النسخ كلها : " تقسيم خاصٌّ للناس " وفي طرَّة الأصل ، و د : " لعله : حاصِرٌ " ، وهو الصواب المناسب للسياق .

**والثالثُ : هو الهَمَجُ الرَّعَاعُ ؛ فالأولُ : هو الواصلُ ، والثاني : هو الطَّالبُ ، والثالثُ : هو المحرومُ .**

**والعالمُ الرَّبَّانيُّ ، قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما : " هو المُعلِّمُ " (١) .**

**أخذَهُ من التَّربيَةِ ، أي يُربِّي الناسَ بالعلمِ ، ويُربِّيهم به كما يُربِّي الطِّفلَ أبوهُ .**

**وقال سعيدُ بن جُبير (٢) : " هو الفقيهُ العليمُ الحكيمُ " (٣) .**

**قال سيبويه (٤) : " زادوا الفا ونونا في الرباني إذا ارادوا تخصيصا بعلم الرب تبارك وتعالى كما قالوا أشعر اني ولحياني " (٥) .**

**ومعنى قولِ سيبويه رحمه الله : أنَّ هذا العالِمَ لمَّا نُسِبَ إلى عِلم الربِّ تعالى الذي بَعَثَ به رسولَهُ ، وتخصَّصَ به ، نُسِبَ إليه دون سائر مَن عَلِمَ علماً ما.**

**قال الواحديُّ (٦) : " فالرَّبانيُّ . على قولِهِ . منسوبٌ إلى الربِّ ، على معنى التَّخصيصِ بعلمِ الربِّ ، أي : بعلمِ الشَّريعةِ وصفاتِ الرَّب تبارك وتعالى .**

**وقال المُبرِّدُ (٧) : الرَّبانيُّ الذي يَرُبُّ العلمَ ، ويَرُبُّ الناسَ بهِ ، أي : يُعلِّمُهم ويُصلحُهم .**

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/٦٩١) ، وابن المنذر في تفسيره (١/٢٦٧) بنحوه .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٧٩ .

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٥/٥٢٩) بنحوه .

(٤) أبو بشر ، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء ، لُقِّبَ بسيبويه ، وتعني بالفارسية : رائحة التفاح ، وهو إمام النحاة وأهل اللغة ، ولد في قرية من قرى شيراز ، ثم ارتحل إلى البصرة ، ولزم الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ومن أشهر مؤلفاته : الكتاب ، توفي عام : ١٨٠ هـ . إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي (١/٤١) ، والبلغة في تراجم أئمة النحو للفيروزآبادي (٢٢١) .

(٥) نقل المؤلف رحمه الله ذلك من كلام الواحدي في تفسيره (١/٤٥٦) ، وينظر الكتاب لسيبويه (٣/٣٨٠) ، ومعاني القرآن للزجاج (١/٤٣٥) .

(٦) أبو الحسن ، علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النَّيسابوري الشافعي ، العلامة ، المُفسر ، اللغوي ، صنَّفَ التفاسير الثلاثة : البسيط ، والوسيط ، والوجيز ، وله : المغازي ، وشرح ديوان المتنبي ، والإغراب في الإعراب وغيرها . توفي عام : ٤٦٨ هـ . وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/١٤٤) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/٣٣٩) .

(٧) أبو العباس ، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عُميرة الثُّمَالى الأزدي ، إمام اللغة والأدب في بغداد ، له من المؤلفات : الكامل في اللغة ، والمقتضب ، والمذكر والمؤنث ، وإعراب القرآن ، وغيرها ، توفي عام : ٢٨٦ هـ . =

وعلى قوله ؛ فالرَّبَّانيُّ من ربَّ يَرُبُّ رَبّـاً ، أي : تربِيَةً ، فهو منسوبٌ الى التَّربية " [١] يُرَبِّي عِلمَهُ ليكمُلَ ويتِمَّ بقيامهِ عليه وتعاهُدِه إياه ، كما يُرَبِّي صاحبُ المالِ مالَهُ ، ويُربِّي الناسَ به كما يُربِّي الأطفالَ أولياؤُهم .

وليس هذا من قولِه : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ [٢] ، فالرِّبِّيونَ هنا : الجمَاعاتُ ، بإجماع المفسرين [٣] ، قيل : إنَّه من الـرِّبَّـةِ . بكسرِ الرَّاء . وهي الجماعة .

قال الجوهريُّ [٤] : " الرِّبِّيُّ واحدُ الرِّبِّيين ؛ وهم الألوفُ من الناسِ " قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ ﴾ " [٥] .

ولا يُوصفُ العالِمُ بكونه ربَّانِيّاً حتى يكون عامِلاً بعملِه مُعلِّماً له .

فهذا قسم .

والقسمُ الثاني : مُتعلِّمٌ على سبيلِ نجاةٍ ؛ أي : قاصِداً بعلمِه النَّجاةَ ، وهو المُخلِصُ في تعلُّمِه ، المُتعلِّمُ ما ينفعه ، العاملُ بما علِمَهُ ، فلا يكونُ المُتعلِّمُ على سبيلِ نجاةٍ إلا بهذه الأمورِ الثَّلاثةِ ؛ فإنَّه إن تعلَّمَ ما يضرُّه ولا ينفعُه لم يكن على سبيلِ نجاةٍ ، وإن تعلَّمَ ما ينتفعُ به لا للنَّجاةِ ؛ فكذلك ، وإن تعلَّمَهُ ولم يعملْ به لم يحصُلْ له النَّجاةُ ، ولهذا وصفَه بكونه على السَّبيلِ ، أي : على الطريقِ التي تُنجيه .

---

وفيات الأعيان لابن خلكان (٣٧٨/٢) ، وإنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي(٢٤١/٣)

(١) الوسيط (٤٥٦/١) .

(٢) آل عمران : ١٤٦ .

(٣) ينظر : التفسير من سنن سعيد بن منصور (١٠٩٦/٣) ، وتفسير ابن جرير الطبري (١١٢/٦) ، ومعاني القرآن للزجاج (٤٣٥/١) ، وتفسير ابن أبي حاتم (٧٨٠/٣) ، وتفسير الواحدي (٥٠١/١) .

(٤) أبو نصر ، إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي ، إمام في علم النحو واللغة والصَّرف ، و خطّه يُضرب به المثل في الحُسن ، من أشهر مؤلفاته : الصِّحاح في اللغة ، توفي عام : ٣٩٣ هـ .
البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة للفيروزآبادي (٨٧) ، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (٤٤٦/١) .

(٥) الصحاح (١٣٢/١) .

**وليسَ حرفُ " على " وما عَمِلَ فيه مُتعلِّقاً بـ " مُتعلِّمٍ " إلا على وجه التَّضمين ؛ أي : مُفتِّشٍ مُتطلِّعٍ على سبيلِ نجاتِه ليَسلُكه ؛ فتعلُّمه تفتيشٌ على سبيلِ نجاتِهِ (١) .**

**فهذا في الدرجةِ الثانيةِ ، وليس ممَّن تعلَّمهُ ليُمارِي به السُّفهاءَ ، أو يُجاري به العلماءَ أو يصرفَ وجوهَ الناسِ إليه ؛ فإنَّ هذا من أهل النارِ كما جاء في الحديث (٢) ، وثبَّتَهُ أبو نُعيمٍ (٣) وأبو عمرو بن الصلاح (٤) ، وغيرهما .**

**قال ابنُ الصَّلاحِ : وثبَّتَ أبو نُعيم أيضاً قولَهُ صلى الله عليه وسلم :**

**( مَن تعلَّمَ عِلمَاً ممَّا يُبتَغى به وجهُ الله لا يتعلَّمُه إلا ليُصيبَ به عَرَضَ الدنيا لم يجدْ رائحةَ الجنة ) (٥) .**

**قال : وثبَّتَ أيضاً قولَهُ : ( أشدُّ الناس عذاباً يومَ القيامةِ عالمٌ لم ينْفَعْهُ الله بعلمِه ) (٦) .**

**فهؤلاءِ ليس فيهم مَن هو على سبيلِ نَجاةٍ ، بل على سبيلِ الهَلَكَةِ ، نعوذُ بالله من الخُذلانِ .**

---

(١) في ص : النجاة .

(٢) عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : ( من طلب العلمَ ليُجاري به العلماءَ ، أو ليُماري به السُّفهاءَ ، أو يصرفَ به وجوهَ الناسِ إليه ، أدخله اللهُ النارَ ) رواه الترمذي (٢٦٥٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٢٦٩) .

قال الترمذي : " هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسحاق بن يحيى بن طلحة ليس بذاك القوي عندهم ، تُكُلِّم فيه من قِبلِ حفظِهِ " ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٢/١٠٩١) ، وله شواهد من حديث : أم سلمة ، وأنس ، وابن عمر ، وأبي هريرة ، وحذيفة ، وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم .

(٣) حلية الأولياء (٧/٩٦) . وتقدَّمت ترجمة أبي نعيم ص : ٣٥٦ .

(٤) أبو عمرو ، عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى النَّصْري الكُردي الشَّهْرَزُورِي ، تقي الدين المعروف بابن الصَّلاح ، الفقيه الشافعي ، كان أحد أبرز عصره في التفسير ، والحديث ، والفقه ، وأسماء الرجال ، من مؤلفاته : علوم الحديث ، وصيانة صحيح مسلم ، وأدب المفتي والمستفتي ، وغيرها ، توفي عام :٦٤٣ هـ .
وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/١١٦) ، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٨/٣٢٦) .

(٥) رواه أبو داود (٣٦٦٤) ، وابن ماجه (٢٥٢) ، وأحمد (٢/٣٣٨) ، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/٢٨٥) والحاكم (١/٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال الحاكم : " هذا حديث صحيح سندُه ، ثِقَاتٌ رواتُه على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/٦٩٧) .

(٦) حديث ضعيف ، وقد تقدَّم تخريجه ص : ٣٥٦ .

**القسمُ الثالثُ : المحرومُ المُعرضُ ؛ فلا عالمٌ ولا مُتعلِّمٌ ، بل هَمَجٌ رَعاعٌ .**

**والهَمَجُ من الناسِ : حَمْقَاهُم وجَهَلَتُهم ، وأصلُه من " الهَمَجِ " جمعُ هَمَجَة ، وهو ذُبابٌ صغيرٌ كالبَعوضِ يسقطُ على وجوه الغَنَمِ والدَّوابِّ وأعيُنِها ؛ فشبَّهَ هَمَجَ الناسِ بهِ** (١) **.**

**والهَمَجُ أيضاً مصدرٌ ، قال الرَّاجِزُ** (٢) **:**

**قَدْ هَلَكَتْ جَارَتُنَا مِن الهَمَجْ     وإنْ تَجُعْ تأكُلْ عَتُوداً أو بَذَجْ** (٣)

**والهَمَجُ هنا مصدرٌ ، ومعناهُ : سوءُ التَّدبيرِ في المَعيشةِ** (٤) **.**

**وقولُهم : " هَمَجٌ هَامِجٌ " مثلُ : " ليلٌ لايِلٌ "** (٥) **.**

**والرَّعاعُ من الناس : الحمقَى الذين لا يُعتَدُّ بهم** (٦) **.**

قول علي رضي الله عنه : أتباع كلِّ ناعق

**وقولُهُ : " أتبَاعُ كلِّ ناعِقٍ " ؛ أي مَن صاحَ بهم ودعاهُم تبِعُوهُ** (٧) **، سواءٌ دعاهُم إلى هُدىً أو ضَلالٍ ، فإنَّهم لا علمَ لهم بالذي يُدْعَون إليهِ أحقٌّ هو أم باطلٌ ! فهم مُستَجِيبون لدَعوتِهِ .**

**وهؤلاءِ مِن أضرِّ الخلقِ على الأديان ، فإنَّهم الأكثرونَ عدَداً ، الأقلُّون عند الله قدْراً وهم حطبُ كلِّ فتنةٍ ، بهم تُوقَدُ ويَشُبُّ ضِرَامُها ، فإنَّها يعتزِلُها أولو الدِّينِ ، ويتولَّاها الهَمَجُ الرَّعاعُ .**

---

(١) ينظر : العين للخليل بن أحمد (٣٩٦/٣) ، وتهذيب اللغة للأزهري (٤٦/٦) ، ولسان العرب لابن منظور (٣٩٢/٢) .

(٢) أبو مُحْرِزٍ عُبيد المُحاربي ، تهذيب اللغة للأزهري (٤٦/٦) ، والحور العين لنشوان الحميري (١٠٩) ولسان العرب لابن منظور (٢١١/٢) .

(٣) الهَمَجُ هنا : الجوع ، ينظر : الصِّحاح للجوهري (٣٥١/١) . والعَتُودُ : الصغير من وَلَدِ المَعْزِ إذا فُصِلَ عن أمِّه وبدأ بالرعي . الشاء للأصمعي (٥٨) ، وتاج العروس للزبيدي (٣٤٩/٨) ، والبَذَجُ : الصغير من أولاد الضأن كالعتود من المعز . القاموس المحيط للفيروزآبادي (٢٤٢/١) .

(٤) الصحاح للجوهري (٣٥١/١) ، ولسان العرب لابن منظور (٣٩٢/٢) .

(٥) ينظر : المصادر السابقة .

(٦) يُنظر : العين للخليل بن أحمد (٨٧/١) ، وتهذيب اللغة للأزهري (٤٦/٦) ، والنهاية في غريب الأثر لابن الأثير (٥٧٧/٢) .

(٧) ينظر : لسان العرب لابن منظور (٣٥٦/١٠) ، وتاج العروس للزبيدي (٤٢٨/٢٦) .

وسُمِّيَ داعيهم ناعِقاً ، تشبيهاً لهم بالأنعامِ التي يَنْعِقُ بها الرَّاعي فتذهبُ معه أين ذهبَ .

قال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾(١) .

وهذا الذي وصَفَهُم به أميرُ المؤمنين هو من عدمِ علمِهم ، وظُلمَةِ قُلوبِهم ، فليس لهم نورٌ ولا بَصيرةٌ يُفرِّقُون بها بين الحقِّ والباطلِ ، بل الكلُّ عندهم سواءٌ .

قول علي رضي الله عنه : يميلون مع كل ريح

وقولُه رضي الله عنه : " يميلون مع كلِّ ريحٍ " وفي لفظٍ : " مع كلِّ صائحٍ " ؛ شبَّهَ عقولَهم الضَّعيفَةَ بالغُصْنِ الضَّعيفِ ، وشبَّهَ الأهويَةَ والآراءَ بالرِّياحِ ، والغُصنُ يميلُ مع الرِّيحِ حيث ما مالَتْ ، وعقولُ هؤلاءِ تميلُ مع كلِّ هوىً وكلِّ داعٍ ، ولو كانت عقولاً كاملةً كانت كالشَّجرةِ الكبيرةِ التي لا تتلاعبُ بها الرِّياحُ .

وهذا بخلافِ المثلِ الذي ضَرَبَهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم للمؤمنين بالخَامَةِ من الزَّرعِ (٢) ، تُفَيِّئُهُ الرِّيحُ مرةً (٣) ، وتُقيمُه أخرى ، والمنافقُ كشجرةِ الأرْزِ (٤) التي لا تُقطَعُ حتى تُستَحْصَدَ (٥) .

فإنَّ هذا المثلَ ضُربَ للمؤمنِ وما يلقاهُ من عواصفِ البلاءِ والأوجاعِ والأوجالِ وغيرها ، فلا يزالُ بين عافيةٍ وبلاءٍ ، ومِحنَةٍ ومنحَةٍ ، وصحَّةٍ وسَقَمٍ ، وأمنٍ وخوفٍ وغيرِ ذلك ، فيقعُ مرَّةً ، ويقومُ أخرى ، ويميلُ تارةً ويعتدِلُ أخرى ، فيُكَفَّى بالبلاءِ

---

(١) البقرة : ١٧١ .

(٢) هي : الغَضَّةُ الرَّطبة اللَّيِّنة من النَّبات . غريب الحديث لأبي عبيد بن سلام (٢٠٨/٤) ، وغريب الحديث لابن الجوزي (٢٥٩/١) .

(٣) أي : تُقلِّبه الريح وتُميلُه وتُحرِّكُه . النهاية في غريب الأثر (٤٨٣/٣) ، ولسان العرب لابن منظور (١٢٤/١) .

(٤) شجرة الأرز نوع من الأشجار المخروطية ، دائمة الخضرة ، يتراوح طولها بين ٣٠ و٤٠ م ، وقد تزيد عن ذلك وهي من الأشجار المعمرة ، وتنمو على ارتفاع ١٠٠٠ إلى ٣٥٠٠ متر ، في غرب الهيمالايا وحوض البحر المتوسط . الموسوعة العربية الميسرة (١١٥/١) .

(٥) رواه البخاري (٥٦٤٤) ، ومسلم (٢٨٠٩) ، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ويُمحَّصُ به ويُخلَّصُ من كَدَرِه ، والكافرُ كلُّه خَبَثٌ ، ولا يصلُحُ إلا للوَقُودِ ، فليس في إصابتِه في الدُّنيا بأنواعِ البلاءِ من الحكمَةِ والرَّحمةِ ما في إصابةِ المؤمن .

فهذه حالُ المؤمنِ في البلاءِ .

وأمَّا معَ الأهواءِ ودُعاةِ الفتنِ والضَّلالِ والبِدعِ ، فكما قيل [١] :

تزولُ الجبالُ الرَّاسِيَاتُ وقلْبُهُ على العَهْدِ لا يَلْوي ولا يتَغَيَّرُ

قول علي رضي الله عنه : لم يستضيئوا بنور العلم

وقولُهُ رضي الله عنه : " لم يستَضِيئوا بنورِ العلمِ ، ولم يلجَؤُوا إلى ركنٍ وثيقٍ " ؛ بيَّنَ السَّببَ الذي جعلَهم بتلك المَثابةِ ؛ وهو أنَّه لم يحصُلْ لهم من العلمِ نورٌ يُفرِّقُون به بين الحقِّ والباطلِ ؛ كما قال / تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ [٢] ، وقال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [٣] ، وقولُهُ : ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ [٤] ، وقولُهُ تعالى : ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [٥] . [٦٥/أ]

فإذا عَدِمَ القلبُ هذا النُّورَ صارَ بمَنزلةِ الحيَوانِ الذي لا يَدري أين يذهبُ ، فهو لحَيرَتِه وجَهْلِه بطريقِ مقصُودِه يَؤُمُّ كلَّ صوتٍ يسمَعُه .

ولم يسكُنْ قلوبَهم من العلمِ ما تَمتَنِعُ بِهِ من دُعاةِ الباطلِ ؛ فإنَّ الحقَّ متى استقرَّ في القلبِ قويَ به ، وامتنعَ ممَّا يضرُّه ويُهلِكهُ ، ولهذا سمَّى اللهُ الحُجَّةَ العِلْمِيَّةَ سُلطاناً ، وقد تقدَّمَ ذلك [٦] .

---

(١) ذكره المؤلف في : بدائع الفوائد (٢/٨٨) ، وطريق الهجرتين (٦١٨) .

(٢) الحديد : ٢٨ .

(٣) الأنعام : ١٢٢ .

(٤) المائدة : ١٦ .

(٥) الشورى : ٥٢ .

(٦) تقدَّم في : الوجهِ التَّاسعِ والثَّلاثين ، ص : ١٩٥ .

فالعبدُ يُؤتى من ظُلمَةِ بصيرَته ، ومن ضَعفِ قلبِه ، فإذا استقرَّ فيه العلمُ النَّافعُ استنارَت بصيرَتُه وقويَ قلبُه .

وهذانِ الأصلانِ هما قُطْبا السَّعادةِ . أعني العلمَ والقوَّةَ . وقد وصَفَ بهما سبحانه المُعلِّمَ الأولَ جبريلَ صلواتُ الله وسلامُه عليه ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ (١) ، وقال تعالى في سورةِ التكوير : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (٢) ، فوصفَه بالعلمِ والقوَّةِ .

وفيه معنىً أحسنُ من هذا ؛ وهو الأشبَهُ بمُرادِ عليٍّ رضي الله عنه ؛ وهو أنَّ هؤلاء ليسوا من أهلِ البصائرِ الذين استضاؤا بنورِ العلمِ ، ولا لَجَؤُوا إلى عالِمٍ مُستبصرٍ فقلَّدوهُ ، فلا مُستبصرين ولا مُتَّبعين لمُستبصرٍ ؛ فإنَّ الرجلَ إمَّا أن يكون بصيراً ، أو أعمى مُتمَسِّكاً ببصيرٍ يقودُهُ ، أو أعمى يسيرُ بلا قائِدٍ .

قول علي رضي الله عنه : العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال

قولُه رضي الله عنه : " العلمُ خيرٌ من المالِ ، العلمُ يحرُسُك وأنت تحرسُ المالَ " ؛ يعني أنَّ العلمَ يحفظُ صاحبَه ويحميه من مَواردِ الهَلكَةِ ومواقعِ العَطَبِ ؛ فإنَّ الإنسان لا يُلقي نفسَه في هَلكةٍ إذا كان عقلُه معه ، ولا يُعرِّضُها لتِلافٍ إلا إذا كان جاهِلاً بذلك ، لا علمَ له به ، فهو كمَن يأكلُ طعاماً مَسموماً ، فالعالِمُ بالسُّمِّ وضَررِه يحرسُهُ علمُه ، ويمتنعُ به من أكلِهِ ، والجاهلُ به يقتلُه جهلُه .

فهذا مَثَلُ حِراسَةِ العلمِ للعالِم .

وكذا الطَّبيبُ الحاذِقُ يمتنعُ بعلمِه عن كثيرٍ مِمَّا يجلبُ له الأمراضَ والأسقَامَ ، وكذا العالِمُ بمَخاوفِ طريقِ سلُوكِهِ ومَعاطِبِها يأخُذُ حِذْرَهُ منها ، فيَحرسُه علمُه من الهلاك .

وهكذا العالِمُ باللهِ وبأمرِه ، وبعَدُوِّهِ ومكائِدِهِ ومدَاخِله على العبدِ ، يحرسُهُ علمُه من وساوسِ الشيطانِ وخطَراتِه ، وإلقاءِ الشُّكُوكِ والرَّيبِ والكُفرِ في قلبِه ، فهو بعلمِه

---

(١) النجم : ٤ — ٥ .

(٢) التكوير : ١٩ — ٢٠ .

يمتنعُ من قَبولِ ذلك ، فعلمُهُ يحرسُهُ من الشيطان ، وكلمَّا جاء ليأخذَه صاحَ به حَرَسُ العلمِ والإيـمانِ ، فيرجعُ خاسِئاً خائِباً .

وأعظـمُ ما يحـرسُـه من هذا العـدوِّ المبينِ العلـمُ والإيمانُ ، فهذا السَّببُ الذي من العبدِ ، والله من وراءِ حفظِهِ وحراسَتِهِ وكَلاءَتِهِ ، فمتى وكَلَهُ إلى نفسِه طَرفَةَ عينٍ تخطَّفهُ عدوُّهُ .

قال بعضُ العـارفيـن : " أجمَـعَ العارفـون على أنَّ التَّوفيـقَ أنْ لا يكِـلَكَ الله إلـى نفسِك ، وأجمَعُوا على أنَّ الخُـذلانَ أنْ يُخَـلِّي بينك وبيـن نفسِكَ " [١] .

قول علي رضي الله عنه : العلم يزكوا على الإنفاق والمال تنقصه النفقة

وقولُـه رضي الله عنه : " العلـمُ يَـزكُوا على الإنفَـاقِ ، والـمالُ تنْقُـصُهُ النَّـفَقَـةُ " العالِمُ كلَّمَا بذلَ علمَهُ للناسِ ، وأنفقَ منه تفجَّرَتْ ينابِيعُهُ وازدادَ كثرةً وقوَّةً وظُهُوراً فيكسَبُ بتعليمهِ حِفْظَ ما عَلِمَهُ ، ويحصُلُ له علمُ ما لم يكُن عندَهُ ، وربَّما تكونُ المسألةُ في نفسهِ غيرَ مكشوفَةٍ ولا خارجَةٍ من حَيِّزِ الإشكالِ ، فإذا تكلَّمَ بها وعلَّمَها اتَّضَحَتْ له وأضاءَتْ ، وانفتَحَ له منها عُلومٌ أُخَرُ .

وأيضاً ؛ فإنَّ الجزاءَ من جنسِ العَملِ ، فكما علَّمَ الخَلقَ من جهالتِهم ، جزاهُ اللهُ بأَنْ علَّمهُ من جهالتِهِ ؛ كما في " صحيح مسلم " [٢] من حديثِ عِيَاضِ بن حِمَارٍ رضي الله عنه [٣] عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قال في حَديثٍ طويلٍ : ( وأنَّ اللهَ قال لي : أنفِقْ ؛ أُنفِقْ عليكَ ) وهذا يتناوُلُ نفقَةَ العلمِ ؛ إمَّا بلفظِهِ ، وإمَّا بتَنبيهِهِ وإشارتهِ وفحواهُ .

ولزكاءِ العلمِ ونُمُوِّهِ [٤] طريقان :

أحدُهما : تعليمُهُ .

---

(١) مدارج السالكين (٤١٥/١) ، والفوائد (٩٧) ، والوابل الصيب (٧) .

(٢) رقم الحديث (٢٨٦٥) .

(٣) عِيَاضُ بن حِمَار بن أبي حِمَار بن ناجِية بن عِقال المُجَاشِعِيّ التَّمِيمي ، سكن البصرة ، وتوفي في حدود سنةِ خمسين من الهجرة .

الاستيعاب لابن عبد البر (١٢٣٢/٣) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٣١٠/٤) ، والإصابة لابن حجر (٦٢٥/٤) .

(٤) في النسخ : " ونحوه " وهو تصحيف ، والمثبت هو الأنسب للسياق .

والثَّاني : العَمَلُ به فإنَّ العَمَلَ به أيضًا يُنمِّيهِ ويُكثِّرُهُ ، ويفتحُ لصاحبهِ أبوابَهُ وخباياهُ (١) .

وقولُـــهُ : " والمــالُ تَنْقُصُــهُ النَّفَقَــةُ " ، لا يُنافي قــولَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم : ( ما نَقَصتْ صَدَقَةٌ من مالٍ ) (٢) ؛ فإنَّ المالَ إذا تَصَدَّقْتَ منه وأنفَقْتَ ، ذَهَبَ ذلكَ القَدْرُ وخَلَفَهُ غيرُهُ ، وأمَّا العلمُ فكالقَبَسِ من النَّارِ لو اقتَبَسَ منها العالِمُ (٣) لم يَذهَب منها شيءٌ ، بل يَزيدُ العلمُ بالاقتباسِ منه ، فهو كالعَينِ التي كلَّما أُخِذَ منها قويَ ينبُوعُها ، وجاشَ معينُها .

بيان فضل العلم على المال من أربعين وجهاً

وفضلُ العلمِ على المالِ يُعلَمُ من وجوهٍ :

العلم ميراث الأنبياء

أحدُها : أنَّ العلمَ ميراثُ الأنبياءِ ، والمالُ ميراثُ الملوكِ والأغنياءِ .

العلم يحرس صاحبه

الثَّاني : أنَّ العلمَ يحرسُ صاحبَهُ ، وصاحبُ المالِ يحرسُ مالَهُ .

العلم يزكو على النفقة

الثَّالثُ : أنَّ المالَ تُذهِبُهُ النَّفقاتُ ، والعلمُ يزكو على النَّفقةِ .

العلم يدخل القبر مع صاحبه

الرَّابعُ : أنَّ صاحبَ المالِ إذا ماتَ فارقَهُ مالُهُ ، والعلمُ يدخُلُ معه قبرَهُ .

العلم حاكم على المال

الخامسُ : أنَّ العلمَ حاكمٌ على المالِ ، والمالُ لا يحكُمُ على العلمِ .

العلم النافع لا يحصل إلا للمؤمن

السَّادسُ : أنَّ المالَ يحصُلُ للمؤمنُ والكافرِ والبَرِّ والفاجرِ ، والعلمُ النَّافعُ لا يحصُلُ إلّا للمؤمن .

العالم يحتاج إليه الملوك

السابعُ : أنَّ العالِمَ يحتاجُ إليه الملوكُ فمَن دونَهُم ، وصاحبُ المالِ إنما يحتاجُ إليهِ أهلُ العَدمِ والفاقَةِ .

شرف النفوس بتحصيل العلم

الثَّامنُ : أنَّ النُّفوسَ تَشرُفُ وتزكو بجمعِ العلمِ وتحصيلهِ . وذلكَ من كمالِها وشرَفِها . والمالُ لا يُزكِّيها ولا يُكمِّلُها ولا يَزيدُها صفَةَ كمــالٍ ، بل النَّفسُ تَنْقُصُ وتشِــحُّ وتبخَلُ بجمعهِ والـحرصِ عليه ، فَحِـرْصُها على العلمِ عينُ كمالِها ، وحرصُها على الـمالِ عينُ نَقصِها .

(١) بيَّن المؤلف رحمه الله وجوهاً عديدة من أوجه حرمان العلم ، سيأتي ذكرها : ص : ٥١٤ .

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) في ص : أهل العالم .

المال يدعوا إلى الطغيان والعلم يدعوا إلى التواضع

**التاسعُ** : أنَّ المالَ يَدعوا إلى الطُّغيانِ والفخرِ والخُيَلاءِ، والعلمُ يَدعوها إلى التَّواضُعِ والقيامِ بالعُبوديَّةِ ، فالمالُ يَدعوها إلى صفاتِ الملوكِ ، والعلمُ يَدعوها إلى صفاتِ العَبيد .

العلم حاجب موصل إلى السعادة والمال حجاب عنها

**العاشرُ** : أنَّ العلمَ حاجِبٌ [١] مُوصلٌ لها إلى سعادَتِها التي خُلقت لها ، والمالُ حِجابٌ عنها وبينها .

غنى العلم لا يخشى عليه الفقر بعكس غنى المال

[٦٦/أ]

**الحادي عشرَ** : أنَّ غِنى العلمِ أجلُّ من غِنى المالِ ؛ فإنَّ غِنى المالِ غِنَىً بأمرٍ خارجيٍّ عن حقيقةِ الإنسان ، لو ذهَبَ في ليلة أصبحَ فقيراً مُعدَمَاً ، وغِنى العلم لا يُخشى عليه الفقرُ ، بل هو في زيادةٍ أبداً ، فهو الغِنى العالي حقيقةً ؛ كما قيل [٢] / :

غَنِيتُ بلا مالٍ عن النَّاسِ كُلِّهِم وإنَّ الغِنى العَالِي عن الشَّيءِ لا بهِ

المال يستعبد صاحبه والعلم يستعبده لربه

**الثاني عشرَ** : أنَّ المالَ يَستعبِدُ مُحِبَّهُ وصاحِبَهُ فيجعلُه عبداً له كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : ( تعسَ عبدُ الدِّينار وتعِسَ عبدُ الدرهمِ ...) الحديث [٣] ، والعلمُ يستعبِدُهُ لربِّهِ وخالِقِه ، فهو لا يدعوهُ إلا إلى عبوديةِ الله وحده .

حبُّ العلم أصل كل طاعة وحبُّ المال أصل كل سيئة

**الثالثَ عشرَ** : أن حُبَّ العلمِ وطلبَهُ أصلُ كلِّ طاعةٍ ، وحُبَّ الدنيا والمال وطلبهُ أصلُ كلِّ سيِّئةٍ .

قيمة الغني ماله فإن زال زالت قيمته بعكس غني العلم

**الرابعَ عشرَ** [٤] : قيمةُ الغنيِّ [٥] مالُهُ ، وقيمةُ العالِمِ علمُهُ ، فهذا مُتقوِّمٌ بمالهِ ، فإذا عُدِمَ مالُه عُدِمَت قيمتُه ؛ فبقِيَ بلا قيمةٍ ، والعالِمُ لا تزولُ قيمَتُهُ ، بل هي في تضاعُفٍ وزيادةٍ دائماً .

---

(١) في : د ، ص : صاحب .

(٢) ديوان الشافعي (٢٣) .

(٣) رواه البخاري (٢٨٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) " الرابع عشر " سقط من : ص .

(٥) في : ح ، ص : أنَّ قيمة الغني .

جوهر المال من جنس جوهر البدن وجوهر العلم من جنس جوهر الروح

**الخامسَ عشرَ** : أنَّ جَوهَرَ المالِ من جنس جَوهَرِ البدنِ ، وجَوهَرُ العلمِ من جنسِ جَوهَرِ الرُّوح ، كما قال يونسُ بن حبيبٍ [(١)] : " علمُكَ مِن رُوحِكَ ، ومالُك من بدنِك " [(٢)] .

والفرقُ بين الأمرين كالفَرقِ بين الرُّوح والبدنِ .

الغني العاقل يود لو أن له علم العالم بغناه

**السادسَ عشرَ** : أنَّ العالِمَ لو عُرِضَ عليه بحظِّهِ من العلم الدُّنيا بما فيها لم يَرضَها عِوضاً من علمِه ، والغنيُّ العاقلُ إذا رأى شرفَ العالِمِ وفضلَهُ وابتهاجَهُ بالعلم وكمالَه به يودُّ لو أنَّ له علمَهُ بغناهُ أجمعَ .

ما أطاع أحد الله إلا بالعلم وعامة المعصية بالمال

**السابعَ عشرَ** : أنَّه ما أطاعَ اللهَ أحدٌ قطُّ إلا بالعلم ، وعامة من يعصيه إنما يعصيه بالمال .

العالم يدعو الناس إلى الله بعلمه وحاله وجامع المال يدعوهم إلى الدنيا

**الثامنَ عشرَ** : أنَّ العالم يدعو الناس إلى الله بعلمِه وحالهِ ، وجامعُ المالِ يدعوهم إلى الدنيا بحالِه ومالِه .

غنى المال قد يكون سبب الهلاك وغنى العلم سبب حياة الرجل وغيره

**التاسعَ عشرَ** : أنَّ غِنى المالِ قد يكون سببَ هلاكِ صاحبهِ كثيراً ؛ فإنَّه معشوقُ النُّفوسِ ، فإذا رأتْ مَن يستأثِرُ بمعشوقِها عليها سَعَتْ في هلاكِه كما هو الواقِع وأمَّا غِنى العلمِ فسببُ حياةِ الرَّجلِ وحياةِ غيرِه [(٣)] ، والناسُ إذا رأوا مَن يستأثرُ عليهم بهِ ، ويطلبُهُ أحبُّوهُ وخدمُوهُ وأكرمُوه .

لذة غنى المال لذة وهمية بهيمية ولذة العلم لذة عقلية

**العشرون** : أنَّ اللَّذةَ الحاصِلةَ من غِنى المال إمّا لذَّةٌ وهميَّةٌ ، وإمَّا لذَّةٌ بهيمِيَّةٌ ، فإنَّ صاحبَهُ إنْ التذَّ بنَفْسِ جَمْعِهِ وتحصيلهِ فتلك لذَّةٌ وهميَّةٌ خيالِيَّةٌ ، وإنْ التذَّ بإنْفاقِهِ في شهواتِهِ فهي لذَّةٌ بهيمِيَّةٌ .

---

(١) يونس بن حبيب أبو عبد الرحمن الضبيُّ البصري النحويّ ، إمام في النحو واللغة ، وقد أخذ عنه سيبويه والكسائي والفرَّاء ، وغيرهم ، ومن مؤلفاته : معاني القرآن و اللغات و النوادر و الأمثال ، توفي عام : ١٨٢ هـ
إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي (٧٤/٤) ، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة للفيروزآبادي (٣٢٣) .

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة (١٣٧/٢) ، وأمالي ابن القالي (٢٢٣/١) ، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٢٠٣/٣٤) .

(٣) في : ص : وحياةِ غيرِهِ بهِ .

وأمَّا لـذَّةُ العلـمِ فلذَّةٌ عقليَّةٌ ، وهي تُشبِهُ لذَّةَ الملائكةِ وبَهجَتِها ، وفَرقٌ ما بين اللَّـذَّتينِ [١] .

العقلاء مطبقون على ذم الشره في جمع المال ، وعلى تعظيم الشره في جمع العلم

الحادي والعشرون : أنَّ عقلاءَ الأمَمِ مُطبقونَ على ذمِّ الشَّرهِ في جمعِ المالِ الحريصِ عليهِ ، وتنَقُّصِهِ والإزْرَاءِ به ، ومُطبقون على تعظيمِ الشَّرهِ على جمعِ العلمِ وتحصيلهِ ومدحِه ومحبَّتِه ورؤيتهِ بعين الكمالِ .

أنهم مطبقون على تعظيم الزاهد في المال ، وعلى ذم الزاهد في العلم

الثاني والعشرون : أنَّهم مُطبقون على تعظيمِ الزَّاهـدِ في المالِ ، المُعرضِ عن جمعهِ الذي لا يلتفتُ إليه ، ولا يجعلُ قلبَه عبداً له ، ومُطبقون على ذمِّ الزَّاهـدِ في العلمِ الذي لا يلتفتُ إليه ، ولا يحرصُ عليه .

يمدح صاحب المال بتخليه منه والعلم يمدح بتحليه به

الثالث والعشرون : أنَّ المالَ إنَّما يُمدَحُ صاحِبُه بتخلِّيهِ منه وإخراجِه ، والعلمُ إنَّما يُمدحُ بتحلِّيهِ به واتِّصافِه به .

غنى المال مقرون بالخوف وغنى المال مقرون بالأمن

الرابـع والعشرون : أنَّ غِنـى المـال مَـقرونٌ بالخـوفِ والحُـزنِ ، فهـو حزيـنٌ قبل حُصولِهِ ، خائفٌ بعد حصوله ، وكلَّما كان أكثرَ كان الخوفُ أقوى ، وغِنى العلمِ مقـرونٌ بالأمنِ والفرحِ والسُّرورِ .

غني المال يتعذب بمفارقته والغنى بالعلم لا يزول ولا يتعذب صاحبه

الخامسُ والعشرون : أنَّ الغَنيَّ بمالـه لا بـدَّ أنْ يُفارِقَـهُ غِناهُ ، فيتعـذَّبَ ويتـألَّـمَ بمُفارقتِه ، والغِنَى بالعلم لا يزولُ ولا يتعذَّبُ صاحبُه ولا يتألَّمُ ، فلذَّةُ الغِنى بالمال لذَّةٌ زائِلةٌ مُنقطعةٌ يعقُبُها الألمُ ، ولذَّةُ الغِنى بالعلم لذَّةٌ باقيةٌ مُستمرةٌ لا يلحقُها ألـمٌ .

التلذذ بالغنى تلذذ بعارية مؤداة بعكس التجمل بالعلم

السادسُ والعشرون : أنَّ استلـذاذَ النَّفـسِ وكمـالَـها بالغِنى استلـذاذٌ بعـاريـةٍ مُؤدَّاةٍ فتجمُّلُها بالمال تجمُّلٌ بثوبٍ مُستعارٍ لا بدَّ أن يرجعَ إلى مالِكهِ يوماً ما ، وأمَّا تجمُّلُها بالعلم وكمالُـها به فتجمُّـلٌ بصفة ثابتةٍ لها راسخةٍ فيها لا تُفارقُها .

الغنى بالعلم غنى النفس الحقيقي

السابعُ والعشرون : أنَّ الغِنى بالمالِ هو عينُ فقـرِ النَّـفسِ ، والغِنى بالعلم هو غِناها الحقيقيُّ ؛ فغِناها بعلْمِها هو الغِنى ، وغناها بمالِـها هو الفَقرُ .

---

(١) قال ابن الجوزي : " والله ما أعرفُ مَن عاش رفيعَ القَدْر بالِغًا من اللّذات ما لَم يبلُغْ غيرُه ، إلاّ العلماء المخلصين كالحسَن وسفيان ، والعُبَّاد المُحقِّقين كمعروف ؛ فإنَّ لذَّةَ العلمِ تزيدُ على كلِّ لذَّةٍ " صيد الخاطر (٣٠٠) .

من قُدِّم لماله يزول تقديمه إذا ذهب ماله والمقدم لعلمه لا يزداد إلا تقديما

الثامنُ والعشرون : أنَّ مَن قُـدِّمَ وأُكرِمَ لمَالِـه ؛ إذا زالَ مالُـهُ ذهبَ تقديمُه وإكرامُهُ ومن قُدِّمَ وأُكرِمَ لعلمِهِ لا يزدادُ إلا تقديماً وإكراماً .

تقديم الرجل لماله عين ذمه وتقديمه لعلمه عين كماله

التاسعُ والعشرون : أنَّ تقديمَ الرَّجلَ لماله هو عين ذمِّه ؛ فإنَّه نداءٌ عليه بنقصِه ، وأنَّه لولا مالُـهُ لكان مُستحقَّاً للتأخُّر والإهانة ، وأمَّا تقديمُهُ وإكرامُه لعلمِه فإنَّه عينُ كمالِه إذ هو تقديمٌ له بنفسِه وصفتِه [1] القائمةِ بهِ ، لا بأمرٍ خارجٍ عن ذاته .

طالب الكمال بغنى المال كالجامع بين الضدين

الثَّـلاثون : أنَّ طلبَ الكمالِ بغنى المالِ كالجامعِ بين الضِّدَّين ، فهو طلبُ ما لا سبيل إليه [2] .

وبيانُ ذلك :

أنَّ القُدرةَ صفةُ كمالٍ ، وصفةُ الكمالِ محبوبةٌ بالذَّات ، والاستغناءُ عن الغير أيضاً صفةُ كمالٍ محبوبةٌ بالذَّات ، فإذا مـالَ الرَّجلُ بطبعِه إلى السَّخـاوةِ والجُودِ وفِعلِ المَكرُمَات فهذا كمالٌ مطلوبٌ للعقلاء ، محبوبٌ للنُّفوسِ ، وإذا التفتَ إلى [3] أنَّ ذلك يقتضي خروجَ المالِ من يَدِهِ ، وذلك يُوجبُ نقصَهُ واحتياجَهُ إلى الغيرِ وزوالَ قدرتِه ، نفَرَتْ نفسُه عن السَّخاءِ والكرمِ والجـودِ واصطناعِ المعروفِ ، وظنَّ أنَّ كمالَه في إمسـاك المالِ .

وهذه البليَّـةُ أمرٌ ثابتٌ لعامَّةِ الخلقِ ، لا يتفكَّرون ! .

فلأجل ميْلِ الطَّبعِ إلى حُصولِ المدحِ والثَّناءِ والتَّعظيمِ بحُبِّ الجُود والسَّخاء والمكارم ولأجلِ فَوْتِ القُدرة الحاصلةِ بسبب إخراجِه ، والحاجةِ المُنافيةِ لكمالِ الغِنى يُحِبُّ إبقاءَ مالِه ، ويكرهُ السَّخاءَ والكرم والجُود ، فيبقى قلبُه واقِفاً بين هذين الدَّاعِيَيْنِ يتجاذبَانِه ، ويَعْتَوِرَان عليه [4] ، فيبقى القلبُ في مقام المُعارضةِ بينهما ، فمِن الناس مَن

(١) في : د ، ص : وبصفتِهِ .

(٢) في : د ، ص : فهو طالبٌ ما لا سبيل له إليه .

(٣) سقطت " إلى " من : ص .

(٤) أي : يتعاقبان عليه ، ويُحيطان به ، وهو يتداول بينهما ، لا يحيد عنهما . لسان العرب لابن منظور (٦١٢/٤) ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (١٧٦/٢) .

يترجَّحُ عنده جانبُ البَذلِ والجُود والكَرمِ ؛ فيُؤْثِرُهُ على الجانب الآخَرِ ، ومنهم مَن يترجَّحُ عنده جانبُ الإمساكِ وبقاءِ القُدرةِ والغِنَى ؛ فيُؤْثِرُهُ .

فهذان [١] نظَرانِ للعُقلاء [٢] .

ومنهم من يبلغُ به الجهلُ والحمَاقَةُ إلى حيثُ يريدُ الجمعَ بين الوجْهَين ، فيَعِدُ الناسَ بالجُود والسَّخاءِ والمَكارمِ ؛ طمَعاً منه في فوزِهِ بالمدحِ والثَّناءِ على ذلك ، وعندَ حُضورِ الوقتِ لا يفي بما قال ؛ فيسخُوا ويبذلُ بلسانهِ ، ويُمسكُ بقلبهِ ويدهِ ؛ فيقعُ في أنواعِ القبائح والفضائح !

وإذا تأملتَ أحوالَ أهلِ الدُّنيا من الأغنيـاءِ رأيتَهم تحتَ أسرِ هذه البَليَّـةِ ، وهم غالباً يَبْكُونَ ويَشْكُون .

وأما غَنِيُّ العلمِ فلا يَعْرِضُ له شيءٌ من ذلك ، / بل كُلَّما بذَلَهُ ازدادَ ببذلِهِ فرَحَاً وسُروراً وابتهاجاً ، وإنْ فاتَتْهُ لذَّةُ أهلِ الغِنى وتمَتُّعُهم بأموالِهم فهم أيضاً قد فاتَتْهُم لذَّةُ أهل العلمِ ، وتمَتُّعُهم بعُلومِهم ، وابتهاجُهم بها . [٦٧/أ]

فمع صاحبِ العلم من أسبابِ اللذَّةِ ما هو أعظمُ وأقوى وأدومُ من لذَّةِ الغَنيِّ ، وتعَبُهُ في تحصيلِهِ وجمعهِ وضبطهِ أقلُّ مِن تعبِ جامِع المالِ بجمعِه ، وألَمُهُ دونَ ألَمِهِ ، كما قال تعالى للمؤمنين تسليَةً لهم بما ينالُهم من الألَمِ والتَّعبِ في طاعته ومرضاتِه : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [٣] .

الحادي والثَّلاثون : أنَّ اللذَّةَ الحاصِلةَ من المالِ والغِنى إنَّما هي حالَ تجدُّدِهِ فقط وأمَّا حالَ دوامِهِ ؛ فإمَّا أن تذهبَ تلك اللذَّةُ ، وإمَّا أن تنقُصَ .

اللذة الحاصلة من المال إنما هي حال تجدده وأما حال دوامه فتذهب أو تنقص ولذة العلم في حال البقاء والتجدد

ويدلُّ عليه أنَّ الطَّبعَ يبقى طالِباً لغِنىً آخرَ حريصاً عليه ، فهو يُحاولُ تحصيلَ الزِّيادةَ دائماً ، فهو في فقرٍ مُستمرٍّ غيرَ مُنتقضٍ ، ولو ملكَ خزائنَ الأرضِ ، ففقرُهُ وطلبُهُ

---

(١) في : ص : فهذا .

(٢) في : ص : العقلاء .

(٣) النساء : ١٠٤ .

وحرصُهُ باقٍ عليه ؛ فإنَّه احدُ المَنهُومَيْن اللذين لا يشبعانِ ، فهو لا يفارقُه ألَـمُ الحرصِ والطَّلبِ .

وهذا بخلافِ غَنِيِّ العلم والإيمان ؛ فإنَّ لذَّتَهُ في حالِ بقائِه مثلُها في حالِ تجَدُّدِهِ ، بل أزْيَدُ ، وصاحبُها وإن كان لا يزالُ طالِباً للمزيد ، حريصاً عليه ، فطلبُهُ وحرصُهُ مُستصحبٌ لِلَذَّةِ الحاصلِ ، ولَذَّةِ المَرجوِّ المَطلوبِ ، ولَذَّةِ الطَّلبِ وابتهاجِهِ فرَحِهِ به .

غنى المال يستدعي الإنفاق على الناس؛ فإن منعهم وصِف بالبخل وإن أعطى لم يمكنه شمولهم بعكس العالم فإنه يمكنه شمولهم

الثاني والثلاثون : أنَّ غِنَى المَال يستَدعي الإنعَامَ على الناسِ والإحسانَ إليهم فصاحبُهُ إمَّا أن يَسُدَّ على نفسه هذا البابَ ، وإمَّا أن يفتحَهُ عليه ، فإن سدَّهُ على نفسه اشتهرَ عند الناسِ بالبُعدِ من الخيرِ والنَّفعِ ؛ فأبغَضُوه وذمُّوه واحتقَرُوه ، وكلُّ من كان بغيضاً عند الناسِ حقيراً لديهم كان وصولُ الآفاتِ والمَضرَّاتِ إليه أسرعَ من النَّارِ في الحطبِ اليابسِ ، ومن السَّيل في مُنحدرِهِ ، وإذا عَرَفَ مِن الخلقِ أنَّهم يمقُتُونَه ويبغِضُونَه ، ولا يُقيمون له وزناً تـألَّمَ قلبُه غايـةَ التَّألُّمِ ، وأُحضِرَ الهُمومَ والغُمومَ والأحزانَ .

وإنْ فتـحَ بابَ الإحسانِ والعطاءِ فإنَّه لايُمكنهُ إيصالُ الخيرِ والإحسان إلى كلِّ أحدٍ فلا بُدَّ من إيصالِه إلى البعضِ ، وإمساكِه عن البعضِ ، وهذا يفتحُ عليه بابَ العداوةِ والمَذمَّةِ مِن المَحروم والمَرحومِ .

أمَّا المَحرومُ فيقول : كيف جادَ على غيري ؟

وأمَّا المَرحومُ فإنَّه يلتَذُّ ويفرحُ بما يحصلُ (١) له من الخير والنَّفع ، فيبقى طامِعاً مُستشرِفاً لنظيره على الدَّوام ، وهذا قد يتعذَّرُ غالباً فيُفضي ذلك إلى العداوة الشَّديدة والمَذمَّةِ ، ولهذا قيل : " اتَّقِ شرَّ من أحسنتَ إليه " (٢) .

وهـذه الآفـاتُ لا تعـرِضُ في غِنى العلـمِ ؛ فـإنَّ صاحبَـهُ يُمكِنُـهُ بَذْلُـهُ للعالَم كلِّهم

---

(١) في : د ، ص : بما حصلَ .

(٢) مَثَلٌ مشتهر على الألسن ، ينظر : مجمع الأمثال للميداني (١/١٤٥) .

واشتراكهم فيه [١] ، والقدرُ المَبذولُ منه باقٍ لآخِذِه لا يزولُ بل يتَّجِرُ بهِ ، فهو كالغَنيِّ إذا أعطى الفقيرَ رأسَ مالٍ يتَّجِرُ بهِ حتى يصيرَ غنيَّاً مِثلَهُ .

جمع المال مقرون بثلاث آفات وغني العلم سالم منها ومتلذذ وفرح

الوجه الثالث والثلاثون : أنَّ جمعَ المالِ مقرونٌ بثلاثةِ أنواعٍ من الآفاتِ والمِحنِ : نوعٌ قبلَهُ ، ونوعٌ عند حُصولِه ، ونوعٌ بعد مُفارَقَتِه .

فأمَّا النَّوعُ الأول : فهو المَشَاقُّ والأنكادُ والآلامُ التي لا يحصلُ إلا بها .

وأمَّا النوعُ الثاني : فمشقَّةُ حِفظِهِ وحراستِه وتعلُّقِ القلبِ به ، فلا يُصبحُ إلا مهموماً ، ولا يُمسي إلا مغموماً ، فهو بمنزلةِ عاشقٍ مُفرِطِ المحبَّةِ قد ظَفِرَ بمعشوقِه ، والعيونُ من كلِّ جانبٍ ترمُقُهُ ، والألسِنَةُ والقلوبُ ترشُقُهُ ، فأيُّ عَيشٍ وأيُّ لذَّةٍ لمَن هذه حالُه ؟

وقد عَلِمَ أنَّ أعداءَهُ وحُسَّادَهُ لا يفتُرون عن سعيهم في التَّفريقِ بينهُ وبين معشوقِهِ ، وإن لم يَظفَروا هم به ، ولكنَّ مقصودَهم أن يُزيلوا اختصاصَهُ به دونهم ؛ فإنْ فازُوا به وإلا استووا في الحرمانِ ، فزالَ الاختصاصُ المُؤلِمُ للنُّفوسِ .

ولو قَدَروا على مثلِ ذلك مع العالِمِ لفَعَلوهُ ، ولكنَّهُم لمَّا علِمُوا أنَّه لا سبيل إلى سلبِهِ علْمَهُ عمَدوا إلى جَحْدِه وإنكارِه ليُزيلوا من القلوب محبَّتَه وتقديمَه والثَّناءَ عليه ، فإنْ بهَرَ علمُهُ [٢] وامتنَعَ عن مكابَرةِ الجُحودِ والإنكارِ رَمَوْهُ بالعظائِم ، ونسبُوه إلى كلِّ قبيحٍ ليُزيلوا من القلوبِ محبَّتَه ، ويُسكِنُوا موضعَها النَّفرَةَ عنه وبُغضَهُ .

وهذا شُغْلُ السَّحَرةِ بعينه ، فهؤلاءِ سَحَرَةٌ بأعيُنِهم .

فإنْ عَجَزوا له عن شيءٍ من القبائحِ الظاهرةِ ، رمَوهُ بالتَّلبيسِ والتَّدليسِ والزُّوْكَرَةِ [٣] والرِّياءِ وحُبِّ التَّرفُّعِ وطلبِ الجَاهِ .

---

(١) في النسخ كلها : " وأشباهُهم فيه " ، والمُثبت من المطبوع ، وهو أليق .

(٢) البُهْرُ : كلُّ ما اتسعَ من الأَرض ، ويطلق على الغَلَبة والقَهْر ، والمراد هنا : غلب علْمُه وعلا . ينظر : العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (٤٨/٤) ، وتهذيب اللغة للأزهري (١٥٥/٦) ، ولسان العرب لابن منظور (٨١/٤) .

(٣) الزُّوْكَرَةِ لفظ يستعمله المغاربةُ ، ومعناه عندهم : مَنْ يَتَلَبَّس فيُظْهِر النُّسُك والعبَادةَ ويُبْطِن الفِسْقَ والفسادَ . ينظر : نَفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب للمَقَّرِيِّ (١٢/٦) ، وتاج العروس للزبيدي (٤٣٩/١١) .

وهذا القَـدْرُ من مُـعاداةِ أهـل الجهل والظُّـلم للعلمـاءِ مِثلُ الحَرِّ والبَردِ لا بُدَّ منه فلا ينبغي لمن له مُسْكَـةُ عقلٍ أن يتأذَّى به ، إذ لا سبيلَ له إلى دفعِه بحالٍ ، فليُوطِّن نفسَـهُ عليه كما يُوطِّنُها على بردِ الشتاءِ وحَرِّ الصَّيفِ .

والنَّوعُ الثالث من آفاتِ الغِنَى : ما يحصلُ للعبدِ بعد مُفارقَتِه مَنْ تعلَّقَ قلبُـهُ به ، وكونُهُ قد حِيلَ بينه وبينه ، والمُطالبة بحقوقِه ، والمُحاسبة على مقبوضِه ومصروفِه : من أين اكتسبَهُ ، وفي ماذا أنفقَهُ ؟

وغَنيُّ العلمِ والإيمان مع سلامتِه من هذه الآفـاتِ ، فهو كفيلٌ بكلِّ لذَّةٍ وفرْحَةٍ وسُرورٍ ، ولكنْ لا يُنالُ إلا على جسرٍ من التَّعب والصبر والمشقَّة .

كمال لذة الغنى موقوف على اتصاله بالغير وهذا منشأ الآفات بعكس الغنى بالعلم

الرابع والثلاثون : أنَّ لـذَّةَ الغِنيِّ بالمال مقرونةً بخُلطَـةِ الناسِ ، ولو لم يكن إلا خَـدَمُـهُ وأزواجُـهُ وسراريـهِ وأتبـاعُـهُ ، إذ لو انفردَ الغنيُّ بمالِـه وحده من غير أن يتعلقَ بخادمٍ أو زوجـةٍ أو أحدٍ من الناس لم يكمُـل انتفاعُـه بمالِـه ، ولا التذاذُهُ به ، وإذا كان كمالُ لَذَّتِه بغناهُ موقُوفاً على اتصالِه بالغيرِ ؛ فذلك منشَـأُ الآفات والآلام وأنواعُ النَّكدِ ، ولو لم يكن إلا اختلافُ الناسِ وطبائِعهم وإرادتِهم ؛ فقبيحُ هذا حسَنُ ذاك ، ومصلحةُ ذاك مفسدةُ هذا ، ومنفعَـةُ هذا مَضرَّةُ الآخر ، وبالعكس ، فهو مُبتلىً بهم ، فلا بُدَّ من وقوعِ النَّـفْرَةِ والتَّباغُضِ والتَّعادي بينهم وبينَهُ ، فإنَّ رضاهُم كلهم مُحالٌ ، وهو جمعٌ بين الضِّدينِ ، وإرضاءُ بعضِهم وإسخاطُ غيره سببُ الشَّرِّ والمُعاداةِ ، وكلَّما طالت المُخالَطَةُ ازدادت أسبابُ الشَّرِّ والعداوةِ وقَوِيَت [1] .

وبهذا السَّببِ كان الشَّرُّ الحاصلُ من الأقاربِ والعُشراءِ أضعافَ الشَّرِّ الحاصلِ من الأجانبِ والبُعداءِ .

---

(١) تكلَّم المؤلف رحمه الله عن فضول المخالطة ، وما تجلبه من الأدواء فقال : " فضولُ المُخالطةِ هي الدَّاءُ العُضالُ الجالبُ لكلِّ شرٍّ ، وكم سلبت المُخالطةُ والمُعاشرةُ من نِعمةٍ ، وكم زرعت من عداوةٍ ، وكم غرست في القلب من حزَازاتٍ تزولُ الجبالُ الرَّاسيات وهي في القلوب لا تزول ، ففضولُ المُخالطةِ فيه خسارةُ الدُّنيا والآخرةِ . وإنَّما ينبغي للعبد أن يأخذَ من المُخالطةِ بمقدار الحاجة " ثمَّ قسَّمَ الناس من حيث المخالطة إلى أربعة أقسام .
بدائع الفوائد (٢/٢٧٣ – ٢٧٤) ، وينظر : مدارج السالكين (١/٤٥٢) .

وهذه المُخالطةُ إنَّما حصلت من جانبِ الغنيِّ بالمالِ ، أمَّا إذا لم يكن فيه فضيلَةٌ لهم فإنَّهم يتجنَّبون مُخالطتَهُ ومُعاشرتَهُ ، فيستريحُ من أذى الخِلطَةِ والعِشرَةِ ، وهذه الآفاتُ / معدُومَةٌ في الغِنى بالعلمِ . [٦٨/أ]

المال لا يراد لذاته وعينه فهو لا يُشبع ولا يُروي بعكس العلم

الخامسُ والثلاثون : انَّ المالَ لا يُرادُ لذاتِهِ وعينِه ، فإنَّه لا يحصلُ بذاتِه شيءٌ من المنافِعِ أصلاً ، فإنَّه لا يُشْبعُ ولا يُروي ولا يُدفِئُ ولا يَمنعُ ، وإنَّما يُرادُ لهذه الأشياء ؛ فإنَّه لمَّا كان طريقاً إليها أُريدَ إرادةَ الوسائل .

ومعلومٌ أنَّ الغاياتِ أشرفُ من الوسائلِ ؛ فهذه الغاياتُ إذاً أشرفُ منه ، وهي مع شرفها بالنِّسبةِ إليه ناقصةٌ دنِيئةٌ .

وقد ذهبَ كثيرٌ من العُقلاء إلى أنَّها لا حقيقةَ لها ، وإنَّما هي دفعُ الألم فقط ، فإنَّ لُبْسَ الثيابِ مثلاً إنَّما فائدتُه دفعُ التَّألُّمِ بالحَرِّ والبَردِ والرِّيحِ ، وليس فيها لذَّةٌ زائدةٌ على ذلك ، وكذلك الأكلُ إنَّما فائدتُه دفعُ ألم الجوع ، ولهذا لو لم يجد ألمَ الجوعِ لم يَستَطِبِ الأكلَ ، وكذلك الشُّربُ مع العطشِ ، والرَّاحةُ مع التَّعبِ [(١)] .

ومعلومٌ أنَّ في مُزاولَةِ ذلك وتحصيلِه ألماً وضرراً ، ولكنَّ ضررَهُ وألمَهُ أقلُّ من ضَررِ ما يُدفَعُ به وألَمِه ، فيتحمَّلُ الإنسانُ أخفَّ الضَّررين دفعاً لأعظَمِهما .

وحُكيَ عن بعض العُقلاء [(٢)] أنَّه قيل له ، وقد تناولَ قَدَحاً كريهاً من الدَّواءِ : كيف حالُكَ معه ؟ فقال :

أصبَحْتُ في دارِ بَلِيِّاتِ أدْفَعُ آفاتٍ بآفَاتِ

---

(١) قال المؤلف رحمه الله في ص (٢٧٥) من المطبوع : "فإنَّك إذا فكَّرتَ في الأكل والشُّرب واللباس والجماع والرَّاحة وسائرِ ما يُستلذُّ به رأيتَه يدفعُ بها ما قابلَهُ من الآلام والبليَّاتِ ، أفلا تراك تدفعُ بالأكل ألم الجوعِ ، وبالشرب ألم العطشِ ، وباللِّباس ألمَ الحرِّ والبَردِ ، وكذا سائرها ".

(٢) هو : أبو إسحاق النَّظام مُنشداً بيت أبي العتاهية ، ينظر : خاص الخاص لأبي منصور الثعالبي (١١٠) ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (٣٩٨/٢) .

لذات الدنيا كلها تعود إلى لذَّة المأكل والمنكح وهي لذة تعتريها منغصات كثيرة

وفي الحقيقةِ ، فلذَّاتِ الدنيا من المأكلِ والمَشرَبِ [(١)] ، والمَلبس والمسكنِ ، والمَنكح مِن هذا الجنسِ ، واللذَّةُ التي يُباشرُها الحِسُّ ، ويتحرَّكُ لها الحيُّ ـ وهي الغاية المَطلوبةُ له من لذَّة المَأكلِ والمَنكح ـ شهوةُ البطن والفَرْجِ ، ليس لهما ثالثٌ ألبتَّة إلا ما كان وسيلةً إليهما وطريقاً إلى تحصيلِهما .

وهذه اللذَّةُ مُنغَّصَةٌ مِن وجوهٍ عَديدةٍ :

تصوُّر زوالها

منها : أنَّ تصَوُّرَ زوالِها وانقضائِها وفنائِها يُوجبُ تنَغُّصَها [(٢)] .

أنها ممزوجة بالآفات

ومنها : أنها ممزوجةٌ بالآفاتِ ، ومعجونةٌ بالآلام ، مختلِطَةٌ بالمخاوفِ ، وفي الغالب لا تفي آلآمُها بطِيبِها [(٣)] .

كما قيل [(٤)] :

قَايَسْتُ بين جَمَالِها وفِعَالِهَا ... فإذا المَلاحَةُ بالقَباحَةِ لا تَفي

أن أراذل الناس يشاركون فيها كبراءهم وقد يزيدون عليهم

ومنها : أنَّ الأراذِلَ من الناس وسَقَطَهُم يُشاركون فيها كبراءَهُم وعُقَّالَهُم ، بل يزيدون عليهم فيها أعظمَ زيادةٍ وأفحشَها ، فنسبَتُهم فيها إلى الأفاضلِ كنسبةِ الحيواناتِ البَهيمِيَّةِ إليهم ، فمُشاركةُ الأراذِلِ وأهلِ الخِسَّةِ والدَّناءةِ فيها وزيادَتُهم على العُقلاء فيها ممَّا يُوجبُ النَّفْرَةِ والإعراضِ عنها .

وكثيرٌ من الناس حصلَ له الزُّهدُ في المحبوبِ والمَعشوق منها بهذه الطرق [(٥)] .

هذا كثيرٌ في أشعار الناس ونثرِهم ، كما قيل [(٦)] :

سأترُكُ حُبَّها من غيرِ بُغضٍ ... ولكنْ كثرَةُ الشُّركاءِ فيه

إذا وقَعَ الذُّبَابُ على طَعَامٍ ... رَفَعْتُ يَدي ونَفْسِي تشتَهيه

(١) في : ص : المآكِل والمَشارب .

(٢) في : ص : تنغِيصَها .

(٣) في : د ، ص : لا يفي أَلَمُها بطيبها .

(٤) القائل هو : أبو بكر محمد بن سَري السَّرَّاج النحوي . الديارات للشابشتي (٢٧) ، وتاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم لأبي المحاسن التنوخي (٤١) .

(٥) في : ص : الطريق .

(٦) أورده الدَّميري في حياة الحيوان الكبرى (١١/١) ، والأبشيهي في المستطرف (١/ ٥٥ ، ٣٤٦) من غير نسبة .

وتَـجْـتَنِـبُ الأُسُـودُ وُرُودَ مــاءٍ إذا كـان الكِـلابُ يَلَغْنَ فيــه

وقيل لزاهدٍ : ما الذي زهَّدَكَ في الدُّنيا ؟

فقال : " خِسَّةُ شُركائِها ، وقِلَّةُ وفائِها ، وكثرةُ جفائِها " .

وقيل لآخـرَ : في ذلك ؟ فقـال : " ما مَـدَدتُ يدي إلى شيء منها إلا وجَـدتُ غيري قد سبقني إليه فأترُكُهُ له " (١).

أن الالتذاذ بموقعها إنما هو بقدر الحاجة إليها

ومنها : أنَّ الالتِـذَاذَ بموقِعها إنَّما هو بقدرِ الحاجة إليها ، والتَّألُّمِ بمُطالبةِ النَّفس لتناولِها ، وكلَّمَا كانت شهـوةُ الظَّفـرِ بالشيء أقوى كانت اللذَّةُ الحاصلةُ [ بوجودهِ أكملَ ، فلمَّا لم تحصل تلك الشَّهوةُ لم تحصل تلك اللذَّةُ ، فمقدارُ اللذَّةِ الحاصلةِ في الحال ] (٢) مُساوٍ لمقدارِ الحاجةِ والألم والمَضرَّةِ في الماضي .

وحينئذٍ ؛ فتتقابلُ (٣) اللذَّةُ الحاصلـةُ والألـمُ المُتقدِّمُ فيتـساقَطَانِ ، فتصيرُ اللـذَّةُ كأنَّـها لم تُوجد ، وتصيرُ بمنزلةِ مَن شقَّ بطنَ رجُلٍ ثـمَّ خاطَهُ وداواهُ بالمَراهِمِ ، وبمنزلةِ (٤) مَن ضرَبَهُ عشرةَ أسواطٍ وأعطاه عشرةَ دراهم ! ولا تخرجُ لـذَّاتُ الدنيا غالباً عن ذلك .

ومثلُ هذا لا يُعدُّ لـذَّةً ولا سعادةً ولا كمالاً ، بل هو بمنزلَةِ قضاءِ الحاجةِ من البول والغائط ؛ فإنَّ الإنسانَ (٥) يتضرَّرُ بثُقلِه ، فإذا قضى حاجتَه استراحَ منه ، فأمَّا أن يُعدَّ ذلك سعادةً وبهجَةً ولذَّةً مطلوبةً فلا .

ما يقترن باللذتين من مباشرة القاذورات والتالم الحاصل عقيبهما

ومنها : أنَّ هاتَين اللذَّتَينِ اللتين هما أثرُ اللذَّاتِ عند الناس ، ولا سبيل إلى نيلِهما إلا بما يقترنُ بهما قبلَهما وبعدَهما مِن مُباشرةِ القاذورات والتَّألُّم الحاصل عَقِيبَهما ، مثالُ لذَّةِ الأكل ؛ فإنَّ العاقلَ لو نظرَ إلى طعامِه حالَ مُخالطته ريقَهُ وعَجْنِهِ به لنَفرَت نفسُهُ

(١) ينظر نحوهما في إحياء علوم الدين للغزالي (٤/٤٢٠) وينظر كلام المؤلف رحمه الله في : مدارج السالكين (٢/١٦) ، وطريق الهجرتين (٥٠٧) .

(٢) سقط من : ص .

(٣) في : ص : وحينئذٍ تتقابل .

(٤) في : د ، ص : أو بمنزلةِ .

(٥) في الأصل : " فإنَّ الضررَ " وكُتب في الهامش : " لعله الإنسان " وهو الصواب .

منه ، ولو سقطَت تلك اللقمةُ من فيه لنَفَرَ طبعُه من إعادَتِها إليه ، ثم إنَّ لذَّتَهُ [١] إنَّما تحصلُ في مَجرى نحو الأربعِ الأصابعِ ، فإذا فُصِلَ عن ذلك المجرى زالَ تلَذُّذُهُ به فإذا استقرَّ في معدَتِه وخالَطَه الشرابُ وما في المعدة من الأجزاءِ [٢] الفَضْلِيَّةِ ، فإنَّه حينئذٍ يصيرُ في غايةِ الخِسَّة ، فإن زاد [٣] على مقدار الحاجة أورثَ الأدواءَ المُختلفةَ على تنوُّعِها ، ولولا أنَّ بقاءَهُ موقوفٌ على تناولِ الغذاء لكان تركُهُ ـ والحالةُ هذه ـ أليَقَ به ، كما قال بعضهم [٤] :

لولا قضَاءٌ جَرى نزَّهْتُ أُنْمُلَتي ... عن أنْ تُلِمَّ بمَأكولٍ ومَشرُوبِ

وأما لذَّةُ الوقَاعِ فقَدْرُها أبينُ من أن نذكُرَ آفاتِه ، ويدُلُّ عليه أن أعضَاء هذه اللذَّةِ هي عورةُ الإنسان التي يُستحيا من رُؤيتها وذِكْرِها ، وسَترُها أمرٌ فَطَرَ الله عليه عبادَه ، ولا تَتِمُّ لذةُ المُواقعةِ إلا بالاطلاع عليها وإبرازِها ، والتَّلطُّخُ بالرُّطوبات المُستقذرةِ المُتولِّدَةِ فيها ، ثمَّ إنَّ تمامَها إنَّما يحصلُ بانفصالِ النُّطفةِ وهي اللذَّةُ المقصودةُ من الوِقاعِ وزمَنُها يشبِهُ الآنَ الذي لا ينقَسِمُ [٥] ، فصعوبةُ تلك المُزاولَةِ والمُحاولَةِ والمُطاولَةِ والمُراوضَةِ والتَّعبِ لأجل لذَّةٍ لحظَةٍ كمَرِّ الطَّرْفِ ، فأيُّ مُقايَسةٍ بين هذه اللذَّةِ وبين التَّعبِ في طريقِ تحصيلِها ؟ .

وهذا يدلُّ على انَّ هذه اللذَّة ليست من جنس الخيرات والسَّعادات والكمال الذي خُلِقَ له العبد ، ولا كمالَ له بدونه ، بل ثَمَّ أمرٌ وراءَ ذلك كلِّه ، قد هُيِّئَ له العبدُ ، ولا يفطَنُ له ، فهو لغفلتِه عنه وإعراضِه عن التَّفتيش على طريقِه حتى يصلَ إليه ، يسومُ نفسَه مع الأنعامِ السَّائمةِ :

---

(١) في : د ، ص : ثمَّ إنَّ لذَّتَهُ به.

(٢) في : ص : الأمْرَاء .

(٣) في : ص : فإذا زاد .

(٤) القائل : عبد القاهر الجرجاني ، ينظر : ربيع الأبرار للزمخشري (٢٠٧/٣ – ٢٠٨) .

(٥) الآن : هو الحدُّ الذي بين زمَانَين ، أي : طرف الماضي وطرف المستقبل ، وهو بمثابة النُّقطة للخطوط والسطوح والدوائر ونحوها ، فهي أصل الجميع . ينظر : الكليات للكفوي (٤٨٦) .

قد هَيَّؤوكَ لأمْرٍ لو فطِنْتَ لهُ ... فاربأ بنَفْسِك أنْ ترعَى مع الهَمَلِ (١)

/ وموقعُ هذه اللذَّات من النَّفْس كموقِع لذَّةِ البَرَازِ (٢) من رجلٍ احتبسَ في موضعٍ لا يُمكنهُ القيامُ إلى الخَلاءِ ، وصارَ مُضطراً إليه ؛ فإنَّه يجدُ مشقةً شديدة وبلاءً عظيماً فإذا تمكَّن من الذَّهابِ إلى الخَلاء ، وقدَرَ على دفعِ ذلك الخبيثِ المُؤذي ، وجدَ لذَّةً عظيمة عند دفعه وإرساله ، ولا لذَّةَ هناك إلا راحتُهُ من حَملِ ما يؤذيه حملُهُ . [٦٩/أ]

فعُلِمَ أنَّ هذه اللذَّاتِ إمَّا أن تكون دفعَ الألَم (٣) ، وإمَّا أن تكون لذَّاتٍ ضعيفةً خسيسَةً مُقترنةً بآفاتٍ تربَى مَضرتُها عليها .

وهذا كما يعقُبُ لذَّةَ الوقاعِ من ضعفِ القلب ، وخفَقَانِ الفؤاد ، وضعفِ القُوى البدنيةِ والقلبيةِ ، وضعفِ الأرواحِ ، واستيلاءِ العُفونةِ على كلِّ البَدن ، وإسراع الضَّعفِ والخَورِ إليه ، واستيلاءِ الأخلاطِ عليه لضعف القوَّة عن دفعِها وقهرِها .

وممَّا يدلُّ على أنَّ هذه اللذَّات ليست خَيراتٍ وسَعاداتٍ وكمالاً : أنَّ العُقلاء من جميع الأُمم مُطبقونَ على ذمِّ من كانت هي نهمَتَهُ وشغلَه ومصرفَ همَّتِه وإرادَتِه ، والإزراءِ به وتحقيرِ شأنِه ، وإلحاقِهِ بالبهائم ، ولايُقيمون له وزناً ، ولو كانت خَيراتٍ وكمالاً لكان مَن صرفَ إليها همَّتَه أكمَلَ الناس .

وممَّا يدلُّ على ذلك أنَّ القلبَ الذي قد وجَّه قصدَه وإرادَتَهُ إلى هذه اللذَّات لا يزالُ مُستغرقاً في الهُمومِ والغُموم والأحزانِ ، وما ينالُهُ من اللذَّات في جنبِ هذه الآلام كقَطرةٍ في بحرٍ ، كما قيلَ (٤) :

سُرورُهُ وَزْنُ حَبَّةٍ ... وحُزْنُهُ قِنْطَارُ

---

(١) البيت لأبي إسماعيل الطُغْرائي ، وهو آخر بيت من قصيدته المشهورة بلامية العجم . ينظر : الغيث المسجم في شرح لامية العجم لخليل بن أبيك الصفدي (٤٣٨/٢) ،وبغية الطلب لابن العديم (٢٦٩٤/٦) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (١٨٨/٢) ، وفيها : " رشَّحوك " مكان " هيؤوك " .

(٢) البَرَازُ : المكانُ الفضاءُ من الأرض ، البعيدُ الواسعُ ، ثم أُخذ منه البِرازُ وهو قضاء الحاجة . العين للخيل بن أحمد (٣٦٤/٧) ، ولسان العرب لابن منظور (٣٠٩/٥) .

(٣) في : د ، ص : دفعَ آلام .

(٤) لم أقف عليه .

وإنَّ القلب يجري مجرى مِرآةٍ منصوبةً على جدار ، وذلك الجدارُ مَمَرٌّ لأنواعِ المُشْتَهَيَاتِ ، والمَلْذُوذاتِ ، والمَكروهاتِ ، وكلَّمَا مَرَّ به شيءٌ من ذلك ظهرَ فيه أثرُهُ فإنْ كان محبوباً مُشتَهىً مالَ طبعُه إليه ، فإنْ لم يقدِرْ على تحصيله تألَّم وتعذَّبَ بفقده وإنْ قدَرَ على تحصيله تألَّمَ في طريق الحُصول بالتَّعبِ والمشقةِ ومُنازعة الغير له ويتألَّمُ حالَ حُصوله خوفاً من فِراقِه ، وبعد فِراقِه خوفاً على ذهابِه ، وإنْ كان مكروهاً له ولم يقدِرْ على دفعه تألَّمَ بوجوده ، وإنْ قَدَرَ على دفعه اشتغلَ بدفعِه ففَاتَتْهُ [1] مصلحةٌ راجحةُ الحصول ، فيتألَّمُ لفواتِها .

فعُلمَ أنَّ هذا القلبَ أبداً مُستغرِقٌ في بحار الهُموم والغُموم والأحزان ، وأنَّ نفسَه تضحكُ عليه وتُرَضِّيه بوزنِ ذرةٍ من لذَّتِه ، فيغيبُ بها عن شهودِ القناطِر من أَلَمِه وعذابه ، فإذا حِيلَ بينه وبين تلك اللذة ، ولم يبقَ له إليها سبيلٌ ، تجرَّدَ ذلك الألمُ وأحاط به ، واستولى عليه من كل جهاتِه .

فقل ما شئتَ في حال عبدٍ قد غُيِّبَ عنه سَعْدُهُ وحظوظُهُ وأفراحُه ، وأُحضِرَ شقوتَهُ وهمومَه وغمومَه وأحزانَه .

وبين العبدِ وبين هذه الحالِ أن ينكشفَ الغطاءُ ، ويرتفعَ السِّترُ ، وينجليَ الغُبارُ ويُحصَّلَ ما في الصُّدورِ .

فإذا كانت هذه غايةَ اللذَّات الحَيوانية التي هي غايةُ جمعِ الأموالِ وطلبها ، فما الظَّنُّ بقدْرِ الوسيلةِ ؟

وأمَّا غِنى العلم والإيمان فدائمُ اللذَّةِ ، مُتَّصلُ الفرحةِ ، مُقتَضٍ لأنواعِ المَسرةِ والبَهجةِ ، لايزولُ فيُحْزِن ، ولا يُفارق فيؤلِم ، بل أصحابه كما قال الله تعالى فيهم :

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [2] .

---

(١) في : ص : ففاته .

(٢) يونس :٦٢ .

ومن فضل العلم على المال : أنَّ غني المال يبغض الموت ولقاءَ الله والعلم يُحبِّبُ للعبد لقاء الله

السادسُ والثلاثون : أنَّ غنيَّ المالِ يُبغِضُ الموتَ ولقاءَ الله ، فإنَّه لحُبِّه لماله يكره مُفارقَتَه ، ويُحبُّ بقاءَه ليتمتَّعَ به كما يشهدُ به الواقع .

وأمَّا العلم فإنَّه يُحبِّبُ للعبد لقاءَ ربِّه ، ويُزهِّدُه في هذه الحياةِ النَّكِدَةِ الفانية .

الأغنياء يموت ذكرهم بموتهم ، والعلماء يموتون ويحيى ذكرهم

السابع والثلاثون : أنَّ الأغنيـاء يموت ذكرُهُـم بموتهم ، والعلمـاءُ يموتون ويحيى ذكرُهُم ؛ كما قال أمير المؤمنين في هذا الحديث :

"ماتَ خُزَّانُ الأموال وهم أحيـاءٌ ، والعلماءُ باقـون ما بقي الدَّهرُ "

فخُزَّانُ الأموال أحياءٌ كأمواتٍ ، والعلمـاءُ بعد موتهم أمـواتٌ كأحيـاءٍ .

الغنى غايته أن يزيد في حياة البدن والعلم حياة القلوب والأرواح

الثامنُ والثلاثون : أنّ نسبةَ العلم إلى الرُّوح كنسبة الرُّوحِ إلى البدن ؛ فالرُّوحُ ميِّتَةٌ ؛ حياتُها العلمُ ، كما أنَّ الجسدَ ميِّتٌ ؛ حياتُه بالرُّوحِ ، فالغِنى والمالُ غايته أن يزيدَ في حياةِ البدنِ ، وأمَّا العلمُ فهو حياةُ القلوبِ والأرواحِ ؛ كما تقدَّم تقريرُهُ [(١)] .

العلم زينةُ ملكِ البدن : القلب والمال زينة البدن فقط

التاسـعُ والثلاثون : أنَّ القلبَ مَلِكُ البدنِ ، والعلمَ زينتُه وعُدَّتُه ومالُه ، وبه قِوامُ مُلكِه ، لا بُدَّ له من عَددٍ وعُدَّةٍ ومالٍ وزينةٍ [(٢)] ؛ فالعلمُ هو مَركَبُه وعُدَّتُه وكمالُه .

وأمَّا المالُ فغايته أن يكون زينةً وجمالاً [ للبدنِ إذا أنفقَه في ذلك ، فإذا خزنه ولم ينفقه لم يكنْ زينةً ولا جمَالاً ] [(٣)] ، بل نقصاً ووَبالاً .

ومن المعلـوم أنَّ زينـةَ المَلِـكِ ومـا بـه قِوامُ مُلْكِه أجَلُّ وأفضلُ من زينةِ رعيتِه وجَمالِهم ، فقِوامُ القلبِ بالعلمِ ، كما أنَّ قِوامَ الجسم بالغذاءِ .

أن القدر المقصود من المال ما يقيم العبد ؛ فإذا زاد شغله عن سفره والعلم النافع زيادته زيادة في الزاد

الوجـهُ الأربعـون : أنَّ القَدْرَ المقصودَ من المالِ هو ما يكفي العبدَ ويُقِيمهُ ، ويدفعُ ضرورَتَه حتى يتمكَّن من قضاءِ جهازِهِ ، ومن التَّزوُّدِ لسفرهِ إلى ربه عز وجل ، فإذا زادَ على ذلك شغَلَهُ وقطعَهُ عن السفر ، وعن قضاءِ جهازه وتعبِيَـةِ زادِه ، فكان ضرَرُهُ عليه أكثرَ من مصلحته ، وكلَّما ازدادَ غِناه به ازدادَ تثبُّطاً وتخلُّفاً عن التَّجهُّزِ لِمَا أمامه .

---

(١) ينظر ص : ٣٤٣ .

(٢) في الأصل : " وزينته " والمُثبت من : د ، ص ، وهو الصواب .

(٣) سقط من : ص .

وأمَّا العلمُ النافع فكلَّما ازدادَ منه ازداد في تعبِيَةِ الزَّاد وقضاءِ الجهازِ ، وإعدادِ عُدَّةِ المَسير ، والله الموفق وبه الاستعانةُ ، ولا حول ولا قوة إلا به .

فعُدَّةُ هذا السَّفر هو العلمُ والعملُ ، وعُدَّةُ الإقامة جمعُ الأموال والادِّخار ، ومن أراد شيئاً هيَّأَ له عُدَّتَهُ ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ (١) .

قول علي رضي الله عنه : محبة العلم أو العالم دينٌ يدان بها

قولُهُ رضي الله عنه : " محبةُ العلم أو العالِمِ دِينٌ يُدانُ بها " ؛ لأنَّ العلم مِيراثُ الأنبياءِ والعلماءُ وُرَّاثُـهم ، فمحبةُ العلم وأهلِهِ محبةٌ لِميراثِ الأنبياءِ وورثَتِهم ، وبُغضُ العلمِ وأهلِهِ بغضٌ لمِيراث الأنبياءِ وورثَتِهم .

فمَحبةُ العلم من علامات السَّعادةِ ، وبغضُ العلم من علاماتِ الشَّقاءِ ، وهذا كلُّه إنَّما هو في علم الرُّسلِ (٢) [ الذي جاؤا به ، وورَّثُوه للأمَّة ، لا في كلِّ ما يُسمى عِلماً .

وأيضاً ؛ فإنَّ محبةَ العلمِ تحملُ على تعلُّمِه واتِّبَاعِه ، وذلك هو الدِّينُ ، وبُغضُهُ يَنهى عن تعلُّمِه واتِّبَاعِه ، وذلك هو الشَّقاءُ والضَّلالُ .

وأيضاً ؛ فإنَّ الله سبحانه عليم يُحِبُّ كلَّ عليمٍ ، وإنَّما يضعُ علمَه عند من يُحِبُّهُ ، فمن أحبَّ العلم وأهلَه فقد أحبَّ ما أحبَّ اللهُ ، وذلك مِمَّا يُدان به .

[٧٠/أ]

قول علي رضي الله عنه : العلم يُكسب العالم الطاعة في حياته وجميلَ الأحدوثة بعد مماته

قولُهُ رضي الله عنه :

" العلــمُ يُكسِبُ العالِــمَ الطاعـةَ في حياتِه ، وجميلَ الأحدُوثَةِ / بعد مماته " ؛ يُكسبهُ ذاك ، أي : يجعله كسباً له ، ويُورِثُهُ إيـاه ، ويُقال : كسَبَهُ ذلك عِزَّاً وطاعـةً وأكسَبَهُ لُغتـانِ (٣) ، ومنه حـديـثُ خديجةَ رضي الله عنها (٤) : " إنَّك لتصلُ الرَّحِمَ ، وتصدُقُ

(١) التوبة : ٤٦ .

(٢) في : ص : الرُّشد ، ومن هذا الموضع سقط من : ص ، حتى قوله : بأنَّك إنْ قدَّمتَ رِجْلَكَ عاثِر ، ص (٤٢١) .

(٣) لسان العرب لابن منظور (٧١٦/١) ، وتاج العروس للزبيدي (١٤٦/٤) .

(٤) أم المؤمنين ، خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قُصي القُرشية الأسدية ، زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأول من صدَّقت به مطلقا ، تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة ، وهي أم أولاده غير إبراهيم توفيت قبل الهجرة بثلاثة أعوام . أسد الغابة لابن الأثير (٨١/٦) ، والإصابة لابن حجر (٦٠٠/٧) .

الحديثَ ، وتحمِلُ الكَلَّ ، وتَكسِبُ المَعدومَ " [١] ، رُوي بفتح التَّـاءِ وضَمِّـها ، ومعناهُ : تُكسِبُهُ المالَ والغِنَى ، هذا هو الصَّوابُ ، وقالت طائفةٌ : مَن رواه بضَمِّها فذلك مِن : أكسَبْتُه مالاً وعِزّاً ، ومَن رواه بفتحها ، فمعناه : تَكسِبُ أنت المالَ المَعدومَ بمعرفَتِكَ وحِذْقِكَ بالتِّجارةِ . [٢]

ومَعَاذَ الله من هذا الفَهمِ ، وخديجةُ رضي الله عنها أجلُّ قدْراً من تَكَلُّمِها بهذا في هذا المَقامِ العظيم أن تقولَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أبشِر فوالله لا يُخزيكَ اللهُ إنَّك تَكسِبُ الدِّرهمَ والدِّينارَ ، وتُحسنُ التجارةَ .

ومثلُ هذه التَّحريفات إنَّما تُذْكرُ لئلَّا يُغترَّ بها في تفسيرِ كلامِ الله ورسولِهِ صلى الله عليه وسلم .

والمقصودُ أنَّ قولَـه : " العلـمُ يُكسـبُ العـالِمَ الطاعةَ في حياته " ؛ أي يجعلُه مُطاعاً ؛ لأنَّ الحاجة إلى العلم عامَّةٌ لكل أحدٍ ، المُلوكُ فمَن دونهم ، فكلُّ أحد مُحتاجٍ إلى طاعة العالِمِ ، فإنَّه يأمرُ بطاعة الله ورسوله ، فيجبُ على الخلق طاعتُه ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [٣] .

المراد بقوله تعالى (وأولي الأمر منكم)

وفُسِّرَ " أولي الأمر " بالعلماءِ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما [٤] : " هم الفقهاءُ والعلماءُ أهلُ الدِّين ، الذين يُعلِّمُون الناسَ دينَـهم ، أوجبَ الله تعالى طاعتَهم " [٥] .

---

(١) رواه البخاري (٣) ، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) يُنظر : شرح صحيح مسلم للنووي (٢/٢٠١) ، وفتح الباري لابن حجر (١/٢٤) .

قال النووي في شرح صحيح مسلم (٢/٢٠١) : " وهذا القولُ حكاه القاضي عن ثابتٍ صاحب الدَّلائل ، وهو ضعيفٌ أو غَلطٌ ، وأيُّ معنىً لهذا القول في هذا الموطن ؟ إلا أنَّه يُمكن تصحيحُه بأنْ يُضمَّ إليه زيادةٌ ؛ فيكون معناه : تَكسبُ المال العظيم الذي يعجَزُ عنه غيرُك ، ثمَّ تجودُ به في وجوهِ الخيرِ ، وأبوابِ المَكارمِ ، كما ذكَرَت من حَمْل الكَلِّ ، وصِلةِ الرَّحِم ، وقِرى الضيف ، والإعانة على نوائبِ الحقِّ " وينظر : الدَّلائل في غريب الحديث لقاسم بن ثابت السرقسطي (١/٣٣٣) .

(٣) النساء : ٥٩ .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

(٥) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/٩٨٩) وابن جرير الطبري في تفسيره (٧/١٨٠) ، واللالكائي في شرح أصول

**وهذا قولُ مُجاهدٍ [١] والحسنِ [٢] والضَّحاكِ [٣] ، وإحدى الروايتين عن الأمام أحمد [٤] . وفُسروا بالأمراءِ ؛ وهو قول ابنِ زيدٍ [٥] ، وإحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما [٦] وأحمدَ [٧] .**

**والآية تتناولها جميعا فطاعةُ ولاة الأمر واجبةٌ إذا أمروا بطاعةِ الله ورسولهِ ، وطاعةُ العلماء كذلك ؛ فالعالِم بما جاء به الرسولُ العاملُ به أطوعُ في أهل الأرض من كلِّ أحدٍ ؛ فإذا مات أحيا الله ذكرَهُ ، ونشرَ له في العالَمين حُسنَ الثَّناءِ ، فالعالِم بعد وفاته مَيتٌ وهو حيٌّ بين الناس ، والجاهلُ في حياته حيٌّ وهو مَيتٌ بين الناس ، كما قيل [٨] :**

**وفي الجَهْلِ قبلَ الموتِ موتٌ لأهلِهِ ... وأجسَامُهُم قبلَ القُبورِ قُبورُ**
**وأرواحُهُم في وحشَةٍ مِن جُسُومِهم ... وليس لهم حتَّى النُّشُورِ نُشُورُ**

---

اعتقاد أهل السنة (٨١/١) ، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (٢١٢) .

(١) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٤٦٥/١) ، وابن جرير الطبري في تفسيره (١٧٩/٧) ، وابن أبي حاتم في تفسيره (٩٨٩/٣) ، والآجري في أخلاق العلماء (٢١) ، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٨٠/١) . وتقدَّمت ترجمة مجاهد ص : ٢١٩ .

(٢) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٤٦٤/١) ، وسعيد بن منصور في التفسير (١٢٨٩/٤) ، وابن جرير الطبري في تفسيره (١٨١/٧) ، وابن أبي حاتم في تفسيره (٩٨٩/٣) . وتقدَّمت ترجمة الحسن ص : ٩١ .

(٣) رواه ابن المنذر في تفسيره (٧٦٦/٢) . وتقدَّمت ترجمة الضحاك ص : ٣١٣ .

(٤) ينظر إعلام الموقعين عن رب العالمين للمؤلف (١٠/١) . وتقدَّمت ترجمة الإمام أحمد ص : ١١١ .

(٥) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧٠/٧ ، ١٧٧) .

عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العمري المدني ، مُفسِّرٌ من أتباعِ التابعين ، جمع تفسيرا في مجلدٍ ، وألَّف في الناسخ والمنسوخ ، وقد روى عنه عدد من المفسرين ، منهم : عبد الرزاق بن همام الصنعاني ، وعبد الله بن وهب ، وغيرهما توفي عام : ١٨٢ هـ . سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٤٩/٨) ،

(٦) رواه ابن جرير في تفسيره (١٧٦/١) ، وابن أبي حاتم في تفسيره (٩٨٨/٣) . وتقدَّمت ترجمة ابن عباس ص : ٨٧ .

(٧) وروي هذا عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ينظر : تفسير سعيد بن منصور (١٢٨٧/٤) ، وتفسير ابن جرير الطبري (١٧٦/١) ، وتفسير ابن المنذر (٧٦٤/٢) .

قال المؤلف رحمه الله في إعلام الموقعين (١٠/١) : " والتحقيقُ أنَّ الأمراءَ إنَّما يُطاعون إذا أمروا بمقتضى العِلم فطاعتُهم تبعٌ لطاعة العلماءِ ، فإنَّ الطاعةَ إنَّما تكون في المعروفِ ، وما أوجبَهُ العلمُ ، فكما أنَّ طاعةَ العلماءِ تبعٌ لطاعة الرَّسولِ ؛ فطاعةُ الأمراء تبعٌ لطاعة العلماء ، ولـمَّا كان قيامُ الإسلامِ بطائفتي العلماءِ والأمراءِ ، وكان الناس كلهم لهم تبعاً ، كان صلاحُ العالَمِ بصلاح هاتين الطائفتين ، وفسادُه بفسادِهما ".

(٨) تقدَّم في ص : ١٦٧.

وقال آخرُ (١) :

قد ماتَ قومٌ وما ماتَتْ مَكارِمُهم        وعاشَ قـومٌ وهم في النَّاسِ أمواتُ

وقال آخر (٢) :

وما دامَ ذِكْـرُ العبدِ بالفَضْلِ باقِيَاً        فذلك حَيٌّ وهو في التُّرْبِ هَالكُ

ومن تأمَّلَ أحوالَ أئمَّةِ الإسلام كأئمَّةِ الأحاديثِ والفقه ، كيفَ هم تحت التُّرابِ وهم في العالَمينَ كأنَّهم أحياءٌ بينهم ، لم يفقِدوا منهم إلا صُوَرَهم ، وإلا فذِكْرُهم وحديثُهم والثناءُ عليهم غيرُ مُنقطعٍ ، وهذه الحياةُ حقاً (٣) ، حتى عُدَّ ذلك حيـاةً ثانيـة كما قال المتنبي (٤) :

ذِكْـرُ الفَتى عَيشُـهُ الثَّانِـي وحاجَتُهُ        مـا قاتَـهُ وفُضُولُ العَيشِ أشغَـالُ

قول علي رضي الله عنه : وصنيعة المال تزول بزواله

قولُهُ رضي الله عنه : " وصنيعةُ المالِ تزولُ بزوالِهِ " ؛ يعني : أنَّ كلَّ صنيعةٍ صُنِعت للرجل من أجلِ ماله ؛ مِن إكرامٍ ومحبةٍ وخدمَةٍ وقضاءِ حوائجِ وتقديمٍ واحترامٍ وتَولِيَةٍ وغيرِ ذلك ؛ فإنَّها إنَّما هي مُراعاةٌ لمالِه ، فإذا زالَ ماله وفارقَه زالت تلك الصَّنائع كلُّها حتى إنَّه ربما لا يُسَلِّمُ عليه مَن كان يدأبُ في خدمَتِهِ ويسعى في مصالِحهِ .

وقد أكثرَ الناسُ في هذا المعنى في أشعَارِهم وكلامِهم ، وفي مثل قولِهم : " مَن ودَّكَ لأمرٍ مَلَّكَ عندَ انقضَائِهِ " (٥) ، قال بعضُ العرب (٦) :

وكانـوا بني عَمِّـي يقولـون مَرحَبَـاً        فلمَّـا رأَوْنِـي مُـعْـسِـراً ماتَ مَرْحَـبُ

(١) العقود اللؤلوية لأبي الحسن الخزرجي (٢١٩/١) ، وزهر الأكم لليوسي (٣٣٢/١) .

(٢) لم أقف عليه .

(٣) في : د : وهي هذه الحياة حقًّا .

(٤) ديوان المتنبي (١٩١) .

(٥) تقدم ص : ٥٨ .

(٦) نسبه ابن حبان البستي في روضة العقلاء (٢٢٦) إلى محمد بن خلف التيمي ، ومن غير نسبة في : عيون الأخبار لابن قتيبة (٣٤٧/١) ، والتذكرة الحمدونية لابن حمدون (٢٩٣/٣) ، والمستطرف للأبشيهي (٢٩٣) .

ومن هذا ما قيل : " إذا أكرمَك الناسُ لمال أو سلطان فلا يُعجبنَّك ذلك ؛ فإنَّ زوالَ الكرامةِ بزوالهما ، ولكن ليُعجِبنَّك إن أكرمُوك لعلمٍ أو دين " [١] .

وهذا أمرٌ لا يُنكرُ في الناس ، حتى إنَّهم ليُكرمون الرجلَ لثيابهِ ، فإذا نزَعها لم يرَ منهم تلك الكَرامَةَ وهو هو !

قال مالكٌ [٢] : " بلغني أنَّ أبا هريرة رضي الله عنه [٣] دُعِـيَ إلى وليمةٍ فأتى ، فحُجِبَ فرجعَ فلبسَ غيرَ تلك الثيابِ فأُدخِلَ ، فلمَّا وُضعَ الطعـامُ أدخل كُمَّهُ في الطعام فعُوتِبَ في ذلك ، فقال : إنَّ هذه الثيابَ هي التي أُدْخِلَتْ ، فهي تأكُلُ " . حكاه ابنُ مُزَينِ الطُّلَيْطُلي في " كتابه " [٤] .

وهذا بخلاف صنيعةِ العلمِ ؛ فإنَّها لا تزولُ أبداً ، بل كلَّمَا لها في زيادةٍ ، ما لم يُسلب ذلك العالِمُ علمَهُ .

صنيعة العلم والدين أعظم من صنيعة المال من وجوه

وصنيعةُ العلم والدِّين أعظمُ من صنيعةِ المال ؛ لأنَّها تكونُ بالقلبِ واللسانِ والجَوارحِ فهي صـادرةٌ عن حُبٍّ وإكـرامٍ لأجـلِّ مـا أودَعَـهُ الله تعالى أيـاه من علمِهِ ، وفضَّلَهُ به على غيره .

وأيضـاً ؛ فصنيعةُ العلـم تابعـةٌ لنفسِ العالم وذاتِـهِ ، وصنيعةُ المـال تابعـةٌ لمالـهِ المُنفصِلِ عنه .

وأيضـاً ؛ فصنيعةُ المال صنيعةُ معاوَضةٍ ، وصنيعةُ العلم والدِّين صنيعةُ حُبٍّ وتقرُّبٍ وديانةٍ .

---

(١) من كلام ابن المقفع في الأدب الكبير (١٢٤) ، ونسب إليه كما في عيون الأخبار لابن قتيبة (١٣٧/٢) ، ونثر الدُّر للآبي (١٥٠/٤) ، وسراج الملوك للطرطوشي (٦٣) .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٨ .

(٣) تقدَّمت ترجمته ص : ٦٤ .

(٤) قد تقدم في ص : ١١٩ نقلُ المؤلف رحمه الله عن تفسير ابن مُزين ، ويعني به : تفسير موطأ الإمام مالك ، ولعله يقصده هنا أيضا ، وقد تقدَّمت هناك ترجمة ابن مُزين .

وقد ذكر قصة أبي هريرة رضي الله عنه محمدُ بن أحمد بن رشد في المستخرجة المطبوعة مع البيان والتحصيل (٥٥٠/١٧) في رسمِ ( طَلْقِ بن حَبيب ) .

وأيضاً ؛ فصنيعةُ المال تكونُ مع البَرِّ والفاجرِ ، والمؤمنِ والكافرِ ، وأمَّا صنيعةُ العلمِ والدِّينِ فلا تكون إلا مع أهلِ ذلك .

وقد يُرادُ من هذا أيضاً معنىً آخرَ ؛ وهو أنَّ مَن اصطَنَعْتَ عنده صنيعةً بمالك إذا زالَ ذلك المالُ وفارقَه عُدِمَتْ صنيعَتُك عنده ، وأمَّا مَن اصطَنَعْتَ إليه صنيعةَ علمٍ وهُدىً فإنَّ تلك الصنيعةَ لا تُفارقُه أبداً ، بل تُرى في كلِّ وقتٍ كأنَّك أسدَيتها إليه حينئذٍ .

قول علي رضي الله عنه : مات خُزَّان الأموال وهم أحياء

قولُهُ رضي الله عنه : " مات خُزَّانُ الأموالِ وهم أحياءٌ " ؛ قد تقدَّمَ بيانُه (١) .

وكذا قولُهُ رضي الله عنه : " والعلماءُ باقون ما بقيَ الدَّهرُ " .

قوله رضي الله عنه : أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة

وقولُهُ رضي الله عنه : " أعيانُهم مفقودةٌ ، وأمثالهم في القلوبِ موجودةٌ " ؛ المُرادُ بـ " أمثالِهم " صورُهُم العِلميَّةُ ، ووجُودُهم المِثاليُّ ، أي : وإنْ فُقِدَتْ ذواتُهم فصُورُهم وأمثالُهُم في القلوب لا تُفارقها ، وهذا هو الموجودُ الذِّهنيُّ العَلميُّ ؛ لأنَّ محبةَ الناس لهم ، واقتداءَهُم بهم ، وانتفاعَهُم بعُلومِهم ، يُوجبُ أنْ لا يزالوا نُصْبَ عُيونِهم ، وقبْلَةَ قلوبِهم ، فهم موجُودون معهم ، وحاضرون عندهم ، وإن غابت عنهم أعيانُهم ، كما قيل (٢) :

ومِن عَجَبٍ أنِّي أُحِنُّ إليهمُ ... وأسألُ عنهُمْ مَن لَقيتُ وهُم مَعِي
[٧١/أ] / وتطْلُبُهم عَيْني وهُم في سَوادِها ... ويشْتَاقُهم قلْبي وهُم بين أضلُعي

وقال آخرُ (٣) :

ومِن عَجَبٍ أنْ يشكُوَ البُعدَ عاشِقٌ ... وهل غَابَ عن قَلبِ المُحِبِّ حَبيبُ
خيالُكَ في عَيني وذِكْرُكَ في فَمِي ... ومَثْواكَ في قلبِي فأينَ تَغِيبُ

---

(١) في ص : ٤١٣ .

(٢) أورده ياقوت الحموي في معجم البلدان (٢٠٢/١) ، وابن أبي حجلة في ديوان الصبابة (١٠/١) ، وداود الأنطاكي في تزيين الأسواق (١٢) من غير نسبة .

(٣) أورد البيت الثاني ياقوت الحموي في معجم الأدباء (١١٩٤/٣) ، ونسبه لأبي الحكم ابن غلندو الإشبيلي وفيه : " خيالك في وهمي ..." وأورده ابن أبي حجلة في ديوان الصبابة (١٠/١) ، والأبشيهي في المستطرف (٤٠) من غير نسبة .

قول علي رضي الله عنه : هاهٍ إن ها هنا علما

قولُهُ رضي الله عنه : " هاهٍ ؛ إنَّ ها هنا عِلْماً ، وأشارَ إلى صدرِهِ " ؛ يدلُّ على جوازِ إخبارِ الرجلِ بما عنده من العلمِ والخيرِ ليُقتَبَس منه ، وليُنتفعَ به ، ومنه قولُ يوسفَ الصِّديق صلى الله عليه وسلم : ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [١] .

فمَن أخبرَ عن نفسِه بمثلِ ذلك لِيُكثِّرَ به ما يُحبُّهُ الله ورسولُه من الخير فهو محمودٌ ، ومَن أخبرَ بذلك ليَتَكثَّرَ به عند الناس ويتعَظَّمَ ، فهذا [٢] يُجازيهِ الله بمقتِ الناسِ له ، وصِغَرِهِ في أعيُنِهم ، والأولُ يُكَثِّرُهُ في قلوبِهم وعُيونِهم ، وإنَّما الأعمال بالنِّيَّاتِ .

وكذلك إذا أثنى الرجلُ على نفسِه لِيَخْلُصَ بذلك من مظلمَةٍ وشرٍّ ، أو ليستَوفي بذلك حقاً له يحتاجُ فيه إلى التَّعريف بحالِهِ ؛ أو ليقطعَ عنه أطماعَ السِّفلَةِ فيه ، أو عند خطبتِهِ إلى مَن لا يَعرفُ حالَه [٣] .

---

(١) يوسف : ٥٥ .

قال المؤلف رحمه الله عن هذه الآية في مدارج السالكين (٨٦/٣) : " فإخبارُهُ عن نفسِه بذلك لمَّا كان مُتضمِّناً لمَصلحةٍ تعود على العزيزِ وعلى الأمةِ وعلى نفسِه ، كان حَسَناً إذ لم يقصد به الفخرَ عليهم ، فمصدرُ الكلمةِ والحاملُ عليها يُحَسِّنُها ويُهَجِّنُها ، وصورَتُهُ واحدةٌ " .

(٢) في : ح : وهذا .

(٣) قال الإمام النووي رحمه الله في الأذكار (٢٧٨-٢٧٩) : " اعلم أنَّ ذكرَ محاسِنَ نفسِه ضربان : مذمومٌ ، ومحبوبٌ فالمَذموم أن يذكرَهُ للافتخارِ ، وإظهارِ الارتفاعِ والتَّميز على الأقرانِ ، وشبهِ ذلك ، والمحبوبُ أن يكون فيه مصلحةٌ دينيةٌ ، وذلك بأن يكون آمِراً بمعروفٍ ، أو ناهيا عن منكرٍ ، أو ناصِحاً ، أو مُشيراً بمصلحة ، أو مُعلِّماً أو مُؤدباً ، أو واعِظاً ، أو مُذكِّراً ، أو مُصلِحاً بين اثنين ، أو يدفع عن نفسِه شرّاً ، أو نحو ذلك ؛ فيذكرُ محاسِنه ناوياً بذلك أن يكونَ هذا أقربَ إلى قَبولِ قولِه ، واعتمادِ ما يذكُره ، أو أنَّ هذا الكلامَ الذي أقولُه لا تجدونَه عند غيري ؛ فاحتفظوا به ، أو نحو ذلك ، وقد جاءَ في هذا المعنى ما لا يُحصى من النصوص ؛ كقول النبي صلى الله عليه وسلم : " أنا النَّبيُّ لا كذِب ". وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى تعليقا على إخبارِ عثمانَ رضي الله عنه عن نفسه لمَّا خرجَ عليه الخوارجُ وقدحوا فيه ، ثمَّ درأً عن نفسِه ، وذكرَ محاسنَها ، وأخبرَهُم بأعماله الصَّالِحةِ ؛ كتجهيزِ جيشِ العُسرة ، وحفره لبئر رُومَة ، وغير ذلك ، قال الحافظ : " وفيها جوازُ تحدُّثِ الرجل بمناقِبه عند الاحتياج إلى ذلك ؛ لدفع مَضرَّةٍ ، أو تحصيلِ مَنفعةٍ ، وإنَّما يُكره ذلك عند المُفاخرةِ والمُكاثرةِ والعجب " فتح الباري (٤٠٨/٥) .

والأحسنُ في هذا أن يُوَكِّلَ من يُعَرِّفُ به وبحالِه ؛ فإنَّ لسانَ ثناءِ المرءِ على نفسِه قصيرٌ ، وهو في الغالب مذمومٌ لِما يقترنُ به من الفخر والتَّعاظم .

أصناف حملة العلم الذين لا يصلحون لحمله

ثم ذكرَ أصنافَ حمَلةِ العلم الذين لا يصلُحون لحمْلِه ، وهم أربعةٌ :

أحدهم : من أوتي ذكاءً لكنه لم يؤت زكاءً

أحدُهم مَن ليس هو بمأمونٍ عليه ، وهو الذي أُوتِيَ ذكاءً وحفظاً ، ولكنْ مع ذلك لم يُؤتَ زَكَاءً ، فهو يتَّخِذُ العلمَ الذي هو آلةُ الدِّينِ آلةَ الدنيا ، يستَجْلِبُها به ، ويتوسَّلُ بالعلم إليها ، ويجعلُ البضاعَةَ التي هي مُتَّجَرُ الآخرةِ مُتَّجَرَ الدنيا ، وهذا غيرُ أمينٍ على ما حمَلَهُ من العلم ، ولا يجعَلُهُ الله إماماً فيه قطُّ ؛ فإنَّ الأمينَ هو الذي لا غرَضَ له ، ولا إرادةَ لنفسهِ إلا اتِّباعُ الحقِّ ومُوافَقتهُ ، فلا يدعو إلى إقامةِ رياستِه ولا دنياهُ ، وهذا الذي قد اتَّخَذَ بضاعَةَ الآخرةِ ومُتَّجَرَها مُتَّجَراً للدنيا قد خانَ الله ، وخانَ عبادَه ؛ فلهذا قالَ رضي الله عنه : " غيرَ مأمُونٍ عليهِ " .

قول علي رضي الله عنه : يستظهر بحجج الله على كتابه

وقولُهُ رضي الله عنه : " يستَظهِرُ بحُجَجِ اللهِ على كتابهِ ، وبنعمِهِ على عبادِه " ؛ هذه صفةُ هذا الخائن إذا أُنْعِمَ عليه استظهرَ بتلك النِّعمةِ على الناس ، وإذا تعلَّم عِلماً استظهرَ به على كتابِ اللهِ .

ومعنى استظهاره بالعلم على كتابِ الله : تحكيمُه عليه وتقديمُه وإقامَتُه دونهُ .

وهذه حالُ كثيرٍ ممَّن يحصلُ له علمٌ ؛ فإنَّه يستغني به ويستَظهِرُهُ ، ويُحَكِّمُهُ ، ويجعلُ كتابَ الله تَبعاً له ، يقال : استظهـرَ فلانٌ على كذا بكذا ، أي ظهرَ عليه به وتقدَّمَ وجعلَه وراءَ ظهْرِهِ.

وليست هذه حالُ العلمــاءِ ؛ فإنَّ العالِـمَ حقاً يستظهرُ بكتاب الله على كلِّ ما سِواه فيُقَدِّمَهُ ويُحَكِّمَهُ ، ويجعلُهُ عِياراً على غيره ، مُهيمِناً ، كما جعله الله تعالى كذلك .

فالمُستظِهرُ به مُوفَّقٌ سعيدٌ ، والمُستظِهرُ عليه مَخذولٌ شَقيٌّ ، فمن استظهَرَ على الشيءِ فَقد جعلَه خلفَ ظهرَه مُقدِّماً عليه ما استظهرَ به [1] .

(١) قال في لسان العرب (٤/٥٢٢) : " وظَهَرَ بحاجةِ الرجل ، وظَهَّرَها ، وأَظْهَـرها : جعلها بظَهْرٍ ، واستخفَّ بها ولم يَخِفَّ لها ، ومعنى هذا الكلام : أنه جعل حاجَتَه وراءَ ظَهْرِهِ تهاوناً بها ، كأَنَّه أَزالها ولم يلتفتْ إليها ، وجعلها ظِهْرِيَّةً أي خَلْفَ ظَهْر ، كقوله تعالى : ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران:١٨٧] " .

وهذه حالُ مَن اشتغلَ بغير كتابِ الله عنهُ ، واكتفى بغيره ، وقدَّمَ غيرَهُ وأخَّرَهُ .

الصنف الثاني ضعيف البصيرة فيه لكنه منقاد لأهله

الصِّنفُ الثاني مِن حَملةِ العلمِ : المُنقادُ له ، الذي لم يُثْلِجْ له صَدْرهُ ، ولم يطمئنَّ به قلبُهُ ، بل هو ضعيفُ البَصيرةِ فيه ، لكنَّه مُنقادٌ لأهلهِ .

وهذه حالُ أتْبَاعِ الحقِّ من مُقلِّديهم ، وهؤلاء وإن كانوا على سبيلِ نجاةٍ ، فليسوا من دُعاة الدِّين ، وإنَّما هم من مُكثِّري سوادِ الجيشِ ، لا مِن أُمرائِه وفُرسانِه .

والمُنقادُ مُنفعلٌ مِن : قادَهُ يقُودُهُ ، وهو مُطاوِعُ الثُّلاثي ، وأصلُهُ : مُنْقَيِدٌ ؛ كمُكْتَسِبٌ ثمَّ أُعِلَّت الياءُ أَلِفَاً لحَركتِها بعد فتحةٍ ، فصار مُنْقَاد ؛ تقولُ : قُدْتُهُ فانقادَ ، أي : لم يمْتَنِع .

والأحنـــاءُ : جمعُ حِنْو ، بوزن عِلْمٍ ، وهي الجوانبُ والنَّواحي (١) ، والعربُ تقولُ : ازْجُرْ أحنَاءَ طَيرِكَ ، أي : أمسِك نواحي خِفَّتِكَ وطَيْشِكَ يميناً وشمالاً ، وأماماً وخَلْفاً .
قال لَبيدٌ (٢) :

فقلتُ ازدَجِـرْ أحنَـاءَ طيرِكَ واعْـلَمَنْ ... بأنَّـكَ إنْ قَـدَّمـتَ رِجْلَـكَ عَـاثِـرُ (٣) ] (٤)

والطيرُ هنا : الخِفَّةُ والطَّيْشُ (٥) .

قول علي رضي الله عنه : ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة

وقولُهُ رضي الله عنه : " ينقدحُ الشكُّ في قلبهِ بأولِ عارضٍ من شُبهةٍ " ، هذا لضعفِ علْمِه ، وقلَّةِ بصيرَتِه إذا ورَدَتْ على قلبِه أدنى شُبهة قدَحَتْ فيه الشَّك والـرَّيبَ بخلافِ الرَّاسـخِ في العلـم ؛ لو ورَدَتْ عليه من الشُّبَهِ بعددِ أمواجِ البحرِ ما أزالتْ

---

(١) تهذيب اللغة للأزهري (١٦٢/٥) ، ولسان العرب لابن منظور (٢٠٢/١٤) .

(٢) لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة العامري الجعفري ، أبو عقيل الشاعر المشهور ، قال الشعر في الجاهلية دهراً ثم أسلم ، وهو أحدُ أصحاب المعلقات ، صاحب القصيدة المشهورة ، والتي فيها :

ألا كلُّ شيءٍ مَا خلا اللهَ باطِـلُ ... وكـلُّ نعيـــمٍ لا محـــالـــةَ زائِـــــلُ

توفي عام : ٤١ هـ . الاستيعاب لابن عبد البر (١٣٣٥/٣) ، والإصابة لابن حجر (٥٠٠/٥) .

(٣) ديوان لبيد (٤٣) .

(٤) إلى هنا انتهى السقط من نسخة : ص ، وقد كانت بداية السقط في الصفحة ٤١٣ .

(٥) الصحاح للجوهري (٧٢٨/٢) ، ولسان العرب لابن منظور (٥٠٨/٤) .

يقينَهُ ولا قدحتْ فيه شكّاً ؛ لأنَّه قد رسَخَ في العلمِ ؛ فلا تستَفزُّه الشُّبهاتُ ، بل إذا وردتْ عليه رَدَّها حَرَسُ العلمِ وجيشُه مغلولةً مغلوبةً .

والشُّبهة : واردٌ يردُ على القلب يحُولُ بينه وبين انكشاف الحقِّ له ، فمتى باشرَ القلبُ حقيقةَ العلمِ لم تُؤثِّر تلك الشُّبهةُ فيه ، بل يقوى علمُه ويقينُه بردِّها ومعرفةِ بطلانِها ، ومتى لم يباشرْ حقيقةَ العلمِ بالحقِّ قلبُهُ قدَحَت فيه الشكَّ بأولِ وهلَةٍ ، فإنْ تداركها وإلا تتابَعَتْ على قلبِه أمثالُها ، حتى يصيرَ شاكّاً مُرتاباً .

يتوارد القلب جيشان من الباطل : الشهوات والشبهات

والقلبُ يتواردُهُ جيشانِ من الباطلِ [1] : جيشُ شهواتِ الغَيِّ ،وجيشُ شبهاتِ الباطلِ فأيَّما قلبٌ صَغَا إليها ، وركن إليها تشَرَّبَها وامتلأَ بها ؛ فيَنضحُ لسانُه وجوارحُه بمُوجَبِها فإن أُشرِبَ شُبهات الباطلِ تفجَّرتْ على لسانه الشُّكوكُ والشُّبهاتُ والإيرادَاتُ ، فيظنُّ الجاهلُ أنَّ ذلك لِسَعَةِ علمِه ، وإنَّما ذلك من عدمِ علمهِ ويقينِهِ .

وقال لي شيخ الإسلامِ رضي الله عنه [2] . وقد جعلتُ أُورِدُ عليه إيراداً بعدَ إيرادٍ : " لا تجعلْ قلبَكَ للإيراداتِ والشُّبهاتِ مثلَ السِّفِنْجَة ، فيتشَرَّبَها ، فلا ينضحَ إلا بها ولكن اجعله كالزُّجاجةِ المُصمَتةِ تمرُّ الشبهاتُ بظاهِرِها ولا تستقِرَّ فيها ، فيراها بصفائِه ويدفعُها بصلابَتِهِ ، وإلا فإذا أَشْرَبْتَ قلبَك كلَّ شُبهةٍ تمرُّ عليك صار مَقرّاً للشُّبهاتِ " أو كما قالَ ، فما أعلمُ أنِّي انتفعتُ بوصيةٍ في دفعِ الشبهات كانتفاعي بذلك .

وإنَّما سُمِّيَتِ الشبهةُ شُبهةً لاشتباهِ الحقِّ بالباطلِ فيها ؛ فإنَّها تَلْبَسُ ثوبَ الحقِّ على جسمِ الباطلِ ، وأكثرُ الناس أصحابُ حُسْنِ ظاهرٍ ، فينظرُ النَّاظر فيما أُلْبِسَتْهُ مِن

---

(١) تقدَّم كلام المؤلف رحمه الله عن هذين المرضين في الوجه السابع والثمانين ص ٣٤١ : " أنَّ القَلبَ يعترضُهُ مَرضان يتواردانِ عليه ، إذا استحكما فيه كانَ هلاكُهُ وموتُهُ ، وهما مرضُ الشهواتِ ومرضُ الشبهات ؛ هذان أصلُ داءِ الخَلقِ إلاّ مَنْ عافاهُ اللهُ " . وقال في إغاثة اللهفان (١٦٥/٢) : " والفتنةُ نوعان : فتنةُ الشُّبهاتِ وهي أعظمُ الفتنَتَين وفتنةُ الشَّهواتِ ، وقد يجتمعان للعبد ، وقد ينفردُ بإحداهما ، ففتنةُ الشُّبهاتِ من ضعف البصيرةِ وقلَّةِ العلم ولا سيما إذا اقترن بذلك فسادُ القصدِ ، وحُصولُ الهوى ؛ فهنالك الفتنة العظمى والمُصيبةُ الكبرى ، فقل ما شئتَ في ضَلالِ سيءِ القصدِ ، الحاكمِ عليه الهوى لا الهُدى ، مع ضعفِ بصيرتِهِ وقلةِ علمِه بما بعثَ اللهُ به رسولَهُ ".

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٦٦ .

اللباسِ فيعتقدُ صحَّتَها .

وأمَّا صاحبُ العلمِ واليقين ؛ فإنَّه لا يغترُّ بذلك بل يُجاوزُ نظرَهُ إلى باطنِها وما تحتَ لِباسِها ، فينكشفُ له حقيقتُها ، ومثالُ هذا الدِّرهمُ الزَّائِفُ فإنَّه يغترُّ به الجاهلُ بالنَّقدِ نظراً إلى ما عليه من لباس الفضَّةِ ، والنَّاقدُ البصيرُ يُجاوزُ نظَرَهُ إلى ما وراءَ ذلك ؛ فيطَّلعُ على زَيفهِ .

اللفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضة على الدرهم الزائف

فاللفظُ الحَسنُ الفصيحُ هو للشبهة بمنزلةِ اللباس من الفضَّة على الدِّرهم الزَّائِف والمعنى كالنُّحاس الذي تحته .

وكم قد قَتَلَ هذا الاغترارُ من خَلْقٍ لا يُحصيهم إلا اللهُ ! [١] .

وإذا تأملَّ العاقِلُ الفَطِنُ هذا القدْرَ وتدبَّرَهُ رأى أكثرَ الناسِ يَقْبَلُ المَذهبَ والمَقالةَ بلفظٍ ، ويرُدُّها بعينها بلفظٍ آخرَ !

/ وقد رأيتُ أنا مِنْ هذا في كُتبِ الناسِ ما شاء الله . [٧٢/أ]

وكم قد رُدَّ مِن الحقِّ بتشنيعِه بلباسٍ من اللفظِ قبيحٍ !

وفي مِثل هذا قال أئمةُ السُّنة ـ منهم الإمام أحمدُ [٢] وغيرُه ـ : " لا نُزِيلُ عن الله صفةً

---

(١) قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : " الشُّبهُ الباطلة ، والمقالاتُ الفاسدة تختلفُ نتائِجُها وثمراتُها باختلافِ الناس ؛ فتُحدثُ لأناسٍ الجهلَ والضلال ، ولأناس الشَّك والارتياب ، ولأناسٍ زيادةَ العلم واليقين .

أمَّا الذين تلتبسُ عليهم ، ويعتقدونَها على عِلاَّتِها ، أو يُقلدون فيها غيرَهم من غيرِ معرفةٍ بها ، بل يأخذُونَها مُسلمةً ؛ فهؤلاء يَضلِّون ويبقون في جهلِهم يعمهون ، وهم يظنون أنَّهم يعلمون ويتَّبِعون الحق ، وما أكثر هذا الصِّنف ! فدهماءُ أهلُ الباطلِ كلهم من هذا البابِ ؛ ضُلَّالٌ مُقلدون . وأمَّا الذين تُحدِثُ لهم الشكَّ ؛ فهم الحُذَّاق ممن عَرَفَ الشُّبهَ ، وميَّزَ ما هي عليه من التَّناقض والفساد ، ولم يكن عنده من البصيرةِ في الحق ما يرجعُ إليه ؛ إنَّهم يبقون في شك واضطرابٍ ، يَرون فسادَها وتناقُضَها ، ولا يدرون أين يُوجهون.

وأمَّا الذين عندهم بصيرةٌ وعلمٌ بالحق ؛ فهؤلاء يزدادون علماً ويقيناً وبصيرةً ؛ إذا رأوا ما عارضَ الحقَّ من الشُّبهِ ، واتَّضحَ لهم فسادَها ، ورأوا الحقَّ مُحكَماً مُنتظِماً ، فإنَّ الضدَّ يظهرُ حسنُهُ بضده " مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (٢٢٩) .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ١١١ .

**من صفاته لأجلِ شناعَةٍ شُنِّعَت " (١) ، فهؤلاءِ الجهمية (٢) يُسمون إثباتَ صفاتِ الكمالِ لله ـ من حياتِه ، وعلْمِه ، وكلامِته ، وسمعِته ، وبصرِه ، وسائِرِ ما وَصَفَ به نفسَهُ ـ تشبيهاً وتجسيماً ، ومن أثبتَ ذلك مُشبِّهَاً (٣) !**

**فلا يَنْفِرُ من هذا المعنى الحق لأجلِ هذه التَّسميةِ الباطلةِ إلا العقولُ الصَّغيرةُ القاصرةُ خفافيشُ البصائِر .**

أهل النحل والمقالات يكسون نحلتهم أحسن الألفاظ ويجعلون لمخالفيهم أقبحها

**وكلُّ أهلِ نِحْلةٍ ومَقَالَةٍ يكسونَ نِحلَتَهم ومقالَتَهم أحسنَ ما يقدرون عليه من الألفاظِ ، ومقالَةَ مُخالفيهم أقبحَ ما يقدرونَ عليه من الألفاظِ .**

**ومن رزقه الله بصيرةً فهو يكشفُ به حقيقةَ ما تحت تلك الألفاظِ من الحقِّ والباطلِ ، ولا يغْتَرُّ باللفظِ (٤) ، كما قيلَ في هذا المعنى (٥) :**

**تقولُ هذا جَنَى النَّحْلِ تَمدَحُهُ ... وإنْ تشَأْ قلتَ ذا قَيءُ الزَّنَابيرِ**
**مَدحاً وذَمَّاً وما جَاوَزتَ وصْفَهُما ... والحَقُّ قدْ يَعتَرِيه سُوءُ تَعْبِيرِ**

**فإذا أردتَ الاطِّلاعَ على كُنْهِ المعنى : هل هو حقٌّ أو باطلٌ ؟ فجرِّدْه من لباسِ العبارةِ وجرِّدْ قلبَكَ عن النُّفرَةِ والمَيل ، ثم أعطِ النَّظرَ حقَّهُ ، ناظِراً بعين الإنصافِ ، ولا تكن مِمَّن ينظرُ في مقالةِ أصحابِه ومَن يُحسِنُ ظنَّهُ نظراً تامَّاً بكلِّ قلبه ، ثم ينظرُ في**

---

(١) ذمّ التأويل لابن قدامة (٢٢) . وينظر : بيان تلبيس الجهمية لشيخ الإسلام (٦٢٤/٢) ، ودرء تعارض العقل والنقل له أيضاً (٣١/٢) ، واجتماع الجيوش الإسلامية للمؤلف (٢١٢) ، وكتاب المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة جمع عبد الإله بن سلمان الأحمدي (٢٧٧/١) .

(٢) تقدَّم التعريف بهم ص : ٢٥٥ .

(٣) المُشبِّهة : هم مَن شبَّهوا الله سبحانه وتعالى بخلقه ، فشبهوا صفات الخالق بصفات المخلوق ؛ فقالوا : له يد كيد المخلوق ، وقدم كقدمه ... ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وقد وقع التشبيه من عدة طوائف ؛ كالسبئية أتباع ابن سبأ الذين شبهوا عليا رضي الله عنه بذات الله ، والبيانية أتباع بيان بن سمعان ، والمُغيرية أتباع المغيرة بن سعيد العجلي ، والمنصورية أتباع أبي منصور العجلي ، وغير ذلك . ينظر : الفرق بين الفرق للبغدادي (٢٢٥) ، والملل والنحل للشهرستاني (١٠٠/١) .

(٤) قال المؤلف رحمه الله عمّن يلبس الحق لباس الباطل أنَّهم " بمنزلةِ من سمِعَ أنَّ في العسل شفاءً ، ولمْ يرَهُ ؛ فسألَ عنه فقيل له : مائعٌ ، رقيقٌ ، أصفرٌ ، يُشبِهُ العذرةَ ، تتقيَّأهُ الزَّنابير ، ومن لم يعرفِ العسلَ يَنفِرُ عنه بهذا التَّعريف ، ومن عرَفهُ وذاقَه لم يزده هذا التَّعريف عنده إلا محبةً له ، ورغبةً فيه " الصواعق المرسلة (٩٤٣/٣) .

(٥) لابن الرومي ، ديوانه (١٦٣/٢) .

مقالةِ خُصومهِ ومن يسيءُ ظنَّهُ به كنظَرَ الشَّزَرِ والمُلاحظَةِ ، فالنَّاظرُ بعين العداوة يرى المَحاسنَ مساوئَ ، والنَّاظرُ بعين المَحبَّةِ عكسُهُ .

وما سلِمَ مِن هذا إلا مَن أرادَ الله كرامَتَهُ وارتضاهُ لقَبُولِ الحقِّ ، وقد قيل (١) :

وعينُ الرِّضَا عن كلِّ عَيبٍ كَليلَةٌ ‏ ‏ كما أنَّ عينَ السُّخْطِ تُبْدِي المسَاويا

وقال آخرُ (٢) :

نَظَرُوا بعينِ عَدَاوَةٍ لو أنَّها ‏ ‏ عينُ الرِّضَا لاسْتَحْسَنُوا ما استَقْبَحوا

فإذا كان هذا في نظرِ العينِ الذي يُدركُ المَحسوساتِ ، ولا يتمكن من المُكابرةِ فيها ، فما الظنُّ بنظرِ القلبِ الذي يُدركُ المعانيَ التي هي عُرْضَةُ المُكابرةِ ؟

والله المستعان على معرفةِ الحقِّ وقَبولِهِ ، وردِّ الباطلِ وعدم الاغترارِ به .

قول علي رضي الله عنه : بأوَّل عارض من شبهة

وقولُهُ رضي الله عنه : "بأوَّلِ عَارضٍ من شُبهَةٍ " ؛ هذا دليلُ ضعفِ عقلِهِ ومعرفتهِ ، إذ تُؤثرُ فيه البَدَوَاتُ (٣) ، وتستَفزُّه أوائِلُ الأمورِ ، بخلاف الثابتِ التَّامِ العاقلِ ، فإنَّه لا تستفزُّهُ البَدَوَاتُ ولا تُزعِجهُ وتُقْلِقُله ؛ فإنَّ الباطلَ له دهشةٌ وروعةٌ في أوَّلِه ، فإذا ثبتَ له القلبُ رُدَّ على عَقبيهِ (٤) .

والله يحبُّ من عبدِه الحِلمَ (٥) والأناة ، فلا يعْجَلْ ، بل يتثبَّت حتى يعلمَ ويستَيقِنَ ما ورَدَ عليه ، ولا يعجلْ بأمرٍ من قبلِ استحكامِه ، فالعجَلةُ والطَّيشُ من الشيطان (١) .

---

(١) القائل : عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، عيون الأخبار لابن قتيبة (١٦/٣) ، وثمار القلوب للثعالبي (٣٢٧) .

(٢) هو : الشريف الرضي ديوانه (٣٢٢/١) .

(٣) هي : الآراءُ الظاهرة الجديدة ، وواحدةُ البَدَوَات : بَدَاةٌ ، يقال : بَدَاةٌ وبَدَواتٌ ، كما يقالُ : قَطاةٌ وقَطَواتٌ . تهذيب اللغة للأزهري (١٤٢/١٤) ، ولسان العرب لابن منظور (٦٥/١٤) .

(٤) قال المؤلف رحمه الله في إعلام الموقعين (٢٠٠/٤) : " فالحِلمُ زينةُ العلم وبهاؤُه وجَمالُه ، وضدّهُ الطَّيشُ والعَجلةُ والحِدَّةُ والتَّسرع وعدم الثَّبات ، فالحليمُ لا تستفزُّهُ البَدَوَات ، ولا يستخفُّه الذين لا يعلمون ، ولا يُقلقُه أهلُ الطَّيش والخِفَّة والجهلِ ، بل هو وَقورٌ ثابتٌ ذو أناةٍ ، يملك نفسَه عند وُرودِ أوائل الأمورِ عليه ، ولا تملكه أوائِلُها وملاحظتهُ للعواقب تمنَعه من أن تستخفه دواعي الغضبِ والشَّهوةِ ؛ فبالعلم تنكشفُ له مواقعُ الخيرِ والشَّرِّ والصَّلاح والفساد ، وبالحِلم يتمكنُ من تثبيتِ نفسه عند الخير ؛ فيؤثِره ويصبر عليه ، وعند الشرِّ فيصبر عنه فالعلم يُعرِّفهُ رُشدَهُ ، والحِلم يُثبِّته عليه ..." .

(٥) في ص : الحكم .

فمن ثبتَ عند صَدمةِ البَدَوَاتِ استقبل أمره بعلم وحَزمٍ ، ومَن لم يثبتْ لها استقبَله بعجَلةٍ وطَيْشٍ ، وعاقبتُه النَّدامةُ ، وعاقبةُ الأولِ حَمْدُ أمرِهِ ، ولكنَّ للأول آفةً متى قُرنت بالحَزمِ والعزمِ نجا منها ، وهي الفَوتُ ، فإنَّه لا يُخافُ من التَّثَبُّتُ إلا الفَوتُ ، فإذا اقترَنَ به العــزمُ والحــزمُ تمَّ أمرهُ ، ولهذا في الدُّعاءِ الــذي وراه الإمــام أحمد [٢] والنسائي [٣] عن النبي صلى الله عليه وسلم ( اللهم إنِّي أسالك الثَّبــاتَ في الأمــرِ ، والعزيمــةَ على الرُّشدِ ) [٤] .

وهاتــانِ الكلمتــانِ هما جِماعُ الفلاحِ ، وما أُتيَ العبدُ إلا من تضييعِهما أو تضييع أحدِهما ، فما أُتيَ أحدٌ إلا من بابِ العَجَلةِ والطَّيشِ واستفزازِ البَدَوَاتِ له ، أو من باب التَّهاونِ والتَّمَاوُتِ ، وتضييع الفُرصةِ بعد مُواتاتِها ، فإذا حصلَ الثَّباتُ أولاً ، والعَزيمةُ ثانياً أفلحَ كلَّ الفلاحِ ، والله وليُّ التَّوفيق [٥] .

---

(١) قال المؤلف رحمه الله : " وقال ابنُ وهبٍ : سمعتُ مالكاً رحمه الله يقول : العَجلة في الفتوى نوع من الجهلِ والخَرقِ ، قال : وكان يُقالُ : التَّأنِّي من الله ، والعَجلةُ من الشيطانِ ، وهذا الكلامُ قد رواه الليثُ بن سعدٍ عن يزيد بن أبي حَبيبٍ عن سعد بن سِنان عن أنسٍ رضي الله عنه : أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : ( التَّأنِّي من الله ، والعَجلةُ من الشَّيطان ) وإسناده جيدٌ " إعلام الموقعين (١٨٦/٢) .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ١١١ .

(٣) أبو عبد الرحمن النَّسَائي ، أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار ، القاضي الحافظ ، أحد الأئمة المبرزين ، والحفاظ المتقنين ، والأعلام المشهورين ، صاحب كتاب " السنن" ، وغيره من المصنفات ، توفي عام : ٣٠٣ هـ . تهذيب الكمال للمزي (٣٢٨/١) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (١٩٤/٢) .

(٤) رواه الترمذي (٣٤٠٧) ، والنسائي (١٣٠٥) ، وأحمد (١٢٣/٤) ، وغيرهم عن شدَّاد بن أوس رضي الله عنه .

(٥) قال المؤلف رحمه الله في كتابه الروح (٢٥٨) : " والفَرقُ بينَ المُبادرة والعَجلة : أنَّ المبادرةَ انتهازُ الفُرصةِ في وقتها ولا يتركها حتى إذا فاتتْ طلَبَها ، فهو لا يطلبُ الأمورَ في إدبَارِها ولا قبلَ وقتِها ؛ بل إذا حضرَ وقتُها بادَرَ إليها ووَثَبَ عليها وُثُوبَ الأسدِ على فريستِه ، فهو بمنزلة من يُبادر إلى أخذِ الثَّمرةِ وقتَ كمالِ نضجها وإدراكها .
والعَجلةُ طلبُ أخذِ الشيءِ قبل وقته ، فهو لشدَّةِ حرصه عليه بمَنزلةِ مَن يأخذُ الثَّمرةَ قبلَ أوانِ إدراكها كلها فالمُبادرةُ وسطٌ بين خُلُقينِ مَذمُومين ؛ أحدُهما : التَّفريطُ والإضَاعةُ ، والثاني : الاستعجالُ قبل الوقت ، ولهذا كانت العجلةُ من الشيطانِ ؛ فإنَّها خِفَّةٌ وطَيشٌ وحِدَّةٌ في العبد تمنعُهُ من التَّثبُّتِ والوقارِ والحِلم ، وتُوجبُ له وضعَ الأشياءِ في غير مَواضعها ، وتجلبُ عليه أنواعاً من الشُّرور ، وتمنعه أنواعاً من الخير ، وهي قرينُ النَّدامــةِ ، فقلَّ من استعجلَ إلا نَدِمَ ، كما أنَّ الكسلَ قرينُ الفَوتِ والإضاعةِ " .

الصنف الثالث من أصناف حملة العلم الذين لا يصلحون لحمله : رجل نَهْمَته في نيل لذَّته

الصِّنفُ الثالثُ : رجلٌ نَهْمَتُهُ في نيلِ لذَّته ، فهو مُنقادٌ لداعي الشَّهوةِ أين كان ولا ينالُ درجةَ وِرَاثَةَ النُّبوةِ مع ذلك ، ولا ينالُ العلمَ إلا بهجرِ اللذَّات وتطليقِ الرَّاحة .
قال مسلم في " صحيحه " [1] : قال يحيى بن أبي كثير [2] : " لا يُنالُ العلمُ براحةِ الجسمِ " .

وقال إبراهيمُ الحَربيُّ [3] : " أجمعَ عُقلاءُ كلِّ أُمَّةٍ أنَّ النَّعيمَ لا يُدركُ بالنَّعيمِ ، ومن آثرَ الرَّاحةَ فاتتْهُ الرَّاحةُ " [4] .

فما لصاحبِ اللذَّاتِ وما لدرجةِ وِراثةِ الأنبياءِ !

فدَعْ عنكَ الكتابَةَ لستَ منها ... ولو سوَّدتَ وجْهَكَ بالمِدَادِ [5]

فإنَّ العلمَ صناعةُ القلبِ وشُغلُه ، فما لم يتفرَّغ لصناعتهِ وشُغلهِ لم ينلها ، وله وجْهَةٌ واحدةٌ ؛ فإذا وُجِّهَتْ وجهَتُهُ إلى اللَّذاتِ والشَّهواتِ انصرَفت عن العلم ، ومن لم تغلِبْ لذةُ إدراكِه للعلم وشهوتُهُ على لذَّةِ جسمِه وشهوةِ نفسِه لم ينَلْ درجةَ العلمِ أبداً ، فإذا صارت شهوتُهُ في العلمِ ، ولذَّتُهُ في كلِّ إدراكِه رُجِيَ له أن يكون من جُملةِ أهلِه .

ولذَّةُ العلم لذَّةٌ عقليةٌ روحَانِيةٌ من جنسِ لذَّة الملائكةِ ، ولذَّةُ شهواتِ الأكلِ والشُّربِ والنِّكاحِ لذَّةٌ حيوانِيَّةٌ يُشاركُ الإنسانَ فيها الحيوانُ ، ولذَّةُ الشَّرِّ والظلمِ والفسادِ والعلوِّ في الأرض شيطانِيَّةٌ يُشاركُ صاحبَها فيها إبليسُ وجنودُه.

---

(١) تقدَّمت ترجمة الإمام مسلم ص : ٧٧ . وتقدَّمَ تخريج الأثر ص : ٣٣٥ .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٣٢٥ .

(٣) أبو إسحاق ، إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم البغداديُّ الحَرْبِيُّ ، الزاهد ، المحدث ، الفقيه ، الأديب ، له : غريب القرآن ، وهو من أجلِّ الكتب وأكبر ما صُنِّف في هذا النوع ، توفي عام : ٢٨٥ هـ .
تاريخ بغداد (٦/٢٦) وإنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي (١/١٩٠)وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/٣٥٦) .

(٤) ينظر : قاعدة في المحبة لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٠٧) ، وشفاء العليل للمؤلف (٢٥٠) ، ومدارج السالكين (٢/١٦٦) .

(٥) في العقد الفريد لابن عبد ربه (٧/١٤٥) ، وأدب الكتاب للصولي (١٧١) ، وصبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي (١/٧٦) من غير نسبة .

وسائرُ اللذَّات تبطلُ بمُفارقة الروحِ البدنَ إلا لذَّةُ العلم والإيمانِ ، فإنَّها تكمل بعد المُفارَقةِ ؛ لأنَّ البدنَ وشواغِلَه كان ينقُصُها ويُقَلِّلُها ويحجُبها ، فإذا انطَوت الروحُ عن البدن التذَّت لذَّةً كاملةً بما حصَّلَتهُ من العلم النَّافع والعمل الصالح ، فمن طلبَ اللذَّةَ العُظمى ، وآثَرَ النَّعيمَ المُقيمَ فهو في العلم والإيمانِ اللذين بهما كمالُ سعادةِ الإنسان .

وأيضاً ؛ فإنَّ تلك اللذَّات سريعةُ الزَّوالِ ، وإذا انقضت اعقَبَت همَّاً وغمَّاً ، وألَمَاً يَحتاجُ صاحبُها يُداويهِ بمثلها دَفْعاً لألَمِهِ ، وربَّما كان مُعاودتُهُ لها مُؤلِمَاً (١) كَريهاً إليه ، لكنْ يحمِلُهُ عليه مُدواةُ ذلك الغَمِّ والهَمِّ .

فأينَ هذا مِن لذَّةِ العلم ولذَّةِ الإيمان بالله ، ومحبَّتِه والإقبالِ عليه ، والتَّنعمِ بذكرِه ؟ (٢)

فهذه هي اللذَّةُ الحقيقيةُ .

الصنف الرابع من أصناف حملة العلم الذين لا يصلحون لحمله: من حرصه وهمته في جمع الأموال

الصِّنفُ الرَّابعُ : مَن حِرصُه وهِمَّتُهُ في جمعِ الأموالِ وتثمِيرها وادِّخَارِها ، فقد صارت لذَّتُه في ذلك ، وفنِيَ به عمَّا سواه ، فلا يرى شيئاً أطيبَ له ممَّا هو فيه ، فمن أينَ هذا ودرجةُ العلمِ ؟

فهؤلاءِ الأصنافُ الأربعةُ ليسوا من دعاةِ الدِّين ولا من أئمَّةِ العلم ، ولا مِن طلَبَته الصادقين في طلبه ، ومن تعلَّقَ منهم بشيء منه فهو من المُتسلِّقين عليه ، المُتشبِّهينَ بحَمَلته وأهلِه ، المُدَّعِين لوِصالِه ، المَبْتُوتين من حِبالِه .

---

(١) في : د ، ص : مُؤلِمَاً له .

(٢) قال المؤلف رحمه الله في : الفوائد (١٥٠) : " لذَّةُ كلِّ أحدٍ على حسبِ قَدْرِهِ وهمَّتِه وشرفِ نفسِه ؛ فأشرفُ الناس نفسَاً ، وأعلاهم هِمَّةً ، وأرفعُهم قدْراً مَن لذَّتُه في معرفةِ الله ، ومحبَّته والشوقِ إلى لقائِه ، والتَّوددِ إليه بما يُحبُّه ويرضاه ، فلذَّته في إقبالِه عليه ، وعُكوفِ همَّته عليه ، ودون ذلك مراتبُ لا يُحصيها إلا الله ، حتى تنتهي إلى من لذَّته في أحسِّ الأشياء من القاذُورات والفواحشِ في كلِّ شيء ؛ من الكلامِ والفِعال والأشغَال ، فلو عَرَضتَ عليه ما يلتذُّ به الأول لم تسمحْ نفسُه بقبولِه ، ولا الالتِفَات إليه ، وربَّما تألَّمَت من ذلك ، كما أنَّ الأولَ إذا عُرِضَ عليه ما يلتذُّ به هذا لم تسمحْ نفسُه به ، ولم تلتفت إليه ، ونفرت نفسُه منه " .

وفتنةُ هؤلاءِ فتنةٌ لكل مَفتـونٍ ؛ فإنَّ الناس يتشبهـون بهم لِمَا يظنون عندهم من العلم ويقولون : لسنا خيراً منهم ، ولا نرغبُ بأنفسِنا عنهم ، فهم حُجَّةٌ لكلِّ مَفتونٍ .

ولهذا قـال فيهم بعضُ الصحابةِ الكـرامِ : " احـذروا فتنةَ العالِمِ الفاجرِ ، / والعابدِ [٧٣/أ] الجاهلِ ؛ فإنَّ فتنَتَهما فتنةٌ لكلِّ مَفتونٍ " (١) .

قول علي رضي الله عنه : أقرب شبهاً بهم الأنعام السائمة

وقولُه رضي الله عنه : " أقربُ شَبَهاً بهم الأنعامُ السَّائمةُ " ؛ هذا (٢) التَّشبيهُ مأخوذٌ من قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٣) ، فما أقتَصرَ سبحانه على تشبيهِهِم بالأنعامِ حتى جعلَهم أضلَّ سبيلاً منهم .

والسَّائِمةُ : الرَّاعيةُ .

وشبَّـه أمير المؤمنين هؤلاء بها لأنَّ هِمَّتهم في سعي الدنيا وحطامِها ، والله تعالى يُشبِّه أهلَ الجهلِ والغَيِّ تارةً بالأنعامِ ، وتارةً بالحُمُرِ ؛ وهذا تشبيهٌ لِمَن تعلَّم عِلماً ولم يعقِلْهُ ولم يعمل به ، فهو كالحمار الذي يحملُ أسفاراً ، وتارةً بالكلبِ ؛ وهذا لِمَن انسلخَ عن العلم ، وأخلدَ إلى الشَّهواتِ والهوى .

قول علي رضي الله عنه : كذلك يموت العلم بموت حامليه

وقولُه رضي الله عنه : " كذلك يموتُ العلمُ بموت حامِليه " ؛ هذا من قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديثِ عبدِ الله بن عَمرو (٤) وعائشةَ (٥) رضي الله عنهم وغيرهما : ( إنَّ اللهَ لا يقبِضُ العلم انتِزَاعاً ينتَزعُه من صدورِ الرجـالِ ، ولكن يقبضُ العلـمَ بقبضِ العلمـاءِ ؛ فإذا لـم يبـقَ عالمٌ اتخذَ الناسُ رُؤسـاءَ جُهَّـالاً ، فسُئلوا فأفْتَـوا بغير علـمٍ وأضـلُّوا ) رواه البخـاري في " صحيحه " (٦) .

فذهابُ العلم إنَّمَا هو بذهاب العلماءِ .

---

(١) رواه نُعيم بن حماد في زوائد الزهد (٧٥) ، والآجري في أخـلاق العلماء (٨٨) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣٦/٧) عن سفيـان الثـوري أنَّه قال : كان يقال ، فذكره .

(٢) في : د : وهذا .

(٣) الفرقان : ٤٤ .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٣٦ .

(٥) تقدَّمت ترجمتها ص : ٢٣٠ .

(٦) صحيح البخاري (١٠٠ و ٧٣٠٧) .

قال ابن مسعود رضي الله عنه (١) يوم ماتَ عمرُ رضي الله عنه (٢) : " إنِّي لأحسبُ تسعةَ أعشارِ العلم اليومَ قد ذهبَ " (٣) .

وقد تقدَّمَ قولُ عمرَ رضي الله عنه : " موتُ ألفِ عابدٍ أهونُ من موتِ عالمٍ بصيرٍ بحلالِ الله وحرامِهِ " (٤) .

قول علي رضي الله عنه : اللهم بلى لن تخلو الأرض من مجتهد قائم بحجج الله

وقولُهُ رضي الله عنه : " اللهمَّ بلى ، لن تخلو الأرضُ من مُجتهدٍ قائمٍ بحُجَجِ اللهِ " ويدُلُّ عليه الحديثُ الصحيحُ عن النبي صلى الله عليه وسلم : ( لا تزالُ طائفةٌ من أمتي على الحقِّ ، لا يضرُّهم مَن خَذلهم ، ولا مَن خالفَهُم حتى يأتي أمرُ الله وهم على ذلك ) (٥) .

ويدُلُّ عليه أيضاً ما رواه التِّرمذيُّ (٦) عن قتيبة (٧) : حدَّثنا حَماد بن يحيى الأبَحُّ (٨) ، عن ثابتٍ (٩) ، عن أنس رضي الله عنه (١٠) قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : ( مثلُ أمَّتي مثلُ المطرِ لا يُدْرَى أوَّلهُ خيرٌ أم آخِرهُ ) (١١) ، قال : " هذا حديثٌ

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٢٣ .

(٣) رواه أبو خيثمة في العلم (١٨) ، والطبراني في الكبير (١٦٢/٩ ، ١٦٣ ، ١٦٤) ، وغيرهما .

(٤) تقدَّم في الوجه السادس عشر بعد المئة ص ٣٧٦ .

(٥) رواه مسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان رضي الله عنه .

(٦) سنن الترمذي ح (٢٨٦٩) . وقد تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٤ .

(٧) قتيبة بن سَعِيد بن جميل بن طَريف الثقفي ـ مولاهم ـ البَلْخِي البَغْلاني ، من أهل قرية بَغْلان من قرى بَلَخ ، الإمام المُحدِّث ، الرَّاوية ، روى عنه الجماعة غير ابن ماجه ، توفي عام : ٢٤٠ هـ . تهذيب الكمال للمزي (٥٢٣/٢٣) وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/١١) .

(٨) حماد بن يحيى الأبَحُّ السُّلمي ، أبو بكر البَصْرِيُّ ، قال عنه الحافظ ابن حجر : صدوق يُخطئ . تهذيب الكمال للمزي (٢٩٢/٧) ، وميزان الاعتدال للذهبي (٦٠١/١) ، والتقريب لابن حجر (١٧٩/١) .

(٩) ثابت بن أسْلَم البُنَاني البَصْرِيّ ، أبو محمد الإمام القدوة ، كان من أئمة العلم والعمل ، ولد في خلافة معاوية رضي الله عنه ، وحدَّث عن ابن عمر وابن الزبير رضي الله عنهما ، وعن غيرهما ، توفي عام : ١٢٧ هـ . حلية الأولياء لأبي نعيم (٣١٨/٢) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢٢٠/٥) .

(١٠) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٦ .

(١١) رقم الحديث (٢٨٦٩) ، ورواه أحمد (١٣٠/٣ و ١٤٣) ، وغيرهما ، قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٦/٧) : " وهو حديث حسن له طرق قد يرتقي بها إلى الصحة " ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح : ٢٢٨٦) .

حسنٌ غريبٌ ، ويُروى عن عبد الرحمن بن مَهدي [١] أنَّه كان يُثبِّتُ حمادَ بن يحيى الأبَحَّ وكان يقول : هو من شيوخِنا . وفي البابِ عن عمَّارٍ [٢] وعبد الله بن عمرو [٣] " .

فلـو لـم يكـنْ في أواخـرِ الأُمَّـةِ قائـمٌ بحُـجـجِ الله ، مُجتهـدٌ لم يكونوا مَوصُوفين بهذه الخيريةِ .

وأيضاً ؛ فإنَّ هذه الأمَّةَ أكملُ الأمَمِ ، وخيرُ أمَّةٍ أُخرجَت للناس ، ونبيُّها خاتَمُ النَّبيينَ لا نبـيَّ بعده ، فجعلَ الله العُلماءَ فيها كلَّمَا هلك عالمٌ خلفَهُ عالمٌ ؛ لئلا تُطمَسَ معالمُ الدِّين ، وتَخفى أعلامُـهُ .

وكان بنو إسرائيلَ كلَّمَا هلكَ نبيٌّ خلَفَهُ نبيٌّ ، فكانت تسُوسُهُـم الأنبياءُ [٤] ، والعلماءُ لهذه الأمّةِ كالأنبياءِ في بني إسرائيلَ [٥] .

وأيضاً ؛ ففي الحديث الآخر : ( يحملُ هذا العلمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدولَهُ ، ينفُونَ عنه تحريفَ الغَالينَ ، وانتحالَ المُبْطِلينَ ، وتأويلَ الجَاهلينَ ) [٦] .

وهذا يدلُّ على انَّه لا يزالُ مَحمُولاً في القُرونِ قَرْنَاً بعد قَرنٍ .

---

(١) عبد الرحمن بن مَهدي بن حسَّان العنبري البصري اللؤلؤي ، أبو سعيد الحافظ ، المُتقن ، لزم الإمام مالك رحمه الله طويلا . توفي عام : ١٩٨ هـ . حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/٩) ، وتهذيب الكمال للمزي (٤٣٠/١٧) .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٣٧ . والحديث رواه ابن حبان في صحيحه (٢٠٩/١٦) ، والبزار في مسنده (٢٤٤/٤) وقال البزار :" هذا الإسناد أحسن ما يروى في هذا عن عمار " ، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٥٨/٥) . وروي من طريق أخرى عن الحسن ، وقد عنعنه ، كما في مسند الإمام أحمد (٣١٩/٤) .

(٣) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٣٦ . وقد رواه الطبراني في الكبير (١٤٦٤٩) ، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٥٨/٥) بعد أن ساق طرقَ الحديثِ : " وبالجملة ؛ فالحديثُ صحيح بلا ريب بمجوع هذه الطرق ، ولذلك جزم بنسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم العلامة ابن القيـم في إعلام الموقعين (٣٥٨/٢ ) " . ثم نقل كلام الحافظ ابن حجر المتقدم ، وقال : " قلتُ : بل هو صحيحٌ يقيناً كما يتبين من هذا التخريج " .

(٤) كما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري (٣٤٥٥) ، ومسلم (١٨٤٢) ، وغيرهما .

(٥) قال المؤلف رحمه الله في هداية الحيارى (٤٥٩/٢) : " وقال كعبٌ : علماءُ هذه الأمَّةِ كأنبياءِ بني إسرائيل . وفيه حديثٌ مرفوعٌ لا أعرفُ حالَهُ " . قال السخاوي في المقاصد الحسنة ( ح : ٧٠٢) : " قَالَ شيخُنا ومِن قبلِهِ الدَّمِيري والزَّركشي : إنه لا أصل له ، زاد بعضهم : ولا يعرف في كتابٍ مُعتبرٍ "

(٦) سبق تخريج الحديث ص : ١٦٨ .

وفي " صحيحِ أبي حاتمٍ [١] " [٢] من حديثِ الخَوْلاني [٣] : قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : ( لا يزالُ اللهُ يَغْرسُ في هذا الدِّينِ غَرساً يستعملهم في طاعته ) وغَرسُ اللهِ هم أهل العلم والعمل ، فلو خَلت الأرضُ من عالمٍ خَلت من غَرس الله .

ولهذا القولِ حُجَجٌ كثيرةٌ لها موضعٌ آخرُ .

زاد الكذابون في وصية علي رضي الله عنه : إمّا ظاهرا مشهورا وإمّا خفيًا مستورا

وزادَ الكذَّابونَ في حديثِ عليٍّ رضي الله عنه : " ... إمَّا ظاهراً مَشهوراً ، وإمَّا خَفيًّا مَستوراً " .

وظنُّوا أنَّ ذلك دليلٌ لهم على القولِ بالمُنتَظَرِ [٤] ، ولكنَّ هذه الزيادةَ من وضْعِ بعضِ كذَّابيهم [٥] .

والحديثُ مشهورٌ عن عليٍّ رضي الله عنه لم يقُلْ أحدٌ عنه هذه المَقالةَ إلا كذَّابٌ .

وحُججُ الله لا تقومُ بخَفيٍّ مَستورٍ ، لا يقعُ العالم له على خَبَرٍ ، ولا ينتفعون به في شيءٍ أصلاً ، فلا جاهل يتعلَّمُ منه ، ولا ضالٌّ يهتدي به ، ولا خائفٌ يأمنُ به ، ولا ذليلٌ يتعَزَّزُ به ، فأيُّ حُجة لله قامت بمن لا يُرى له شخصٌ ، ولا يُسمع منه كلمةٌ ، ولا يُعلمُ له مكانٌ ، ولا سيَّما على أصول القائلين به ، فإنَّ الذي دعاهم إلى ذلك أنَّهم قالوا : لا بُدَّ منه في اللُّطفِ بالمُكلفين وانقطاعِ حجَّتهم عن اللهِ [٦] !

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٣٨٠ .

(٢) صحيح ابن حبان (٣٢٦) ، ورواه ابن ماجه (٨) ، وأحمد (٤٠٢٠٠) ، وابن حبان في الثقات (١٨٩٠) ، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة ( ح : ٢٤٤٢) .

(٣) أبو عِنَبَة الخَـوْلاني ، مَشهورٌ بكُنيتـه ، وقد اختُـلف في صُحبته ، واختلف في اسمه ؛ فقيل : عبد الله بن عِنَبَة وقيل : عمارة ، وهو من المُعمَّرين ، وقد صلى القبلتين ، وتوفي في خلافة عبد الملك .
الاستيعاب لابن عبد البر (١٧٢٢/٤) ، والإصابة لابن حجر (٢٤٣/٧) .

(٤) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن الغائبُ المنتظر عند الرافضة : محمد بن الحسن : " الذي دخلَ سِردابَ سامَرَّاء سنةَ ستين ومائتين أو نحوها ، ولم يُميِّز بعدُ ، بل كان عُمرهُ إمَّا سنتين ، أو ثلاثاً ، أو خَمساً ،أو نحو ذلك وله الآن على قولِهم أكثرُ من أربعمائةٍ وخمسين سنةً ولم يُر له عَينٌ ، ولا أثرٌ ، ولا سُمِعَ له حِسٌّ ، ولا خبرٌ ! فليس فيهم أحدٌ يعرِفُه لا بعينِه ولا صفتِه ، لكن يقولون : إنَّ هذا الشخصَ الذي لم يَرَهُ أحدٌ ، ولم يُسمع له خبرٌ هو إمامُ زمانِهم ! " منهاج السنة (١١٣/١ – ١١٤) .

(٥) وينظر : الأمالي للطوسي (٤٢) ، وشرح نهج البلاغة (٣٤٧/١٨) .

(٦) ينظر : منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية ( ١٠٠/١ و ١٣١ ، ٣٨٩/٦) .

فيالله العجبُ ! أيُّ لُطْفٍ حصلَ بهذا المَعدومِ لا المَعصومِ ؟ وأيُّ حُجَّةٍ أثبَتم للخلقِ على ربهم بأصلِكم الباطل ؟ فإنَّ هذا المعدومَ إذا لم يكن لهم سبيلٌ قطُّ إلى لقائِه والاهتداءِ به ، فهل في تكليف ما لا يُطاقُ أبلغُ من هذا ؟ (١) .

وهل في العُذْرِ والحُجَّة أبلغُ من هذا ؟

فالذي فرَرتُم منه وقعتم في شرٍّ منه ، وكنتم في ذلك كما قيل (٢) :

المُسْتَجِيرُ بعَمروٍ عندكُرْبَتِهِ ... كالمُسْتَجِيرِ من الرَّمْضَاءِ بالنَّارِ

ولكنْ أبي اللهُ إلا أن يفضحَ من تنقَّصَ بالصحابةِ الأخيارِ ، وبسادةِ هذه الأمَّةِ ، وأن يُريَ الناسَ عورتَهُ ويُغْرِيَهُ بكشفِها . ونعوذُ بالله من الخِذْلانِ .

ولقد أحسنَ القائلُ (٣) :

ما آنَ للسِّردَابِ أنْ يَلِدَ الذي ... حَمَّلْتُمُوهُ بزَعْمِكُم ما آنا

فعلى عُقُولِكُم العَفَاءُ فإنَّكُم ... ثَلَّثْتُم العَنْقَاءَ والغِيلانَا (٤)

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " فالمؤمنون بالمُنتظرِ لم ينتفعوا به ، ولا حصلَ لهم به لُطْفٌ ، ولا مَصلحةٌ ، مع كونهم يُحبونَه ويوالُونه ، فعلم أنَّه لم يحصلْ به لُطف ، ولا مصلحةٌ لا لِمَن أقرَّ بإمَامتِه ، ولا لِمَن جحَدها ؛ فبطلَ ما يذكرون أنَّ العَالَمَ حصلَ فيه اللُّطف والرحمةُ بهذا المَعصومِ ، وعُلم بالضَّرورة أنَّ هذا العَالم لم يحصل فيه بهذا المُنتظر شيءٌ من ذلك ، لا لِمَن آمنَ به ، ولا لِمَن كفر به ، بخلاف الرَّسول والنبي الذي بعثه الله ، كذَّبَهُ قومٌ فإنَّه انتفعَ به مَن آمن به وأطاعَهُ ؛ فكان رحمةً في حقِّ المُؤمن به المُطيعِ له ، وأمَّا العاصي فهو المُفرِّطُ ، وهذا المُنتظرُ لم ينتفع به لا مؤمنٌ به ولا كافرٌ به " منهاج السنة (١٣٢/١ - ١٣٣) .

(٢) بيت مشهورٌ صار مثلاً لمن يستنصر بمن يضرُّه ، ينظر : الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام (٢٦٣) ، ونثر الدر للآبي (١٦٦/٧) ، والتمثيل والمحاضرة للثعالبي (٢٦٤) ، والمستقصى في أمثال العرب للزمخشري (١٩/٢) .

(٣) لم أقف على قائلهما ، وقد ذكرهما المؤلف رحمه الله في المنار المنيف (١٥٢) ، وأوردهما ابن حجر الهيتمي في الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة (٤٨٣/٢) .

(٤) العفاء : الزوال والهلاك والذهاب ، وهذا قدح في عقول هؤلاء . لسان العرب لابن منظور (٧٨/١٥)

ثلَّثتم : أي ضممتم رجعة إمامكم من السرداب إلى أمرين مُستحيلين عند العرب ، وهما : العنْقاء ، والغول ؛ فأصبحت ثلاثة أمور : العنقاءُ ، والغولُ ، والرجعةُ ! .

والعنقاء : طائرٌ لم يَبق في أيدي النَّاس من صِفتها غيرُ اسمِها . العين للخليل بن أحمد (١٦٩/١) .

والغِيلان : جمعُ " غُول " وتزعم العرب أنه نوع من السّعالي يظهر لهم في المفاوز ؛ فيتَلون لهم بأشكال مفزعة ، ثم يُهلكهم . العين للخليل بن أحمد (٤٤٧/٨) ، والصحاح للجوهري (١٧٨٦/٥) .

ولقد بطلَت حُجَجٌ استُودِعَها مثلُ هذا الغائبِ ، وضاعت أعظمَ ضياعٍ ، فأنتم أبطلتُم حُججَ الله من حيثُ زعمتم حفظَها .

وهذا تصريحٌ من أمير المؤمنين رضي الله عنه بأنَّ حاملَ حُجَجِ الله لا بدَّ أن يكون في الأرض ، بحيثُ يُؤدِّيَها عن الله ، ويُبلِّغُها إلى عبادِه ، مثلُهُ رضي الله عنه ومثلُ إخوانِه من الخلفاءِ الرَّاشدين ومن اتَّبعَهم إلى يوم القيامة .

قول علي رضي الله عنه : لكيلا تبطل حجج الله وبيناته

وقولُهُ رضي الله عنه : " لكيلا تبطُلَ حُججُ الله وبيِّنَاتُهُ " ، أي : لكيلا تذهبَ مِن بين يدي الناس ، وتبطلَ من صُدُورِهم ، وإلا فالبُطلانُ مُحالٌ عليها ؛ لأنَّها ملزومُ ما يستحيلُ عليه البُطلانُ .

فإن قيلَ : فما الفرقُ بين الحُجَجِ والبيِّناتِ ؟

الفرق بين الحجج والبينات

قيل : الفـرقُ بينهما أنَّ الحججَ هي الأدلَّـةُ العِلْمِيَّةُ التي يعقِلُها القلـبُ ، وتُسمَعُ بالأُذنِ ، قال تعالى في مُناظرةِ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام لقومه وتبيينِهِ بطلانَ ما هم عليه بالدَّليل العِلميِّ : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ﴾ (١) ، قال ابن زيد (٢) : " بعلم الحُجَّةِ " ، وقال تعالى :﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (٤) .

والحُجَّـةُ هي اســـمٌ لِمَا يُحتَجُّ بــه من حقٍّ وباطلٍ ، قال تعالى : ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ

(١) الأنعام : ٨٣ .

(٢) كذا في النسخ ، وفي تفسير ابن أبي حاتم (١٣٣٥/٤) قال زيد بن أسلم ، وكذا أيضاً ذكره المؤلف رحمه الله في ص : ١٧٦ .

(٣) آل عمران : ٢٠ .

(٤) الشورى : ١٦ .

عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ (١) ، فإنَّهم يحتجُّون عليكم بحُجَّةٍ باطلةٍ : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (٣) .

والحُجَّةُ المُضافةُ إلى الله هي الحقُّ ، وقد تكون الحُجةُ بمعنى المُخاصَمَةِ (٤) ، ومنه قولُهُ تعالى : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ (٥) ، / أي : قد وضَحَ الحقُّ واستبانَ وظهَرَ ، فلا [٧٤/أ] خُصومَة بيننا بعد ظُهورِه ولا مُجادَلَةَ ؛ فإنَّ الجِدالَ شريعةٌ مَوضوعةٌ للتَّعاون على إظهار الحقِّ ، فإذا ظهَرَ الحقُّ ولم يبْقَ به خفاءٌ فلا فائدةَ في الخُصومةِ والجِدالِ على بصيرةٍ .

مُخاصمةُ المُنْكِرِ ومُجادلتُه عَنَاءٌ لا غِنَاءَ فيه . هذا معنى هذه الآية (٦) .

وقد يقعُ في وَهَمِ كثيرٍ من الجُهَّال أنَّ الشَّريعةَ لا احتجاجَ فيها ، وإنَّ المُرْسَلَ صلوات الله وسلامُه عليه لم يكن يحتَجُّ على خُصومِه ولا يُجادِلُهم .

---

(١) البقرة : ١٥٠ .

(٢) المائدة : ٣ .

(٣) الجاثية : ٢٥ .

(٤) ينظر : زاد المسير لابن الجوزي (١/١١٧) ، وتفسير القرطبي (٢/١٦٩) ، وتفسير أبي حيان الأندلسي (٢/٢٧٤) وبصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي (٢/٤٣١) .

(٥) الشورى : ١٥ .

(٦) قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : " أي : بعد ما تبيَّنت الحقائِقُ ، واتَّضح الحقُّ مِن الباطل والهُدى من الضَّلال ، لم يبقَ للجدالِ والمُنازَعةِ محلٌّ ؛ لأنَّ المقصودَ من الجدالِ ، إنَّما هو بيان الحقِّ من الباطل ليهتَدي الرَّاشدُ ، ولتقومَ الحُجة على الغاوي ، وليس المرادُ بهذا أنَّ أهلَ الكتاب لا يُجادَلون ، كيف والله يقول : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت:٤٦] وإنَّما المُراد ما ذكرنا " . تيسير الكريم الرحمن (٧٥٥) .

ويظنُّ جُهّـَال المنطقِيِّين وفُـروخُ اليـونانِ [١] أنَّ الشريعةَ خِطابٌ للجُمهور ولا احتجاجَ فيها ، وأنَّ الأنبياءَ دَعَوا الجمهورَ بطريق الخَطابةِ ، والحُجَجُ للخواصِّ وهم أهلُ البُرهان يعنُونَ نفوسَهم ومن سلك طريقَتَهم .

وهذا من جهلهم بالشريعة والقرآنِ ؛ فإنَّ القرآن مملوءٌ من الحُجَجِ والأدلة والبراهين في مسائلِ التوحيدِ ، وإثباتِ الصانعِ ، والمَعادِ ، وإرسالِ الرسل ، وحُدوثِ العالَمِ ، فلا يذكرُ المُتكلِّمُون وغيرُهم دليلاً صحيحاً على ذلك إلا وهو في القرآن بأحسنِ عبارةٍ وأوضحِ بيانٍ ، وأتمِّ معنىً ، وأبعدهِ عن الإيراداتِ والأسئلةِ [٢] .

اعتراف حذاق المتكلمين بأن القرآن مملوء من الحجج والبينات وأنواع الأقيسة الصحيحة

وقد اعترفَ بهذا حُذَّاقُ المُتكلمين من المُتقدمين والمُتأخرين :

قال أبو حامدٍ [٣] في أوَّلِ " الإحياء " [٤] : " فإن قلتَ : فلِمَ لمْ تُوردْ في أقسامِ العلم الكلامَ والفلسفةَ ، وتُبيِّن أنَّهما مذمومانِ أو مَمدوحانِ ؟

---

(١) تقدَّم التعريف بهم ص : ٩٥ .

(٢) قال المؤلف رحمه الله عند كلامه عن القرآن وأنه متضمِّنٌ لأدوية القلب من جميع أسقامه: " وليس تحت أديمِ السماءِ كتابٌ مُتضمِّنٌ للبراهين والآياتِ على المَطالبِ العالية : من التَّوحيدِ ، وإثباتِ الصفات ، وإثباتِ المعاد والنُّبوات ، وردِّ النِّحلِ الباطلة والآراءِ الفاسدةِ مثل القرآن ، فإنَّه كفيلٌ بذلك كلِّه ، مُتضمِّنٌ له على أتمِّ الوجوهِ وأحسنِها وأقربِها إلى العقول ، وأفصحها بياناً ، فهو الشفاءُ على الحقيقة من أدواءِ الشُّبه والشكوك ، ولكن ذلك مَوقوفٌ على فهمِه ومعرفةِ المراد منه ، فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصرَ الحقَّ والباطلَ عياناً بقلبه ، كما يرى الليلَ والنَّهار ، وعلِمَ أنَّ ما عداه من كتبِ الناسِ وآرائِهم ومَعقولاتِهم : بين علومٍ لا ثقةَ بها ، وإنَّما هي آراءٌ وتقليدٌ ، وبين ظنونٍ كاذبةٍ لا تُغني عن الحقِّ شيئاً ، وبين أمورٍ صحيحةٍ لا منفعةَ للقلب فيها ، وبين علوم صحيحة قد وعَّروا الطريقَ إلى تحصيلها ، وأطالُوا الكلام في إثباتها مع قلة نفعِها ، فهي لحمُ جمَلٍ غَثٍّ ، على رأسِ جبلٍ وعْرٍ ، لا سهلٌ فيُرتقى ولا سمينٌ فينتقل ، وأحسنُ ما عند المُتكلمين وغيرهم فهو في القرآن أصحُّ تقريراً ، وأحسنُ تفسيراً ؛ فليس عندهم إلا التكلُّف والتَّطويلُ والتَّعقيدُ " إغاثة اللهفان (١/٤٤) .

وينظر : حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين للدكتور : عبد الرحيم السلمي ص (٨٥) وما بعدها ، وكتاب : الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد للدكتور : سعود العريفي ص (١٨٩) وما بعدها .

(٣) محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطُّوسي النيسابوري ، طلب العلم في سنٍّ مبكرة ، وارتحل إلى نيسابور ، ثم بغداد ثـم الحجاز ، وله مصنفات كثيرة منها : المستصفى من علم الأصول ، وتهافت الفلاسفة ، وإحياء علوم الدين وغيرها ، توفي عام : ٥٠٥ هـ . سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٢٢/١٩) ، وطبقات الشافعية للسبكي (١٩١/٦) .

(٤) (٢٢/١) .

**فاعلم أنَّ حاصلَ ما يشتملُ عليه الكلامُ من الأدلة التي يُنتفعُ بها فالقرآن والأخبار مُشتملةٌ عليه ، وما خرجَ عنهما فهو إمَّا مُجادَلةٌ مَذمومةٌ . وهي من البدع كما سيأتي بيانُهُ . وإمَّا مُشاغَبَةٌ بالتَّعلُّقِ بمُناقَضات الفِرقَ ، وتطويلٌ بنقل المقالات التي أكثرُها تُرَّهاتٌ [١] وهذَاياناتٌ [٢] تزدَريها الطِّباعُ ، وتمُجُّها الأسماعُ ، وبعضها خوضٌ فيما لا يتعلق بالدِّين ، ولم يكن شيءٌ منه مألوفاً في العصر الأولِ ، ولكنْ تغيَّرَ الآن حُكمُهُ إذ حدَثت البِدعُ الصَّارفةُ عن مُقتضى القرآن والسُّنة ؛ لَفَّقَتْ لها شُبهاً ، ورتَّبَتْ لها كلاماً مؤَلَّفاً ، فصار ذلك المَحظور بحكم الضَّرورةِ مأذُوناً فيه " .**

**وقال الرَّازيُّ [٣] في كتابه " أقسام اللذات " [٤] : " لقد تأملتُ الكتبَ الكلامِيَّةَ [٥] والمناهجَ الفلسفيةَ [٦] ؛ فما رأيتُها تروي غَليلاً ولا تَشفي عَليلاً ، ورأيتُ أقربَ الطُّرقِ طريقةَ القرآنِ ، أقرأُ في الإثبات : ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ**

---

(١) التُّرَّهات : الأَباطيل ، وهي جمعُ تُرَّهَة أو تُرَّه ، وهي في الأَصل الطُّرُق الصغار المُتشعِّبة عن الطريق الأَعظم . العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (٣٣/٤) ، ولسان العرب لابن منظور (٤٨٠/١٣) .

(٢) يقال : هَذَى يَهْذِي هَذْياً وهَذَياناً ، والمراد : التَّحدثُ بكلام لا يفهم ، أو غير معقول ، بسبب مرض أو غيره . تهذيب اللغة للأزهري (٢١١/٦) ، وتاج العروس للزبيدي (٢٩٧/٤٠) .

(٣) تقدَّمت ترجمته ص : ٩٥ .

(٤) قد رُفع الكتاب على الشبكة العنكبوتية باسم : رسالة ذمٍّ لذَّات الدنيا ص (٢٦٣) ، وينظر : سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٠١/٢١) ، ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام (٧٢/٤) ، ومنهاج السنة (٢٧١/٥) ، وقال شيخ الإسلام في منهاج السنة بعد أن نقل كلام الرازي : " وهو صادقٌ فيما أخبر به ، أنَّه لم يستفدْ من بُحوثِه في الطُّرقِ الكلامِية والفَلسفية سوى أن جمعَ قيلَ وقالوا ، وأنَّه لم يجدْ فيها ما يشفي عَليلا ، ولا يروي غليلاً ، فإنَّ مَن تدبَّرَ كُتبَهُ كلَّها لم يجد فيها مسألةً واحدةً من مسائل أصول الدين مُوافِقَةً للحقِّ الذي يدلُّ عليه المَنقولُ والمَعقولُ ، بل يذكر في المسألةِ عدَّةَ أقوالٍ ، والقولُ الحق لا يعرفُهُ ؛ فلا يذكره ، وهكذا غيره من أهل الكلام والفلسفة ، ليس هذا من خصائِصه ، فإنَّ الحق واحدٌ ، ولا يخرج عما جاءت به الرُّسل ، وهو المُوافقُ لصريح العقلِ ، فطرةَ الله التي فطَرَ الناس عليها ، وهؤلاء لا يعرفون ذلك ، بل هم من الذين فرَّقُوا دينَهم ، وكانوا شِيَعاً ..." .

(٥) نسبة إلى المتكلمين ، وقد تقدَّم الكلام عنهم ص : ٩٥ .

(٦) تقدَّم الكلام عن الفلسفة ص : ١١٥ .

﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ (١) ، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ (٢) ، وأقرأُ في النَّفي : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (٣) ، ومَن جَرَّبَ مثلَ تجربتي عَرفَ مثلَ مَعرفتي " .

وهذا الذي أشار إليه بحسبِ ما فُتِحَ له من دَلالة القرآن بطريق الخَبَرِ ، وإلا فدلالتُهُ البُرهانيةُ العقليةُ التي يشيرُ إليها ويُرشدُ إليها . فتكونُ دليلاً سمعياً عقلياً . أمرٌ تميَّزَ به القــرآنُ ، وصار العالِمُ به من الرَّاسخين في العلم ، وهو العلم الذي يطمئنُّ إليه القلب وتسكــنُ عنده النفـس ، ويزكــو به العقــلُ ، وتستنير به البصيرةُ ، وتقوى به الحُجـة ولا سبيل لأحدٍ من العالَمين إلى قطعِ مَن حَاجَّ به ، بل مَن خاصمَ به فَلَجَتْ حُجَّتُه (٤) وكسرَ شُبهةَ خصمِه ، وبه فُتحت القلوبُ ، واستُجيب لله ولرسولِهِ .

ولكنَّ أهلَ هذا العلمِ لاتكادُ الأعصارُ تسمح منهم إلا بالواحدِ بعد الواحدِ .

فدلالةُ القرآنِ سمعيةٌ عقليةٌ قطعيةٌ يقينيةٌ ، لا تعترضُها الشُّبهاتُ ، ولا تتداولها الاحتمالاتُ ، ولا ينصرفُ القلب عنها بعد فهمِهَا أبداً .

وقال بعضُ المُتكلمين (٥) : أفنيتُ عمري في الكلام أطلبُ الدليلَ ، وإذا أنا لا أزدادُ إلا بُعداً عن الدليل ، فرجعتُ إلى القرآن أتدبَّرُهُ وأتفكَّرُ فيه ، وإذا أنا بالدليلِ حقَّاً معي وأنا لا أشعرُ به ، فقلتُ : والله ما مثلي إلا كما قال القائل (٦) :

ومِن العجَائِــبِ والعجَائِــبُ جَمَّــةٌ    قُربُ الحَبيــبِ ومــا إليه وُصُــولُ
كالعِيسِ في البيدَاءِ يقْتُلها الظَّمــا    والمــاءُ فوقَ ظُهورها مَحمُــــولُ

قال : فلمَّا رجعتُ إلى القرآن إذا هو الحكمُ والدَّليلُ ، ورأيتُ فيه من أدلةِ الله وحُجَجِه وبراهينهِ وبيِّنَاتهِ ما لو جُمِعَ كلُّ حق قاله المُتكلمون في كتبهم لكانت سورةٌ من سُور

---

(١) فاطر : ١٠ .
(٢) طه : ٥ .
(٣) الشورى : ١١ .
(٤) الفَلَجُ : الفوز والظفر ، والمراد : غلبت حجَّتُه وعلت ، الصحاح للجوهري (٣٣٥/١) ، ولسان العرب لابن منظور (٣٤٦/٢) .
(٥) سبق التعريف بهم في ص : ٩٥ .
(٦) في حياة الحيوان للدَّمِيري (٣٣٢/٢) من غير نسبة .

القرآنِ وافيةً بمَضمونِه ، مع حُسن البيان ، وفصاحةِ اللفظِ ، وتطبيقِ المُفصلِ ، وحُسن الاحترازِ ، والتَّنبيهِ على مَواقعِ الشُّبهِ ، والإرشادِ إلى جوابها ، وإذا هو كما قيل . بل فوقَ ما قيل . (١) :

كَفَى وشَفَى ما في الفُـؤادِ فلمْ يَدَعْ     لذي أرَبٍ في القَولِ جِدّاً ولا هَزْلا

وجعلتْ جيوشُ الكلام تنفذُ إليَّ كما كانت ، وتتزاحم في صدري ، ولا يأذنُ لها القلبُ بالدخول فيه ، ولا تلقى منه إقبالاً ولا قَبولاً ؛ فترجعُ على أدبَارِها .

والمقصودُ أنَّ القرآنَ مملوءٌ بالاحتجاج ، وفيه جميعُ أنواع الأدلةِ والأقيسةِ الصحيحةِ .

وأمَرَ الله تعالى رسولَهُ فيه بإقامَة الحُجَّة والمُجادَلة ؛ فقال تعالى : ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (٣) .

وهذه مُناظراتُ القرآن مع الكفارِ موجودةٌ فيه ، وهذه مناظراتُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابِه لخصومِهم ، وإقامة الحُجَجِ والأدلة عليهم ، لا يُنكِرُ ذلك إلا جاهلٌ مُفْرطٌ في الجهل (٤) .

والمقصودُ الفَرق بين الحُجج والبيناتِ ، فنقولُ : الحُجحُ الأدلةُ العلميةُ ، والبيِّناتُ : جمعُ بيِّنةٍ ، وهي صفةٌ في الأصل ، يُقالُ : آيةٌ بيِّنةٌ ، وحُجَّةٌ بيِّنةٌ .

---

(١) القائل هو : حسان بن ثابت رضي الله عنه ، ينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (١١/٧) .

(٢) النحل : ١٢٥ .

(٣) العنكبوت : ٤٦ . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذه الأية : " فهو أمْرٌ للمؤمنين أن يقولوا الحقَّ الذي أوجبَه الله عليهم وعلى جميع الخلقِ ؛ ليُرضُوا به الله ، وتقوم به الحُجَّةُ على المُخالفين ، فإنَّ هذا من الجِدَالِ بالتي هي أحسن ، وهو أن تقولَ كلاماً حقاً يلزمُك ويلزمُ المُنازعَ لك أن يقوله ؛ فإن وافَقَكَ وإلا ظهَرَ عنادهُ وظلمُهُ " الجواب الصحيح (٨٢/٣) .

(٤) قال المؤلف رحمه الله : " والمقصود أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزلْ في جِدالِ الكفارِ على اختلافِ مِللهم ونحَلِهم إلى أن تُوفيَ ، وكذلك أصحابُه من بعده ، وقد أمره الله سبحانه بجدالِهم بالتي هي أحسن في السورةِ المكيةِ والمدنية ، وأمره أن يدعوهم بعد ظهور الحُجَّةِ إلى المباهلة ، وبهذا قام الدينُ ، وإنَّما جُعِلَ السيفُ ناصِراً للحُجَّة ، وأعدلُ السُّيوفِ سيفٌ ينصرُ حُجَجَ اللهِ وبيِّناتِه ، وهو سيفُ رسوله وأُمته " زاد المعاد (٦٤٢/٣) .

والبيِّنَـةُ : اسـمٌ لكـلِّ مـا يُـبيِّنُ الحـقَّ من علامـةٍ منصوبـةٍ أو أمَـارةٍ أو دليـلٍ علْميٍّ ، قـال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾(١) .

فالبيِّناتُ : الآياتُ التي أقامها الله دلالةً على صدقِهم مِن المُعجِزاتِ ، والكتاب هو الدَّعوةُ .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾(٢) ، ومقامُ إبراهيمَ صلى الله عليه وسلم آيةٌ جُزئيَّةٌ مَرئيَّةٌ بالأبصارِ وهو من آياتِ الله الموجودةِ في العالَمِ .

ومنه قولُ موسى صلى الله عليه وسلم لفرعونَ وقومِهِ : ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾(٣) ، وكان إلقاءُ العصا وانقلابُها حيَّةً هو البيِّنةَ .

وقال قومُ هودٍ عليه السلام : ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾(٤) ، يريدون آيةَ الاقتراحِ وإلا فهو قد جاءَهم بما يعرفونَ به أنَّه رسولُ الله إليهم / ، فطلبُ الآيةِ بعد ذلك تعنُّتٌ [٧٥/أ]
واقتراحٌ لا يكونُ لهم عذرٌ في عدمِ الإجابةِ إليه(٥) .

---

(١) الحديد : ٢٥ .
(٢) آل عمران : ٩٦ - ٩٧ .
(٣) الأعراف : ١٠٥ – ١٠٧ .
(٤) هود : ٥٣ .
(٥) قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في تفسيره (٦٣٣) عند قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[العنكبوت:٥٠] : " وإذا كان القصدُ بيان الحقِّ من الباطل ، فإذا حصلَ المقصودُ بأيِّ طريقٍ كان اقتراحُ الآياتِ المُعيناتِ على ذلك ظلماً وجَوراً ، وتكبُّراً على اللّه وعلى الحقِّ .
بل لو قُدِّر أن تنزلَ تلك الآيات ، ويكون في قلوبهم أنَّهم لا يؤمنون بالحق إلا بها ، كان ذلك ليس بإيمانٍ ، وإنَّما ذلك شيءٌ وافق أهواءهم ؛ فآمنوا ، لا لأنَّه حقٌّ ، بل لتلك الآياتِ ! فأيُّ فائدةٍ حصلت في إنزالِها على التقدير الفرضي؟ " .

وهي هذه الآياتُ التي قال الله تعالى فيها : ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ (١) ، فعدمُ إجابَتِه سبحانه إليها إذا طلبها الكفارُ رحمة منه وإحسان ؛ فإنَّه جرَتْ سنَّتُه التي لا تبديل لها أنَّهم إذا طلبوا الآيةَ واقترَحُوها وأُجيبوا ولم يؤمنوا عُوجِلوا بعذابِ الاستئصالِ ، فلمَّا عَلِمَ سبحانه أنَّ هؤلاء لا يؤمنون ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ لم يُجِبْهُم إلى ما طلبوا ، فلم يعُمَّهم بعذاب ، لِمَا أخرجَ مِن بنِيهِم ومن أصلابِهم من عباده المؤمنين ، وإنَّ أكثَرَهم آمنَ بعد ذلك بغيرِ الآيةِ التي اقترحُوها فكان عدمُ إنزالِ الآيات المَطلوبةِ من تَمامِ حكمةِ الرَّب ورحمته وإحسانه ، بخلافِ الحُججِ فإنَّها لم تزل مُتتابعةً يتلو بعضُها بعضَاً ، وهي كلُّ يوم في مَزيدٍ ، وتوفيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر ما كانت ، وهي باقيةٌ إلى يوم القيامة (٢) .

قول علي رضي الله عنه : أولئك الأقلون عددا الأعظمون عند الله قدرا

وقولُهُ رضي الله عنه : " أولئكَ الأقلــون عـدداً ، الأعظمون عند الله قَـدْرَاً " ، يعني هذا الصنــفُ من الناس أقــلُّ الخلـق عـدداً ، وهذا سببُ عزَّتهم ؛ فإنَّهم قليلون في الناسِ ، والناسُ على خلاف طريقتِهم ، فلهم نبأٌ وللناس نبأٌ ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : ( بدأَ الإسلامُ غريباً وسيعودُ غريباً ؛ فطوبى للغرباء ) (٣) ، فالمؤمنون قليلٌ في الناس ، والعلماءُ قليلٌ في المؤمنين ، وهؤلاءِ قليلٌ في العلماءِ .

---

(١) الإسراء : ٥٩ .

(٢) قال المؤلف رحمه الله في الصواعق المرسلة (٢/٧٤١) : " إنَّ الله سبحانه أخبر أنَّ قلوبَ المؤمنين مطمئنةٌ بذكره وهو كتابه الذي هدى به عبادَه ، فقال تعالى : ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٧-٢٨]، أجابهم سبحانه عن سؤالِهم ترك إنزالِ آياتِ الاقتراحِ بجوابين ، أحدهما : أنَّها لا تُوجب إيماناً ، بل الله هو الذي يهدي من يشاء ، ويضلُ من يشاءُ ، لا الآيات التي اقترحتموها . الثاني : أنَّه نبَّهَهُم على أعظمِ الآياتِ وأشدِّها اقتضاءً للإيمان وأنَّها في اقتضائها للإيمان أبلغُ من الآيات التي تقترحُونها ، وهي كتابه الذي هو ذكرُه ، وما تضمَّنَهُ من الحقِّ الذي تطمئن إليه القلوبُ ، وتسكنُ إليه النفوسُ ، ولو كان باطلاً لم يزدْ القلوبَ إلا شكاً ورَيباً ؛ فإنَّ الكذبَ رِيبةٌ ، والصدق طمأنينةٌ ، فلو كانت كلماته وألفاظه لا تفيد اليقينَ بمدلولها ، لم تطمئن به القلوبُ ؛ فإنَّ الطمأنينة هي سكونُ القلبِ إلى الشيءِ ووثُوقه به ، وهذا لا يكون إلا مع اليقينِ ؛ بل هو اليقين بعينه " .

(٣) رواه مسلم في صحيحه (١٤٥) وغيره ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

**وإياك أن تغترَّ بما يغترُّ به الجاهلون ، فإنَّهم يقولون : لو كان هؤلاءِ على حقٍّ لم يكونوا أقلَّ الناسِ عدداً ، والناسُ على خِلافِهم !**

**فاعلم أنَّ هؤلاء هم الناسُ ، ومَن خالفهم فمُتَشَبِّهونَ بالناس ، وليسوا بناسٍ ، فما الناس إلا أهلُ الحقِّ وإنْ كانوا أقلَّهُم عدداً .**

**قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه [١] : " لا يكن أحدٌ [٢] إمَّعَةً [٣] . يعني يقولُ : أنا مع الناسِ . ليوطِّنْ أحدكم نفسَهُ على أن يؤمنَ ولو كفَرَ الناسُ " [٤] .**

**وقد ذمَّ سبحانه الأكثرين في غير موضعٍ ، كقوله تعالى :** ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [٥] ، **وقال تعالى :** ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [٦] ، **وقال تعالى :** ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [٧] ، **وقال تعالى :** ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [٨] .

**وقال بعضُ العارفين [٩] : " انفرادُكَ في طريق طلبِك دليلٌ على صدقِ الطَّلَبِ " .**

**مُتْ بـدَاءِ الـهوى وإلَّا فخَـاطِـرْ … واطْـرُقِ الـحَيَّ والعُـيُونُ نَـواظِـرْ**
**لا تَـخَفْ وَحْشَةَ الطَّريقِ إذا سِرْ … تَ وكُنْ في خَفارَةِ الحقِّ سائِـرْ [١٠]**

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

(٢) في : ص : أحدكم .

(٣) الإمَّعةُ هو : الذي لا رأي له ولا عزم ، فهو يتابع كل أحد على رأيه ، ولا يثبت على شيء . تهذيب اللغة للأزهري (١٥٨/٣) ، وتاج العروس للزبيدي (٢٨٩/٢٠) .

(٤) رواه الطبراني في الكبير (١٦٦/٩) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١٣٦/١) ، وغيرهما .

(٥) الأنعام : ١١٦ .

(٦) يوسف : ١٠٣ .

(٧) سبأ : ١٣ .

(٨) ص : ٢٤ .

(٩) أورده المؤلف رحمه الله في : مدارج السالكين (٥/٢) ، وإغاثة اللهفان (٦٩/١) .

(١٠) ذكرهما المؤلف رحمه الله ضمن أبيات في : مدارج السالكين (٥٥/٢) .

قول علي رضي الله عنه : بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم

**وقولُهُ رضي الله عنه : " بهم يَدفعُ اللهُ عن حُجَجِهِ حتى يُؤدُوها إلى نُظَرائِهم ويزرَعُوها في قلوب أشباهِهم " ؛ وهذا لأنَّ اللهَ سبحانه ضمِنَ حفظَ حُجَجِه وبيِّنَاتِه وأخبرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنَّه : ( لا تزالُ طائفةٌ من أمَّته على الحقِّ لا يضرُّهم مَن خذلهم ، ولا مَن خالَفهُم إلى قيامِ السَّاعةِ )** (١) **.**

**فلا يزالُ غرسُ اللهِ الذين غَرَسَهم في دينهِ يغرِسُون العلمَ في قلوبِ مَنْ أهَّلَهم اللهُ لذلك وارتَضَاهم ، فيكونوا ورثةً لهم كما كانوا هم ورَثَةً لمَن قبلَهُم ، ولا تنقطعُ حُجَجُ اللهِ والقيامُ بها** (٢) **مِن الأرضِ .**

**وفي الأثرِ المشهورِ : " لا يزالُ اللهُ يغرسُ في هذا الدين غَرساً يستَعملهم بطاعتِهِ "** (٣) **.**

**وكان من دعاءِ بعضِ من تقدَّمَ : اللهم اجعلني من غَرسِك الذين تستعملهم بطاعتِك .**

**ولهذا ما أقامَ اللهُ لهذا الدِّينِ مَن يحفظُهُ ثمَّ قبضَهُ إليه إلا وقد زَرَعَ ما علَّمَهُ من العلم والحكمةِ ؛ إمَّا في قلوبِ أمثالِه ، وإمَّا في كُتبٍ يَنتفعُ بها الناس بعدَه .**

**وبهذا وغيرِهِ فَضَلَ العلماءُ العُبَّادَ ؛ فإنَّ العالِم إذا زرعَ علمَهُ عند غيره ثم ماتَ جرى عليه أجرُهُ ، وبقي له ذكرُهُ ، وهو عمرٌ ثانٍ ، وحياةٌ أخرى ، وذلك أحقُّ ما تنافس فيه المُتنافسون ، ورَغِبَ فيه الرَّاغبون** (٤) **.**

قوله رضي الله عنه هجم بهم العلم على حقيقة الأمر

**وقولُهُ رضي الله عنه : " هجمَ بهم العلمُ على حقيقةِ الأمرِ ، فاستَلانُوا ما استوعَرَهُ المُترفونَ ، وأنِسُوا مِمَّا استوحَشَ منه الجاهلون " .**

---

(١) تقدَّم تخريجه ص : ٤٣٠ .

(٢) في د ، ص : والقائم بها ، وفي طرة د : " لعله والقيام " .

(٣) تقدَّم تخريجه ص : ٤٣٢ .

(٤) قال المؤلف رحمه الله عن مرتبة خلافة الرسالة : " فيا لها مِن مَرتبةٍ ما أعلاها ، ومَنْقَبةٍ ما أجلها وأسنَاها ، أن يكون المرءُ في حياتِه مشغولاً ببعض أشغاله ، أو في قبرِه قد صارَ أشلاء مُتمزِّقةً ، وأوصالاً مُتفرقةً ، وصُحفُ حسناتِه مُتزايدةً يُملى فيها الحسنات كلَّ وقتٍ ، وأعمالُ الخيرِ مُهداةٌ إليه من حيثُ لا يحتسب ، تلك واللهِ المَكارمُ والغنائمُ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، وعليه يحسد الحاسدون ، وذلك فضلُ الله يُؤتيه مَن يشاءُ ، والله ذو الفضل العظيم وحقيقٌ بمرتبةٍ هذا شأنُها أن تنفقَ نفائسُ الأنفاسِ عليها ، ويسبقَ السابقون إليها ، وتوفر عليها الأوقاتُ ، وتتوجَّهُ نحوها الطلبات " طريق الهجرتين (٦٩٦) .

الهجومُ على الرَّجلِ : الدُّخولُ عليه بلا استئذانٍ (١) .

ولمَّا كانت طريقُ الآخرةِ وعِرَةً على أكثرِ الخلقِ لمُخالفتها لشهواتِهم ، ومُباينَتِها لإرادتِهم ومَألوفَاتِهم قلَّ سالِكُوها ، وزهَّدَهُم فيها قلَّةُ علمِهم أو عَدَمُهُ ، بحقيقةِ الأمرِ وعاقبةِ العباد ومصيرِهم وما هُيِّئوا له وهُيِّئَ لهم ، فقلَّ علمُهم بذلك ، واستَلانُوا مَركبَ الشَّهوةِ والهوى على مركبِ الإخلاصِ والتقوى ، وتوعَّرتْ عليهم الطريقُ ، وبَعُدت الشُّقَّةُ وصَعُبَ عليهم مُرتقى عِقابِها ، وهبوطُ أودِيَتِها ، وسلوكُ شِعابِها ؛ فأخلدوا إلى الدَّعَةِ والرَّاحةِ ، وآثروا العاجل على الآجل ، وقالوا : عيشُنا اليومَ نقدٌ وموعُودُنا نَسِيئَةٌ ، فنظروا إلى عاجلِ الدنيا ، واغمضوا العيونَ عن آجلِها ، ووقفوا مع ظاهرٍ فيها ولم يتأملوا باطنَها وذاقوا حلاوةَ مبادِيها ، وغاب عنهم مرارةُ عواقِبِها ، ودَرَّ لهم ثديُها فطاب لهم الارتضاعُ واشتغلوا به عن التفكُّر في الفِطامِ ومَرارةِ الانقطاعِ ، وقال مُغترُّهم بالله وجاحِدُهم لعظمته وربوبيته مُتمثِّلاً في ذلك :

خُـــذْ ما تَـراه ودَعْ شيئاً سمِعتَ بـــه (٢)

وأما القائمونَ لله بحُجَّته ، خُلفاءُ نبيهِ صلى الله عليه وسلم في أمَّتهِ ، فإنَّهم لكمال علمِهم وقوَّته نَفَذَ بهم إلى حقيقةِ الأمرِ ، وهجمَ بهم عليه ، فعاينوا ببصائرِهم ما عَشِيَتْ عنه بصائرُ الجاهلينَ ، فاطمأنَّت قلوبُهم به ، وعملوا على الوصولِ إليه بما باشرَها (٣) من روحِ اليقين .

رُفِــعَ لهم علــمُ السعــادةِ فشمَّــروا إليــه ، وأسْمَعَهـم مُنادي الإيمانِ النداءَ فاستبقوا إليه ، واستيقنت أنفسُهــم مــا وعــدَهــم بــه ربُّهــم ؛ فـزَهِـدوا فيما ســواه ، ورغبـوا فيما لديه .

---

(١) قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة (٣٧/٦) : " الهاءُ والجيمُ والميمُ : أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على وُرودِ شيءٍ بَغتةً " وينظر : الصحاح للجوهري (٢٠٥٥/٥) ، ولسان العرب لابن منظور (٦٠٠/١٢) ، وتاج العروس للزبيدي (٦٩/٣٤) .

(٢) صدر بيت للمتنبي ، ديوانه (١٥٩) ، وشطره الأخير : في طلعةِ الشمسِ ما يُغنيك عن زُحَلِ .

(٣) في : د ، ص : لِمَا باشرها .

علموا أنَّ الدنيا دارُ مَمرٍّ لا دار مقرٍّ ، ومنزلُ عُبورٍ لا مقعدَ حُبورٍ ، وأنَّها خيالُ طيفٍ أو سحابةُ صيفٍ ، وأنَّ مَنْ فيها كراكبٍ قالَ (١) تحتَ ظِلِّ شجرةٍ ، ثم راحَ عنها (٢) وتركها ، وتيقنوا أنَّها:

أحــــــلامُ نــومٍ أو كظــلٍّ زائِــلٍ ... إنَّ اللَّبِيبَ بمِثْلِـهـا لا يُـخْـدَعُ (٣)

وأنَّ واصِفَها صدَقَ في وصفِها إذ يقولُ (٤) :

أرى أشقِيَــاءَ النَّـاسِ لا يسْأمُونَهـا ... على أنَّــهم فيهـا عُـرَاةٌ وجُـوَّعُ

أراهـا وإنْ كانت تُـحَـبُّ فإنَّـهـــا ... سحَابَةُ صيْـفٍ عن قلِيلٍ تَقَشَّعُ

فرَحَلَتْ عن قلوبهم مُدبرةً كما ترَحَّلت عن أهلها مُوليةً ، وأقبلت الآخرةُ إلى قلوبهم مُسرعةً كما أسرَعَت إلى / الخلقِ مُقبلةً ، فامتطوا ظُهورَ العزائمِ ، وهجروا لذَّةَ المنامِ [٧٦/أ] وما ليلُ المُحبِّ بنائمٍ .

علموا طولَ الطريقِ ، وقلَّةَ المُقامِ في منزل التَّزودِ فسارعوا في الجَهازِ ، وجدَّ بهم السيرُ إلى منازلِ الأحبابِ ، فقطعوا المراحلَ ، وطوَوُا المَفاوِزَ .

وهذا كلُّه من ثمراتِ اليقين ؛ فإنَّ القلبَ إذا استيقنَ ما أمامَهُ مِن كرامةِ الله ، وما أعدَّهُ لأوليائه ـ بحيث كأنَّه ينظرُ إليه من وراءِ حجابِ الدنيا ، ويعلمُ أنَّه إذا زال الحجابُ رأى ذلك عيانـاً ـ زالت عنه الوحشَةُ التي يجدُها المتخلِّفونَ ، ولانَ له ما استوعَرَهُ المُتْرَفون .

وهذه المرتبةُ هي أوَّلُ مراتبِ اليقين . وهي علْمُهُ وتيقُّنُه . وهي انكشافُ المَعلومِ للقلب بحيثُ يُشاهدهُ ولا يشكُّ فيه ، كانكشافِ المَرئيِّ للبَصرِ . مراتب اليقين

---

(١) القَيْلُولةُ هي : نَوْمةُ نِصفِ النَّهار . الصحاح للجوهري (١٨٠٨/٥) ، ولسان العرب لابن منظور (٥٧٢/١١) .

(٢) " عنها " ليست في : د ، ص .

(٣) لعِمْران بن حِطَّان بن ظَبْيان السَّدُوسيّ ، ينظر : روضة العقلاء لابن حبان البستي (٢٨٧) ، والبصائر والذخائر للتوحيدي (٦٣/٣) ، وربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري (١٤٩/٢) ، وديوان شعر الخوارج جمع د. إحسان عباس (٢٣) ونسبه الزَّوْزَني في حماسة الظرفاء (٩) لسليمان بن يزيد العدوي .

(٤) القائل : عِمْران بن حِطَّان . ينظر : التذكرة الحمدونية لابن حمدون (١٦٧/١) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (١٥٧/٦) ، والبداية والنهاية لابن كثير (٦٥/٩) ، وديوان شعر الخوارج جمع د. إحسان عباس (٢٣) .

ثمَّ يليها المرتبـةُ الثانيـةُ ؛ وهي مرتبةُ عينِ اليقينِ ، ونسبتُها إلى العينِ كنسبةِ الأول إلى القلب .

ثمّ تليها المرتبـةُ الثالثـةُ ؛ وهي حقُّ اليقينِ ، وهي مُباشرةُ المَعلوم وإدراكُهُ الإدراكَ التّـامَّ .

فالأولى كعلمِك بأنَّ في هذا الوادي ماءً ، والثانية كرؤيتِهِ ، والثالثة كالشُّرْبِ منه (١).

ومن هذا ما يُروى (٢) في حديثِ حارثةَ رضي الله عنه (٣) ، وقولِ النبي صلى الله عليه وسلم : ( كيف أصبحتَ يا حارثةُ ؟ ) قال : أصبحتُ مُؤمناً حقًّاً ، قال : ( إنَّ لكلِّ قولٍ حقيقـةً ، فما حقيقـةُ إيمانِـك ؟ ) قـال : عَـزَفَـتْ نفسـي عن الدنيا وشهواتِها فأسهَرْتُ ليلـي ، وأظمأتُ نهـاري ، وكأنِّـي أنظـرُ إلى عرشِ ربِّـي بـارِزاً ، وكأنِّي أنظـرُ إلى أهـلِ الجنةِ يتزاوَرُونَ فيها ، وإلى أهـلِ النارِ يتعاوَوْنَ فيها ، فقال : ( عَبْـدٌ نَـوَّرَ الله قلْـبَـهُ ) .

فهذا هو هجومُ العلمِ بصاحبه على حقيقةِ الأمرِ ، ومَن وصلَ إلى هذا استلانَ ما يستَوعِرُهُ المُترفـونَ ، وأنِـسَ مِمَّا يستوحشُ منه الجاهلـون ، ومَن لم يَثْبُتْ قَدَمَ

(١) قال المؤلـف رحمه الله " الفرقُ بين علمِ اليقينِ وعينِ اليقين : كالفرقِ بين الـخبر الـصادقِ والعِيان ، وحقُّ اليقين : فوق هذا .

وقد مثلتُ المـراتبَ الثلاثَ بمن أخبركَ : أنَّ عنده عسلاً ، وأنت لا تشكُّ في صدقهِ ، ثمَّ أراكَ إياهُ فازددتَ يقيناً ، ثمَّ ذُقْتَ منه ، فالأولُ : علم اليقين ، والثاني : عين اليقين ، والثالثُ : حق اليقين .

فعلْمُنا الآن بالجنة والنار : علمُ يقينٍ ، فإذا أُزلفت الجنةُ في الموقفِ للمتقين ، وشاهَدَها الـخلائِقُ ، وبرزت الجحيمُ للغاوين ، وعايَنها الـخلائِقُ ؛ فذلك : عينُ اليقين ، فإذا أُدخلَ أهلُ الـجنةِ الجنةَ ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ فذلك حينئذٍ : حق اليقين " مدارج السالكين (٢/٤٠٣) .

(٢) رواه البزار في المسند (٣/٣٣٣) ، ومحمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/٣٥٩) ، والعقيلي في الضعفاء (٤/٤٥٥) ، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/١٥٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، وقال العقيلي : " ليس لـهذا الحديث إسناد يثبت " ، وقال ابن رجب في التخويف من النار (٥١) : " و هو حديث روي من وجوه مُرسلاً ، وروي مُسنداً مُتصلا من روايةِ يوسف بن عطية الصَّفار ، وفيه ضَعفٌ " ثم قال : " والمرسل أصحُّ " .

(٣) حارثة بن مالك الأنصاري ، وقيل اسمه : الحارث ، ينظر : أسد الغابة لابن الأثير (١/٦٣٥) ، والإصابة لابن حجر (١/٦٨٩) .

إيمانِهِ على هذه الـدرجةِ فهو إيمانٌ ضعيفٌ ، وعلامةُ هذا انشـراحُ الصَّـدرِ لمَنازِلِ الإيمانِ وانفساحُهُ ، وطمأنينةُ القلبِ لأمر الله ، والإنابةُ إلى ذكر الله ، ومحبَّتُهُ ، والفرحُ بلقائِه ، والتَّجافي عن دارِ الغُرورِ ؛ كما في الأثرِ المشهورِ (١) : ( إذا دخلَ النُّورُ القلبَ انفسحَ وانْشَرحَ ) ، قيل : وما علامةُ ذلك ؟ ( قال : التَّجافي عن دارِ الغُرورِ ، والإنابةُ إلى دارِ الخُلودِ ، والاستعدادُ للموت قبل نزولهِ ) .

وهذه هي الحالُ التي كانت تحصلُ للصحابة عند النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكَّرهم الجنةَ والنارَ ؛ كما في الترمـذي (٢) وغيره من حديث الجُرَيْرِيِّ (٣) عن أبي عثمان النَّهدي (٤) عن حنظلة الأسدي (٥) وكان من كُتَّاب النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه مَرَّ بأبي بكر رضي الله عنه وهو يبكي ، فقال : مالك يا حنظلةُ ؟ فقال نافَقَ حنظلةُ يا أبا بكرٍ نكونُ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يُذكِّرُنا بالجنة والنار كأنَّا رأي عينٍ ، فإذا رجعنا عافَسْنَا (٦) الأزواجَ والضَّيْـعَةَ (٧) ، نسينا كثيـراً ، قال : فـوالله إنَّا لكذلك ، انْطَلِـقْ بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلقنا ، فلمَّا رآه رسول الله صلى الله عليه

(١) عن ابن مسعود رضي الله عنه ، رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٥٤٢/٩) ، والحاكم في مستدركه (٣١١/٤) وهو مرسل لا يصح رفعه . ينظر : السلسلة الضعيفة للألباني (٣٨٣/٢) .

(٢) برقم (٢٥١٤) ، وهو في صحيح مسلم (٢٧٥٠) .

(٣) سعيد بن إياس الجُرَيْريّ ، أبو مسعود البصري ، الإمام ، المُحدِّث ، الثقة ، من كبار العلماء ، قال عنه الإمام أحمد : الجُرَيْرِيُّ مُحدِّثُ أهلِ البصرة . توفي عام : ١٣١ هـ .
تهذيب الكمال للمزي (١٣٨/١٠) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٥٣/٦) .

(٤) سبقت ترجمته ص : ٢٥٤ .

(٥) حنظلـةُ بن الـرَّبيـع بن صَيفـي بن رَبَـاح بن الحـارث التَّمِيمي ، من بني أُسَيِّـدِ بن عـمرو بن تميم من أشـراف بني تميم ، يُكنى بأبي رِبْعي ، ويقالُ لـه : حنظلةُ الأُسَيِّديُّ ، وحنظلة الكاتب ؛ لأنه كان كاتبا للنبي صلى الله عليه وسلم ، توفي في زمن معاوية رضي الله عنه .
الاستيعاب لابن عبد البر (٣٧٩/١) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٨٤/٢) ، والإصابة لابن حجر (١١٧/٢) .

(٦) المُعَافَسة : المُعَالجةُ ، والمُمَارسةُ ، والمُلاعَبةُ . النهاية في غريب الأثر لابن الأثير (٥١٧/٣) ، ولسان العرب لابن منظور (١٤٣/٦) .

(٧) ضَيْعةُ الرَّجلِ : حِرْفَتُه وصِناعتُه ومعاشُه وكسبُهُ. لسان العرب لابن منظور (٢٢٨/٨) .

وسلم قال : مالكَ يا حنْظلةُ ؟ قال : نافَقَ حنظلةُ يا رسول الله ! نكونُ عندك تُذكِّرنا بالنـــارِ والجنـــةِ كأنَّا رأي عينٍ ، فإذا رجعنا عافَسْنَا الأزواجَ والضَّيعةَ ، ونسينا كثيـــراً قـــال : فقـــال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : ( لو تدُومون على الحالَ التي تقومون بها من عندي لصافَحَتْكُم الملائكةُ في مجالسكم ، وفي طُرُقِكم ، وعلى فُرُشِكُم ولكنْ يا حنظلةُ ساعةً وساعةً ، ساعةً وساعةً ) ، قال الترمذيُّ : " هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ " .

وفي الترمذيِّ أيضاً نحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (١) .

والمقصـودُ أنَّ الذي يهجـمُ بالقلـب على حقيقـةِ الإيمـان ، ويُلَيِّنُ له ما يستَوعِـرُه غيرُهُ ، ويُؤْنِسُهُ بما يَستوحِشُ منه سواهُ : العِلمُ التَّامُّ ، والحُبُّ الخالصُ .

والحُبُّ تبعٌ للعلم يقوى بقوتِه ، ويضعُفُ بضعفِه ، والمُحِبُّ لا يستَوعِرُ طريقاً تُوصله إلى مَحبوبِه ، ولا يستوحِشُ فيها .

قول علي رضي الله عنه : صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها معلَّقة بالملأ الأعلى

وقولُـهُ رضي الله عنه : " صَحِبـوا الـدنيا بأبـدانٍ أرواحُـــها مُعلَّقــةٌ بالــملأِ الأعلى " وفـــي روايـــةٍ : " بالمَحَـــلِّ الأعـــلى " ، الـــرُّوحُ فـي هذا الجسدِ فـي دارِ غُربـــةٍ ولها وطَـــنٌ غيرُه ، فـــلا تستقِـــرُّ إلا في وطَـنِها ، وهي جوهـــرٌ عُلـــويٌّ ، مخلـــوقٌ مـــن مـــادَّةٍ عُلويَّـــةٍ ، وقـــد اضطـــرَّت إلى مُساكنـــةِ هذا البـــدنِ الكثيـــفِ ، فـهي دائـــماً تطلب وطَنَهَا في المَحلِّ الأعلى ، وتحِـــنُّ إليه حنينَ الطيرِ إلى أوكارها ، وكـــلُّ روحٍ ففيها ذلــك ، ولكـــنْ لفَـــرْطِ اشتغالِها بالبـــدنِ بالـمَحُسَوساتِ المَالُوفةِ أخلَدَتْ إلى الأرض ، ونسِيت مَحلَّها ووطَنَها الذي لا راحةَ لها في غيرِه ، فإنَّه لا راحةَ للمؤمن دون لقـــاءِ ربِّـــه ، والـــدنيا سجْنُهُ حقـاً (٢) ، فلهذا تجدُ المؤمنَ بدنُهُ في الدنيا ورُوحُه في المحلِّ الأعلى .

وفي الحديثِ المرفوعِ : ( إذا نامَ العبدُ وهو ساجدٌ باهَى اللهُ به الملائكةَ ، فيقول :

(١) برقم (٢٥٢٦) ، وقال الترمذي : " ليس إسناده بذاك القوي ، وليس هو عندي بمتصل " .

(٢) في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( الدُّنيا سجنُ المؤمنِ ، وجنَّةُ الكافرِ ) رواه مسلم في صحيحه (٢٩٥٦) .

انظُروا إلى عبدي بدَنُهُ في الأرض ، ورُوحُه عندي ) رواه تمَّامٌ (١) وغيره (٢) .

وهذا معنى قولِ بعضِ السَّلفِ : " القلوبُ جَوَّالةٌ ؛ فقلبٌ حول الحُشِّ (٣) ، وقلبٌ يطوف مع الملائكةِ حولَ العرشِ " (٤) ، فأعظمُ عذابِ الرُّوحِ انغماسُها وتدسِيسُها (٥) في أعماقِ البدن ، واشتغالُها بمَلاذِّهِ ، وانقطاعُها عن مُلاحظةِ ما خُلقتْ له وهُيِّئت له ، وعن وطنِها ومحلِّها ، ومحلِّ أُنْسِها (٦) ، ومنزلِ كرامَتِها .

ولكنَّ سُكرَ الشَّهوات يحجُبُها عن مُطالعة هذا الألمِ والعذابِ ، فإذا صَحَتْ من سُكرها ، وفاقَت من غمرتِها ، أقبلت عليها (٧) جيوشُ الحسراتِ من كلِّ جانبٍ فحينئذٍ تتقطعُ حسراتٍ على ما فاتها من كرامةِ الله ، وقُرْبِهِ ، والأُنسِ به ، والوصولِ إلى وطنِها الذي لا راحةَ لها إلا فيه ، كما قيل (٨) :

صَحِبْتُكَ إذ عَيْنِي عليها غِشَاوَةٌ فلمَّا انْجَلَتْ قطَّعتُ نفْسِي ألومُها

---

(١) تمَّام بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن الجُنيد البَجَلِيُّ الرازيُّ الدِّمشقيُّ ، مغربي الأصل ، الإمام الحافظ ، مُحدثُ دمشق في زمانه ، من مؤلفاته : فوائد في الحديث ، وأخبار الرُّهبان ، توفي عام : ٤١٤ هـ . تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٣/١١) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢٨٧/١٧) .

(٢) رواه تمام في فوائده (٢٥٥/٢) ، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٩٢/٤١) ، وكذا البيهقي في الخلافيات (١٤٣/٢) عن داود بن الزِّبرقان عن سليمان التيمي عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً . وداود بن الزِّبرقان ضعيف ، قال عنه ابن حبان في المجروحين (٢٩٢/١) : " يأتي عن الثقات بما ليس من أحاديثهم " ، وقال الحافظ ابن حجر في التقريب (١٩٨/١) : " متروك " .

(٣) الحُشُّ . بضم الحاء وفتحها . وهو : موضعُ قضاءِ الحاجة . والحشوش في الأصل : جمعُ الحَشِّ ، وهو البستان من النخلِ وكانوا يتغوّطون فيها ، لذا سُمِّيَ موضعُ الخلاَءِ حُشّاً . تهذيب اللغة للأزهري (٢٥٤/٣) ولسان العرب لابن منظور (٢٨٣/٦)

(٤) رواه أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية (١٠٤) عن أحمد بن خَضْرَوَيْه ، ومن طريقه رواه ابن الجوزي في ذم الهوى (٩٨) ، وينظر : معاني الأخبار للكلاباذي (١٢٢) ، وصفة الصفوة لابن الجوزي (٢٤١/٢) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤٨٨/١١) .

(٥) الدَّسُّ : الإخفاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل:٥٩] . الصحاح للجوهري (٩٢٨/٣) ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (٣٤٠/٢) .

(٦) في : ص : وعن وطَنِها ومحلِّ أُنْسِها .

(٧) في النسخ : : عليه " ، والمُثبت أليق بالسياق .

(٨) القائل : مجنون ليلى قيس بن المُلَوَّح ، ديوانه (١٩٨) ، وفيه : عَلِقْتُكِ إذ عيني .... .

ولو تنقَّلت الرُّوح في المواطنِ كلِّها والمنازلِ لم تستقرَّ ولم تطمئنَّ إلا في وطنِها ومحلِّها الذي خُلقت له ، كما قيل (١) :

نَقِّلْ فؤادَكَ حيثُ شئْتَ من الهوى ... ما الحُبُّ إلا للحَبِيبِ الأوَّلِ

كمْ مَنزلٍ في الأرضِ يألَفُهُ الفَتَى ... وحَنِينُهُ أبَداً لأوَّلِ مَنزِلِ

وإذا كانت الرُّوح تحنُّ أبداً إلى وطنِها من الأرض مع قيام غيره مَقامَه في السُكنى ، وكثيراً ما يكون غيرُ وطنها أحسنَ وأطيبَ منه ، وهي إنَّما تحِنُّ إليه مع انَّه لا ضررَ عليها ولا عذابَ في مُفارقته إلى مثلِهِ ، فكيف بحنينِها إلى الوطنِ الذي في فراقِها له عذابُها والمُها وحسرتُها التي لا تنقَضِي !

فالعبد المؤمنُ في هذه الدارِ سَبْيٌ سُبِيَ من الجنةِ إلى دارِ التَّعبِ والعناءِ ، ثمَّ ضُرب عليه الرِّقُّ فيها ، فكيف يُلامُ على حنينِهِ إلى داره التي سُبِيَ منها ، وفُرِّقَ بينه وبين مَن يُحِبُّ ، وجُمِعَ بينه وبين عدوِّه !

فروحُتهُ دائماً مُتعلَّقةٌ بذلك الوطنِ ، وبدنُهُ في الدنيا .

ولي من أبياتٍ في ذلك (٢) / : [٧٧/أ]

وحَيَّ على جنَّاتِ عَدْنٍ فإنَّها ... مَنَازِلُكَ الأُولَى وفيها المُخَيَّمُ

ولكنَّنَا سَبْيُ العَدُوِّ فهلْ تَرى ... نعُودُ إلى أوْطَانِنا ونُسَلَّمُ

وكلَّما أراد منه العدو نسيانَ وطنِه ، وضَرْبَ الذِّكرِ عنه صَفْحاً ، وإيلافَهُ وطناً غيره ، أبَتْ ذلك روحُه وقلبُه ، كما قيل (٣) :

يُرَادُ مِن القلْبِ نسيانُكُم ... وتأبَى الطِّبَاعُ على النَّاقِلِ

ولهذا كان المؤمن غريباً في هذه الدَّارِ ، أين حلَّ منها فهو في دارِ غُربةٍ ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : ( كُنْ في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ ) (٤) ، ولكنَّها غُربةٌ تنقَضي ويطيرُ إلى وطنهِ ومنزلِهِ ، وإنَّما الغربةُ التي لا يُرجى انقطاعُها ، فهي غربةٌ في

---

(١) القائل : أبو تمَّام ، وقد تقدم ص : ٦٥ .

(٢) هذان البيتان من قصيدة المؤلف الموسومة بالميمية ، وهي مئتان وتسعة وعشرون بيتاً ، وقد تقدما ص : ٦٥ .

(٣) للمتنبي ، ديوانه (١٥٠) .

(٤) رواه البخاري (٦٤١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

دارِ الهوانِ ، ومُفارقةُ وطنهِ الذي كان قد هُيِّئَ له ، وأُعِدَّ له ، وأُمِرَ بالتَّجهيزِ إليه والقدومِ عليه ، فأبى إلا اغترابَهُ عنه ، ومُفارَقته له ، فتلك غُربةٌ لا يُرجى إيابُها ، ولا يُجبرُ مُصابُها .

ولا تُبادِرْ إلى إنكارِ كون البدنِ في الدنيا والرُّوحِ في الملأ الأعلى ؛ فللرُّوحِ شأنٌ وللبدنِ شأنٌ ، والنَّبي صلى الله عليه وسلم كان بين أظهرِ أصحابه وهو عند ربِّه يُطعِمُه ويسقِيهِ ، فبدنُه بينهم ، ورُوحهُ وقلبُه عند ربِّه (١) .

وقال أبو الدَّرداءِ رضي الله عنه (٢) : " إذا نامَ العبدُ عُرِجَ بروحِه إلى تحت العرشِ ، فإن كان طاهراً أُذِنَ لها بالسُّجودِ ، وإنْ لم يكن طاهراً لم يُؤذن لها بالسُّجود " (٣) .

فهذه والله أعلم هي العلة التي أُمِرَ الجُنُبُ لأجلها أن يتوضَّأَ إذا أراد النوم (٤) .

وهذا الصُّعودُ إنَّما كان لتجرُّدِ الروحِ عن البدن بالنومِ ، فإذا تجرَّدت بسببٍ آخرَ حصل لها من التَّرقِّي والصُّعود بحسبِ ذلك التَّجردِ .

وقد يقوى الحُبُّ بالمُحبِّ حتى لا يُشاهَدَ منه بين الناسِ إلا جسمُهُ ، ورُوحُه في موضعٍ آخرَ عند محبوبِهِ .

وفي هذا من أشعارِ الناس وحكاياتهم ما هو معروفٌ (٥).

---

(١) تقدَّم كلام المؤلف رحمه الله في قوله صلى الله عليه وسلم : ( إنِّي لستُ كهيئتِكُم ، إنِّي أظلُّ عند ربي يُطعمني ويَسقِيني ) ، ينظر ص : ١٣٣ .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٦ .

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد (٤٤١/١) وفيه : عثمان بن نُعَيم الرُّعَيْنِيُّ ، وهو مجهول ، كما في التقريب لابن حجر (٣٨٧/٢) .

(٤) يشير إلى حديث ابن عمر رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيرقُدُ أحدُنا وهو جُنُبٌ ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( نعم ، إذا توضَّأَ أحدُكم فليرقُد وهو جنبٌ ) رواه البخاري (٢٨٧) ، ومسلم (٣٠٦) .

(٥) قال المؤلف رحمه الله في طريق الهجرتين (٦٠١) : " فإنَّ المحبةَ تُوجبُ سفرَ القلب نحو المحبوبِ دائماً والمحبةُ وطنُه ، والمُحبُّ في وطنِه قاطنٌ ، وتُوجبُ مُثولَه وقيامَه بين يدي محبوبِه ، وهو قاعِدٌ ، وتجافيه عن مضجعِه ومُفارقته إياه ، وهو فيه راقدٌ ، وفراغَه لمحبُوبِه كلِّه ، وهو مشغولٌ في الظَّاهر بغيرِهِ ، كما قال بعضهم :

وأُديمُ نحو مُحدِّثِي ليرى ... أنْ قَدْ عَقِلْتُ وعندَكُم عَقْلِي " .

قول علي رضي الله عنه : أولئك خلفاء الله في أرضه

**وقولُهُ رضي الله عنه : " أولئك خُلفاءُ الله في أرضه ، ودعاتُه إلى دينه " ؛ هذا حُجَّةُ أحدِ القَولين في أنَّه يجوزُ أن يُقالَ : فلانٌ خليفةُ الله في أرضه .**

حجج من جوَّز أن يقال : خليفة الله في أرضه

**واحتجَّ أصحابُه أيضاً بقوله تعالى للملائكة : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [1] . واحتجوا بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [2] ، وهذا خطاب لنوع الإنسان .**

**وبقوله تعالى : ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [3] .**

**وبقول موسى لقومِه : ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [4] .**

**وبقولِ النبي صلى الله عليه وسلم : ( إنَّ الله مُمَكِّنٌ لكم في الأرض ، ومُستخلِفُكم فيها ، فناظرٌ كيف تعملون ؛ فاتقوا الدنيا ، واتقوا النِّساءَ ) [5] .**

**واحتجوا بقول الرَّاعي [6] يُخاطبُ أبا بكرٍ رضي الله عنه [7] :**

---

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) الأنعام : ١٦٥ .

(٣) النمل : ٦٢ .

(٤) الأعراف : ١٢٩ .

(٥) رواه مسلم (٢٧٤٢) بنحوه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٦) عُبَيْد بن حُصين بن معاوية بن جَندل النُّمَـيْريّ ، أبو جندل ، شاعر أموي ، لُقِّبَ بالرَّاعي لكثرةِ وصفهِ الإبل وقيل : لأنَّه كان راعي إبلٍ ، عاصر جريرا والفرزدق ، توفي عام : ٩٠ هـ . ينظر : طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي (٥٠٢/٢) ، والشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٧٠) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٥٩٧/٤) .

(٧) لم يكن خطابه لأبي بكر رضي الله عنه ، حيث لم يدرك أبا بكر رضي الله عنه ، وإنما كان يُخاطب بالقصيدة عبدَ الملك بن مروان ، حيث مدحه بها وشكا فيها سُعاتَه العاملين على الزكاة . ينظر : جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي (٧٣٦) ، والزاهر لابن الأنباري (٣١٢/١) ، والمُوشح للمرزباني (٢٠٧) ، ومنتهى الطلب في أشعار العرب لابن ميمون (٢٣٦) ، وقال ابن ميمون عن الرَّاعي النُّمَيري : "كان يقول : مَن لمْ يروِ لي هذه القصيدة وقصيدتي : ( بانَ الأحبةُ بالعهد الذي عهدوا ) من وَلَدِيْ ؛ فقد عقَّنِي ".

أخَلِيفةَ الرَّحمَنِ إنَّا مَعْشَرٌ حُنَفَاءُ نسْجُدُ بُكْرَةً وأصِيلا
عَرَبٌ نَرى للهِ في أموالِنَا حَقَّ الزَّكَاةِ مُنَزَّلاً تنْزِيلا [١]

حجج من منع أن يقال : خليفة الله في أرضه

ومنعتْ طائفةٌ هذا الإطلاقَ [٢] ، وقالت : لا يُقال لأحدٍ أنَّه خليفةُ الله ؛ فإنَّ الخليفة إنَّما يكون عمَّن يغيبُ ويخلُفه غيره ، والله تعالى شاهِدٌ غيرُ غائبٍ ، قريبٌ غيرُ بعيدٍ ، راءٍ وسامعٌ ، فمُحالٌ أن يخلُفَهُ غيرُه ، بل هو سبحانه الذي يخْلُفُ عبدَه المؤمنَ فيكونُ خليفَتَهُ ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديثِ الدَّجال : ( إنْ يخرجْ وأنا فيكم فأنا حجِيجُهُ دونكم ، وإن يخرجْ ولستُ فيكم ؛ فامرؤٌ حَجيجُ نفسهِ ، والله خليفَتِي على كلِّ مؤمنٍ ) ، والحديث في " الصحيح " [٣] .

وفي " صحيحِ مسلمٍ " أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما [٤] أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقولُ إذا سافرَ : ( اللهمَّ أنت الصَّاحبُ في السَّفرِ والخليفةُ في الأهلِ ...) الحديث [٥] .

وفي " الصحيح " [٦] أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : ( اللهمَّ اغفرْ لأبي سلَمَة [٧] وارفعْ درجَتَه في المهديين ، واخلُفْهُ في أهلِه ) .

فالله تعالى هو خليفةُ العبدِ لأنَّ العبدَ يموت فيحتاجُ إلى مَن يخْلُفُهُ في أهله .

قالوا : ولهذا أنكرَ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه على مَن قال له : يا خليفةَ اللهِ !

---

(١) ينظر : المصادر السابقة .

(٢) ينظر تفصيل المسألة في : الأحكام السلطانية للماوردي (٣٩) ، والأحكام السلطانية للقاضي أبي يعلى (٢٧) والأذكار للنووي (٣٦٠) ، ومنهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥١٠/١ و ٣٥٢/٧) ، ومجموع الفتاوى له (٤٣/٣٥) ، والفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي (٩٩) ، وزاد المعاد للمؤلف (٤٧٤/٢) ، ومدارج السالكين (١٢٦/٢) .

(٣) في صحيح مسلم (٢٩٣٧) عن النَّواس بن سمعان رضي الله عنه .

(٤) سبقت ترجمته ص : ٢٣٦ .

(٥) صحيح مسلم (١٣٤٢).

(٦) صحيح مسلم (٩٢٠) .

(٧) عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القُرشي المَخْزُومِي ، أبو سلمة زوجُ أمِّ سلمة قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، أُمُّه برَّةُ بنت عبد المطلب بن هاشم ، من السابقين إلى الإسلام ، توفي عام : ٣ هـ . الاستيعاب لابن عبد البر (٩٣٩/٣) ، والإصابة لابن حجر (١٣١/٤) .

**قال : " لستُ بخليفةِ الله ، ولكنْ خليفةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وحسبي ذلك " (١) .**

**قالوا : وأمَّا قوله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (٢) ، فلا خلاف أنَّ المُراد به آدمُ وذريَّتُه .**

**وجمهورُ أهلِ التفسير من السَّلف والخَلفِ على أنَّه جعله خليفةً ممَّن كان قبله في الأرضِ :**

**قيل : عن الجنِّ الذين كانوا سُكَّانَها (٣) .**

**وقيل : عن الملائكة الذين سكنُوها بعد الجنِّ ، وقصَّتُهم مذكورةٌ في التَّفاسير (٤) .**

**وأمَّا قولُه تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ (٥) ، فليس المُرادُ به خلائفَ عن الله ، وإنَّما المُرادُ به أنَّه جعلكم يخلُفُ بعضُكم بعضاً ، فكلَّما هلك قَرْنٌ خلَفَه قَرْنٌ إلى آخرِ الدهرِ.**

**ثم قيلَ : إنَّ هذا خطابٌ لأمَّةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم خاصةً ؛ أي : جعلكم خلائفَ من الأُمَمِ الماضيةِ ، فهَلَكوا ووَرِثتُم أنتم الأرضَ من بعدهم (٦) .**

**ولا ريب أنَّ هذا الخطابَ للأمَّةِ ، والمُرادُ نوعُ الإنسان الذي جعلَ الله أباهم خليفةً عمَّن قبله ، وجعل ذُرِّيتَهُ يخلفُ بعضُهم بعضاً إلى قيام الساعة.**

---

(١) رواه أحمد (١/١٠ – ١١) ، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/٤٣٢) ، والخلال في السنة (١/٢٧٤) ، عن ابن أبي مليكة قال : قال رجل لأبي بكر رضي الله عنه ؛ فذَكَرَهُ ، وهو منقطع ؛ فإنَّ عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة لم يدرك أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، ينظر : المراسيل لابن أبي حاتم (١١٣) .

(٢) البقرة : ٣٠ .

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١/٧٧) ، وتفسير الماوردي (١/٩٥) ، وتفسير البغوي (١/٧٨) ، وتفسير ابن الجوزي (١/٥٠) ، وتفسير ابن كثير (١/٢١٨) .

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١/٧٧) ، وتفسير ابن جرير الطبري (١/٤٧٧) ، وتفسير ابن كثير (١/٢١٩) .

(٥) الأنعام : ١٦٥ .

(٦) ينظر تفسير الآية في : تفسير ابن أبي حاتم (٥/١٤٣٥) ، وتفسير ابن جرير الطبري (١٠/٥٠) ، وتفسير ابن الجوزي (٢/٩٩) ، وتفسير القرطبي (٧/١٥٨) ، وتفسير ابن كثير (٣/٣٨٤) .

**ولهذا جعلَ هذا آيةً من آياته ، كقوله تعالى : ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ (١) .**

**وأمَّا قولُ موسى صلى الله عليه وسلم لقومِه : ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (٢) فليس ذلك استخلافاً عنه ، وإنَّما هو استخلافٌ عن فرعونَ وقومِهِ ؛ أهلَكَهُم وجعلَ قومَ موسى صلى الله عليه وسلم خُلفاءَ من بعدهم (٣) .**

**وكذا [ قولُ النبي صلى الله عليه وسلم : ( إنَّ الله مُستخلفُكم في الأرض ) ، أي : من الأمم التي تهلكُ وتكونون أنتم ] (٤) خُلفاءَ من بعدهم .**

**قالوا : وأمَّا قولُ الرَّاعي ، فقولُ شاعرٍ قال قصيدةً في غَيْبَةِ الصدِّيق رضي الله عنه لا ندري أبلَغَت أبا بكرٍ رضي الله عنه أم لا !**

**ولو بلغَتهُ فلا نعلمُ أنَّه أقرَّهُ على هذه اللفظةِ (٥) .**

التحقيق في قول : خليفة الله وبيان الصواب فيها

**قلتُ : إن أُريدَ بالإضافةِ إلى الله أنَّه خليفةٌ عنه ؛ فالصَّوابُ قولُ الطائفةِ المَانعة منها .**

**وإن أُريدَ بالإضافةِ أنَّ الله استخلفهُ عن غيره ممَّن كان قبلهُ ؛ فهذا لا يمتنعُ فيه الإضافةُ ؛ وحقيقَتُها خليفةُ الله الذي جعله اللهُ خلَفَاً عن غيره .**

**وبهذا يُخرَّجُ الجوابُ عن قولِ أميرِ المؤمنين : " أولئكَ خُلفاءُ الله في أرضه " .**

**فإن قيلَ : هذا لا مدحَ فيه ؛ لأنَّ هذا الاستخلاف عامٌّ في الأُمة ، وخِلافة الله التي ذكرها (٦) أميرُ المؤمنين خاصَّةٌ لخواصِّ الخَلْقِ (٧) .**

---

(١) النمل : ٦٢ .

(٢) الأعراف : ١٢٩ .

(٣) ينظر : تفسير ابن جرير الطبري (٣٧٣/١٠) ، وتفسير الماوردي (٢٥٠/٢) ، وتفسير البغوي (٢٦٨/٣) .

(٤) سقط من النسخ ، والمُثبت من المطبوع .

(٥) ينظر ما مضى ص : ٤٥٢ ، حول قصيدة الرَّاعي النُّمَيري ، وأنه يُخاطب عبد الملك بن مروان ، ويبعُدُ أنه أدركَ أبا بكر الصديق رضي الله عنه .

(٦) في : د : التي نفى ذكرها ! .

(٧) في : ص : بخواصِّ الخلق .

**فالجـــوابُ : أنَّ الاختصــاصَ المذكـورَ أفـادَ اختصــاصَ الإضافـةِ ، فالاضافــةُ هنا للتشريف والتَّخصيصِ ، كما يُضافُ إليه عبادُهُ ، كقولِه :** ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ (١) ، ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ (٢) **ونظائرهِما .**

**ومعلـومٌ / أنَّ كـلَّ الخلـق عبادٌ له ، فخلفاءُ الأرض كالعبادِ في قولِه :** ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (٣) ، ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ (٤) ، وخُلفاءُ الله كعبادِ الله في قوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ (٥) **ونظائرِهِ .** [٧٨/أ]

حقيقة لفظ : خليفة الله وبيان معناه

**وحقيقةُ اللفـظِ أنَّ الخليفةَ هو الذي يَخْلُفُ الذَّاهبَ ، أي : يجيءُ بعدَهُ ؛ يقال : خلَفَ فلانٌ فـلاناً ، وأصلها : خلِيـفٌ بغيـر هــاءٍ ؛ لأنَّها فعِيلٌ بمعنى فاعِل ؛ كالعليم والقدير ، فدخلت التاء للمُبالغة في اللفظِ ، كرَاويةٍ وعلَّامةٍ** (٦) **.**

**ولهذا جُمِعَ جَمْعَ فَعِيل ، فقيل : خلفاءُ ، كشريفٍ وشُرفاء ، وكُرماء .**

**ومن راعى لفظَهُ بعد دخولِ التاءِ عليه جمَعَهُ على فعَائِلَ ، فقال : خلائِفَ ؛ كعقيلَة وعقائِل ، وظَريفة وظرائِفَ** (٧) **، وكلاهما ورَدَ به القرآنُ** (٨) **.**

---

(١) الحجر : ٤٢ .

(٢) الفرقان : ٦٣ .

(٣) آل عمران : ٢٠ .

(٤) غافر : ٣١ .

(٥) الحجر : ٤٢ .

(٦) قال أبو بكر بن الأنباري في الـزاهر في معاني كلمـات الناس (٢٢٩/٢) : " سُمِّيَ الخليفةُ خليفةً في الأصـل لخلافَته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأصلُ فيه : خَلِيفٌ بغير هاء ، فدخلت الهاءُ للمُبالغة في مدْحِه بهذا الوصف ؛ كما قالوا : رجُلٌ علَّامَـةٌ ، نسَّابـةٌ ، راوِيـةٌ لمَّا أرادوا أن يبالغوا في المدح ، ولو لـم يريدوا المبالغةَ لقالوا : رجلٌ راوٍ ، وعلَّامٌ ، ونسَّابٌ " .

(٧) ينظر : شرح شافية ابن الحاجب للرضي الاستراباذي (١٤٩/٢ — ١٥٠) .

(٨) قال أبو عبيد في مجاز القرآن (١٥٨/١) : " ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة:١٣] ، أي على خائن منهم والعرب تزيد الهاء في المذكّر كقولهم : هو راويةٌ للشعر ، ورجل علَّامَة ، وقال الكلابيّ :

حَـدَّثْـتَ نفسَـــكَ بالـوفَــاءِ ولـمْ تكُنْ     للـغَــدْرِ خَــائِـنَــةً مُـغِـــلِّ الإصْبَــــعِ

وينظر : معاني القرآن للأخفش (٣٣٢/١) ، وتفسير ابن جرير الطبري (٢٥٤/٨) ، وتفسير الرازي (١٧١/١٣) =

هذا قول جماعة من النحاة [١] .

والصوابُ أنَّ التاءَ إنَّما دخلت فيها للعدل عن الوصفِ إلى الاسم ؛ فإنَّ الكلمةَ صفةٌ في الأصل ، ثم أُجريَت مجرى الأسماءِ ، فأُلحِقَت التاءُ لذلك ، كما قالوا : نطِيحَةٌ بالتاءِ فإذا أجروها صفةً ، قالوا : شاةٌ نَطِيحٌ ، كما يقولون : كَفٌّ خَضِيبٌ ؛ وإلا فلا معنى للمُبالغةِ في " خليفة " حتى تلحَقها تاءُ المُبالغةِ ، والله أعلم [٢] .

قول علي رضي الله عنه : ودعاته إلى دينه

وقولُـهُ رضي الله عنه : " ودعاتُـهُ إلى دينه " الدُّعاة جمع داعٍ ، كقاضٍ وقُضاة ، ورامٍ ورُماة ، وإضافتهم إلى الله للاختصاصِ ، أي الدُّعاة المخصوصون به ، الذين يدْعُون إلى دينهِ ، وعبادتِه ، ومعرفتِه ، ومحبَّتِه ، وهؤلاء هم خواصُّ خلق الله ، وأفضلُهم عند الله منزلةً ، وأعلاهم قَدْراً .

يدلُّ على ذلك :

أن مقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد ولا يحصل إلا بالعلم

الوجه الثلاثون بعد المئة : وهو قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [٣] .

قال الحسن [٤] : " هو المؤمن أجابَ الله في دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجابَ اللهَ فيه من دعوتِهِ ، وعملَ صالحاً في إجابته ، فهذا حبيبُ اللهِ ، هذا وليُّ الله " [٥] .

فمقام الدعوة إلى الله أفضلُ مقاماتِ العبدِ ، قال تعالى : ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [٦] ، وقال : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ

معنى قوله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)

---

وتفسير البغوي (٢١٢/٣) ، وتفسير القرطبي (١٥٨/٧) .

(١) ينظر : المصادر السابقة ، وينظر : إسفار الفصيح للهروي (٧٩٣/٢) ، وأسرار العربية لأبي البركات الأنباري (١٦٧) ، والكوكب الدري للأسنوي (٨٦) .

(٢) ينظر : تفسير القرطبي (٤٩/٦) ، وتفسير أبي السعود (٢٢٣/٣) ، والتوقيف على مهمات التعريف للمناوي (١٤٤) ، وفتح القدير للشوكاني (١٢/٢) ، وروح المعاني للألوسي (٤٩٢/١) .

(٣) فُصِّلت : ٣٣ .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٣٨ .

(٥) رواه عبد الرزاق في تفسيره (١٥٥/٣) ، وابن جرير الطبري في تفسيره (٤٢٩/٢٠) .

(٦) الجن : ١٩ .

﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ (١) ، جعل سبحانه مراتبَ الدَّعوةِ بحَسبِ مراتبِ الخَلْقِ :

فالمتسجيبُ القابلُ الزَّكِيُّ الذي لا يُعاند الحقَّ ولا يأباهُ ، يُدْعَى بطريق الحكمة .

والقابلُ الذي عنده نوعُ غفلةٍ وتأخُّرٍ ، يُدْعَى بالموعظة الحسنةِ ، وهي الأمرُ والنَّهي المقرونُ بالرَّغبة والرَّهبة .

والمُعانِدُ الجاحدُ يُجادَلُ بالتي هي أحسنُ .

هذا هو الصَّحيح في معنى هذه الآيةِ ، لا ما يزعُم أسيرُ مَنطقِ اليونانِ أنَّ الحكمةَ (٢) : قياسُ البرهان ، وهو دعوة الخواصِّ ، والموعظةَ الحسنةَ : قياسُ الخطابةِ ، وهو دعوة العوامِّ ، والمُجادلةَ بالتي هي أحسنُ : القياسُ الجَدلي ، وهو ردُّ شَغَبِ المُشاغِبِ بقياسٍ جدليٍّ مُسلَّمِ المُقدِّمات .

وهذا باطل وهو مبني على أصولِ الفلسفةِ ، وهو منافٍ لأصولِ المسلمين ، وقواعد الدين من وجوه كثيرة ، ليس هذا موضع ذكرها (٣) .

معنى قوله تعالى : (قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني)

وقال الله تعالى : ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ (٤) .

قال الفرَّاءُ (٥) وجماعةٌ : ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ معطوفٌ على الضمير في ﴿ أَدۡعُوٓاْ ﴾ يعني : ومن اتَّبعني يدعو إلى الله كما ادعو " (٦) .

وهذا قولُ الكلبيِّ (٧) ، قال : " حقٌّ على كلِّ من اتَّبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه ، ويُذَكِّرَ بالقرآن والموعظة الحسنة " (١) ، ويقوى هذا القول من وجوهٍ كثيرةٍ .

---

(١) النحل : ١٢٥.

(٢) يريد بذلك الرازي ، ينظر : تفسير الرازي (١١٢/٢٠) .

(٣) ينظر ردّ شيخ الإسلام ابن تيمية عليهم في : الرد على المنطقيين (٤٣٨) .

(٤) يوسف : ١٠٨.

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٣٤٤ .

(٦) معاني القرآن للفراء (٥٥/٢) ، .

(٧) محمد بن السائب بن بشر بن عمرو الكَلْبي ، أبو النَّضر ، المفسر ، النَّسابة ، الإخباري ، العالم بأيام العرب وهو شيعي متروك ، من أهل الكوفة ، ولد فيها وبها توفي عام : ١٤٦ هـ . =

قال ابن الأنبـــاري [٢] : " ويجــوز أن يتمَّ الكلام عند قوله : ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ ، ثم يبتدئُ : ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ " [٣] ؛ فيكون الكلامُ على قوله جملتين ، أخبرَ في أُولاهما أنَّه يدعو إلى الله ، وفي الثانية بأنَّه وأتباعَهُ على بصيرةٍ .

والقولان مُتلازمان ؛ فلا يكون الرجلُ من أتباعِهِ حقًّاً حتى يدعو إلى ما دعا إليه .

وقولُ الفرَّاءِ [٤] أحسنُ وأقربُ إلى الفصاحةِ والبلاغةِ .

وإذا كانت الدَّعوةُ إلى الله أشرفَ مقاماتِ العبد وأجلَّها وأفضلها ، فهي لا تحصلُ إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه ، بل لا بدَّ في كمال الدعوةِ من البُلوغ في العلم إلى حدٍّ يصلُ إليه السَّعيُ .

ويكفي هـذا في شـرفِ العلـم أنَّ صاحبهُ يحـوزُ به هذا المقــامَ ، والله يُــؤتي فضله من يشاءُ .

أن العلم يثمر اليقين الذي فيه حياة القلب وبه طمأنينته وقوّته

الوجهُ الحادي والثَّلاثون بعد المئة : أنَّه لـو لـم يكن من فوائد العلم إلا أنَّه يُثمرُ اليقينَ الذي هو أعظمُ حياةِ القلب ، وبه طمأنينتُه وقوتُـه ونشاطُـه وسائِـرُ لـوازمِ الحياة ولهذا مدحَ الله سبحانه أهله في كتابهِ ، وأثنى عليهم بقولِهِ : ﴿ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [٥] وقولِـهِ : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [٦] ، وقولِهِ في حقِّ خليله إبراهيم

---

وفيات الأعيان لابن خلكان (٣٧٦/٢) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢٤٨/٦) .

(١) ينظر : تفسير الواحدي (٦٣٧/٢) ، وتفسير الثعلبي (٢٦٣/٥) .

(٢) محمد بن القاسم بن بَشَّار بن الحسن بن بَيان ، أبو بكر بن الأَنْبَارِيِّ ، الإمام ، المُقرئ ، اللغوي ، كان من أعلم الناس بالنحو و الأدب و أكثرهم حفظا له ، له مؤلفات في علوم القرآن ، وغريب الحديث ، واللغة توفي عام : ٣٢٨ هـ . إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي (٢٠٠/٣) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢٧٤/١٥) .

(٣) من قول المؤلف : " قال الفراء " إلى هنا ، منقول عن الواحدي في تفسيره الوسيط (٦٣٧/٢) .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٣٤٤ .

(٥) البقرة : ٤ .

(٦) البقرة: ١١٨ .

صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ (١) ، وذمَّ مَن لا يقينَ عنده ، فقال :﴿ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٢) .

وفي الحديث المرفوع من حديث سفيان الثوري (٣) عن سليمان التَّيْمِي (٤) عن خَيْثَمَة (٥) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (٦) يرفعه : ( لا تُرْضِيَنَّ أحداً بسَخطِ الله ، ولا تَحمدنَّ أحداً على فضلهِ ، ولا تَذُمَّنَّ أحداً على ما لم يُؤتِكَ الله ، فإنَّ رزقَ الله لا يسُوقُهُ حِرصُ حريصٍ ، ولا يردُّهُ عنك كراهيةُ كارهٍ ، وإنَّ الله بعدْلِهِ وقسطِهِ جعلَ الرُّوحَ والرَّاحةَ والفَرَحَ في الرِّضا واليقين ، وجعلَ الهَمَّ والحزَنَ في الشكِّ والسَّخَطِ ) (٧) .

فإذا باشرَ القلبَ اليقينُ امتلأَ نوراً ، وانتفى عنه كلُّ ريبٍ وشكٍّ ، وعُوفي من أمراضِه القاتلةِ ، وامتلأَ شكراً لله ، وذِكراً له ، ومحبةً ، وخوفاً ، فحَيِيَ عن بَيِّنَةٍ .

---

(١) الأنعام : ٧٥ .

(٢) النمل : ٨٢ .

(٣) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٤٩ .

(٤) كذا في النسخ الخطية ، وهو : سليمان بن طَرْخَان التَّيْمِيُّ ، أبو المعتمر البصري ، نزل في بني تَيم ؛ فقيل : التيمي ، توفي عام : ١٤٣ هـ . طبقات خليفة بن خياط (٣٧٦) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩٥/٦) .
لكنَّ سليمان التيمي لم يسمع من خيثمة بن عبد الرحمن ، فالصواب هنا : سليمان الأعمش ، كما في مصادر الحديث ، وينظر : التاريخ الكبير للبخاري (٢١٥/٣) ، والثقات لابن حبان (٢١٣/٤) ، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٣٩٣/٣) . تقدَّمت ترجمة الأعمش ص : ٢٢٩ .

(٥) خَيْثَمة بن عبد الرحمن بن أبي سبرة المَذْحِجِيُّ الجُعْفيُّ الكُوفيُّ ، واسم أبي سبرة يزيد بن مالك ، لأبيه وجدِّه صُحْبَةٌ ، قال الذهبي : " لم يلقَ أبا مسعود رضي الله عنه " ، توفي بعد الثمانين .
الثقات لابن حبان (٢١٣/٤) ، وتهذيب الكمال للمزي (٣٧٠/٨) ، وسير أعلام النبلاء لذهبي (٣٥٤/٧) .

(٦) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

(٧) رواه الطبراني في الكبير (٢١٥/١٠) ، والقضاعي في مسند الشهاب (٩١/٢) ، وأبو نعيم في الحلية (١٢١/٣ و ١٣٠/٧) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٨٣/١) ، وفي سنده خالد بن يزيد العُمَري ، قال عنه الذهبي في الميزان (٦٤٦/١) : " كذبه أبو حاتم ، ويحيى . وقال ابن حبان : يروي الموضوعات عن الأثبات " ، وقال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١٠٦٤) : موضوع .

**واليقينُ والمحبةُ هما ركنا الإيمانِ ، وعليهما يَنْبَني ، وبهما قِوامُهُ ، وهما يَمُدَّانِ سائرَ الأعمالِ القلبيَّة والبَدنيَّةِ ، وعنهما تَصدُرُ ، وبضعفِهما يكون ضَعفُ الأعمالِ ، وبقُوَّتهما قوَّتُهما .**

**وجميعُ منازل السائرين ، ومقامات العارفين إنَّما تُفتحُ بهما ، وهما يثمران كلَّ عملٍ صالحٍ ، وعلمٍ نافع ، وهدىً مستقيمٍ .**

**قال شيخُ العارفين الجُنَيد (١) : " هو استقرارُ العلم الذي لا ينقلبُ ولا يتحولُ ولا يتغيرُ في القلب " (٢) .**

**وقال سَهْلٌ (٣) : " حرامٌ على قلبٍ أن يَشمَّ رائحةَ اليقين وفيه سُكونٌ إلى غيرِ الله " (٤) .**

**وقيلَ : مِن علامَاتِه الالتفاتُ إلى الله في كلِّ نازلَةٍ ، والرُّجوعُ إليه في كلِّ أمرٍ ، والاستعانةُ به في كلِّ حالٍ ، وإرادةُ وجْهِهِ بكلِّ حركةٍ وسُكونٍ (٥) .**

**وقال السَّرِيُّ (٦) : " اليقينُ : السكونُ عند جَوَلانِ المَوارِدِ في صدرِكَ لتَيقُّنِكَ أنَّ حركَتَكَ فيها لا تنْفعُكُ ، ولا ترُدُّ عنك مَقْضِيَّاً " (٧) .**

**قلت : هذا إذا لم تكن الحركةُ مأموراً بها ، فإذا كانت مأموراً بها ؛ فاليقينُ في بذلِ الجهدِ فيها ، واستفراغِ الوسْعِ .**

---

(١) الجُنَيد بن محمد بن الجنيد النَّهاوَنْدِي ، ثم البغدادي الخَزَّاز ، أبو القاسم ، شيخ الصوفية ، مولده ومنشأه ووفاته في بغداد ، قال : كنت أُفتي في حلقة أبي ثور ولي عشرون سنة ، توفي سنة :٢٩٧هـ . تاريخ بغداد للبغدادي (٢٤١/٧) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (١٩١/١) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٦٦/١٤) .

(٢) الرسالة القشيرية (١٨٠) .

(٣) سهل بن عبد الله التستري ، تقدَّمت ترجمته ص : ٣٦٨ .

(٤) الرسالة القشيرية (١٨٠) .

(٥) الرسالة القشيرية (١٨٠) .

(٦) السِّرِيُّ بن المُغَلِّس السَّقَطي ، أبو الحسن البغدادي ، من كبار الصوفية ، خالُ الجُنيد وأستاذُه ، وتلميذُ مَعروف الكرخي ، مشهورٌ بالورع ، وكثرة العبادة ، توفي سنة : ٢٥٣هـ . طبقات الصوفية للسلمي (٤٨) ، وتاريخ بغداد للبغدادي (١٨٧/٩) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٣٦٠/١) .

(٧) الرسالة القشيرية (١٨١) .

**وقيلَ : " إذا استكملَ العبدُ حقيقةَ اليقينِ صارَ البلاءُ عنده نعمةً ، والمحنةُ مِنحةً " (١) .**

**فالعلمُ أوَّلُ درجات اليقين ، ولهذا قيلَ : " العلمُ يستعملُكَ ، واليقينُ / يحملُكَ " (٢) .** [٧٩/أ]

**فاليقينُ أفضلُ مواهبِ الربِّ لعبده ، ولا تثبتُ قدمُ الرِّضاء إلا على درجة اليقين .**

**قال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ (٣) ، قال ابن مسعود رضي الله عنه (٤) : " هو العبدُ تُصيبُهُ المُصيبةُ فيعلمُ أنَّها من الله فيرضى ويُسلِّم " (٥) .**

**فلهذا لم يحصُل له هِدايةُ القلب ، والرِّضا والتسليم إلا بيقينهِ ؛ قال في " الصحاح " : " اليقينُ : العلمُ وزوالُ الشكِّ ، يقال منه : يَقِنْتُ الأمرَ ـ بالكسرِ ـ يَقَناً ، واستيقنتُ وأيقَنْتُ وتيَقَّنْتُ ، كلُّه بمعنىً واحدٍ ، وأنا على يقينٍ منه .**

**وإنَّما صارت الياءُ واواً في " مُوقِنٍ " للضَّمة قبلها ، وإذا صغَّرته رددْتَه إلى الأصل فقلتَ : مُيَيْقِن .**

**وربَّما عبَّرُوا عن الظنِّ باليقين ، وباليقين عن الظن (٦) ، قال (٧) :**

**تَحَسَّبَ هــوَّاسٌ وأيقَــنَ أنَّنــي بهــا مُـفْتَــدٍ مِن واحــدٍ لا أُغَـامِـرُه (٨)**

(١) رواه القُشـري في الرسالة القشيرية (١٨٢) عن أبي يعقوب ، إسحاق بن محمد النَّهْرَجُوريِّ . صاحب الجُنيد . وينظر : مدارج السالكين للمؤلف (٣٧٦/٢) .

(٢) رواه القُشـري في الرسالة القشيرية (١٨٢) عن أبي سعيد أحمد بن عيسى الخرَّاز ، ورواه من طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٨٩/٢) .

(٣) التغابن : ١١ .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

(٥) أخرجه سعيد بن منصور ، كما في الدر المنثور للسيوطي (٥١٥/١٤) .

(٦) في : ص : وبأظن عن اليقين .

(٧) القائل هـو : أبو سِدرةَ سُحَيْم بن الأعْرَف الأسدي يقال : إنه هُجَيمِيٌّ ، ويقالُ : إنه لرجلٍ من بني الهُجَيْمِ الكتاب لسيبويه (٣١٥/١) ، ولسان العرب لابن منظور (٣١٤/١) .

(٨) الهَوَسُ : الطَّوَفان بالليل ، والطَّلبُ في جَراءةٍ ، يقال : أَسَدٌ هوَّاسٌ ، ورجلٌ هوَّاسٌ ، أي : مُجرَّب شُجاعٌ . كتاب العين للخليل بن أحمد (٧١/٤) ، "من واحدٍ " أَي : من حَذَرِ واحدٍ . " لا أُغامِرُهُ " أَي : لا أُخالِطُه بالسيف . لسان العرب لابن منظور (٣١٤/١) .

**يقول تشَمَّمَ الأسدُ ناقَتي يظنُّ أنَّني أفتدي بها منه ، وأستحمي نفسي ، وأتركها له [١] ولا أقتحمُ المَهالكَ لمُقاتلته [٢] " [٣] .**

هل يستعمل اليقين في موضع الظن ، والظن في موضع اليقين ؟

**قلتُ : هذا موضعٌ اختلفَ فيه أهلُ اللغة والتفسير ؛ هل يُستعملُ اليقينُ في موضعِ الظَّنِّ والظَّنُّ في موضعِ اليقينِ ؟ [٤] .**

**فرأى ذلك طائفةٌ منهم الجوهريُّ [٥] وغيره ، واحتجوا سوى ما ذُكرَ بقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [٦] ، ولو شكُّوا في ذلك لم يكونوا موقنين ، فضلاً عن أن يُمدحُوا بهذا المَدح .**

**وبقولِهِ : ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [٧] .**

**وبقوله : ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا﴾ [٨] .**

**وبقول الشاعر [٩] :**

**فقلتُ لهُم ظُنُّوا بألْفي مُقَاتِلٍ ... سُراتُهُمُ في الفَارِسيِّ المُسَرَّدِ**

**أي استيقنوا بهذا العددِ .**

---

(١) في الصحاح " فأتركها له " .

(٢) في الصحاح " بمقاتلته" .

(٣) الصحاح للجوهري (٦/٢٢١٩) .

(٤) ينظر : مجاز القرآن لأبي عبيد (١/٣٩) ، وتفسير ابن جرير الطبري (١/٦٢٣) ، والأضداد في كلام العرب لابن الأنباري (٢٩٤) ، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/٤٦٢) ، والصحاح للجوهري (٦/٢١٦٠) والمخصص لابن سيده (٤/١٧٤) ، وتفسير ابن عطية (٤/٥٠١) ، وبصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي (٣/٥٤٥) .

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٣٩٠ ، ينظر : الصحاح له (٦/٢١٦٠) .

(٦) البقرة : ٤٦ .

(٧) البقرة: ٢٤٩ .

(٨) الكهف : ٥٣ .

(٩) هو : دريد بن الصِّمَّة ، الصحاح للجوهري (٦/٢١٦٠) ، ولسان العرب لابن منظور (١٣/٢٧٢) . والفارسي المُسرَّد : الدروع الفارسية ، تهذيب اللغة للأزهري (١٢/٢٤٩) .

وأبى ذلك طائفةٌ ، وقالوا : لا يكون اليقينُ إلا للعلم .

وأمَّا الظنُّ ، فمنهم من وافق على انَّه يكون بمعنى العلم .

ومنهم من قال : لا يكون الظنُّ في موضعِ اليقينِ ، وأجابوا عمَّا احتجَّ به من جوَّزَ ذلك بأن قالوا : هذه المواضعُ التي زعمتم أنَّ الظنَّ وقع فيها موقِعَ اليقين كلُّها على بابِها فإنَّا لم نجدْ ذلك إلا في علمٍ بمغيَّبٍ ، ولم نجدْهُم يقولون لمَن رأى الشيءَ : أظنُّهُ ولِمَن ذاقَهُ : أظنُّهُ ، وإنَّما يُقالُ لغائبٍ قد عُرِفَ بالسَّمع والعلمِ ، فإذا صارَ إلى المُشاهدةِ امتنعَ إطلاقُ الظنِّ عليه .

قالوا : وبينَ العِيانِ والخبرِ مرتبةٌ مُتوسطةٌ باعتبارها أوقعَ على العلم بالغائبِ الظنَّ لفقدِ الحالِ التي تحصلُ لِمُدركِهِ بالمُشاهدَةِ .

وعلى هذا أُخرجَت سائِرُ الأدلةِ التي ذكرتمُوها ، ولا يَرِدُ على هذا قولُه : ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (١) ؛ لأنَّ الظنَّ إنَّما وقعَ على مُواقعتِها ، وهي غيبٌ حالَ الرُّؤيةِ ، فإذا واقعوها لم يكن ذلك ظناً ، بل حقٌّ يقينٍ .

قالوا : وأمَّا قولُ الشاعرِ : " وأيقَنَ أنَّني بها مُفْتَدٍ " فعلى بابِهِ ؛ لأنَّهُ ظنَّ أنَّ الأسد لتيقُّنِهِ شجاعَتَهُ وجراءَتَهُ مُوقِنٌ بأنَّ الرَّجلَ يدعُ ناقَتَهُ له يفتَدي بها من نَفْسِه .

قالوا : وعلى هذا يُخرَّجُ معنى الحديث : ( نحنُ أحقُّ بالشكِّ من إبراهيمَ ) (٢) ، وفيه أجوبةٌ (١) .

---

(١) الكهف : ٥٣ .

(٢) رواه البخاري (٣٣٧٢) ، ومسلم (١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قال المؤلف رحمه الله في مدارج السالكين (٤٦٩/١) : "فطلبَ إبراهيمُ أن يكون اليقينُ عِياناً ، والمَعلومُ مُشاهَداً وهذا هو المعنى الذي عبَّرَ عنه النبي صلى الله عليه وسلم بالشكِّ في قولِهِ ( نحنُ أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم ) ، حيثُ قال : ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠] ، وهو لم يشكَّ ولا إبراهيمُ ، حاشاهما من ذلك ، وإنَّما عبَّرَ عن هذا المعنى بهذه العبارة ، هذا أحدُ الأقوالِ في الحديثِ ، وفيه قولٌ ثانٍ : أنَّه على وجهِ النَّفي ، أي : لم يشكَّ إبراهيمُ حيث قال ما قال ، ولم نشكَّ نحن ، وهذا القولُ صحيحٌ أيضاً ، أي لو كان ما طلبه للشكِّ لكنَّا نحن أحقَّ به منه ؛ لكن لم يطلبْ ما طلبَ شكَّاً ، وإنَّما طلبَ ما طلبَهُ طُمأنينةً " .

لكنَّ بين العِيان والخبر رُتبة طلب إبراهيمُ زوالَها بقوله : ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ فعبَّرَ عن تلك الرُّتبة بالشكِّ ، والله أعلم .

قوله صلى الله عليه وسلم : طلب العلم فريضة على كل مسلم

الوجهُ الثاني والثلاثون بعد المئةِ : ما رواه أبو يعلى الموصلي [٢] في " مسنده " [٣] من حديثِ أنسِ بن مالك رضي الله عنه [٤] يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : ( طلبُ العلمِ فريضةٌ على كل مسلمٍ ) ، وهذا وإن كان في سنده حفصُ بن سليمان [٥] وقد ضُعِّفَ ، فمعناه صحيحٌ ؛ فإنَّ الإيمانَ فرضٌ على كل أحدٍ ، وهو ماهيَّةٌ [٦] مُركبةٌ من علمٍ وعملٍ ، فلا يُتصور وجودُ الإيمان إلا بالعلم والعمل .

ثمَّ شرائعُ الإسلامِ واجبة على كل مسلم ، ولا يمكن أداؤها إلا بعد معرفتِها والعلم بها .

والله تعالى أخرجَ عباده من بطونِ أمهاتِهم لا يعلمون شيئاً ، فطلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم .

وهل تُمكنُ عبادةُ الله التي هي حقُّه على العباد كلِّهم إلا بالعلم ؟

وهل يُنالُ العلم إلا بطلبه ؟

---

(١) ينظر : شرح السنة للبغوي (١١٦/١) ، وشرح صحيح مسلم للنووي (١٨٣/٢) ، والعجاب في بيان الأسباب لابن حجر (٦١٧) ، وفتح الباري له (٤١٢/٦) ، والفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي (١٧٩) .

(٢) أبو يَعلى ، أحمد بن علي بن المُثَنَّى بن يحيى بن عيسى بن هلال التَّميميّ الموصليّ ، الإمام ، الحافظ ، مُحدِّثُ الموصل ، من مصنفاته : المسند ، والمعجم ، والمفاريد ، وغيرها ، توفي عام : ٣٠٧ هـ .
تاريخ الإسلام للذهبي (٢٠٠/٢٣) ، والوافي بالوفيات للصفدي (٤٦٠/٢) .

(٣) (٢٢٣/٥) ، ورواه ابن ماجه في المقدمة (٢٢٤) ، وفي سنده حفصُ بن سليمان ، وهو متروك ، قال الذهبي في الميزان (٥٥٨/١) : " وكان ثَبْتَاً في القراءة ، واهِياً في الحديث " .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٦ .

(٥) أبو عمر ، حفْصُ بن سليمان بن المُغيرة الأسدي بالولاء ، الكوفي الغَاضِري البَزَّاز ، ويُعرَفُ بحُفَيص ، قارئ أهل الكوفة ، أخذ القراءة عن زوج أُمِّهِ الإمام عاصم بن أبي النُّجود ، توفي عام : ١٨٠ هـ .
تهذيب الكمال للمزي (١٠/٧) ، وغاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري (٢٥٤/١) .

(٦) ماهيَّةُ الشَّيء : أصلهُ وكُنْهُهُ وحقيقتُه ، وأصل الكلمة : مائية الشيء ، فقلبت الهمزة هاء لتقاربهما .
شرح شافية ابن الحاجب للرضي الاسترابادي (٣٨/٢) .

العلم المفروض تعلُّمه ضربان : ضرب : فرض عين لا يسع مسلما جهله وهو أنواع : الأول : علم أصول الإيمان الخمسة

ثمَّ إنَّ العلم المفروضَ تعلُّمه ضربانِ :

ضرْبٌ منه فرضُ عينٍ ، لا يسعُ مسلماً جهلُهُ ؛ وهو أنواعٌ :

النوعِ الأول : علمُ أصولِ الإيمان الخمسةِ : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخرِ ، فإنَّ مَن لم يُؤمن بهذه الخمس لم يدخُل في باب الإيمان ، ولا يستحقُّ اسمَ المؤمنِ ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (٢) .

ولما سألَ جبريلُ عليه الصلاة والسلام رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان ؟ فقال : ( أن تُؤمنَ بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورُسله ، واليومِ الآخرِ ، قال : صدقتَ ) (٣) .

فالإيمانُ بهذه الأصولِ فرعُ معرفَتِها ، والعلمِ بها .

النوع الثاني : علم شرائع الإسلام مما يلزم العبد

النوعُ الثاني : علمُ شرائعِ الإسلام ، واللازمُ منها علمُ ما يخصُّ العبدَ من فعلها ؛ كعلمِ الوضوءِ ، والصلاةِ ، والصيامِ ، والحجِّ ، والزكاةِ ، وتوابعها وشروطِها ومُبطلاتِها .

النوع الثالث : علم المحرمات الخمس

النوعُ الثالثُ : علمُ المُحرَّمات الخمس التي اتفقَت عليها الرُّسلُ والشَّرائعُ والكتبُ الإلهيةِ ، وهي المذكورةُ في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

فهذه مُحرَّماتٌ على كلِّ أحدٍ في كلِّ حالٍ ، على لسانِ كلِّ رسولٍ ، لا تُباح قطُّ ، ولهذا أتى فيها بـ ﴿ إِنَّمَا ﴾ المُفيدةِ للحصرِ مُطلقاً ، وغيرها محرمٌ في وقتٍ ، مُباحٌ في غيره

---

(١) البقرة : ١٧٧ .

(٢) النساء : ١٣٦.

(٣) رواه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) الأعراف : ٣٣ .

كالميتةِ ، والدَّمِ ، ولحمِ الخنزيرِ ، ونحوهِ ، فهذه ليست مُحرمةً على الإطلاقِ والدَّوام فلم تدخلُ تحت التَّحريم المحصورِ المُطلقِ .

النوعُ الرابعُ : علمُ أحكامِ المُعاشرةِ والمُعاملةِ التي تحصلُ بينه وبين الناس خصوصاً وعُموماً ، والـواجـبُ في هذا النَّـوعِ يختلفُ باختـلافِ أحـوالِ الناس ومنازِلِهم فليس الواجبُ على الإمام مع رعيته كالواجبِ على الرَّجلِ مع أهله وجيرته ، وليس الواجبُ على من نَصَبَ نفسَه لأنواع التِّجارات مِن تعلُّمِ أحكامِ البِيَاعات ، كالواجبِ على مَن لا يبيعُ ولا يشتري إلا ما تدعو الحاجةُ إليه ، وتفصيل هذه الجملة لا ينضبطُ بحدٍّ ؛ لاختلافِ الناس في أسبابِ العلم الواجب . النوع الرابع : علم أحكام المعاشرة والمعاملة

وذلك يرجعُ إلى ثلاثةِ أصولٍ : اعتقادٍ ، وفعلٍ ، وتركٍ :

فالواجبُ في الاعتقادِ مُطابقتُهُ للحقِّ في نفسِه ، والواجبُ في العمل معرفةُ موافقةِ حركاتِ العبدِ الظاهرةِ والباطنةِ الاختياريةِ للشرع أمراً وإباحةً .

والواجبُ في / التَّرك معرفةُ موافقةِ الكفِّ والسُّكونِ لمَرضاتِ الله ، وأنَّ المطلوب منه [٨٠/أ] إبقاءُ هذا الفعلِ على عدمِه المُسْتَصْحَبِ ، فلا يتحركُ في طلبه ، أو كفِّ النفسِ عن فعله على الطَّريقتين (١) .

وقد دخلَ في هذه الجملة علمُ حركاتِ القلوبِ والأبدانِ .

---

(١) قال المؤلف رحمه الله في الفوائد (١٢٢) : " الناس اختلفوا فى المطلوب بالنهي على أقوالٍ : أحدُها : أنَّ المطلوبَ به كَـفُّ النَّفْـسِ عن الفعـلِ ، وحبسُها عنه ، وهو أمرٌ وجودي ، قالوا : لأنَّ التَّكليفَ إنَّما يتعلقُ بالمَقدورِ والعدمُ المَحضُ غيرُ مقدورٍ ، وهذا قولُ الجمهورِ .

وقال أبو هاشمٍ وغيرُه : بل المطلوبُ عدم الفعلِ ، ولهذا يحصلُ المقصودُ من بقائِه على العدمِ ، وإنْ لم يخطر بباله الفعلُ ، فضلاً أن يقصدَ الكفَّ عنه ، ولو كان المطلوبُ الكفَّ لكان عاصياً إذا لم ياتِ به ، ولانَّ الناس يَمْدَحُونَ بعدمِ فعلِ القبيحِ مَنْ لم يخطر بباله فعلُه والكفُّ عنه "

ثم تعقَّبَ المؤلف قولَ أبي هاشم الجُبَّائي ؛ فقال : " وقول أبي هاشم : إنَّ تاركَ القبائحِ يُحمدُ وإنْ لم يخطر بباله كَـفُّ النَّفْـسِ ؛ فإنْ أرادَ بحمده : أنَّه لا يذمُّ فصحيح ، وإن أرادَ أنَّه يُثنى عليه بذلك ، ويُحبُّ عليه ، ويستحقُّ الثـوابَ فغيرُ صحيحٍ ؛ فإنَّ الناسَ لا يَحمدونُ المَجْبُوبَ على ترك الزنـا ، ولا الأخرسَ على عدمِ الغِيبةِ والسَّبِّ وإنَّما يَحمـدونُ القـادرَ المُمتنعَ عن قُـدرةٍ وداعٍ إلى الفعل " . وينظر : شرح مختصر الروضة للطوفي (٢٤٢/١) وغمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر للحموي (٩٤٢/١) .

الضرب الثاني من العلم المفروض تعلُّمه : فرض الكفاية

وأمَّا فرضُ الكفايةِ فلا أعلمُ فيه ضابِطاً صحيحاً ؛ فإنَّ كلَّ أحدٍ يُدْخِلُ في ذلك ما يظنُّهُ فرْضَاً ، فيُدخلُ بعضُ الناس في ذلك علمَ الطبِّ ، وعلمَ الحسابِ ، وعلمَ الهَندسَةِ والمِساحاتِ ، وبعضُهم يزيدُ على ذلك علمَ أصولِ الصِّناعاتِ ؛ كالفِلاحَة ، والحِياكةِ والحِدادةِ ، والخِياطةِ ، ونحوها ، وبعضُهم يزيدُ على ذلك علمَ المَنطقِ ، وربَّمَا جعله فرضَ عينٍ ، وبناهُ على عدمِ صحة إيمانِ المُقلِّدِ (١) !

وكلُّ هذا هَوَسٌ وخَبْطٌ ، فلا فرضَ إلا ما فرضه الله ورسوله .

فيا سبحان الله ! هل فرضَ الله على كل مسلمٍ أن يكون طبيباً ، حجَّامَاً ، حاسِباً مُهندساً ، أو حائكا ، أو فلَّاحاً ، أو نجَّاراً ، أو خياطاً ؟ فإنَّ فرضَ الكفاية كفرضِ العينِ في تعلُّقهِ بعموم المُكلَّفِين ، وإنَّما يُخالفه في سقوطِه بفعلِ البعضِ (٢) .

ثمَّ على قولِ هذا القائل يكون الله قد فرضَ على كلِّ أحدٍ جملةَ هذه الصَّنائعِ والعُلوم فإنَّه ليس واحدٌ منها فرضاً على مُعيَّنٍ ، والآخرُ على مُعيَّنٍ آخرَ ، بل عموم فرضيتِها مُشتَرَكةٌ بين العموم ، فيجبُ على كلِّ أحدٍ أن يكون حاسباً ، حائِكاً ، خيَّاطاً ، نجَّاراً فلَّاحاً ، طبيباً ، مُهندساً !

فإن قال : المجموعُ فرضٌ على المَجموعِ ؛ لم يكنْ قولُكَ : إنَّ كلَّ واحدٍ منها فرضُ كفايةٍ صحيحاً ؛ لأنَّ فرضَ الكفاية يجب على العموم .

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " ومن قال من المُتأخرين : إنَّ تعلُّمَ المنطقِ فرضٌ على الكفاية ؛ أو إنه من شروطِ الاجتهادِ ؛ فإنَّه يدلُّ على جهله بالشرع وجهله بفائدة المنطق . وفسادُ هذا القول معلوم بالاضطرار من دين الإسلام . فإنَّ أفضلَ هذه الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وأئمة المسلمين عَرفوا ما يجب عليهم ويُكمِّل علمهم وإيمانهم قبل أن يُعرفَ المنطق اليوناني ! فكيف يقال : إنه لا يوثق بالعلم إنْ لم يُوزنْ به ؟ أو يُقال : إنَّ فِطَرَ بني آدمَ في الغالب لم تستقمْ إلا به ؟ " مجموع الفتاوى (١٧٢/٩) .

وقال في (٢٦٩/٩) : " أمَّا " كتب المنطق " فتلك لا تشتمل على علمٍ يُؤمَرُ به شرعاً ، وإنْ كان قد أدَّى اجتهادُ بعض الناس إلى أنَّه فرضٌ على الكفاية ، وقال بعض الناس : إنَّ العلومَ لا تقومُ إلا به ؛ كما ذكرَ ذلك أبو حامدٍ ، فهذا غلطٌ عظيمٌ عقلاً وشرعاً . أمَّا " عقلاً " ؛ فإنَّ جميعَ عقلاءِ بني آدمَ من جميع أصنافِ المتكلِّمين في العلم حرَّرُوا علومَهم بدون المنطق اليوناني . وأمَّا " شرعاً " ؛ فإنَّه من المعلوم بالاضطرارِ من دينِ الإسلامِ أنَّ الله لم يوجبْ تعلُّمَ هذا المنطقَ اليوناني على أهلِ العلم والإيمان ... "

(٢) قال المؤلف رحمه الله في زاد المعاد (٣٩٨/١) : " فإنَّ فرضَ الكفايةِ على الجميعِ ، كفرضِ الأعيان سواء ، وإنَّما يختلفانِ بسقوطِه عن البعض بعد وجُوبه بفعلِ الآخرين " .

بيان فساد أصول المنطق وقواعده ومناقضتها للعقل الصريح

**وأمَّا المنطقُ فلو كان عِلما صحيحاً كان غايته أن يكون كالمِساحةِ والهندسةِ ونحوها فكيف وباطلُهُ أضعافُ حقِّهِ وفسادُه وتناقضُ أصولِه واختلافُ مبانِيه تُوجبُ مُراعاتها للذهنِ أنْ يزيغَ في فكره ! .**

**ولا يؤمنُ بهذا إلا مَن قد عرفَهُ وعرفَ فسادَه وتناقُضَهُ ومُناقَضةَ كثيرٍ منه للعقلِ الصَّريحِ [١] .**

**وأخبرَ بعضُ من كان قد قرأه ، وعُنِيَ به أنَّه لم يزل مُتعجِّباً من فسادِ أصوله وقواعدِه ، ومباينتها لصريحِ المعقولِ ، وتضمُّنها لدعاوٍ محضةٍ غيرِ مدلولٍ عليها ، وتفريقِهِ بين مُتساويين ، وجمْعِهِ بين مُختلفين ؛ فيحكُم على الشيء بحكُمٍ وعلى نظيرِه بضدِّ ذلك الحكمِ ، أو يحكمُ على الشيء بحكمٍ ، ثمَّ يحكمُ على مُضادِّه أو مُناقضِه به !**

**قال : إلى أن سألتُ بعضَ رُؤسائِه وشيوخ أهله عن شيءٍ من ذلك ؛ فأفكَرَ فيه [٢] ثمَّ قال : هذا علمٌ قد صَقَلَتْهُ الأذهان ، ومرَّت عليه من عهدِ القرونِ الأوائلِ . أو كما قال . فينبغي أن نتسلَّمَهُ من أهله ، وكان هذا أفضلَ ما رأيتُ في المنطقِ .**

**قال : إلى أن وقفتُ على ردِّ مُتكلِّمي الإسلام عليه ، وتبيينِ فسادِهِ وتناقُضهِ فوقفتُ على مُصنَّفٍ لأبي سعيد السِّيْرَافِيِّ النَّحْوي [٣] في ذلك وعلى ردِّ كثيرٍ من أهلِ الكلام والعربيةِ عليهم كالقاضي أبي بكرٍ بن الطَّيبِ [٤]**

---

(١) ينظر : الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٧٩) .

(٢) أي : تأمَّلَ فيه ، وأفكر بمعنى فكَّرَ . لسان العرب لابن منظور (٥/٦٥) ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (٢/١٩٥) .

(٣) أبو سعيد ، الحسن بن عبد الله بن المَرْزُبَان السِّيْرَافِي ، صاحب التصانيف ، إمام النحو ، ونحوي بغداد ، أصله من " سيراف " من بلاد ما وراء النهر ، توفي عام : ٣٦٨هـ . تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٧/٣٤١) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٦/٢٤٧) .

(٤) محمد بن الطَّيِّب بن محمد بن جعفر بن القاسم البصري ، ابن الباقِلانيّ ، المتكلِّم ، الأصولي ، صاحب التصانيف في علم الكلام ، توفي عام : ٤٠٣ هـ . تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٥/٣٧٩) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٢/٣٥٩) .

**والقاضـــي عبد الجبار [١] ، والجُبَّائيِّ [٢] وابنِهِ [٣] ، وأبي المعالي [٤] ، وأبي القاسم الأنصاري [٥] ، وخلقٍ لا يُحْصَون كثرةً .**

**ورأيتُ اشكالاتِ فُضلائِهم ورُؤسائِهم لمواضعِ الإشكالِ ومُخالفَتها ، ما كان ينقَدحُ لي كثيرٌ منه .**

**ورأيتُ آخِرَ مَن تجرَّدَ للرَّد عليهم شيخَ الإسلامِ . قدَّسَ الله رُوحَه . فإنَّه أتى في كتابيه الكبيرِ والصَّغيرِ [٦] بالعَجبِ العُجابِ ، وكشفَ أسرارَهم ، وهتكَ أستارَهم ، فقلت في ذلك :**

**واعَـجَبَاً لِمَنْطِـقِ اليُونَـــانِ**
**كَـم فيهِ مِن إفْـكٍ ومِن بُهْتَـانِ**
**مُـخَبِّطٌ لِجَيِّـدِ الأذهـــانِ**
**ومُفْسِــدٌ لفِـطْــرَةِ الإنْسَــانِ**
**ومُبْـــكِـمٌ للقلـبِ واللســانِ**
**مُـضْطَرِبُ الأصولِ والـمَبَـانِي**
**على شَفَــا هَــارٍ بَنَــاهُ البَـانِـي**

---

(١) عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن خليل ، أبو الحسن الهَمَذاني الأسداباذي ، وهي قرية قريبة من هَمَذان ، إمامُ المعتزلة في زمانه ، ومن كبار فقهاء الشافعية ، له تصانيف كثيرة ، توفي عام : ٤١٥ هـ . سير أعلام النبلاء للذهبي (١٧/٢٤٤) ، والطبقات الكبرى للسبكي (٥/٩٧) .

(٢) أبو علي الجُبائي ، تقدَّمت ترجمته ص : ٩٤ .

(٣) أبو هاشم ، عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب بن سَلَام الجُبَّائِي البصري ، شيخ المعتزلة وابن شيخهم توفي عام : ٣٢١ هـ . تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١١/٥٥) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٥/٦٣) .

(٤) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجُويني ، أبو المعالي ، المُلقبُ بإمامِ الحرمين ، الفقيه الشافعي وشيخ الشافعية ، الأصولي ، المتكلم ، له مصنفات كثيرة ، توفي عام : ٤٧٨ هـ . وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/٨٠) ، والطبقات الكبرى للسبكي (٥/١٦٥) .

(٥) سلمان بن ناصر بن عمران النَّيْسَابُوري ، أبو القاسم الأنصاري ، الشافعي ، تلميذُ إمامِ الحرمين ، من الأئمة في علم الكلام ، شرح كتاب " الإرشاد " لشيخه أبي المعالي الجويني . مولده ووفاته في نَيْسَابُور، توفي عام : ٥١١ هـ سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/٤١٢) ، والطبقات الكبرى للسبكي (٧/٩٦) .

(٦) الكتابان : " الرد على المنطقيين " ، و " نقض المنطق " وهما مطبوعان .

**أحـوَجُ ما كان إليــه العَـــانِي**
**يـخُونُهُ في السِّـــرِّ والإعــــلانِ**
**يمشي به اللسـانُ في المَيـدانِ**
**مَشْيَ مُقَيَّـــدٍ على صَفْـــوانِ**
**مُتَّصلُ العِثَـــارِ والتَّـــوانِـــي**
**كأنَّـــهُ السَّـــرابُ بالقِيعَـــانِ**
**بَـــدا لعَينِ الظامِيءِ الحَـــرانِ**
**فَأَمَّـــهُ بالظَّـــنِّ والحُسْبَـــانِ**
**يـرجُـو شِـفَـاءَ غُلَّـــةِ الظَّمْـآنِ**
**فلمْ يَجِدْ ثَمَّ سِـــوى الحِرْمَـانِ**
**فعَـــادَ بالخَـيْبَـــةِ والخُـــسرانِ**
**يَقْرَعُ سِـــنَّ نَـــادِمٍ حَـــيْرَانِ**
**قدْ ضَاعَ منهُ العُمْرُ في الأماني**
**وعَايَـنَ الخِـفَّـةَ في المِـــيزانِ**

**وما كان من هَوَسِ النُّفوسِ بهذه المَنزلةِ ، فهو بأن يكونَ جهْلاً أولى منه بأن يكون عِلماً تعلُّمُه فرضُ كفايةٍ ، أو فرضُ عينٍ .**

**وهذا الشَّافعي وأحمدُ وسائرُ أئمَّةِ الإسلامِ وتصانِيفُهم ، وسائرُ أئِمَّةِ العربيةِ وتصانِيفُهم وأئِمَّة التفسيرِ وتصانِيفُهم لِمَن نظرَ فيها ؛ هل راعَوا فيها حدودَ المنطقِ وأوضَاعَهُ ؟ وهل صحَّ لهم عِلمٌ بدونه ، أم لا ؟ بل هم كانوا أجلَّ قدْراً ، وأعظمَ عُقولاً من أن يشْغَلُوا أفكارَهم بهَذْيانِ المَنْطِقيِّين [1] .**

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (٢٣/٩) : " لا تجدُ أحداً من أهل الأرض حقَّقَ علماً من العلوم ، وصارَ إماماً فيه مُستعيناً بصناعةِ المنطقِ ، لا من العلوم الدِّينيةِ ، ولا غيرِها ، فالأطباءُ والحُسَّابُ والكُتَّابُ ونحوهُم يُحققون ما يُحقِّقون مِن علومِهم وصناعاتِهم بغيرِ صناعةِ المنطق .

وقد صُنِّفَ في الإسلام علومُ النحو واللغة والعروض والفقه وأصولِهِ والكلام وغير ذلك ، وليس في أئمة هذه الفنونِ مَن كان يلتفتُ إلى المنطقِ ، بل عامَّتُهم كانوا قبل أن يُعَرَّبَ هذا المنطقُ اليوناني " .

**وما دخلَ المَنطقُ على علمٍ إلا أفسدَهُ ، وغيَّرَ أوضاعَهُ ، وشوَّشَ قواعِدَهُ [١] .**

**ومن الناس مَن يقولُ : إنَّ علومَ العربيةِ من التَّصريفِ ، والنَّحوِ ، واللغةِ ، والمَعاني والبيانِ ، ونحوها تعلُّمُها فرضُ كفايةٍ ؛ لتوقُّفِ فَهْمِ كلامِ الله ورسوله عليها .**

**ومِن الناس مَن يقولُ : تعلُّمُ أصولِ الفقهِ فرضُ كفايةٍ ؛ لأنَّهُ العلمُ الذي يُعرفُ به الدَّليلُ ومَرتَبتُهُ ، وكيفِيَّةُ الاستدلال .**

**وهذه الأقوالُ وإنْ كانت أقربَ إلى الصَّوابِ من القولِ الأول ، فليس وجوبُها عامًّاً على كلِّ أحدٍ ، ولا في كلِّ وقتٍ ، وإنَّما تجبُ وجوبَ الوسائل في بعض الأزمانِ ، وعلى بعض الأشخاصِ ، بخلافِ الفرضِ الذي يعُمُّ وجوبُهُ كلَّ أحدٍ ؛ وهو علمُ الإيمانِ وشرائعِ الإسلام ، فهذا هو الواجبُ ، وأمَّا ما عداهُ ؛ فإنْ توقَّفَتْ معرفتُهُ عليه فهو من بابِ ما لا يتمُّ الواجبُ إلا به ، ويكونُ الواجبُ منه القَدْرَ المُوصلَ إليه دون المسائلِ التي هي فَضْلَةٌ لا يَفْتَقِرُ معرفةُ الخطابِ وفهْمُهُ عليها . [٢]**

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (٩/٢٣- ٢٤) : " بل الذي وجدناهُ بالاستقراء أنَّ من المعلوم أنَّ الخائضينَ في العُلوم من أهلِ هذه الصناعةِ أكثرُ الناس شكًّاً واضطراباً ، وأقلُّهم علماً وتحقيقاً ، وأبعدُهم عن تحقيق علمٍ موزون ، وإن كان فيهم مَن قد يُحقق شيئاً من العلم ، فذلك لصحَّةِ المادةِ والأدلة التي ينظرُ فيها وصحَّةِ ذهنِه وإدراكِه ، لا لأجل المنطق ، بل إدخالُه صناعةَ المنطقِ في العلوم الصَّحيحة يطوِّلُ العبارةَ ، ويُبعدُ الإشارةَ ، ويجعلُ القريبَ من العلم بعيداً ، واليسيرَ منه عسيراً ، ولهذا تجدُ من أدخله في الخلاف ، والكلام وأصولِ الفقهِ ، وغيرِ ذلك لم يفدْ إلَّا كثرةَ الكلامِ والتَّشقيقِ ، مع قلةِ العلم والتَّحقيقِ ، فعُلمَ أنَّه من أعظم حشوِ الكلامِ ، وأبعدِ الأشياءِ عن طريقِ ذوي الأحلام " .

وقال السيوطي في الحاوي للفتاوى (١/٣٠٠) : " فنُّ المنطقِ فنٌّ خبيثٌ ، مذمومٌ ، يحرمُ الاشتغال به ...." إلى أن قال : " وليس له ثمرةٌ دينيةٌ أصلاً ، بل ولا دُنيويةٌ ، نصَّ على مجموعِ ما ذكرته أئمةُ الدينِ ، وعلماءُ الشريعةِ فأولُ من نصَّ على ذلك الإمامُ الشافعي رضي الله عنه ... " .

(٢) قال ابن رجب رحمه : " فالذي يتعيَّنُ على المسلم الاعتناءُ به والاهتمامُ أنْ يبحثَ عمَّا جاءَ عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم يجتهدُ في فهم ذلك ، والوقوفِ على معانيه ، ثم يشتغلُ بالتصديقِ بذلك إنْ كان من الأمور العِلْمية وإنْ كان من الأمور العملية ، بذل وسْعَهُ في الاجتهاد في فعل ما يستطيعه من الأوامر ، واجتناب ما يُنهى عنه وتكون همَّتُهُ مصروفةً بالكلية إلى ذلك ؛ لا إلى غيره . وهكذا كان حالُ أصحابِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم بإحسَانٍ في طلب العلم النافع مِنَ الكتاب والسنة " . جامع العلوم والحكم (١/٢٤٤) .

فلا يطلقُ القولُ بأنَّ علم العربيةِ واجبٌ على الإطلاقِ ؛ إذ الكثير منه ومن مسائِله وبُحوثه لا يتوقَّفُ فهمُ كلامِ الله ورسولِه عليها ، وكذلك أصولُ الفقهِ ؛ القَدْرُ الذي يتوقفُ فهمُ الخطاب عليه منه تجبُ معرفتُه دونَ المسائل المُقرَّرةِ والأبحاثِ التي هي فضْلَةٌ فكيف يقال : إنَّ تعلُّمها واجبٌ ؟

وبالجملةِ ؛ فالمطلوبُ الواجبُ من العبد من العلوم والأعمال إذا توقفَ على شيءٍ منها كان ذلك الشيءُ واجباً وجوبَ الوسائلِ .

ومعلومٌ أنَّ ذلك التوقُّفَ يختلفُ باختلافِ الأشخاص والأزمان والألسنةِ والأذهانِ فليس لذلك حدٌّ مُقدَّرٌ ، والله أعلم .

قوله صلى الله عليه وسلم : سأل موسى ربه عن ستِّ خصال

الوجهُ الثالثُ والثلاثون بعد المئة : ما رواه ابن حبان (١) في " صحيحه " (٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٣) يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : ( سأل موسى ربه عن ستِّ خصالٍ كان يظنُّ أنَّها له خالصةٌ ، والسابعةُ لم يكن موسى يُحبُّها ، قال : يا ربِّ ، أيُّ عبادكَ أتقى ؟ قال : الذي يذكرُ ولا ينسى ، قال : فأيُّ عبادكَ أهدى ؟ قال : الذي يتَّبعُ الهدى ، قال : فأيُّ عبادكَ أحكمُ ؟ قال : الذي يحكمُ للناسِ ما يحكمُ لنفسهِ ،قال : أيُّ عبادكَ أعلمُ ؟ قال : عالمٌ لا يشبعُ من العلمِ ، يجمعُ علمَ الناس إلى علمه ، قال : فأيُّ عبادكَ أعزُّ ؟ قال : الذي إذا قَدِرَ عفا ، قال : فأيُّ عبادكَ أغنى ؟ قال : / الذي يرضى بما أُوتي ، قال : فأيُّ عبادكَ أفقرُ ؟ قال : صاحبٌ مَنقُوصٌ ) (٤) . [٨١/أ]

فأخبرَ في هذا الحديثِ أنَّ أعلمَ عبادهِ الذي لا يشبعُ من العلم ، فهو يجمعُ علمَ الناس إلى علمِه لنَهْمَته في العلم ، وحرصِهِ عليه .

---

(١) أبو حاتم محمد بن حبان ، تقدَّمت ترجمته ص : ٣٩٠ .

(٢) صحيح ابن حبان (١٠٠/١٤) ، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق (١٢٩) ، والديلمي في مسند الفردوس (٣١٤/٢) ، وفيه : عن درَّاج بن سمعان أبو السَّمح عن ابن حُجَيْرَة عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ودرَّاج مختلف فيه كما تقدّم ص ٢٤٠ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح (٣٣٥٠) .

(٣) تقدَّمت ترجمته ص : ٦٤ .

(٤) قال أبو حاتم في صحيحه (١٠٠/١٤) : قوله : ( صاحبٌ منقوصٌ ) يُريدُ به : ( منقوصٌ حالته ، يستَقِّلُ ما أُوتي ويطلبُ الفَضلَ ) .

ولا ريبَ أنَّ كونَ العبدِ أعلمَ عبادِ الله من أعظمِ أوصاف كماله ، وهذا هو الذي حمَل موسى على الرِّحلةِ إلى عالِمِ الأرض ليعلِّمَه مما علَّمه الله .

هذا وهو كليمُ الرحمن ، وأكرمُ الخلق على الله في زمانه ، وأعلمُ الخلق ، فحَمَلَهُ حرصُه ونهْمتُهُ في العلم على الرِّحلةِ إلى العالِم الذي وُصِفَ له ، فلولا انَّ العلم أشرفُ ما بُذلت فيه المُهجُ ، وأُنفِقَت فيه الأنفاسُ لاشتغلَ موسى عن الرِّحلة إلى الخَضِرِ بما هو بصددهِ من أمر الأمةِ ، وعن مُقـاسـاة النَّصبِ والتَّعبِ في رحلته ، وتلطُّفِه للخَضِرِ في قولِه : ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾[1] ، فلم يَرَ اتِّباعَهُ حتى استأذَنَهُ في ذلك وأخبَرَه أنَّه جاء مُتعلِّماً مُستفيداً .

فهذا النبيُّ الكريمُ عليه وعلى نبينا وسائرِ الأنبياءِ والمرسلين أفضلُ الصلاة والتسليم كان عالِماً بقَدْرِ العلمِ وأهله ، صلواتُ الله وسلامه عليه وعلى نبينا محمد .

أن الله نصب للعباد علما لا كمال لهم إلا به

الوجهُ الرَّابعُ والثلاثون بعد المئة : أنَّ الله سبحانه وتعالى خلقَ الخلق لعبادتِه الجامعةِ لمحبَّته وإيثارِ مَرضاتِه ، المُستلزمةِ لمعرفته ، ونصَبَ للعباد عِلْماً لا كمالَ لهم إلا به وهو أن تكونَ حركاتُهم كلها واقعةً على وَفْقِ مرضاتِه ومحبتِهِ ، ولذلك أرسلَ رُسله وأنزل كتبَهُ ، وشرَعَ شرائِعَه .

فكمالُ العبد الذي لا كمالَ له إلا به أن تكون حركاتُه مُوافقةً لِمَا يُحبُّه الله منه ويرضَاه له ، ولهذا جعلَ اتِّبَاعَ رسولِه دليلاً على محبته ، قال تعالى : ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران:٣١] [2] .

فالمُحبُّ الصادقُ يرى خيانةً منه لمحبوبِه أن يتحركَ بحركةٍ اختياريةٍ في غير مرضاتِه وإذا فعلَ فِعلاً مِمَّا أبيحَ له بمُوجَبِ طبيعتِه وشهوتِه تابَ منه كما يتوبُ من الذَّنْبِ ، ولا يزالُ هذا الأمرُ يقوى عنده حتى تنقلبَ مُباحاتُه كلُّها طاعاتٍ ، فيحتسبَ نومَهُ وفِطْرَه

(١) الكهف : ٦٦.

(٢) آل عمران : ٣١ .

وراحتَه كما يحتسبُ قومَتَهُ وصومَهُ واجتهادَه ، وهو دائماً بين سرَّاءَ يشكرُ الله عليها وضرَّاءَ يصبرُ عليها ، فهو سائرٌ إلى الله دائماً في نومِه ويقظتِهِ (١) .

قال بعض العلماء : " الأكياسُ عاداتُهم عباداتٌ ، والحَمْقَى عبادَاتُهم عاداتٌ " (٢) .

وقال بعض السلفِ : " حبَّذا نومُ الأكياسِ وفِطْرُهم ، يغْبِنُون به سَهَرَ الحمقى وصومَهم " (٣) .

والمحبُّ الصادقُ إنْ نطَقَ نَطَقَ للهِ وباللهِ ، وإنْ سكتَ سكتَ لله ، وإنْ تحرَّكَ فبأمرِ الله وإنْ سكنَ فسُكُونُهُ استعانَةٌ على مرضاتِ اللهِ ؛ فهو لله وبالله ومع الله .

ومعلوم أنَّ صاحبَ هذا المقام أحوجُ خلق الله إلى العلمِ ؛ فإنَّه لا تَتَمَيَّزُ له الحركةُ المحبوبةُ لله من غيرها ، ولا السكونُ المحبوبُ له من غيره إلا بالعلم .

فليست حاجته إلى العلم كحاجةِ من طلبَ العلمَ لذاتِه ، ولأنَّه في نفسه صفةُ كمالٍ ، بل حاجتُهُ إليه كحاجته إلى ما به قِوامُ نفسِه وذاتِه ، ولهذا اشتدَّت وَصَاةُ الشيوخِ العارفين

---

(١) قال المؤلف رحمه الله : " فالكيِّسُ يقطعُ من المسافةِ بصحَّةِ العزيمةِ ، وعلوِ الهمَّةِ ، وتجريدِ القَصدِ ، وصحَّةِ النيةِ مع العملِ القليلِ أضعافَ أضعافَ ما يقطَعُه الفارغُ من ذلك ، مع التَّعبِ الكثير ، والسفرِ الشَّاقِ ؛ فإنَّ العزيمةَ والمَحبة تُذهِبُ المشقَّةَ ، وتُطيِّب السَّيرَ ، والتَّقدمُ والسَّبقُ إلى الله سبحانه إنَّما هو بالهِمَمِ وصدق الرَّغبةِ والعزيمةِ فيتقدَّمُ صاحبُ الهمة مع سكونِه صاحبَ العملِ الكثيرِ بمراحلَ ، فإن ساواه في همَّتِهِ تقدَّمَ عليه بعمله " الفوائد (١٤٢) .

(٢) قال ابن الجـوزي رحمه الله في صيد الخاطـر (٤٠٩) : " تأملت على أكثر الناس عباداتهم ؛ فإذا هي عادات فأمَّا أربابُ اليقظةِ فعاداتُهم عبادةٌ حقيقية .

فإنَّ الغافلَ يقولُ : " سبحان الله " عادةً ، والمُتيقِّظُ لا يزالُ فكرُهُ في عجائبِ المخلوقاتِ ، أو في عَظمةِ الخالقِ فيُحرِّكُه الفِكْرُ في ذلك فيقولُ: " سبحان الله " . ولو أنَّ إنساناً تفكَّرَ في رُمَّانةٍ ؛ فنظرَ في تصفيفِ حبِّها ، وحفظِهِ بالأغشيةِ لئلَّا يتضاءل ، وإقامةِ الماءِ على عظمِ العجمِ . النَّوى . وجعلِ الغِشاءِ عليه يحفظه ، وتصويرِ الفرْخِ في بطن البيضةِ ، والآدمي في حَشا الأمِّ ، إلى غير ذلك من المخلوقات أزعجه . دفعه . هذا الفكر إلى تعظيم الخالق ، فقال : " سبحان الله " ، وكان هذا التسبيحُ ثمرةَ الفكرِ ؛ فهذا تسبيحُ المُتيقظين ، وما تزالُ أفكارُهم تجولُ فتقعُ عباداتُهم بالتَّسبيحاتِ مُحققةً . وكذلك يتفكَّرون في قبائحِ ذنوبٍ قد تقدَّمت ؛ فيوجبُ ذلك الفكرَ ، حركة الباطن ، وقلقَ القلبِ ، وندمَ النَّفسِ ؛ فيثمرُ ذلك أن يقولُ قائلُهم : " أستغفرُ الله " . فهذا هو التسبيح والاستغفار .

فأمَّا الغافلون فيقولون ذلك عادةً ، وشتَّان ما بين الفريقين ".

(٣) رواه أحمد في الزهد (١١٣) ، وأبو نُعيم في حلية الأولياء (١١/٢١١) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٧/١٧٥) وفي سنده : عن أبي سعيد الكِنْدِي عمَّن أخبره عن أبي الدرداء رضي الله عنه فذكره ، وهو منقطع الإسناد .

**لِمُريديهِم بالعلم وطلبهِ ، وأنَّه مَن لم يطلبِ العلم لم يُفلح ، حتى كانوا يعدُّون مَن لا علمَ له من السِّفْلَة [١] .**

**قال ذو النُّون [٢] وقد سئلَ : عن السِّفْلَة ؟ فقال : " مَن لا يعرف الطريقَ إلى الله تعالى ولا يتَعَرَّفُهُ " [٣] .**

**وقال أبو يزيد [٤] : " لو نظرتُم إلى الرَّجلِ وقد أُعطيَ من الكرَاماتِ حتى يتربَّعَ في الهواءِ فلا تغتَرُّوا به حتى تنظروا كيف تجدونَهُ عند الأمرِ والنَّهي ، وحفظِ الحُدودِ ، ومعرفةِ الشَّريعةِ " [٥] .**

**وقال أبو حمزةَ البَزَّاز [٦] : " مَن عَلِمِ طريقَ الحقِّ سَهُلَ عليه سُلوكُهُ ، ولا دليلَ على الطريق إلا مُتابعةُ الرَّسول صلى الله عليه وسلم في أقوالِهِ وأفعالِهِ وأحوالِهِ " [٧] .**

ذكر محمد بن الفضل الصوفي أنَّ أصناف الناس أربعة

**وقال محمد بن الفضل الصوفي الزاهد [٨] : " ذهابُ الإسلام على يدي أربعةِ أصنافٍ من الناسِ : صنفٌ لا يعملون بما يعلمون ، وصنفٌ يعملون بما لا يعلمون**

(١) السِّفْلة أو السَّفِلة هم : أراذل الناس تهذيب اللغة للأزهري (٢٩٨/١٢) ، ولسان العرب لابن منظور (٣٣٧/١١) .

(٢) ثَوبان بن إبراهيم الإِخْمِيمِيُّ المصري ، وقيل في اسمه غير ذلك ، يُكنَّى أبا الفيض ، ويُقال : أبا الفياض ، الزاهد الورع ، الواعظ ، شيخ الديار المصرية ، نسبته إلى إقليم " إخْميم " في صعيد مصر ، توفي عام : ٢٤٥ هـ . حلية الأولياء لأبي نعيم ( ٣٣١/٩) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٥٣٢/١١) .

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٧٢/٩) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٢٧/١٧) .

(٤) طَيْفُور بن عيسى البِسْطَامِي ، أحدُ مشايخ الصوفية ، قال ابن كثير : " وقد حُكي عنه شَطَحاتٌ ناقِصاتٌ ، وقد تأوَّلها كثير من الفقهاء والصوفية ، وحملوها على محامل بعيدة ، وقد قال بعضهم: إنه قال ذلك في حال الاصطلام والغيبة ، ومن العلماء من بدّعه وخطَّأه ، وجعل ذلك من أكبر البدع ، وأنَّها تدلُّ على اعتقاد فاسد كامن في القلب ظهر في أوقاته والله أعلم " ، وتوفي سنة : ٢٦١هـ . وفيات الأعيان لابن خلكان (٤٣٩/١) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٨٦/١٣) ، والبداية والنهاية لابن كثير (٣٨/١١) .

(٥) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٤٠/١٠) .

(٦) محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي ، أبو حمزة البَزَّاز ، كان فقيها عالما بالقراءات ، توفي عام : ٢٨٩ هـ . الرسالة القشيرية (٣٩٥) ، وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (٢٦٨/١) .

(٧) رواه السلمي في طبقات الصوفية (٢٢٩) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٥٥/٥١) .

(٨) محمد بن الفَضْل بن العباس البَلْخي ، واعظ بَلْخ ، توفي عام : ٣١٧ هـ . طبقات الصوفية للسلمي (١٧١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢٣٢/١٠) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٥٢٣/١٤) .

**وصنفٌ لا يتعلَّمون ولا يعملون ، وصنفٌ يمنَعون الناسَ من التَّعلُّم " (١) .**

**قلتُ : الصِّنفُ الأولُ : مَن له علمٌ بلا عمل ؛ فهو أضرُّ شيء على العامة ؛ فإنَّه حُجَّةٌ لهم في كل نقيصَةٍ ومبْخَسَةٍ (٢) .**

**والصنفُ الثاني : العابدُ الجاهلُ ؛ فإنَّ الناس يُحسنُون الظنَّ به بعبادته وصلاحِه فيقتَدون به على جهله .**

**وهذان الصنفانِ هما اللذان ذكرهما بعضُ السلفِ في قوله : " احذروا فتنةَ العالِمِ الفاجِرِ والعابدِ الجاهلِ ؛ فإنَّ فتنتَهما فتنةٌ لكلِّ مفتونٍ " (٣) .**

**فإنَّ الناسَ إنَّما يقتدون بعلمائهم وعُبَّادهم ، فإذا كان العلماءُ فجَرَةً ، والعُبَّادُ جَهَلةً عمَّت المُصيبةُ بهما ، وعظُمت الفتنةُ على الخاصة والعامة .**

**والصنفُ الثالثُ : الذين لا علمَ لهم ولا عمل ، وإنَّما هم كالأنعام السَّائمةِ .**

**والصنفُ الرابعُ : نُوَّابُ إبليسَ في الأرض ؛ وهم الذين يُثبِّطون الناس عن طلبِ العلم والتَّفقه في الدِّين ؛ فهؤلاء أضرُّ عليهم من شياطينِ الجنِّ ؛ فإنَّهم يحُولون بين القلوبِ وبين هُدى الله وطريقته (٤) .**

**فهؤلاء الأربعةُ أصنافٍ هم الذين ذكَرَهم هذا العارفُ رحمةُ الله عليه (٥) .**

---

(١) رواه السلمي في طبقات الصوفية (١٧٢-١٧٣) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٣٣/١٠) .

قال الذهبي في السير (٢٥٢/١٤) بعد أن ذكر قول محمدِ بن الفضلِ : " قلتُ : هذه نعوتُ رُؤوسِ العرب والتُّركِ وخلقٌ من جَهلةِ العامَّة ، فلو عَمِلوا بيسير ما عَرفوا ، لأفلحُوا ، ولو وقَفُوا عن العمل بالبدعِ لوُفِّقُوا ، ولو فتَّشوا عن دينهم وسألوا أهلَ الذِّكرِ . لا أهلَ الحِيلِ والمكرِ . لسَعِدوا ، بل يُعرِضُون عن التَّعلُّم تِيْهاً وَكَسَلاً ، فواحدةٌ من هذه الخِلالِ مُردِيةٌ ، فكيف بها إذا اجتمعت ؟ فما ظنُّك إذا انضمَّ إليها كِبرٌ ، وفجورٌ ، وإجرامٌ ، وتجَهْرُمٌ على الله ؟ نسأل الله العافية " . تجَهْرم أي : تجرأ ، ولم أجدها في القواميس ، وقد استعمل هذه الكلمة الحاكم ، كما نقل عنه الذهبي في المغني في الضعفاء (٤٥١/٢) : " معتزليا متهاونا بالرواية تجَهْرَم حتى هُجرَ" ، وذكرها الذهبي مراتٍ ، كما في تاريخه (٣٤/٢٩ و ٢٨٢/٥٠) ، واستعملها ابن كثير في تفسيره (١٢٦/١ و ٤٤٦/٣) : " ولمَّا تجَهْرَمَ مُسيلمة الكذَّاب وتسمَّى برحمن اليمامة كساه الله جِلبابَ الكذب وشهَّرَ به" ، وفي البداية والنهاية (٤٥/١٣) .

(٢) البَخْسُ : النَّقْصُ . الصحاح للجوهري (٩٠٧/٣) ، ولسان العرب لابن منظور (٢٤/٦) .

(٣) تقدَّم تخريجه ص : ٤٢٩ .

(٤) في : د ، ص : وطريقهِ .

(٥) وهو محمد بن الفضل البَلْخي الصوفي ، كما في الصفحة السابقة .

وهؤلاء كلُّهم على شفا جُرُفٍ هارٍ ، وعلى سبيل هَلَكَةٍ ، وما يلْقَى العالِمُ الدَّاعي إلى الله ورسولِهِ ما يلقاهُ مِن الأذى والمُحاربة إلا على أيديهم ، والله يستعملُ مَن يشاءُ في سخَطِهِ كما يستعملُ من يُحبُّ في مرضاتِهِ ، إنَّه بعباده خبيرٌ بصيرٌ .

ولا ينكشفُ سِرُّ هذه الطَّوائفِ وطريقُهم إلا بالعلمِ ، فعادَ الخيرُ بحذافِيرِهِ إلى العلم ومُوجبِهِ ، والشرُّ بحذافِيرِهِ إلى الجهلِ ومُوجبهِ .

أن الله جعل العلماء وكلاء وأمناء على دينه ووحيه

الوجهُ الخامسُ والثلاثون بعد المئة : أنَّ الله سبحانه جعلَ العلماءَ وُكَلاءَ وأُمناءَ على دينه ووحيه ، وارتضاهم لحفظِهِ والقيامِ به ، والذَّبِّ عنه ، وناهيكَ بها مَنزلةً شريفةً ، ومَنقبةً عظيمةً ، قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ (١) .

المراد بقوله تعالى (فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين)

وقد قيلَ : إنَّ هؤلاء القومِ هم الأنبياءُ ، وقيلَ : أصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وقيلَ : كلُّ مؤمنٍ .

هذه أمَّهاتُ الأقوالِ بعدَ أقوالٍ مُتفرِّعَةٍ عن هذه ، كقولِ من قال : هم الأنصارُ أو : المهاجرون والأنصار ، أو : قومٌ من أبناءِ فارس .

وقال آخرون : هم الملائكةُ (٢) .

قال ابن جريرٍ (٣) : " وأولى هذه الأقوالِ بالصوابِ : أنَّهم الأنبياءُ الثَّمانيةَ عشرَ الذين سمَّاهم في الآيات قبلَ هذه الآيةِ " .

---

(١) الأنعام : ٨٨ – ٨٩ .

(٢) ينظر : تفسير عبد الرزاق (٢/٥٦) ، وتفسير ابن جرير الطبري (٩/٣٨٨) ، ومعاني القرآن للزجاج (٢/٢٧٠) وتفسير ابن أبي حاتم (٤/١٣٣٩) ، وتفسير الماوردي (٢/١٤٠) ، وتفسير البغوي (٣/١٦٦) ، وتفسير ابن الجوزي (٢/٥١) ، وتفسير القرطبي (٧/٣٤) ، وتفسير ابن كثير (٣/٢٩٩) ، وتفسير السيوطي (٦/١٢٣) .

(٣) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآمُلي ، أبو جعفر الطبري ، مولده في مدينة " آمُل " في طبرستان إمام المفسرين ، وعالم عصره ، صنَّفَ التفسير ، والتاريخ ، وتهذيب الآثار ، وغيرها ، توفي عام : ٣١٠ هـ . تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٢/١٦٢) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٢/٣٢٥) .

قال : " وذلك أنَّ الخبرَ في الآيات قبلها عنهم مَضى ، وفي التي بعدها عنهم ذُكِرَ فما بينهما [١] بأنْ يكون خبراً عنهم أوْلى وأحقُّ مِن أن يكون [٢] خبراً عن غيرهم فالتأويلُ : فإنْ يكفرُ قومُكَ من قريشٍ / يا محمدُ بآياتنا ، وكذَّبوا بها ، وجحَدُوا حقيقَتها [٨٢/أ] فقد استحفظناها واسترعينا القيامَ بها رُسُلَنا وأنبياءَنا مِن قبلِكَ ، الذين لا يجحدون حقيقَتَها ولا يُكذِّبون بها ، ولكنَّهم يُصدِّقون بها ، ويؤمنون بصحتها " [٣] .

قلت : السورة مكيةٌ ، والإشارةُ بقوله : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ إلى مَن كفرَ به من قومهِ أصلاً ومَن عداهم تبَعاً ، فيدخلُ فيها مَن كفرَ بما جاء به من هذه الأمة [٤] .

والقومُ المُوكَّلون بها هم الأنبياءُ أصلاً ، والمؤمنون بهم تبَعاً ، فيدخلُ فيها كلُّ مَن قام بحفظها ، والذَّبِّ عنها ، والدَّعوةِ إليها .

ولا ريب أنَّ هذا للأنبياء أصلاً وللمؤمنين بهم تبعاً ، وأحقُّ من دخل فيها من اتباعِ الرسولِ خلفاؤُه في أمَّته وورثتُهُ ، فهم المُوكَّلون بها ، وهذا ينتظمُ في الأقوالِ التي قيلت في الآية .

وأمَّا قولُ من قال : إنَّهم الملائكة [٥] ؛ فضعيف جداً لا يدلُّ عليه السياق ، وتأباه لفظة " قوم " ؛ إذ الغالبُ في القرآن . بل المُطَّردُ . تخصيصُ القوم ببني آدمَ دونَ الملائكة .

وأما قولُ إبراهيمَ لهم : ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ [٦] ؛ فإنَّما قاله لمَّا ظنَّهُم من الإنس .

وأيضاً فلا يقتضيه فخامَةُ المعنى ومقصودُهُ ، ولهذا لو ظهرَ ذلك وقيلَ : " فإن يكفُرْ بها كفَّارُ قومِك ؛ فقد وكَّلنا بها الملائكةَ ؛ فإنَّهم لا يكفرون بها " ، لم نجد منه مِن

(١) في النسخ كلها " فما يليها " وهو تصحيف ، والمثبت من تفسير ابن جرير الطبري .

(٢) في النسخ كلها " أوْلى وأحقُّ بأن يكون " وهو تصحيف ، والمثبت من تفسير ابن جرير الطبري .

(٣) تفسير ابن جرير الطبري (٩/٣٩٠ – ٣٩١) .

(٤) ينظر : تفسير البغوي (٣/١٦٦) ، وتفسير القرطبي (٤/١٤٠) ، وتفسير ابن كثير (٣/٢٩٩) .

(٥) قاله أبو رجاء العطاردي ، رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٩/٣٨٩-٣٩٠) ، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/١٣٣٩) .

(٦) الذاريات : ٢٥ .

التَّسليةِ ، وتحقيرِ شأنِ الكَفرةِ [١] ، وبيانِ عدمِ تأهُّلِهم لها والإنعام عليهم ، وإيثارِ غيرهم من أهلِ الإيمانِ الذين سبقت لهم الحُسنى عليهم ؛ لكونِهم أحقَّ بها وأهلَها ، والله أعلمُ حيث يضع هُداهُ ، ويختصُّ به مَن يشاءُ .

وأيضاً ؛ فإنَّ تحت هذه الآية إشارةً وبشارَةً بحفظها ، وأنَّه لا ضَيْعَةَ عليها ، وأنَّ هؤلاء وإن ضيَّعوها ، ولم يقبَلُوها ؛ فإنَّ لها قوماً غيرهم يقبلونَها ، ويحفظونَها ويرعَونَها ، ويذُبُّون عنها ، فكُفْرُ هؤلاء بها لا يُضيِّعُها ، ولا يُذهبُها ، ولا يضرُّها شيئاً ، فإنَّ لها أهلاً ومُستَحَقاً سواهم [٢] .

فتأمَّلْ شرفَ هذا المعنى وجلالتَه ، وما تضمَّنه من تحريضِ عباده المؤمنين على المُبادَرةِ إليها ، والمُسارعةِ إلى قَبُولها ، وما تحتَه من تنبيههم على محبَّته لهم ، وإيثاره إياهم بهذه النِّعمة على أعدائه الكافرين ، وما تحته من احتقَارِهم وازدِرائِهم ، وعدمِ المُبالاة والاحتفالِ بهم ، وإنَّكم وإن تؤمنوا بها فعبادي المؤمنونَ بها المُوكلون بها سِواكم كثيرٌ ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [٣] ، وإذا كان للملك عبيدٌ قد عصَوه وخالفوا أمره ، ولم يلتفتوا إلى عهدِه ، وله عبيدٌ آخرونَ سامِعُون [٤] ، مُطيعُون ، قابِلون ، مُستجيبون لأمره فنَظَرَ إليهم ، وقال : إنْ يكفر هؤلاء نِعْمَتي ، ويعصوا أمري ، ويُضيِّعو عهدي ، فإنَّ لي عبيداً سواهم وهم أنتم تُطيعون

(١) في : د ، ص : وتحقيرِ شأنِ الكَفرةِ بها .

(٢) قال المؤلف رحمه في عدة الصابرين (٢٨٠) : " فأخبر أنَّه سبحانه كما جعلَ في الأرض مَن يكفرُ به ، ويجحدُ توحيدَهُ ، ويُكذِّبُ رُسلَه ، كذلك جعلَ فيها مِن عبادِه مَن يؤمن بما كفرَ به أولئك ، ويُصدِّقُ بما كذبوا به ، ويحفظ من حُرماته ما أضاعوه ، وبهذا تماسُكُ العَالَم العلوي والسُّفلي ، وإلا فلو تَبَعَ الحقُّ أهواءَ أعدائِه لفسدت السماواتُ والأرضُ ومن فيهنَّ ، ولَخَرِبَ العَالَم ، ولهذا جعل سبحانه من أسبابِ خَرابِ العالَم رفْعُ الأسبابِ المُمسِكةِ له من الأرض ، وهي كلامُه ، وبيتُهُ ، ودِينُه ، والقائمون به ، فلا يبقى لتلك الأسبابِ المُقتضية لخَرابِ العالَمِ أسبابٌ تُقاومُها وتُمانُعها " .

(٣) الإسراء : ١٠٧ – ١٠٨ .

(٤) في : د ، ص : سامعون له .

أمري ، وتحفظونَ عهدي ، وتؤدُّون حقِّي ؛ فإنَّ عبيده المُطيعين يجدون في أنفسِهم من الفرح والسُّرورِ ، والنَّشاطِ ، وقوةِ العزيمةِ ما يكون مُوجباً لهم المزيدَ من القيامِ بحقِّ العبودية ، والمزيدَ من كرامةِ سيِّدهم ومالكهم ، وهذا أمرٌ يشهد به الحسُّ والعِيَانُ .

وأمَّا توكيلُهم بها فهو يتضمَّنُ توفيقَهم للإيمان بها ، والقيامِ بحقوقِها ، ومُراعاتِها والذَّبِّ عنها ، والنصيحة لها ، كما يُوكِّلُ الرجلُ غيرَه بالشيءِ ليقومَ به ، ويتعهَّدَهُ ويُحافظُ عليه ، و ﴿بِهَا﴾ الأولى مُتعلِّقةٌ بـ و﴿وَكَّلْنَا﴾ ، و ﴿بِهَا﴾ الثانية مُتعلِّقةٌ بـ ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾ ، والباء في ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾ لتأكيدِ النَّفي .

هل يصح أن يقال لأحد: وكيل الله كما يُقال : ولي الله ؟

فإنْ قلتَ : فهل يصحُّ أن يُقال لأحدِ هؤلاءِ الموكَّلِين أنَّه : " وكيلُ الله " بهذا المعنى كما يُقال : " وليُّ اللهِ " ؟

قلتُ : لا يلزمُ من إطلاقِ فعل التَّوكِيلِ [1] المُقيَّدِ بأمرٍ ما أنْ يُصاغَ منه اسمُ فاعلٍ مُطلَقٍ كما أنَّه لا يلزمُ من إطلاقِ فعلِ الاستخلافِ المُقيَّد أن يُقالَ : " خليفةٌ " ، لقولِه تعالى : ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [2] ، وقولِه : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [3] فلا يُوجبُ هذا الاستخلافُ أن يقال لكلٍّ منهم : إنَّه " خليفةُ الله " ؛ لأنَّه استخلافٌ مُقيَّدٌ . ولمَّا قيلَ للصديق رضي الله عنه : يا خليفةَ اللهِ ، قال : " لستُ بخليفةِ الله ولكنِّي خليفةُ رسولِ اللهِ ، وحسْبِي بذلك " [4] .

ولكن يسوغُ أن يقالَ : هو وكيلٌ بذلك ؛ كما قال تعالى : ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ .

والمقصودُ أنَّ هذا التَّوكيلَ خاصٌ بمن قام بها عِلْماً وعملاً ، وجهاداً لأعدائِها وذبَّاً عنها ، ونفياً لتحريفِ الغالينَ ، وانتحالِ المُبطلينَ ، وتأويلِ الجاهِلينَ .

---

(١) في : ص : فعل التَّوكُّل .

(٢) الأعراف : ١٢٩ .

(٣) النور : ٥٥ .

(٤) تقدَّم تخريجه ص : ٤٥٤ .

وأيضاً ؛ فهو توكيلُ رحمةٍ ، وإحسانٍ ، وتوفيقٍ ، واختصاصٍ ، لا توكيلَ حاجةٍ كما يوكِّلُ الرجلُ مَن يتصرفُ عنه في غَيْبَتِهِ لحاجتِه إليه .

ولهذا قال بعضُ السلف (١) : ﴿ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا ﴾ : يقولُ : " رَزَقْنَاها قوماً " ؛ فلهذا لا يقالُ لمَن رُزِقَها ورُحِمَ بها : إنَّه " وكيلُ الله " .

وهذا بخلافِ اشتقاقِ " وليِّ الله " من المُوالاةِ ؛ فإنَّها المحبةُ والقُربُ ، فكما يقالُ : عبدُ الله وحبيبُهُ ، يُقال : وليُّه ، والله تعالى يُوالي عبده إحساناً إليه ، وجبْراً له ورحمةً ، بخلافِ المخلوقِ فإنَّه يوالي المَخلوقَ لتعزُّزِهِ به ، وتكثُّرِهِ بموالاتِه ؛ لذُلِّ العبد (٢) وحاجتِه ، وأمَّا العزيزُ الغنيُّ فلا يُوالي أحداً مِن ذُلٍّ ولا حاجةٍ ، قال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (٣) ، فلم ينفِ الوليَّ نفياً عاماً مُطلقاً ، بل نفى أن يكون له وليٌّ من الذُّلِّ وأثبتَ في موضعٍ آخرَ أنَّ له أولياءَ (٤) بقولِهِ : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٥) ، وقولِهِ : ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ﴾ (٦) ، فهذا موالاةُ رحمةٍ وإحسانٍ وجبْرٍ والمُوالاةُ المَنفيةُ مُوالاةُ حاجةٍ وذُلٍّ (٧) .

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة (١/٢٠٠) ، وتفسير ابن جرير الطبري (٩/٣٩١) ، وتفسير ابن الجوزي (٢/٥٢) .

(٢) في الأصل : " لذلك العبد " ، والمثبت من: د ، ص ، وهو الأشبه للسياق .

(٣) الإسراء : ١١١ .

(٤) في الأصل ، و ص : " وأثبتَ في موضعٍ آخرَ له أنَّ له أولياءَ " والمثبت من: د ، وهو الصواب .

(٥) يونس : ٦٢ .

(٦) البقرة : ٢٥٧ .

(٧) قال المؤلف رحمه الله في إغاثة اللهفان (١/٤١) : " فهو سبحانه لا يوالي مَن يُواليه مِن الذُّلِ ، كما يوالي المَخلوقُ المَخلوقَ ، وإنَّما يوالي أولياءَه إحساناً ، ورحمةً ، ومحبةً لهم ، وأمَّا العبادُ فإنَّهم كما قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [ محمد : ٣٨ ] ، فهم لفقرِهم وحاجَتِهم إنَّما يُحسنُ بعضُهم إلى بعضٍ لحاجتِه إلى ذلك ، وانتفاعه به عاجلاً أو آجلاً ، ولولا تصوُّر ذلك النَّفع لمَا أحسنَ إليه ، فهو في الحقيقة إنَّما أرادَ الإحسانَ إلى نفسِه ، وجعلَ إحسانَه إلى غيره وسيلةً وطريقاً إلى وُصولِ نفعِ ذلك الإحسانِ إليه ؛ فإنَّه إمَّا أن يُحسن إليه لتوقُّعِ جزائه في العاجل فهو مُحتاجٌ إلى ذلك الجزاءِ ، أو مُعاوضة بإحسانه ، أو لتوقُّع حمدِه وشُكرِه ، وهو أيضاً إنَّما يُحسن إليه ليُحصِّلَ منه

يوضِّحُ هذا :

قوله صلى الله عليه وسلم : يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله

الوجهُ السادسُ والثلاثونَ بعد المئة : وهو ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من وُجوهٍ مُتعدِّدةٍ أنَّه قال : ( يحمِلُ هذا العلمَ مِن كلِّ خلَفٍ عُدولُهُ ؛ ينفُون عنه تحريفَ الغالين ، وانتحالَ المُبطلين ، وتأويلَ الجاهلينَ ) (١) .

فهذا الحملُ المُشارُ إليه في هذا الحديث هو التَّوكلُ المَذكورُ في الآية ، فأخبرَ صلى الله عليه وسلم أنَّ العلمَ الذي جاءَ به يحملُه عُدولُ أمَّتهِ من كلِّ خلَفٍ ، حتى لا يضيعَ ويذهَبَ .

وهذا يتضمَّنُ تعديلَهُ لحَمَلةِ العلم الذي بُعثَ به ، وهو المُشارُ إليه في قوله : ( هذا العلم ) فكلُّ مَن حملَ العلمَ المُشارَ إليه فلا بدَّ وأن يكون عدلاً ، ولهذا اشتهرَ عند الأُمَّة عدالةُ نقَلَتِه وحَمَلتِه اشتهاراً لا يقبلُ شكَّاً ولا امتراءً .

ولا ريبَ أنَّ مَن عدَّله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لا يُسمَعُ فيه جَرحٌ ، فالائمةُ الذين اشتهروا عند الأمَّة بنقل العلم النَّبوي / وميراثِه كلُّهم عدولٌ بتعديلِ رسولِ الله صلى الله [٨٣/أ] عليه وسلم ، ولهذا لا يُقبلُ قدحُ بعضِهم في بعضٍ ، وهذا بخلافِ مَن اشتَهَرَ عند الأمَّةِ جرحُه ، والقدحُ فيه ؛ كأئمَّةِ البدعِ ومَن جرى مَجراهم من المُتَّهمين في الدين ؛ فإنَّهم ليسوا عند الأمة من حَملةِ العلم .

فما حمَلَ علمَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إلَّا عدلٌ ، ولكنْ قد يُغْلَطُ في مُسمَّى العدالةِ ، فيُظنُّ أنَّ المُرادَ بالعدل من لا ذَنْبَ له ، وليس كذلك ، بل هو عدلٌ مُؤتمنٌ على الدين ، وإن كان له ما يتوبُ إلى الله منه ، فإنَّ هذا لا يُنافي العدالة ، كما لا يُنافي الإيمانَ والوَلايَةَ (٢) .

---

ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح ؛ فهو محسنٌ إلى نفسه بإحسانه إلى الغير ، وإمَّا أن يريدَ الجزاءَ من الله تعالى في الآخرة ؛ فهو أيضاً مُحسنٌ إلى نفسه بذلك ، وإنَّما أخَّرَ جزاءَه إلى يوم فَقْرِه وفاقَتِهِ ، فهو غيرُ ملومٍ في هذا القصدِ فإنَّه فقيرٌ محتاج ، وفقرُه وحاجتُه أمرٌ لازمٌ له من لوازم ذاته ، فكمَالُه أن يحرصَ على ما ينفَعهُ ، ولا يعجز عنهُ " .

(١) تقدَّم تخريجه ص : ١٦٨ ، وسيذكر المؤلف طُرُقَه في الفصل التالي .

(٢) قال الصنعاني في ثمرات النظر في علم الأثر (٧٢) : " وقد قال الشافعيُّ في العدالةِ قولاً استحسنَهُ كثيرٌ من العقلاءِ مِن بعدِهِ ، قال : لو كان العدلُ مَن لم يُذنب ، لم نجد عَدلاً ! ولو كان كلُّ ذنْبٍ لا يمنع من العدالةِ =

# فصل

فصل في طرق حديث : يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله

**وهذا الحديثُ له طرقٌ عديدةٌ :**

**ـ منها ما رواهُ ابنُ عَديٍّ (١) ، عن موسى بن إسماعيلَ بن موسى بن جعفرَ (٢)، عن أبيه (٣) عن جدِّه جعفرَ بن محمدٍ (٤) ، عن أبيه (٥) ، عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم (٦) .**

**ـ ومنها ما رواه العوَّام بن حَوْشَب (٧) ، عن شهرِ بن حَوشب (٨) ، عن معاذ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ذكره الخطيبُ (٩) ، وغيره (١٠) .**

---

لم نجدْ مجروحاً ، ولكن مَن ترك الكبائرَ ، وكانت محاسِنُه أكثر مِن مساوئِه فهو عدلٌ . انتهى . قلتُ : وهذا قوله حسَنٌ ويُؤيدهُ أنَّ أهل اللغة فسَّروا العدلَ بنقيضِ الجَورِ ، وليس الجَورُ عبارة عن مَلَكةٍ راسخةٍ تُوجبُ إتيانَ كلِّ معصيةٍ ، ولا الجائر لغةً كل مَن يأتي معصيةً ، بل من غلبَ جَورُه على عدلِهِ " .

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٢٢ .

(٢) موسى بن إسماعيلَ بن موسى بن جعفرَ بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. لم أقف على ترجمة له.

(٣) إسماعيل بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، من العلماء والرواة ، كان حيًّاً قبل عام : ١٨٣ هـ . معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (٢/٢٩٧) .

(٤) جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم . وهو المعروف بالصَّادق ، الإمام ، العلم ، المدني ، توفي عام : ١٤٨ هـ . التاريخ الكبير للبخاري (١/٥٧) ، الوافي بالوفيات للصفدي (١١/٩٨) .

(٥) محمد بن علي بن أَبي طالب القُرشيّ ، أبو القاسم ، المعروف بابن الحنفية ، من كبار التابعين ، كان كثير العلم والورع ، توفي عام : ٨١ هـ .حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/١٧٤) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٢/٣١٥) .

(٦) الكامل (١/١٤٥) ، وفي سنده محمد بن محمد بن الأشعث ، وقد اتهمه ابن عدي في الكامل (٦/٣٠١) ، وقال : " أخرج لنا نسخته قريبا من ألف حديث عن موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده إلى أن ينتهي إلى علي والنبي صلى الله عليه وسلم كتاب كتاب يخرجه إلينا بخط طري على كاغد جديد فيها مقاطيع وعامتها مسندة مناكير كلها أو عامتها " .

(٧) العَوَّام بن حَوْشَب بن يزيد بن الحارث الشَّيباني الرَّبَعيُّ ، ذكره الإمام أحمد ، فقال: ثقة ثقة ، توفي عام : ١٤٨ هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (٧/٣١١) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٦/٣٥٤) .

(٨) شهرُ بن حَوْشَب الأشعريُّ الشَّاميُّ ، أبو سعيد مولى أسماء بنت يزيد بن السكن ، من التابعين ، توفي عام : ١٠٠ هـ . تهذيب الكمال للمزي (١٢/٥٧٨) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤/٣٧٢) .

(٩) تقدَّمت ترجمته ص : ٣٦٢.

(١٠) رواه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (١١) ، وشهر بن حوشب قد ضعفوه ، ميزان الاعتدال =

**ـ ومنها ما رواه ابن عَديٍّ [١] من حديث الليث بن سعد [٢] ، عن يزيد بن أبي حبيب [٣] عن سالم [٤] ، عن ابن عمر رضي الله عنه [٥] ، عن النبي صلى الله عليه وسلم .**

**ومنها ما رواه محمد بن جرير الطبري [٦] ، من حديث ابن أبي كريمة [٧] ، عن مُعَان بن رِفَاعة السَّلَامِي [٨] ، عن أبي عثمان النهدي [٩] ، عن أسامة بن زيد رضي الله عنه [١٠] ، عن النبي صلى الله عليه وسلم [١١] .**

---

للذهبي (٢٨٣/٢) ، ولم يسمع من معاذ بن جبل رضي الله عنه ، كما ذكر البزار في مسنده (١٠٣/٧) .

(١) الكامل (١٤٥/١) وفي سنده خالد بن عمرو عن الليث ، وخالد متهم بالكذب ، قال عنه الإمام أحمد : " منكر الحديث " ، " يروي أحاديث بواطيل "، وقال ابن معين : " ليس حديثه بشيء " التهذيب لابن حجر (١٠٩/٣).

(٢) الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفَهْمِيُّ ، أبو الحارث المِصْرِي ، عالم الديار المصرية ، وإمام أهل مصر في الفقه والحديث ، أحد الأعلام الأثبات ، توفي عام : ١٧٥ . تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٣/١٣) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٢٩٦/٢) .

(٣) يزيد بن أَبي حبيب ـ واسمه سُويد ـ أبو رجاء الأزدي ،مولاهم المِصْرِي ، فقيه من صغار التابعين ، كان من العلماء العاملين ، توفي عام : ١٢٨ هـ . تهذيب الكمال للمزي (١٠٢/٣٢) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٩٧/١) .

(٤) سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي ، أبو عبد الله المدني ، جمعَ بين العلم والعمل والزهد والشَّرف . توفي عام : ١٠٦ هـ . الطبقات لخليفة بن خياط (٤١٧/١) ، وحلية الأولياء لأبي نعيم (١٩٣/٢) .

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٤ .

(٦) تقدَّمت ترجمته ص : ٤٧٨ .

(٧) محمد بن سليمان بن أبي كريمة ، ضعَّفه أبو حاتم ، وذكر العقيلي أنه جاء " ببواطيل عن هشام بن عروة " الضعفاء الكبير للعقيلي (٧٤/٤) ، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٢٨٦/٧) ، وميزان الاعتدال للذهبي (٥٧٠/٣) .

(٨) مُعَانُ بن رِفَاعَة السَّلَامِي ، أبو محمد الدِّمشقي ، ويُقال : الحِمْصي ، واختلفوا فيه ؛ فقال الإمام أحمد : " لا بأس به " ، وقال علي بن المديني : " ثقة قد روى عنه الناس " ، وقال ابن حبان : " منكرُ الحديث ، يروي مراسيلَ كثيرةً ، ويُحدِّثُ عن أقوام مجاهيل ، لا يُشبه حديثُه حديثَ الأثبات ؛ فلما صار الغالب في رواياته ما يُنكره القلبُ استحقَّ تركَ الاحتجاج به " ، وقال ابن عَدي : " عامة ما يرويه لا يتابع عليه " المجروحين لابن حبان (٣٦/٣) ، وتهذيب الكمال للمزي (١٥٧/٢٨) .

(٩) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٥٤ .

(١٠) أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب المديني ، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن حِبِّه ، أُمُّهُ أم أيمن ، واسمها بركة ، مَولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاضنته ، هاجر مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة توفي عام : ٥٤ هـ . الاستيعاب لابن عبد البر (٧٥/١) ، والإصابة لابن حجر (٢٠٢/١) .

(١١) رواه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (٢٨) ، وهو ضعيف ؛ لضعف ابن أبي كريمة .

**ـ ومنها ما رواه حمَّاد بن زيد (١) ، عن بقيَّة بن الوليد (٢) ، عن مُعان بن رِفَاعة (٣) ، عن إبراهيم بن عبد الرحمن العُذْري (٤) ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) .**

**قال الدارقطني (٦) : حدَّثنا أحمد بن الحسن (٧) : حدَّثنا هاشم بن القاسمِ (٨) : حدَّثنا مُثنَّى بن بكر (٩) ومُبَشِّرٌ (١٠) ، وغيرهما من أهل العلم ، كلُّهم يقولون : حدثنا مُعان بن رِفَاعة ، عن إبراهيم بن عبد الرحمن ، عن النبي صلى الله عليه وسلم .**

**يعني أنَّ المحفوظ من هذا الطريق مُرسلٌ ؛ لأنَّ إبراهيمَ هذا لا صُحبةَ له (١١) .**

---

(١) حماد بن زيد بن درهم الأزدي ، أبو إسماعيل ، شيخ العراق في عصره ، العلامة ، الحافظ ، الثبت ، قال الذهبي : " لا أعلم بين العلماء نزاعاً في أن حماد بن زيد من أئمة السلف ، ومن أتقن الحفاظ ، وأعدلهم ، وأعدمهم غلطاً ". توفي سنة : ١٧٩هـ . حلية الأولياء لأبي نعيم (٢٥٧/٦) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤٥٦/٧) .

(٢) بقية بن الوليد بن صائد بن كعب بن حَريز الحِمْيريُّ الكَلَاعيُّ الحِمْصيُّ ، قال الذهبي : " كان من أوعية العلم لكنَّه كدَّر ذلك بالإكثار عن الضُعفاء والعوامِّ ، والحَمْلِ عمَّن دبَّ ودَرَج" ، توفي عام : ١٩٨ هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (٤٦٩/٧) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٥١٨/٨) .

(٣) تقدَّمت ترجمته في الصفحة السابقة .

(٤) إبراهيم بن عبد الرحمن العُذْري ، عدَّه بعضهم في الصحابة ، والصحيح أنه في عداد التابعين . أسد الغابة لابن الأثير (١٥٧/١) ، والإصابة لابن حجر (٣٦٣/١) .

(٥) رواه ابن عدي في الكامل (١٤٧/١) ، والخطيب في شرف أصحاب الحديث (٢٩) ، قال ابن الأثير في أسد الغابة (١٥٧) بعد أن ذكر بعض طرق الحديث : " وكلها مضطربة غير مستقيمة " ، وقال ابن حجر في الإصابة (٣٦٣/١) : "وقد أورد ابن عَديٍّ هذا الحديث من طرق كثيرة كلها ضعيفة " .

(٦) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٢٠ .

(٧) أحمد بن الحسن بن جُنيدب ، أبو الحسن التِّرمذيُّ ، توفي قبل عام : ٢٥٠ هـ . ذكره ابن حبان في الثقات (٢٧/٨) ، تذكرة الحفاظ للذهبي (٩١/٢) .

(٨) هاشم بن القاسم بن شَيْبَة بن إسماعيل بن شَيْبَة القرشي ، أبو محمد الحَرَّاني ، مولى قريش ، ذكره ابن حبان في الثقات (٢٤٣/٩) ، توفي عام : ٢٦٠ هـ . تهذيب الكمال للمزي (١٢٩/٣٠) ، ولسان الميزان لابن حجر (٤٣٩/٩) .

(٩) مُثنَّى بن بكر العَبْدي العطَّار ، أبو حاتم البصري . الضعفاء للعقيلي (٢٤٨/٤) ، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٣٢٦/٨) .

(١٠) مُبشِّر بن إسماعيل الكَلْبي مولاهم ، أبو إسماعيل الحَلَبِيُّ ، توفي عام : ٢٠٠ هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (٤٧١/٧) ، والثقات لابن حبان (١٩٣/٩) .

(١١) فالحديث مرسل ، لما تقدم في ترجمة مُعان ص : ٤٨٥ .

**وقال الخلَّال [١] في كتاب " العلل " : " قرأتُ على زهير بن صالح بن أحمد [٢] : حدَّثنا مُهنَّا [٣]، قال سألت أحمدَ عن حديثِ مُعان بن رِفَاعة ، عن إبراهيم بن عبد الرحمن العُذْري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( يحملُ هذا العلمَ من كلِّ خلفٍ عُدُولُه ، ينفونَ عنه تحريفَ الغالين ، وانتحالَ المُبطلين ، وتأويلَ الجاهلين ) فقلت لأحمدَ : كأنَّه موضوعٌ ؟ قال : لا ، هو صحيحٌ ، فقلت : مِمَّن سمعتَهُ أنت ؟ فقال : مِن غيرِ واحدٍ ، قال : حدَّثني به مِسكينٌ [٤] إلا أنَّه يقول : عن مُعان ، عن القاسم بن عبد الرحمن [٥] ، قال أحمد : ومُعان بن رِفَاعة لا بأس به " [٦] .**

**ـ ومنها ما رواه أبو صالحٍ [٧] : حدَّثنا الليثُ بن سعد [٨] ، عن يحيى بن سعيد [٩] ، عن سعيد بن المُسيِّب [١٠] ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه [١١] ، قال : سمعت النبي**

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٣٦٩ .

(٢) زُهير بن صالح بن أحمد بن محمد بن حنبل ، توفي عام : ٣٠٣ هـ . طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (٢/٤٩) والمقصد الأرشد لابن مفلح (١/٤٠١)

(٣) مُهنَّا بن يحيى الشامي ، أبو عبد الله صاحب الإمام أحمد ، قال الأزدي : منكر الحديث ، وقال الدارقطني : ثقةٌ نبيلٌ ، وقد ذكره ابن حبان في الثقات (٩/٢٠٤) ، ميزان الاعتدال للذهبي (٤/١٩٧) .

(٤) مِسكين بن بُكير ، أبو عبد الرحمن الحَرَّانِيُّ الحذَّاء ، قال عنه الذهبي : صدوق يُغرب ، توفي عام : ١٩٨ هـ . التاريخ الكبير للبخاري (٨/٣) ، الكاشف للذهبي (٢/٢٥٧) .

(٥) القاسم بن عبد الرحمن ، أبو عبد الرحمن الشَّامِيُّ ، مولى آل أبي سفيان بن حرب ، قيل إنه لقي أربعين بدرياً ، توفي عام : ١١٢ هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (٧/٤٤٩) ، وتهذيب الكمال للمزي (٢٣/٣٨٣) .

(٦) رواه الخطيب البغدادي من طريقه في شرف أصحاب الحديث (٢٩) .

(٧) عبد الله بن صالح بن محمد بن مسلم الجهني مولاهم ، أبو صالح المصري ، كاتبُ الليث بن سعد ، كان صاحبَ حديثٍ فيه لينٌ ، قال أبو زرعة : حَسنُ الحديثِ ، لم يكن مِمَّن يكذب ، توفي عام ٢٢٣ هـ . الكاشف للذهبي (١/٥٦٢) ، وتهذيب التهذيب لابن حجر (٥/٢٥٦) .

(٨) تقدَّمت ترجمته ص : ٤٨٥ .

(٩) يحيى بن سَعِيد بن قيس بن عَمْرو بن سهل الأنصاري النَّجاري ، الإمام ، الحافظ ، قاضي المدينة ، توفي عام : ١٤٣ هـ . التاريخ الكبير للبخاري (٨/٢٧٥) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (١/١٠٤) .

(١٠) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٢١ .

(١١) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

**صلى الله عليه وسلم يقول : ( يرِثُ هذا العلمَ من كلِّ خلفٍ عدولُهُ ) [١] .**

**ـ ومنها مارواه أبو أحمدَ بن عَديّ [٢] من حديث رُزَيْــق أبي عبد الله الأَلْهَانِيِّ [٣] ، عن القاسم بن عبد الرحمن [٤] عن أبي أُمامةَ الباهليِّ رضي الله عنه [٥] ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم . رواه عنه بَقِيَّة [٦] .**

**ـ ومنها ما رواه بن عَديٍّ [٧] أيضاً من طريق مروانَ الفَزَاري [٨] ، عن يزيدَ بن كيسانَ [٩] عن أبي حازمٍ [١٠] ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .**

---

(١) رواه الخطيب في شرف أصحاب الحديث (٢٨) ، وفيه : أحمد بن يحيى بن زُكَيْر ، قال عنه الدارقطني : ليس بشيء في الحديث ، لسان الميزان لابن حجر (٦٩٤/١) ، وفيه أبو صالح المصري ، كاتبُ الليث بن سعد ، مُتكلَّمٌ فيه كما تقدَّم في الصفحة السابقة .

(٢) الكامل (١٤٦/١) ، وسنده ضعيف ؛ فبقية مدلس ، ورُزيق ضعَّفُوه .

(٣) رُزَيْق أبو عبد الله الأَلْهَانِي الحِمْصي ، قال أبو زرعة : لا بأس به ، وقال ابن حبان : لا يُحتجُّ به .
وقال ابن حجر : " صدوق له أوهام " ميزان الاعتدال للذهبي (٤٨/٢) ، والتقريب لابن حجر (٢٠٩/١) .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٤٨٧ .

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٤ .

(٦) تقدَّمت ترجمته ص : ٤٨٦ .

(٧) الكامل (١٤٦/١) ، وقال ابن عدي : " ولم أر هذا الحديث لمروان الفَزَاري بهذا الإسناد إلا من هذا الطريق "
وقال عنه ابن معين: كان يلتقط شيوخاً من السِّكك . وقال ابن حجر : "كان مشهورا بالتدليس ، وكان يُدلِّس الشيوخ أيضاً " . تذكرة الحفاظ للذهبي (٢١٦/١) ، وطبقات المدلسين لابن حجر (٤٥) .

(٨) مروان بن معاوية الفَزَاريُّ ، من أتباع التابعين كان مشهورا بالتدليس ، توفي عام : ١٩٣ هـ ، قال الذهبي في الميزان (٩٣/٤) : " ثقة ، عالم ، صاحبُ حديثٍ ؛ لكن يَروي عمَّن دَبَّ ودَرَجَ ، فيُستَأنى في شيوخه" .

(٩) يزيد بن كيسان الأسلمي ، أبو إسماعيل ، ويُقال : أبو مُنَيْن ، اليشكري الكوفي ، وثَّقَهُ النسائي ، وقال أبو حاتم : لا يحتج به ، وقال يحيى القطان : هو صالحٌ ، وسطٌ ، وليس مِمَّن يُعتمد عليه . التاريخ الكبير للبخاري (٣٥٤/٨) وميزان الاعتدال للذهبي (٤٣٩/٤) .

(١٠) سلمان الأشجعي أبو حازم الكوفي ، تقدَّمت ترجمته ص : ٧٧ .

**ـ ومنها ما رواه تمَّامٌ (١) في " فوائده " (٢) من حديث الليث (٣) ، عن يزيد بن أبي حبيب (٤) ، عن أبي الخير (٥) ، عن أبي قبيل (٦) ، عن عبد الله بن عمرو (٧) ، وأبي هريرة رضي الله عنهما . رواه عنه خالد بن عمرو (٨) .**

**ـ ومنها ما رواه القاضي إسماعيل (٩) من حديث علي بن مسلم البَكري (١٠) ، عن أبي صالح الأشعري (١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم (١٢) .**

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٤٣٧ .

(٢) فوائد تمام (٣٥٠/١) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، ورواه بهذا الإسناد البزار في مسنده (٢٤٧/١٦) ، والعقيلي في الضعفاء (٩/١) ، وابن عبد البر في التمهيد (٥٩/١) ، وفي سنده خالد بن عمرو رُمي بالكذب ، قال البزار : " وخالد بن عمرو هذا مُنْكَر الحديث ، قد حدَّثَ بأحايث عن الثوري وغيره لم يتابع عليها ، وهذا مما لم يتابع عليه " . وقال البخاري : منكر الحديث . ينظر : ميزان الاعتدال للذهبي (٦٣٥/١) .

(٣) الليث بن سعد ، تقدَّمت ترجمته ص : ٤٨٥ .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٤٨٥ .

(٥) مَرْثَدُ بن عبد الله اليَزَنِيُّ الحِمْيَريُّ ، أبو الخَير المِصريُّ ، مفتي أهل مصر في زمانه ، توفي عام : ٩٠ هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (٥١١/٧) ، وتهذيب الكمال للمزي (٣٥٧/٢٧) .

(٦) حُيَيُّ بن هانئ بن ناضِر ، أبو قَبِيلٍ المَعَافِرِيّ ، وقيل اسمه : حَيٌّ ، يماني الأصل ، أدرك مقتل عثمان رضي الله عنه توفي عام : ١٢٨ هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (٥١٢/٧) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢١٤/٥) .

(٧) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٣٦ .

(٨) خالد بن عَمْرو بن محمد بن عبد الله بن سَعِيد بن العاص بن سَعِيد بن العاص بن أميَّة القُرشي الأُمَوي ، قال الإمام أحمد : ليس بثقة . وقال البخاري : منكر الحديث . وقال صالح جزرة : يضع الحديث . تهذيب الكمال للمزي (١٣٨/٨) ، وميزان الاعتدال للذهبي (٦٣٥/١) .

(٩) تقدَّمت ترجمته ص : ١٦٩ .

(١٠) علي بن مسلم بن خَبَّاب الليثي البكريّ ـ مولاهم ـ ، كنيته أبو الحسن . التاريخ الكبير للبخاري (٢٩٦/٦) والثقات لابن حبان (٢٠٦/٧)

(١١) أبو صالح الأشعري الشَّامي الأردني الأزدي ، روى عن أبي أمامة ، وأبي هريرة ، وكعب الأحبار ، وغيرهم ، قال أبو زرعة: لا يعرف اسمه . وقال أبو حاتم : لا بأس به . الكاشف للذهبي (٤٣٥/٢) ، والتهذيب لابن حجر (١١٧/١٢) .

(١٢) رواه ابن عدي في الكامل (١٤٦/١) ، والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (٢٨) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٣٦/٤٣) ، وفي سنده : مسلمة بن علي الشامي الخشني ، سُئل أبو زرعة عنه ، فقال : منكر الحديث ، وقال الذهبي : تركوه . الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٢٦٨/٨) ، الكاشف للذهبي (٢٦٣/٢) .

أن بقاء الدين والدنيا في بقاء العلم

**الوجهُ السابعُ والثلاثون بعد المئة : أنَّ بقاءَ الدين والدنيا في بقاءِ العلم ، وبذهابِ العلمِ تذهبُ (١) [ الدنيا والدين ، فقِوَام الدين والدنيا إنَّما هو بالعلم ، قال الأوزاعي (٢) : قال ابن شِهاب الزُّهري (٣) : " الاعتصامُ بالسُّنة نَجاةٌ ، والعلمُ يُقبضُ قبضاً سريعاً ، فنَعْشُ (٤) العلمِ ثبات ] (٥) الدين والدنيا ، وذهاب العلم ذهاب ذلك (٦) كله " (٧) .**

**وقال ابن وهبٍ (٨) : أخبرني ابن يزيد (٩) ، عن ابن شهاب قال : " بلَغَنا عن رجال من أهل العلم أنَّهم كانوا يقولون : الاعتصامُ بالسُّنة نَجَاةٌ ، والعلمُ يُقبضُ قبضاً سريعاً فنَعْشُ العلم ثبات الدين والدنيا ، وذهابُ العلم ذهابُ ذلك (١٠) كله (١١) .**

أن العلم يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة ما لا يرفعه الملك ولا المال

**الوجهُ الثامنُ والثلاثون بعد المئة : أنَّ العلمَ يرفع صاحبَه في الدنيا والآخرةِ ما لا يرفعُه المُلْكُ ، ولا المالُ ، ولا غيرُهما ، فالعِلمُ يزيدُ الشَّريفَ شَرفاً ، ويرفعُ العبدَ المَمْلوكَ**

---

(١) في : ص : ذهابُ .

(٢) عبد الرحمن بن عمرو بن يُحْمِد الأوزاعي ، أبو عمرو ، إمامُ أهلِ الشام ، الحافظ ، المحدِّث ، توفي عام : ١٥٧ هـ حلية الأولياء لأبي نعيم (١٣٥/٦) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٦١/٢) .

(٣) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٢١.

(٤) النَّعْشُ : البقاءُ والارتفاعُ ، يقال نعشَهُ الله ، أي : رفَعَهُ ، والنَّعْشُ يطلق على الميت ، وعلى السرير الذي يرفعه وسمي بذلك لأنّه مرتفعٌ فوق أكتاف المُشَيِّعين ، وارتفع على ألسنة الناس بالذكر .
تهذيب اللغة للأزهري (٢٧٦/١) ، ولسان العرب لابن منظور (٣٥٥/٦) .

(٥) سقط من : ص .

(٦) " ذلك " ليست في : ص .

(٧) رواه الدارمي في سننه (٥٨/١) ، وابن المبارك في الزهد (٢٨١/١) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣٦٩/٣) وغيرهم .

(٨) تقدَّمت ترجمته ص : ٣٧١ .

(٩) في النسخ كلها : " أخبرني يزيد " ، والمثبت هو الصواب .
يونس بن يزيد بن أبي النِّجَاد ، ويقال : ابن النِّجَاد الأَيْليّ ، أبو يزيد مولى معاوية بن أبي سفيان ، أحد الأثبات توفي عام : ١٥٩ هـ . تهذيب الكمال للمزي (٥٥١/٣٢) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢٩٧/٦) .

(١٠) " ذلك " ليست في : ص .

(١١) رواه ابن المبارك في الزهد (٢٨١/١) ، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٥٦/١) ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٥٩٢/١) .

**حتى يُجْلِسَهُ مَجالسَ الملوك ، كما ثبت في " الصحيح " [١] من حديث الزُّهري [٢] عن أبي الطُّفيلِ [٣] ، أنَّ نافعَ بن عبد الحارث [٤] لقي عمرَ بن الخطابِ رضي الله عنه بعُسْفَان [٥] ، وكان عمرُ استعمله على أهل مكةَ ، فقال له عمرُ رضي الله عنه : من استخلفتَ على أهل الوادي ؟ قال : استخلفتُ عليهم ابنَ أَبْزَى [٦] ، فقال : مَن ابن أَبْزَى ؟ فقال : رجلٌ من مَوالينا ، فقال عمر رضي الله عنه : استخلفتَ عليهم مولى ؟ فقال : إنَّه قارِئٌ لكتاب الله ، عالِمٌ بالفَرائضِ ، فقال عمر رضي الله عنه : أمَا إنَّ نبيَّكُم قد قال : ( إنَّ الله يرفعُ بهذا الكتابِ أقواماً ، ويضعُ به آخرين ) .**

**قال أبو العالية [٧] : " كنتُ آتي ابنَ عباس رضي الله عنه [٨] وهو على سريرِه ، وحولَه قريشٌ ، فيأخذُ بيدي ، فيُجلسُني معه على السَّرير فتَغَامَزُ بي قريشٌ ، ففَطَنَ لهم ابن عباس رضي الله عنهما ، فقال : كذا هذا العلمُ ، يَزيدُ الشَّريفَ شرفاً ، ويُجلِسُ المَملوكَ على الأسرَّةِ " [٩] .**

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٨١٧) .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٢١ .

(٣) عامر بن واثلة ، تقدَّمت ترجمته ص : ٢٥١ .

(٤) نافع بن عبد الحارث بن حُبَالَةَ بن عُمَير بن الحارث الخُزاعِيُّ ، يُذكرُ أنَّ له صحبة ، وقد كان عاملَ عمرَ رضي الله عنه على مكة . الطبقات الكبرى لابن سعد (٤٦٠/٥) ، طبقات خليفة بن خياط (١٨٣) .

(٥) بلدة صغيرة بين مكة والجحفة ، سُمِّيت بعُسْفَان لتَعَسُّف السيل فيها ، وهي تبعد عن مكة تقريباً (٨٠) كم٢ . معجم البلدان لياقوت (١٢١/٤) .

(٦) عبد الرحمن بن أَبْزَى الخُزاعِي ، مولى نافع بن عبد الحارث ، مُختلفٌ في صحبته . الاستيعاب لابن عبد البر (٨٢٢/٢) ، والإصابة لابن حجر (٢٣٨/٤) .

(٧) رفيعُ بن مِهران ، أبو العالية الرِّياحي البصري ، الإمام المقرئ الحافظ المفسر ، أحد الأعلام ، أدرك زمان النبي صلى الله عليه وسلم وهو شاب ، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق ، توفي سنة ٩٣هـ .
سير أعلام النبلاء للذهبي(٢٠٧/٤) ، وطبقات المفسرين للأدنه وي (٩) .

(٨) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

(٩) رواه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٥١٠/٣) ، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (١٣٩/١) .

**وقال إبراهيم الحربي [١] : " كان عطاءُ بن أبي رَباحٍ [٢] عَبداً أسودَ لامرأةٍ من مكة ، وكان أنفُهُ كأنَّه بـاقِلَّاءُ [٣] ، قال : وجـاءَ سليمان بن عبد الملك [٤] أميـرُ المـؤمنين إلى عطـاءٍ هو وابنَاهُ ، فجلسوا إليه وهو يُصلِّي ، فلمَّا صلَّى انْفَتَلَ إليهم [٥] ، فما زالوا يسألونَهُ عن مَناسك الحَجِّ ، وقد حوَّلَ قفَاهُ إليهم ، ثـمَّ قال سليمانُ لابنَيْهِ : قُومَا فقَامَا ، فقال : يا بَنِيَّ لا تَنِيَا في طلب العلمِ ، فإنِّي لا أنسى ذُلَّنَا بين يَدَي هذا العبدِ الأسودِ " [٦] .**

**قال الحربيُّ : " وكان محمد بن عبد الرحمن الأَوْقَصُ [٧] عُنقُهُ داخلٌ في بدنهِ ، وكان منْكِباهُ خارجَين كأنَّهما زُجَّان ، فقالت أُمُّه : يا بُنيَّ ، لا تكونُ في مجلسِ قومٍ إلا كنتَ المَضحوكَ منه ، المَسخورَ به ، فعليك بطلب العلم ؛ فإنَّه يرفعُك ، فوَلِيَ قضاءَ مكةَ عشرين سنةً .**

**قال : وكان الخصمُ إذا جلسَ بين يديه يرعُدُ حتى يقومَ .**

**قال : ومرَّت به امرأةٌ يوماً ، وهو يقولُ : اللهم اعتقْ رقَبَتي من النار ، فقالت له : يا ابن أخي ، وأيُّ رقبةٍ لك ! " [٨] .**

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٤٢٧ .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٤ .

(٣) الباقلَّاة مُفردُ باقلَّاء ، وهي الفول . لسان العرب لابن منظور (٦٠/١١) .

(٤) سليمان بن عبد الملك بن مـروان بن الحكم ، بويـع لـه في منتصف جمادى الآخرة عام : ٩٦ هـ ، وتوفي في صفـر عام ٩٩ هـ ، وله خمسة وأربعون عاماً ، وصلَّى عليه عمرُ بن عبد العزيز . التاريخ الكبير للبخاري (٢٥/٤) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٣٩٠/١)

(٥) انفَتَلَ ، أي : انصرف . تهذيب اللغة للأزهري (٢٠٦/١٤) ، ولسان العرب لابن منظور (٥١٤/١١) .

(٦) رواه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (١٤٠/١) .

(٧) محمد بن عبد الرحمن الأوْقَص المخزومي القُرشي ، قاضي المدينة ، الثقات لابن حبان (٤٢٣/٧) ، وميزان الاعتدال للذهبي (٦٢٥/٣) .

(٨) رواه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١٤٠/١ - ١٤١) .

**وقال يحيى بن أَكْثَم (١) : قال الرشيد (٢) : " ما أنبلُ المَراتب ؟ قلت : ما أنت فيه يا أميرَ المؤمنين . قال : فتعرِفُ أجَلَّ مِنِّي ؟ قلت : لا ، قال : لكنِّي أعرفُه ؛ رجلٌ في / حلْقَةٍ يقول : حدَّثنا فلان ، عن فلانٍ ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .** [٨٤/أ]
**قال : قلت : يا أميرَ المؤمنين أهذا خيرٌ منك ، وأنت ابنُ عمِّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ووليُّ عهد المسلمين ؟ قال : نعم ، ويْلَكَ ، هذا خيرٌ منِّي ؛ لأنَّ اسمهُ مُقترنٌ باسم رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، لا يموتُ أبداً ، ونحن نموت ونفنى ، والعلماءُ باقون ما بقيَ الدَّهرُ " (٣) .**

**وقال خَيثمةُ بن سليمان (٤) : " سمعت ابنَ أبي الخناجر (٥) يقول : كنَّا في مجلس يزيد بن هارون (٦) ، والناس قد اجتمعوا إليه ، فمرَّ أميرُ المؤمنين ، فوقفَ علينا في المجلس ، وفي المجلس ألوفٌ ؛ فالتَفَتَ إلى أصحابه ، فقال : هذا الملك " (٧) .**

---

(١) يحي بن أَكْثَم بن محمد بن قَطَن القاضي ، أبو محمد المروزيّ البَغداديّ ، مِن وَلَدِ أَكْثَمَ بن صَيْفِيٍّ التميمي ، ولاه المأمون قضاء بغداد ، توفي عام : ٢٤٢ هـ . تاريخ بغداد للخطيب (١٩١/١٤) ، والعبر للذهبي (٣٥٠/١) .

(٢) هارون الرَّشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور ، أبو جعفر ، الخليفة العباسي الخامس ، ويُعدُّ من أشهر الخلفاء العباسيين ، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي عام : ١٧٠ هـ ، وازدهرت الدولة في عصرة ، توفي عام : ١٩٣ هـ تاريخ خليفة بن خياط (١٣٢) ، الوافي بالوفيات للصفدي (١١٨/٢٧) .

(٣) رواه الخطيب في شرف أصحاب الحديث (٩٩ – ١٠٠) .

(٤) خَيْثَمةُ بن سليمان بن حَيدرة القُرشي الشَّامي الأَطْرَابُلسي ، أبو الحسن ، مُحدِّثُ الشام في عصره ، صنَّف كتابا كبيرا في فضائل الصحابة ، توفي عام: ٣٤٣ هـ . تاريخ دمشق لابن عساكر(٦٨/١٧) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤١٢/١٥) .

(٥) أحمد بن محمد بن يزيد بن مسلم بن أبي الخَنَاجِر ، أبو علي الأنصاري الشَّامي الأَطْرَابُلسي ، المُحدِّث ، مُسْنِد طرابلس ، توفي عام : ٢٧٤ هـ . تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٦٨/٥) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢٤٠/١٣) .

(٦) يزيد بن هارون بن زَاذِي ـ ويقال : زاذان ـ بن ثابت السُّلَمي ـ مولاهم ـ ، أبو خالد الواسِطي ، الإمام ، الحافظ ، قيل أصله من بخارى ، توفي عام : ٢٠٦ هـ . تهذيب الكمال للمزي (٢٦١/٣٢) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٢٣١/١) .

(٧) رواه تمَّام في الفوائد (١٥٦/١) ، والخطيب في شرف أصحاب الحديث (١٠٠) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣١/٥٥) .

**وفي " تاريخ بغداد " (١) للخطيب (٢) :" حدَّثني أبو النَّجيب عبد الغفار بن عبد الواحد (٣) قال سمعت الحسن بن علي المقري (٤) يقول سمعت أبا الحسين بن فارس (٥) يقول : سمعت الأستاذَ ابن العميد (٦) يقول : " ما كنت أظنُّ أنَّ في الدنيا حلاوةً ألذَّ من الرِّياسةِ والوِزارةِ التي أنا فيها ، حتى شهدتُ مُذاكرة سليمان بن أيوب الطبراني (٧) وأبي بكر الجِعَابِيِّ (٨) بحضرتي ، فكان الطبراني يغلبُ الجِعَابِيَّ بكثرةِ حفظهِ ، وكان الجِعَابِيُّ يغلب الطبرانيَّ بفطنتهِ وذكاء أهل بغدادَ ، حتى ارتفعت أصواتهما ، ولا يكادُ أحدُهما يغلبُ صاحِبَه ، فقال الجِعَابِيُّ : عندي حديثٌ ليس في الدنيا إلا عندي ! فقال : هاتِه ، فقال : حدَّثنا أبو خليفةَ (٩) : حدَّثنا سليمانُ بن أيوبَ ، وحدَّثَ بالحديثِ ، فقال الطَّبرانيُّ : أنا**

---

(١) رواه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٢/٢٧٤) ، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٢/١٦٦) .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص: ٣٦٢ .

(٣) عبد الغفار بن عبد الواحد بن محمد بن أحمد بن نصر الأُرْمَـوِيُّ ، نسبةً إلى أَرْمِيةَ ، وهي من بلاد أذْربيجَان ، يكنى أبا النَّجِيب ، توفي عام : ٤٣٣ هـ . تاريخ بغداد للخطيب (١١/١١٧) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٧/٤٤٧) .

(٤) الحسن بن علي بن إبراهيم بن يزدَاد بن هرمز ، أبو علي الأهْوَازي المُقْرِئ ، صاحب التَّصانيف ، ومُقرئُ الشام صاحب حديثٍ ؛ لكنَّه غير متقن وغير مجوِّد ، بل هو حاطب ليلٍ ، صنَّف " المسند " وقال عنه الذهبي : " في بضعة عشر جزءاً ، حشاه بالأباطِيل السَّمجة " ، توفي عام : ٤٤٦ هـ .
سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/١٣) ، وغاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري (١/٢٢٠) .

(٥) أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب ، أبو الحسين الرَّازي ، و قيل : القِزويني ، المالكي ، اللغوي ، له مصنفات منها : المجمل ، ومعجم مقاييس اللغة ، توفي عام : ٣٩٥ هـ . إنباه الرواة عن أنباه النحاة للقفطي (١/١٢٩) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٧/١٠٣) .

(٦) أبو الفضل ، محمد بن العميد أبي عبد الله الحسين بن محمد الكاتب ، المعروف بابن العميد ، والعميد لقب والـده لقَّبُوه بذلك على عادةِ أهلِ خُراسان في إجرائه مَجرى التَّعظيم ، توفي عام : ٣٠٦ هـ . وفيات الأعيان لابن خلكان (٥/١٠٣) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٦/١٣٧) .

(٧) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٩ .

(٨) محمد بن عمر بن محمد بن سَلْم التَّمِيميُّ البغداديُّ ، أبو بكر ابن الجِعَابِيِّ ، قاضي الموصل ، توفي عام : ٣٥٥ هـ تاريخ بغداد للخطيب (٣/٢٦) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٦/٨٨) .

(٩) الفضلُ بن الحُبَاب ، واسم الحُبَاب : عمرو بن محمد بن شُعيب الجُمَحي البَصري ، أبو خليفة ، مُسنِدُ عصرِهِ بالبصرة ، رُحِل إليه من سائر الأقطار ، كان أديباً ، فصيحاً مفوَّهاً ، توفي عام : ٣٠٥ هـ .
طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١/١٤٨) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٢/١٧٧) .

سليمانُ بن أيُّوب ، ومنِّي سمِعَ أبو خَليفةَ ، فاسمع منِّي حتى يعلُو إسنَادُكَ ؛ فإنك تروي عن أبي خليفةَ عنِّي ؛ فخَجِلَ الجِعَابِيُّ ، وغلَبَهُ الطبرانيُّ .

قال ابن العَميد : فوددتُ [ في مكاني ] [١] أنَّ الوزارة والرِّياسة ليتَها لم تكن لي ، وكنتُ الطبرانيَّ ، وفرِحتُ مثلَ الفرحِ الذي فرحَ [ به ] [٢] الطبرانيُّ لأجلِ الحديثِ . أو كما قال " .

وقال المزني [٣] سمعت الشافعي [٤] يقول : " مَن تعلَّم القرآنَ عظُمت قيمتُه ، ومَن نظَرَ في الفقهِ نَبُلَ مِقداره ، ومَن تعلَّم اللغة رقَّ طبعُه ، ومَن تعلَّم الحسابَ جزُلَ رأيُه ، ومَن كتب الحديث قويت حجَّتُه ، ومَن لم يصُن نفسَهُ لم ينفَعْهُ علمُه " [٥] .

وقد روى هذا الكلام عن الشافعي من وجوه متعددة [٦] .

وقال سفيان الثوري [٧] : " من أراد الدنيا والآخرة فعليه بطلب العلم " .

وقال عبد الله بن داود [٨] : سمعت سفيان الثوري يقول : " إنَّ هذا الحديثَ عِزٌّ ، فمن أرادَ به الدنيا وجدها ، ومَن أراد به الآخرة وجدَها " [٩] .

---

(١) سقط من : د ، ص . وفي الأصل : قال ابن العميد : في مكاني فوددت ، والمثبت من مصادر النصِّ .

(٢) سقط من : د ، وفي : ص : وفرحت مثل الطبراني لأجل الحديث .

(٣) إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن إسحاق ، أبو إبراهيم المُزَني ، صاحبُ الإمام الشافعي ، إمام الشافعية وأعرفهم بالمذهب ، صنَّف كُتباً كثيرة منها : الجامع الكبير ، والجامع الصغير ، والمنثور ، والترغيب في العلم ، وغيرها توفي عام : ٢٦٤ هـ . وفيات الأعيان لابن خلكان (١/١١٧) ، وطبقات الشافعية للسبكي (٢/٩٣) .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص: ١١٣ .

(٥) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٧/٢٦٧) ، وفي الفقيه والمتفقه (١/١٥١) .

(٦) من رواية : الربيع بن سليمان ، رواها أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/١٢٣) ، ومن رواية الحسن بن أبي الحسن المقرئ رواها الخطيب في تاريخ بغداد (١١/٦) .

(٧) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٤٩ .

(٨) عبد الله بن داود بن عامر بن ربيع الهَمْدانِيُّ الشَّعبي الكوفي ، أبو عبد الرحمن ، المشهور بالخُرَيبي ، نسبةً إلى بلدة الخُرَيْبةِ في البصرة ، كان ثقة عابداً ، توفي عام : ٢١٣ هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (٧/٢٩٥) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (١/٢٤٧) .

(٩) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/٣٦٦) ، والبيهقي في شعب الإيمان (١١/١٣٤) ، والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (٦٢) .

**وقال النَّضْرُ بن شُمَيْلٍ (١) : " من أرادَ أن يَشرُفَ في الدنيا والآخرةِ ؛ فليتعلَّم العلم وكفى بالمرء سعادةً أن يُوثَقَ به في دين الله ، ويكون بين الله وبين عبادِه " (٢) .**

**وقال حمزة بن سعيد المَصريُّ (٣) : لمَّا حدَّث أبو مُسلم الكَجِّيُّ (٤) أولَ يومٍ حَدَّث قال لابنه : كم فَضَلَ عندنا من أثمانِ غَلَّاتِنا ؟ قال : ثلاثمائة دينارٍ ، قال : فرِّقْها على أصحاب الحديثِ ، والفقراءِ شُكراً أنَّ أباكَ اليومَ شهدَ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فقُبِلَتْ شهادَتُه " (٥) .**

**وفي كتاب " الجليس والأنيس " (٦) لأبي الفَرجِ المُعافى بن زكريا الجريري (٧) حدثنا محمد بن الحسين بن دُرَيْد (٨) : حدثنا أبو حاتم (٩) ، عن العُتْبِيِّ (١٠) ، عن أبيهِ ، قال :**

---

(١) النَّضْرُ بن شُمَيْل بن خَرَشَة بن زيد الخُزاعي المَازِني المَرْوَزِي ، أبو الحسن البصري ، الحافظ ، العلامة ، النحوي ، توفي عام : ٢٠٣ هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٧٣/٧) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣٢٨/٩).

(٢) ذكره الذهبي مختصراً في تاريخ الإسلام (٤١٣/١٤) .

(٣) حمزة بن سَعِيد المَرْوَزِي ، أبو سعيد . الثقات لابن حبان (٢٠٩/٨) ، وتهذيب الكمال للمزي(٣٢٧/٧) .

(٤) إبراهيم بن عبد الله بن مُسلم بن ماعز بن مهاجر البصري ، المعروف بالكَجِّي ، أبو مسلم الحافظ الثقة ، له كتاب " السنن " ، توفي عام : ٢٩٢ هـ . تاريخ بغداد للخطيب (١٢٠/٦) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (١٤٦/٢) .

(٥) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٨٠/٥٣) .

(٦) الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي (٥٠٥) ، ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٦٢/٣١) .

(٧) المُعَافى بن زكريا بن يحيى بن حُمَيد الجَرِيري النَّهْرُوانِي ، أبو الفرج ، الفقيه ، العلامة ، الأديب ، يقال له : ابن طَرارا ، له تصانيف منها : تفسير القرآن في ست مجلدات ، والجليس والأنيس ، توفي عام : ٣٩٠ هـ.
تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٢٣٠/١٣) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (١١٢/٣) .

(٨) محمد بن الحسين بن دُرَيْد الأزْدِي ، أبو بكر البصري ، من أئمة اللغة والأدب والشِّعر ، له من المصنفات : الجمهرة ، والاشتقاق ، والمُجتبى ، والمقصورة ، وغيرها ، توفي عام : ٣٢١ هـ . البداية والنهاية لابن كثير (٢٠٠/١١) ، وتاريخ ابن الوردي (٢٥٥/١) .

(٩) سَهْل بن محمد بن عثمان السِّجْسْتَانِيُّ ، أبو حاتم النحوي ، اللُغوي ، المُقرئُ ، كان جمَّاعةً للكتب يتَّجِرُ بها ، له مصنفات منها : إعراب القرآن ، والقراءات ، والمقصور والممدود ، وغيرها ، توفي عام : ٢٥٥ هـ. إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي (٥٨/٢) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢٦٨/١٢) .

(١٠) محمد بن عبيد الله بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان بن حرب الأُمويُّ ، أبو عبد الرحمن العُتْبِي صاحبُ أخبارٍ ، وروايةٌ للأدب ، شاعرٌ بصريٌّ ، من مصنفاته : الخيل ، وأشعار الأعاريب ، والأخلاق ، وغيرها .
توفي عام : ٢٢٨ هـ تاريخ بغداد للخطيب (٣٢٤/٢) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٤١٧/٢) .

**ابْتَنى معاويةُ رضي الله عنه [١] بالأبطح مجلِساً ، فجلس عليه ، ومعه ابنةُ قَرَظَة [٢] فإذا هو بجماعةٍ على رِحالٍ لهم ، وإذا شابٌّ منهم قد رفَعَ عقيرَتَهُ يتغنَّى :**

**مَن يُساجِلْنِي يُساجِلْ ماجِدَاً     يَمْلأُ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَبْ [٣]**

**قال : مَن هذا ؟ قالوا : عبد الله بن جعفر [٤] ، قال : خلُّوا له الطريق .**

**ثم إذا هو بجماعة فيهم غلامٌ يتغنَّى :**

**بينما يَذْكُرنَني أبْصَرْنَني     عندَ قِيْدِ المِيلِ يسعَى بي الأغَرّ**

**قُلنَ تَعْرِفنَ الفتى قُلنَ نَعم     قدْ عَرَفْنَاهُ وهلْ يخْفَى القَمَرْ [٥]**

**قال : مَن هذا ؟ قالوا : عمرُ بن أبي ربيعة [٦] ، قال : خلُّوا له الطريقَ ، فليذهبْ .**

**قال : ثمَّ إذا هو بجماعةٍ ، وإذا فيهم رجلٌ يُسألُ ، فقال : رَمَيتُ قبلَ أن أحلقَ ؟ وحلَقتُ قبلَ أن أرمي ؟ في أشياءَ أشكلتَ عليهم من مَناسك الحجِّ ، فقال : مَن هذا ؟ قالوا : عبد الله بن عمر [٧] ، فالتَفَتَ إلى ابنةِ قَرَظَةَ ، فقال : هذا وأبيكِ الشَّرفُ ، هذا والله شرفُ الدنيا والآخرة " .**

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ١٩٨ .

(٢) فاخِتة بنت قَرَظَة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف القرشية النوفلية ، زوج معاوية رضي الله عنه ، غزت معه قبرص في خلافة عثمان بن عفان سنة خمسٍ وعشرين في البحر . تاريخ دمشق لابن عساكر (٦/٧٠) .

(٣) البيت للفضل بن العباس بن عُتبة بن أبي لهب ، والمُساجَلَةُ : المفاخرة ، بأن تصنعَ مثلَ صُنعِه في جَرْيٍ أو سَقْيٍ . الصحاح للجوهري (٥/١٧٢٥) . والكَرَبُ : عَقْدٌ غليظٌ في رِشاءِ الدَّلْوِ . العين للخليل بن أحمد (٥/٣٦٠) ، ولسان العرب لابن منظور (١١/٣٢٥) .

(٤) عبد الله بن جعفر بن أبي طالب القُرشي الهاشميُّ ، أمُّه أسماء بنت عُميس الخثعمية ، وُلِدَ بأرض الحبشة لمَّا هاجر أبواه إليها ، توفي عام : ٨٠ هـ . الاستيعاب لابن عبد البر (٣/٨٨٠) ، والإصابة لابن حجر (٤/٣٥) .

(٥) ديوان عمر بن أبي ربيعة (٩٠) .

(٦) عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن المخزُومي ، الشاعر المشهور ، أحد شعراء الدولة الأموية ، من طبقة جرير والفرزدق والأخطل ، توفي عام : ٩٣ هـ .
وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/٢٠٨) ، والبداية والنهاية لابن كثير (٩/١٠٩)

(٧) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٤ .

**وقال سفيان بن عيينة** (١) : " **أرفعُ الناسِ منزلةً عند الله مَن كان بين اللهِ وبين عبادِه ، وهم الأنبياءُ والعلماءُ** " (٢) .

**وقال سَهلٌ التُّسْتَرِيُّ** (٣) : " **مَن أراد أن ينظر إلى مجالس الأنبياءِ ، فلينظرْ إلى مجالسِ العلـماءِ ، يجيءُ الرجل فيقول : يا فلان ، أيْشٍ تقولُ في رجل حلَفَ على امرأته بكذا وكذا ؟ فيقول : طَلُقَتْ امرأتُهُ ، ويجيءُ آخرُ فيقول : حلفت بكذا وكذا ؟ فيقول : ليس تحنثُ بهذا القولِ ، وليس هذا إلا لنبيٍّ أو عالمٍ ، فاعرفُوا لهم ذلك** " (٤) .

أنَّ النُّفوسَ الجاهلةَ التي لا علم عندها قد أُلبِسَت ثوبَ الذُّلِّ

**الوجهُ التاسعُ والثلاثونَ بعد المئة : أنَّ النُّفوسَ الجاهلةَ التي لا علم عندها قد أُلبِسَت ثوبَ الذُّلِّ ، والإزراءُ عليها والتَّنقُّصُ بها أسرعُ منه إلى غيرها ، وهذا أمرٌ معلوم عند الخاصِّ والعامِّ .**

**قـال الأعمـش** (٥) : " **إنِّي لأرى الشيـخَ لا يـروي شيئاً من الحـديث ؛ فأشتَهي أن ألْطُمَهُ** " (٦) .

**وقال أبو معاوية** (٧) **سمعتُ الأعمش يقول :** " **مَن لم يطلب الحديثَ أشتَهي أن أصفعَهُ بنَعْلي** " (٨) .

**وقال عَثَّامُ بن علي** (١) **سمعت الأعمشَ يقول :** " **إذا رأيتَ الشيخَ لم يقرأ القرآنَ ، ولم يكتب الحديثَ ، فاصْفَعْ له ، فإنَّه من شُيوخِ القَمْرَاءِ !**

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٩٠ .

(٢) تقدَّم ص : ٣٦٧ .

(٣) تقدَّمت ترجمته ص : ٣٦٨ .

(٤) تقدَّم ص : ٣٦٨.

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٢٩ .

(٦) رواه الرامَهُرْمُزي في المحدث الفاصل بين الراوي والواعي (٣٠٦) ، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٦/٩) .

(٧) محمد بن خَازم التَّميمي السَّعدي ـ مولاهم ـ ، أبو معاوية الضَّرير الكوفي ، محدِّث مشهور ، لزِمَ الأعمشَ عشرين عاما ، وقد رُمي بالإرجاء . توفي عام : ١٩٥ هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٩٢/٦) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٢١٥/١) .

(٨) رواه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (١٣٥) .

**قال أبو صالحٍ (٢) قلتُ لأبي جعفرَ (٣) : ما شُيوخُ القَمْراءِ ؟ قال : شيوخٌ دُهْرِيُّونَ (٤) يجتمعون في ليالــي القمـرِ ، يتذاكرون أيامَ الناسِ ، ولا يُحسنُ أحدُهم أن يتوضَّأَ للصَّلاة " (٥) .**

**وقال المُزَنِيُّ (٦) : " كان الشافعي (٧) إذا رأى شيخاً سألَه عن الحديثِ والفقه ؟ فإن كان عنده شيءٌ ، وإلا قال له : لا جزاك الله خيراً عن نفسك ، ولا عن الإسلام ، قد ضيَّعتَ نفسَك ، وضيَّعتَ الإسلام " (٨) .**

**وكان بعضُ خلفاءِ بني العباس يلعب بالشِّطْرَنج ، فاستأذنَ عليه عمُّهُ ، فأذِنَ له ، وغطَّى الرِّقعةَ ، فلمَّا جلس قال له : يا عمِّ ، هل قرأت القرآنَ ؟ قال : لا ، قال : هل كتبتَ شيئاً من السُّنةِ ؟ قال : لا ، قال : فهل نظرتَ في الفقهِ واختلافِ الناسِ ؟ قال : لا قال : فهل نظرتَ في العربيةِ ، وأيامِ الناس ؟ قال : لا ، قال : فقال الخليفةُ : اكشفِ الرِّقعةَ ، ثمَّ أتمَّ اللعبَ ، وزال احتشامُهُ وحياؤُهُ منه ، وقال له مُلاعِبُه : يا أميرَ المؤمنين تكشفُها ومعنا من تحتَشِمُ منه ! قال : اسكُت ، فما معَنَا أحدٌ ! (٩) .**

**وهذا لأنَّ الإنسان إنَّما تمَيَّزَ عن سائِر الحيوانات بما خُصَّ به من العلم ، والعقـل والفَهم ، فإذا عَدِمَ ذلك لم يبْقَ فيه إلا القدْرُ المُشتركُ بينه وبين / سائر الحيواناتِ** **[٨٥/أ]**

---

(١) عَثَّام بن علي بن هُجير بن بُجير الكِلابي العَامري أبو علي الكوفي ، توفي عام : ١٩٥ هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٩٢/٦) ، وتهذيب الكمال للمزي (٣٣٥/١٩) .

(٢) سهل بن إسماعيل بن سهل ، أبو صالح الجوهري الطَّرسُوسي ، المعروف بسَهلان . تاريخ بغداد للخطيب (١٢١/٩) ، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٣/٧٣) .

(٣) محمد بن محمد بن عُقبة ، أبو جعفر الشَّيباني الكوفي . شرف أصحاب الحديث (٦٧) .

(٤) أي رجالٌ طالت أعمارهم ، فالرجل الدُّهْري هو الرجل المُعمَّر . العين للخليل بن أحمد (٢٣/٤) ، وتهذيب اللغة للأزهري (١٠٩/٦) .

(٥) رواه الرامَهُرْمُزي في المحدث الفاصل بين الراوي والواعي (٣٠٦) ، والخطيب في شرف أصحاب الحديث (٦٧) .

(٦) تقدَّمت ترجمته ص : ٤٩٥ .

(٧) تقدَّمت ترجمته ص: ١١٣ .

(٨) روى الخطيب البغدادي نحوه عن سفيان الثوري ، شرف أصحاب الحديث (٦٧) .

(٩) أوردها ابن قتيبة في عيون الأخبار (١٣٦/٢) ، والمعافى بن زكريا في الجليس الصالح (٦٦٩) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢١١/٣٣) .

**وهي الحَيوانيَّةُ البَهيميَّةُ ، ومثلُ هذا لا يَستحي منه الناسُ ، ولا يمتنعون بحضرته وشهوده ممَّا يُستَحْيى منه من أُولي الفضلِ والعلم .**

أنَّ كلَّ صاحبِ بضاعةٍ سَوى العلم يزهد في بضاعته إلا صاحب بضاعة العلم

**الوجهُ الأربعون بعد المئة : أنَّ كلَّ صاحبِ بضاعةٍ سَوى العلم [ إذا عَلِمَ أنَّ غيرَ بضاعته خيرٌ منها زَهَدَ في بضاعته ، ورَغِبَ في الأخرى ، ووَدَّ أنَّها له عِوَضَ بضاعتِه ، إلا صاحبَ بضاعةِ العلْمِ ]** [١] **؛ فإنَّه ليس يُحبُّ أنَّ له بِحظِّه منها خَطَرَاً أصلاً** [٢] **.**

**قال أبو جعفر الطَّحاويُّ** [٣] **: كنت عند أحمدَ بن أبي عِمران** [٤] **، فمَرَّ بنا رجل من بني الدنيا ، فنظرتُ إليه ، وشُغِلْتُ به عمَّا كنت فيه من المُذاكرة ، فقال لي : كأنِّي بك قد فكَّرتَ فيما أُعطِيَ هذا الرَّجلُ من الدنيا ؟ قلت له : نعم ، قال : هل أدلُّكَ على خَلَّةٍ ؟ هل لك أن يُحَوِّلَ الله إليك ما عنده من المال ، ويُحَوِّلَ إليه ما عندك من العلم ؛ فتعيشَ أنتَ غنيَّاً جاهلاً ، ويعيشُ هو عالِماً فقيراً ؟ فقلت : ما أختارُ أن يُحوِّلَ الله ما عندي من العلم إلى ما عنده ؛ فالعلمُ غِنَىً بلا مالٍ ، وعِزٌّ بلا عشيرةٍ ، وسُلطانٌ بلا رجالٍ** [٥] **.**

**وفي ذلك قيل** [٦] **:**

**العلْمُ كَنْزٌ وذُخْرٌ لا نَفَادَ لَهُ ... نِعْمَ القَرينُ إذا مَا صَاحِبٌ صُحِبَا**
**قدْ يَجْمَعُ المرءُ مالاً ثُمَّ يُحْرَمُهُ ... عمَّا قليلٍ فيَلْقَى الذُّلَّ والحَرَبَا**
**وجَامِعُ العِلْمِ مَغْبُوطٌ بهِ أبَدَاً ... ولا يُحاذِرُ منه الفَوْتَ والسَّلَبَا**

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من النسخ ، والمثبت من المطبوع .

(٢) أي ليس له منها نصيب كبير ، ولا مقدار كثير ، فالخَطَرُ هو : ارتفاع المكانة والمنزلة ، أو يكون المعنى : ليس له مثيل وعوض ، فالخَطَر يراد به : النظير والمثيل . العين للخليل بن أحمد (٢١٣/٤) ، ولسان العرب لابن منظور (٢٤٩/٤) .

(٣) أحمد بن محمد بن سَلامة بن عبد الملك بن سَلَمة الأَزْدِيُّ الحَجْريُّ المِصْري ، المعروف بأبي جعفر الطَّحَاويِّ العلامة ، الفقيه ، مُحدِّثُ مصرَ في زمانه ، صاحب المصنفات منها : مشكل الآثار ، والعقيدة ، وأحكام القرآن وغيرها ، توفي عام : ٣٢١ هـ . وفيات الأعيان لابن خلكان (٤٤/١) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي(٢٧/١٥) .

(٤) أحمد بن أبي عمران . موسى . بن عيسى البغداديّ ، الفقيه ، المُحدِّث ، شيخ الحنفية ، أخذ عن أصحاب أبي يوسف ، وقد لازمه أبو جعفر الطحاوي ، وتفقه به ، توفي عام : ٢٨٠. سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٣٤/١٣) .

(٥) رواه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (١٨٨/١) .

(٦) أبو الأسود الدؤلي . الفقيه والمتفقه للخطيب (١٨٦/١) ، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٢٠٩/٢٥ – ٢١٠) .

يا جَامِعَ العِلْمِ نِعْمَ الذُّخْرُ تَجْمَعُهُ لا تَعْـدِلَـنَّ بـهِ دُرًّا ولا ذَهَــبَـا

أنَّ الله أخبر أنه يجزي على الإحسان بالعلم

الوجهُ الحادي والأربعونَ بعد المئة : أنَّ الله سبحانه أخبر أنَّه يَجزي المحسنين أجرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملون .

وأخبر سبحانه أنَّه يجزي على الإحسان بالعلم ، وهذا يدلُّ على أنَّه من أحسن الجزاءِ .

ـ أمَّا المقامُ الأوَّلُ : ففي قولهِ تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[١] ، وهذا يتناولُ الجزاءَين الدُّنيويَّ والأُخرويَّ .

ـ وأمَّا المقامُ الثاني : ففي قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٢] .

قال الحسنُ [٣] : " مَن أحسنَ عبادةَ اللهِ في شبِيبَتِهِ لقَّاهُ الله الحِكمةَ عندَ كِبَرِ سِنَّهِ وذلك قولُه : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ "[٤] .

ومن هذا قال بعضُ العلماءِ : " تقولُ الحكمةُ مَن التَمَسني فلم يجدني ، فليعملْ بأحسنَ ما يعلمُ ، وليتركْ أقبحَ ما يعلمُ ، فإذا فعلَ ذلك فأنا معه ، وإن لم يعرفْنِي "[٥] .

أنَّ الله سبحانه جعلَ العلمَ للقلوبِ كالمطر للأرض

الـوجـهُ الثاني والأربعــونَ بعد المئة : أنَّ الله سبحانه جعلَ العلمَ للقلوبِ كالمطر للأرض ، فكما أنَّه لا حياةَ للأرض إلا بالمطر ، فكذلك لا حياةَ للقلبِ إلا بالعلم .

وفي " المُوطأ "[٦] : قال لقمانُ لابنه : يا بُنَيَّ جالس العلماءَ وزاحِمْهُم بركبَتَيك ؛ فإنَّ الله تعالى يُحيي القلوبَ المَيْتَةَ بنورِ الحكمةِ كما يُحيي الأرض بوابلِ المَطرِ " .

---

(١) الزمر : ٣٣ – ٣٥ .

(٢) يوسف : ٢٢ .

(٣) تقدَّمت ترجمته ص : ٩١ .

(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة (١٣٧/٢ – ١٣٨) .

(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة (١٣٨/٢) .

(٦) (١٠٠٢/٢) ، ورواه الإمام أحمد في الزهد (٨٩) .

**ولهذا ، الأرض إنَّمَا تحتاجُ إلى المطر في بعض الأوقاتِ ، فإذا تتابعَ عليها احتاجَتْ إلى انقطاعهِ ، وأمَّا العلمُ فيحتاجُ إليه بعدد الأنْفاس ، ولا تزيدُه كثرتُه إلا صلاحاً ونفعاً [١] .**

أنَّ كثيراً من الأخلاق التي لا تُحمدُ في الشَّخصِ ، ويُذَمُّ عليها ، تُحمدُ في طلبِ العلم

**الوجهُ الثَّالثُ والأربعون بعد المئة : أنَّ كثيراً من الأخلاق التي لا تُحمدُ في الشَّخصِ ، بل يُذَمُّ عليها ، تُحمدُ في طلبِ العلم كالمَلَقِ [٢] ، وتركِ الاستحياءِ ، والذُّلِّ والتَّردُّدِ إلى أبوابِ العلماءِ ، ونحوها .**

**قال ابن قتيبة [٣] : " جاء في الحديثِ ( ليس المَلَقُ من أخلاق المؤمنين إلا في طلبِ العلم ) [٤] .**

**وهذا أثرٌ عن بعض السلفِ .**

**وقال ابن عباس رضي الله عنه [٥] : " ذَلَلتُ طالِباً ، فعَزَزتُ مَطلوباً " [٦] .**

**وقال : " وجدتُ عامةَ علمِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم عند هذا الحَيِّ من الأنصارِ ، إن كنتُ لأَقِيلَ ببابِ أحدهم ، ولو شئتُ أُذِنَ لي ، ولكنْ أبتَغي بذلك طِيبَ نفسهِ " [٧] .**

---

(١) تقدَّم في " الوجه الثاني والأربعين " ص (١٩٨) كلام المؤلف رحمه الله حول حاجة الإنسان إلى العلم ، وذكر حديثَ أبي موسى رضي اللهُ عنه قال : قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : ( إنَّ مَثَلَ ما بَعَثَني اللهُ به من الهُدَى والعِلْمِ ، كمَثَلِ غَيثٍ أصابَ أرضاً ، فكانت منها طائِفَةٌ طَيِّبَةٌ ، قَبِلَتِ الماءَ ، فأَنْبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكثيرَ ....) .

(٢) المَلَقُ : الوُدُّ واللطفُ الشَّديدُ ، ويطلق على من يُعطي بلسانه ما ليس في قلبه . الصحاح للجوهري (١٥٥٦/٤) ولسان العرب لابن منظور (٣٤٧/١٠) .

(٣) عيون الأخبار (١٣٧/١) ، وقد تقدَّمت ترجمة ابن قتيبة ص : ٨٤ .

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٩٤/٦) ، وابن عدي في الكامل (٢٩٨/٢) ، وفي سنده : الخصيب بن جحدر متهم بالكذب ، قال ابن معين : " كذاب " ، وقال العقيلي في الضعفاء (٢٩/٢) : " بصري أحاديثه مناكير " .

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٩١ .

(٦) رواه الدِّيْنَوري في المجالسة (٤٣٩/٤) ، وذكره ابن قتيبة في عيون الأخبار (١٣٧/٢) ، وابن عبد ربه في العقد الفريد (٨٠/٢) ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٤٧٤/١) .

(٧) عيون الأخبار لابن قتيبة (١٣٧/١) ، ورواه الدارمي في سننه (١٥٠/١) ، وأبو خيثمة في العلم (٣١) ، والبغوي في معجم الصحابة (٤٩٠/٣) ، والبيهقي في المدخل إلى السنن (٣٨٦) .

وقال أبو إسحاق (١) : قال عليٌّ رضي الله عنه (٢) : " كلماتٌ لو رحَلْتُم المَطِيَّ فيهنَّ لأفنَيتُموهنَّ قبل أن تدركوا مثلَهنَّ : لا يرجُونَّ عبدٌ إلا ربَّهُ ، ولا يَخافَنَّ إلا ذَنْبَهُ ، ولا يستَحيي مَن لا يعلمُ أن يتعلَّم ، ولا يستَحيي إذا سُئِلَ عمَّا لا يعلمُ أن يقول : لا أعلمُ ، واعلموا أنَّ منزلةَ الصَّبرِ من الإيمانِ كمَنزلةِ الرَّأسِ من الجسدِ ، فإذا ذهبَ الرأسُ ، ذهبَ الجسدُ ، وإذا ذهبَ الصَّبْرُ ذهبَ الإيمان " (٣) .

ومن كلامِ بعض العلماءِ : " لا ينالُ العلمَ مُستَحي ولا مُتكبِّرٍ " (٤) ، هذا يمنعُهُ حياؤُه من التَّعلمِ ، وهذا يمنعُه كِبرهُ .

وإنَّما حُمِدت هذه الأخلاقُ في طلب العلم لأنَّها طريقٌ إلى تحصيله ، فكانت من كمال الرَّجل ، ومُفضيةً إلى كماله .

ومِن كلامِ الحسَن (٥) أيضاً : " مَن استَتَرَ عن طلبِ العلم بالحياءِ لبِسَ للجهلِ سربالَهُ فاقطعوا سرابيلَ الحياءِ ؛ فإنَّه مَن رَقَّ وجهُهُ رَقَّ عِلمهُ " (٦) .

وقال الخليلُ (٧) : " مَنزلةُ الجهل بين الحياءِ والأنَفَةِ " (٨) .

ومن كلام علي رضى الله تعالى عنه : " قُرنت الهيبةُ بالخَيبة ، والحياءُ

---

(١) عمرو بن عبد الله بن علي بن أحمد بن ذي يُحْمِد بن السَّبيع الهَمْدَاني الكوفي ، أبو إسحاق السَّبِيعِي ، الحافظُ شيخُ الكوفة ، من العلماء العاملين ، ومن جُلَّة التابعين ، توفي عام : ١٢٧ هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (٣١٣/٦) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣٩٣/٥) .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ١٩٩ .

(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة (١٣٥/٢) ، ورواه قِوام السنة الأصبهاني في الترغيب والترهيب (٢٩٤/٢) ، والبيهقي في المدخل إلى السنن (٤٣١) وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٣٨٢/١) .

(٤) رواه البخاري تعليقاً في باب : الحياء في العلم ، رقم (٥٠) عن مجاهد ، ووصله أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٨٧/٣) ، والبيهقي في المدخل إلى السنن (٢٨١) ، والخطيب في الفقيه والمتفقه (٣٠٠/٢) .

(٥) الحسن البصري ، تقدمت ترجمته ص: ٩١ .

(٦) عيون الأخبار لابن قتيبة (١٣٩/٢) ، ورواه الدِّيْنَوري في المجالسة (٤٣٩/٤) .

(٧) الخليل بن أحمد بن عبد الرحمن أبو عبد الرحمن الفراهيدي الأزدي ، من أئمة اللغة والنحو ، وهو واضع علم العروض ، توفي عام : ١٧٥هـ . إنباه الرواة للقفطي (٣٧٦/١) ، والأعلام للزركلي (٣١٤/٢) .

(٨) عيون الأخبار لابن قتيبة (١٣٩/٢) .

**بالحرمان " [١] .**

**وقال إبراهيمُ [٢] لمنصورٍ [٣] : " سَلْ مسألةَ الحمقى ، واحفظ حِفظَ الأكياسِ " [٤] .**

**وكذلك سؤالُ الناس هو عيبٌ ونقصٌ في الرجل وذِلَّةٌ تُنافي المروءةَ إلا في العلمِ ؛ فإنَّه عينُ كمالِه ومُروءَتِه وعِزِّهِ ، كما قال بعض أهل العلم : " خيرُ خصال الرجل السؤالُ عن العلم " [٥] .**

**وقيل : " إذا جلستَ إلى عالمٍ فسَلْ تفقُّهَاً لا تعنُّتاً " [٦] .**

**وقال رؤبةُ بن العجَّاج [٧] : " أتيتُ النَّسابةَ البَكْرِيَّ [٨] ، فقال : مَن أنتَ ؟ قلت : أنا ابن العجَّاج ، قال : قصَّرْتَ وعرَّفْتَ ! لعلَّكَ كقومٍ إنْ سكتُّ لم يسألوني ، وإن تكلَّمتُ لم يعوا عنِّي ! قلتُ : أرجو أن لا أكون كذلك ، قال : ما أعداءُ المُروءَةِ ؟ قلت : تُخْبِرُني ، قال : بنو عمِّ السُّوءِ ، إن رأوا حَسَناً ستروهُ ، وإن رأوا سيِّئاً أذاعوهُ ، ثم قال : إنَّ للعلمِ آفةً ، ونَكَداً ، وهُجْنَةً [٩] ؛ فآفتُهُ نسيانُهُ ، ونَكَدُهُ الكذبُ فيه ، وهُجْنَتُه نشرُهُ عند غيرِ أهلِه " [١٠] .**

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة (٢/١٣٩) ، والعقد الفريد لابن عبد ربه (٢/٢٥٤) .

(٢) إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النَّخَعي ، أبو عمران الكوفي ، فقيه أهلِ العراق ، من كبار التابعين ، توفي عام : ٩٥ هـ . وفيات الأعيان لابن خلكان (١/٢١) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (١/٥٩) .

(٣) منصور بن المُعتَمر بن عَتَّاب بن عَبد الله بن ربيعة عَتَّاب السُّلمي ، أبو عَتَّاب الكوفي ، توفي عام : ١٣٢ هـ . الطبقات الكبرى لأبي سعد (٦/٣٣٧) ، وحلية الأولياء لأبي نعيم (٥/٤٠) .

(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة (٢/١٣٨) ، والبيان والتبيين للجاحظ (١/٢٤٧) .

(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة (٢/١٣٩) .

(٦) المصدر السابق .

(٧) رُؤْبَـةُ بن العَـجَّاج التَّميمي ، تقدَّمت ترجمته ص : ٧٢ .

(٨) دَغْفَل بن حنظلة بن زيد بن عبده بن عبد الله بن ربيعة السُّدوسي الشَّيباني ، العلامة النسابة ، وقد اختُلف في صُحبَته ، قال البخاري: لا يعرف لدغفل أنَّه أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ، توفي عام : ٧٠ هـ . الاستيعاب لابن عبد البر (٢/٤٦٢) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٢/٢٠٠) .

(٩) الهُجْنَـةُ في الكلام ما يَلزَمُك منه العيبُ ، يُقال : لا تفعلْ كذا فيكون عليك هُجْنَة . العين للخليل بن أحمد (٣/٣٩٢) ، وتهذيب اللغة للأزهري (٦/٣٩) .

(١٠) أورده ابن قتيبة في عيون الأخبار (٢/١٣٤) ، ورواه ابن عدي في الكامل (٣/١٨٠) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٢٦١) .

وأنشدَ ابنُ الأعرابي [١] :

ما أقرَبَ الأشياءَ حينَ يَسُوقُها ... قَدَرٌ وأبعدَها إذا لم تُقْدَرِ
فسَلِ الفَقِيهَ تكُنْ فَقِيهاً مِثلَهُ ... مَن يَسْعَ في عِلْمٍ بِذُلٍّ يَمْهَرِ
فتَدَبَّرِ العِلْمَ الذي تُفْتِي بِهِ ... لا خيرَ في علمٍ بغيرِ تَدَبُّرِ
ولقدْ يَجِدُّ المرءُ وهو مُقَصِّرٌ ... ويَخِيبُ جَدُّ المَرءِ غيرَ مُقصِّرِ
ذهبَ الرِّجالُ المُقْتَدى بفِعَالهم ... والمُنكِرونَ لكُلِّ أمرٍ مُنْكَرِ
وبقيتُ في خَلَفٍ يُزيِّنُ بعضُهم ... بعضاً ليَدْفَعَ مُعْوِرٌ عن مُعْوِرِ [٢]

العلم ستُّ مراتب

والعلم ستُّ مراتبٍ [٣] :

أوَّلُها : حُسنُ السُّؤالِ .

الثانيةُ : حُسنُ الإنصاتِ والاستماعِ [٤] .

الثالثةُ : حُسنُ الفَهْمِ . / [٨٦/أ]

الرابعةُ : الحِفظُ .

الخامِسةُ : التَّعليم .

السادسةُ : ـ وهي ثمرتُهُ ـ : وهي العملُ به ، ومُراعاةُ حدُودِه .

فمِن الناس مَن يُحرَمُهُ لعدم حُسنِ سؤالِهِ ؛ إمَّا لأنَّه لا يَسألُ بحالٍ ، أو يسألُ عن شيءٍ وغيرُه أهمُّ إليه منه ؛ كمن يسأل عن فُضولِه التي لا يضرُّ جهلُهُ بها ، ويدَعُ ما لا غِنى له عن معرفتِه ، وهذه حالُ كثير من الجُهَّال المُتعالِمين .

ومِن الناس مَن يُحرمُهُ لسُوءِ انصاتِه ، فيكونُ الكلامُ والمُمَاراة آثرُ عنده مِن الاستماع ، وهذه آفةٌ كامِنةٌ في أكثر النفوس الطَّالبةِ للعلم ، وهي تمنعهم علماً كثيراً ، ولو كان حَسَنَ الفَهْمِ .

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٣٨٣ . والأبيات في عيون الأخبار لابن قتيبة (١٣٨/٢) .

(٢) المُعْوِرُ هو قبيحُ السَّريرةِ . جمهرة اللغة لابن دُريد (٧٧٥/٢) ، وتاج العروس للزبيدي (١٦٨/١٣) .

(٣) يُنظر : عيون الأخبار لابن قتيبة (١٣٧/٢) .

(٤) في : ص : والسَّماع .

ذكرَ ابنُ عبد البر [١] عن بعضِ السلفِ أنَّه قال : " مَن كان حَسَنَ الفَهْم ، رديءَ الاستماع لم يقُم خيرُهُ بشَرِّه " [٢] .

وذكَرَ عبد الله بن الإمام أحمدَ [٣] في كتاب " العلل " له ، قال : "كان عروةُ بن الزبير [٤] يحبُّ مُمَارَاةَ ابن عباسٍ رضي الله عنه [٥] ، فكان يخْزُنُ علمَه عنه ، وكان عبيدُ الله بن عبد الله يَلْطُفُ له في السؤال فيَغُرُّه بالعلم غَرَّاً " [٦] .

وقال ابن جُريج [٧] : " لم أستخرج العلمَ الذي استخرجتُ من عطاءٍ [٨] إلا برِفْقي به " [٩] .

وقال بعضُ السلف : " إذا جالستَ العالِمَ فكن على أن تسمعَ أحرصَ منك على أن تقول " [١٠] .

بيان معنى قوله تعالى (لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)

وقد قال الله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [١١] .

فتأمَّلْ ما تحتَ هذه الألفاظ من كُنوزِ العلم ، وكيف تفتحُ مُراعاتُها للعبد أبوابَ العلمِ والهدى ! وكيف ينغلقُ بابُ العلمِ عنه مِن إهمالِتها ، وعدمِ مُراعاتِها ! فإنَّه سبحانه ذكرَ

(١) تقدّمت ترجمته ص : ٢٠٥ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٤٤٨/١) عن أنس بن أبي شيخ .

(٣) تقدَّمت ترجمته ص : ١١١ .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٣١ .

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

(٦) ينظر : العلل للإمام أحمد من رواية ابنه عبد الله (١٨٦/١) . والمراد بقوله : فيَغُرُّه بالعلم غَرَّاً ، أي : يمنحه العلم ويطعمه إياه ، كما يطعم الطير صغاره ، يُقَال : غُرَّ فُلانٌ من العِلْم ما لم يُغَرَّ غيرُه : أَي زُقَّ وعُلِّم . لسان العرب لابن منظور (١٨/٥) ، وتاج العروس للزبيدي (٢٢٧/١٣) ، .

(٧) تقدَّمت ترجمته ص : ٢١٢ .

(٨) عطاء بن أبي رباح ، تقدَّمت ترجمته ص : ٢١٢.

(٩) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٥١٨/١) .

(١٠) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٥١٩/١) .

(١١) ق : ٣٧ .

**أنَّ آياتِه المَسموعةَ والمَرئيةَ المَشهودَةَ إنَّما تكونُ تذكرةً لمَن كان له قلبٌ ؛ فإنَّ مَن عَـدِمَ القلبَ الـواعي عن الله لم ينْتَفعْ بكلِّ آيةٍ تَمُرُّ عليه ، ولو مرَّتْ به كلُّ آيةٍ !**

**ومرورُ الآيات عليه كطلوعِ الشمس والقمر والنجوم ومُرُورها على مَنْ لا بصَرَ له ، فإذا كان له قلبٌ كان بمنزلة البصير إذا مَرَّتْ به المَرئياتُ فإنَّه يراها ، ولكنَّ صاحبَ القلبِ لا ينتفعُ بقلبه إلا بأمرين :**

صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين : أحدهما : أن يحضره ويُشهده لما يلقى إليه

**ـ أحدُهما : أنْ يُحْضِرَهُ ويُشْهِدَهُ لِمَا يُلقى إليه ؛ فإذا كان غائِباً عنه ، مُسافراً في الأمانيِّ والشَّهواتِ والخَيالاتِ لا ينتفِعُ به .**

الثاني : أن يلقي سمعه ويصغي بكليَّته

**ـ فإذا أحضَرَهُ وأشْهَدَهُ لم ينتفعْ إلا بأن يُلْقِي سمْعَهُ ويُصغِي بكُلِّيتِه إلى ما يُوعظُ به ويُرشَدُ إليه .** (١)

**وها هنا ثلاثــــةُ أمـــورٍ :**

**ـ أحدُها : سلامةُ القلبِ وصحتُه وقَبُولُـه .**

**ـ الثاني : إحضارُه وجمْعُهُ ومَنعُهُ من الشُّرود والتَّفرُّق .**

**ـ الثالث : إلقاءُ السمعِ وأصغَاؤُه ، والإقبالُ على الذِّكر .**

**فذَكَرَ الله تعالى الأمورَ الثلاثةَ في هذه الآية .**

**قال ابنُ عطيةَ** (٢) **: " القلب هنا عبارة عن العقل إذ هو محله والمعنى لمن كان له قلب**

---

(١) قال المؤلف رحمه الله عند هذه الآية : " والناس ثلاثةٌ : رجلٌ قلبُه ميِّتٌ ، فذلك الذي لا قلبَ له ، فهذا ليست هذه الآيةُ ذكرى في حقه . الثاني : رجلٌ له قلبٌ حيٌّ مُستعدٌ ، لكنَّه غيرُ مُستمعٍ للآيات المَتلوَّة التي يُخبر بها الله عن الآيات المَشهودةِ : إمَّا لعدم وُرودِها ، أو لوصُولها إليه ؛ ولكنَّ قلبَهُ مشغولٌ عنها بغيرها ؛ فهو غائبُ القلبِ ليس حاضراً ، فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى مع استعدادِه ووجودِ قلبِه . والثالث : رجلٌ حيُّ القلبِ مُستعدٌّ تُليَت عليه الآياتُ فأصغى بسمعِه ، وألقى السَّمعَ ، وأحضرَ قلبَهُ ولم يَشغلْهُ بغيرِ فَهْمِ ما يسمعُه ، فهو شاهدُ القلبِ مُلْقِ السمعَ ، فهذا القِسم هو الذي ينتفعُ بالآيات المتلوَّةِ والمَشهودة . فالأول : بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر . والثاني : بمنزلة البصير الطَّامح ببصره إلى غيرِ جهةِ المَنظورِ إليه ؛ فكلاهما لا يراه . والثالث : بمنزلة البصير الذي قد حدقَ إلى جهة المَنظور ، وأتبعَه بصرَهُ ، وقابَلَه على توسُّطٍ من البعد والقُرب ، فهذا هو الذي يراه . فسبحان من جعلَ كلامَه شفاءً لمَا في الصدور " مدارج السالكين (٤٤٢/١) .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٩٣ .

واع ينتفع به " [(١)] .

قال [(٢)] : " وقال الشِّبْلِيُّ [(٣)] : قلبٌ حاضِرٌ مع الله لا يغفلُ عنه طَرفةَ عينٍ " .

وقولُهُ : ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ، معناهُ : صرفَ سمعَه إلى هذه الأنباءِ الواعِظةِ ، وأثبتَه في سمعه ، فذلك إلقاءٌ له عليها ، ومنه قولُه تعالى : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [(٤)] ، أي أثبتُّها عليك .

وقولُهُ : ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ، قال بعض المُتأوِّلينَ : معناه : وهو شاهدٌ [(٥)] مُقبلٌ على الأمر غيرُ مُعرضٍ عنه ، ولا مُفكِّرٍ في غيرِ ما يسمعُ " [(٦)] .

قال [(٧)] : " وقال قتادة [(٨)] : هي إشارةٌ إلى أهل الكتاب [(٩)] ؛ فكأنَّه قال : إنَّ هذه العبرَ لتذكرةٌ لِمَن له فهْمٌ فتدَبَّرَ الأمرَ ، أو لِمَن سمعها مِن أهل الكتاب فشهِدَ بصحَّتِها لعلمِه بها من كتابِه التَّوراةِ ، وسائرِ كُتبِ بني إسرائيل " .

قال [(١٠)] : " ف ﴿شَهِيدٌ﴾ على التأويل الأول من المُشاهدَةِ ، وعلى التأويل الثاني من الشَّهادةِ " .

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١٦٧/٥) .

(٢) ابن عطية في المحرر الوجيز ( ١٦٧/٥) .

(٣) دُلَف بن جَحْدَر ، وقيل: ابن جعفر، وقيل: جعفر بن يونس ، الشِّبْلِي البغدادي ، خرساني الأصل ، بغدادي المولد والمنشأ ، من مشايخ الصوفية ، كان فقيهاً عالماً بمذهب الإمام مالك ، توفي ببغداد سنة : ٣٣٤هـ .
تاريخ بغداد للخطيب (٣٨٩/١٤) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٣٢٣/١) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣٦٧/١٥) .

(٤) طه : ٣٩ .

(٥) في المحرر الوجيز : وهو مُشَاهِدٌ .

(٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (١٦٧/٥ – ١٦٨) .

(٧) ابن عطية في المحرر الوجيز ( ١٦٨/٥) .

(٨) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٨٣ .

(٩) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٢٣٢/٣) ، وابن جرير الطبري في تفسيره (٤٦٤/٢١) .

(١٠) في المحرر الوجيز ( ١٦٨/٥) .

وقال الزَّجاجُ [١] : " معنى ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ ، مَن صرَفَ قلبَه إلى التَّفَهُّم ، ألا ترى أنَّ قولَهُ : ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ أنَّهم لم يسمعوا [٢] استماعَ مُستَفْهِمٍ مُستَرشِدٍ ، فجُعلوا بمنزلةِ مَن لم يسمع ، كما قال الشاعرُ :

أصَـــمُّ عمَّـا ساءَهُ سَمِيـــعُ [٣]

ومعنى ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ : استمعَ ولم يشغَل قلبَهُ بغير ما يستمِعُ ، والعرب تقول : ألْـقِ إليَّ سمْعَكَ ، أي : استمع منِّي .

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي : قلبُهُ فيما يسمعُ " .

قال [٤] : " وجاء في التَّفسيرِ أنَّه يعني به أهلَ الكتابِ الذين عندهم صفةُ النَّبي صلى الله عليه وسلم .

فالمعنى : أو ألقى السَّمعَ وهو شهيدٌ أنَّ صفةَ النبي صلى الله عليه وسلم في كِتابِـهِ " [٥]

وهـذا هـو الذي حكـاه ابنُ عطيةَ [٦] عن قتادةَ [٧] ، وذكرَ أنَّ شهيداً فيه بمعنى شاهِد أي : مُـخْـبِـرٌ .

وقال صاحب " الكشاف " [٨] : " ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ واعٍ ؛ لأنَّ مَن لا يَعِي قلبُهُ فكأنَّـه لا قلبَ له .

وإلقـاءُ السَّمعِ : الإصغـاءُ .

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٧٩ .

(٢) في معاني القرآن وإعرابه : لم يستمعوا .

(٣) شطرُ بيتٍ جرى مَثَلاً ، ينظر : شرح ديوان الحماسة للمرزوقي (١٠١٤) ، ومجمع الأمثال للميداني (٤٠٢/١) .

(٤) الزجاج .

(٥) معاني القرآن وإعرابه (٤٨/٥ — ٤٩) .

(٦) تقدَّمت ترجمته ص: ٥٠٧ .

(٧) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٨٣ .

(٨) محمود بن عمر الزمخشري ، تقدَّمت ترجمته ص : ٧٩ . وتفسيره : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل .

﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي : حاضِرٌ بفطْنَته ؛ لأنَّ مَن لا يُحضِرُ ذهنَهُ فكأنَّه غائبٌ . أو هو مؤمنٌ شاهدٌ على صحَّته ، وأنَّه وَحيٌ مِن الله ، وهو بعضُ الشُّهداءِ [(١)] في قولِهِ : ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [(٢)] وعن قتادةَ : وهو شاهدٌ على صدقِه من أهل الكتابِ لوجودِ نعتهِ عندَهُ " [(٣)].

فلم يُخْتَلف في أنَّ المُراد بالقلبِ القلبُ الواعي ، وأنَّ المرادَ بالقاءِ السَّمعِ إصغاؤُهُ وإقبالُهُ على الذِّكرِ ، وتفريغُ سمعهِ له .

الخلاف في المراد بقوله تعالى (وهو شهيد)

واختُلفَ في الشَّهيدِ على أربعةِ أقوالٍ [(٤)] :

أحدها : أنَّه من المُشاهَدةِ ، وهي الحُضور ، وهذا أصحُّ الأقوالِ ، ولا يليقُ بالآيةِ غيرُهُ .

الثاني : أنَّه شهيدٌ مِن الشَّهادة .

وفيه على هذهِ ثلاثةُ أقوالٍ :

أحدُها : أنَّه شاهِدٌ على صحةِ ما معه من الإيقان .

الثاني : أنَّه شاهِدٌ مِن الشُّهداءِ على الناس يوم القيامة .

الثالث : أنَّه شهادةٌ من الله عنده على صحَّةِ نبوَّةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عَلِمَهُ مِن الكُتب المُنزَّلةِ .

والصوابُ القولُ الأولِ ؛ فإنَّ قولَهُ : ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ جملةٌ حالِيَّةٌ [(٥)] ، والواو فيها واو الحالِ ، أي : ألقى السمع في هذه الحالِ ، وهذا يقتضي أن يكون حالَ إلقائِه السمعَ شهيداً ، وهذا هو من المُشاهدة والحضور .

---

(١) في الكشاف : أو وهو بعض الشهداء .

(٢) البقرة :١٤٣ .

(٣) الكشاف للزمخشري (٣٩١/٤ – ٣٩٢) .

(٤) ينظر : تفسير ابن جرير الطبري (٤٦٣/٢١) ، وتفسير المَاوردي (٣٥٦/٥) ، وتفسير البغوي (٣٦٤/٧) ، وتفسير ابن الجوزي (١٦٥/٤) ، وتفسير القرطبي (٢٣/١٧) ، والفوائد للمولف (٣) .

(٥) في : ص : جملةٌ حالَّةٌ .

ولو كان المـرادُ الشهـادةَ في الآخـرةِ أو في الـدُّنيا لَمَا كان لتقييدها بإلقاءِ السمعِ معنىً ؛ إذ يصيرُ الكلامُ : إنَّ في ذلك لآيةً لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمعَ حالَ كونِهِ شاهداً بما معه في التوراةِ ، أو حالَ كونهِ شهيداً يوم القيامةِ . ولا ريبَ أنَّ هذا ليس هو الـمُرادُ بالآيةِ .

وأيضـاً ؛ فالآيـةُ عامـةٌ في كلِّ مَن له قلبٌ وألقى السمعَ ، فكيفَ يُدَّعى تخصيصُها بمؤمِنـي أهـل الكتـاب الذين عندهـم شهـادةٌ مِن كُتبهـم على صفةِ النبي صلى الله عليه وسلم ؟ .

وأيضـاً ؛ فالسورةُ مكيَّةٌ ، والخطابُ فيها لا يجوز أن يختصَّ بأهـل الكتابِ ، ولا سيَّما مثلُ هذا الخطاب الذي عُلِّقَ فيه حصولُ مضمونِ الآيـةِ ومقصودِهـا بالقلب الـواعي وإلقـاءِ السمعِ ، فكيف يُقال : هي في أهلِ الكتاب ؟ .

فإن قيلَ : المُختصُّ بهم قولُهُ : ﴿وَهُوَ شَهِـيدٌ﴾ ؛ فهذا أفسدُ وأفسدُ ؛ لأنَّ قولَـهُ : ﴿وَهُوَ شَهِـيدٌ﴾ يرجعُ الضميرُ فيه إلى جملةِ مَـن تقدَّمَ ، وهو : من له قلبٌ أو ألقى السمع ، فكيف يُـدَّعى عَودُهُ إلى شيءٍ غايتُهُ أن يكونَ بعض المذكورِ أوَّلاً ، ولا دلالةَ في اللفظِ عليه ؟ فهذا في غاية الفساد ! .

وأيضاً ، فإنَّ المَشهودَ به محذوفٌ ولا دلالةَ في اللفظ عليه ، فلو كان المُرادُ : وهو شاهِدٌ بكذا ؛ لذكرَ المَشهودَ به ؛ إذ ليس في اللفظِ ما يدلُّ عليه ، وهذا بخلاف ما إذا جُعِلَ مِن / الشُّهودِ . وهو الحُضورُ . فإنَّه لا يقتضي مفعولاً مَشهوداً به ، فيتمُّ الكلامُ بذكرِهِ وحدهُ . [٨٧/أ]

سرُّ الإتيان بـ (أو) في قوله : (أو ألقى السمع) وأنواع المنتفعين بالآيات من الناس

وأيضـاً ؛ فإنَّ الآيةَ تضمَّنت تقسيماً وترديداً بين قسمين :

أحدُهمـا : مَـن كان له قلبٌ .

والثانـي : مَـن ألقـى السَّمـعَ وحضَـرَ بقلبهِ ولم يغِـبْ ، فهو حاضِـرُ القلـبِ شاهِـدُهُ لا غائِبُـهُ .

وهذا والله أعلمُ سِرُّ الإتيـان بـ ﴿أَوۡ﴾ دون الواو ؛ لأنَّ المُنتفعَ بالآيات من الناس نوعانِ :

أحـدُهما : ذو القلبِ الواعي الزَّكـيِّ الذي يكتفي بهدايته بأدنى تنبيهٍ ، ولا يحتاجُ إلى أن يستَجلَبَ قلبَهُ ويُحضـرَهُ ويجمَعَهُ من مواضعِ شتَاتِهِ ، بل قلبُه واعٍ زكيٌّ ، قابلٌ للهدى ، غيرُ مُعــرضٍ عنه ، فهذا لا يحتاج إلا إلى وصولِ الهدى إليه فقط ؛ لكمال استعدِاه ، وصحةِ فطرتِه ، فإذا جاءَه الهدى سارع قلبُه إلى قبولِهِ كأنَّه كان مكتوبا فيه فهو قد أدركَه مُجملاً ، ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهدَ قلبُه بصحَّته مُجملاً .

وهـذه حــالُ أكملِ الخـلق استجابـةً لدعـوة الـرسلِ عليهم السلام ، كما هي حالُ الصِّـدِّيق الأكبرِ رضي الله عنه .

النــوعِ الثانــي : مَن ليس له هذا الاستعدادُ والقَبُولُ ؛ فإذا ورَدَ عليه الهـدى أصغـى إليه بسمعـه ، وأحضرَ قلبَهُ ، وجمعَ فكرَته عليه ، وعَلِمَ صحتَه وحُسنَه بنظرِهِ واستدلالِهِ وهذه طريقةُ أكثر المُستجيبين ، ولهم نُـوِّعَ ضَربُ الأمثالِ ، وإقامةُ الحُججِ ، وذِكرُ المُعارضات والأجوبةِ عنها ، والأوَّلـون هم الذين يُدْعَون بالحكمةِ ، وهؤلاء يُدْعَون بالموعظةِ الحسنةِ ، فهؤلاء نوعا المُستجِيبين .

المعارضون الدافعون للحق نوعان

وأمَّا المُعارضون الـدَّافعون للحقِّ فنوعان :

النوع الأول: من يُدعى بالمجادلة بالتي هي أحسن

نــوعٌ يُـدْعَـونَ بالمُجـادلة بالتي هي أحسن ، فإن استجـابوا وإلا فالمُجَالَـدَةُ ؛ فهؤلاء لا بدَّ لهم من جِدالٍ أو جِـلادٍ .

ومـن تـأمَّـل دعــوةَ القـــرآن وجدهــا شـــاملةً لهـؤلاء الأقسام ، مُتناولةً لها كلِّها كما قال تعالى : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ (١) .

النوع الثاني : أهل الجِلاد الذين أمر الله بقتالهم

فهؤلاء المَدْعُوون بالكلام .

وأمَّا أهلُ الجِـــلادِ فهم الذين أمر الله تعالى قتالهم حتى لا تكون فتنةٌ ، ويكون الدين كلُّه لله .

وأمَّــا من فسَّـــرَ الآيـــة بأنَّ المُـــرادَ بـ ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ هــو المُستغني بفطرتِه

---

(١) النحل : ١٢٥ .

**عن علمِ المَنطقِ ، وهو المُؤيَّدُ بقوة قُدْسِيَّةٍ ينَال بها الحدَّ الأوسط بسرعةٍ ؛ فهو لكمال فطرتِه مُستغنٍ عن مُراعات أوضاعِ المنطقِ ، والمرادَ بمَن ﴿ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ من ليست له هذه القوةُ ؛ فهو مُحتاجٌ إلى تعلُّم المنطقِ ليوجبَ له مُراعاتَه وإصغاؤُه إليه أن لا يزيغَ في فكرِه ، وفسَّرَ قولَه : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ أنَّها القياسُ البُرهاني ، ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ القياسُ الخَطابِيُّ ، ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ القياسُ الجَدليُّ (١) !**

**فهذا ليس من تفاسيرِ الصَّحابةِ ، ولا التَّابعين ، ولا أحدٌ من أئمَّة التفسير ، بل ولا من تفاسيرِ المسلمين ، وهو تحريفٌ لكلام الله تعالى ، وحمْلٌ له على اصطلاحِ المنطقِيَّةِ المبخُوسةِ الحظِّ من العقلِ والإيمان .**

**وهذا من جنس تفاسير القرامطةِ (٢) ، والباطنيةِ (٣) ، وغلاةِ الإسماعيلية (٤) لمَا يفسرونهُ**

---

(١) ينظر : تفسير ( مفاتيح الغيب ) للفخر الرازي ( ١١٢/٢٠ ) ، وينظر كذلك : ما مضى من كلام المؤلف ص : ٤٥٨ .

(٢) القرامطة : فرقة من فرق الباطنية تقوم على التنظيم السِّرِّي لتوجههم ، سميت بذلك نسبة إلى : حمدان بن قرمط وكان في بداية أمره زاهدا ، ثم استماله أحد دعاة الباطنية ، حتى أصبح داعية له أتباع منقادون ، وقد لبس القرامطة لباس الرافضة ؛ فصار ظاهر مذهبهم الرفض ، وباطنه الكفر المحض ، حتى وصل بهم الأمر إلى إلغاء الدين ؛ بإلغاء أركانه : الصلاة ، والصوم ، وسائر الفرائض ، وأوَّلوا تأويلات باطلة ؛ كتأويلهم الصيام بعد كشف السر ، والبعث بالاهتداء إلى مذهبم ، وغير ذلك من العقائد. البداية والنهاية لابن كثير (٧١/١١) ، وفضائح الباطنية للغزالي (١٢).

(٣) الباطنية : فرقة سميت بذلك لقولهم إنَّ لكل ظاهرٍ باطناً ، ولكلِّ تنزيل تأويلاً ، حتى أنهم جعلوا الظاهر بمنزلة القشور والباطن بمنزلة اللب ، وهم قد نهجوا منهج الرافضة ، ودخلوا من باب محبة أهل البيت ؛ ليستميلوا قلوب الناس نحوهم ومن عقائدهم بإلهين قديمين لا أول لوجودهما من حيث الزمان ، إلا أن أحدهما علة لوجود الثاني ،واسم العلة السابق واسم المعلول التالي، وأن السابق هو الخالق بواسطة التالي لا بنفسه ، وهذا معتقد وثني مأخوذ ويقولون : النبي عبارة عن شخص فاضت عليه قوة قدسية من السابق بواسطة التالي ، وقالوا : القرآن عبارة عن تعبير النبي محمد صلى الله عليه وسلم عن المعارف التي فاضت عليه ، ويعتقدون أنه لا بد من إمام معصوم قائم بالحق في كل عصر وأنكروا القيامة والجنة والنار ، ويعتقدون بالإباحية المطلقة . الفرق بين الفرق للبغدادي (٢٦٥) ، فضائح الباطنية للغزالي (١١) .

(٤) فرقة من فرق الشيعة الإمامية ، تنتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، ويزعمون أن أدوار الإمامة انتهت إليه لأنه هو السابع من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث أدوار الإمامة عندهم سبعة ، سبعة ، وقد تشعبت =

**من القرآن ، وينزِّلونهُ على مذاهبهم الباطلةِ ، وكذلك تفسير الجهمية [١] والمعتزلة [٢] والرافضة [٣] ، والقرآنُ بريءٌ من ذلك كله ، مُنزَّهٌ عن هذه الأباطيل والهَذيَاناتِ [٤] .**

**وقد ذكرنا بطلانَ ما فسر به المَنطِقيُّون هذه الآيةَ التي نحن فيها ، والآيةَ الأخرى في موضعٍ آخرَ من وجوهٍ مُتعددة ، وبيَّنا بُطلانَه عقلاً ، وشرعاً ، وعرفاً ، وأنَّه يتعالى كلامُ الله عن حمله على ذلك ، وبالله التوفيق [٥] .**

الوجوه الستَّةُ التي يُحرم صاحبها العلم

**والمقصودُ بيانُ حرمانِ العلم من هذه الوجوهِ السِّتةِ :**

**أحدها : تركُ السؤال .**

**الثاني : سوءُ الإنصات ، وعدمُ إلقاءِ السمع .**

**الثالثُ : سوءُ الفَهْمِ .**

**الرابعُ : عدمُ الحفظِ .**

**الخامسُ : عدمُ نشرِهِ وتعلِيمهِ ؛ فإنَّ مَن خَزَنَ علمَه ولم ينشره ، ولم يُعلِّمْه ابتلاه الله بنسيانِه وذهابِه منه جزاءً مِن جنسِ عملهِ ، وهذا أمرٌ يشهدُ به الحِسُّ والوجودُ [٦].**

---

الإسماعيلة إلى فرق عديدة ، وكلها تتسابق إلى هدم الإسلام ، حتى أصبحت أضر على المسلمين من اليهود والنصارى ، ومن عقائدهم إنكار صفات الله تعالى ، ويقولون بالنفي المطلق للصفات عن الله تعالى ، وينكرون البعث والجزاء ، والجنة والنار ، وأوّلوا ذلك بتأويلات فاسدة باطلة . الفرق بين الفرق للبغدادي (٢٦٥) ، والملل والنحل للشهرستاني (١/١٩٠) .

(١) تقدَّم التعريف بهم ص : ٢٥٥.

(٢) تقدَّم التعريف بهم ص : ٨٩ .

(٣) تقدَّم التعريف بهم ص : ٢٣٥ .

(٤) يقال : هَذَى يَهْذِي هَذْياً وهَذَياناً ، والمراد : التَّحدثُ بكلام لا يفهم ، أو غير معقول ، بسبب مرض أو غيره . تهذيب اللغة للأزهري (٦/٢١١) ، وتاج العروس للزبيدي (٤٠/٢٩٧) .

(٥) أشار المؤلف رحمه الله إلى ذلك كما سبق في ص : ٤٥٨ ، وينظر ردّ شيخ الإسلام ابن تيمية عليهم في الرد على المنطقيين (٤٣٨) .

(٦) وقد أشار المؤلف رحمه الله إلى أنه تظاهَرَ الشَّرعُ والقَدرُ على أنَّ الجزاءَ من جنسِ العملِ ، ينظر ما مضى في ص (٢٢١) .

السادسُ : عدمُ العمل به ؛ فإنَّ العمل به يُوجب تذكُّرَهُ ، وتدبُّره ، ومُراعاتِه والنظرَ فيه ، فإذا أهملَ العمل به نسيهُ (١) .

قال بعضُ السلف (٢) : "كنَّا نستعينُ على حفظِ العلمِ بالعملِ به " .

وقال بعضُ السلفِ أيضاً (٣) : " العلمُ يهتفُ بالعملِ ؛ فإن أجابه وإلا ارتحل " .

فالعملُ به من أعظمِ أسبابِ حفظه وثباته ، وتضييعُ العمل به إضاعةٌ له .

فما استُدِرَّ العلم واستجلبَ بمثلِ العملِ ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾ (٤) .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (٥) ، فليس من هذا البابِ بل هما جُملتان مُستقلتان : طلبيَّةٌ ؛ وهي الأمرُ بالتقوى ، وخبريَّةٌ ؛ وهي قوله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، أي : والله يُعلِّمُكم ما تتَّقونَ ، وليست جواباً للأمر ولو أُريد بها الجزاءُ لأتى بها مجزومةً مُجرَّدةً عن الواو ، فكان يقول : " واتقوا الله يعلِّمْكم " أو : " إن تتقوه يعلِّمْكم " كما قال : ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ ﴾ (٦) ؛ فتَدَبَّره.

الوجه الرابعُ والأربعون بعد المئة : أنَّ الله سبحانه نفى التسويةَ بين العالِمِ وغيرِه ، كما نفى التسويةَ بين الخبيث والطيبِ ، وبين الأعمى والبصيرِ ، وبين النُّور والظُّلمةِ ، وبين الظلِّ والحَرورِ ، وبين أصحابِ الجنة وأصحاب النار ، وبين الأبكم العاجز الذي لا يقدرُ

أن الله تعالى نفى التسوية بين العالم وغيره

(١) قد تقدَّم كلام المؤلف رحمه الله أن العلم لا يزكو ولا ينمو إلا بطريقين اثنين ، الأول : تعليمُهُ . والثَّاني : العَمَلُ به ينظر : ص (٣٩٦) .

(٢) تقدَّمَ في ص (٣١٢) ، وقد روي عن وكيع بن الجراح رحمه الله .

(٣) سبق في ص (٣١٢) ، وهو مروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٤) الحديد : ٢٨ .

(٥) البقرة : ٢٨٢ .

(٦) الأنفال : ٢٩ .

على شيءٍ ومن يأمرُ بالعدل وهو على صراط مستقيم ، وبين المؤمنين والكفار ، وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ والمُفسدين في الأرض ، وبين المتقين والفجار .

فهذه عشرةُ مواضعٍ في القرآن نفى فيها التسويةَ بين هؤلاءِ الأصناف ، وهذا يدلُّ على أنَّ منزلةَ العَالِـمِ مِن الجاهلِ كمنزلة النُّور من الظلمة ، والظِّلِ من الحَرورِ ، والطَّيبِ من الخبيثِ .

ومنزلةُ كلِّ واحدٍ من هذه الأصناف مع مُقابله .

وهذا كافٍ في شرف العلم وأهلهِ .

بل إذا تأملتَ هذه الأصنافَ كلَّها ووجدت نفي التسوية بينها راجعا الى العلم وموجبه فيه وقع التفضيل وانتفت المساواة .

نجاة الهدهد من وعيد سليمان إنَّما كان بالعلم

الوجهُ الخامسُ والأربعون بعد المئة : أنَّ سليمان صلى الله عليه وسلم لـمَّا تواعَدَ الـهُدهدَ بأن يُعذِّبه عَذاباً شديداً ، أو يذبَحَهُ ؛ إنَّما نجا منه بالعلم ، وأقْدَمَ عليه في خطابِه له بقولِه : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾[1] ، وهذا الخطابُ إنَّما جرَّأه عليه العلم وإلا فالهدهدُ مع ضعفِه لا يتمكَّنُ من خِطابه لسليمانَ عليه السلام مع قوَّتِه بمثل هذا الخطابِ لولا سُلطانُ العلم .

ومن هذا الحكايةُ المشهورةُ أنَّ بعضَ أهلِ العلم سُئِلَ عن مسألةٍ ؟ فقال : لا أعلمُها ، فقال أحدُ تلامِيذيه : أنا أعلمُ هذه المسألةَ ، فغَضِبَ الأستاذُ وهمَّ به فقال له : أيها الأستاذُ ، لستَ أعلمَ من سليمانَ بن داود عليهما الصلاة والسلام ، ولو بلغتَ في العلمِ ما بلغتَ ، ولستُ أنا أجهلَ من الهدهد ، وقد قال لسليمان علسه السلام : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾/ ؛ فلم يعتبْ عليه ، ولم يُعنِّفْهُ[2] . [٨٨/أ]

أن مَن نال مِن شرف الدارين فإنما ناله بالعلم

الوجه السادسُ والأربعون بعد المئة : أنَّ من نال شيئاً من شرفِ الدنيا والآخرة فإنَّما ناله بالعلمِ .

---

(١) النمل : ٢٢ .

(٢) البصائر والذخائر للتوحيدي (١٣٤/٥) ، ونثر الدر للآبي (١٤٦/٣) ، والتذكرة الحمدونية (١٩٢/٧) ، وربيع الأبرار للزمخشري (٥٢/٣) .

وتأمَّلْ ما حصل لآدمَ عليه الصلاة والسلام مِن تمَيُّزِه على الملائكة ، واعترافِهم له بتعليم الله له الأسماءَ كلَّها ، ثم ما حصلَ له من تدَارُك المصيبةِ ، والتَّعويضِ عن سُكنى الجنة بما هو خيرٌ له منها بعلمِ الكلمات التي تلقَّاها من ربِّه .

وما حصل ليوسفَ عليه السلام من التَّمكين في الأرض ، والعزَّةِ والعظمةِ بعلمه بتعبيرِ تلك الرُّؤيا ، ثم علمِه بوجوه استخراجِ أخيه من إخوته بما يُقرُّون به ، ويحكمون هم به حتى آل الأمرُ إلى ما آل إليه من العزِّ ، والعاقبةِ الحميدة ، وكمالِ الحالِ التي توصَّلَ إليها بالعلم كما أشار إليها سبحانه في قولهِ : ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [1] ، جاءَ في تفسيرها : نرفعُ درجاتِ مَن نشاءُ بالعلم كما رفعنا درجةَ يوسفَ عليه السلام على إخوتِه بالعلم [2] .

وقال في إبراهيمَ عليه السلام : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ﴾ [3] ، فهذه رِفعةٌ بعلمِ الحُجَّة ، والأول رِفعةٌ بعلم السِّياسَةِ .

وكذلك ما حصلَ للخَضِر بسبب علمه من تَلْمَذَةِ كليمِ الرحمن له ، وتلطُّفِه معه في السُّؤال ، حتى قال : ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [4] .

وكذلك ما حصلَ لسليمانَ عليه السلام مِن علمِ مَنطقِ الطيرِ حتى وصَلَ إلى مُلْكِ سبأ ، وقهَرَ مَلِكَتَهُم ، واحتوى على سريرِ مُلْكِها ، ودخولِهم تحت طاعته ، ولذلك قال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [5] .

وكذلك ما حصل لداودَ عليه السلام من علْمِه نسْجِ الدُّروعِ من الوقايةِ

---

(١) يوسف : ٧٦ .

(٢) تفسير ابن جرير الطبري (١٣/٢٦٧) .

(٣) الأنعام : ٨٣ .

(٤) الكهف : ٦٦ .

(٥) النمل : ١٦ .

من سلاحِ الأعداءِ .

وعدَّدَ سبحانه هذه النِّعمةَ بهذا العلمِ على عباده ، فقال : ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ (١) .

وكذلك ما حصلَ للمسيح عليه السلام من علمِ الكتاب والحكمةِ والتوراةِ والإنجيل ما رفعهُ الله إليه به (٢) ، وفضَّله وكرَّمه .

وكذلك ما حصل لسيِّدِ ولدِ آدمَ صلى الله عليه وسلم مِن العلمِ الذي ذكَّرَهُ اللهُ به نعمةً عليه فقال : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (٣) .

ثناء الله سبحانه على خليله إبراهيم بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم والعمل به

الوجهُ السابعُ والأربعون بعد المئة : أنَّ الله سبحانه أثنى على إبراهيمَ خليلِه عليه السلام بقوله تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٤) .

فهذه أربعةُ أنواعٍ من الثناءِ :

الصفة الأولى : وصفه بأنَّه أمَّةٌ

افتتحها بأنَّه أُمَّةٌ . والأُمَّةُ هو القُدوةُ الذي يُؤتَمُّ به ، قال ابن مسعود رضي الله عنه (٥) : " والأُمَّةُ المُعلِّمُ للخير " (٦) ، وهي فُعلةٌ مِن الائتِمَام ، كقُدوةٍ ، وهو الذي يُقتدي به .

---

(١) الأنبياء : ٨٠ .

(٢) في : د ، ص : ما رفعه الله به إليه .

(٣) النساء : ١١٣ .

(٤) النحل : ١٢٠ - ١٢١ .

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

(٦) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٢٧٧/٢) ، وابن جرير في تفسيره (٣٩٣/١٤) ، والطبراني في الكبير (٥٩/١٠) والحاكم في المستدرك (٢٧٢/٣) ، وقال : " صحيح على شرط الشيخين " .

الفرق بين الأمة والإمام

والفرقُ بين الأُمَّة والإمامِ من وجهين :

أحدُهما : أنَّ الإمامَ كلُّ ما يُؤتمُّ به ، سواءٌ كان بقصدِه وشعورِه أم لا ،؛ ومنه سُمِّيَ الطريقُ إماماً ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) ، أي : بطريق واضحٍ لا يخفى على السالك (٢) .

ولا يُسمَّى الطريقُ أُمَّةً .

الثانـي : أنَّ الامَّـةَ فيه زيـادةُ معنـىً ؛ وهو الذي جمَعَ صفاتِ الكمال من العلمِ والعملِ ، بحيث بقي فيها فرداً وحدهُ ، فهو الجامعُ لخصالِ تفرَّقت في غيرِه ، فكأنَّه بايَنَ غيرَه باجتماعِهـا فيه وتفرُّقِـها أو عدَمِـها في غيره (٣) .

ولفظُ [ الأمَّـةِ يُشعرُ بهذا المعنى لما فيه من المِيمِ المُضعَّفَةِ الدَّالةِ على الضَّـمِّ بمَخرَجها وتكريرِها ، وكذلك ] (٤) ضمُّ أوَّلِه ؛ فإنَّ الضَّمَّةَ من الواو ومَخرجُها مُنْضَمٌّ (٥) عند النُّطقِ بها ، وأتى بالتاء الدَّالة على الوحدَةِ كالغُرفَةِ والُّلقمَـةِ ، ومنه الحديثُ : ( إنَّ زيدَ بن عمرو بن نُفيلٍ يُبعثُ يومَ القيامةِ أُمَّـةً وحدَهُ ) (٦) .

فالضَّمُّ والاجتماعُ لازمٌ لمعنى الأمَّةِ ، ومنه سُمِّيت الأمَّةُ التي هي آحادُ الأُمَمِ ؛ لأنَّهم الناس المُجتمعون على دينٍ واحدٍ ، أو في عصرٍ واحدٍ .

الصفة الثانية : وصفه بأنَّه قانت

الثانـي : قوله تعالى : ﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾ ، قال ابن مسعود رضي الله عنه (٧) : " القانِتُ المُطيعُ " (٨) .

---

(١) الحجر : ٧٨-٧٩ .

(٢) ينظر : تهذيب اللغة للأزهري (٤٥٨/١٥) ، والصحاح للجوهري (١٨٦٥/٥) .

(٣) ينظر : المحكم والمحيط العظم لابن سيده (٥٧٤/١٠) ، وتاج العروس للزبيدي (٢٣٠/٣١) .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من : ص .

(٥) في : ص : ينضَمُّ .

(٦) رواه أبو يعلى في مسنده ( ٢٦٠/٢) ، من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤١٧/٩) : " رواه أبو يعلى ، وإسناده حسن " ، وحسَّنه الألباني في صحيح السيرة (٩٤) .

(٧) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

(٨) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤٤٩/٢) ، وابن جرير الطبري في تفسيره (٣٩٣/١٤) .

والقُنوتُ يُفسَّرُ بأشياءَ كلِّها ترجعُ إلى دوامِ الطاعة [١] .

الصفة الثالثة : وصفه بأنَّه حنيفٌ

الثـالـث : قولُه : ﴿حَنِيفًا﴾ ، والحنيفُ المقبلُ على الله ، ويلزمُ هذا المعنى ميلُهُ عمَّا سواه ، فالميلُ لازمُ معنى الحنيفِ ، لا أنَّه موضوعُهُ لغةً [٢] .

الصفة الرابعة : وصفه بأنَّه شاكرٌ

الرابــعُ : قولُـه تعالى : ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ ، والشُّكرُ للنعـمِ مبنـيٌّ على ثلاثةِ أركان : الإقـرارُ بالنِّعمـةِ وإضافتُها إلى المُنعم بها ، وصرفُها في مرضاتِه ، والعملُ فيها بما يُحبُّ ، فلا يكون العبدُ شاكراً إلا بهذه الأشياءِ الثَّلاثة .

والمقصــودُ أنَّه مدحَ خليلَهُ بأربعِ صفاتٍ كلُّها ترجعُ إلى العلمِ والعملِ بمُوجَبِهِ ، وتعليمِه ونشرِهِ ؛ فعاد الكمالُ كلُّه إلى العلمِ ، والعملِ بمُوجَبِهِ ، ودعوةِ الخلقِ إليه .

قول المسيح عليه السلام (وجعلني مباركاً) أي : مُعلِّماً للخير

الـوجـه الثامـنُ والأربعــون بعد المئة : قولُه سبحانه عن المسيح عليه الســلام أنَّه قال : ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [٣] .

قال سفيان بن عيينة [٤] : " ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا﴾ قال : مُعلِّماً للخير " [٥] .

وهذا يدلُّ على أنَّ تعليمَ الرجلِ للخيرَ هو البركةُ التي جعلها الله فيهِ ، فإنَّ البركـةَ حُصولُ الخيرِ ونماؤُهُ ودوامُهُ .

وهذا في الحقيقة ليس إلا في العلمِ المَوروثِ عن الأنبياء عليهم السلام وتعليمِهِ ، ولهذا سبحانه ســمَّى كتابَــهُ مُبارَكــاً ، كما قال تعالى : ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ

---

(١) القنوتُ ينقسم في كلام العرب إلى أربعةِ أقسامٍ : الأولُ : الصلاة . والثاني : طولُ القيام . والثالثُ : دوام الطاعة . والرابع : السكوت . الزاهر في معاني كلام الناس لابن الأنباري (١/٦٨) ، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي (٤/٢٩٨) .

(٢) جمهرة اللغة لابن دُريد (١/٥٥٦) ، وتهذيب اللغة للأزهري (٥/٧١) ، والمخصص لابن سيده (٤/٦٩) .

(٣) مـريم : ٣٠-٣١ .

(٤) سفيان بن عيينة ، سبقت ترجمته ص : ٩٠ .

(٥) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٥/٥٣١) .

مُنكِرُونَ ﴾[١] ، وقال : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾[٢] ، ووصفَ رسولَه بأنَّه مباركٌ كما في قولِ المسيح عليه السلام : ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا ﴾[٣] ، فبركةُ كتابهِ ورسولِهِ صلى الله عليه وسلم هي سببُ ما يحصلُ بهما من العلمِ ، والهدى ، والدَّعوةِ إلى الله .

قوله صلى الله عليه وسلم : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث

الوجهُ التاسعُ والأربعون بعد المئة : ما في " الصحيح " عن أبي هريرة رضي الله عنه [٤] عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : ( إذا مات ابنُ آدمَ انقطعَ عملُهُ إلا من ثلاثٍ : صدقةٍ جاريةٍ ، أو علمٍ يُنتفعُ به ، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له ) رواه مسلم [٥] في " الصحيح " [٦] .

وهذا من أعظم الأدلةِ على شرفِ العلمِ وفضلِه ، وعِظَمِ ثمرَتِهِ ؛ فإنَّ ثوابَهُ يصلُ إلى الرجل بعد موته ما دامَ يُنتفعُ به ؛ فكأنَّه حيٌّ لم ينقطع عملُهُ مع ما له من حياةِ الذِّكرِ والثَّناءِ ، فجريانُ أجره عليه إذا انقطع عن الناسِ ثوابُ أعمالِهم حياةٌ ثانيةٌ .

وخصَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم هذه الأشياءَ الثلاثةَ بوصولِ الثَّوابِ إلى الميِّتِ لأنَّه سببٌ لحصولِها ، والعبد إذا باشرَ السَّببَ الذي يتعلقُ به الأمر والنَّهي ترتَّبَ[٧] عليه مُسبَّبُهُ ، وإن كان خارجاً عن سعيهِ وكسبهِ ، فلمَّا كان هو السببُ في حصولِ هذا الولدِ الصَّالحِ ، والصَّدقةِ الجاريةِ ، والعلمِ النَّافعِ ، جرى عليه ثوابُهُ وأجرُه لتسبُّبِهِ فيه ، فالعبد إنَّما يُثابُ على ما باشرَهُ ، أو على ما تولَّد منه .

وقد ذكر تعالى هذين الأصلين في كتابه في سورةِ براءة ، فقال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخۡمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئًا يَغِيظُ

(١) الأنبياء : ٥٠ .
(٢) الأنعام : ١٥٥ .
(٣) مريم : ٣١ .
(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٦٤ .
(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٧٧ .
(٦) ورقمه (١٦٣١) .
(٧) في : ص : يترتَّبُ .

ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ / (١) . [٨٩/أ]

فهذه الأمورُ كلُّها مُتولِّداتٌ عن أفعالهم ، غيرُ مقدورةٍ لهم ، وإنَّما المَقدورُ لهم أسبابُها التي باشروها .

ثم قال : ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٢) ، فالنفقةُ وقطعُ الوادي أفعالٌ مقدورةٌ لهم .

وقال في القسم الأول : ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾ ؛ لأنَّ المُتولِّدَ حاصلٌ عن شيئين :

أفعالِـهم وغيرها ، فليست أفعالُهم سبباً مُستقلَّاً في حصولِ المُتولِّدِ ، بل هي جزءٌ من أجزاءِ السَّببِ ، فكتب لهم من ذلك (٣) ما كان مُقابلاً لأفعالهم .

وأيضاً ؛ فإنَّ الظَّمأَ ، والنَّصبَ ، وغيظَ العدوِّ ليس من أفعالهم ؛ فلا يُكتبُ لهم نفسُهُ ، ولكن لمَّا تولَّدَ عن أفعالهم كُتبَ لهم به عملٌ صالحٌ .

وأمَّا القسمُ الآخرُ : وهو الأفعالُ المَقدورةُ نفسُها ، كالإنفاقِ ، وقطعِ الوادي ، فهو عملٌ صالحٌ ؛ فيُكتبُ لهم نفسُهُ ؛ إذ هو مقدورٌ لهم ، حاصلٌ بإرادَتِهم وقدرتِهم ، فعادَ الثَّوابُ إلى الأفعالِ المَقدورةِ والمُتولِّدِ عنها ، وبالله التوفيق .

قول عبد الله بن داود : إذا كان يومُ القيامةِ عزلَ الله العلماءَ عن الحسابِ

**الوجهُ الخمسون بعد المئة : ما ذكره ابنُ عبد البرِّ (٤) عن عبد الله**

(١) التوبة : ١٢٠ ، بداية الورقة [٨٩/أ] من قوله تعالى (الكفار ولا ينالون ...) .

(٢) التوبة : ١٢١ .

(٣) " مِن ذلك " سقطت من : ص .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٥.

**ابن داود [١] قـال : " إذا كان يومُ القيامةِ عزلَ الله تبارك وتعالى العلماءَ عن الحسابِ فيقولُ : ادخلوا الجنةَ على ما كان فيكم ، إنِّي لم أجعل علمي فيكم إلا لخيرٍ أردتُهُ بكم " [٢] .**

**قال ابنُ عبد البر : وزاد غيرُه في هذا الخبر : " أنَّ الله يحبسُ العلماءَ يومَ القيامة في زُمرةٍ واحدةٍ حتى يقضي بين الناسِ ، ويدخُلَ أهلَ الجنةِ الجنةَ ، وأهلَ النَّارِ النَّارَ ، ثم يدعـو العلماءَ فيقولُ : يا معشرَ العلماءِ إنِّي لم أضع حكمَتِي فيكم وأنا أُريدُ أن أعذِّبَكُم ، قد علمتُ أنَّكم تخلِطون من المعاصي ما يخلطُ غيرُكم ، فستَرتُها عليكم وغفرتُـها لكـم ، وإنَّما كنتُ أُعبَـدُ بفُتياكـم وتعليمِكُـم عبادي ، ادخلوا الجنةَ بغير حساب " .**

**ثم قال : " لا مُعطيَ لِمَا منعَ اللهُ ، ولا مانعَ لِمَا أعطى " .**

**قال : وقد رُوي نحو هذا المعنى بإسنادٍ متصلٍ مرفوعٍ " [٣] .**

**وقد روى حَربٌ الكرماني [٤] في " مسائله " نحوه مرفوعاً [٥] .**

**وقال إبراهيم [٦] : " بلغني أنَّه إذا كان يومُ القيامة تُوضعُ حسناتُ الرَّجلِ في كِفَّهِ وسيِّئاتُه في الكِفَّةِ الأخرى [٧] فتَشِيلُ حسناتُه [٨] ، فإذا يئس فظن أنَّها النار جاء شيء مثل السحـاب حتى يقع من حسناته فتشيل سيئاته [٩] ، قال : فيقالُ له : أتعـرفُ هذا**

---

(١) الخُريبي ، تقدَّمت ترجمته ص : ٤٩٥ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢١٤/١) .

(٣) جامع بيان العلم وفضله (٢١٤/١) ، ثم ساق ابن عبد البر حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وقد تقدم في ص : ٣٧٨ .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٣٧٨ .

(٥) تقدَّم ص : ٣٧٨ .

(٦) إبراهيم النَّخعي ، تقدَّمت ترجمته ص : ٥٠٤ .

(٧) في : ص : في كفةٍ فتشيل .

(٨) في النسخة الأصل و د : " فتشيلُ سيئاته " والمثبت من جامع بيان العلم لابن عبد البر .

(٩) في النسخة الأصل و د : " فتشيلُ حسناته " والمثبت من جامع بيان العلم لابن عبد البر .

مِـن عمَلِـكَ ؟ فيقولُ : لا ، فيقال : هذا ما عَلَّمْـتَ الناسَ من الخيرِ فعُمِلَ به مِن بعدكَ" [١] .

إن قيل : إنَّ مِن قواعد الشرع أن يُسامح الجاهل بما لا يسامح به العالم

فإن قيلَ : فقواعدُ الشرعِ تقتضي أن يُسامَحَ الجاهلُ بما لا يُسامَحُ به العالِـمُ ، والله يغفر له ما لا يغفر للعالِمِ ؛ فإنَّ حُجةَ الله عليه أقومُ منها على الجاهلِ ، وعِلْمُه بقُبحِ المعصيةِ ، وبُغضِ الله لها ، وعقوبتِه عليها أعظمُ من علم الجاهلِ ، ونعمةُ الله بما أودَعَهُ من العلمِ أعظمُ من نعمتِه على الجاهلِ .

وقد دلَّت الشريعةُ وحكمُ الله على أنَّ مَن حُبِيَ بالإنعام ، وخُصَّ بالفضلِ والإكرام ، ثمَّ أسامَ نفسَهُ مع هَمَل الشَّهواتِ [٢] ؛ فأرتَعَها في مَراتِعِ الهَلَكَاتِ ، وتجرَّأَ على انتهاك الحُرُمَاتِ ، واستخفَّ بالتَّبِعَاتِ والسَّيئاتِ ، أنَّه يُقابلُ من الانتقامِ والعَتْبِ بما لا يُقابلُ به مَن ليس في مرتَبَتِه .

وعلى هذا جاء قوله تعالى : ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ [٣] ، ولهذا كان حدُّ الحُرِّ ضِعْفي حدِّ العبدِ في الزِّنا ، والقذفِ ، وشُربِ الخمر ؛ لكمالِ النِّعمةِ على الحُرِّ [٤] .

ومما يـدلُّ على هــذا الحــديثُ المَشهــورُ الذي أثبَتَهُ أبو نُعيمٍ [٥] وغيرهُ عن النبي

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢٠٩/١) .

(٢) الهَمَلُ : هي ضوَالُّ الإبل ، فهي : مُهمَلةٌ لا رِعاءَ لها ، ولا فيها من يُصلحها ويَهديها فهي كالضَّالة ، والمرادُ هنا : أنَّ من جعل نفسَه ترعى مع ضُلّالِ البشرِ الذين اقتحموا حِمى الحرام ، مع علمه بضَلالهم وانفلاتهم ، فلن يقابلَ إلا بالعتبِ والانتقام . لسان العرب لابن منظور (٧١٠/١١) ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (٦٤٢/٣) .

(٣) الأحزاب : ٣٠ .

(٤) قال المؤلف رحمه الله : " فإنَّ مَن كمُلت عليه نعمةُ الله ، واختصَّه منها بما لم يختصّ به غيره ؛ في إعطائِه منها ما حرَمَهُ غيرَه ؛ فحُبي بالإنعام ، وخُصَّ بالإكرام ، وخُصَّ بمزيدِ التَّقريب ، وجُعل في منزلةِ الولي الحبيب ، اقتضت حالُه من حِفظ مَرتبةِ الولايةِ والقُرب والاختصاصِ بأن يُراعي مرتَبته مِن أدنى مُشَوِّشٍ وقاطعٍ ، فلشدة الاعتناءِ به ، ومزيدِ تقريبِه ، واتخاذِه لنفسِه ، واصطفائِه على غيره تكون حقوقُ وليِّهِ وسيِّدهِ عليه أتمَّ ، ونعمُهُ عليه أكملَ ، والمطلوبُ منه فوقَ المطلوبِ من غيرِهِ ، فهو إذا غفَلَ وأخلَّ بمقتضى مرتبته ؛ نُبِّهَ بما لم يُنَبَّهْ عليه البعيد البَرَّانِي ، مع كونِه يُسامَحُ بما لم يُسامَحْ به ذلك أيضاً ، فيجتمعُ في حقِّهِ الأمران " مدارج السالكين (٣٣٤/١) .

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ٣٥٦ .

صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : ( أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامةِ عالِمٌ لم ينفَعهُ الله بعلمِه ) [١] .

قال بعضُ السلف : " يُغفرُ للجاهلِ سبعون ذَنْباً قبل أن يُغفرَ للعالِم ذنبٌ " [٢] .

وقال بعضهم أيضاً : " إنَّ الله تعالى يُعافي الجُهَّالَ ما لا يُعافي العلماءَ " [٣] .

فالجواب : أن قولكم حقٌّ لكن مِن قواعد الشرع : أنَّ مَن كثرت حسناته يحتمل له ما لا يحتمل لغيره

فالجواب [٤] : إنَّ هذا الذي ذكرتُموه حقٌّ لا ريب فيه ، ولكنَّ من قواعدِ الشرع والحكمةِ أيضاً : أنَّ مَن كثُرت حسناتُهُ وعظُمت ، وكان له في الإسلام تأثيرٌ ظاهرٌ ؛ فإنَّه يُحْتَملُ له ما لا يُحْتملُ لغيره ، ويُعفى عنه ما لا يُعفى عن غيره ؛ فإنَّ المعصيةَ خَبثٌ والماءُ إذا بلغَ قُلَّتينِ لم يحمل الخَبثَ [٥] ، بخلاف الماء القليل فإنَّه لا يحملُ أدنى خبثٍ ، ومن هذا قولُ النبي صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه [٦] : ( وما يُدريكَ لعلَّ الله اطَّلعَ على أهل بدرٍ ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفَرتُ لكم ) [٧] .

وهذا هو المانع له من قتل من جَسَّ عليه وعلى المسلمين ، وارتكبَ مثل ذلك الذَّنب العظيم ، فأخبرَ صلى الله عليه وسلم أنَّه شهدَ بدراً ، فدلَّ على أنَّ مُقتضى عقوبته قائمٌ

---

(١) حديث ضعيف ، وقد تقدَّم تخريجه ص : ٣٥٦ .

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٨٦/٧) ، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (٣٥٧/٢) .

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٢٢/٩) ، و الرامهرمزي في المحدِّث الفاصل (٤٩٢) ، والبيهقي في المدخل إلى السنن (٣٤٢) ، من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعا ، قال البيهقي عقيبه : " قال عبد الله بن الإمام أحمد : قال أبي : هو حديث منكر ، ما حدَّثني به إلا مَرَّةً " يعني : سيَّارَ بن حاتم ، وهو متهم بالكذب . ينظر : التهذيب لابن حجر (٢٩٠/٤) .

(٤) عقد المؤلف رحمه الله فصلا في مدارج السالكين (٣٢٨/١) تحدَّث فيه عن صاحب الإحسان العظيم ، وأنه يُعفى له ما لا يعفى لغيره ، ويُسامَح بما لا يُسامح غيره .

(٥) يشير إلى الحديث المشهور : ( إذا بلغَ قُلَّتينِ لم يحمل الخَبثَ ) ، رواه أبو داود (٦٣) ، والترمذي (٦٧) ، والنسائي (٥٢) ، وابن ماجه (٥١٧) ، وغيرهم ، وقد صححه جماعة من أهل العلم ، ينظر كتاب : جزءٌ في تصحيح حديث القلتين والكلام على أسانيده ، للحافظ العلائي .

(٦) تقدَّمت ترجمته ص : ٢١٥ .

(٧) رواه البخاري (٣٠٠٧) ، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

**لكنْ منعَ من تَرتُّبِ أثره عليه ما له مِن المَشهدِ العظيم ، فوقَعَت تلك السَّقْطَةُ العظيمةُ مُغتَفَرَةً في جنبِ ما له من الصدقات (١) .**

**ولمَّا حضَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على الصدقةِ ، فأخرجَ عثمانُ رضي الله عنه (٢) تلك الصدقةَ العظيمةَ ، قال : ( ما ضرَّ عثمانَ ما عملَ بعدها ) (٣) .**

**وقال لطلحةَ رضي الله عنه (٤) لمَّا تطَأطَأَ للنبي صلى الله عليه وسلم حتى صَعِدَ على ظهره إلى الصَّخرةِ : ( أوجَبَ طلحةُ ) (٥) .**

**وهذا موسى عليه السلام كليمُ الرحمن عزَّ وجلَّ ألقى الألواحَ التي فيها كلامُ الله الذي كتبَهُ له ، ألقاها على الأرض حتى تكسَّرت ، ولطَـمَ عينَ ملَكِ الموت ففقأَها (٦) وعاتبَ ربَّه ليلة الإسراء في النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : ( شابٌّ بُعثَ بعدي**

---

(١) قال المؤلف رحمه : " فاستـدلَّ به مَـن لا يرى قتـلَ المسلمِ الجاسوس، كالشافعي ، وأحمدَ ، وأبي حنيفة رحمهم الله واستدلَّ به مَنْ يرى قتله ، كمالكٍ ، وابنِ عقيل مِن أصحـابِ أحمدَ رحمه الله ، وغيرهما ، قالوا: لأنه عُلِّل بِعلَّة مانعة مِن القتل منتفيةٍ في غيره ، ولو كان الإسلامُ مانعاً من قتله ، لم يُعلَّل بأخصَّ منه ، لأن الحكمَ إذا عُلِّلَ بالأعمِّ ، كان الأخصُّ عديمَ التأثير ، وهذا أقوى ، والله أعلم " . زاد المعاد (١١٤/٣) .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٣٩ .

(٣) رواه الترمذي (٣٧٠١) ، وأحمد (٦٣/٥) ، والحاكم في المستدرك (١٠٢/٣) ، وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه " ، من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه .

(٤) طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب القُرشـي التَّيمـي ، أحدُ السابقين إلى الإسلام ، وأحدُ العشرةِ المبشرين بالجنة ، آخى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين كعبِ بن مالك حين آخى بين المهاجرين والأنصار لم يشهد طلحةُ بدراً ، حيث كان في الشام ، توفي عام : ٣٦ هـ . الاستيعاب لابن عبد البر (٧٦٤/٢) ، والإصابة لابن حجر (٤٣٠/٣) .

(٥) رواه الترمذي (٣٧٣٨) ، وأحمد (١٦٥/١) ، وصححه الحاكم في المستدرك (٣٧٣/٣) من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه .

(٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أُرسِلَ ملكُ الموتِ إلى موسى عليهما السلام ، فلما جاءهُ صَكَّهُ ، فرجـعَ إلى ربهِ فقال : أرسَلْتني إلى عبدٍ لا يُريدُ الموتَ ، فردَّ اللهُ عليه عيْنَهُ ، وقال : ارجع ، فقُلْ له يضعُ يدَهُ على متْنِ ثـورٍ ، فلهُ بكلِّ ما غطَّت به يدُهُ بكلِّ شعرةٍ سنـةٌ . قال : أيْ ربِّ ، ثم ماذا ؟ قال : ثم الموتُ . قال : فالآن ، فسأل الله أن يُدْنِيَهُ مِن الأرضِ المقَدَّسةِ رميةً بحجرٍ . قال : قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : ( فلو كنتُ ثَمَّ لأريتُكُم قبرَهُ ، إلى جانبِ الطَّريقِ ، عندَ الكَثيبِ الأحمَرِ ) رواه البخاري (١٣٣٩) ، ومسلم (٢٣٧٢) .

يدخلُ الجنةَ من أمَّته أكثر مِمَّن يدخلُها من أمتي ) (١) ، وأخذ بلحيةِ هارونَ عليه السلام وجرَّهُ إليه وهو نبـي الله (٢) ، وكلُّ هذا لم ينْقُصْ من قدْرِه شيئاً عند ربِّه ، وربُّه تعالى يُكرِمُهُ ويُحبُّه ؛ فإنَّ الأمـر الذي قام به موسى عليه السلام ، والعدوَّ الذي برزَ له والصَّبرَ الذي صبَرَهُ ، والأذى الذي أُوذِيَـهُ في الله أمرٌ لا تُؤثرُ فيه أمثالُ هذه الأمورِ ولا تُغبِّرُ به في وجهه (٣) ، ولا تخفِضُ منزلَتَهُ (٤) .

وهذا أمرٌ معلوم عند الناس ، مُستقرٌّ في فطَرِهم أنَّ مَن له أُلوفٌ من الحسناتِ فإنَّه يُسامَحُ بالسَّيئةِ والسَّيئتينِ ونحوها ، حتى إنَّه ليخْتَلِجُ داعي عقوبتِه على إساءَتِه ، وداعي شكرِه على إحسانِه ، فيغلبُ داعي الشكر لداعي العقوبةِ ، كما قيل (٥) :

وإذا الحَبيـبُ أتـى بذَنْـبٍ واحـدٍ      جـاءَت مَحَاسِنُـهُ بألـفِ شَفِيـعِ

وقال آخرُ (٦) :

فإنْ يكُنِ الفِعلُ الذي سـاءَ واحداً      فأفعالُــه اللَّاتــي سَـرَرْنَ كثيــرُ

والله سبحانه يـوازنُ يوم القيامــة بين حسنـاتِ العبـدِ وسيئاتِـه ، فايهما غلبَ كان التأثيرُ له ، فيفعلُ مع أهل الحسنات الكثيرةِ ، والذين آثروا محابَّهُ ومَراضيه ، وغلبتهم دواعي طبعهم أحياناً من العفو والمُسامَحة ما لا يفعلُه مع غيرهم .

/ وأيضاً ؛ فإنَّ العالِمَ إذا زلَّ فإنَّه يُحسن إسراعَ الفَيئةِ ، وتداركَ الفَارطِ ، ومُداواةَ الجرحِ [٩٠/أ]
فهو كالطبيب الحاذقِ البصيرِ بالمرضِ وأسبابِه وعلاجِه ، فإنَّ زواله على يده أسرعُ من زواله على يد الجاهل .

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٧) ، ومسلم (١٦٤) ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) قال تعالى عن إلقاء موسى عليه السلام الألواحَ ، وأخذه برأسِ هارون عليه السلام : ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٥٠] .

(٣) في : ص : ولا تُغبِّرُ به وجهَهُ .

(٤) ذكره المؤلف في مدارج السالكين (٣٢٨/١) عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

(٥) ذكره الصفدي في الوافي بالوفيات (٢٧٩/١٩) ، والتلمساني في نفح الطيب (٢٥/٦) ، واليوسي في زهر الأكم (٢٧٣/١) .

(٦) المتنبي ، ديوانه (١٢٨) ، وفيه " ألوف " مكان : كثير .

وأيضاً ؛ فإنَّ معه مِن معرفتِه بأمرِ الله وتصديقِه بوعدِه ووعيدِه ، وخشيتِه منه وإزْرَائِه على نفسِه بارتكابِه ، وإيمانه بأنَّ الله حرَّمَهُ ، وأنَّ له ربَّاً يغفرُ الذنبَ ويأخذُ بهِ ، إلى غيرِ ذلك من الأمور المَحبوبةِ للربِّ ما يغْمُرُ الذَّنبَ ، ويُضْعفُ اقتضاءَهُ ، ويُزيل أثرَه ، بخلاف الجاهل بذلك أو أكثرِهِ ؛ فإنَّه ليس معه إلا ظُلمةُ الخطيئةِ وقبْحُها وآثارها المُردِيةُ ، فلا سواءٌ هذا وهذا .

وهذا فصلُ الخطابِ في هذا الموضعِ وبه يتبين أنَّ الأمرينِ حقٌّ ، وأنَّه لا مُنافاةَ بينهما وأنَّ كلَّ واحد من العالِمِ والجاهل إنَّما زادَ قُبح الذنب منه على الآخر بسبب جهله وتجرُّد خطيئتِه عمَّا يقاوِمُها ، ويُضعف تأثيرَها ، ويُزيلُ أثرها ، فعاد القُبحُ في الموضعين إلى الجهل وما يستلزمُه ، وقلَّتُه وضعفُه إلى العلم وما يستلزمُه .

وهذا دليلٌ ظاهرٌ على شرفِ العلم وفضلِه ، وبالله التوفيق .

أنَّ العالم المشتغل بالعلم والتعليم لا يزال في عبادة

الوجهُ الحادي والخمسون بعد المئة : أنَّ العالِم المُشتغلَ بالعلم والتَّعليم لا يزالُ في عبادةٍ ، فنفسُ تعلُّمهِ وتعليمهِ عبادةٌ ، قال ابن مسعود رضي الله عنه (١) : " لا يزالُ الفقيه يُصلي " ، قالوا : وكيف يُصلي ؟ قال : " ذكرُ الله على قلبهِ ولسانِه " . ذكره ابن عبد البر (٢) .

وفي حديث معاذ رضي الله عنه (٣) مرفوعاً وموقوفاً : ( تعلموا العلم فإن تعلُّمَه لله خشيةٌ ، وطلَبَهُ عبادةٌ ، ومُذاكرتَه تسبيحٌ ) وقد تقدَّمَ (٤) ، والصواب أنَّه موقوفٌ .

وذكر ابنُ عبد البر (٥) عن معاذٍ رضي الله عنه مرفوعاً : ( لأنْ تغدُوَ فتتعلَّمَ باباً من أبوابِ العلمِ خيرٌ لك من أن تُصلي مئةَ ركعةٍ ) ، وهذا لا يثبتُ رفعُه .

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص: ٨٧ .

(٢) في جامع بيان العلم وفضله (٢٣٢/١) ، وابن عبد البر تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٥.

(٣) تقدَّمت ترجمته ص: ٢٢٧ .

(٤) ص : ٢٢٧ و ٣٦٧ و ٣٧٢ .

(٥) في جامع بيان العلم وفضله (١٢٠/١) ، وفيه عن أبي ذر ، وليس عن معاذ رضي الله عنهما.

**وقال ابنُ وهبٍ [١] : " كنت عند مالكِ بن أنسٍ [٢] فحانت صلاةُ الظهرِ أو العصر ، وأنا أقرأ عليه ، وأنظر في العلم بين يديه ، فجمعتُ كُتُبي وقُمتُ لأركَعَ ، فقال لي مالكٌ : ما هذا ؟ فقلتُ : أقومُ إلى الصَّلاةِ ، فقال : إنَّ هذا لعَجَبٌ ! ما الذي قمتَ إليه أفضلَ من الذي كنت فيه إذا صحَّتْ فيه النِّيةُ " [٣].**

**وقال الربيع [٤] سمعتُ الشافعيَّ [٥] يقول : " طلب العلمِ أفضلُ من الصلاةِ النَّافلةِ " [٦] .**

**وقال سفيان الثوري [٧] : " ما من عملٍ أفضلُ من طلب العلم إذا صحَّت فيه النِّيةُ " [٨] .**

**وقال رجلٌ للمعافى بن عِمران [٩] : " أيُّما أحبُّ إليك ؛ أقومُ أُصلِّي الليلَ كلَّه ، أو أكتبَ الحديثَ ؟ فقال : حديثٌ تكتُبه أحبُّ إليَّ من قيامك مِن أولِ الليلِ إلى آخره " [١٠] .**

**وقال أيضاً [١١] : "كتابةُ حديثٍ واحدٍ أحبُّ إليَّ من قيامِ ليلةٍ " .**

**وقال ابن عباس رضي الله عنه [١٢] " تذاكرُ العلمِ بعضَ ليلةٍ أحبُّ إليَّ من إحيائها " [١٣] .**

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٣٧١ .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٨ .

(٣) تقدَّم ص : ٣٧١ .

(٤) الرَّبيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المُرَادي . مولاهم . المصري ، صاحبُ الإمام الشافعي ، وهو الذي روى أكثر كتبه ، توفي عام : ٢٧٠ هـ . وفيات الأعيان لابن خلكان (٣٣٠/١) ، وطبقات الشافعية للسبكي (١٣١/٢)

(٥) تقدَّمت ترجمته ص : ١١٣ .

(٦) تقدَّم ص : ٣٦٨ .

(٧) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٤٩ .

(٨) تقدَّم ص : ٣٦٨ .

(٩) المُعافَى بن عِمران بن نُفَيل بن جابر بن جَبَلَة ، أبو مسعود الأزدي الموصلي ، قال عنه سفيان الثوري : ياقوتة العلماء ، توفي عام : ١٨٥ هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (٤٨٧/٧) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٨٠/٩) .

(١٠) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١١٩/١) .

(١١) رواه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (٨٤) .

(١٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٨٧ .

(١٣) تقدَّم ص : ٣٧٥ ، عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهم .

وفي " مسائلِ إسحاقَ بن منصورٍ " [١] قلت لأحمد بن حنبل [٢] : قوله : " تذاكُرُ العلم بعضُ ليلةٍ أحبُّ إليَّ من إحيائها " ، أيَّ عِلمٍ أراد ؟ قال : هو العلمُ الذي ينتَفعُ به الناسُ في أمرِ دينهم ، قلت : في الوضوءِ ، والصلاة ، والصوم ، والحج ، والطَّلاقِ ، ونحوِ هذا ؟ قال : نعم .

قال إسحاق : وقال لي إسحاق بن راهَوَيْه [٣] : هو كما قال أحمد [٤] .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه [٥] : " لأنْ أجلسَ ساعةً فأتفقَّهَ في ديني أحبُّ إليَّ من إحياءِ ليلةٍ إلى الصَّباحِ " [٦] .

وذكرَ ابنُ عبد البر [٧] من حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه : ( لكلِّ شيءٍ عمادٌ وعِمادُ هذا الدينِ الفقهُ ، وما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أفضلَ من فقهٍ في الدينِ ) الحديث ، وقد تقدَّمَ [٨] .

وقال محمد بن علي الباقر [٩] : " عالِمٌ يُنتفعُ بعلمه أفضلُ من ألفِ عابدٍ " [١٠] .

وقال أيضاً : " روايةُ الحديث وبثُّه في الناس أفضلُ من عبادةِ ألفِ عابدٍ " [١١] .

---

(١) (٦/٤٦٥٢ – ٤٦٥٣) . إسحاق بن منصور بن بَهرام التَّميمي ، أبو يعقوب المروزي ، المعروف بالكَوْسَج دوَّن المسائل عن الإمام أحمد ، توفي عام : ٢٥١ هـ . طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١/١١٢) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٢/٢٥٨) .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ١١١.

(٣) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحَنْظَلي التَّميمي المَروزي ، أبو يعقوب ابن راهَوَيْه ، عالم خراسان في عصره ، قال الخطيب البغدادي : " مِن أعلام الدين ، اجتمع له الحديث ، والفقه ، والحفظ ، والصدق ، والورع ، والزهد " توفي عام : ٢٣٧ هـ . تاريخ بغداد للخطيب (٦/٣٤٥) ، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢/٨٣) .

(٤) مسائل إسحاق (٩/٤٦٥٤) .

(٥) تقدَّمت ترجمته : ٥٨ .

(٦) تقدَّمَ ص : ٢٢٣.

(٧) تقدَّمت ترجمته : ٢٠٥.

(٨) ص : ٢٢٣ .

(٩) محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القُرشي ، أبو جعفر الباقر ، العابد الزاهد ، توفي عام : ١١٤ هـ . تذكرة الحفاظ للذهبي (١/٩٣) ، والبداية والنهاية لابن كثير (٩/٣٣٨) .

(١٠) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣/١٨٣) .

(١١) ذكره ابن عبد البر عن جعفر بن محمد في جامع بيان العلم وفضله (١/١٢٧) .

ولـمَّا كان طلبُ العلم والبحثُ عنه ، وكتابتُه والتَّفتيشُ عليه من عملِ القلبِ والجوارح كان من أفضلِ الأعمال ، ومنزلتُه من عمل الجوارحِ كمنزلةِ أعمال القلب من الإخلاصِ والتوكلِ ، والمحبَّةِ ، والإنابةِ ، والخشيةِ ، والرِّضا ، ونحوِها من الأعمال الظاهرةِ .

العلم وسيلة إلى العمل والعمل هو الغاية ومعلوم أن الغاية أشرف من الوسيلة فكيف تفضَّل الوسائل على غاياتها ؟

فإنْ قيل : فالعلم إنَّما هو وسيلةٌ إلى العمل ، ومُرادٌ له ، والعملُ هو الغايةُ ، ومعلوم أنَّ الغايةَ أشرفُ من الوسيلةِ ، فكيف تفضَّلُ الوسائلُ على غاياتِها ؟

قيل : كلٌّ من العلمِ والعملِ ينقسمُ قسمين :

منه ما يكونُ وسيلةً .

ومنه ما يكون غايةً .

فليس العلمُ كلُّهُ وسيلةً مُرادةً لغيرها ؛ فإنَّ العلم بالله وأسمائه وصفاتِه هو أشرفُ العلوم على الإطلاقِ ، وهو مطلوبٌ لنفسه ، مُرادٌ لذاتِه ، قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ (١) ، فقد أخبر سبحانه انَّه خلق السموات والأرض ، ونزَّلَ الأمر بينهن ليُعْلِمَ عبادَه أنَّه بكلِّ شيءٍ عليمٌ ، وعلى كلِّ شيءٍ قديرٌ ، فهذا العلم هو غاية الخلقِ المَطلوبةُ .

وقال تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (٢) .

فالعلـمُ بوحـدانيتهِ تعالى ، وأنَّه لا إله إلا هو مطلوبٌ لذاتهِ ، وإن كان لا يُكتَفى به وحدَهُ ، بل لا بدَّ معه من عبادَتِه وحده لا شريك له ، فهما أمران مطلوبان لأنفُسِهما : أن يُعـرفَ الـرَّب تعالـى باسمائـه وصفاتـه وأفعالـه وأحكامـه ، وأن يُعبد بمُوجَبِها ومُقتَضاها ؛ فكما أنَّ عبادَته مطلوبةٌ مُرادةٌ لذاتِها ، فكذلك العلمُ به ومعرفتُهُ .

(١) الطلاق : ١٢ .

(٢) محمد : ١٩ .

وأيضاً ؛ فإنَّ العلم من أفضل أنواع العباداتِ كما تقدَّم تقريرُهُ (١) ، فهو متضمِّنٌ للغايةِ والوسيلةِ .

وقولُكم : " إنَّ العمل غايةٌ " ، إمَّا أن تريدوا به العمل الذي يدخلُ فيه عمل القلب والجوارحِ ، أو العملَ المُختصَّ بالجوارح فقط ! .

فإن أُريدَ الأولُ فهو حقٌّ ، وهو يدلُّ على أنَّ العلمَ غايةٌ مطلوبةٌ لأنَّه من أعمال القلب ، كما تقدَّمَ (٢) .

وإن أُريدَ به الثاني وهو عملُ الجوارحِ فقط ، فليس بصحيحٍ ؛ فإنَّ أعمال القلوبِ مقصودةٌ ومرادةٌ لذاتها ، بل في الحقيقة أعمال الجوارحِ وسيلةٌ مُرادةٌ لغيرها ؛ فإنَّ الثَّوابَ ، والعقابَ ، والمدحَ ، والذَّمَ ، وتوابِعَها هو للقلبِ أصلاً وللجوارحِ تبَعَاً ، وكذلك الأعمالُ المقصودةُ بها أولاً صلاحُ القلبِ واستقامَتُه ، وعبوديتُه لربِّه ومليكه ، وجُعلت أعمالُ الجوارحِ تابعةً لهذا المقصودِ مُرادةً له ، وإنْ كان كثيراً (٣) منها يُرادُ لأجلِ المصلحةِ المترتبةِ عليه ، فمِن أجلِها صلاحُ القلبِ وزكاؤُه وطهارتُه واستقامَتُه ، فعُلِمَ أنَّ الأعمالَ منها غايةٌ ، ومنها وسيلةٌ ، وأنَّ العلمَ كذلك .

وأيضاً ؛ فالعلمُ الذي هو وسيلةٌ إلى العمل فقط إذا تجرَّدَ عن العملِ لم ينتفع به صاحبُهُ فالعملُ أشرفُ منه .

وأمَّا العلمُ المقصودُ الذي تنشأُ ثمرتُه المطلوبةُ منه من نفسِه فهذا لا يُقالُ : إنَّ العملَ المُجردَ أشرفُ منه .

فكيف يكونُ مُجرَّدُ العبادةِ البدنيةِ أفضلَ من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكامهِ في خلقِه وأمرِه ، ومِن العلمِ بأعمالِ القلوب وآفاتِ النفوسِ والطُّرقِ / التي تُفسِدُ الأعمالَ [٩١/أ]
وتمنعُ وصولَها من القلب إلى الله ، والمسافات التي بين الأعمالِ والقلبِ ، وبين القلبَ

---

(١) ينظر ص : ٥٢٨ وما بعدها .

(٢) ينظر الصفحة السابقة .

(٣) في النسخ الخطية كلها منصوبة .

والـرَّبِّ تعالـى ، وبما تُقطعُ تلك المسافاتُ ، إلى غير ذلك من عِلمِ الإيمان وما يقوِّيه وما يُضْعِفُه ؟!

فكيف يقالُ : إنَّ مُجرَّدَ التَّعبدِ الظاهرِ بالجوارحِ أفضلُ من هذا العلم ؟

بل مَن قام بالأمرين فهو أكملُ ، وإذا كان في أحدهما فضْلٌ فَفَضْلُ هذا العلمِ خيرٌ من فضلِ العبادةِ ، فإذا كان في العبد فَضْلَةٌ عن الواجبِ كان صَرْفُها إلى العلم الموروثِ عن الأنبياءِ أفضلَ من صَرفها إلى مُجرَّدِ العبادةِ .

فهذا فصلُ الخطابِ في هذه المسألةِ ، والله أعلم .

قوله صلى الله عليه وسلم : إنما الدنيا لأربعة نفر ..

الـوجـه الثانـي والخمسـون بعد المئة : ما رواه الإمامُ أحمد [١] والتِّرمذيُّ [٢] من حديثِ أبي كَبشَةَ الأنْمَاريِّ [٣] ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( إنَّما الدُّنيا لأربعةِ نفَرٍ : عبدٍ رزقه الله مالاً وعلْمَاً فهو يتَّقِي في مالهِ ربَّه ، ويصلُ فيه رحِمَهُ ويعلمُ لله فيه حقَّاً ، فهذا بأحسنِ المنازلِ عند الله ، ورجلٌ آتاه الله علماً ولم يُؤتِه مالاً فهو يقولُ : لو أنَّ لي مالاً لعمِلتُ بعمل فلانٍ ، فهو بنِيَّتِه ، وهما في الأجرِ سواءٌ ورجلٌ آتاه الله مالاً ، ولم يُؤته علماً ، فهو يخبِطُ في مالهِ ، ولا يتَّقي فيه ربَّهُ ، ولا يصلُ فيه رحِمَهُ ، ولا يعلمُ لله فيه حقَّاً ، فهذا بأسوا المنازلِ عند الله ، ورجلٌ لم يُؤتِه الله مالاً ولا علماً ، فهـو يقول : لو أنَّ لي مالاً لعمِلتُ بعملِ فلانٍ ، فهو بنِيَّتِه ، وهما في الوِزرِ سواءٌ ) [٤] ، حديثٌ صحيحٌ ، صحَّحَه التِّرمذيُّ والحاكمُ ، وغيرُهما .

أقسام أهل الدنيا أربعة

فقسَّمَ النَّبي صلى الله عليه وسلم أهلَ الدنيا أربعةَ أقسامٍ :

ـ خيرُهم مَن أُوتي علماً ومالاً ، فهو مُحسنٌ إلى الناسِ وإلى نفسِه بعلمِه ومالِه .

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ١١١ .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٤ .

(٣) أبو كبشة الأنمَاري المَذْحِجِيُّ ، مختلف في اسمه ، قيل : سعيد بن عمر ، وقيل : عمرو بن سعيد ، وقيل : عُمير وقيل : عامر ، وقيل : سُليم ، له صحبة . الاستيعاب لابن عبد البر (١٧٣٩/٤) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٢٥٥/٦) .

(٤) رواه الترمذي (٢٣٢٥) ، وأحمد (٢٣٠/٤) ، وغيرهما ، وقال الترمذي : " هذا حديث حسن صحيح " ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٧٠/٢) .

ـ ويليه في المرتبةِ من أُوتي علماً ولم يؤتَ مالاً ، وإنْ كان أجرُهما سواءٌ ، فذلك إنَّما كان بالنِّيةِ ، وإلا فالمُنفقُ المُتصدقُ فوقَه بدرجةِ الإنفاقِ والصَّدقةِ ، والعالِمُ الذي لا مالَ له إنَّما ساوَاهُ في الأجرِ بالنِّيةِ الجازمةِ المُقترنِ بها مقدورُها ، وهو القولُ المُجرَّدُ .

ـ الثــالــث : من أُوتي مالاً ولم يُؤتَ علما ، فهذا أسوأُ الناسِ منزلةً عند الله ؛ لأنَّ مالَهُ طريقٌ إلى هلاكِه ، فلو عَدِمَهُ لكان خيراً له ؛ فإنَّه أُعطيَ به ما يتزوَّدُ به إلى الجنة [١] فجعلَهُ زاداً له إلى النار .

ـ الــرابــعُ : مَن لم يُؤتَ مالاً ولا علماً ، ومِن نيَّتِه أنَّه لو كان له مالٌ لعملَ فيه بمعصيةِ الله ؛ فهذا يلي الغنِيَّ الجاهلَ في المرتبةِ ، ويُساويه في الوِزرِ بنِيَّتِهِ الجازِمةِ المُقترنِ بها مُقدورُها ، وهو القولُ الذي لم يقدِرْ على غيره .

فقسَّم السُّعداءَ قسمين ، وجعلَ العلمَ والعملَ بمُوجَبِه سببُ سعادَتِهما ، وقسَّمَ الأشقياءَ قسمين ، وجعلَ الجهلَ وما يترتَّبُ عليه سببَ شقَاوتِهما ؛ فعادت السَّعادةُ بجُملتِها إلى العلمِ ومُوجَبهُ ، والشقاوةُ بجُملتِها إلى الجهلِ وثمَرَتِه .

من الآثار الواردة عن السلف في التفكر وفضله

الــوجـهُ الثــالــثُ والخمســون بعد المئة : ما ثبتَ عن بعضِ السلفِ أنَّه قال : " تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ ستينَ سنةً " [٢] .

وسال رجلٌ أمَّ الدَّرداءِ [٣] عن أبي الدرداءِ [٤] ـ بعد موتِه ـ عن عبادَتِه ؟ فقالت : " كان نهارَهُ أجمعَ في باديةِ الفِكرِ " [٥] .

(١) في : ص : أُعطيَ به ما يتزوَّدُ إلى الجنة .

(٢) رواه أبو الشيخ في العظمة (١/٢٩٩ – ٣٠٠) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال ابن الجوزي بعد أن ذكر الحديث : " هذا حديث لا يصح . وفي الإسناد كذَّابان " الموضوعات (٣/١٤٤) .

(٣) خَيْرَة بنت أبي حَدْرَد بن عمير الأسلمي ، يقال لها : أم الدرداء الكبرى تمييزا لها عن أم الدرداء الصغرى : هُجَيمة أو جُهَيْمَة الأوصابية الحِمْيريَّة . كانت من فضلاءِ النساءِ وعُقلائهن ، وذواتِ الرأي منهن ، مع العبادة والنسك . توفيت قبل أبي الدرداء بعامين : ٣٠ هـ . الاستيعاب لابن عبد البر (٤/١٩٣٥) ، والإصابة لابن حجر (٨/١٢٣).

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٦ .

(٥) رواه ابن المبارك في الزهد (٣٠٢) ، أحمد في الزهد (١١١) ، أبو الشيخ في العظمة (١/٣٠٣ و ٣٠٤) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/٢٠٨) .

**وقال الحسنُ [(١)] : " تفكُّر ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلة " [(٢)] .**

**وقال الفضيلُ [(٣)] : " التَّفكرُ مِرآةٌ تُريكَ حسناتِكَ وسيئاتِكَ " [(٤)] .**

**وقيل لإبراهيمَ [(٥)] : إنَّك تطيلُ الفكرةَ ؟ فقال : " الفكرةُ مُخُّ العقلِ " [(٦)] .**

**وكان سفيانُ بن عيينة [(٧)] كثيراً ما يتمثَّلُ [(٨)] :**

**إذا المَـــرءُ كانَت لـهُ فِكـرَةٌ ففِـــي كُـــلِّ شيءٍ لـه عبْـرَةٌ**

**وقال الحسنُ في قوله تعالى : ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾[(٩)]، قال : : " أمنعُهُم التَّفكرَ فيها " [(١٠)].**

**وقال بعضُ العارفين : " لو طالَعتْ قلوبُ المتقين بفِكْرِها إلى ما قُدِّرَ في حُجُبِ الغيبِ مِن خيرِ الآخرةِ ، لم يَصْفُ لهم في الدنيا عيْشٌ ، ولم تَقَرَّ لهم فيها عَينٌ " [(١١)] .**

**وقال الحـسـنُ [(١٢)] : " طـولُ الـوِحْـدَةِ أتَـمُّ للفِكـرةِ ، وطـولُ الفِكـرةِ دليـلٌ على**

---

(١) تقدَّمت ترجمته ص : ٩١ .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٩٠/٧) ، وأحمد في الزهد (٢٢٠) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٧١/٦) .

(٣) تقدَّمت ترجمته ص : ٢٠٥ .

(٤) رواه أبو الشيخ في العظمة (٢٢٧-٢٢٨) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١٠٩/٨) ، وقد ذكر المؤلف أن الأثر مروي عن الفضيل بن عياض ؛ لأنه نقل ذلك عن الغزالي في إحياء علوم الدين (٤٢٤/٤) ، وهذا وهم ، حيث في المصادر المذكورة : " عن الفضيل يقول : قال الحسن ... " .

(٥) إبراهيم الحربي ، تقدَّمت ترجمته ص : ٤٢٧ .

(٦) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠٩/٨).

(٧) تقدَّمت ترجمته ص : ٩٠ .

(٨) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٠٦/٧) ، وذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٤٢٤/٤) .

(٩) الأعراف : ١٤٦ .

(١٠) روي هذا عن السُّدي ، رواه ابن أبي حاتم في التفسير (١٥٦٧/٥) ، ورواه ابن جرير في تفسيره (٤٤٣/١٠) عن ابن جُريج ، وروي عن سفيان بن عيينة أنه قال في هذه الآية : " أنزعُ عنهم فَهْمَ القرانِ ؛ فأصرفُهم عن آياتي " رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٥٦٧/٥) ، وابن جرير في تفسيره (٤٤٣/١٠) وأبو الشيخ في العظمة (٣١٥) .

(١١) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٤٢٤/٤) ، عن امرأة كانت تسكن البادية ، قريبا من مكة .

(١٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٩١ .

**طريـقِ الجنةِ " [١] .**

**وقـال وهــب [٢] : " ما طـالَت فكـرةُ أحـدٍ قـطُّ إلا عَـلِمَ ، وما عَــلِمَ امـرؤٌ قـطُّ إلا عَمِـل " [٣] .**

**وقال عمرُ بن عبد العزيز [٤] : " الفِكرةُ فـي نِعَـمِ الله من أعظمِ العبـادةِ " [٥] .**

**وقال عبد الله بن المبارك [٦] لبعضِ أصحابِه وقد رآهُ مُفَكِراً : " أين بلغْتَ ؟ قال : الصـراطَ " [٧] .**

**وقال بِشْـرٌ [٨] : " لو فكَّـرَ الناسُ في عظَمةِ الله ما عَصَـوهُ " [٩] .**

**وقال ابن عبـاسٍ رضي الله عنهما : " ركعتانِ مُقتَصِـدتانِ في تَفكُّـرٍ خيرٌ مِن قيـامِ ليلةٍ بلا قلبٍ " [١٠] .**

**وقال أبو سليمان [١١] : " الفِكـرُ في الـدنيا حِجــابٌ عن الآخرةِ ، وعقُـوبةٌ لأهل الولايَةِ والفِكْـرَةُ في الآخـرةِ تُـورثُ الحِكمـةَ ، ويُحيي القلوبَ " [١٢] .**

---

(١) روي عن لقمان ، كما في إحياء علوم الدين (٤/٤٢٥) .

(٢) تقدَّمت ترجمته ص : ٩٢ .

(٣) رواه أبو الشيخ في العظمة (١/٣١٣) .

(٤) عمر بن عبد العزيز بن مراون بن الحكم بن أَبي العاص بن أُمَيَّة القُرشي الأُمَوِي ، الخليفة الأموي الصالح ، الزاهد العابد ، خامس الخلفاء الراشدين ، توفي عام : ١٠١ هـ . الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/٣٣٠) ، وحلية الأولياء لأبي نعيم (٥/٢٥٣) .

(٥) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء () ، وذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/٤٢٥) .

(٦) تقدَّمت ترجمته : ٢٤١ .

(٧) وهو سهل بن علي كما ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/٤٢٥) .

(٨) بشْر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطـاء المَروزيُّ ، أبو نصر الحافي ، العالم ، الزاهد ، الورع ، توفي عام : ٢٢٧ هـ

طبقات الصوفية للسلمي (٣٩) ، وحلية الأولياء لأبي نعيم (٨/٣٣٦) .

(٩) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/٣٣٧) .

(١٠) رواه ابن المبارك في الزهد (١/٩٧) و (١/٤٠٣) ، وأبو الشيخ في العظمة (٣٠٢) .

(١١) عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العَنْسِيُّ الدَّارَانِـيُّ ، ونسبته إلى " داريَّا " ، وهي قريةٌ من قرى دمشق ، زاهد عصره توفي عام : ٢١٥ هـ . طبقات الصوفية للسلمي (٧٥) ، وحلية الأولياء لأبي نعيم (٩/٢٥٤) .

(١٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/٢٧٨) ، وذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/٤٢٥) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : " التَّفكرُ في الخيرِ يدعو إلى العملِ به " (١) .

وقال الحسن (٢) : " إنَّ أهلَ العلم لم يزالوا يعودونَ بالذِّكرِ على الفِكْرِ ، والفِكْرِ على الذِّكْرِ ، ويُنَاطِقُون القلوبَ حتى نطَقَتْ بالحكمةِ " (٣) .

ومن كلامِ الشافعيِّ (٤) : " استعينوا على الكلامِ بالصَّمْت ، وعلى الاستنباطِ بالفِكْرَةِ " (٥) .

وهذا لأنَّ الفِكرةَ عملُ القلبِ ، والعبادةَ عملُ الجوارحِ ، والقلبُ أشرفُ من الجوارحِ ، فكان عملُهُ أشرفَ من عملِ الجَوارحِ .

وأيضاً ؛ فالتَّفكُّرُ يُوقِعُ صاحبَهُ من الإيمان على ما لا يُوقِعُ عليه العملُ المُجرَّدِ ؛ فإنَّ التَّفكُّرَ يُوجِبُ له من انكشافِ حقائقِ الأمورِ وظُهورِها له ، وتمييزِها في الخيرِ والشَّرِّ ومعرفةِ مفضُولِها من فاضِلِها ، وأقبَحِها من قبيحِها ، ومعرفةِ أسبابِها المُوصلةِ إليها ، وما يُقاومُ تلك الأسبابَ ويدفَعُ مُوجَبَها ، والتمييزِ بين ما ينبغي السَّعي في تحصيلهِ وبين ما ينبغي السَّعي في دفعِ أسبابِه ، والفَرقِ بين الوَهمِ والخيالِ المانعِ لأكثرِ النُّفوسِ من انتهازِ الفُرصِ بعد إمكانِها ، وبين السَّببِ المانعِ حقيقةً فيشتغلُ به دون الأول .

فما قطعَ العبدَ عن كمالهِ وفلاحهِ وسعادتهِ العاجِلةِ والآجلةِ قاطِعٌ أعظمُ من الوَهمِ الغالبِ على النفسِ ، والخيالِ الذي هو مَرْكَبُها ، بل بَحْرُها الذي لا تنفكُّ سابِحَةً فيه ، وإنَّما يُقطَعُ هذا العارضُ بفِكرةٍ صحيحةٍ ، وعزْمٍ صادقٍ يُميِّزُ به بين الوَهمِ والحقيقةِ .

وكذلك إذا فكَّرَ في عواقبِ الأمورِ ، وتجاوَزَ فكرُهُ مبَاديَها ؛ وضَعَها مَواضِعَها ، وعَلِمَ مَراتبَها .

فإذا وردَ عليه وارِدُ الذَّنبِ والشَّهوةِ ، فتجاوَزَ فكْرُهُ لذَّتَه ، وفرحَ النَّفسِ به إلى سوءِ عاقبَتِه وما يترتَّبُ عليه من الألمِ والحزنِ الذي لا يُقاوِمُ تلكَ اللذَّةَ والفَرحةَ .

---

(١) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/٤٢٥) .

(٢) الحسن البصري ، تقدَّمت ترجمته ص : ٩١ .

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/١٩) .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص : ١١٣ .

(٥) أورده الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/٤٢٥) .

ومَن فكَّرَ في ذلك فإنَّه لا يكادُ يُقْدِمُ عليه ، وكذلك إذا ورَدَ على قلبه وارِدُ الـرَّاحةِ والـدَّعَةِ والكسلِ والتَّـقاعُدِ عن مشقَّةِ الطاعاتِ وتعَبِهَا حتى عَبَرَ بفكرِه إلى ما يترتُّبُ عليه [1] من اللذَّاتِ والخَيراتِ والأفراحِ التي تنْغَمِرُ تلك الآلامُ التي في مَبَادِيها بالنِّسبةِ إلى كمـــالِ عـواقِبِها ، كلَّما غاصَ فكرُهُ في ذلك اشتـدَّ طلَبُهُ لها ، وسَهُل عليه معاناتُـها ، واستقبَلَها بنشاطٍ وقـوَّةٍ وعزيمَـةٍ .

وكذلك إذا فكَّرَ في مُنتهى ما يستعبِدُهُ من المال ، والجَاهِ ، والصُّورِ ، ونظرَ إلى غايةِ ذلك بعينِ فِكْرِهِ استحيى من عقْلِه ونفسِه أن يكون عبداً لذلك ، كما قيل [2]:

لـو فكَّـرَ العـاشِـقُ فـي مُـنْتَهى حُسْـنِ الـذي يَسْـبِيهِ لـمْ يَسْبِهِ

وكـــذلك إذا فكَّـــرَ في آخِـرِ الأطعمَةِ المُفْتَـخَـرَةِ التي تفانَتْ عليها نفـوسُ أشباهِ الأنعامِ ، وما يصيرُ أمـــرُها إليه عندَ خُـروجِها ارتفَعَتْ هِمَّتُه عن صـــرفِها إلى الاعتناءِ بها ، وجعلِهــا مَعبـُودَ قلبِه الذي إليه يتوجَّـــهُ ، وله يرضـــى ويغضـــبُ ، ويسعى ويكْدحُ ، ويُـوالي ويُعَـادي ، كما جاءَ في " المسند " [3] عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّـه قال : ( إنَّ الله جعلَ طعـامَ ابنِ آدمَ مِثلَ الدنيا ، وإنَّ قَزَّحَـهُ ومَلَـحَهُ فإنَّه يعلمُ إلى ما يصيرُ ) [4] ، أو كما قالَ صلى الله عليه وسلم .

فإذا وقَعَ فِكرُهُ على عاقبةِ ذلك ، وآخرِ أمـرِهِ ، وكانت نفسُهُ حُـرَّةً أبيَّـةً ربأَ بها أن يجعلَها عبداً لِـمَا آخرُهُ أنْتَنُ شيءٍ وأخبَثُهُ وأفحَشُهُ .

---

(١) في : د : ما يترتَّبُ عليها ، وفي :ص : ما ترتَّبَ عليه .

(٢) المتنبي في ديوانه (٤٧) .

(٣) رواه عبد الله في زوائد المسند (١٣٦/٥) ، وابن المبارك في الزهد (١٦٩/١ ، ١٧٠ ، ١٩٢) ، وابن أبي الدنيا في الجوع (١٠٧) ، وصححه ابن حبان في صحيحه (٤٧٦/٢) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٦١/١)

(٤) التَّقزِيحُ : هو التَّحْسِين ، يقال : قَزَحَ الحديثَ ، أي : زيَّنَه وجمَّله وتمَّمه . المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٥٦٤/٢) . قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (٥٨/٤) : " أي تَوْبَلَه من القِزْح وهو التابِلُ الذي يُطرح في القِدْر كالكمُّون والكُزْبرة ونحو ذلك . يقال : قَزحتُ القِدْر إذا ترَكْتُ فيها الأبَازِير . والمعنى : أنَّ المَطْعَم وإن تَكَلَّف الإنسان التَّنَوقَ في صنْعَته وتَطْييبه ؛ فإنَّه عائِدٌ إلى حالٍ يُكْرَه ويُسْتَقْذَر ؛ فكذلك الدينا المَحْرُوص على عِمارتها ونَظْم أسْبابها راجِعة إلى خَرابٍ وإدْبارٍ " .

# الخاتمة

## الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد :

فلقد منَّ الله عليّ بفضله وكرمه إذ وفقني لإتمام هذا البحث ، فلله وحده الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً .

وقد خرجت من هذا البحث بنتائج عدة منها ما يلي :

- أهمية البحث والتأليف في مسائل العقيدة ؛ إذ هي عماد الأعمال وأصلها حيث إنَّ قبول العمل متوقف على سلامة المعتقد ، ولم يؤت كثير من الناس إلا من هذا الباب ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ .
- أنَّ تعبُّدَ الله تعالى بمقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العليا من أجلِّ العبادات وأعظمها ، وقد رسَّخ المؤلف رحمه الله ذلك في كتابه هنا ، وفي سائر كتبه فلقد أظهر وجلّى الحكم والأسرار من إهباط أبينا آدم من الجنة .
- يظْهَرُ ذلك العلمُ الجمُّ للمؤلف رحمه الله وهو يستعرض أقوال العلماء في مسألة الجنة التي أُهبِطَ منها آدمُ عليه السلام ، حيث أطال فيها واستوعبها .
- أنَّ وجود العدو المتربص ، قد يكون دافعاً مُعيناً على الحذر منه ، والاستعداد له والاستعانة عليه بالقوي القادر الخالق سبحانه وتعالى .
- جاء هذا الكتاب بديعاً في تبيان أهمية العلم الشرعي ، وأنه أصل العلوم ومدارها وأن خيرية المرء في الحياة مرتبطة بطلبه للعلم .
- هذا الكتاب موردٌ غزير لمن أراد أن يصدر بأهمية العلم وفضله ، ومكانة حامليه في الدنيا والآخرة ، فلقد جمع المؤلفُ نفائسَ لا تكاد تُرى في مجموع غيره .
- العلم ركن العبادات ، وأساس الطاعات ؛ إذ كلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف ، وإليه أقرب ، وكلما ازداد معرفة ازداد حياء وخوفاً وحباً .

- أنَّ الجهلَ أصلُ كلِّ فساد ، فهو ظلمة بذاته ، وضلالٌ على صاحبه .
- أنَّ تخلُّفَ العمل عن العلم داء عضالٌ ، له أسباب كثيرة ، وقد عددها المؤلف هنا في كتابه .
- قد حوى الكتاب وصيةَ علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكُمَيل بن زياد ، وقد أسهب المؤلف رحمه الله في شرحها وبيانها بما قد لا يوجد في كتاب آخر .
- لمَّا كانت النفوس تميل إلى الأموال ، وسعة الرزق ، بيَّن المؤلف رحمه الله فضلَ العلم على المال من أربعين وجهاً .
- أنَّ مما يُرغِّبُ في العلم أنَّ الله سبحانه وتعالى جعل العلماء وكلاء وأمناء على دينه ووحيه ، وارتضاهم لحفظه ، والذَّبِّ عنه ، وهذا من أعظم الشرف وأسماه .
- أنَّ مَن كثرت حسناته واستفاضت ، يُحتمل منه ما لا يحتمل من غيره .
- أنَّ التَّفكُّرَ له ثمار عظيمة في الدنيا والآخرة ، وأنَّه يقود العبد إلى مزيد الطاعات وينتشله من مستنقع الذنوب والمعاصي ؛ وقد عقدَ المؤلف رحمه الله فصلا نفيساً في ذلك .

هذا والله المسؤول وحده أن يجعل هذا العمل لوجهه خالصاً ، وينفع به كاتبه وقارئه في الدنيا والآخرة ، إنه سميع الدعاء .

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .